

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد 1

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

فقراء

لمثل

حلاب ضعيف





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الأول

دوستوييفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

37/16

الهيئة العامة لكتابة الأمانة العامة	
رقم الترخيص	891.733
	P.O.
رقم التسجيل	٤٦٤٤٧

● الفقراء

891.733

● المثل

دوس

٩

● قلب ضعيف

٧١

دوسويفكس - الاعمال الكاملة

891.71092

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة الطبعة العربية الثانية

دوستوفسكي : معاصرنا

تصدر هذه الطبعة العربية الجديدة لأعمال دوستوفسكي الأدبية الكاملة بعد انقضاء مائة عام ونيّف على وفاة مؤلفها (١٨٢١ - ١٨٨١) الذي يعتبره نقّاد الأدب ومؤرّخوه واحداً من أعظم الروائيين الروس في القرن التاسع عشر. وغنيّ عن القول ان مترجم هذه الأعمال الكاملة، المرحوم الدكتور سامي الدروبي، كان رائداً في مجال تعريف القارئ العربي بروائع الأدب الروسي منذ ما يقارب الخمسين عاماً. ويعود الفضل في نشر الترجمات الأولى الى دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر في دمشق. ثم جاء صدور الأعمال الأدبية الكاملة في ١٩ مجلداً عن وزارة الثقافة في مصر عام ١٩٦٧ بالتعاون مع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ودار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة). وتأتي هذه الطبعة العربية الجديدة التي تقدّمها دار ابن رشد الى القارئ العربي لتؤكد على ضرورة الاهتمام بتراث الأدب العالمي عامّة، وعلى فائدة التعرّف عن كُتب الى روائع الأدب الروسي بنوع خاص. ويلاحظ القارئ اعتماد الناشرين منهج التسلسل الزمني في توزيع أعمال دوستوفسكي الأدبية على امتداد المجلّدات الكاملة. فالمجلّد الأول يضمّ باكورة النتاج الروائي لدوستوفسكي، وفي طليعته الرواية القصيرة الفقراء (١٨٤٦) التي اقترن صدورها بالنجاح السريع الذي أحرزه المؤلف الشاب، وجاء بمثابة مؤشّر على اهتمامه الباكر بالكتابة الأدبية والروائية. وفي العام نفسه صدرت رواية المثل (أو الظلّ) لتطرح إحدى المسائل التي يتناولها المؤلف في رواياته الكبرى (الجريمة والعقاب، الاخوة كارامازوف)، ونعني بها مسألة الصراع الداخلي بين الخير والشر.

ولقد جرت مراعاة مبدأ الترتيب التسلسلي الزمني في سائر مجلدات المجموعة
ولسنا بصدد تقديم نبذة عن حياة دوستوفسكي، أو تناول أعماله
بالدراسة في العمق. ولا تهدف هذه المقدمة الى تقسيم مراحل حياة
والأدبية، علماً بوجود الرابط الوثيق بين التجارب والمعاناة والهواجس
الوراثي من جهة وبين الأفكار والمثل والمعضلات والمعتقدات الـ
دوستوفسكي في رواياته وأضافها على شخصياته الروائية من جهة أنـ
نكتفي بتبنيه القارئ الى فكرة تستحوذ على دوستوفسكي وتتغلغل في
النفسي والروحي لشخصياته الروائية، وهي اعتقاده الراسخ بحاجة الإنسان
والتوبة والتكفير، وقناعته بأن الألم والعذاب والمعاناة تؤلّف سبيل الخلاص
بالنقد والباحثين الى اعتبار تلك الفكرة بمثابة الهاجس المسيطر على
دوستوفسكي وشخصياته الروائية، فأرسي بالتالي دعائم الفهم الديني لرا
وثمة ناحية تسترعي انتباه القارئ في رواية الجريمة والعقاب، مثلاً
تتجلّى براعة الروائي في تصوير الحياة الداخلية للمجرم، وفي التركيز
الجوانب السيكلوجية للجريمة، وعلى التناقضات التي تعصف بالذات
وتشحن الوعي المتنامي بحدوث شرخ أو انقسام يؤججه الصراع النفس
الشخص فيتجلّى على شاكلة ازدواج في الشخصية. وقد أدت هذه الـ
تبلور المنظور النفسي في فهم أعمال دوستوفسكي الأدبية، وإلى وضع ا
مصاف علماء النفس البشرية العظام.

ولا ينتمي دوستوفسكي الى مناخ القرن التاسع عشر فحسب.
معاصرنا من خلال أعماله الأدبية التي تظالنا بمعزل عن أبعادها الزمنية و
ففي مطلع شبابه ارتبط مع مجموعة من الثائرين السياسيين وأصحاب
والتطلعات الطوباوية. وحين اكتشفت السلطات القيصريّة أمر هذه
التأمريّة»، تعرّض دوستوفسكي للمحاكمة وصدر الحكم بإعدامه، ثمّ ص
القيصري بترجيله الى سيبيريا، حتّى أمضى خمس سنوات في الأشغال الش
يأت العفو النهائي إلاّ عام ١٨٥٩. وفي أواخر أيام حياته يبدو أن المدّ التمرديّ

في نفسه بعض الشيء ليفسح المجال أمام تراجع صوب التزعة المحافظة. وللقارئ أن يحسم في هذه المسألة من خلال مطالعته هذه الأعمال الأدبية الرائعة. لكن المنحى التمردي يظلّ طابعاً مميّزاً للشخصيات الروائية، ولا مناص من اعتباره في فهم أبعاده. ومما يجدر بقارئ دوستوفسكي تذكره على الدوام هو أن هذا الروائي العظيم سبّر أعماق النفس البشرية وأفلح في كشف التناقضات التي تعصف بنفوس البشر وتستحوذ على أرواحهم وشخصياتهم. فقد سبق نيتشه إلى القول ان دوستوفسكي هو «عالم النفس الأوحده الذي تعلّم منه شيئاً». وجاء الروائي النمساوي ستيفان تسفايغ ليؤكد «إن دوستوفسكي هو أول إنسان أعطانا فكرة عن الناس الذين هم نحن...». وفي إحدى رسائله كتب فيودور دوستوفسكي يقول، في غمرة شعور بالاعتزاز وإحساس بالذنب واتهام الذات: «لقد تجاوزت الحدود في كل شيء، في كل شيء»!

وبشيء من مشاعر التجاوز الروحي والنفسي المطمئن نرّف هذه الأعمال الأدبية الكاملة إلى القارئ العربي في حلّة طباعية جديدة. ونرى ان صدورها، برغم الظروف الصعبة، قد جاء في الوقت المناسب واللحظة الحاسمة.

د. أسعد رزّوق

بيروت ٢٣ آذار (مارس) ١٩٨٥

مقدمة الطبعة العربية الأولى

الأعمال دوستوفسكى الأدبية الكاملة

بنشر أعمال دوستوفسكى الأدبية الكاملة ، تفتتح دار الكاتب العربى عهدا جديدا فى تاريخ النشر باللغة العربية . ان بين خالقى التراث الانسانى قمما يجب ان تنقل آثارها الى اللغة العربية كاملة ، وأن تنقل نقلا يتصف بالأمانة والدقة مثلما يتصف بنصاعة البيان ونقاء الأداء ، لتجىء الترجمة صورة تمثل الأصل تمثيلا صادقا ، ولتكون بذلك ترجمة أخيرة إليها يرجع وعليها يعتمد ، فلا حاجة بعد ذلك الى إعادة ترجمتها ، كلها أو بعضها ، مرة بعد مرة ، فى هذا القطر أو ذاك من اقطار الأمة العربية . واذا كانت الترجمة المثلى هى التى تنقل عن لغة الكاتب راسا بغير وسيط من لغة أخرى ، فليس بين أصحاب الاقلام فى الوطن العربى الآن من يملك ناصية اللغة الروسية الى الحد الذى يكفل نقل عيون آثار الفكر الروسى عن اللغة الروسية بلسان عربى مبين ، فكان لابد من لغة أخرى يتم النقل عنها وسيطا بيننا وبين تلك اللغة . وكانت اللغة الفرنسية هى ذلك الوسيط الذى اعتمده المترجم فى نقل أعمال دوستوفسكى الأدبية التى نقدمها الآن . ونحن نحسب مع ذلك أن الترجمة العربية تملك من مزيته كمال الأمانة وجمال البيان ما يجعلها خليقة بان تعد نهائية ، ونحسب ان الكاتب العربى الذى سيجىء فى المستقبل مؤهلا باتقان اللغتين الروسية والعربية لنقل امهات كتب الأدب الروسى سيسمعر حين يضاهى بين هذه الترجمة وبين الأصل الروسى ، أنه ليس عليه أن يعيد الترجمة ، وأنه لا يحتاج الى أكثر من تنقيحات يسيرة يجرى بها قلمه على كلمة هنا أو جملة هناك . ذلك أن الترجمة التى نقدمها الآن قد كان الوسيط بين صاحبها وبين الأصل الروسى ترجمات فرنسية اختارها الكسندروف سولوفييف ، وتمت مراجعتها على الأصل الروسى فى الطبعة الروسية التى ظهرت سنة ١٨٨٩ فى اثنى عشر مجلدا ، وفى الطبعة

السوفياتية التي ظهرت بين ١٩٥٦ و ١٩٥٨ في عشر مجلدات ، وتم تنقيحها وتصحيحها على ماتقتضيه الأمانة والدقة والمقدرة التي يتصف بها استاذ من كبار أساتذة الأدب الروسى فى العالم ، مثل سولوفييف ، الاستاذ بجامعة جنيف ، متعاوناً فى هذا العمل مع عالم من أبرز علماء الأدب والنقد هو جورج هالداس . ولقد ظهرت الترجمة الفرنسية فى ستة عشر مجلداً عن دار النشر السويسرية (Rencontres) ، مصدرة بنسبة عن حياة دوستوفسكى اعتمدها المترجم ولكنة لم يقتصر عليها ولا تقيد بها كاملة ، وكذلك فيما يتصل بالمقدمات التي تمهد لكل عمل من الأعمال فى صدر كل مجلد . وقد رأى سولوفييف ان يتقيد بالطبعة السوفياتية التي صدرت فى عامى ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، فاقترنت طبعته الفرنسية على « الأعمال الأدبية » ، لذلك لم ينشر من « يوميات كاتب » ، وهى مجموعة شتى من المقالات والكتابات ، الا ما هو أدب ، الا ما هو حكايات وأقاصيص ، مثل «بوبوك» و «الفلاح ماري» وغيرهما ، وكذلك لم ينشر « الدفاتر » التي تتضمن ما كان يخطه قلم دوستوفسكى اعداداً لكتابة أعماله المختلفة ، ولا نشر رسائل دوستوفسكى . ولكن المجلد التاسع عشر من الطبعة العربية التي ستشرها دار « الكاتب العربى » تباعاً ، سيشتمل على مختارات من رسائل دوستوفسكى ، وانما جاء الحصر على نشر مختارات من هذه الرسائل ، لما لها من قيمة أدبية أولاً ، ولأنها تلقى أضواء على مؤلفات دوستوفسكى ثانياً ، ولأنها بعد هذا وذلك تسجل أطرافاً من حياة دوستوفسكى الحافلة وترسم صورة لشخصيته الفنية ، وترتبط بأعماله أنواعاً من الارتباط على كل حال .

وتتسلسل أعمال دوستوفسكى الأدبية فى مجلدات هذه الطبعة العربية تسلسل ظهورها فى الزمان ، الا فى مواضع قليلة من المجلدات الأولى ، وذلك تغيير طفيف فى التسلسل الزمنى أملتة ضرورة اخراج المجلدات فى حجوم متساوية ما أمكن التساوى . غير أن تاريخ ظهور كل عمل من أعمال دوستوفسكى مذكور تحت كل عنوان . فبذلك يتاح يتاح للقارئ أن يتتبع مراحل النمو والنضج فى شخصية دوستوفسكى ابتداءً من أولى مبدعات شبابه « الفقراء » (١٨٤٦) وانتهاء بروايته الكبرى الأخيرة التي هى قمة انتاجه عمقا وقوة وكمالاً : « الأخوة كارامازوف » .

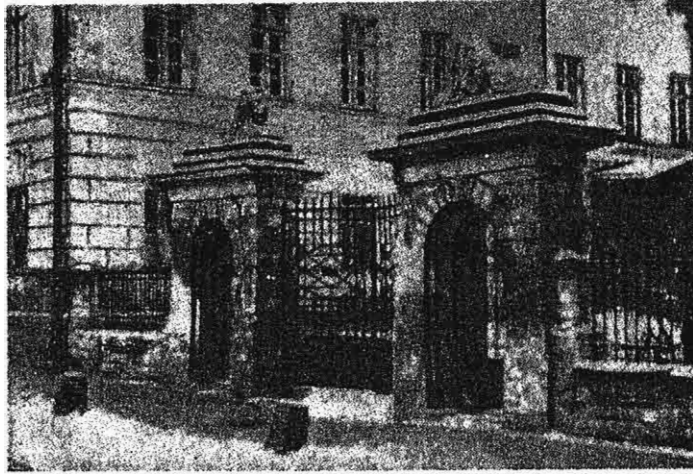
دار الكاتب العربى

حياة ووفيساي

١٨٨١ - ١٨٢١



فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكى بوسكو في
٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٢١ ، ومات
بسان بطرسبرج في ٢٨ كانون الثاني (يناير)
سنة ١٨٨١ . ولعل الظروف التي رأى فيها النور
جديرة بأن تعد رمزا . فلقد جاء الى هذا العالم في
مسكن صغير بمستشفى مريم الذي كان أبوه يعمل فيه طبيبا ، فكان القدر قد
أراد له منذ خطأ في الحياة أولى خطواته أن يكون مكانه بين الفقراء والمرضى



المستشفى الذي ولد فيه دوستويفسكى بوسكو

والمعذبين . لقد فتح عينيه على عالم لا فرح فيه ولا بهجة ، في جو تملؤه رائحة
الأدوية ، بين أرجاء يسير فيها البشر عرجا أو كتعا أو عورا . أو يرقدون
على أسرة حجراتها البائسة مهزولين مصدورين . وكانت أمه امرأة حزينة
قلقة متطيرة تضنيها الهواجس وترهبها فنول الشؤم . وكان أبوه امرءا

مستبدا طاغية جهم المزاج ، شرس الطبع ، قاسيا خاشنا ، بخيلا شحيحا ، يفرض سلطانه على من في المنزل باللسان السليط والقول الهاجر والسباب الجارح والصياح الحائق ، ولا ينى يتذمر من كثرة النفقات ، مرددا على مسامع أفراد الأسرة أنهم أناس فقراء فعليهم أن يقتصدوا ما أمكن الاقتصاد.



أبوه

وكان علي الصبي دوستويفسكى أن يخطو خطواته الأولى في التعلم والدرس خاضعا لهذا الأب ، قارئا عليه متعلما منه ، فكان يكرمه في سره ، وكانت صرخات الأب الغاضب تلاحقه حتى في أحلامه ، ولعل الصبي كان يتمنى لأبيه الموت في قرارة نفسه على غير شعور . ولكن الأب كان في مقابل ذلك على جانب من ثقافة ، فكان يحلو له أن يقرأ لأولاده صفحات من عيون الأدب ، وكان يحب أن يقرأ لهم آثار بوشكين خاصة . واستطاع الأب بالتوفير والاقتصاد أن يحقق حلما من أحلامه فاشترى أرضا بمقاطعة تولا ، مساحتها خمسمائة هكتار وأقنانها ثمانون . فكانت أيام الاجازات التي تقضيها الأسرة بالريف سعادة كبرى للولاد . هنالك انما تعلم فيديا (فيدور) حب الفلاحين والارض ، وبقيت له من ذلك ذكرى مضيئة أودعها قصته القصيرة « الفلاح ماراي » . وفي عام ١٨٣٣ عهد الأب بفيدور وأخيه ميشيل (وهما أكبر أولاد الطبيب) الى معلم فرنسي اسمه سوشمار ، ثم

عهد بهما بعد سنة من ذلك الى مدرسة داخلية يديرها رجل تشيكي اسمه
تشرمان ، وهي مدرسة يسودها جو عائلي ، وتدرس فيها اللغات والآداب ،
فكان شيلر ووالتر سكوت وديكنز هم الكتّاب الأثريين على قلب فيديا
خلال سنين ، حتى لقد أخذ ينظم أبياتا من الشعر سرا في أثناء ذلك .



أمه

فلما جاء الصيف من عام ١٨٣٦ ، مرضت أم دوستوفسكي مرضا
خطيرا فماتت بالسل في السابع والعشرين من شهر شباط (فبراير)
سنة ١٨٣٧ بعد مقتل الشاعر الكبير بوشكين بشهر واحد ، فكان للحادثين
أثر عميق في نفس الفتى دوستوفسكي الذي كان يحب أمه جدا رقيقا
حنونا ، وكان يعبد الشاعر العظيم عبادة .

كذلك تحطم العرش العائلي بوفاة الأم ، فانحدر الأب الى هوة اليأس
وأدمن على الشراب وأخذ يفكر في ترك عمله ، والاعتكاف بعيدا في أرضه .
وما هي الا فترة قصيرة حتى أرسل ابنيه الى سان بطرسبرج ليلتحقا
بمدرسة الهندسة الحربية ، فأما فيدور فقد نجح في امتحان القبول بعد
الاستعداد له ستة أشهر ، وأما ميشيل فلم يفلح ، بسبب سوء صحته ،
فمضى الى ريفيل ينتسب هنالك الى ملحق يتبع « مدرسة الهندسة » .
هذا هو الفتى دوستوفسكي الذي لما يتجاوز السادسة عشرة من

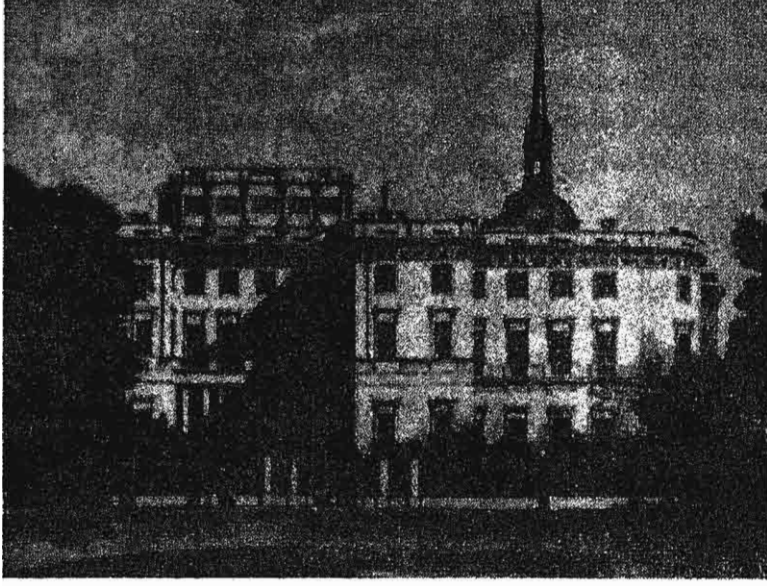
عمره يعيش اذن وحده فى مدرسة عسكرية داخلية تفرض عليه حياة قاسية لا يطيقها مزاجه الفنى ، وتلزمه بدراسة صعبة لا تتفق وأذواقه الادبية .

ويجد الفتى فى دراسته ويكد ، ولكن عالم الفتون يظل هو العالم الذى يخلو اليه سرا ، وها هو ذا يكتب الى أخيه قائلا « الحياة هنا كريهة مقية . لا جمال عندي الا فيما هو مبرأ من اسفاف المادة وسعادة الارض » وهو يقبل على القراءة شرها نهما ، ويؤلف حلقة من الرفاق تسنى بالشعر والادب تقرأ شيلر وهوفمان وبالزك وجورج صاند وفكتور هوجو ، وتعتقد أواصر صداقة بينه وبين جريجوريوفتش الذى سيصبح كاتباً شهيراً بعد قليل ، وتنشأ صداقة أخرى بينه وبين موظف شاب اسمه ايفان شيدلوفسكى ، وهو شاعر مثالى كان عاكفا على كتابة تاريخ للكنيسة . لقد كتب دوستويفسكى بعد ذلك يقول « ان معرفتى بشيدلوفسكى هيأت لى ساعات اعداها من اجمل ساعات عمرى » .

وفى أثناء ذلك أحال الدكتور دوستويفسكى نفسه على التقاعد ، ومضى يعتكف فى أرضه مع بنتيه الصغيرتين ، (احدهما فى الثامنة من عمرها والاخرى فى الثانية) ، واستمر الارمل المعتزل يدمن هنالك على الشراب الى ان غدا من ذلك صاحب هواجس وهذيان ، وكان يسىء معاملة أقنانه ، فيثير حفاظهم ويخرجهم عن أطوارهم ، فما انقضت سنتان حتى وجد قتيلاً فى الحقول عام ١٨٣٩ ، قد أجهز عليه نفر من الفلاحين كان يهددهم بجلدهم بالسياط ، وكتمت الفضيحة ، فلم يعاقب الجناة .

فهذه اذن مأساة أخرى هزت نفس الفتى هزا قويا ، صحيح أنه كان لا يطيق اسراف أبيه فى الشراب ، وامعانه فى الفجور ، وكان يأخذ عليه خشموته وقسوته وجبروته ، وكان يمقت فيه بخله وشحه خاصة ، فما أكثر ما كان الفتى يحتاج الى قليل من المال يضمن به عليه أبوه ويمنع عنه . صحيح أن الفتى كان يحقد على أبيه لهذه الأسباب كلها ، وأن الرسائل التى كانا يتبادلانها كانت تفيض مرارة وعنفا ، وأنه كان فى قرارة نفسه يكرهه حقاً ، ولكن هذا بعينه هو ما هز نفس الشاب هزا قويا فلقد أحس حين قتل أبوه أنه كان مجرماً فى حق أبيه : ألم يحمل له بغضا وسخيمة ؟ ألم يتمن له الموت ؟ انه يتحمل اذن تبعاً مقتله . . . انه هو الذى قتله ، ولكن لا بيديه بل بأيدي الفلاحين .

قضى دوستويفسكى أربع سنين ونصفاً في « مدرسة الهندسة »
تخرج بعدها مهندساً برتبة ملازم ثان في صيف عام ١٨٤٢ ، فألحق بمكتب
المهندسين في دائرة الهندسة بالعاصمة .



مدرسة الهندسة

وأصاب المهندس الشاب حظاً من ثروة ، وكان صهره ، زوج
اخته الكبرى ، الوصى على الأسرة ، يمدّه بشيء من المال من حين إلى حين ،
ولكن الضابط الشاب مبذر متلاف ، وهو إلى هذا يتعاطى القمار فيخسر
مبالغ طائلة ، وهو يستدين تارة ، ويسرق تارة أخرى . فما يشارف
الشهر على نهايته الا ويكون خالي الوفاض لا يجد ما يتبلغ به من جوع ،
وهو يختلف إلى المسارح وحفلات الموسيقى ، بل هو يتردد على منسازل
مشبوهة قدرة يعقد فيها صلوات مع سكارى ضائعين ، ولكن شغفه بالأدب
وانصرافه إليه يزدادان أثناء ذلك يوماً بعد يوم . حتى لقد كتب مسرحيتين
لم تصلا إلينا ، منذ كان طالباً في مدرسة الهندسة : « ماري ستيوارت »
و « بوريس جودونوف » ، تقليداً ومحاكاةً للكاتبين اللذين يؤثرهما على
سائر الكتاب : شيلر وبوشكين .

فلما هبط بالزك سان بطرسبرج ، وكان دوستويفسكى يقدره كثيرا ، أسرع يترجم كتابه « أوجينه جرانديه » ترجمة عجلية ، اختصر الناشر ثلثها عدا ذلك ، وكان دوستويفسكى يتمنى فى الوقت نفسه أن ينشر ترجمة كاملة لآثار شيللر .

ويضيق دوستويفسكى ذرعا بعمله ضابطا مهندسا ، فيقرر عام ١٨٤٤ أن يستقيل رغم أنه مثقل بالديون . وفى ذلك الأوان انما التقى برفيقه القديم جريجوريوفتش الذى كان قد بدأ حياته الأدبية كاتباً واقعياً ناجحاً . فاستأجر الصديقان منزلاً أقاما فيه معا ، وفى ذلك المنزل انما بدأ دوستويفسكى يكتب روايته الأولى « الفقراء » ، على غير علم من صديقه ، يعمل ليل نهار بحماسة شديدة واندفاع عظيم ، الى أن فرغ منها فى ذات مساء من شهر أيار (مايو) ١٨٤٥ ، فنادى صديقه وأطلعه على سره ، وأخذ يقرأ له روايته . ظل دوستويفسكى يقرأ فى نشوة تازجها خشية ، وظل جريجوريوفتش يصغى فى إعجاب يبلغ حد الذهول ، وفى حميا لا تدانيها حميا ، الى أن فرغا من القراءة فى ساعة متأخرة من الليل ، فاستولى جريجوريوفتش على المخطوطة . وحملها فى الغد الى نكراسوف ، الشاعر الوطنى ، الذى يتمتع بفكر عملي والذى كان قد أصبح مدير مجلة . لبث جريجوريوفتش الليل كله يقرأ الرواية على نكراسوف فلما انتهى الكاتبان من قراءتها فى نحو الساعة الرابعة من الفجر ، كانا قد بلغا ذروة الحماسة ، فقاما يقرعان باب دوستويفسكى فى تلك الساعة ويوقظانه من نومه ليهنئاه . كانت تلك اللحظة أجمل لحظة فى حياة دوستويفسكى ، لم تبسرح ذكرها خياله . وبعد ثلاثة أيام ذهب دوستويفسكى الى الناقد الشهير بيلنسكى الذى كان قد تلقى المخطوطة من نكراسوف ، فما رأى بيلنسكى المؤلف الشاب حتى هتف يقول له متحمسا : « أنت تفهم أيها الشاب ماذا كتبت » ؟ كان بيلنسكى يرى فى هذه الرواية أول محاولة فى كتابة رواية اجتماعية ، محاولة لا يقدر عليها ولا ينجح فيها الا فنان ، أى انسان لا يشعر بما سينشأ عنها ، ويترتب عليها .

ومنذ تلك اللحظة ، وحتى قبل أن تنشر الرواية ، طار صييت

دوستويفسكى وذاعت شهرته ، فالأوساط الأدبية تبعد عنه وتسعى اليه ، فيسبكر دوستويفسكى من المديح يكال له بغير حساب ، ومن النجاح

يحققه بهذه السرعة ، ومن آيات الصداقة يغمره بها كبار الكتاب ،
ويظهرها له الارستقراطيون من حماة الادباء ورعاة الفنانين في ذلك الزمان .
وتظهر الرواية أخيرا • ويكون دوستويفسكى عندئذ قد فرغ من كتابة
روايته الثانية « المثل » ، فلا تصيب هذه الرواية الثانية ما أصابته الرواية
الاولى من نجاح • فيسارع يكتب أعمالا أخرى ، ولكنه يسرف في التعجل ،
فينشر « الجارة » وأقاصيص أخرى تخيب ظن بيلنسكى وتخيب ظن أنصار
ظهور أدب « اجتماعى » يتجه الى الشعب ويفيد المجتمع • وأخذ الأدباء
الذين احتفوا بدوستويفسكى أشد الاحتفاء فى « الصالونات » الادبية ،
أخذوا يتندرون عليه ، ويسخرون من زهوه بنفسه ، ويضحكون على
خراقته ، ويشمتون بسقوط موهبته بل ويهزون بدمامة خلقه ، لم يبرأ
من هذا حتى نكراسوف وتورجينف ، فهما ينظمان قصيدة يهجون فيها
دوستويفسكى متفكهن هازئين • ويستبد الضجر والسأم والملل
بدوستويفسكى ، وتتكاثر ديونه وتتراكم ، ويتشرد متنقلا من مسكن الى
مسكن • ويبدل أصدقاءه واحدا بعد آخر ، وتنتابه « أهوال غيبية »
ومخاوف غريبة ، ويخشى أن يفقد صوابه وأن ينتهى الى الجنون ، وتأخذ
نوبات الصرعة توافيه منذ ذلك الحين ، وكان قد صار الى الإلحاد بتأثير
صديقه بيلنسكى ، فما هو ذا يحاول أن يسرى عن نفسه بالاختلاف الى
اجتماعات « الجمعة » التى كان ينظمها بتراشفسكى ، الموظف الشاب
بوزارة الخارجية ، وهو رجل مثقف كان يجمع اصداقاء ليتحدثوا فى
السياسة والاشتراكية وهم يحتسون الشاي ويدخنون الغليون ، ويقراون
الى ذلك كتباً منعت الرقابة تداولها •

على هذا انقضت من حياة دوستويفسكى سنة ١٨٤٨ كلها • وفى
تلك الاثناء تشب ثورة شباط (فبراير) فتقلب عرش الأورليستان ،
ويترجع صداها قويا فى ألمانيا والنمسا والمجر ، ويلقى باكونين خطبا
نارية فى المؤتمر السلافى بمدينة براغ ، وتهب المجر فتنادى بالجمهورية
فيقرر نيقولا الاول أن يتدخل فى المجر دعما لعرش فرانسوا جوزيف ،
الذى أخذ يترنج وأوشك أن يتداعى •

وهذا جاسوس يقال له أنتونيللى يشى بحلقة بتراشفسكى ، واصفا
أعضاءها بأنهم شيوعيون يحملون باقامة مجتمع اشتراكى كالذى نادى به
فورييه ، وبأنهم أناس مهوسون يهيئون لاضطرابات ومجازر ومذابح
سياسية ، وبأنهم أقاموا حفلة عشاء تكريما للاشتراكى فورييه قال فيها

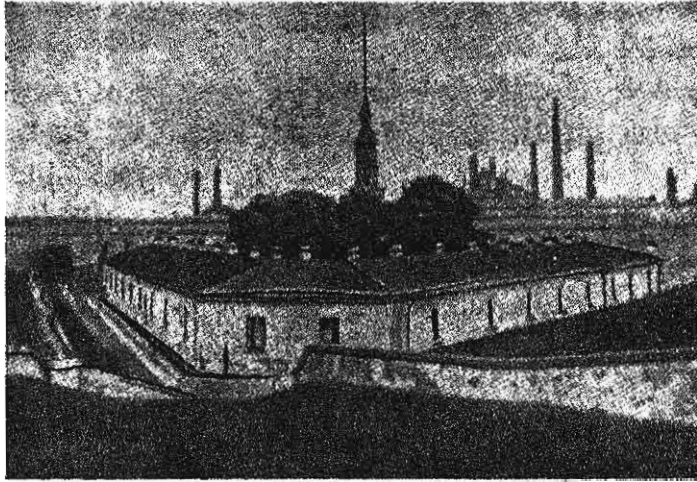
بتراشفسكى : « لقد حكمنا بالموت على المجتمع الحالى ، فيجب علينا الآن أن
تنفذ الحكم » • فيقرر نيقولا الاول أن القضية خطيرة ويقول : « هب الامر
كله لا يعدو أن يكون كلاما وثرثرة ، فانه يظل جريمة لا تغتفر » • فيجب
أن تظل الامبراطورية الروسية صخرة لا تتزعزع ، تتكسر عليها أمواج
الثورة التي تهدر في الغرب ، ولا بد اذن من انزال العقوبة في هؤلاء
المجانين الذين يتحدثون عن ثورة تقوم في روسيا •



دوستويفسكى في السادسة والعشرين من عمره

فلما جاء فجر ليلة الثانى والعشرين من نيسان (أبريل) ١٨٤٩ ،
قرع باب منزل دوستويفسكى من جديد ، ولكن القارع اليوم ليس رسولا

يحمل اليه نبوءة المجد والشهرة ، بل نفر من رجال الدرك يقودونه مكبلا بالاغلال الى قلعة بتروبافلوفسكايا (القديس بطرس وبولس) • لقد اقتيد الى هذه القلعة ثلاثة وأربعون شخصا وضعوا في زنزانات منفردة • وانقضت على سجنهم هناك ثمانية أشهر قاسية ، لم يسمح للسجناء خلالها بالقراءة والكتابة الا في شهر تموز (يوليو) ، وعندئذ انما كتب دوستويفسكى قصته المشرقة الوضاعة (البطل الصغير) • ولم يمثل دوستويفسكى أمام المحكمة الا في تشرين الاول (أكتوبر) وكانت التهمة الموجهة اليه أنه قرأ على جمهور من الناس الرسالة الحادة العنيفة التي وجهها بيلنسكى الى جوجول وفيها « يشتم الكنيسة الارثوذكسية » والسلطة العليا » ، وانه حضر قراءة « قصة جندي » ، وهي قصة تدعو الى الثورة وتحض على العصيان والتمرد •



القلعة

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) أصدر « المجلس العام » حكمه بالاعدام على اثنين وعشرين شخصا ، على رأسهم بتراشفسكى ، وقرر الافراج عن الآخرين ، ولكن الحكم يقترح تخفيف هذه العقوبة وابدالها بعقوبة الاشغال الشاقة ، وقد وافق نيقولا الاول على هذا الاقتراح وعرض على الامبراطور أن تكون عقوبة دوستويفسكى ثمانية أعوام ، فعدل

الامبراطور الحكم بجعله «أربع سنين سجنًا وأربع سنين جنديّة في الجبهة» ولكن القرار ظل سرا مكتوما لم يذع في الناس ولم يطلع عليه احد . وقد شاء أولو الامر أن يتسلوا بتمثيل مسرحية هزلية أبطالها بل قل ضحاياها هؤلاء الاشقياء الذين صدر الحكم باعدامهم .

السجناء لا يعرفون عن مصيرهم شيئا . وهاهم اولاء يوقظون من نومهم في صبح الثاني والعشرين من شهر كانون الاول (ديسمبر) ، فيقادون بعربات الى ميدان سيمينوفسكايا ، ويتلى عليهم هناك قرار المحكمة بانزال عقوبة الموت فيهم . صعق دوستوفسكى ورفاقه لهذه العقوبة التي ليس لها ما يسوغها . وقام الجلادون فشدوا ثلاثة من المحكوم عليهم الى عمد أحكموا ربطهم بها ، واضطفت أمامهم مفرزة من الجنود سددت بناذقتها الى صدورهم وتأهبت لاطلاق النار . وهنا يصل أحد الضباط مسرعا يتلو القرار الجديد : يبدل حكم الاعدام بحكم بالاشغال الشاقة « رحمة ورافة من صاحب الجلالة الامبراطور » . لقد أراد نيقولا الاول أن يلقن الشبان الطائشين درساً لن ينسوه . ولقد ظل دوستوفسكى يذكر تلك اللحظات الرهيبة فعلا طوال حياته ، وقد استحضرت صورتها وأفاض في الكلام عليها في كتابه « الاهبل » .

في ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٤٨ أرسل السجناء مكبلي الأرجل بالأغلال الى سيبيريا على زلاقات ، فوصلوا الى توبولسك بعد ثمانية عشر يوما من السفر في جو بارد لا يطاق ، وهناك قابلتهم نسوة «ديسمبريات» هن منفيات متطوعات بطلات ، فأعطين كل واحد منهم انجيلا وقلبلا من المال .

ورحل دوستوفسكى الى أومسك يقضى في معتقلها أربع سنين في صحبة مئات من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وجلهم من القتلة (كان الحكم بالاعدام على جناة الحق العام قد ألغى في روسيا منذ سنة ١٧٤١) وكانت الاشغال شاقة حقا ، فعلى المعتقلين أن ينقلوا حجارة ، وان يسحقوا صخورا ، وان يكتسوا ثلوجا ، بينما كهوبهم ترسفت في الأغلال .

ودوستوفسكى يعمل مع العاملين لا يخلو الى نفسه ولا ينفرد ساعة فلا يستطيع أن يقرأ أو أن يكتب الا اذا أصابه مرض فأدخل المستشفى، وهو اذا قرأ أو كتب فعلى خفية وفي غفلة من الرقباء . وقد أثرت فيه هذه السنون الأربع الرهيبة تأثيرا قويا بل بدلته تبديلا عميقا ، قال في ذلك :

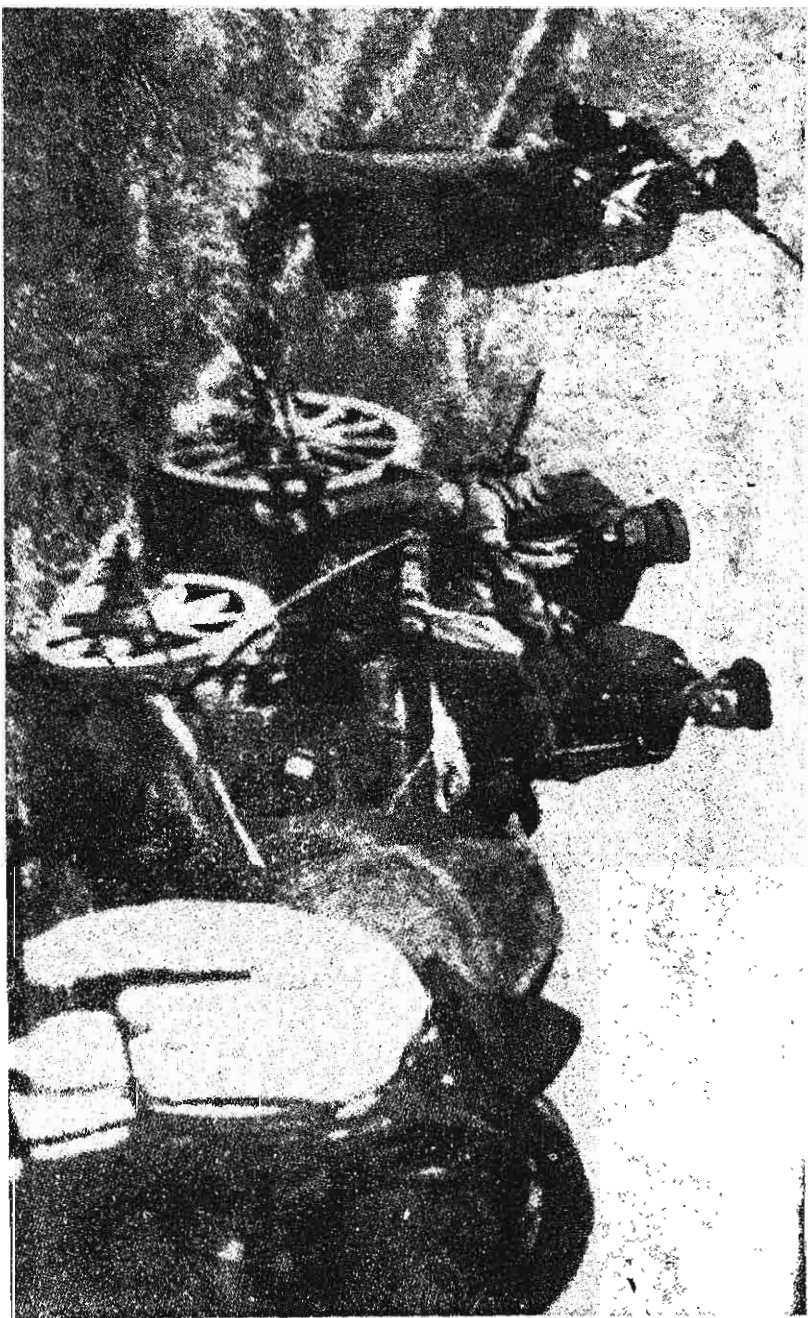
« المعتقل قتل فى نفسى أشياء كثيرة ، ولكنه فتح أشياء أخرى » ، فبعد ان كان اشتراكيا وبعد أن كان ملحدًا ، عاد مسيحيًا مؤمنًا ، وفيلسوفًا أخلاقيًا ، ينصرف باهتمامه الى مشكلة الجريمة ، والى الصراع بين الخير والشر فى كل نفس انسانية .

واطلق سراح دوستويفسكى فى اليوم الخامس عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٥٤ ، وأرسل على مراحل مع آخرين من قدماء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الى سيمييا لاتفسك التى تبعد عن أومسك مسافة سبعمائة كيلو متر ، ليصبح هنالك جنديًا فى لواء على الجبهة . الرحلة شاقة مرهقة ، ولكن الاغلال قد سقطت ، فدوستويفسكى يتنسم هواء الحرية بعض الشيء ويشعر بالسعادة . وبعد سفر دام قرابة شهر ، يصل دوستويفسكى الى تلك المدينة الشرقية التى يدين أهلها بالاسلام ويتناثر فيها موظفون وجند من الروس هنا وهناك . الخدمة العسكرية قاسية ، ولكن دوستويفسكى لا يتذمر ولا يشكو ، حتى لقد كتب الى أخيه يقول: « ذلك صليبي وقد استحقته » . وأمكن بفضل بعض الشفاعات فى أومسك أن يسمح له بالسكنى بالمدينة خارج الثكنة . فها هوذا يتمتع أخيرا بغرفة له ، له وحده ، فى كوخ بائس تقيم فيه أرملة أحد الجنود ، ولكنه يستطيع فيه أن يخلو الى نفسه وأن يقرأ ويكتب على ما يشاء له هواء . ان نفسه تفيض بالمشاعر ، وان رأسه يمتلئ بالمشايع ، وان به لظماً محرقة الى القراءة .

هوذا يكتب الى أخيه قائلاً : « ارسل الى مجلات ، ارسل الى كتب المؤرخين الكلاسيكيين (فى ترجمة فرنسية) ، والاقتصادين الجدد ، وآباء الكنيسة وتاريخ الكنيسة » . أرسل الى القرآن ، وكتاب كنت (نقد العقل المحض) وأرسل الى كتب هيجل حتماً ، ولا سيما كتابه - تاريخ الفلسفة - ان مستقبلي كله رهن بهذا » . ان دوستويفسكى يريد أن يتدارك الزمن الذى ضاع فى المعتقل ، وان يملأ ثغرات ثقافته ، ويريد أن يكتب أشياء جادة ذات شأن .

ولكنه يقول فى كثير من المرات « أمل أن يسمح لى بال نشر بعد ست سنين » . ولقد صدقت نبوءته : فما كان أصعب طريق العودة الى الادب على الجندى المسكين .

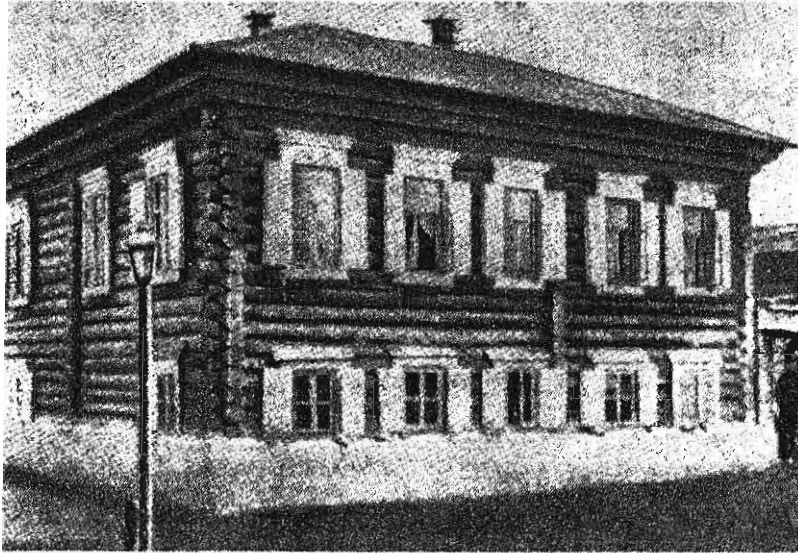
غير أن رسولا من السماء هبط على هذه المقاطعة النائية بعد ثمانية



الى النضج

اشهر : انه البارون الشاب الكسندر فرانجل الذى وصل من العاصمة
ناثيا عاما بحكمة سيمييا لاتسك ، وقد زاره ميشيل دوستوفسكى قبيل
مغادرته العاصمة وحمله لآخيه رسائل وكتبا .

وكان البارون قد شهد ، بمصادفة غريبة ، المهزلة التى مثلت فى
ميدان سيمينوفسكايا ، أعنى مهزلة تنفيذ الحكم بالاعدام ، وكان قد قرأ
مؤلفات دوستوفسكى ، فكان لذلك يهتم بمصير الكاتب ، فما ان وصل الى
سيمييا لاتسك حتى أرسل يستدعيه . فلما قرأ دوستوفسكى رسائل
أخيه انفجر باكيا ، فاذا بالبارون يشاركه البكاء ، وتعانق الرجلان وأصبح
النائب العام والجانى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة صديقين حميمين .
وفعل فرانجل كل ما استطاع أن يفعله من أجل أن يحصل للكاتب
على العفو كاملا ، فقدمه الى الحاكم العسكرى بالمنطقة ، وأدخله صالونات
أخرى ، فسرعان ما تلقى الجندى البسيط رتبة صف ضابط ، وأصبح
يقضى وقته كله حرا طليقا عند فرانجل . وفى الصيف من عام ١٨٥٥
استأجر فرانجل منزلا ريفيا ذا حديقة على شاطئ ارلتش ، قضى فيه
الصديقان الصيف كله معا .



منزل فى سيمييا لاتسك اقام به دوستوفسكى سنة ١٨٥٤

فى تلك الفترة اهتز قلب دوستويفسكى بحبه الأول الكبير ، وهو حب مرضى مفعج من نوع الحب الذى تحدثنا عنه رواياته . لقد تعرف بماريا ايساييفا ، وهى امرأة مثقفة أبوها ديمترى كونستان ، مدير الجمارك فى استراخان . كانت ماريا قد تزوجت معلما شابا اسمه ايساييف ، شاء سوء حظه أن يدمن على الشراب ، فما زال ينقل من مكان الى مكان حتى هبط تلك المدينة النائية التى فقد فيها وظيفته آخر الامر .

وانعقدت اواصر الصداقة بين دوستويفسكى وبين السكير المسكين وامراته الشقية التى شعر نحوها دوستويفسكى بشفقة كبيرة . وهاهو ذا يكتب اليها قائلا : « لقد سلخت خمس سنين من حياتى خارج المجتمع ، وحيدا ، ليس لى انسان أفتح له قلبى ، الى أن استقبلتنى كأننى واحد من أهلك . انك امرأة رائعة . ان لك نفسا فذة بين النفوس . انك طيبة كطفل . لقد كنت لى أختا . » ودام هذا الحب الذى يشبه أن يكون حبا أخويا سنة بكاملها ، ثم لم تلبث الشفقة أن استحالت الى هوى عارم جامع مستميت . واستطاع بعض أصدقاء ايساييف أن يحصلوا له على وظيفة صغيرة بمحكمة مدينة كوزنتسك التى تبعد عن سيمبيلاتنسك مسافة سبعائة كيلو متر . فتمزق قلب دوستويفسكى للفرق تمزقا .

ومات ايساييف بعد قليل ، تاركا لأرملته طفلا فى السنة السابعة من عمره . فأخذ دوستويفسكى وفرانجل يمدان الأرملة البائسة ببعض المال يرسلانه اليها من حين الى حين . ثم عرض عليها دوستويفسكى أن يتزوجها ، فوافقت ماريا رغم انها لا تشعر بالحب حقا نحو هذا الضابط الصغير ذى الوجه البائس الحزين .

ويترك البارون فرانجل سيبيريا الى العاصمة ، ويبقى دوستويفسكى وحيدا مع حبه المرضى ، ويظل عشرة أشهر يكتب الى ماريا التى بقيت فى كوزنتسك رسائل تفيض حبا محموما . وها هى ذى تحدثه فى ذات يوم عن معلم شاب اسمه فرجونوف قائلة انها هائمة بحبه . فيضطرب دوستويفسكى أشد الاضطراب ، ويسافر الى كوزنتسك ، ويلقى ماريا وغريمه الشاب فيجهش الثلاثة باكين . ولا يسع دوستويفسكى الا أن يذعن، ولكنه يريد أن يظل صديقا وفيها (كبطل قصة «الليالى البيضاء») ، ويقوم بمساع من أجل أن يحصل على مساعدة لماريا ، ومن أجل أن يدخل ابنها فى مدرسة داخلية ، بل ومن أجل أن يمد يد العون لغريمه . . .

وفى أثناء ذلك يرفع دوستويفسكى الى رتبة ملازم ثان فى ٢٠ تشرين
الأول (أكتوبر) من سنة ١٨٥٦ ، ويسترد حقوق النبالة ، فيتغير بذلك
وضعه ويتحسن مركزه ، فيسافر مرة أخرى الى كوزنتسك يعرض الزواج
على ماريا من جديد ، فتوافق ماريا ، ويتم الزواج فعلا فى اليوم السادس
من شباط ١٨٥٧ بتلك المدينة .
ويصاب دوستويفسكى بنوبة صرعة فى طريق عودته مع زوجته ،
فيكون هذا خيبة له ولها معا .



ماريا ديمترينا الزوجة الأولى

هو ذا يعود الى سيميپالاتسك ضابطا ، ومنتزجا . ونهى له
زوجته شيئا من رخاء العيش ، فيأخذ يكتب فى ساعات فراغه ، ولكنه لما
يحصل على الاذن بنشر أعماله . ويقوم أخوه ميشيل بطبع قصته « البطل

الصغير ، بسان بطرسبرج (كان دوستوفسكى قد كتب هذه
فى السجن عام ١٨٤٩) ، فاذا بالقصة المليحة العذبة ، رغم
دون ذكر اسم مؤلفها، ترد الناس فى العاصمة الى ال
دوستوفسكى . وأظهرت مجلتان استعدادهما لنشر روايات
فيشرع دوستوفسكى قلمه ويسرع يكتب روايتين هما «
و «ستيبانثيكوفو وسكانها» . ويتلقى أثناء ذلك اذن الامير
على التقاعد والعودة الى روسيا ، ولكن دون أن يكون له



دوستوفسكى ١٨٦٠

العاصمتين . فيترك دوستوفسكى فى شهر تموز (يو
سبيريا مع زوجته وابن زوجته ، ويعود الى روسيا ، الى اور

سنين قضاها في السجن فالمعتقل فالجندي بلنفي . ويقال ان فرجونوف عشيق زوجته ، قد تبعهما في عربة اخرى . . ويختار دوستوفيسكى لاقامته مدينة تفير الواقعة على الخط الحديدى بين بطرسبرج وموسكو ، فلا يشعر بالارتياح ، رغم أن حاكم المقاطعة نفسه الكونت بارانوف ، قد أحسن استقباله واحتفى به ودعاه الى صالونه . وينصح الكونت بارانوف والبارون فرانجل الذى زار تفير بأن يرسل الى الامبراطور الكسندر الثانى التماس عفو ، فيفعل دوستوفيسكى ذلك ، ويتلقى فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٥٩ الاذن له بدخول العاصمة وينشر مؤلفاته ، فيخف الى بطرسبرج حيث يستقبله فى محطة القطار أخواه . وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته .

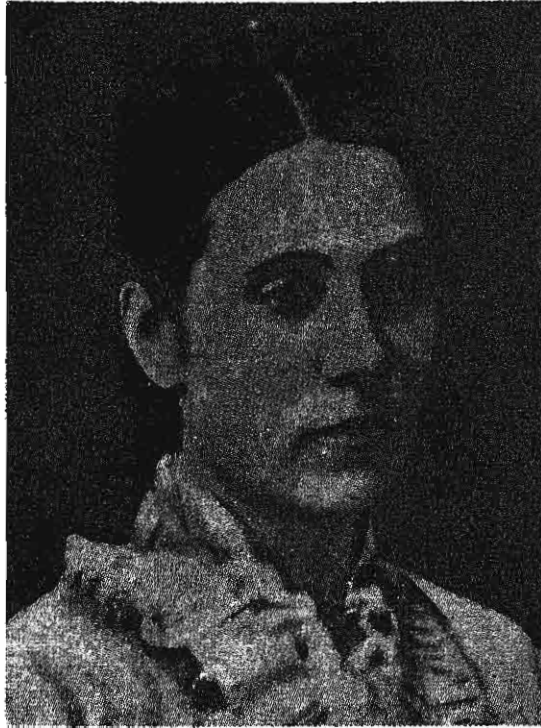
ان روسيا الآن فى حالة فوران وغليان . الحكومة تعد قانون الغاء القنائة منذ تسنم الكسندر الثانى العرش . وهى تهيم كذلك اصلاحات اخرى كثيرة . والناس يتناقشون فى أمر هذه الاصلاحات فيهاجمونها : الثوريون ، وهم لا يزالون قلة ، يريدون محسو الماضى بأسره ، والطبقة النبيلة تستاء وتستنكر أن يتم أى تنازل فى طريق اللبرالية . والرقابة قد ألفت أو كادت ، وعدد كبير من الصحف والمجلات يصدر ويناقش شئون السياسة . فيقرر دوستوفيسكى الذى يحس انه مؤهل للكتابة الصحفية أن ينشئ مع أخيه ميشيل مجلة جديدة يتولى أخوه ادارتها . ويظهر العدد الأول من المجلة « الزمان » فى كانون الثانى (يناير) ١٨٦١ ، أى قبل اعلان تحرير الأفتنان بشهر واحد تماما . ان دوستوفيسكى هو المدير الأدبى والسياسى للمجلة . انه يعتقد مذهبا لبراليا وسطا بين أنصار الغرب ودعاة السلافية . وها هو ذا يحدد هذا الموقف بقوله : « ان واجبنا أن نخلق لأنفسنا صورة جديدة للحياة ، صورة خاصة بنا ، صورة هى لنا نحن ، مستمدة من أرضنا ، نابعة من روحنا ، ممتوحة من تقاليدنا الشعبية . » واستطاع دوستوفيسكى أن يحظى بمعاونة تورجنيف ونكراسوف ويقولوا ستراخوف والناقد أبولون جريجوريف . وفى هذه المجلة انما نشر دوستوفيسكى كتابه « مذلون مهانون » ، الذى كتبه متعجلا ، ولم يكده ينهيه تماما والحق يقال . وقد أقبل الناس على قراءة الكتاب بنهم شديد ، ولكن بعض النقاد وجهوا اليه نقدا قاسيا . وفى النصف الثانى من سنة ١٨٦١ ، نشرت المجلة نفسها كتاب « ذكريات من منزل الموتى » . فنال الكتاب نجاحا كبيرا . ان اللوحة الصادقة التى

يرسمها الكتاب للمعتقل قد هزت ضمائر جميع القراء ، حتى الذين ينتمون
منهم الى الطبقات العليا ، فكان له صدى كبير ، وكان لهذا الصدى فضل
فى سن قانون الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ .

ويصبح دوستوفسكى الذى كان سجيناً سياسياً ، أكثر أدباء زمانه
حظوة بتأييد النقاد من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، وأكثرهم حظوة حتى
بين الشبيبة الثورية التى تزداد حماسها يوماً بعد يوم . وتسرى فى
الناس منشورات سرية تمجد قيام « جمهورية اجتماعية ديمقراطية روسية » ،
وتدعو الى « اغراق الشوارع بدماء الأوغاد » ولكن دوستوفسكى يستاء
من هذا « التطرف » ولا يشارك هؤلاء « المحمومين » آراءهم ، حتى ليتصور
انهم قد طاف برؤسهم مس من « الجن » . ويرهقه العمل الضخم الذى
يقوم به كاتباً ومحرراً ، فتزداد نوبات الصرعة التى تنتابه من حين الى حين .
فيقرر أن يترك روسيا زمناً ليرتاح ويستجم فى الخارج . فيغادر
سان بطرسبرج فى حزيران (يونية) ١٨٦٢ . ولكن أوروبا الغربية التى
يراها عندئذ لأول مرة تخيب ظنه وتبدد أحلامه ، فلا يقيم فى باريس
ولندن الا فترة قصيرة ، يسرع بعدها عائداً الى ألمانيا ، ثم يصل الى جنيف
حيث يجسد صديقه ستراخوف ، فيذهب الصديقان معا الى إيطاليا ،
فيمكنان فيها وقتاً قصيراً يعود بعده دوستوفسكى الى روسيا .

هذه الرحلة التى قام بها دوستوفسكى الى أوروبا ودامت شهرين
قد أمدت الكاتب بمادة كتابه « مذكرات شتاء عن مشاعر صيف » الذى
نشره فى مجلته . ان الكتاب نقد حاد لعبوب الحضارة ، حتى لقد أصبح
دوستوفسكى لا يحب سان بطرسبرج ، وها هو ذا يصف باريس بأنها
« مدينة تعيسة تعاسة رهيبة » لا يفكر سكانها البورجوازيون الا بالمال ،
وهو يحمل من لندن شعور الاشمئزاز فيقول عن « فوضاها انها النظام
البورجوازى فى ذروته » ، ولا يرى فيها الا أمثالات من البغايا فى حى
بيكاديللى ، والا السكان الذين يشبهون أن يكونوا عراة فى هوايتشابيل ،
انه يتصور أن أوروبا الغربية قد وصلت بماديتها الى حافة المنحدر ، وأنها
بنسبائها الله ماضية الى الأفول . فليس على روسيا المسيحية أن تتوقع من
أوروبا الغربية أى خير وعليها أن تتبع طريقها الخاص بها . ويشتد ايمان
دوستوفسكى بالأرض وتقوى الآمال التى يعقدها على الفلاح ، فيستحيل
هذا كله الى مزيد من الحرارة فى الدعوة الى السلافية . ويمضى
دوستوفسكى يعبر عن آرائه هذه فى مجلته بحماسة قوية وعنق شديد .

ولكن ما تلبث أن تنزل بالمجلة مصيبة ، فإن الثورة البولونية التي شبحت
سنة ١٨٦٣ قد حضرت ستراخوف على أن ينشر في المجلة مقالا بعنوان
« القضية المحتومة » يعرض فيه المطالب البولونية عرضا محايدا ، مع
تظاهره برفضها والرد عليها ، فيصدر وزير الداخلية قرارا بوقف المجلة
عن الصدور « لقيامها بحملات تناقض أهداف الحكومة » . فكان هذا القرار
ضربة خطيرة للأخوين دوستوفسكى ، ضربة أدبية ومالية في آن واحد .



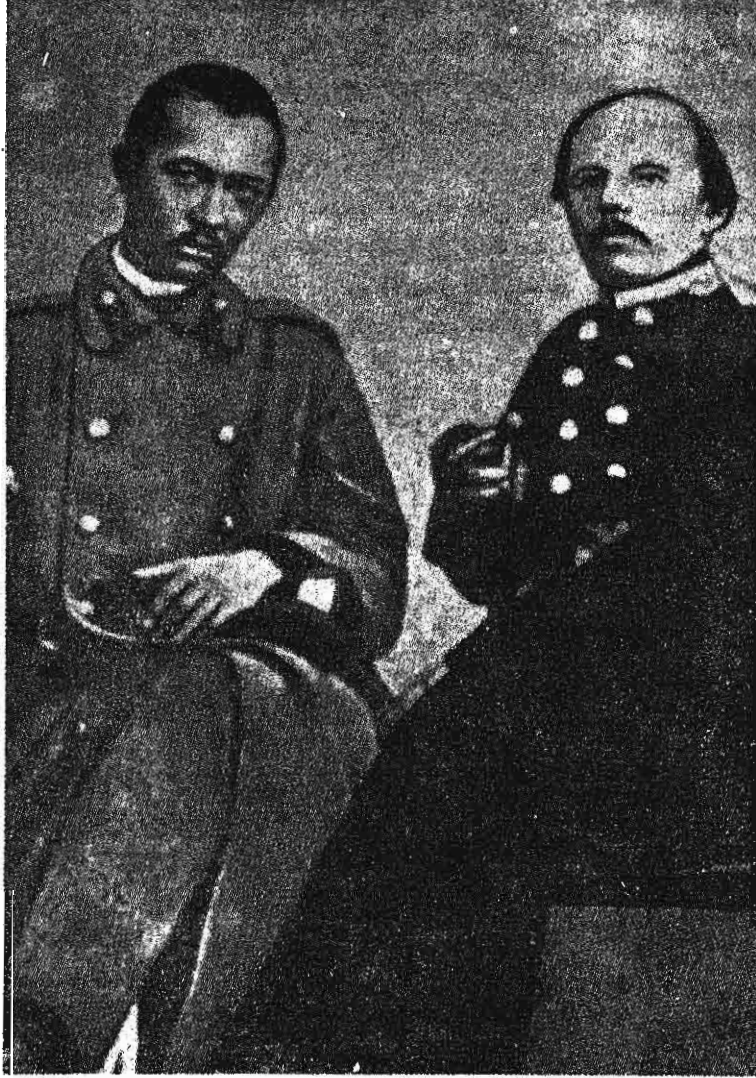
باولين

وكانت حياة دوستوفسكى العاطفية تمر في ذلك الوقت نفسه
بمنعطف جديد . ان زوجته تمعن في المرض يوما بعد يوم ، وان عصبيتها
الهستيرية تتفاقم مزيدا من التفاقم ، وتظهر في حياة الكاتب أثناء ذلك
طالبة شابة اسمها باولين سوسلوكا ، فتاة تنتمي الى الجيل الجديد وتشبه

أن تكون بشخصيتها بطله رواية من الروايات . هي ابنة رجل غنى صاحب مصنع (وكان فى الماضى قنا من أقنان أسرة تحمل لقب الكونت شيريميتيف) صبية بارعة الجمال ، متسلطة الطبع ، شديدة الحماسة ، قوية الاندفاع ، ملحدة تعتنق المذهب الفوضوى ، والعقيدة العدمية ، وتدعو الى الحب الحر الذى لا تقيده قيود ، تتوله بدوستويفسكى كاتبا شهيرا وثوريا قديما ، وتصارحه بحبها فى رسالة مشبوبة ، وتصبح من أعوانه فى المجلة لأنها تكتب قصصا . ولكن كان من الطبيعى ألا يعمر حب كهذا الحب بين رجل فى الاربعين أهرمته المحن وأضناه المرض ، وبين فتاة فى غضارة الصبا تفيض نشاطا وحركة وتتقد اقبالا على الحياة . ان الطبعين مختلفان اختلافا شديدا . ومع ذلك يقرر دوستويفسكى وبولين أن يسافرا معا الى الخارج فى صيف عام ١٨٦٣ . ولكن تصفية شتون المجلة تمنع دوستويفسكى من السفر فورا ، فينفذ صبر الفتاة ، فتسافر وحدها الى باريس ، فتمكث فيها خمسة أسابيع . ويغادر دوستويفسكى روسيا أخيرا ، ولكنه لخلو جيبه من المال يفكر فى أن يجنى ثروة من القمار ، فينلث فى فسبادن ، فيكسب مبلغا ضخما بالمقامرة على الروليت ، ثم يخسر نصف المبلغ فى الغداة ، ويصل بعد ذلك باريس ، ولكن « بعد فوات الأوان » كما صرحت له بذلك باولين فور التقائه بها ، فان الفتاة الجميلة كانت قد أصبحت خديلة طالب اسباني غنى ، ويعجز دوستويفسكى عن قطع صلته بها ، ويعرض عليها أن يمحصها « حبا أخويا » (وذلك دور سبق أن قام به ، وكثيرا ما وصفه فى كتبه) . ولكن الاسباني ما يلبث أن يهجر باولين ، فترضى باولين عندئذ، وقد صعقها الحزن والالم ، أن تسافر مع دوستويفسكى الى ايطاليا . وتقودهما هذه الرحلة الى بادن بادن (حيث يندفع دوستويفسكى الى المقامرة بالروليت من جديد) ثم الى جنيف ، فروما ، فنابولى ، وتدوم هذه الرحلة ستة أسابيع ، تمثل باولين أثناءها دور « المرأة الجهمية » ، فهى تعذب صديقها بجعله دائما على مسافة منها ، وفى غضون هذه الرحلة انما تصور دوستويفسكى خطة قصته « المقامر » التى تحتل فيها باولين الدور الاول .

واستحال حب الخليلين الى كره شيئا بعد شئ ، فليس يطيق أحدهما صاحبه ، فيعود دوستويفسكى الى بطرسبرج فيجد امرأته قد تفاقم مرضها ، واشتدت غيرتها ، واحتد هيجانها ، فيرسلها الى موسكو حيث المناخ أصح وأسلم ، ويبقى هو وحيدا فى بطرسبرج . ويحصل

أخوه ميشيل أثناء ذلك على الاذن باصدار مجلة جديدة يسميها «العصر» ،
تبدأ بالظهور منذ مطلع سنة ١٨٦٤ ، فينشر فيها دوستوفسكى اثرا



الاخوان ميشيل وفيدور دوستوفسكى مديرا مجلتى «الزمان» و «العصر»

رائعا بعنوان « فى قبوى » ، يتجاهله النقاد فلا يتحدثون عنه ولا يشيرون اليه . وتتكاثر عليه المصائب فترهقه من أمره عسرا ، فالمجلة تسير متعثرة ، وأخوه ميشيل مريض ماينفك يدمن على الشراب مزيدا من الادمان ، وماريا ديمتريفنا تحتضر بموسكو فى ١٥ نيسان (ابريل) من سنة ١٨٦٤ ، فيسهر دوستويفسكى على سريرها وقد طفحت نفسه ندامة وحسرة وعذاب ضمير ، وتموت زوجته ماريا ، فما هي الا اشهر ثلاثة حتى يصاب أخوه الحبيب بمرض فى الكبد يودى بحياته هو أيضا ، فيقبع الكاتب وحيدا « فى الصقيع والقراغ » على حد تعبيره .

وقد أورثه أخوه تركة شاقة : فالمجلة التى كان على دوستويفسكى أن يحررها لاتملك قرشا واحدا ، وهى الى ذلك مدينة بخمسة وعشرين ألف روبل ، والمال الذى جيبى اشتراكات فى المجلة قد أنفق ، ولا بد من ثمانية عشر ألف روبل لطبع الأعداد الستة الأخرى الموعودة الى ختام العام .

وباندفاع نبيلة كريمة هوجاء يتعهد دوستويفسكى بسداد ديون أخيه كلها ، عدا كفالته امرأته وأولاده ، فكان لاينى يركض هنا وهناك من أجل أن يقترض مايستطيع اقتراضه من المال ، من أجل أن يواصل اصدار المجلة التى كان يصحح تجارب طبعها بنفسه ويكتب لها المقالات ويؤلف لها القصص ، عاملا طول الليل على عادته .

ولكن عدد المشتركين فى المجلة ماينفك فى تناقص ، فيضطر دوستويفسكى الى وقف صدورها فى شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٦٥ ، وفى تلك اللحظة ظهر له ناشر محتمل شره الى الربح يعرف اصطياذ الفرص ، ويعرف من أين تؤكل الكتف (هو ستيلوفسكى) فيعرض على الكاتب أن يشتري منه بمبلغ تافه هو ثلاثة آلاف روبل حق طبع جميع مؤلفاته السابقة ، فى ثلاثة مجلدات ، بالاضافة الى رواية جديدة لم يسبق نشرها ، فاذا لم يقدم الكاتب مخطوطة الرواية الجديدة فى أول تشرين الثانى (نوفمبر) من سنة ١٨٦٦ فقد دوستويفسكى جميع حقوقه عن كتبه جميعها ، ما صدر منها وما لم يصدر ، فتصبح ملكا للناشر وحده لا شريك له فيها .

لقد وقع دوستويفسكى هذا العقد فى شهر تموز (يوليو) سنة ١٨٦٥ ، ومن أجل أن نقدر الغبن الذى أوقعه هذا الناشر المحتمل فى

دوستويفسكى يجب أن نتذكر أن تورجنيف كان يتقاضى في ذلك الوقت خمسمائة روبل عن الملمزة الواحدة أى سبعة آلاف وخمسمائة روبل عن رواية واحدة مؤلفة من ٢٤٠ صفحة . قبض دوستويفسكى الآلاف الثلاثة ، فسدد ما استطاع أن يسدده من ديون ملحة ، ثم سافر الى فسبادن يجرب حظه مرة أخرى فى القمار ، ولكنه لا يفوز بغير الحسار ، واضطر أن يقتصر بعض المال من تورجنيف . وتصل باولين من باريس ، ولكن مواردها كانت قد نفذت هى أيضا . ويرفض صاحب الفندق الألماني أن يقدم الى دوستويفسكى أى طعام ، فيظل دوستويفسكى أياما يتبلغ بالشأى وحده . ففي هذه الفترة من البؤس والجوع انما تصور دوستويفسكى فكرة رواية « الجريمة والعقاب » ، وتخيل شخصية الطالب الفقير الذى يقرر أن يقتل مرابية عجوزا فى سبيل أن يسعد أسرته . ويعرض دوستويفسكى على ميشيل كانكوف ، وهو محرر من دعاة السلافية ، أن يبيعه روايته هذه متى فرغ من كتابتها ، ويسأله أن يعطيه سلفة على ثمنها . ويتاح له أخيرا أن يعود الى سان بطرسبرج فى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٥ ، بفضل معونة يسعفه بها صديقه القديم فرانجل . فما ان يصل الى سان بطرسبرج حتى تلاحقه الأعمال ويطارده الدائنون وتلازمه نوبات الصرعة من جديد . ومع ذلك يتقدم فى كتابة روايته ، وتظهر الرواية تباعا فى مجلة « الرسول الروسى » بموسكو ، من شهر كانون الثانى (يناير) الى شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٦ ، فتحظى هذه الرواية الكبيرة الأولى من « الروايات المأسى » بنجاح كبير جدا ، وينال عليها أجرا مقداره أربعة آلاف روبل سبق انفاقها لأنه تقاضاها سلفا .

وكان عليه فى أثناء ذلك أن يسلم ستيلوفسكى الرواية الجديدة الموعودة . ولكن أول تشرين الأول (أكتوبر) يوافى ولما يكتب منها دوستويفسكى سطرًا واحدًا . ويحدثه صديقه ميلوكوف عن مختزلين بدوا يظهران فى روسيا ، ثم يعثر له فى مدرسة أولخين على فتاة تجيد الاختزال اسمها آنا سنينيكينا ، فيرسلها اليه فى الرابع من تشرين الأول . انها فتاة متواضعة فى العشرين من عمرها ، أبوها تاجر روسى وأمها امرأة سويدية ، تمتاز بالثقل والروية والاجتهاد والزوج العملية ، وتختلف عن باولين الطائشة اختلاف النقيض عن نقيضه . أخذ دوستويفسكى يملى عليها روايته « المقامر » . فما انقضت خمسة وعشرون يوما الا وكانت الرواية قد تمت ، فيمضى دوستويفسكى فى أول تشرين الثانى (نوفمبر)

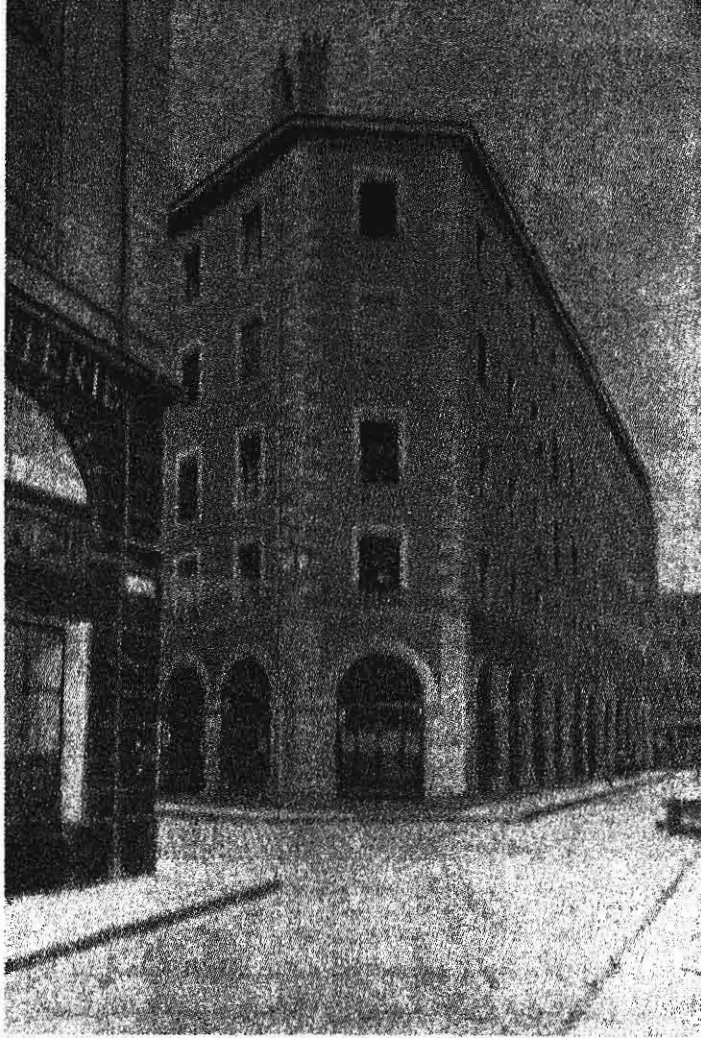
يحمل الى ستيلوفسكى الكتاب الموعود ، ولكن الناشر الماكر كان قد سافر ،
ورفض مدير مكتبه أن يستلم المخطوطة . فأوحت آنا الى دوستوفسكى
عندئذ بفكرة موفقة ، هي أن يذهب الى دائرة الشرطة فيودعها المخطوطة
لقاء اتصال وفقا للأصول . وبذلك أحبطت حيلة الناشر المحتال ، وتنفس
دوستوفسكى الصعداء .



آنا ، الزوجة الثانية

ورجا دوستوفسكى الفتاة أن تعود اليه للعمل في الفصل الأخير
من روايته « الجريمة والعقاب » . فلما وصلت اليه أخذ يقص عليها قصة
رسام في مثل سنه ، يعيش وحيدا مبدد الأحلام مشرد العواطف ، ثم يلتقى
عرضا بفتاة ذكية حساسة يخفق لها قلبه ، وتنتعش بصحبتها روحه .
وأضاف دوستوفسكى يقول لآنا : « تصورى أن هذا الرسام هو أنا ،

وضعى نفسك فى موضع الفتاة ، وتخيل أننى صارحتك بحبى ، ورغبت
اليك أن تقبلينى زوجا فماذا تقولين ؟ » .



فى جنيف : هنا اقام دوستويفسكى سنة ١٨٦٨

فاجابت الفتاة بقولها : « أقول اننى أحبك واننى سأظل أحبك مدى الحياة » • ويتم الزواج بعد ثلاثة أشهر فعلا ، فيكون لدوستويفسكى فاتحة عهد جديد ترقرف عليه السعادة الزوجية ، بعد الانواء العاصفة والتقلبات المروعة التى تعرض لها •



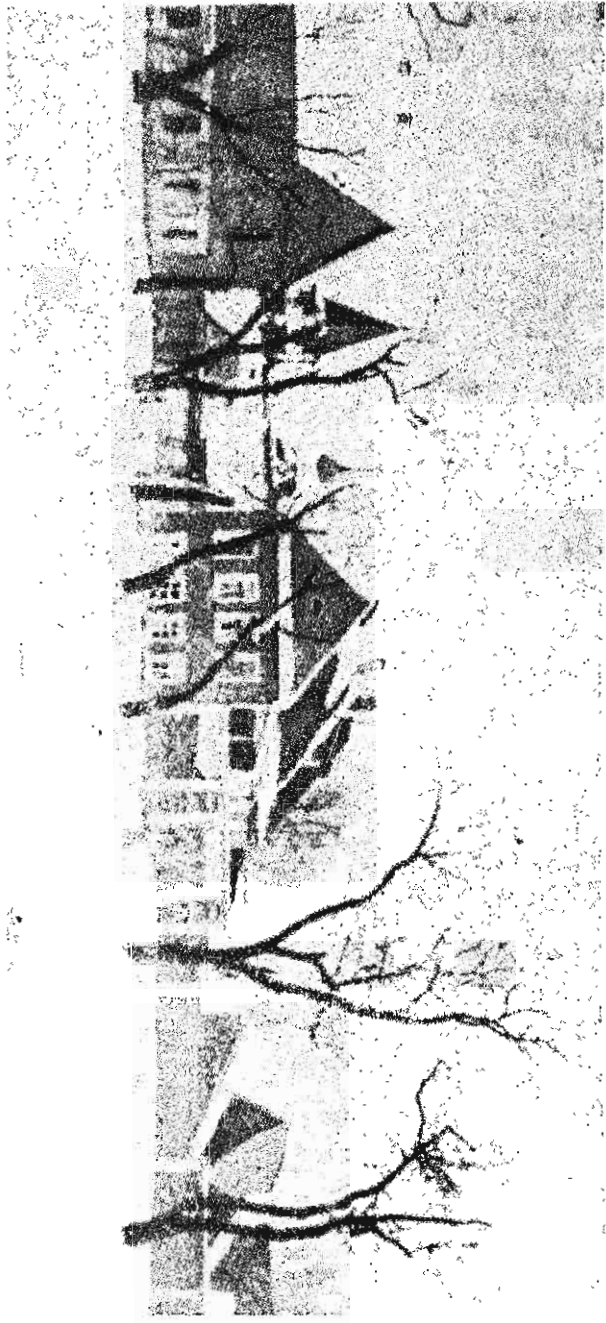
في درسدن : هنا عكف على كتابة روايته « الجن » سنة ١٨٧٠

ولا يبقى عليه الا أن يتغلب على مصاعب الحياة ، وعلى عداوة أسرته الكبيرة العدد ، ولا سيما عداوة ابن زوجته الأولى بول ايساييف ، الفتى الثاقف الذى كان يعيش عائلة عليه • ولئن حاولت زوجته الثانية ، المقصدية ، المجتهدة ، الفاضلة ، أن تسوى المصاعب وان تذللها ، فلقد

كانت تلك المصاعب أشد من أن يمكن تذليلها . وهاهم أولاء الدائنين
يهسدون دوستويفسكى ، حتى ليخشى دوستويفسكى أن يودع السجن
بسبب الديون ، فترهن أنا جهاز عرسها كله وأثاث منزلها كله ، ويسافر
الزوجان الى الخارج فى شهر نيسان (ابريل) ١٨٦٧ ، فرارا من ملاحقة
الدائنين .

وتدوم الرحلة أكثر من أربع سنين . لقد ذهب الزوجان أولا الى
درسدن ثم الى فسبادن حيث يحاول دوستويفسكى أن يربح بالقمار على
الروليت مع عمله فى كتابة روايته الجديدة « الأهل » . لقد استبدت به
حمى القمار فهو يجازف بكل شيء فيربح حيناً ولكنه يخسر أكثر الأحيان ،
فيعيش الزوجان من ذلك حياة مضطربة ، يبعلان معاطفهما ، ويرهنان حتى
خاتمى خطبتهما ، ويلتسان السلف بعد السلف من كاتكوف . ويقضى
الزوجان بضعة أشهر من الشتاء فى جنيف . وتعاود دوستويفسكى
حالات المزاج القاتم والكتابة الحزينة ، ويقامر على الروليت فى ساكس
ليبان ، فيبوء بمزيد من الخسار . وتولد له فى جنيف ابنته سونيا التى
يخطفها الموت بعد بضعة أشهر ، فيحزن دوستويفسكى لموتها حزنا شديدا
يهدم قلبه تهديما ، وبعد اقامة شهر فى فيفى يسافر الزوجان الى ايطاليا ،
ويستقران فى فلورنسه ، فيقضيان فيها سنة بكاملها . فتهدأ هنالك
حياتهما بعض الهدوء ، ويفرغ دوستويفسكى من كتابة روايته « الأهل »
وتنشر الرواية بموسكو سنة ١٨٦٨ . وفى خريف ١٨٦٩ يعود
دوستويفسكى وزوجته الى درسدن حيث تولد لهما ابنة ثانية يسميانها
ليوبا (المحبوبة) وهى التى ستسرد فى المستقبل قصة حياة أبيها الشهير
سردا غير صحيح ولا دقيق .

ويمضى دوستويفسكى يعمل فى كتابة روايته « الزوج الابدى » ،
فسرعان ما ينجزها وينشرها ، ثم سرعان ما يشرع فى كتابة رواية جديدة :
« الجن » . لقد أوحى اليه بموضوع هذه الرواية أخو أنا الطالب بموسكو،
الذى جاء يلحق بدوستويفسكى وزوجته فى درسدن أثناء عطلة الصيف،
فقص عليهما قصة مقتل رفيق له على يد المنظمة السرية التى يتزعمها
نتشاييف ، أحد دعاة النظرية العدمية . ويقضى دوستويفسكى سنة ١٨٧٠
كلها عاكفا على العمل فى كتابة روايته . ويجرب حظه مرة أخرى فى
الروليت ، لكنه وقد باء بالخسران من جديد ، يحلف ألا يقامر بعد ذلك
أبدا ، وبر هذه المرة بعهده ، ولا يحثت بيمينه ، ولا يقارب القمار قط .



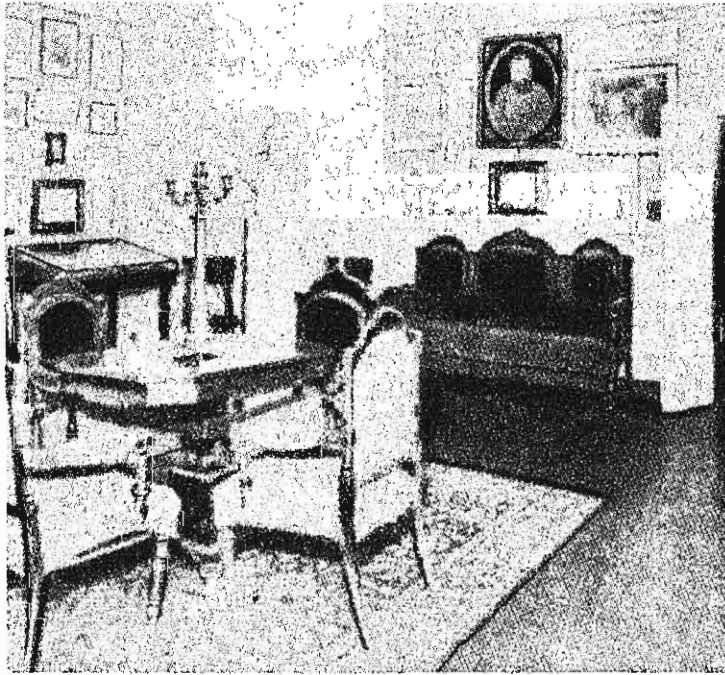
البرق الذي كتب فيه رواية « المراهق »

ولا تعود أسرة دوستويفسكى من درسدن الى بطرسبرج الا فى شهر
تموز (يوليو) ١٨٧١ ، وهناك تمسك انا بيديها ادارة مصالح زوجها ،
فتحسن المساومة مع الدائنين ، وتهيء طبعا مستقلة لرواينى «الاهبل»
و «الجن» ، وتواصل العمل مع زوجها فى تاليف رواياته الجديدة : هو



مكتب دوستويفسكى فى بطرسبرج ١٨٧١ - ١٨٨١

يملى وهي تكتب اختزالاً • ويصبح دوستويفسكى محرر مجلة « المواطن » التي يصدرها الأمير مشترسكى الصحفى المحافظ وفي هذه المجلة انما فتح دوستويفسكى زاوية أسماها « يوميات كاتب » فنالت الزاوية نجاحا كبيرا ، من حيث هي حديث يقوم بين كاتب كبير وبين قرائه • وفي اثناء ذلك يعرض عليه صديقه القديم نكراسوف أن يؤلف رواية لمجلة « حوليات الوطن » فيكتب دوستويفسكى رواية « المراهق » التي تحكى قصة شاب استبدت به فكرة ثابتة وحاصره هوى قوى هو أن يعتنى نشداناً للقوة ، حتى اذا انقطع دوستويفسكى عن ادارة مجلة المواطن مضى الى مدينة صغيرة هادئة هي ستراياروسا ، يقضى فيها سنتين كاملتين ، ولا يغيب عنها الى العاصمة الا نادرا • ولكنه يعود بعد ذلك الى العاصمة ليبدأ فى كانون الثانى (يناير) ١٨٦٧ اصدار مجلته هو « يوميات كاتب » ، وهي



غرفة دوستويفسكى ستراياروسا (متحف دوستويفسكى بموسكو)

يوميات شخصية بأوسع معاني الكلمة ، «عرض لكل ما انصب عليه اهتمامي شخصيا ، ولكل ما عانني أكثر مما عداه» ، على حد تعبير دوستوفسكي . لقد حظيت «اليوميات» بنجاح لم يكن في الحسبان ، فالكاتب يتلقى سيلا من الرسائل يحاول أن يجيب عليها . وهو يعني في هذه المجلة ببعض قضايا الاجرام (انه ما يزال يميل الى دراسة الجريمة ودوافعها) ، ولكنه يكتب في هذه اليوميات أيضا مقالات سياسية حماسية كثيرة ، ينادى فيها بضرورة تدخل روسيا من أجل تحرير سلافيى البلقان من ربةة الاحتلال التركي . وفي تلك المقالات انما يعبر دوستوفسكي عن آرائه الداعية الى السلافية ويعرب عن رأيه في أن القسطنطينية يجب أن تنتمى الى روسيا عاصمة الارثوذكسية . وتشب الحرب أخيرا في ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٧٧ ويقوم دوستوفسكي في شهر تموز (يوليو) برحلة الى الأراضى التى كان يملكها دوروفوبى ، فيتحدث هنالك مع الفلاحين الذين



دوستوفسكى ١٨٧٩

هم في سنه والذين يتذكرون طفولته ويتذكرون مقتل أبيه ، ويجرى مع هؤلاء الفلاحين أحاديث مدارها على الحرب ، فيسره أن يدرك أن الشعب مستعد لبذل التضحيات في سبيل « القضية المقدسة » .

ويصاب صديقه القديم الشاعر تراسوف بمرض خطير يودي بحياته فيلقى دوستويفسكى على قبره خطابا أليما ، يبكي فيه « القلب الجريح الى الأبد ، القلب الذى ظل جرحه ينبوع شعره كله ، ومصدر حبه لكل من يتألم من الاضطهاد والعذاب » . . . تلك كلمات يمكن أن تصدق على دوستويفسكى نفسه .

وفي أثناء ذلك يشتري دوستويفسكى فى ستارايا روسا ، بمبلغ زهيد ، المنزل الصغير الذى سبق أن أقام فيه ، فيصبح هذا الطريد الأبدى ، هذا المتشرد الأبدى ، هذا المستأجر الأبدى ، يصبح مالكا . فهو يملك لأسرته منزلا تحيط به حديقة .

وفي عشية عيد الميلاد سنة ١٨٧٧ يسجل دوستويفسكى فى دفتره هذه الأسطر : (مفكرة ٠٠ للعمركله ١ - كتابة « كانديد » روسى ، ٢ - كتابة كتاب عن يسوع المسيح ٣٠ - كتاب مذكرات ٤٠ - نظم قصيدة . كل ذلك عدا انجاز الرواية الأخيرة ، وطبع « اليوميات » وهذا يقتضى عشر سنوات من العمل فى أقل تقدير ، وعمرى الآن ٥٦ عاما) .

ولكن لم يكن قد بقى لدوستويفسكى من عمره الا ثلاثة أعوام . كان دوستويفسكى مصابا بمرض خطير فى الرئة ، فهو يذهب كل صيف الى مدينة امس طلبا للعلاج ، فلم يستطع أن يحقق من البرنامج الذى رسمه لنفسه الا كتابة روايته الكبيرة « الاخوة كارامازوف » التى تظل قمة انتاجه على كل حال .

وهذه نازلة جديدة تلم به : ان ابنه الثانى الكسى الذى لمايكند يبلغ الثالثة من عمره يموت أثناء نوبة صرعة : من المستحيل ان يوصف حزن الأب المسكين على موت ابنه . وسوف يطلق دوستويفسكى اسم هذا الابن على بطله الحلو الرقيق فى رواية الاخوة كارامازوف . . . أليوشا كارامازوف .

وفى تلك السنة يتعرف دوستويفسكى بالاستاذ الشاب فلاديمير سولوفيف الفيلسوف المثالى الذى يدعو الى المسيحية ويعلن أن المذهب

الوضعي الغربي في أزمة • ويقوم الرجلان برحلة الى الدير الشهير في أوبتينا ، قرب تولا ، فيدرس دوستويفسكي هنالك حياة الرهبان ويتبادل أحاديث طويلة مع الناسك أمبرواز ، نموذج البطل زوزيما في رواية الاخوة كارامازوف •

ويقضى الكاتب سنة ١٨٧٩ كلها في انجاز رواية « الاخوة كارامازوف » التي تظهر فصولا في مجلة كاتكوف « الرسول الروسى » •

ويشارك دوستويفسكي في سهرات أدبية يقرأ أثناءها مقتطفات من أعماله ، فيعجب به الجمهور وما ينفك يصفق له • ويختلف الى الصالونات وينتخب عضوا مراسلا في « الاكاديمية » ونائب رئيس « لجمعية اللطف



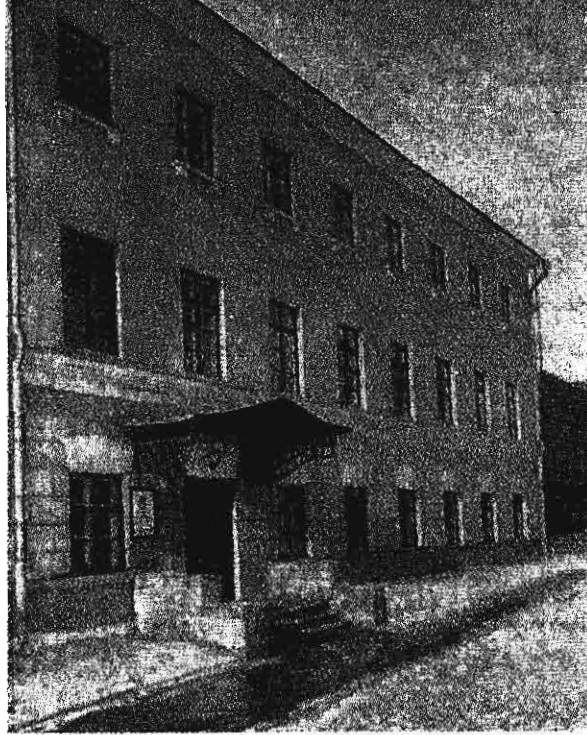
دوستويفسكى ١٨٨١

السلافية ، • وتنتدبه هذه الجمعية في شهر أيار (مايو) ١٨٨٠
للمشاركة في تدشين النصب التذكارى الذى شيد بموسكو تخليدا لذكرى
الشاعر بوشكين • فتحقق له اقامته بموسكو نصرا مبينا : يحتفل به



ضريح دوستوفسكى ، بطرسبرج ، مقبرة دير الكسندر نسكى

رجال الأدب احتفالا كبيرا ، ويلقى في الثامن من حزيران (يونيه) بعد تورجنيف ، خطابه الشهير عن شاعره الأثير . كان خطابه خطابا رائعا تحدث فيه حديث أصحاب الرؤى ناشرا في القاعة جوا مفعما بعطر الحماسة وروعة الخشوع ، وجلال النبوة . في ذلك الخطاب تكلم دوستويفسكى على رسالة روسيا التي يجب أن تحقق مصالحة بين الغرب والشرق ، قائلا ان بوشكين يجسد الروح القومية الروسية ، لأنه أوتي قدرة خارقة على ادراك عبقرية الشعوب الأخرى ، وعلى فهمها ، فهذا « التجاوب » ظاهرة نبوة تتفق وخصائل الشعب الروسى كل الاتفاق .



متحف منزل دوستويفسكى بموسكو

ويشيد دوستوفسكى بالاصلاح الذى حققه بطرس الاكبر ، فيرى انه يلبي التيار العميق الذى يترقرق فى أعماق الروح القومية الظمأى الى صعيد الاخوة الانسانية ، والقانون المسيحى ٠٠ « نحن نسلم بأن بلادنا والعالم ، فلاداعى الى عداوة بين دعاة الغرب وانصار السلافية ، فما هذه العداوة الا سوء تفاهم يؤسف له ٠ ان روسيا مدعوة الى أن تنطق بالقول الفصل فى انسجام البشر انسجاما شاملا واتفاق جميع الشعوب على صعيد الاخوة الانسانية ، والقانون المسيحى ٠٠ « نحن نسلم بأن بلادنا فقيرة ، ولكن هذه البلاد هى التى زارها المسيح عبدا فبساركها ، فكيف لا نستطيع أن نحقق قوله الفصل ٩ ؟ » ٠

لقد حاول دوستوفسكى فى هذا الخطاب الذى ينادى بالانسان الشامل والانسجام العام ، أن يوفق بين الآراء المتعارضة ، بين الصفوة المثقفة والشعوب ، بين روسيا وأوروبا ؛ وتلتهب القاعة التى يلقى فيها الكاتب خطابه ، وتصيح فيما يشبه الهديان من فرط الحماسة ، وهذا تورجتييف يعانق دوستوفسكى والدموع تترقرق فى عينيه ، كأن معجزة أخوة تتحقق ٠

وهؤلاء فتيات يغمرنه بالأزهار ، ويقبلن يديه ، وهذا طالب يقم مغمشيا عليه بين قدميه ٠ أحس دوستوفسكى انه فى حلم ٠ لقد سدد ديونه ، واشترى بيتا صغيرا يعيش فيه حياة مريحة ٠ تحيطه رعاية - حنون حبيبة ٠ وآلاف المعجبين يقرءونه ويفهمونه ٠ لقد انتصر على قدره بالصبر وحده ٠ وهذا هو يكتب الى أحد أصدقائه قائلا له : « اسمح لى أن لا أودعك ٠ انت تعلم اننى أريد أن أعيش وأن اكتب عشرين سنة أيضا » ٠

ويعود دوستوفسكى الى ستاراياروسا يعكف على انجاز روايته « الاخوة كارامازوف » متحملا عناء كبيرا ، باذلا جهودا مضمينة ٠

كان يحس أنه قوى معافى ، وكانت نفسه طافحة بالأمال ، وكان ذهنه فياضا بالمشاريع ٠ انه يضع القسم الثانى من «الاخوة كارامازوف»، القسم الذى يجب أن يظهر فيه أليوشا بعد عشرين عاما ٠ ولكن هاهى صحته تنهار فجأة ليلة السادس والعشرين من كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ : الدم يتدفق من فمه ويتجدد تدفقه من حين الى حين ، خلسال

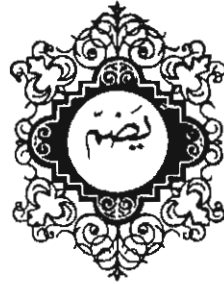
يومين • ويشعر دوستويفسكى أن منيته قد اقتربت ، فيتناول القربان المقدس ويستعد للقاء وجه الله •

وينطقى دوستويفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ ، بعد أن يبارك امرأته وأولاده •

ان روسيا كلها تحزن لموت الانسان الكبير الذى ظل مجهولا مدة طويلة ، والذى تنكرت له الاقدار ذلك التنكر • ان نعشه يسير نحو اللحد تحت غابة كثيفة من الرايات • أمراء ورهبان وعمال وضباط ومتسولون، يحيطون بالنعش المهيب عابرين به المدينة • وامام القبر المفتوح يتناوب الكلام ، كتابٌ صالحت بينهم الفجيعة ، فاذا هم يتحدثون عن دوستويفسكى حديثهم عن شهيد • وينفض المشيعون • فتعود المقبرة التى يغطيها الثلج الى الصمت ، وتبدأ فى تلك اللحظة حياة دوستويفسكى الجديدة ، لا بجسمه على الارض بل بمؤلفاته الخالدة ، فوق الزمان وفوق المكان ، فى قلوب الذين يقرءونه فيغوص بهم الى أعماق النفس ، بل الى اعماق الوجود •

س • د

تقديم



هذا المجلد الأول من أعمال دوستويفسكى الأدبية ثلاث قصص كتبها فى السنين الثلاث الأولى من نشاطه الأدبى . ولعلها تتفاوت نوعا وقيمة ، وقد استقبلها النقاد استقبالا مختلفا على كل حال . ولكنها تجتمع أولا على وصف شخصيات قلقة ورسم وجوه معذبة لا يرجع ما تعانیه من قلق وعذاب الى طبيعتها وحدها ، وانما يرجع كذلك الى الظروف القاسية التى تحيط بها والى الظلم الاجتماعى الذى يثقل على صدورها . واذا كانت هذه الشخصيات لا تكاد من فرط انسحاقها أن تشكو أو تتذمر ، فان القارئ يشكو ويتذمر نيابة عنها ، بل يستحيل شكواه ويستحيل تذمره الى تمرد وثورة . وتجتمع هذه القصص ثانياً على العمق فى النفاذ الى أغوار النفس ، وسبر تناقضاتها ، والتقاط أخفى خلجاتها كسائر آثار دوستويفسكى من جهة أخرى .

الفقراء

١٨٤٦

« المجد والشرف للشاعر الشاب الذى تحب آلهة وحيه سكان السقوف والأقبية وتقول عنهم لأصحاب القصور المذهبة : هؤلاء بشر أيضا ، هؤلاء اخوتكم » .

بهذه العبارة حيا بيلنسكى ، سنة ١٩٤٦ ، قصة الفقراء . والحق أن حماسة الناقد الروسى الكبير فى محلها : لقد ظهرت عبقرية دوستويفسكى الخلاقة فى أول عمل من أعماله الأدبية ، وهو لما يزل فى السادسة والعشرين من عمره ، ولئن لم تفتتح هذه العبقرية عن عامل مكوناتها بعد ، ولئن

لم تصل الى الآماد البعيدة التي ستصل اليها ، فقد كشفت منذ أول عمل عن السمة التي ستظل تميزها : حبها وعطفها وحماستها للمغامرين المغلوبين على أمرهم ، لأولئك الذين سيسميهم دوستوفسكى فى عمل مقبل من أعماله « المذلين » و « المهانين » .

ولئن تأثر دوستوفسكى فى كتابة هذه الرواية بقصة « المعطف » التي كتبها جوجول والتي أثرت فى الأدب الروسى كله ، ولئن كان دوستوفسكى يقول هو نفسه : « لقد ولدنا جميعا من معطف جوجول » ، فما أعظم الفرق بين القصتين ! ان دوستوفسكى فى قصته هذه يتمرد على روح الهجاء التي تتجلى فى قصة جوجول . ان آكاكى آكايفتش ، بطل « المعطف » انسان يبعث فى نفسك الضحك الى جانب الشفقة . لقد كان مثله الأعلى كله أن يحصل على معطف . حتى اذا ضاع المعطف هوى الى اليأس فالموت . ولا كذلك المشل الأعلى الذى يحرك ماكار ديفوشكين : انه الحب والرحمة والايتار والتفانى . ان ماكار يضجى بنفسه فى سبيل الفتاة المسكينة التي لا يكاد يراها ، ولا يجرو أن يزورها مخافة النائم ، وما ينفك يرسل اليها هداياها الصغيرة بالحرمان يتحملة تلو الحرمان . وقد أقرأ دوستوفسكى بطله « معطف » جوجول ، فأجرى لسانه بتعبير عن استيائه من هذه القصة الساخرة التي لا تراعى مشاعر الفقراء الخبيثة ، بل تعريها أمام أبصار الناس . ثم أقرأ قصة بوشكين « ناظر المحطة » ، فأجرى لسانه بتعبير عن الاعجاب بها ، والرضى عنها . ان الحب العميق الذى يحمله « ناظر المحطة » فبرين لابنته الوحيدة ، يشبه العواطف الأبوية الرقيقة التي يحملها ديفوشكين للفتاة البائسة فارنكا . وان المصير الحزين الذى ينتهى اليه ناظر المحطة بعد أن خطف ابنته ضابط متكبر غنى فلم يرها أبوها بعد ذلك ، تشبه مصير ديفوشكين الذى سيبقى وحيدا فى هذا العالم ، بعد أن ارتضت فارنكا أن تتزوج السيد بيكوف الرجل الثرى الذى سبق أن أغواها ، ثم تزوجها ومضى بها الى أملاكه البعيدة . وتنتهى قصة دوستوفسكى بصرخة أليمة حادة تعلن أنه يستحيل أن تكون هذه الرسالة هي الأخيرة « مستحيل تكون هذه الرسالة هي الأخيرة ! » ولكن القارىء يتنبأ بأن تلك الرسالة هي آخر رسالة ، وأن ديفوشكين الذى بقى وحيدا سيندفع الى الادمان على السكر ، وسيموت حزنا وألما ، مثل « ناظر المحطة » بطل بوشكين . ولكن قصة دوستوفسكى أغنى كثيرا من قصتى صاحبيه جوجول وبوشكين . ان هذه القصة

المتواضعة التي تحدثنا عن حب بين شخصين تستحيل الى لوحة تصور
الظلم الاجتماعى فى أسمى أشكاله .

البطلان كلاهما مضطهدان معذبان مذلان مهانان ، يوقع فيهما الأشرار
أنواع الظلم ، ويتحملان من الفقر ما لا يطاق . ان الفقر الذى يعانبه
ماكار ديفوشكين يكشف له عن كل الفقر الذى يحيط به ، وقد هم الرجل
أن يشكو ويتذمر ، وأن يتمرد ويثور متعجبا فى سداجة من العذاب الذى
يقاسيه الخيرون فى هذا العالم . واذا كان ، لبساطته ، يتراجع عن
الشكوى والتذمر ، ويرتد عن التمرد والثورة ، مسلما بالواقع ، منعنا
لمشيئة القدر ، فان فيه شيئا من « المتمردين » الذين سيفهم لنا
دوستويفسكى فى رواياته المقبلة .

ان الوجوه التى نراها فى هذا العمل الأول من أعمال دوستويفسكى
سنقع عليها فى أعماله الأخرى ، انها وجوه « الفقراء » نشاركهم عذابهم
ونحيا حياتهم . ولكننا فى هذه القصة مانزال بعيدين عن الأغوار العميقة
التي سينفذ اليها دوستويفسكى ، وما زلنا بعيدين عن الأعماق الميتافيزيقية
التي ستنزول اليها رواياته المتأسي .

المثل

١٨٤٦

نشرت رواية « المثل » بعد صدور « الفقراء » بشهر واحد . فلم
يستقبلها النقاد والكتاب والقراء بمثل ما استقبلوا به قصة « الفقراء » من
حماسة . فبعضهم يشكو من اطناباتها واسهاباتها ، وبعضهم لا يرى فيها
الا تقليدا واضحا لجوجول . ولكن الناقد الروسى الشهير بيلنسكى حرص
على ابراز دلالتها الاجتماعية ، فعقد مقالا قال فيه عن بطلها جولبادكين :
« انه واحد من أولئك الناس الحساسين الذين نجد أمثالهم فى الطبقات
المتوسطة والدنيا ، فهو سريع التأذى ، شديد الطموح ، يتراعى له دائما
أنه مستهدف ببعض الكلمات وبعض النظرات وبعض الحركات ، وأنه يحاصر
وتدبر له المكائد . . . » . حتى لقد قال بيلنسكى انه يرى فى هذه القصة
« من الموهبة الخالقة ومن عمق الفكر ما لم ير مثله فى قصة « الفقراء » .
وختم بيلنسكى مقاله بنبوءات تتناول دوستويفسكى فقال : « سوف

تظهر أثناء حياته مواهب كثيرة تعارضه ، ولكن هذه المواهب كلها سيطويها النسيان ، أما موهبته فتظل في ذروة المجد .

صدق بيلنسكى . . لسوف يطوى النسيان مواهب كثيرة . . أما موهبة دوستويفسكى فستظل في ذروة المجد . ولكن بيلنسكى كان ينظر الى كل أثر من آثار الأدب من زاوية ضيقة خاصة ، هي زاوية الأدب الاجتماعى الجديد الذى ينادى به ويدعو اليه . ولم يكن مهيبا اذن لأن يرى كل ما فى رواية « المثل » من عمق نفسى . فلتن كان جوليا دكين ضحية ظلم اجتماعى من بعض النواحي ، وبمعنى من المعانى ، فان هذا ليس كل جوليا دكين . . واذا كانت رواية « المثل » تفضح هذا الظلم الاجتماعى ، فان هذا ليس كل رواية « المثل » . . ان جوليا دكين انسان « تنفصم » شخصيته على حد تعبير علماء النفس الحديثين . . . انه يزدوج . . . فمن رآه من خارج سماه مجنونا وكفى . . وقد يضحك اضافة الى هذا . وما كذلك يفعل دوستويفسكى . . . فانه يراه من داخل ، أو قل انه يعيش معه تجربته النفسية ، وهو لذلك لا يكاد يضحك عليه ، ولا يكاد يحمل القارىء على الضحك عليه . بالعكس ، انه يبرز جانب المأساة من حياة انسان يتعذب ، لا عن ظلم اجتماعى فحسب ، بل عن مرض نفسى قد يتصل بالظلم الاجتماعى ، وقد لا يتصل به كثيرا . فمن لم يكن قادرا بعد أدنى من تجربة شخصية على أن يرى ما يراه دوستويفسكى فى بطله من داخل ، فلن يستطيع أن يعرف كل العمق النفسى فى تصوير شخصية هذا البطل بالعين البصيرة . والريشة البارعة .

ولذلك رأينا بيلنسكى يعود الى الكلام عن كتاب « المثل » فى مقالة يكتبها بعد سنة ، فاذا هو فى هذه المرة ، مع اظهار اعجابه بموهبة المؤلف ، يأخذ على الكتاب « طابعه الخيالى غير الواقعى » ، ويعيب فيه غموض حكيته ، وطول اسهاباته وتكراراته ، وينصح دوستويفسكى باختصار هذه الرواية عند اعدادها للنشر فى طبعة جديدة .

وقد شعر دوستويفسكى بمرارة شديدة من سوء تقدير النقاد لكتابه ، وعبر عن هذه المرارة فى بعض رسائله . ومع ذلك رأيناه ، عند عودته من سيبيريا ، وشروعه فى اعداد طبعة جديدة لمؤلفات شبابه ، يتأثر برأى النقاد والقراء فى كتابه ، فيأخذ فعلا فى اعادة كتابة « المثل » ، ولكن وفنه لم يتسع لهذا العمل . وفى عام ١٨٦٥ نشر طبعة جديدة للكتاب لا تختلف

عن الطبعة الأولى الا فى أمور يسيرة فهو لا يزيد عن أن ينقح هنا عبارة ، ويختصر هناك فقرة ، ويحذف هنالك رسالة ، غير أن نيته كانت منصرفة ، كما تدل على ذلك مسودات يرجع عهدها الى ١٨٦١ - ١٨٦٤ ، الى احداث تغييرات كبيرة فى هذه الرواية ، وتدل هذه المسودات على أنه كان يريد أن يجعل من بطله جوليا دكين الأول واحدا من أنصار النزعة الاشتراكية ينتمى الى فورييه وينضم الى حلقة بتراشفسكى ويطمع فى قيادة ثورة ، وأن يجعل من «المثل» ، من جوليا دكين الثانى جاسوسا يشى بالثوريين ويفضح أمرهم .

على أن دوستويفسكى يظل شاعرا بما تحمله قصته من نفاذ وعمق متأثرا مع ذلك برأى النقاد والقراء فيها ، فها هو ذا يكتب فى « يوميات كاتب » سنة ١٨٧٧ قائلا : « اننى لم أوفق فى هذه القصة كل التوفيق ولكن فكرتها كانت واضحة وضوحا كافيا ، وما أحسب أننى أضفت الى الأدب فكرة أكبر منها خطرا وأعلى شأنًا ، ولكننى لم أوفق فى صياغة الشكل » .

قلب ضعيف

١٨٤٨

وهذا بطل آخر من صغار الموظفين ، شاب يفيض مزايا وخيرا ومجبة ، راض عن مصيره ، رغم أن راتبه لا يزيد على خمسة وعشرين روبلا فى الشهر . ان رئيسه ، جوليان ماستناكوفتش يستغله ، عاهدا اليه بأعمال اضافية لا يدفع له أجرها خلال أربعة أشهر . ولكن فاسيا ينهض بالعبء فى جد واجتهاد وحماسة ، حتى اذا كافأه رئيسه بخمسين روبلا فاض قلب الفتى شعورا بالشكر والامتنان . والفتى سعيد ، لأن له صديقا عزيزا عليه هو أركاد ، ولأنه خطب فتاة يحبها حب العبادة ، ولأنه ينعم بالحظوة لدى رئيسه . ولكن «قلبه الضعيف» ينوء بحمل كل هذه السعادة . لقد أهمل انجاز العمل الذى عهد به اليه رئيسه ، لأنه قضى أوقات فراغه كلها عند خطيبته فها هو ذا يشعر من ذلك بأنه آثم فى حق رئيسه ، وهاهو ذا الجنون يستولى عليه شيئا بعد شىء مهريا من العمل الذى أصبح لا يطيق انجازه ، ومهريا من الحب الذى يرى أنه لا يستحقه ، ومهريا من الشعور بالاثم الذى يمضه ويرهقه أشد الارهاق . وما أروع المشهد الذى يصوره

دوستويفسكى حين يرينا الفتى المسكين وقد استولى عليه جنونه ، فهو يجرى ريشته سريعة على الورق بغير حبر ، ويقلب الأوراق واحدة بعد أخرى بيضاء لم يخط عليها سطرًا ٠٠٠ ظانا أنه يعجل قيامه بالعمل رجاء انجازه فى الموعد المضروب لتقديمه الى رئيسه . انه مشاهد مؤثر يكوى النفس حزنا .

لقد ضخم الفتى المسكين خطيئة تقصيره تضخيما شديدا ، فأحس فى اطار النظام القاسى الذى كان يسود عهد نيقولا الأول ، أنه يرتكب جريمة التمرد وعدم الخضوع للرؤساء ، وتوقع أن ينزل فيه العقاب الذى ينزل فى المجرمين السياسيين ، وهو ادخال المجرم فى الجيش جنديا بسيطا لسنوات طويلة . ترى الا يمكن أن يقال ان دوستويفسكى ، حين صور هذا الفتى الحالم الذى انتهى الى الجنون ، كان يعبر عن مخاوفه من الوقوع فى هوة الجنون ، وعن احساسه بأنه سيعاقب هو أيضا بالنفى والجنديّة لسنتين ؟

س • د

الفرق رائد
١٨٤٦

« الفقراء » (Béonie Lioudi) ،
كتبت سنة ١٨٤٤ - ١٨٤٥ ، ونشرت
في شهر كانون الثاني «يناير» سنة
١٨٤٦ ، في «مجموعة سان بطرسبرج»
التي كان يصدرها نكراسوف .

يا لهؤلاء الكتاب القصاصين ! انهم بدلا
من أن يقصوا علينا شيئا نافعا ممتعا ،
مربحا ، يهتكون جميع أسرار الحياة على
هذه الارض ويزيحون الحجب عن جميع
مبائس الوجود ! لو كان الامر لي
لنهيتهم عن الكتابة ! فكروا فى النتائج التى
يؤدى اليها هذا ! ان المرء يقرأ ما يكتبون ،
فاذا هو ، على غير ارادة منه ، يأخذ
يتأمل واذا بجميع أنواع الافكار
العجيبة المستحيلة تغزو رأسه . حقا لو
كان الامر لي لنهيتهم عن الكتابة ، أو لمنعتهم
من نشر ما يكتبون .

الامير ف . ف . أودويفسكى

٨ نيسان (ابريل)

عزيزتى فرارا الكسييفنا ، الصديقة الغالية !

كنت أمس سعيدا ، سعيدا سعادة كبرى ، كنت أفيض سعادة .
مرة فى حياتك على الأقل ، أيتها العنيدة الصغيرة ، رضيت أن تلبى طلبى .
لقد استيقظت مساء أمس فى الساعة الثامنة تقريبا (وأنت تعلمين يا ماتوشكا ،
اننى أحب أن أغفوساعة أو ساعتين عند عودتى من عملى) ، فأشعلت شمعة ،
وهيأت ورقا ، وبريت قلما ، ثم اذا أنا أنهض رأسى مصادفة ، فيأخذ قلبى
يخفق فى صدرى سريعا سريعا . لقد أدركت اذن ما كنت أتمناه ، ما كان
يتمناه قلبى البائس ! لقد لاحظت حين أنهضت رأسى أنك شدت طرفا من
ستارة نافذتك فثبته بأصبع الأزهار ، تماما كما أوحيت اليك بذلك ايحاء
غير مباشر فى المرة الماضية . حتى لقد خيل الى اننى ألمح فى تلك اللحظة
وجهك الأخاذ من وراء النافذة ، وكأنك كنت تنظرين الى من غرفتك ،
كأنك كنت تفكرين فى . وما كان أشد أسفى ، ياملاكى الصغير ، حين لم
أستطع أن أميز قسما وجهك الحلو العذب تمييزا واضحا ! لقد كنت
فى زمن من الأزمان أملك بصرا قويا أنا أيضا ، ياماتوشكا . ولكنها
الشيخوخة يا صديقتى اللطيفة . . . انه ليحزن قلب المرء أن يدلف الى
الشيخوخة . اننى فى هذه اللحظة مثلا لأرى رؤية واضحة . ولكن يكفى
أن أعمل قليلا فى المساء ، يكفى أن أكتب بضعة أسطر ، حتى تصبح عيناى
فى صباح الغداة حمراوين ، وحتى تسيل منهما الدموع ، فأكاد أستحي
أن أظهر للناس . ولكنى ياملاكى قد رأيت ابتسامتك ، ابتسامتك الصغيرة
الفاخرة ، رأيتها فى خيالى ، فكانت كالضوء فى نفسى ، وشعرت بذلك
الانفعال نفسه الذى شعرت به يوم قبلتك يافارنكا ، هل تذكرين ذلك
ياملاكى العزيز ؟ حتى لقد خيل الى . هل تصدقين يا عزيزتى ؟ - انك

تهديني بأصبعك من وراء النافذة • أهذا صحيح أيتها الحماة الصغيرة ؟
يجب عليك حتما أن تقصي على هذا كله مفصلا في رسالتك القادمة •

ولكن قولى : ما رأيك فى اختراعنا هذا بشأن ستارة النافذة ، الم
تكن فكرة لطيفة فى الواقع ؟ لسوف أعرف ، حين أعمل أو حين أضطجع ،
و حين أستيقظ أيضا ، لسوف أعرف فورا أنك تفكرين فىي ، وأنتك لم
تسيني ، وأنتك أنت أيضا جيدة الصيحة مشرقة المزاج . فإذا أبدلت الستارة
عرفت أن هذا يعنى أنك تقولين : « وداعا يا ماكار ألكسيفتش ، فقد آن
أوان النوم » . حتى اذا عدت فرفعت الستارة فهمت أنك تقولين : « نعمت
صباحا يا ماكار ألكسيفتش ، هل نمت نوما طيبا ؟ » أوفهمت أنك تسألين :
« كيف حالك اليوم يا ماكار ألكسيفتش ؟ أما أنا فانى بحمد الله فى صحة
حسنة ، وكل شيء يجرى عندى على ما أحب » . هل رأيت كيف أحسنت
تخيل هذا الاختراع ؟ لاجابة بنا الى التكتاب من أجل التخاطب ، أليس
كذلك ؟ وكانت تلك فكرتى ، فكرتى أنا . فاعترفى اننى حاذق فى مثل
هذه الأمور ، ألا ترين هذا الرأى يا فرارا ألكسييفا ؟

يجب أن أقول لك يا عزيزتى فرارا ألكسييفا أننى قضيت ليلة
رائعة ، على خلاف ما كنت أتوقع ، فملأنى ذلك غبطة وبهجة • ان المرء
لا ينام نوما طيبا فى الليلة الأولى من اقامته بمسكن جديد • فهو لا يشعر
بالارتياح ، اذ لا بد أن يكون أمر من الأمور على غير ما يجب أن يكون !
ولكننى نهضت من فراشى فى الصباح جم النشاط شديد الفرح أشبه بصقر •
انها لمتعة حقا ! وما كان أجل الصباح فى هذا اليوم ، ياماتوشكا ، لقدفتحت
النافذة فى مسكنا : فكانت الشمس تسطع ، وكانت الطيور تغرد ، وكان
الهواء مفعما بأشذاء الربيع • الطبيعة تعود الى الحياة ، فاذا كل شيء يفعل

ما تفعله الطبيعة ، ويجرى على ما يريد الربيع . حتى لقد أخذت أحلم
أحلاما جميلة لذيذة ؛ وكانت أحلامي تصرف اليك يا فارنكا ، فأشبهك
بطائر صغير من طيور السماء خلق فرحة للبشر وجمالا للعالم . وحلمت
عندئذ ، يافارنكا ، أننا معشر الذين نعيش في هموم الحياة على الأرض
ونضطرب في أعاصيرها ، يجب علينا أن نحسد طيور السماء - وكانت سائر
أحلامي من هذا القبيل ، ومن هذا النوع ؛ أعنى انى ظلت في أحلام
اليقظة هذه ، أعقد مقارنات عجيبة وأشياء تشبهات خارقة . ان عندي ،
يا فارنكا ، كتابا يقول هذه الأشياء نفسها ، ويستعمل ألفاظا كهذه الألفاظ .
وإذا كدت أكتب اليك في هذه اللحظة ، فلأن أحلامنا قد تبلغ هذا المدى
من التنوع ياماتوشكا . نحن في الربيع ، والحواطر التي توافيني ممتعة
جدا ، وتتدفق حياة وتفيض قوة ، وتحمل الى معاني رقيقة مفعمة بالحنان .
كل شيء يبدو لي ورديا . لذلك أكتب اليك هذا كله . والأصح أنى
قرأت هذا كله في كتابى الذى يعبر مؤلفه عن هذه العواطف نفسها شعرا
فيهتف قائلا :

الا ليتنى طير الا ليتنى صقر

النخ

هناك أفكار أخرى كثيرة فى هذا الكتاب . ولكن ما فائدة نقلها اليك
الآن ؟ الأخرى أن تقولى أنت أين ذهبت فى هذا الصباح يا فر فارا
ألكسييفا . لم أكن قد تركت منزلى الى عملى حين خرجت أنت من غرفتك
كطائر صغير من طيور الربيع ، واجتزت فناء المنزل وقد بدا فى وجهك
ذلك الفرح كله . ما كان أشد سعادتى حين تأملتك فى تلك اللحظة !
آه يافارنكا ، لاتبكى ولا تنتحى . ان الدموع عاجزة عن دفع الشقاء . أنا
أعرف ذلك بالتجربة ياماتوشكا . لقد هدأت حياتك الآن كثيرا ، وتحسنت

صحتك بعض التحسن • بالمناسبة ، كيف حال صاحبك فيدورا ؟ يا لها من امرأة طيبة شهمة ! •• اكتبى لى يافارنكا : كيف تعيشين معها الآن ، وهل انت راضية عن كل شيء • ان فيدورا شرسة بعض الشراسة ، أما اعرف ذلك ، ولكن لا تعبى ولا تحظى يافارنكا ، واغفرى لها ، لأنها طيبة جدا •

سبق أن حدثت عن تيريز هذه التى تخدمنا هنا ، والتى تملك هى ايضا قلبا طيبا ، وتستحق الثقة • كنت شديد القلق بشأن رسالتنا ، لا أعرف كيف أوصلها اليك • فاذا بالرب يرسل الينا تيريز هذه من أجل سعادتنا • امرأة ممتازة ، رقيقة الحاشية ، دثة الطبع ، وليست بثرارة أبدا • ولكن صاحبة بيتنا لا يعرف قلبها الرحمة ولا الشفقة فى الواقع • فهى ترهقها بالعمل وتعاملها أسوأ مما تعامل خرقة بالية •

ليتك تعرفين هذا المسكن المضحك الذى وقعت عليه يا فرفارا ألكسيفينا ! يا له من مسكن ! تعلمين أننى قد عشت حتى الآن حياة شديدة العزلة كثيرة الهدوء • كان كل شيء عندى صامتا صماتا يبلغ من الاطباق أن لو طارت ذبابة لسمع صوت طيرانها • أما هنا فالصخب جهنمى : صراخ لا ينتهى •• اننى لم أصف المنزل حتى الآن • هناك ، أولا ، دهليز طويل ، شديد العتمة والظلمة ، كثير الوساخة والقذارة ؛ فعلى اليمين جدار عار كل العرى ، وعلى الشمال غرف تتابع تتابع الحجرات فى فندق • هذه هى الغرف المؤجرة ورب غرفة يسكنها شخصان أو ثلاثة أشخاص • أما الترتيب فما ينبغى أن يخطر على بال • نحن هنا فى سفينة نوح • ولكن يجب الاعتراف بأن الأشخاص الذين يقيمون فى هذه الغرف لطاف ظرفاء ، وهم جميعا على جانب من الثقافة ومن العلم • أحدهم موظف (مستخدم فى ادارة أدبية) يملك ثقافة واسعة الى أقصى حدود السعة ، فهو مثلا يتكلم عن هوميروس وعن براميتوس

وعن كثير من الكتاب أيضا ، لانه يعرف كل شيء . رجل ذكي جدا .
وهناك ضابطان لا يزيدان على أن يعملوا بالورق طول الوقت . ثم هناك
ملازم بحار ، وانجليزى يعطى دروسا . اسمى : سأحاول ، من أجل
أن أسليك وأسرى عنك ، أن أصفهم لك وصفا لاذعا فى رسالتى
المقبلة . أى اننى سأصفهم لك على حقيقتهم تفصيلا . اما ربة المنزل فهى
عجوز قصيرة جدا ، وسخة ، تظل تتبخر طول النهار بالبابووج وثوب
المنزل ، لا تعمل شيئا غير تقريع تيريز من الصباح الى المساء . وانا
أسكن فى المطبخ ، أعنى . . . لا . . . اليك كيف يجب شرح الأمر :
هناك غرفة الى جانب المطبخ (جدير بالذكر ان عندنا مطبخا نظيفا
جدا ، مضيئا ومريحا) غرفة صغيرة ، ركن صغير متواضع . . او
قولى على وجه أدق ان المطبخ قاعة واسعة ذات ثلاث نوافذ وضموها حاجزا
على طول جدارها فأصبح هناك غرفة جديدة ، غرفة اضافية ان صح التعبير .
هى غرفة واسعة جدا ، مريحة جدا ، لها نافذة ، ولها كل ما يجب ؛ كل
شيء فيها جيد : ذلك هو ركنى . ما ينبغى يا ماتوشكا أن يبدو لك
هذا غريبا ، ولا أن تجدى فيه شيئا غامضا أو شيئا من سر . لماذا أسكن
فى المطبخ؟ صحيح اننى أسكن الآن فى هذه الحجرة ، أقصد وراء الحاجز ،
ولكن لا ضير فى هذا . اننى أعيش فى هذه الحجرة منزلا ، بعيدا عن
الآخرين ، أحيا حياة هادئة . وقد وضعت فى الركن سريرا ومنضدة
وخزانة وكرسیين ، وعلقت أيقونة . صحيح أن من الممكن العثور على
مساكن تفضل هذا المسكن ، وربما كان هناك مساكن تفضله كثيرا .
ولكن الراحة هى الأمر الهام قبل كل شيء . ومن أجل الراحة انما
جئت الى هنا ، اياك أن تتخيلى اننى جئت لسبب آخر من الأسباب .
ونافذتك الصغيرة تقع أمام نافذتى تماما ، وفى الجهة الأخرى فناء العمارة ،
وهو فناء ضيق جدا أراك فيه حين تمرين ، فهكذا تصبح الحياة أكثر

بهجه عند هذا البائس الشقي ، انا . ثم ان الاجر ابخس كلفة . ان
اجر أحقر غرفة هنا يبلغ مع ثمن الطعام خمسة وثلاثين روبلا ورقا .
وذلك مبلغ باهظ بالنسبة الى . أما ركني فانتى أدفع أجره سبعة روبلات .
فاذا أضفت الى ذلك خمسة روبلات فضة ثمن الطعام ، بلغ المجموع اربعة
وعشرين روبلا ، ونصف روبل ، ولقد كنت أنفق قبل ذلك ثلاثين روبلا
مع حرمان نفسى من أشياء كثيرة . كان يندر أن أشرب شيئا من شاي
أما الآن فقد أصبحت أملك ما أشتري به شايًا وسكرا . اذا لم أشرب
الشاي هنا شعرت بحرج كبير ، يا عزيزتى . ذلك أن جميع المستأجرين
أناس ذوو يسار ، فيحجلنى أن لأشرب الشاي وأنا بينهم . فبسيهم اذن
انما أشرب شيئا من الشاي يا فارنكا ، حفاظا على المظهر، ولولا ذلك ما فعلت ،
لانى لأحرص على الشاي نفسه حرصا شديدا . لست من شاربيه المولعين
به . هناك عدا هذا بعض النفقات الثرية ، لا بد من بعض النفقات الثرية ،
لا بد من بعض النفقات رغم كل شيء وثمة نفقات أخرى لا مناص
منها لحداء أتعلمه ومعطف أتدثر به . فماذا يبقى بعد ذلك ؟ هذا راتبى
كله قد طار سريعا . لست أشكو ولا أتدمر . فأنا سعيد ، وراتبى كاف .
ثم اننى أتقاضى بعض المكافآت من حين الى حين . والآن ، وداعا ياملاكى
العزيز . لقد اشتريت لك أصيص عصفرة ، وغرنوقاً ليس باهظ الثمن .
أترك تحيين زهرة البليحاء أيضا ؟ يوجد بليحاء فى مخزن أصص
الأزهار . فاكتبى الى اذا أردت أن أشتري لك منها . واذكرى لى فى
رسالتك كل شيء تفصيلا . بالنسبة ، أحب أن أرجوك أن لاتقلقى على ،
فتظنى الظنون ياماتوشكا، لاتحملى سكتاى فى حجرة كهذه على غير محمله
لا . . . لا . . . اننى لم أفعل ذلك الا نشدانا للراحة . الراحة وحدها هى
التي أغرتتى . ذلك أنتى أدخر بعض المال ياماتوشكا : اعرفى هذا . اننى
أملك الآن بعض المال على سبيل الاحتياط . لا تخطئى فى التقدير فتظنى

اننى مسكين بائس يمكن أن تقلبه بعوضة بلطمة من جناحها • لا ياماتوشكا،
لست بالرجل التافه الذى لا قيمة له ••• ان لى ارادة تليق برجل صلب
العزيمة رابط الجأش هادىء النفس • وداعا يا ملاكى الصغير • كتبت لك
هذه المرة صفحتين كاملتين ، وقد آن أن أمضى الى عملى • أقبل أناملك
الريقة الجميلة العزيزة ، وأظلم ياماتوشكا ، خادمك الذليل الأمين :

ماكار ديغوشكين

حاشية : أتوسل اليك خاصة يا ملاكى الطيب أن تردى على رسائلى
ماضية فى سرد التفاصيل الى أبعد حد ممكن • وأبعث اليك مع هذه
الرسالة برطل من المربب هنيئا مريئا ، لا تقلقى على ، ناشدتك الله ، ولا
تغضبى • والآن وداعا يا ماتوشكا •

٨ نيسان (ابريل)

عزيزى السيد ماكار الكسييفتش

هل تعلم أننا قد ننتهى الى التخاصم والتشاجر ؟ أقسم لك يا عزيزى
الطيب ماكار الكسييفتش ، انه يشق على نفسى أن أقبل هداياك • أنا
أعرف كم تكلفك هذه الهدايا ، وأعلم مدى التضحيات التى تقدمها فى
سبلى حارما نفسك من أشياء لا غنى عنها • سبق أن قلت لك مرارا اننى
فى غير حاجة الى شيء ، فى غير حاجة الى شيء البتة ، واننى غير قادرة على
أن أرد اليك احسانا باحسان ، وأن أقابل جميلك المنهمر على انهما الماطر
بجميل مثله • ما عسانى صانعة بجميع أصص الزهر هذه ؟ هبنى ارتضيت
العصيفرات الصغيرة ، فلماذا الغرناق أيضا ؟ أيكفى أن تفلت منى كلمة

واحدة ، كما حدث في أمر هذه الزهرة ، حتى تسارع الى شراء ما جاء ذكره على لساني سهواً وغفلة ؟ لا شك أنها كلفتك نفقة باهظة . ولكن ما أروع هذه الازهار بشكلها المتصالب ولونها الأحمر . ومن أين حصلت على هذا الغرنوق الاخاذ الفتان ؟ لقد وضعت الاصيص وسط النافذة في أبرز مكان ، ووضعت على أرض الغرفة مقعداً سأصاف عليه أزهاراً أخرى : انتظر أن أصبح غنية أنا أيضاً . ان فيدورا في ذروة السعادة . لكن غرفتنا أصبحت جنة حقاً . . كل شيء فيها مضيء نظيف . ولكن لماذا بعثت الى بالربب ايضاً ؟ ولقد أدركت منذ قرات الاسطر الاولى من رسالتك ان هناك اشياء لا يجزى على مايرام . انك تتكلم عن الربيع والاشداء والطيور التي تغرد . لم يبق الا أن ينظم أشعاراً ، هذا ما قلته لنفسي وأنا أقرأ رسالتك . اسمع يا ماكار ألكسييفتش : اما عن العواطف الرقيقة والاحلام الوردية فهي متوفرة في رسالتك ، وأما عن سارة نافذتي فانتى لم يخطر ببالى قط أن أشدها ، ولا شك أنها علقت مصادفة حين كنت أرحزح أصيص الازهار . أقول هذا من باب ذكر الواقع .

آه يا ماكار ألكسييفتش ، مهما تقل من كلام ، ومهما تكن طريقتك في اجراء حسابات مواردك من أجل أن تبرهن لى زورا على انك تستعملها في قضاء حاجاتك أنت ، فلن تصل الى اخفاء الحقيقة عنى . انه لواضح كل الوضوح انك تحرم نفسك من الأشياء الضرورية فى سبيلى . لماذا تقيم فى مسكن كهذا المسكن مثلاً ؟ انك لا تترك فى هذا المنزل هادئاً مرتاحاً ، بل تزعج فى كل لحظة .

لا شك فى أنك متضايق ، ولا شك فى أنك لا تتمتع بشيء من أسباب الراحة . أنت تحب العزلة ، وها أنت ذا فى خان يعج بالناس . كان فى وسعك أن تعيش فى ظروف أفضل كثيراً من هذه الظروف ، بالقياس الى راتبك . ان فيدورا تؤكد أن مسكنك السابق أفضل من

مسكنت هذا كثيرا ، وأن الثاني لا يقارن بالاول على أية حال • هل يمكنك
حقا أن تكون قد قضيت حياتك كلها على هذه الصورة ، فى العزلة
والحرمان ، بلا فرح يشرق فى قلبك ، بلا كلمة رفيقة من صديق ،
دائما بين غرباء ، فى غرفة مؤتة ؟ لشد ما أرثى لخالك يا صديقى الطيب ،
هلا راعيت صحتك على الأقل يا ماكار ألكسيقتش ! تقول ان بصرك
يضعف : عليك اذن أن تتجنب الكتابة على ضوء الشموع • وفيه الكتابة
أصلا ؟ لا شك أن رؤساءك قد أصبحوا يعرفونك ويعرفون حماسك
لعملك ونشاطك فى أداء واجبك •

أضرع اليك مرة أخرى : لا تنفق فى سبيل كل هذا الذى تفقهه .
أنا أعرف أنك تحبني كثيرا ، ولكنك لست غنيا ••• لقد استيقظت أنا
أيضا مشرقة المزاج فى هذا الصباح • فكنت أشعر بأننى قوية الجسم
سعيدة النفس • وحين استيقظت كانت فيدورا قد بدأت تعمل منذ مدة
طويلة • وقد جاءت بشغل لى أنا أيضا ، فخرجت أشتري حريرا ، ثم
شرعت أعمل على الفور • ولبت الصباح كله أشعر بالغبطة والبهجة •
ولكن ها هى ذى الحواطر السود الحزينة تعود فتستبد برأسى وتهصر
قلبي •

ما عسى يقع لى يا رب ؟ ما عسى أن يكون مصيرى ؟ انه لأمر قاس
على نفسى أن أجدنى حائرة هذه الحيرة ، قلقة هذا القلق ، لا أرى أمامى
مستقبلا ، ولا أستطيع أن أتخيل ، ولو من بعد ، ما قد يحدث لى بعد •
أما النظر الى خلف ، فلا شجاعة لى عليه • ما من شىء فى هذا الماضى الا
آلام مبرحة وعذاب شديد • ان قلبى ليمزق تمزقا متى تذكرت • ان
عينى لا تملك من الدموع ما يكفى للبكاء الى آخر أيام حياتى مما نالنى
به الأشرار من أذى ، وما ألحقوه بى من ضر •

المساء يهبط • يجب أن أستأنف شغلي • كنت أود لو أقول لك أشياء أخرى كثيرة • ولكن وقتي لا يتسع ، لأن على أن أسلم الشغل في تاريخ محدد ، فلا بد من الإسراع فيه • صحح أن الرسائل شيء رائع ، وانها تحسن الى وتسرى عني • ولكن لماذا لا تجيء الى بنفسك زائرا ؟ لماذا لا تجيء يا مكار ألكسييفتش ؟ ان مسكنك قريب جدا الآن ، وانه ليتفق لك أن تملك لحظات من فراغ • فأرجوك أن تجيء • لقد رأيت صاحبك تيريز • أعتقد أنها مريضة جدا • أشفت عليها ورق فلبس لها فأعطيتها عشرين كوبكا • ها ••• نعم ••• نسيت : يجب قطعاً أن تكتب الى واصفا لي حياتك ذاكرة كل ما تستطيع ذكره من تفاصيل • من هم الناس الذين يحيطون بك ؟ هل أنت على وفاق معهم ؟ أحب أن أعرف شيئا عن كل هذا • سوف أرفع زاوية الستارة عامدة متمعدة في هذا اليوم • ثم اني أرجوك ألا تتأخر في النوم • أمس رأيت ضوءا في غرفتك حتى منتصف الليل • وداعا الآن • ان كل شيء يبدو لي اليوم حزينا عابثا داعيا الى الشجن باعنا على اليأس • وداعا •

المخلصة لك

فرارا دوبروزبولوفا

٨ نيسان (ابريل)

سيدتي العزيزة فرارا ألكسييفنا

حق ما قلته يا ماتوشكا ، يا صديقتي العزيزة ، حق ما قلته واأسفاه : لقد كان يوما مشموما أضيف الى أيام حياتي الشقية ومصيري البائس • نعم ••• لقد سخرت مني سخرًا جميلا يا فرارا ألكسييفنا ، سخرت مني ، أنا العجوز المسكين • هي غلظتي على كل حال ، وانني لأستحق أن

ألام • ما حاجتي ، وأنا فى هذه السن وليس على رأسى من الشعر الا
خصلة ، ما حاجتى الى الاندفاع فى غراميات واشكالات ••• يجب ان
نعترف يا ماتوشكا أن الانسان كائن غريب عجيب فى بعض الساعات ،
غريب جدا ، عجيب جدا • رباہ رباہ ، أى شيطان يدفع الانسان الى
الكلام أحيانا ؟ وما جدوى هذا الكلام ؟ لا يخرج من هذا الكلام شيء ،
لا يخرج منه شيء البتة ، ولا يؤدي الا الى مواقف سخيفة ، حماسا الله
منها ووقانا شرها • لا ياماتوشكا ، لست غاضبا ، ولكننى أشعر بفضاضة
حين أتذكر ما كتبتك لك ، وأحس بالخجل من اندفاعى فى التعبير على
ذلك النحو الغبى بذلك الأسلوب المصور • لقد مضيت الى عملى فى هذا
الصباح ممتلئا بحماسة خاصة • كنت قد عنيت بزيتتى وهندامى ، وكان
كل شيء فى نفسى مشرقا • كانت نفسى فيما يشبه العيد بهجة وجورا ،
دون ما داعى الى ذلك • كنت فرحا • وأخرجت أصابيرى بهمة ونشاط •
فماذا أعقب ذلك كله ؟ لا شيء • ألقيت نظرة حولى ، فرأيت كل شيء
فى هذا المكتب كالحا حزينا على عهدى به • بقع الحبر نفسها ، الأدراج
نفسها ، القراطيس نفسها • وأنا أيضا ما تغيرت ، ما زلت كما كنت ،
فمالى وما للشعر اذن ؟ من أين طلع لى هذا الكلام ؟ الآن الشمس كانت
أكثر دفئا ، ولأن السماء كانت أسطع ضياء ؟ أياكون هذا هو السبب ؟
وكيف أمكنتنى أن أتكلم عن الأشداء والهواء المعطر ، والله يعلم كم كان
فى فناء المنزل من قاذورات ، تحت نوافذ شقتنا تماما • لقد توهمت اذن
أننى أتشوق تلك العطور من جنون أصابنى فى تلك اللحظة • أوهام ،
انه ليتفق للمرء أن يخطئ تقدير ما يشعر به هو نفسه ، وأن يسترسل
فى ترهات سخيفة • والذنب فى ذلك كله انما هو ذنب هذا الطيش فى
قلبا المندفع • وعدت الى منزلى ، بل قولى : جررت نفسى جرا حتى
بلغت منزلى • كان فى رأسى صداع شديد أصابنى فجأة من غير سبب •

هى القصة نفسها (لاشك أن هواء باردا لفتح ظهري) • كنت قد انتهجت بالربيع ، فلم أرتد ملابس دافئة • ألا ما أعينى ، ولكنك قد أخطأت تقدير حقيقة عواطفى قليلا ، يا صديقتى العزيزة ، فالحق أن اندفاع قلبى كان له اتجاه آخر غير ما تصورت انت له من اتجاه • ان عاطفة أبوية هى التى كانت تهزنى ، يا فرفارا ألكسييفا ، عاطفة أبوية محضه ، ولا شئ غير ذلك • اننى الآن بمثابة أب لك أيتها اليتيمة البائسة ! أكلمك هنا بصراحة كاملة ومودة خالصة ، كما يفعل انسان يمت اليك بقربى وثيقة • ثم اننى أمت اليك ببعض القربى : هى قربى بعيدة جدا ، أعلم ذلك ، قربى تشبه الغلية السابعة للشاى ، على ما يقول المثل الروسى • لكننى قريبك مع ذلك ، وأنا أعد نفسى فى هذه الساعة قريبك وحاميك الأقرب ، ما دمت لم تعرفى الا الخيانة والغدر لدى من كان يجب أن يقدموا لك العون والحماية فيما أنت فيه من شقاء • أما عن الأشعار فيجب أن أقول لك يا ماتوشكا انه من غير الحشمة فى مثل سننى أن ينظم المرء شعرا •• ما الشعر الا هذر ولغو • وفى أيامنا هذه يجلد الصبيان فى المدرسة اذا هم تعاطوه •• ذلك •• فيما يتعلق بهذه النقطة يا ماتوشكا •

ولماذا تحدينينى يا فرفارا ألكسييفا عن راحة مسكنى وهدوء حياتى وعن أشياء أخرى من هذا القبيل ؟ لست بالانسان الكثير المطالب ياماتوشكا ، ولم تكن ظروف حياتى فى ماضيات أيامى خيرا منها الآن • فقيم تكون لى مطامح ومطامح وقد بلغت هذه السن ؟ اننى أطمع اذا جمعت ، وأملك ما أشتري به كساء وحذاء • فماذا يريد أمثالنا فوق ذلك ؟ اننا لم نولد أبناء كونت • لم يكن أبى من طبقة النبلاء ، ولقد عاش مع أسرته كلها حياة أفقر من حياتى ، لأنه لم يكن يكسب ما أكسب • لست بالولد الذى أفسده الدلال • ومع ذلك ، ومن أجل أن أذكر لك الحقيقة كاملة،

أعترف أن كل شيء في مسكني القديم كان خيرا من كل شيء في مسكني الآن ، ولا وجه للمقارنة بين الاثنين . كنت أشعر هناك بحرية لا أشعر بمثلها هنا . صحيح أن مسكني الحالي ليس سيئا هو أيضا ، وربما كان يوجد من البهجة هنا ما لم يكن يوجد منها هناك ، ان ها هنا شيئا من التنوع في أقل تقدير ، فلست أتذمر اذن من المسكن الجديد ، ولكني أشعر بشيء من الأسف والحسرة على القديم . انا ، معشر الشيوخ او الذين طعنوا في السن قليلا ، تعلق بالاشياء القديمة تعلقنا بأصدقاء قريين كل القرب . لقد كانت الشقة الأولى ضيقة ، كما تعلمين ، وكانت جدرانها - ما فائدة الكلام على هذا ؟ - شبيهة بسائر الجدران . . . ليس هذا ما أعنيه . . . ولكن ذكرى الماضي تملأ نفسي حيناً وتبعث في قلبي حزناً وكآبة . . . ألا ما أغرب هذا الأمر : ان قلبي منقبض ، ومع ذلك تبدو لي هذه الذكريات ممتعة . حتى ما كان يسوؤني أيامئذ من عيوب تلك الحياة الماضية بل وما كان يحقنني ويثير غيظي من تلك العيوب في بعض الأحيان ، يبدو في الذكرى مبرأ من جوانبه المظلمة وينبجس في خيالي صورة مغرية جذابة . لقد عشنا هناك حياة هادئة ساكنة يا فارنكا ، أنا وصاحبة الدار ، تلك العجوز الشهمة الطيبة التي توفيت . هأنذا أعود فأشعر بالحزن حين أتذكر تلك العجوز . كانت امرأة ذات نخوة ، ولم تكن تتقاضى مني أجرا باهظا . كانت لا تنى تحيك أعطية بابر طويلة ، وتضمها بعضها الى بعض قطعة قطعة . كان ذلك سغفها الوحيد . وقد اشتركتنا في نفقات التدفئة ، فكان في وسعنا أن نعمل على منضدة واحدة . وكانت حفيدتها ماشا تعيش الى جانبها : لقد عرفتها طفلة ، ويجب أن تكون الآن في الثانية عشرة من عمرها . كانت صبية « عفريته » لا تنقطع لحظة عن المرح ، وكانت تسليتنا كثيرا . هكذا كنا نعيش نحن الثلاثة . وما أكثر ما كنا نتحلق حول المائدة المدورة في ليالي الشتاء الطويلة نشرب الشاي

ثم نستأنف العمل • وكان يتفق للمعجوز أن تتوقف عن الحياة أحيانا ، فتأخذ تقصص على « العفريتة » بعض الحكايات لتضمن بقاءها هادئة ساكنة . ما كان أجمل الحكايات التي تعرفها ! ان رجلا ناضجا عاقلا يستطيع أن يصغى اليها بلذة لاتقل عن لذة الطفل • نعم ••• كان يتفق لى أن أشعل غليونى وأن أصيخ بسمى الى هذه الاقاصيص حتى لينسى ذلك عملى • أما الصغيرة ، عفريتتها اللطيفة ، فتصيح ساهمة شاردة اللب ، وقد أسندت خدها المتورد على ذراعها الدقيقة ، وفتحت فمها الصغير الجميل ، حتى اذا أخافتها القصة قليلا شدت جسمها الى جسم المعجوز شدا قويا • ما كان أعظم متعتنا بالنظر اليها ! وكنا من فرط استغراقنا فى بعض الأحيان لا نلاحظ أن الشمعة توشك أن تضحل ، ولا نسمع هبات الريح فى فناء الدار ولا اعصار الثلوج • كانت حياتنا ممتعة هنالك ، نحن الثلاثة ، يا فارنكا • قضينا معا قرابة عشرين عاما • ولكن هأنذا أثرثر خارج الموضوع •• لعل هذه الأمور لاتهمك • تم ان هذه الذكريات تثير أشجاني وتجعلنى حزين النفس ، لا سيما فى هذه اللحظة ، ساعة الفسق •• ان تيريز تذهب وتجيء ، والصداع يحطم رأسى ، وفى ظهري آلام أيضا • يضاف الى ذلك أن الخواطر التي تغزو فكرى غريبة شاذة ، وكأنها مريضة هي أيضا • أنا اليوم حزين يا فارنكا •• فى رسالتك نقطة تدهشنى يا صديقتى العزيزة • كيف تستطيعين أن تطلبى منى أن أجيئك زائرا ؟ ما عسى يقول الناس ، يا ملاكى الصغير ؟ هل فكرت فى هذا ؟ سيكون على أن أجتاز الفناء من أجل أن أتى إليك ، فيلاحظ جيرانتاذلك ، ويأخذون يطرحون الاسئلة تلو الاسئلة ، فيؤدى هذا الى ثرثرات ثم الى نائم واشاعات ، لأنهم سيسئون تأويل العلاقات التي بيننا •• لا ، لا ياملاكى الصغيرة ، الأفضل أن أراك غدا فى الكنيسة عند الصلاة فى الغروب • ذلك أقرب الى العقل والحكمة ، وأبعد عن المخاطر لنا كلينا ••• لا

تؤاخذيني ، ياماتوشكا ، على هذه الرسالة المضطربة المشوشة . لقد أدركت حين أعدت قراءتها اننى خيبت فيها خبط عشواء . ما أنا ، يا فارنكا ، الا رجل عجوز بلا ثقافة ! لم يتح لى أن أحصل فى صغرى قسطا كافيا من العلم ، وما فى مثل سننى يستطيع المرء أن يتقف نفسه : ففى هذه السن لا تدخل الأشياء رأس الانسان بسهولة . أنا أعلم يا ماتوشكا اننى غير حاذق فى فن الكتابة ، ولست أجهل ، دون أن ينهينى أحد الى ذلك ساخرا مستهزئا ، أنتى لا أزيد على أن أراكم السخافات فوق السخافات حين أنقطع لكتابة عبارات أرفع قليلا رأيتك اليوم فى النافذة ، رأيت كنت أسدلت الستارة . وداعا وداعا . أسأل الله أن يكلأك برعايته ، وداعا يا فرفارا ألكسييفنا .

**صديقك المخلص
ماكار ديفوشكين**

حاشية : لست أهجو أحدا يا صديقتى العزيزة . أنا رجل عجوز يا ماتوشكا ، يا فرفارا ألكسييفنا وهل لعجوز أن يتسلى بأن يكون شريرا بغير داع ولا سبب ! ثم اننى لو فعلت لسخر الناس منى ، على حد قول المثل الروسى القديم « من حفر حفرة لغيره وقع فيها . . » .

عزيزى السيد ماكار ألكسييفتش

كيف لا تستحى يا ماكار ألكسييفتش ، يا صديقى الطيب ، يا من تحسن الى وتنعم على ، كيف لا تستحى أن تفضب هذا الغضب كله وأن تستاء هذا الاستياء كله دون ما سبب ؟ هل صحيح أننى جرحت شعورك ؟ وأسفاه ، انه ليتفق لى أن أكون طائشة قصيرة النظر ، قليلة التروى ، ولكن لم يخطر ببالى أبدا أنك ستحمل أقوالى محمل الغمز والسخر .

تق اننى لن اسمح لنفسى يوما بان أمزح فى امر سنك وطبعك • ان مرد
هدا كله الى خفتى وطيشى ، ولا سيما الى الضجر الرهيب الذى أشعر
به ، الى السامة المضنية التى تاخذ بخناقى ••• وانت تعلم الى اين يمكن
ان يدفع بالمرء ضجره وسامه • وكنت قد قدرت ، من جهتى ، انك انت
أيضا كنت تمزح فى رسالتك • ولكننى حزنت حزنا شديدا بعد ذلك ،
حين أدركت أنك استأنت منى • لا يا صديقى الطيب ، يا من تحسن الى ،
وتنعم على ، انك تخطىء اذا ظننتنى عديمة الاحساس عاقبة قليلة الوفاء •
اننى فى اعماق قلبى أعرف كيف أقدر كل ما فعلته من أجلى ، حين
حميتى من الاشرار ، حين نجيتى من اضطهادهم ومن بغضهم وكرههم •
لسوف أظل أدعو لك الله ما حيت ، فاذا وصل دعائى الى السماء واستجاب
الله له ، عشت سعيدا •

أشعر اليوم بأننى مريضة جدا • ان بى حمى تتخللها قشعريرات •
فيدورا قلقة على أشد القلق • تخطىء اذا تخرجت من زيارتنا • هذا امر
لا شأن لأحد من الناس به • أنت صديق لنا وكفى ••• وداعا يا ماكار
ألكسييفتش • ليس عندى ما أقوله الآن غير هذا ، ولا أستطيع الآن أن
أكتب أكثر مما كتبت ، لأننى مريضة متعبة جدا • أرجوك مرة أخرى أن
لا تؤاخذنى ، وأن تثق كل الثقة بالاحترام الذى ستشرف بالشعور به
نحوك دائما خادمك الوفية المخلصة :

فرارا دبروزيولوا

١٣ نيسان (ابريل)

ماذا جرى لك يا ماتوشكا؟ انك تسيين لى قلقا لا يهدأ ولا ينقطع ،
اننى أضرع اليك فى كل رسالة من رسائلى أن تمتنى بنفسك ، وأن

تدثرى بملابس دافئة وألا تخرجى فى غير أيام الصحو وأن تكونى محاذرة فى كل أمر من الأمور ، ولكنك لاتريدين أن تطيعينى يا ملاكى الطيب ، حقا انك لطفلة يا حمامتى الصغيرة . ان جسمك ضعيف واهن ، انك أشبه بمصافة قش ، أعلم ذلك ، يكفى أن تهب عليك نسمة هواء حتى تمرضى . لذلك يجب أن تدارى نفسك ، وأن تراعى صحتك ، وأن لا تتعرضى للخطر ، وأن لا توقعى أصدقاءك فى الحزن والشجن والألم . تقولين لى يا ماتوشكا انك ترغين فى معرفة مجرى حياتى معرفة دقيقة صحيحة ، وفى معرفة كل ما يحيط بى . انه ليسعدنى أن أسارع الى تلبية رغبتك يا صديقتى العزيزة . وسأبدأ بالبداية ، اذ لا بد من شىء من الترتيب . هذا مدخل المنزل أولا : انه ملائم جدا ، والسلالم لا مأخذ عليها ، ولا سيما السلم الخاص بالسادة ، فهو نيرٌ واسع عريض ، لا يقع بصرك فيه الا على معدن وخشب من شجر الكاجو . أما سلم الخدمة فمن الخير ألا أقول عنه شيئا : انه لولبى ، وهو الى ذلك رطب قدر ، ودرجاته مهشمة نصف تهشيم . يضاف الى هذا أن جدرانها تبلغ من انطلائها بالدهن أن اليد تلتصق بها اذا هى استندت عليها . وعلى كل فسحة من فسحاته بقايا أثاث قديم ، فالحقائب والكراسى والحزائن مبشرة فوضى ، والخرق البالية منثورة هنا وهناك ، وزجاج النوافذ محطم ، وفى الأركان صناديق ملاءى أوساخا ونفايات وقشور بيض وأحشاء سمك . رائحة كريهة . الخلاصة : شىء ليس بالجميل جدا .

وقد سبق أن وصفت لك وضع الغرفة . لا مأخذ على الغرفة . انها مريحة جدا والحق يقال . ولكن المرء يشعر فيها بشىء من الاحتناق . كيف أصف لك ذلك ؟ ليس معنى هذا ان الرائحة كريهة . غير أن المرء يحس بشىء من عفونة ، بشىء من تنن حاد . فيضيق ذرعا بهذا الاحساس فى أول الأمر . ولكن هذا الاحساس ما يلبث أن يزول بعد بضع دقائق

من المكوث فى المنزل ، دون أن يشعر المرء بزواله • ذلك أن الرائحة التى أحدثك عنها سرعان ما تنفذ الى الشخص نفسه • فإذا رائحته كلها هى هذه الرائحة نفسها ، فملايسه ، ويدها تصبح لها هذه الرائحة ذاتها ، فلا يلاحظها بعد ذلك لأنه يألفها • البلايل تموت فى منزلنا واحدا بعد آخر • اشترى الضابط البحار بلبلا خامسا منذ قليل • ولكن هذه الطيور لا تستطيع أن تعيش فى هواء منزلنا • فى الصباح تمتلئ الدار بالدخان طبعاً ، وذلك حين يقلى اللحم أو يطبخ السمك • ثم ان أرض المنزل مبللة فى مواضع كثيرة ، بالماء تارة ، وبالمرق تارة أخرى • أما فى المساء فمزلنا جنة حقاً • وهناك جبل فى المطبخ يعلق عليه غسيل عتيق • ولما كانت غرفتى غير بعيدة عن المطبخ ، او مجاورة للمطبخ ، فان رائحة هذا الغسيل تضايقنى أحياناً • ولكن ذلك كله لا قيمة له • فان المرء يعتاده بمضى الزمن شيئاً فشيئاً •

ومنذ الساعات الأولى من الصباح يقوم المنزل ويقعد يافارنكا • الناس يهضون ويسرون ويحدثون ضجة كبيرة • جميع الذين يجب أن يذهبوا الى العمل يسرعون • والآخرى يستيقظون ايضاً • وهم يشربون الشاي جميعاً فى هذه اللحظة • وأباريق الشاي (السماور) تملك صاحبة البيت أكثرها ، ولما كان عددها قليلاً ، فنحن نحسبى الشاي واحداً بعد آخر • فاذا تقدم أحدهم بفنجانه قبل أن يجيء دوره تلقى لطمات تلو لطمات • وهذا ما حدث لى فى اليوم الأول ، لأننى لم أراع هذا النظام فيما يظهر ••• ولكن فيم الكلام على هذا الآن ؟ لقد تعرفت على جميع جيرانى ، عقدت حديثاً فى أول الأمر مع الضابط البحار • انه انسان صريح جدا حكى لى قصة حياته ، حدثنى عن أبيه ، عن أمه ، عن أخته التى تزوجت قاضياً من تولا ، ووصف لى مدينة كرونشتاد . وعد بمساعدتى وحمايتى فى كل أمر ، ودعائى الى تناول الشاي فى غرفته • ذهبت إليه • انها

الغرفة التي اتخذت مقرا للعب بالورق فى منزلنا • قدموا الى شيتا من الشاى ، وأرادوا أن يدفعونى الى مشاركتهم فى اللعب دفعا • لا أدرى هل كانوا يسخرون منى آنذاك • ولقد ظلوا يلعبون طوال الليل بغير توقف • كان اللعب فى أوج اشتداده حين دخلت الغرفة : فما رأيت فى أول الأمر الا الطباشير وورق اللعب ، لأن الغرفة كانت مملأى بدخان السجائر ، حتى لقد أحسست من ذلك بألم فى عيني • وحين رفضت أن أشاركهم اللعب وصفونى بأننى أتفلسف ، ثم لم يخاطبني أحد منهم بعد ذلك بكلمة واحدة ، والحق أن ذلك لم يسوئنى • لن أذهب اليهم فى المستقبل • هؤلاء أناس مقسامرون لا يخطر ببالهم شىء غير القمار ، ولا يفكرون فى شىء غير هذا اللعب الذى يقوم على المصادفة • وفى غرفة الموظف فى الادارة الأدبية تعقد اجتماعات فى المساء أيضا ، ولكن كل شىء هنالك طيب محتشم برىء يفيض رهاقة وذوقا وسموا •

يجب أن أذكر مع ذلك عابرا يا فارتكا ، أن صاحبة البيت امرأة شريرة بل ساحرة شمطاء • لقد رأيت تيريز • ان منظرها يثير الرحمة ويبعث على الشفقة حقا : انها من فرط هزالها تشبه أن تكون دجاجة مصدورة تنف ريشها • وفى البيت خادمان فقط : تيريز ، وفالدونى خادم صاحبة البيت • ربما كان له اسم آخر ، لكننى لا أعرفه ، لأنه ينادى بهذا الاسم دائما • جميع من فى المنزل ينادونه بهذا الاسم • انه أحمر اللون ، عجيب الجسم ، معقوف القامة ، أفطس الأنف ، شرس الطبع ، فظ الخلق ، لا ينسى يتشائم مع تيريز ، حتى ليصل الأمر بهما الى حد التماسك بالأيدى • بوجه عام ، لا أستطيع أن أقول ان حياتى هنا ممتعة من جميع النواحي ••• أما عن الليل ، فلا يتفق لى أبدا أن أستطيع النوم فورا فى هدوء وراحة • لا يخلو المنزل لحظة من ضجة تقوم هنا أو هناك ، فبارة يأتى الصخب من غرفة المقامرين ، وتارة ينبعث من أمور

اخرى تجرى هنا ويستحي المرء ان يرويها • لقد تعودت بعض التعود
الان ، ولكن يدهشنى حقا ان يستطيع اناس لهم اولاد ان يعينوا فى هذا
المكان الذى يشبه مدينة سودوم • ان هناك اسرة بكاملها من البؤساء قد
استأجرت غرفة من صاحبة الدار • غير أن غرفتهم لا تقع الى جانب
الغرف الأخرى • فهى فى آخر الدهليز ، فى ركن يشبه أن يكون
منزلا • انهم اناس هادئون كل الهدوء ، لا يسمع لهم صوت قط •
يعيشون جميعا فى غرفة واحدة شطروها بحاجز شطرين • يبدو أن
الأب موظف بلا عمل ، صرف من الخدمة لسبب أجهله • اسمه
جورشكوف • انه قصير القامة ، أشيب الشعر ، يرتدى ملابس تبلغ من
القدارة والبلى ان منظرها يؤلم النفس • ملابسه خلقة بالية أكثر من
ملاسي ، ان هيئته الرثة تبعث على الشفقة ، وتدل على انه مريض (يتفق
لى أن أصادفه فى الدهليز) • ركبته تصطكان ، ويدها ترتعشان ،
ورأسه يرتجف ، كأن به مرضا خاصا • الله أعلم • وهو خجول شديد
الخجل ، يخشى لقاء الناس ، ويمشى محاذرا لا يجب أن يلمحه أحد •
أنا أيضا خجول ، ولكن هذا الرجل أشد خجلا منى • تتألف أسرته من
امراة وثلاثة اولاد • أكبرهم صبى هو صورة أبيه ، لا يقل عنه نحولا
وهزالا • أما المراة فيبدو أنها كانت فى الماضى على جانب من جمال
ما يزال يلمح الى الآن ، ولكنها رثة الثياب رثانة تثير الشفقة • وقد قيل
لى انهم اقترضوا مالا من صاحبة البيت ، وهى قاسية عليهم غير لطيفة فى
معاملتهم • وسمعت أيضا أن جورشكوف يعانى من مصاعب هى سبب
بطالته • الأمر أمر دعوى أو ملاحقة قضائية ، بل هو أمر تحقيق ادارى
فيما يبدو • غرفتهم هادئة دائما ، تبلغ من الهدوء أن المرء لا يخطر
بباله أن يكون فيها سكان • حتى الأطفال لا يحدثون صخبا ، فما يسمعونهم
أحد يصرخون أو يركضون ، وتلك علامة سيئة • لقد اتفق أن مررت

أمام بابهم ذات مساء • كان ذلك فى لحظة هدأ فيها المنزل على غير عادته •
فسمعت تأوهات كأنها دشيخ مخنوق ، ثم سمعت همسات ، فنشيجا من
جديد • كان هناك أحد يبكى ولكن بصوت خافت مزق قلبى أسى وشفقة
وقبض صدرى شجى وحزنا ، ثم لم تفارق صورة هؤلاء البؤساء خيالى
لحظة طول الليل ، ولم أستطع أن أنام الا بعد لآى •

الوداع يا صديقتى الغالية • يا صغيرتى فارنكا • لقد وصفت لك
حياتى كما استطعت • اتى لم أزد على أن أفكر فىك طوال النهار • قلبى
ينتحطم يا عزيزتى الغالية حين استعرض الوضع الذى انت فيه • انك
تفتقرين حتى الى معطف تدرئين به ، أنا أعرف ذلك يا حياتى • آه من
ربيع بطرسبرج هذا ! • آه من هذه الرياح وهذه الأمطار التى يخالطها
تلج ! ••• تلك لعنة يا فارنكا • هذا جو لا يطاق • وقانا الله شر هذا المناخ
الردىء • لا تؤاخذينى يا روحى ، يا صغيرتى ، اذا رأيت رسالتى
مضطربة هذا الاضطراب • ان أسلوبى ركيك يا فارنكا ، ركيك جدا •
ألا ليتى أجيد الكتابة بعض الاجادة • اننى أقول ما أقول عفو الخاطر •••
لا هم لى من ذلك الا أن أسليك قليلا ••• ولو كنت قد تعلمت فى
صغرى اذن لاختلف الحال • ولكن أين كان فى وسعى أن أتعلم ؟ •••
كنت أفقر من أن أستطيع الدراسة •

صديقك المخلص الوفى ، صديقك الى الأبد

ماكار ديفوشكين

٣٥ نيسان (ابريل)

عزيزى السيد ماكار الكسييفتش !

التقيت اليوم بابنة عمى ساشا ، يا للهول ! انها تدلف الى الذبول والهلاك هي أيضا ؟ ولقد علمت كذلك من جهات مختلفة ان أنا فيودوروفنا ما تزال تسأل عنى وتستطلع أخبارى . ترى ألن تكف هذه المرأة عن تعذيبى واضطهادى ؟ هي تدعى أنها مستعدة أن تصفح عنى وتغفر لى ، أن تنسى الماضى ، وأن تأتى تزورنى بنفسها . وهى تؤكد أنك لا تمت الى بآية قرابة ، وانها أقرب الى منك ، وانك لا تملك حق التدخل فى علاقاتنا العائلية ، وان من العار على بل من المشين لى أن أعيش على برّك واحسانك بقبولى معونتك المادية انها تصفى بآنى نسيت خيراتها على ، ونسيت الحبز الذى طعمته فى بيتها ، وتقول انها أنقذنا أنا وأمى يوم كنا نوشك أن نموت جوعا ، وانها آوتنا وأطعمتنا وأرهمت نفسها فى سبيلنا طوال عامين ونصف عام ، وانها فوق ذلك كله قد أعفتنا من سداد المال الذى ندين لها به . انها لا تراعى حتى حرمة أمى ! آه لو استطاعت أمى المسكينة أن تعلم بكل ما صنعه بى وتدعى أنا فيودوروفنا أيضا اننى لم أعرف كيف أحافظ على سعادتى ، وان حماقتى هي السبب فى ذلك ، وانها أرادت أن تسعدنى ، ولكنها غير مذنبه فى ماحدث بعد ذلك ، لأننى لم أعرف وربما لم أشأ أن أحمى شرفى وأدافع عنه . من المذنب اذن يارب ؟ انها تؤكد أن بيكوف على حق تماما ، وأن الرجل لا يتزوج أول امرأة تعرض له . ولكن فيم أنقل اليك هذا الكلام ؟ انه ليشق على نفس المرء أن يسمع مثل هذه الأقوال الظالمة يا ماكار ألكسييفتش . لا أدرى ماذا يتسأبنى الآن ، ان جسمى كله يرتعش ، واننى أبكى وأتحب . أنفقت ساعتين فى كتابة هذه الرسالة

لك • كنت أحسب ان هذه المرأة ستعترف على الأقل بما ارتكبه من
أخطاء فى حقى ، فانظر كيف تتصرف الآن ! ناشدتك الله لا تقلق ولا
تعذب نفسك يا صديقى ، يا صديقى المخلص الوحيد • ان فيدورا تبالغ
دائما : فما أنا بمريضة • كل ما فى الأمر ان يردا أصابنى أمس فسبب لى
زكاما فيما كنت ذاهبة الى فولكوفو لحضور صلاة الموتى التى أقيمت احتفالا
بذكرى أبى • لماذا لم تجيء معى ؟ ألم أتوسل اليك أن تجيء ؟ أماء ،
أماء المسكينة ، ليك تستطيعين أن تخرجى من قبرك فتعرفى وترى
ما صنعه بى •••

ف ٥٠

٢٠ أيار (مايو)

حمامتى ، عزيزتى الصغيرة فارنكا !

أبعث اليك بقليل من العنب يا يمامتى • يقال ان أكل العنب مفيد
ائناء النقاهة ، ثم ان الطيب ينصح به ارواء للظلمة ، فكليه ارواء للظلمة
وحده ؟ ولقد اشتهيت منذ أيام قليلا من الحبز الصغير الأبيض • فهأنذا
أرسل اليك منه أيضا يا ماتوشكا • هل تشتهين الطعام يا حياتى ؟ هذا
هو الأمر الهام • على كل حال لقد انتهى المرض والحمد لله ، انقضى ،
وستزول جميع آلامنا زوالا تاما • فلنشكر لله نعماءه ، أما عن الكتب فقد
استحال على أن أحصل شيئا منها حتى الآن • يقال ان فى منزلنا كتابا
رائعا كتب بأسلوب جميل • يزعمون انه كتاب شائق جدا • لم يتح لى
أن أقرأه • ولكنهم يمدحونه كثيرا هنا • وقد وعدونى به • ولكن هل
ستقرئنه ؟ انى أعرفك يا ملاكى ، وأعرف انك صعبة فى هذا المجال ،
فليس يسهل الوصول الى ارضاء ذوقك دائما • لا شك انك تشددين

شعرا وآهات وغزلا *** فليكن لك ما تريدن *** سأحصل لك على قصائد ، سأجد ما أنت فى حاجة اليه . لقد رأيت فى أحد الأماكن دفترا مليئا بقصائد شعر . حياتى ممتعة جدا . لا تقلقى على يا ماتوشكا ، أرجوك . ان ما روته لك عنى فيدورا ليس الا هذرا . قولى لها انها كذبت ، قولى هذا الكلام حتما لهذه النمامة *** . لم يخطر ببالى أبدا أن أبيع ردائى الجديد ، وعلام أبيعهُ ؟ فكرى فى الأمر ، ما حاجتى الى بيعه ؟ انى سأتقاضى مكافأة قدرها أربعون روبلا فيما يقال . فعلام أبيع ردائى والحالة هذه ؟ لا تقلقى يا ماتوشكا . فيدورا انسانة متشائمة ، تحمل كل شىء محمل الفاجعة والمأساة . لسوف نعيش سعداء يا يمامتى . شريطة أن تبلى من مرضك . ناشدتك الله الا أبلت *** لا تحزنى رجلا عجوزا . من ذا الذى زعم لك أننى قد هزلت ونحلت ؟ باطل هذا الكلام ، باطل ، ان صحتى جيدة جدا ، حتى لقد سمنت ، وبلغت من السمنة ما يجعلنى أخجل من نفسى . اننى أطعم متى جعت ، وأنا مسرور مبتهج ، وعندى وفرة من كل شىء . المهم أن تبلى من مرضك يا ملاكى الصغير ! الوداع الآن ! أعمر بالقبل أناملك الصغيرة وأبقى الى الأبد :

صديقك الوفى ، صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

حاشية : ما هذا الذى كتبه لى يا حياتى ؟ ذلك طيش يا عزيزتى ؟ كيف تراك تفكرين فى الأمر ؟ كيف يمكننى أن أكثر زيارتى ياماتوشكا الى الحد الذى تتصورينه ؟ قد أستطيع زيارتك ليلا بحيث لا يرانى أحد . ولكن أين الليل فى هذا الفصل ؟ ثم اننى لم أكد أترك سيرك ، ياملاكى الطيب ، طوال مدة مرضك ، ولا سيما أثناء الغيبوبة التى كنت فيها . اننى

لا أدري كيف استطعت أن أرتب أموري بحيث وصلت الى ذلك . ولكنني آثرت أن أقطع زياراتي بعدئذ . لقد بدأ الناس يستطلعون ويلقون الأسئلة ، حتى لقد أخذت الألسنة تلوك بعض الاشاعات هنا . انني أعتد على تيريز ، فهي امرأة كتوم لا تفشي الأسرار . ولكنني أحكم اليك أنت يا ماتوشكا ، ما عسى يحدث اذا عرفوا كل شيء عن علاقتنا ؟ ما عساهم يظنون وما عساهم يقولون ؟ عليك بالصبر اذن يا ماتوشكا ، وتجملي بالشجاعة ، وانتظري حتى تبلى من مرضك ، وبعد ذلك نرتب أمورنا بحيث نلتقى في مكان خارج المنزل .

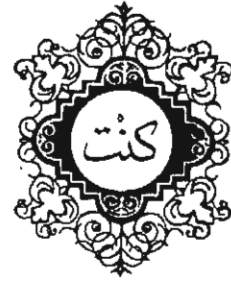
١ حزيران (يونيه)

عزيزى الغالى جدا ماكار الكسييفتشى !

لرغبتى الشديدة فى أن أفعل شيئا يسرك ، جزاء ما تحملت فى سبيلى من عناء كبير ، وما عانيت من هم شديد ، وجزاء ما محضتى من عاطفة صادقة ، فقد قررت أخيرا فى لحظة من فراغ أن أنبش دروج خزائى لأعثر فيها على هذا الدفتر الذى أرسله اليك الآن ، والذى سجلت فيه بعض ذكرياتى . لقد بدأت كتابة هذه الذكريات فى عهد كان ما يزال سعيدا من حياتى . لطالما سألتنى عن حياتى الماضية وعن أمى وعن بوكروفسكى ، وعن أقامتى فى منزل آنا فيدوروفنا ، وعمما لقيت أخيرا من شقاء ، وقد بلغت من شدة شوقك الى قراءة هذا الدفتر الذى لايعرف الا الله كيف خطر ببالي ان أروى فيه قصة بعض ساعات حياتى ، انك

واجد في قراءته ربا لظمئك ما في ذلك ريب ؛ لذلك أبعث به اليك •
أما أنا فقد شعرت بحزن شديد حين أعدت قراءته • يخيل الى أن سنى
قد تضاعفت مرتين منذ كتبت آخر سطر من سطره الى الآن • ان المشاعر
التي يتحدث عنها هذا الدفتر قد سجلت في فترات مختلفة • وداعا ياما كار
الكسيقتش • انتى أشعر بسأم شديد وضجر رهيب ، وكثيرا ما أظلم
مسهدة طوال الليل لا يعرف جفتى سيلا الى النوم • ألا انها لنقاهاة
حزينة شجية •

ب. د



قد أتممت الرابعة عشرة من عمري حين مات ابي •
كانت طفولتي أسعد فترات حياتي • لقد بدأت
طفولتي في مكان بعيد عن هنا ، بعيد عن هذه
المدينة • بدأت في مقاطعة نائية من الريف • كان
أبي ناظرا على أملاك الأمير ب ، في حكومة ت • كنا نعيش في قرية من
تلك القرى التي يملكها الأمير ، وكانت حياتنا في تلك القرية تجري على
هون هادئة سعيدة ••• كنت عندئذ صبية جملة النشاط كثيرة الحركة ،
أقضى وقتي راكضة بين الحقول ، مطوّفة في الغابات والأجام ، أو متنزهة
في الحديقة • ولم يكن أحديهم بي أو يلتفت اليّ •• فأبى دائم الانصراف
الى أعماله وأمي تستغرق عنايتها بالمنزل وقتها كله • ما كانوا يعلمونني
شيئاً ، بل كانوا يدعونني وشأنني حرة طليقة ، وكنت سعيدة بذلك كل
السعادة • وكان يتفق لي في بعض الأحيان أن أهرب من البيت في ساعة
مبكرة من الصباح فأمضى الى الغدير أو الى الغابة، أو أذهب أرى الأعلاف،
أو أجرى الى الحصادين أخلط بهم وأشار بهم عملهم ، غير عابثة بالشمس
التي تحرقني غير خائفة أن أضل طريقى اذا ابتعدت عن القرية ، أو أن

تخدشنى أشواك العوسج وأن تمزق ثوبى • ولهذا كانوا يؤنبونى
ويقرعونى حين أعود الى البيت ، فلقد كنت لا أبالى ذلك ولا أحفل به •
يخيل الى أنى لو أتيت لى أن أبقى فى الريف طول حياتى وأن
أعيش فى ذلك المكان عمري كله لكنت سعيدة كل السعادة • ولكننى
اضطرت أن أترك تلك المراتع الجميلة العزيزة على نفسى وأنا ما أزال
طفلة • كنت فى الثانية عشرة من عمري حين سافرنا الى بطرسبرج •
ما أشد الحزن الذى أشعر به الآن حين أتذكر استعداداتنا الشاقة الاليمة
للسفر ! ما أكثر ما ذرفت من دموع حين ودعت كل ما كان حبيبا الى
قلبي ! أذكر انى ارتميت على عنق أبى أضرع اليه والدموع تترقرق
فى عينى ، أن يدعنى فى القرية بعض الوقت • ففضب منى أبى ، وأخذت
أمى تبكى ، وقالت لى ان سفرنا أمر لا بد منه ، فأعمالنا توجهه وتقضيه ،
فلا مناص من السفر • لقد مات الأمير العجوز ب ، ففسخ ورتته العقد
الذى كان مبرما بينه وبين أبى • وكنا نملك شيئا من مال عهد به أبى الى
بعض الأفراد فى سان بطرسبرج • ولما كان يأمل أن يحسن وضعه ،
فقد رأى أن من اللازم أن يسافر الى تلك المدينة بنفسه • ذلك كله قد
علمته من أمى • واستقر بنا المقام على الشاطيء الأيمن ، ولبثنا مقيمين
هنالك الى أن مات أبى •

لشد ما لقيت من عناء حتى أتلاءم مع حياتنا الجديدة • وصلنا الى
سان بطرسبرج فى أوج الخريف • كان الجو فى القرية يوم غادرناها
رائعا ، فالهواء رائق ، والمناخ دافئ ، والشمس مضيئة • وكانت أعمال
الحصاد تشارف على النهاية • فيادر القمح تتجمع أكواما كبيرة ، وأسراب
الطيور تحوم حولها مزقزقة • كان كل شيء يبدو مرحا فرحا ينبض
سعادة • حتى اذا وصلنا سان بطرسبرج استقبلتنا الأمطار وصقيع الخريف
والضباب والوحل وهذا الجمهور من الناس الذين لا تعرفهم يجرون فى

الشوارع عابسين مقطعين مزورين مستائين ، واستقررنا كيفما اتفق ***
ما زلت أذكر كيف كنا فى الأيام الأولى نذهب ونجىء بغير توقف ولا
انقطاع اذ كان علينا أن نهيبء مسكننا الجديد •

كان أبى فى خارج البيت دائما ، وكانت أمى لا تملك من وقتها
دقيقة واحدة ، ونسيت أنا نسيانا تاما • ماأشد الحزن الذى اعترانى حين
نهضت من نومى بعد الليلة الاولى التى قضيناها فى منزلنا الجديد ! ان
نوافذ المنزل تطل على سياج أصفر اللون ، والشارع قذر دائما ، لا يمر
به الا قليل من الناس ، وهم يرتدون جميعا ثيابا دافئة ، ويظهر فى
وجوههم أنهم مقرورون •

وفى منزلنا يرين الضجر وتسود الكآبة من الصباح الى المساء • لم
يكن لنا أصدقاء أو أقرباء • أما أنا فيدوروفنا فكان أبى تشاجر معها
(كان يدين لها بمبلغ من المال) ، وكثيرا ما كان يجيئنا زوار لأعمال •
فكان هؤلاء الزوار يحملون الى المنزل شجارا وصياحا وزعيقا • وكان أبى
بعد كل حديث من الأحاديث التى تجرى بينه وبينهم يصيح مكفهر الوجه
سريع الغضب ، ولا ينى يسير من أول الغرفة الى آخرها ذاهبا آيبا ساعات
طوالا ، وقد قطب حاجبيه ، وصمت صمتا مطبقا لا يتجه الى أحد بكلمة •
وكانت أمى لا تجرؤ أن تخاطبه فى مثل تلك اللحظات ، فهى تلزم الصمت
ولا تبس بحرف • وكنت أنا أجلس فى ركن مع كتاب من الكتب ،
لا أتحرك مخافة أن ألفت الانتباه اذا أنا تحركت •

وبعد وصولنا سان بطرسبرج بثلاثة أشهر أدخلت مدرسة داخلية
فما أشد ما شعرت به من حزن فى أول الأمر بين غرباء ! كان كل شىء
يبدو لى هنالك باردا معاديا • فالمریات لا يزدن على أن يصحن طول
الوقت ، والبنات لا ينقطعن عن الاستهزاء بى والسخر منى ، وأنا بين
هؤلاء وأولئك فى تلك الآونة متوحشة شديدة التوحش • انهن قساة عتاة

يندفعن الى التوبخ والتفريع لأنفه الأمور وأيسر الأسباب • وكل شيء
يجرى هنالك على نظام دقيق ومواعيد ثابتة جامدة • والطعام مشترك
والاستاذة مملون مضجرون • شعرت في الأشهر الأولى بأننى مصعوقة
كانتى أسحق سحقا • أصبحت لا أستطيع أن أنام • وكان يتفق لى أن
أظل أبكى طوال الليل ••• وكانت الليالى تنقضى طويلة كتيبة باردة •
مازلت أرانى فى بعض الأمانى ، ساعة تحضّر التلميذات دروسهن للغد،
جالسة أمام دروسى لا أجرؤ أن أتحرك ، وقد انصرف ذهنى الى غير
ذلك ، ورحت افكر فى منزلى ، فى ابى ، فى امى ، فى مرضعتى العجوز،
فى الحكايات الجميلة التى كانت تقصها على ••• أه ما أشد الحزن الذى
كان يتأبى فى تلك اللحظات ! ان أيسر أمر من الأمور التى لها صلة
بحياتى فى المنزل كان يسدو لى جميلا أخذا حين أتذكره فجأة • كنت
أحلم قائلة لفسى : ما اجمل الحياة فى منزلنا الان ! ما أجمل أن أكون
الآن مع أهلى فى الحجره الصغيره أمام السماور ! ما أجمل ان أقبل امى
قبلات حارة وأن أشد جسمى اليها شدا قويا ! هكذا كنت أحلم ثم أطفق
أبكى من الحنين بكاء صامتا ، فأخفق الشيوخ لا أدع له أن ينطلق من
صدرى • ولم أكن أستطيع أن أحفظ دروسى •• « لن أستطيع الاجابة
غدا اذا ألقى على الامتاذ سؤالا ، وكنت أظل أحلم طول الليل بالامتاذ،
و « المدام » والبنات ، وأكرر دروسى وأنا نائمة ، حتى اذا جاء الغد
ودخلت الصف رأيتنى لا أعرف شيئا ولا حفظت شيئا • فكنت أعاقب
بالركوع والحرمان من الطعام • وصرت فتاة حزينة أشد الحزن ، برمة
بالحياة أشد البرم • كانت التلميذات فى أول الامر يهزأن بى ويسخرن
منى ، ويماحكننى ، ويتسلين بيث الاضطراب فى نفسى حين أتلو دروسى،
ويقرصننى حين نصطف لنذهب الى الغداء أو العشاء ، ويشكيننى الى
الناظرة بغير ذنب اقترفته وبغير داع الى ذلك • وفى مقابل هذا ، ما كان

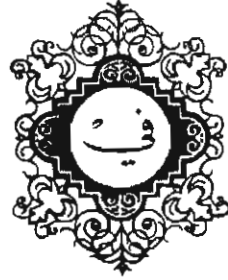
أروع الجنة التي أحس أنني أدخلها حين كانت تجيء الى مرضعتي في مساء يوم السبت لتقودني الى المنزل ! كنت أكاد أحتق وأنا اضمها الى صدرى فرحا . . . يا لها من عجوز رائمة ! . . . كانت تلبسني ثيابي ، وتذرني بما يقيني البرد ، ثم تتحمل غناء كبيرا من أجل ان تستطيع مجازاة خطواتي في الشارع بينما أنا أثرثر بغير توقف قاصة عليها جميع تفاصيل حياتي . وكنت أصل معها الى البيت فرحة مرحة سعيدة ، فأقبل أهلي مندفعة أشد الاندفاع كأنني لم أرهم منذ عشر سنين . ويأخذ الجميع يتكلمون ويسألون ويحكون . وأخذ أحبيهم واحدا واحدا ، وأضحك مقهقهة ، وأركض هنا وهناك ، وأفقر وأتواكب في كل ركن من أركان الغرفة . وكان أبى يسألني في أمور هامة ، ويكلمني عما أحرز من تقدم في اللغة الفرنسية ، وعن كتاب قواعد اللغة الفرنسية (من تأليف لومون) فكنا نشعر في مثل تلك الأمسيات بكثير من الفرح والبهجة . ما زلت حتى اليوم أغتبط حين أستحضر هذه الذكريات . كنت أبذل قصارى جهدي من أجل أن أنجح في دراستي ارضاء لأبى . كنت أرى انه ينفق في سبيلي آخر ما يملك من درهيمات ، مع أن حالته المالية كانت تتدهور وتتعقد . وكان هو يزداد عبوسا وتجهما يوما بعد يوم ، ويزداد سرعة الى الابهتاج والغضب والحلق ، حتى فسد طبعه وساء مزاجه تماما . كانت ديونه تتكاثر تكاثرا رهيبا . ان أمى تخشى في بعض الأيام أن تبكي مخافة أن تزيد اهتاجا ، بل انها تمتنع حتى عن الكلام ، وسرعان ما أصبحت تبدو مريضة ، فهي تهزل هزالا واضحا ، وهي تسعل سعالا سيئا لا يخطئ المرء تفسيره . فكنت في تلك الفترة حين أجيء من المدرسة الداخلية زائرة أهلي ، لا أرى الا وجوها حزينة : أمى تبكي في رفق وهدوء ، وأبى يثور ويغضب . وأصبحت هذه الزيارات لا تشتمل الا على ملامات وتقريعات . فأبى يصرح بأنني لا أحمل اليه أى فرح أو أى عزاء ، ويقول

انهما ، هو وأمي ، يحرمان نفسيهما من كل شيء في سبيل تعليمي ، ثم
أنا لا أتعلم الكلام باللغة الفرنسية ! الخلاصة ان أبي أصبح يلقي على
ظهرنا ، أنا وأمي ، تبعة كل ما يلقي من ضروب الاخفاق ، وكل ما يعاني
من صنوف الشقاء . كيف كان يستطيع أن يعذب أمي هذا التعذيب كله ؟
كان قلبي يتمزق تمزقا حين أنظر اليها في بعض الأحيان ! لقد خسف
خداها وغارت عيناها وأصبح لون وجهها ينم عن مرض السسل . ولكن
غضب أبي كان ينصب عليّ أنا خاصة : يبدأ في أول الأمر من أجل أمور
تافهة ، ثم لا يزال يشتد ويشتد الى أن يبلغ أقصى حدود الغيظ والحلق .
حتى لقد كنت في بعض الأيام لا أفهم ما الذي يحفقه هذا الحنق كله .
ما أعجب ما كان يسمعي من كلام في مثل تلك المناسبات ! كان يقول ان
تعلمي اللغة الفرنسية لا يسير سيرا حسنا ، وانتي غيبة بلهاء ، وان مديرة
مدرستنا الداخلية ليس في رأسها دماغ وانها لا تعني بتربية أخلاقنا
وتهذيب نفوسنا ، وانه - أي أبي - يبحث عن عمل فلا يجد عملا ، وان
كتاب قواعد النحو (من تأليف لومون) لا يصلح ، وان كتاب زابولسكي
يفضله كثيرا ، وان الأسرة تنفق المال في سبيل تعليمي سدى ، وانتي ابنة
ليس لها احساس حتما ، فقلبي قد قُدد من صخر والحلق انتي كنت
أبدل قصارى ما أملك من جهد في تعلم دروسي ، ولكن هذا لا يمنع أبي
من أن يعدني مسئولة عن جميع أنواع الشقاء التي تحيق بالأسرة ، وان
يراني مذنبه آثمة في كل شيء . ليس معنى هذا ان أبي لم يكن يحبني .
فلقد كان يحيا من أجلي ومن أجل أمي ، ولكن طبعه أصبح على هذه الحال
وأسفاه ! كانت الهموم والأحزان وضروب الاخفاق تأكل نفس أبي
وتهدمها تهديما رهيبا . أصبح كثير الشك ، شديد الوسواس ، سريع
الغضب . وكانت تمر به في كثير من الأحيان حالات هي الى اليأس أقرب .
وأخذ يهمل صحته ، وأصابه برد في أحد الأيام ، فسقط مريضا على حين

فجأة • ولم يطل مرضه ، فما هي الا أيام حتى خطفه الموت بغتة على غير توقع ، فصعقنا ذلك صعقا ، ولبنا أياما لا نفيق من ذهول هذه الضربة التي نالنا بها القدر • وما ان انطفأت روح أبي ، حتى تكاثرت الدائتون كأنهم يخرجون من تحت الارض ، واخذوا يتوافدون على منزلنا أفواجا ، فأضطررنا ان ندع لهم كل ما كنا نملك ، اضطررنا أن نبيع الدار الصغيرة التي اشتراها ابي على الضفة اليمنى بعد اقامتنا في بطرسبرج بستة أشهر • لا أدري كيف استطعنا ان ندبر أمورنا فيما عدا ذلك ، ولكننا اصبحنا بلا مسكن ، بلا مأوى ، بلا ما يقيم الأود • وكان المرض ما ينفك يضني أمي • وكان يستحيل علينا أن نغذيها بما يقوى جسمها ويحميها من الموت • كنا لا نملك ما يطعمنا من جوع •• كنا أمام هاوية •• وكنت أنا قد بلغت الرابعة عشرة منذ قليل • وفي تلك البرهة انما جاءت الينا أنا فيدوروفنا فقالت : انها تملك أطيانا وأنها تمت الينا بعض القرى • وكانت أمي تقول ان بيننا وبين أنا فيدوروفنا قرى ، ولكنها قرى بعيدة • لم تكن أنا فيدوروفنا قد زارتنا يوما أثناء حياة أبي • وهي تزورنا الآن مؤكدة ، والدموع في عينيها ، أن مصيرنا يهمها كثيرا بل يقض مضجعها • وراحت تبكي منتجة على ما أصابنا من خسران ، وعلى ما آل اليه حالنا من شقاء ، مضيعة الى ذلك أن أبي كان سبب ذلك كله ، فقد أراد أن يعيش في مستوى لا يناسب موارده ، وكان كثير الطموح مسرفا في الاعتماد على قواه الخاصة • وأعربت عن رغبتها في أن تعرفنا مزيدا من المعرفة ، واقترحت أن ننسى الجروح القديمة • فلما قالت لها أمي انها لم تتسعر نحوها بشيء من العداوة في يوم من الأيام ، مسحت أنا فيدوروفنا عينيها بمنديلها ، ثم قادت أمي الى الكنيسة فأمرت بصلاة على روح أبي المسكين (كذلك قالت) وتصلحت مع أمي على هذه الصورة من الفخامة والأبهة • وبعد انواع من المواعظ والارشاد ، وبعد سلسلة طويلة من ابداء

الآراء واسداء النصائح ، صورت لنا آنا فيدوروفنا الوضع اليأس الذي نحن فيه بألوان حية وتهاويل صارخة ، مبرهنة على أننا مهجورون عاجزون، لا أمل لنا في الخروج من المأزق ، ثم دعتنا الى أن نلجأ الى دارها على حد تعبيرها ، فشكرت لها أمي ذلك ، ولكنها ترددت طويلا . ومع ذلك أدركت أمي انه ليس هنالك حل آخر ، وان ليس هنالك مخرج غير هذا المخرج . فأعلنت لآنا فيدوروفنا اننا نقبل دعوتها شاكرين ممتنين . ما زلت أذكر صباح تركنا منزلنا الى حتى فاسيليف ، كأن ذلك حدث بالامس . كان صباحا من أصباح الخريف مضيئاً جافاً صافياً .

كانت أمي تبكي ، وكنت انا أشعر بحزن رهيب واحس أن قلبي يوشك أن يتمزق في قلبي ، واحس بكآبة ثقيلة تهجم على صدري ، كآبة توشك أن تكون نبوءة لا تفسير لها ولا تعليل . . . لقد كانت فترة أليمة . . .



الأوقات الأولى، أيامَ لم نكن قد ألفنا بعد أنا وامي
 مسكننا الجديد، كنا نحس عند أنا فيدوروفنا بكثير
 من الضيق والغم • كانت أنا فيدوروفنا تعيش
 في منزل تملكه بالحي السادس ، وهو مبنى
 يتألف كله من خمس غرف ، تحتل أنا فيدوروفنا منها ثلاثة هي وساشا
 ابنة عمى الصبية اليتيمة التي ليس لها أب ولا أم ، والتي كانت
 أنا فيدوروفنا قد ضمتها إليها ؛ ونحتل نحن الغرفة الرابعة • أما الغرفة
 الأخيرة ، المجاورة لغرفتنا ، فكان يسكنها طالب فقير اسمه بوكروفسكى ،
 استأجرها من أنا فيدوروفنا • كانت مضيفتنا تعيش حياة عريضة ، وكانت
 تبدو أغنى كثيرا مما كنا نظن قبل ذلك • ولكن مصدر مواردها ظل لغزا
 بالنسبة لنا ، كسائر مشاغلها التي لا نعلم عنها شيئا من جهة أخرى •
 انها في حركة دائمة لا تنقطع ، يبدو أن لها مشاغل مستمرة ، فهي
 تخرج من المنزل أو تركب العربة مرات في اليوم • أما ماذا كان نشاطها،
 وبماذا كانت تهتم أو بمن كانت تهتم ، فذلك أمر لم أستطع أن أعرفه •
 وكانت علاقاتها كثيرة متنوعة • ففي كل لحظة من اللحظات يجيئها ناس ،
 لا يعلم الا الله من هم ، يجيئونها لأعمال ولا يمكنون الا لحظات •

كانت أمى تفودنى الى غرفتنا متى رن جرس باب المدخل • وكان موقف أمى هذا يسوء انا فيدوروفنا ، فهى لا تنفك تكرر أنا مسرفون فى التكبر ، وأنا أكثر زهوا وصلفا مما يسمح به وضعنا وتتيحه أحوالنا، وهى ما تنفك تضيف الى ذلك قولها « وليت هنالك ما يدعو الى التكبر والعجرفة » ، وتسترسل فى حذقات لا أول لها ولا آخر • لم أكن افهم يومئذ معنى هذه الملامات التى تاخذ علينا الكبرياء والغطرسة • ولكننى أفهم ذلك اليوم أو أحزر السبب الذى جعل أمى تتردد ذلك التردد كله قبل أن ترضى السكنى عند انا فيدوروفنا •

كانت آنا فيدوروفنا امرأة سيئة • كانت تسومنا سوء العذاب بغير انقطاع • تلتفت معنا أول الأمر ، ولكن طبعها لم يلبث أن ظهر على حقيقته سافرا ، منذ لاحظت أننا لا نملك أن ندافع عن أنفسنا اطلاقا ، وأننا لا نعرف أين نذهب • وزاد تلتفتها معى فيما بعد ، فكان تلتفتها مزعجا ، مفرطا ، يذهب فى المبالغة الى حد التملق • ولكننى فى الأشهر الأولى تعذبت مثلما تعذبت أمى ، اذ كانت آنا فيدوروفنا لا تكف عن تقريرنا لحظة من اللحظات ، وتذكرنا باحسانها الينا وتعطفها علينا فى كل مناسبة من المناسبات • وكانت تقدمنا الى الغرباء على انا من ذوى قرباها الفقراء : أرملة وابنتها ، لا سند لهما فى هذه الحياة ، ضمتها اليها من باب الشفقة الانسانية والبر المسيحى • فاذا جلسنا الى المائدة راقبت كل لقمة نأكلها ، حتى اذا لم نأكل كانت لها معنا قصة أخرى ، فهى تأخذ تسفنها عندئذ مدعية انا نحقر ما يؤكل فى بيتها عادة ، قائلة : « انها لا تستطيع أن تطعمنا غير ما تملك ، وانها تمنى لو تقدر أن تأكل هى نفسها خيرا مما تأكل » ، ولا يفوتها عندئذ أن تهجم على أبى فتقول انه كان يحسب نفسه أعلى قدرا من الناس ، وانه لذلك انتهى الى ما انتهى اليه من سوء ، وانه ترك امرأته وابنته بلا موارد ، فلولا أن أسعفنا الحظ فمداركتنا قربة

كريمة سخية ذات روح مسيحية رحيمة شفوق اذن لنفقنا جوعا
فى أحد الشوارع ، والله أعلم . كنا نصغى الى كلامها لابمراة فحسب ،
بل باشمزاز أشد من المرارة . وكانت أمى لا تكف عن بكاء . وكانت
صحتها تزداد سوءا يوما بعد يوم . كان واضحا انها تذوب وتفتنى ، وكان
علينا مع ذلك أن نعمل من الصباح الى المساء . فلقد سعينا الى أن نوصى
بخطابة بعض الثياب من خارج المنزل ، وكان هذا يسوء أنا فيدوروفنا كثيرا
فما تفك تردد أن بيتها ليس صالون أزياء . ولكن كان لا بد لنا من كسب
ما يكسوننا ، وكان لا بد لنا من ادخار بضعة قروش لما قد يقع من طوارئ
ليست فى الحسبان . لقد صممنا تصميما جازما على أن نملك بعض المال
لأنفسنا . فكنا ندخر شيئا كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ، أملا فى أن يتيح
لنا ذلك أن نترك هذه الدار ونمضى نستقر فى مكان ما ، فكانت قوى أمى
تنهك من هذا العمل ، فهى تزداد هزالا ونحوها فى كل يوم : كان المرض
يقضم حياتها كالسوس ، ويسير بها نحو القبر خطوة بعد خطوة . كنت
أرى ذلك وكنت أحس ذلك ، فما كان أشد ألمى وعذابى ! كان ذلك كله
يجرى على مرأى منى ، والأيام تتلاحق متشابهة رتيبة حزينة ، ونحن
نعيش فى عزلة تامة ، كأننا انفصلنا عن المدينة ، فلسنا منها . وهدأت أنا
فيدوروفنا بعض الهدوء ، اذ شعرت بكمال قدرتها وتمام قوتها شعورا
مليئا . ولم يكن ليدور فى بال أحد أن يعارضها على كل حال . وكان
الدهليز يفصل غرفتنا عن الغرف التى تسكنها ، وكان جارنا هو الطالب
بوكروفسكى كما أسلفت . كان بوكروفسكى يعطى ساشا دروسا فى
الفرنسية والالمانية والتاريخ والجغرافيا ، كان يدرّسها جميع العلوم على
حد تعبير أنا فيدوروفنا ، لقاء سكناه وطعامه فى الدار بالمجان . وكانت
ساشا على جانب عظيم من الذكاء ، رغم انها كثيرة الحركة شديدة الخبث
والمكر . . . كانت أيامئذ فى الثالثة عشرة من عمرها . قالت أنا فيدوروفنا

لامى ذات يوم ان من المستحسن أن أنتفع أنا بهذه الدروس ، لأن القسط الذى نلته من التعليم فى المدرسة الداخلية لا يكفى . فقبلت أمى ذلك راضية فرحة ، فدرست مع بوكروفسكى وساشا سنة كاملة . ان بوكروفسكى شاب فقير شديد الفقر ، لم تتح له صحته أن يتابع دراسته متابعة منتظمة مطردة ، واذا كان لا يزال يسمى طالبا فمن قبيل العادة .

انه يعيش حياة متواضعة منزوية صامتة ، حتى أننا لم نسمع صوته يخرج من غرفته يوما . وكان يبدو غريبا : فهو يمشى مشية رفلاء ، ويحبنى تحية خرقاء ، وانه خجول شديد الخجل ، فاذا تكلم تكلم على نحو عجيب يلفت النظر ويثير الدهشة . كنت فى أول الأمر لا أملك الا أن أضحك حين أنظر اليه . وكانت ساشا تكيد له وتمكر به وتدبر له « المقلب » ، ولا سيما أثناء الدروس . وكان هو الى ذلك سريع التأذى شديد الاحتياج ، ما يلبث أن يفضب وأن يزعل ، خارجا عن طوره لأتفه الأسباب ، صارخا ماضيا يشكونا الى أهلنا من حين الى حين ، عائدا الى غرفته يجلس نفسه فيها قبل أن ينتهى الدرس . وكان ينفق وقته فى غرفته قارئاً كتباً . فقد كان يملك عدداً كبيراً من الكتب ، بل كان يملك كتباً غالية الثمن نادرة . ان الدروس القليلة التى يعطيها لبعض التلاميذ فى المدينة تدر عليه شيئا من مال ، فما ان يتقاضى أجره حتى يسارع الى شراء كتب .

واستطعت مع الزمن أن أعرفه على حقيقته . ان له قلبا من ذهب . انه فتى جدير بأعظم الاحترام . انه خير رجل أتبع لى أن ألقاه فى هذه الحياة . وكانت أمى تقدره كثيرا ، وقد أصبح بعد ذلك خير صديق لى بعد أمى طبعا .

أنا أيضا ، رغم اننى أصبحت فتاة كبيرة ، كنت فى أول الأمر أتسلى مع ساشا باغاظته . كان يتفق لنا أن نقضى ، أنا واشة عمى ، ساعات برمتها

نكد ذهننا فى تخيل طريقة نستطيع بها ان نناكده مزيدا من المناكدة وان
تخرجه عن طوره . انه يصبح مضحكا جدا حين ينفجر غاضبا ، فكان
ذلك يسلينا كثيرا (انى لأشعر اليوم بالعار وانا اعترف بذلك) . وفى
ذات يوم مضينا بأمازيحنا السخيفة الى حيث راينا الدموع تتروق فى
عينيه ، وسمعناه يقول مدمما «أطفال شريرون» . فلما سمعته يقول هذه
الكلمات شعرت فجأة بخجل شديد ، واحسست بالعار ، وانقبض صدرى ،
واهتزت نفسى شفقة عليه . أذكر أن وجهى تحضب يومئذ بحمرة قانية
حتى الاذنين ، وتوسلت اليه شبه باكية أنا أيضا أن يهدىء روعه وأن
لا يؤاخذنا على أمازيحنا السخيفة . ولكنه طوى الكتاب فجأة قبل أن
ينتهى الدرس ومضى يعتكف فى غرفته . ظللت نهارى كله معذبة من
تأنيب الضمير وألم الندامة ، لا أطيق أن أتصور أننا نحن الطفلتين ،
قد دفعناه بقسوتنا الى البكاء دفعا . اذن لقد كنا نتظر أن نرى هذه
الدموع اذن لقد كنا نتمنى أن نرى هذه الدموع اذن لقد
اشتهدنا أن نراه باكيا واستطعنا أخيرا أن نفقده صبره لقد
حملناه بالقوة ، هو التعس البائس ، على أن يزداد شعورا بحظه الشقى
وقدره الظالم . لم أستطع سيلا الى النوم ليلتى كلها ، من فرط الأسف
وشدة الحزن وعذاب الضمير . يقال ان تأنيب الضمير يخفف عن النفس
. . . . ألا ان هذا لحطأ تماما ولقد خالط حزنى شىء من الشعور
بأن كبريائى قد جرحت لقد أعاظنى أنه عدنى طفلة . وكنت يومئذ
فى الخامسة عشرة من عمري .

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عن هذا الانسان الذى كان بين من
لقيتهم فى حياتى من الرجال أغربهم وأدعاهم الى العجب وأبعثهم على
الشفقة . ولئن كنت أتكلم عنه هنا ، فى هذا الموضع بعينه من مذكراتى ،

فلأنتى لم ألق اليه بالا الى ذلك الحين • غير أن كل ما يتصل بوكروفسكى،
أخذ يعينى بين عشية وضحاها •

كنا نلمح فى بيتنا أحيانا عجوزا قصيرا رث الثياب قدر المنظر أشيب
الشعر هزيل الجسم أخرق الحركات ، عجيبا الى حد يعجز عن وصفه
الكلام ، يوحى الى من يراه من أول نظرة انه خجل من شىء ما أو انه
مرتبك بنفسه ضيق الذرع بشخصه ، فكأنه يجمد جسمه ويلويه عامدا
حتى لا يراه أحد • وهو الى ذلك يقوم بإشارات وحركات من تلك
الاشارات والحركات التى يقدر من يراها أن صاحبها أصبح لا يملك
عقله كاملا • كان هذا العجوز العجيب يصل أحيانا الى منزلنا ، فيتلبث
فى الدهليز أمام الباب الزجاجى دون أن يجرؤ على الدخول • حتى اذا
مر أحد منا قرب ذلك المكان - أنا أو ساشا أو خادم يعرف العجوز انه
لا يكرهه - حيا صامتا بحركة من رأسه ، وقام بإشارات شتى من يده ،
ثم لم يدخل الا اذا نودى بغمزة تعنى أن ليس فى الدار غرباء وأن فى
وسعه أن يدخل : فكان العجوز القصير يشق الباب عندئذ فى رفق ، وقد
تهلل وجهه وانفرج فمه بابتسامة سعيدة وأخذ يفرك يديه احديهما
بالأخرى غبطة ورضى ، ثم يتجه الى غرفة بوكروفسكى رأسا • انه أبوه •
لقد عرفت بعد ذلك تفاصيل قصة هذا العجوز الفقير • لقد خدم فى الماضى
فى مكان ما : ولكنه لشدة غيابه وتفاهة شخصيته قد ظل الى النهاية فى
وظيفة وضيعة • حتى اذا ماتت زوجته الأولى (والدة الطالب بوكروفسكى)
خطر بباله أن يتزوج مرة أخرى ، فتزوج فتاة من طبقة صغار
البورجوازيين • فما دخلت المرأة الجديدة منزله حتى انقلب المنزل رأسا
على عقب ، فهى لا تترك أحدا وشأنه ، ولا تدع لأحد أن يعيش هادئا ،
وهى مستبدة متسلطة تهيمن على كل شىء ، وتحب أن يكون لها القول
الفصل وأن تسيطر على جميع الناس • وكان الطالب بوكروفسكى فى

السنة العاشرة من عمره آنذاك ، فكرهته زوجة أبيه كرها شديدا ،
وسامته سوء العذاب ، ولكن الحظ واتاه ، فان رجلا من كبار الملاكين اسمه
بيكوف كان قد عرف أباه في الماضي ورعاه وحماه ، فتكفل بالاهتمام
بالصبي وأدخله إحدى المدارس الداخلية . وقد اهتم الرجل بالصبي لأنه
كان يعرف المرحومة أمه التي كانت تتمتع في أيام صباها بنعم أنا فيدوروفنا
وحسناتها ، وأنا فيدوروفنا هي التي قدمتها زوجة للموظف بوكروفسكى .
وقد وهب السيد بيكوف ، وهو صديق حميم لآنا فيدوروفنا ، وهب
للخطيبة بائنة قدرها خمسة آلاف روبل ، شهامة منه وكرما . ولا يعلم
أحد أين ذهب هذا المال . لقد عرفت هذه التفاصيل من أنا فيدوروفنا .
أما الطالب بوكروفسكى فكان لا يحب كثيرا أن يتحدث عن أسرته . يقال
ان أمه كانت على جانب عظيم من الجمال . وانه ليدهشنى انها ارتضت
زواجا مشثوما كهذا الزواج برجل تافه كل التفاهة وقد ماتت المرأة
وهي في ريعان الشباب ، بعد زواجها ببضع سنين ؛ وانتقل الفتى
بوكروفسكى من المدرسة الداخلية الى المدرسة الثانوية ثم دخل الجامعة .
وظل السيد بيكوف الذى كان يتردد كثيرا على سان بطرسبرج ، ظل يحميه
ويرعاه . ولكن بوكروفسكى اضطر الى الانقطاع عن الدراسة بسبب
اعتلال صحته . وعندئذ عرفه السيد بيكوف بأنا فيدوروفنا ، وأوصاها به
كثيرا فى كثير من الحرارة ، فأوته فى منزلها ساكنا طاعما لقاء اعطائه
سائنا دروسا فى جميع الفروع اللازمة .

أما العجوز بوكروفسكى فان الحزن الذى كان يسببه له خبث زوجته
الثانية قد دفعه الى أرذل الرذائل دفعا ، فما تكاد تراه الآن الا سكران .
كانت زوجته تضربه ضربا مبرحا ، وتجبره على أن يبيت فى المطبخ ،
وبلغت من التسلط عليه انه انتهى الى قبول الضرب المبرح بغير احتجاج ،
والى احتمال أنواع الأذى بغير تذمر أو شكوى . انه فى الواقع أقل

شيخوخة مما يبدو • ولكن ميوله السيئة قادتة الى حافة الجنون • وكانت
العاطفة الرفيعة الوحيدة التي بقيت له هي ما يشعر به نحو ابنه من حب
ليس له حدود • ويقال ان الفنى بوكروفسكى يشبه امه كما تشبه قطرة
من الماء قطرة من الماء • فلعل ذكرى الزوجة الاولى التي أحسنت معاملة
زوجها وكانت معه فى غاية الطيبة ، هي التي ولدت فى نفس المعجوز
المتدهور هذا الحب الكبير نحو ابنه • كان المعجوز ممتلئ الفم بذكر ابنه ،
لا يدور لسانه بكلام الا عنه • وكان يزوره مرتين فى الاسبوع ، على
نظام مطرد بغير انقطاع • انه لا يجرو أن يجيء أكثر من مرتين ، لأن
الفتى كان يكره حضور أبيه • لا شك أن عدم احترامه أباه هو أكبر
عيب فيه • ولكن يجب الاعتراف بأن المعجوز كان يصبح فى بعض الأحيان
ثقيلا لا يطاق ولا يحتمل • فهو أولا شديد الفضول ، وهو ثانيا ما ينفك
يعوق ابنه عن العمل بالحديث فيما هب ودب من نأفل القول وهاذر الكلام ،
وهو ما ينفك يلقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة سخيفة تافهة غبية ، وهو بعد
هذا وذاك يجيئه سكران فى كثير من الأحيان • وقد حاول ابنه أن يحمله
على الاقلاع عن هذه العيوب ، عن هذه الثرثرة التي لا تنتهى ، عن هذا
الفضول الذى لا يعرف شيئا من القصد ... فاستطاع أن يبلغ هذه
النتيجة ، وهي أن يصفى أبوه الى كلامه فاغر الفم كأنه يستمع الى كلام
عراف من العرافين ، ثم لا يجرو أن ينبس بعد ذلك بكلمة دون
استئذان •

كان المعجوز المسكين لا يكل ولا يعمل من الاعجاب بابنه العزيز
باتنكا • (هكذا كان يسمى ابنه) ، ولا يتعب من الشعور بالنشوة والوجد
حين يراه • كان اذا جاء يزوره يبدو كالحجلان أو كالمهموم ، ربما لأنه
غير واثق من أن ابنه سيحسن استقباله • وكان فى العادة يتردد كثيرا قبل
أن يدخل ، فاذا وجدت مصادفةً هنالك ، طفق يسألنى ، خلال خمسة

عشرة دقيقة ، أو عشرين في بعض الاحيان ، عن ابنه : ماذا يعمل؟ كيف صحته؟ ما حالته النفسية؟ أهو بسبيل القيام بعمل هام من الاعمال؟ ما الذى يشغله فى هذه اللحظة على وجه الدقة؟ أهو يكتب شيئاً؟ أم هو منصرف الى تفكير عميق؟ حتى اذا طمأنته وشجته بما فيه الكفاية ، قرر أخيراً أن يدخل ، فشق باب غرفة ابنه فى رفق وحذر ، ومد رأسه أولاً ، فاذا لاحظ أن ابنه ليس غاضباً ، وأنه يومئ اليه أن يدخل ، نفذ الى الغرفة بخطى لا يُسمع لها صوت ، فنضا عنه معطفه البائس وخلع قبعته المجمدة دائماً ، المثقبة فى مواضع عدة ، المنزوعة الأجنحة تقريباً ، وعلق ذلك كله بكلاب ، محاولاً فى كل حركاته أن لا يحدث الا أقل ضجة ، فانه يخشى أن يلفت النظر أو يثير الانتباه . ثم يجلس محاذراً على كرسى ، ويثبت بعد ذلك بصره على ابنه لا يحوله عنه لحظة من اللحظات ، متابعاً كل حركة من حركاته ليذكر الحالة النفسية التى يكون فيها عزيزه باتسكا . فاذا لاحظ لدى ابنه أيسر علامة تدل على أنه معكر المزاج شجى البال ، نهض عن كرسيه على الفور ، قائلاً انه انما جاء عابراً : « لقد قمت بجولة طويلة لقضاء عمل من الاعمال يا باتسكا ، فلما مررت أمام منزلك ، دخلت عليك لأستريح لحظة » ، ثم تناول معطفه وقبعته فى مذلة دون أن ينبس بكلمة وفتح الباب فى هدوء وصمت كما فتحه حين دخل ، وانصرف وهو يتكلف الابتسام كظلاً للحزن الذى يفيض به قلبه ، واخفاءً لهذا الحزن عن ابنه .

ولا كذلك حين يحسن الابن وفادة أبيه ، فان العجوز يشعر عندئذ بفرح لا يوصف . فالسعادة تتلألأ فى عينيه ، وتترقرق فى اشاراته وحركاته . حتى اذا خاطبه ابنه بكلمة عرضاً نهض عن كرسيه وأجابته بصوت رقيق ذليل خاضع متملق متزلف يشيع فيه احترام يشبه أن يكون احتراماً دينياً ، وحاول جهده أن يستعمل ألفاظاً « منتقاة » تخرج من فمه

باعثة على الضحك فى الواقع • كان العجوز لا يجيد التعبير عن ذات نفسه ، فاذا هو ينتهى الى ان يدمدم ويجمع مرتبكا اشد الارتباك ، واذا هو يخفى يديه ، ويصغر جسمه ، ويظل دقائق طويلة يهتمهم بكلمات غير متميزة كأنه يريد أن يصلح جوابه الاخرق • أما اذا اتفق مصادفة أن جاء جوابه مناسباً رأيت يتجراً ويتجاسر ، فيعدل صديرتة ويقوم ربطة عنقه ويصلح رداءه ويبدو أنه يسترد فى هذه اللحظات شعوره بكرامته • كان يستعيد عندئذ ثقته بنفسه ، ويبلغ من الجسارة فى بعض الأحيان أن ينهض عن كرسية بلا ضوضاء فيدنو من رف الكتب ويستل منه كتاباً ، أى كتاب ، حتى لقد يأخذ يقرأ فى الكتاب فقرة من الفقرات على غير هدى أياً كان الموضوع • يفعل ذلك كله متظاهراً بالهدوء مصطنعاً عدم الاكتراث كأن من الطبيعى ومن المسموح له به فى أى وقت أن يتصرف فى كتب ابنه ، وكأن لطف باتتكا فى معاملته أمر لا يدعو الى الدهشة ولا يبعث على الاستغراب • ولكننى لاحظت ، فى ذات يوم ، الذعر الذى استولى على الشقى المسكين حين رجاه بوكروفسكى أن لا يمسه كتبه • لقد غاب يومئذ عن رشده ، وأسرع يعيد الكتاب الى مكانه مضطرباً ، فاذا هو يخطيء فيضعه مقلوباً ، فما كان منه الا أن سحبه ثانية ثم أعاده الى مكانه ، لكنه فى هذه المرة جعل ظهر الكتاب الى الحائط • وكان يتسم ويحمر ولا يدرى كيف يكفر عن جريمته •

استطاع بوكروفسكى بنصائحہ أن يصرف أباه عن ميوله السيئة شيئاً بعد شيء • فاذا اتفق أن رآه ثلاث مرات متتالية معتدلاً دس فى يده خمسة وعشرين كوبكاً أو نصف روبل عند انصرافه ، أو اشترى له حذاءين أو ربطة عنق أو صديرة • ليتك ترى الأب عندئذ كيف كان يختال بحليه اختيال الديك • وكان يدخل علينا فى بعض الأحيان حاملاً لنا ، أنا وساشا ، بعض الفطائر أو بعض التفاح ، متحدثاً عن عزيزه

باتنكا حديثا لا ينتهى . وكان فى هذه المناسبات يضرع الينا أن نتبّه الى دروس ابنه ، أن نصغى اليها ونشفع بها ، مؤندا أن باتنكا ابن طيب ، ابن فذ ، وانه الى ذلك ابن عالم . وكان حين ينطق بهذه الكلمات الاخيرة يغمز بعينه اليسرى غمزا يبلغ من الوضوح ، ويتلوى بجسمه تلويا يبلغ من الغرابة اننا نعجز عندئذ عن كبح جماح نفسينا ، فاذا نحن تنفجر مقهقهتين أمام أنفه . وكانت أمى الطيبة تحبه كثيرا . ولكن العجوز كان يكره أنا فيدوروفنا كرها شديدا ، مع محافظته فى حضورها على المذلة والخضوع والصمت وطأطأة الرأس . ولم ألبث أن انقطعت عن تلقى الدروس من من بوكروفسكى . فلقد كان ينظر الى « نظرتة الى طفلة ، الى صبية طائشة ، ويساوى فى المعاملة بينى وبين ساشا ، فكان ذلك يؤلمنى كثيرا ، لأننى كنت أحاول أن أمحو من نفسه آثار سلوكى الماضى ، فلا يلاحظ هو هذه الجهود ، فكنت اغتاض من هذا غيظا ما ينفك يزداد بعد يوم ، وصرت لا أكاد أخاطبه بكلمة واحدة فى غير أوقات الدروس ، ولا أملك من الشجاعة ما يمكننى من مخاطبته ، فاذا رأيتة أحمر وجهى واضطربت ، ثم مضيت أختبىء فى ركن من الاركان لأبكى ألما وحسرة .

لا أدرى كيف كان سينتهى هذا كله لولا أن ظرفا عجيبا ساعد فى التقريب بيننا . وفى ذات مساء ، بينما كانت أمى عند أنا فيدوروفنا ، دخلت غرفة بوكروفسكى على رؤوس الأصابع . كنت أعلم أنه خرج ، فخطر ببالى ، لا أدرى حقا لماذا ، أن ألقى نظرة على غرفته . لم أكن قد دخلت هذه الغرفة يوما قط ، رغم أننا جيران منذ أكثر من عام . أخذ قلبى يخفق هذه المرة فى صدرى خفقانا يبلغ من القوة اننى أحسست انه سينفجر . ألقىت على ما حولى نظرات مستطلعة شرهة . ان أثارا الغرفة فقير والفوضى تشيع فى كل ركن من أركانها : هذه أوراق مبعثرة على المنضدة وعلى الكراسى ، ولا تقع العين فى كل موضع الا على كتب وقراطيس . راودتنى

فكرة غريبة بينما كان يعتريني في الوقت نفسه شعور مريب بالحسرة والاسف : بدا لي انه لن يستطيع ان يرضى بصداقتي وبما يحمله له قلبي من حب ، فهو رجل واسع العلم كثير الاطلاع جَم الثقافة ، أما أنا فقناة بلهاء لا أعرف شيئاً ، ولا قرأت كتاباً . أقيت عندئذ نظرة شوق الى هذه الرفوف الطويلة التي تحمل الكتب حتى لتكاد تتداعى من ثقل ماتحمل . وتوزعتني مشاعر شتى ، فأنا في آن واحد نهب الحزن وخيبة الامل والشوق الى أن أعمل شيئاً . وتمنيت فجأة أن أقرأ جميع كتبه ، أن أقرأ كتبه كلها الى آخرها ، وأن أفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة . وما لبثت أن عزمت أمرى . لعلى تخيلت في تلك اللحظة اننى اذا علمت كل ما كان يعلم ، فسأصبح أجدر بصداقته واخلاق بمودته . فأسرعت الى أول رف ، وبدون أن أفكر أو أن اختار ، تناولت أول كتاب وقع عليه بصرى ، وهو كتاب قديم أغبر ، فحملته الى غرفتى وأنا احمر وأصفر وأرتجف انفعالا وخوفاً ، حملته كما يحمل السارق غنيمته ، وأنا أنوى أن أقرأه طوال الليل على ضوء السراج الصغير بعد أن تنام أمى .

ولكن ما كان أشد خيبة أملى حين وصلت الى غرفتى ففتحت الكتاب مسرعة فلم أجد فيه الا نصاً لاتينياً مبسوطاً على أوراق كادت تتلف وكاد العث يقضم نصفها . لم أدع للوقت أن يضيع سدى ، فأسرعت أعود الى غرفة بوكروفسكى . فما كدت أنهياً الى اعادة الكتاب الى موضعه من الرف حتى سمعت ضجة في الدهليز وسمعت وقع أقدام تقترب . فأسرعت ما أمكنتى الاسراع أحاول أن أدس الكتاب في مكانه ، ولكن الكتاب الخيث كان قد بلغ من شدة ترصصه بالكتب الاخرى أن هذه الكتب قد تمددت تمدد النابض حين سللته من بينها فهى الآن تحتل المكان كله غير عابثة بزميلها الغائب ، فلم أقو على دسه فيها من جديد ، ولكننى حاولت أن أدفع الكتب بكل ما أوتيت من قوة ، فاذا بالمسار الصدى الذى كان

يمسك الرف والذي لعله كان لا ينتظر الا مثل هذه اللحظة حتى يسقط،
اذا بهذا المسمار ينكسر فجأة ، واذا بالرف يهوى على أحد طرفيه ، واذا
بالكتب تتدحرج على أرض الغرفة محدثة ضجة كبيرة . وانفتح الباب في
هذه اللحظة ودخل بوكروفسكى الغرفة .

يحسن أن أذكر هنا أنه كان لا يطيق ان يمس أحد أشياءه . وويل
لمن يسمح لنفسه بأن يضع يده على كتاب من كتبه . تصوروا اذن ماشعرت
به من دعر حين رأيت هذه الكتب المختلفة الحجم والاشكال والأبعاد
(بعضها دقيق وبعضها سميك ، بعضها صغير وبعضها كبير) حين رأيتها
تهاوى عن الرف ، وتتدحرج على أرض الغرفة ، وتأخذ ترقص تحت
المنضدة وتحت الكراسي وفي الحجرة كلها . أردت أن أهرب ، ولكن
اوان الهروب كان قد فات . قلت لنفسى : « انتهى كل شيء ، انتهى كل
شيء ، لقد ضعت ، ضعت تماما . اننى أتسلى بارتكاب حماقات كطفلة فى
العاشرة من عمرها . ما أنا الا طفلة بلهاء ، ما أنا الا غبية كبيرة »

غضب بوكروفسكى غضبا رهيبا وصاح يقول : « ما كان ينقصنى
الا هذا ، ألا تستحيين أن تسلكى هذا المسلك ؟ متى تراك تعقلين ؟ » وأخذ
يحاول أن يلطم الكتب . فملت على الارض أساعده . فصاح مرة أخرى
يقول : « لا داعى ، لا داعى ... خير لك ألا تدخلى مكانا ما دعيت
اليه » .

لكنه ، وقد رق قليلا لموقفى الذليل ، تابع يقول بلهجة أقل غضبا ،
بلهجة هى لهجة الناصح التى اعتاد أن يستعملها أثناء الدروس ، مستفيدا
من الحق الذى يخوله اياه أنه كان أستاذى منذ وقت قصير ، تابع يقول :
« متى تعقلين اذن ؟ هلا فكرت فيما تصنعين ؟ ما أنت الآن بطفلة ، ما أنت
الآن بالبنية الصغيرة ، لقد بلغت من العمر خمسة عشر عاما » .

وكأنما أراد أن يتحقق من أنني شبيت عن الطوق فما أنا الآن
بطفلة ، فألقى على نظرة ، فاذا هو يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين .
لم أفهم ما حدث له . كنت واقفة أمامه أحدق إليه بعينين واسعتين
مدهوشتين . ونهض فاقرب منى زائغ النظرة شارد اللب ، واضطرب
اضطرابا شديدا ، ودمدم بضع كلمات كأنه يعتذر لى عن شىء ما ، ربما
عن أنه لم يكن قد لاحظ الى ذلك الحين اننى أصبحت فتاة كبيرة . فهمت
على الفور . ثم لم أعرف ماذا جرى لى فى تلك اللحظة . لقد اضطربت
وفقدت سيطرتى على نفسى واصطبغ وجهى بحمرة أشد من الحمرة التى
اصطبغ بها وجه بوكروفسكى ، فغطيت وجهى يدي وأسرعت أهرب من
الغرفة راكضة .

كنت لا أعرف ماذا أعمل ، ولا أين أختبئ من شدة شعورى
بالخجل والعار . أيجدنى فى غرفته ؟ ان هذا وحده يبدو لى الآن امرا
لا يغتفر . لبث ثلاثة أيام لا أستطيع حتى أن أنظر اليه . أصبحت أحمر
خجلا حتى لاكاد أبكى متى لمحتة . ان زوبعة من الخواطر الرهيبة تدور
فى رأسى ، وتخالطها أفكار مضحكة . من هذه الافكار العجيبة التى
راودتني أن أذهب اليه لأشرح له كل شىء ، وأعترف له بكل شىء ، ان
أقول له الحقيقة صريحة ، أن أفنعه بأننى لم أتصرف تصرف طفلة صغيرة
حمقاء ، وأن الامر الذى دعانى الى فعلى وحضنى عليه ينطوى على نية
طيبة حسنة . وقد قررت أن أذهب اليه فعلا ، لولا أن خائنتنى شجاعتي
فى آخر لحظة من حسن الحظ ، والله الحمد . اننى أتصور الآن كيف
كان يمكن أن يكون موقفى لو ذهبت ، وأية سخافات وترهات كان يمكن
أن ينطلق بها لسانى متدفقا . ما زلت حتى هذه الساعة أشعر بخجل
شديد وعار كبير حين أتذكر تلك اللحظات .

بعد ذلك ببضعة أيام ، مرضت أمى مرضا خطيرا • فلزمت فراشها
يومين ، واتبثتها فى الليلة الثالثة حمى شديدة يصحبها هذيان • كنت قد
قضيت الى جانبها ليلة بكاملها لم يغمض لى خلالها جفن ، فأنا جالسة
فربها أحيطها بالعناية والرعاية ، وأسقيها ماء وأجرعها أدويتها فى موافيتها
المحددة • فلما جاءت الليلة التالية شعرت بانها فى نوب • فالنعاس
يستبد بى فى بعض اللحظات فيضطرب أمام بصرى كل شىء ، ويدور
رأسى ، وأحس انى أوشك أن أسقط اعياء من لحظة الى أخرى ، وكانت
تأوهات أمى توقظنى فى كل مرة ، فأنتفض مذعورة ، وأفتح عيني خلال
ثوان قليلة ، ثم ما ألبث أن أرتد الى الوسن • لا أدرى ولا أذكر هل
غفوت بضع ثوان • ولكننى أذكر أن قد وافانى حلم رهيب ، أذكر أن
رؤيا مفزعة انبجست فى دماغى المرهق الذى استولى عليه النعاس وكان
يقاومه • فتحت عيني جزعة هلمة • كانت الغرفة غارقة فى الظلام • ان
لهب السراج الصغير يحتضر ، فكانت أشعة من الضياء تنزلق على الجدران ،
فتارة تتسع فتغمر الغرفة ، وتارة تضعف حتى لتزول زوالا تاما •

شعرت بخوف مبالغ ، واستبد بى ذعر لا أعرف كيف أفسره أو
أعلاه • كان خيالى مضطربا أشد الاضطراب من ذلك الحلم الرهيب ،
وكان قلبى منقبضا أشد الانقباض من فرط الجزع ••• نهضت منتفضة ،
وانطلقت من صدرى صرخة وأنا فريسة احساس باختناق مذعور وخوف
غامض رهيب • وانى لكذلك اذا بالباب يفتح ، فيدخل يوكر وفسكى الى
غرفتنا •

كل ما أذكره انه كان يسندنى من ذراعى حين ثبت الى شعورى ،
وانه أجلسنى فى رفق واحترام وحذر على مقعد ، ومد الى كأسا من الماء
وأخذ يمطرني بوابل من الأسئلة • لأدري بماذا أجبه • ولكننى أذكر
انه قال لى وهو يمسك يدي: « انت مريضة •• أنت أيضا مريضة جدا •

ان بك حمى • انك تهدمين صحتك تهديما ، ولا تدارين نفسك • هدئي
روعك الآن واضطجعي ، ونامي وسأوقظك بعد ساعتين » • ثم أضاف
دون أن يدع لي فرصة الاعتراض بكلمة واحدة ، أضاف يقول : « اهدئي
••• تمددي ، استريحي قليلا » • كان التعب قد حرمني كل قدرة على
المقاومة ، فأطبقت أذناني • استلقيت على المقعد نصف استلقاء وأنا أنوي
أن لا أسهد الا نصف ساعة • ولكنني نمت حتى الصباح ولم يوقظني
بوكروفسكى الا حين أن أوان تجريع أمي الدواء •

استرحت أثناء النهار في اليوم التالي ، وفيما كنت أتهيأ للسهر على
أمي في الليل جالسة قربها ، عازمة في هذه المرة على أن لا أغفو البتة ،
إذا بباب غرفتنا يقرع • انها الساعة الحادية عشرة • فتحت الباب فإذا أنا
أمام بوكروفسكى •

قال : « قدرت أنك ستشعرين بالسأم ساهرة وحدك هنا • فجنثك
بهذا الكتاب تقرئينه عسى أن يساعدك على تزجية الوقت » • تناولت منه
الكتاب • لا أذكر ماذا كان عنوانه • بل أشك في أن أكون قد فتحته ،
رغم انني ظللت ساهرة طول الليل • ان اضطرابا نفسيا غريبا كان لا يتيح
لي أن أنام • كنت لا أقوى على البقاء في مكان واحد • فكثيرا ما أترك
مقعدى وأطلق أسير في الغرفة • ان نوعا من فرح عميق ملأ نفسي وأغرق
وجودي كله • تأثرت أشد التأثر من التفاتة بوكروفسكى هذه • شعرت
بالفخر من اهتمامه بي هذا الاهتمام ، ومن تحمله هذا العناء في سبيلي •
لبثت الليل كله لا أزيد على أن أتأمل وأحلم • ولم يعد بوكروفسكى •
وكنت أقدر على كل حال انه لن يعود هذه المرة ، وكنت أحاول أن
أتصور ما لعله سيحدث في المساء القادم •

وفي مساء الغد ، بعد أن رقد كل من في البيت ، فتح بوكروفسكى

باب غرفته فوقف على العتبة يبادلنى الحديث • لم أحفظ شيئاً من الكلام
الذى تبادلناه فى تلك المرة • كل ما أتذكره أن الخجل قد شلى وانى
كنت مضطربة ، وانى كنت فى الوقت نفسه غير راضية عن نفسى ، حتى
لقد كنت أنتظر انتهاء هذا الحديث بصبر فارغ ، رغم اننى تمنيت من
أعماق قلبى ، ورغم اننى كنت أحلم به منذ الصباح ، وأهيمى له الاسئلة
والاجوبة سلفاً ••• كان ذلك المساء بداية الصداقة التى انعقدت بيننا •
فاصبحنا ، طوال مرض أمى ، نجتمع فى كل ليلة عدة ساعات • استطعت
ان أنتصر على خجلي شيئاً بعد شيء ، رغم أن كل حديث بينى وبين
بوكروفسكى كان يخلف أمراً من الامور يثير عدم رضى عن نفسى •
على اننى كنت ألاحظ بفرح خفى وارتياح مبعثه حب الذات ، انه أصبح
يهمل من أجلى كتبه المقيمة • وفى ذات يوم وقع الحديث ، من قيسل
المزاج ، على حادثة الرف الذى هوى والكتب التى تدهورت على الارض •
كانت لحظة غريبة ، أظهرت فيها صراحة مفرطة ، وصدقا بالغا • ان حيا
عجيبة وحماسة شديدة قد دفعتانى الى أن أقول له الحقيقة كلها •••
اعترفت له بكل شيء : اعترفت له بأننى أردت أن أثقف نفسى ، أن أملاً
فكرى ••• وانه كان يحقنى أشد الحق أن أعد صبية صغيرة ، وأن
أعامل كما تعامل طفلة ••• أعود فأقول اننى كنت فى حالة نفسية غريبة
••• كان قلبى يضعف ، وكانت الدموع تترقرق فى عينى ••• لم أخف
عنه شيئاً ••• بحت له بكل شيء ، بكل شيء ••• بالصداقة التى أشعر بها
نحوه ، برغبتى فى أن أحبه ، فى أن أحيا على صلة به ، فى أن أكون له
عزاء وسلوى ، فى أن أشجعه وأشد أزره • فكان ينظر الى نظرة غريبة ،
وقد ذهل عن نفسه ، واضطرب وجهه ، وعقل لسانه فما يقول كلمة •
وأحسست فجأة بمرارة عميقة وحزن كبير • خيل الى انه لا يفهمنى وانه
ربما كان يسخر منى ويهزأ بى • فطفت أبكى ، وانفجرت أنشج كما

تشج طفلة ، عاجزة عن كبح جماح نفسى مزيدا من الكبح . واعترتى
تشنجات كأنها تشنجات نوبة عصبية . فامسك بوكروفسكى يدي وأغرقهما
قبلا ، وضمنى الى صدره ، وقال لى كلاما عذبا بصوت مواس رقيق . كان
هو نفسه متأثرا أشد التأثر . لا أذكر ماذا قال لى . ولكننى أعرف أننى
كنت أبكى وأضحك على التوالى ، وأن وجهى قد تخضب بحمرة قانية ،
واننى شعرت من شدة فرحى باننى لا أستطيع أن أنبس بكلمة واحدة .
وكنت أشعر مع ذلك ، ورغم انفعالى ، بأن بوكروفسكى لا يزال يحس
بشيء من الحيرة والخرج والضيق . انه لم يفق من دهشته التى اثارها
فيه اندفاعى وأثارها فيه حماسى حين أدرك عندى ما أدركه من هذه
الصداقة المفاجئة التى تبلغ هذا المبلغ من العنب والجموح والقوة . لعل
شيئا من التعجب قد سيطر عليه فى أول الامر . لكن تردده زال بعد
ذلك ، فاذا هو يرد على صداقتى بمثلها بساطة وصراحة وانطلاقا ، واذا
هو يستجيب لكلماتى العاطفية وتعلقى وحفاوتى ، فيقابلنى بعاطفة كعاطفتى ،
ويعاملنى معاملة صديق مخلص وأخ حق . تفتح قلبى فى هذا الجو
الدافى ، وشعرت ببهجة كبيرة وسعادة عظيمة . . . لم أكنم عنه شيئا ،
ولم أخف عنه شيئا ، وأصبح يلاحظ هو ذلك ، فيشمد تعلقه بى يوما
بعد يوم .

لا أتذكر ، على وجه الدقة ، الأحاديث التى جرت بيننا ، لا أتذكر
جميع ما قاله كل منا لصاحبه خلال ساعات كانت شاقة ممتعة فى آن واحد ،
ساعات طويلة قضيناها معا فى الليل على أضواء السراج المهترزة قرب أمى
المسكينة المريضة . . . هل هناك شيء لم نتحدث فيه ؟ كنت أقول له كل
ما كان يخطر ببالى ، كل ما كان ينبجس عفسوا من قلبى ، كل ما كان
يخرج من فمى دون أن أستطيع له دفعا . . . وكنا قريبين من السعادة كل
القرب فى تلك اللحظات . . . آه ما كان أملاً ذلك الوقت بالحزن والسعادة

معا ! اننى حتى هذه الساعة أشعر بالسعادة والحزن كليهما حين أتذكر ذلك الأوان • والذكريات حزينة دائما سواء أكانت ذكريات فرحة أم كانت ذكريات مرة • ذلك شأنى أنا على كل حال • غير أن هذا الحزن عذب كذلك • ففي الساعات التى ينوء فيها القلب بعبء الشقاء ، حين تستبد كآبة ثقيلة بالنفس التى صارت من المحن فى ظلام ، تأتي الذكريات فتعش النفس وتحييها ، مثلها كمثل تلك القطرات من الندى التى تضعها رطوبة المساء على الازهار بعد نهار خائق ، فتبعث الحياة فى هذه الاوراق الحزينة التى كادت تصوحها أشعة الشمس المحرقة •

وأبليت أمى من مرضها ، ولكننى ظللت أسهر الليل كله قرب سريرها • كان بوكروفسكى يجيئنى ببعض الكتب أحيانا كثيرة • فكنت فى أول الامر أقرأ من أجل ألا أنام ، ثم صرت أقرأ بشيء من الاهتمام والشغف ، ثم أصبحت فى النهاية أقرأ بنهم شديد وشراهة قصوى • ان علما جديدا كنت أجهله قبل ذلك ولم يخطر لى ببال ينبجس الآن أمام بصرى • ان القراءة تفجر فى نفسى أفكارا ومشاعر تزدهم الآن فى قلبى هادرة صاخبة • وكلما كان الجهد الذى يجب أن أبذله من أجل تمثل هذه الأفكار الجديدة أكبر ، وكلما كان الاضطراب الذى تبثه فى نفسى أشد ، كان تقديرى لهذا الاغتناء الروحى الذى يقبئنى رأسا على عقب أشد • أمور كثيرة انبجست فى قلبى وتراكت فيه تترى • لقد قام فى نفسى سديم غريب يتسلل الى أعماق كيانى • لكن هذا العنف الروحى لم يستطع أن يخل بتوازنى تماما • كنت فتاة حاملة ، وهذا ما أنقذنى •

ولما شفيت أمى من مرضها ، انقطعت لقاءاتنا الليلية وأحاديثنا الطويلة التى كنا نتبادلها على خلوة • اتنا لا نزال نستطيع أن نتبادل بعض الكلمات من حين الى حين ، وهى كلمات تافهة ليست بذات قيمة أو دلالة • ولكن

كان يحلو لى أن أهب لها قيمة خاصة وأن أحملها معانى مضمرة • كانت حياتى غنية ملى ، وكنت أنا هائمه مطمئنه ، وكانت روحى تفيض سعادة عذبة هادئه • وانقضت على هذه الحال أسابيع ••

وفى ذات يوم جاء يزورنا العجوز بوكروفسكى ، فثرر معنا مدة طويلة • كان يبدو أكثر ابتهاجا وأشد نشاطا وأعزر تدفقا فى الكلام مما عهدناه فيه • كان يفيض حياة ، ويضحك بغير توقف ، ويتندر على طريقته فى التندر • وكشف لنا أخيرا عن سبب حماسه ، فأباننا أن عيد ميلاد باتنكا سيكون بعد أسبوع تماما ، وانه سيجى يزور ابنه فى هذه المناسبة • وأسر الينا انه سيرتدى لهذا العيد صديرة جديدة ، وأن امرأته قد وعدته بأن تشتري له حذاءين جديدين • كان العجوز يطفح سعادة ، ويلقى الكلام على عواهنه طولاً وعرضاً •

عيد ميلاده ! أصبحت فكرة عيد الميلاد هذه لا تدع لى راحة فى نهار ولا فى ليل • قررت أن أجدد صداقتى مع بوكروفسكى بتقديم هدية له مهما كلف الامر • ووقع اختيارى على الكتب • كنت أعرف انه يتمنى الحصول على المجموعة الكاملة لمؤلفات بوشكين فى طبعتها الأخيرة ، فأردت أن أشتريها له • اتنى أملك ثلاثين روبلا لنفسى هى ثمرة أعمالى فى الحياطة • لقد ادخرت هذا المبلغ لأشتري ثوبا جديدا • فما لبثت أن أرسلت الطاهية العجوز ماترينا تسأل لى عن ثمن مجموعة مؤلفات بوشكين • ويلاه ! ان المجلدات الأحد عشر تكلف مع نفقات التجليد ستين روبلا فى أقل تقدير • فمن أين آتى بهذا المبلغ ؟ فكرت طويلا دون أن أهتدى الى حل • لا أحب أن أسأل أمى شيئا من المال ، ولو سألتها أن تعطينى ما أنا فى حاجة اليه لما منعتة عنى حتما ، ولكن جميع من فى المنزل سيعلمون عندئذ بنأ هذه الهدية ، وستعد الهدية عندئذ مكافأة لبوكروفسكى على

الدروس التي أعطانيها سنة كاملة • اننى أحب أن أنفرد بتقديم هدية له على غير علم من الآخرين • أما ما تحمله في سبيلى من عناء ، فكنت أرغب فى أن أظل ممتنة شاكرة له اياه ما حييت ، دون أن أهب له أى مكافأة عليه عدا صداقتى • واكتشفت آخر الأمر وسيلة للخروج من المأزق •

كنت أعرف أن فى امكان المرء أن يحصل ، لدى بعض بائعى الكتب القديمة تحت تناطر جوستينى ، على كتب بنصف ثمنها بعد شىء من المساومة •• وقد يُعثر عندهم فى بعض الأحيان على كتب بحالة جيدة حتى لتكاد تكون جديدة • فقررت قرارا حازما أن أذهب الى هنالك فى أول فرصة • وما لبثت هذه الفرصة أن عرضت فى الغداة • هنالك أشياء كان يجب شراؤها للمنزل ، فأما أمى فكانت متعبة لا تقوى أن تخرج لشرائها ، وأما أنا فيدوروفنا فقد اتابتها يومئذ نوبة كسل من حسن حظى ، فعهدت الى بالخروج لشراء الأشياء • فذهبت الى القناطر تصحبنى ماترينا •

وواتانى الحظ فسرعان ما وقعت على مؤلفات بوشكين مجلدة تجليدا جميلا جدا ، فاخذت اسامى البائع على ثمنها • حدد لها فى أول الأمر ثمنا يفوق ما يدفعه المرء فى المكتبات ثمنا لكتب جديدة ، ثم توصلت بالمساومة ، وفى غير قليل من العناء والحق يقال ، وبعد أن تظاهرت بالانصراف غير مرة ، أن أحمل البائع على انزال السعر ، بتخفيض بعد تخفيض ، الى عشر روبلات فضة • ألا ما كان أشد فرحى بمناقشته ! وكانت ماترينا المسكينة تتساءل ماذا دهانى ولماذا خطر ببالى فجأة أن أشتري مثل هذا العدد الكبير من الكتب • غير اننى لا أملك ، وأسفاه ، الا ثلاثين روبلا ورقا ، والبائع يرفض أن يبيعنى الكتب بسعر أقل من السعر الذى نزل اليه آخر الأمر • فتوسلت اليه ، وألححت فى التوسل ، فاستطعت أخيرا أن أتتبه عن عزمه • غير أنه رفض أن يزيد التخفيض الجديد على روبلين ونصفا ، وحلف أنه

ما كان ليتنازل هذا التنازل كله لأحد غيري ، فهو قد خفض السعر الى هذا الحد الأقصى مراعاة لي ، لأنني فتاة لطيفة . لا يزال يتقضى اذن روبلان ونصف روبل حتى أتم الصفقة . وأوشكت أن أبكى أسفا وحسرة .. غير أن ظرفا لم يكن في الحسبان لم يلبث أن أنقذني من الورطة .

فغير بعيد مني ، على طرف منضدة أخرى مثقلة كتباً لمحت المعجوز بوكروفسكى وقد خف اليه واحتشد حوله أربعة أو خمسة من بائعي الكتب القديمة . كانوا قد حيروه بمروضهم المتناقضة ، فهو يبدو تائها كأنه فقد البقية الباقية من عقله . كان كل واحد من البائعين يطرى له بضاعته ، ولا يعلم الا الله ما الذي كانوا يعرضونه عليه ، وما الذي كان يمكن أن يشتريه . كان المعجوز المسكين يبدو ضائعا في وسطهم لا يعرف من يجيب ولا من يصدق . فاقتربت منه وسألته ماذا يفعل هنا ، فما كان أشد ابتهاجه برؤيتي ! .. لقد كان يجنني حبا لا حدود له ، حبا لعله لا يقل عن حب ابنه بانتبكا . قال لي شارحا : « أريد أن أشتري كتابا يا فرفارا الكسيسينا .. كتابا لابني بانتبكا . ان عيد ميلاده قريب ، وهو يعبد الكتب عادة ، لذلك جئت أشتري له بعض الكتب .. » .

ان طريقة المعجوز في الكلام طريقة مضحكة في العادة ، فكيف اذا أضفت اليها ما كان فيه من اضطراب حينذاك ؟ كان أي كتاب يقع عليه اختياره ، يطلب الباعون ثمنه روبلا فضة ، أو روبلين ، أو ثلاثة ، حتى أصبح لا يجروؤ أن يسأل عن أسعار الكتب الكبيرة بل يكتفي بأن يلقي عليها نظرات تتم عن الرغبة فيها ، ويقلبها بين يديه قبل أن يردها الى موضعها ، ويدندن قائلا بصوت خافت : « لا ، لا ، هذه باهظة الثمن ، لعلني واجد شيئا آخر هناك » ، ثم يأخذ ينبش بين دفاتر الموسيقى والأضابير والتقاويم المكدسة أكواما تباع جملة .

قلت له :

- لماذا تفكر في شراء مثل هذه الضبار ؟ انها ليست بذات قيمة •

فأجاب :

- لا ، لا ، لن أشتري منها • انظري هناك • ثمة كتب صغيرة رائعة ،

كتب صغيرة لطيفة جدا •

قال هذه الكلمات الأخيرة بصوت يبلغ من البطء والحزن والوهن اننى أحسست أنه يوشك أن يبكي أسى لان الكتب الجميلة باهظة الثمن • حتى لقد رأيت عبيرة تنهمر من عينيه وتسيل على خديه الشاحيين وأنفه الأحمر • فسألته كم معه من المال ، فأخرج المسكين جميع النقود التي كان يملكها ملفوفة بورقة قدرة من أوراق الجرائد ، وقال : « هذا مامعى : خمسون كوبيكا ، ثم خمسة وعشرون كوبيكا ، ثم ما يساوى عشرين كوبيكا من النقود النحاسية » •

فأسرعت أجره نحو بائع الكتب القديمة التي كنت أساومه على شراء مؤلفات بوشكين • وقلت له : « هذه الكتب الأحد عشر لا يساوى ثمنها مجتمعة الا اثنين وثلاثين روبلا ونصف روبل ورقاً • معى أنا منها ثلاثون روبلا ، فاذا أضفت إليها أنت روبلين ونصفا اشتريناها كلها هدية مشتركة الى باتنكا » •

فجن العجوز فرحا ، ووضع على المنضدة جميع النقود التي كانت معه ، فحملته البائع مكتبتنا المشتركة • دس العجوز الطيب بعض الكتب فى جيوبه ، ووضع بعضها الآخر تحت ابطيه ، وحمل الباقي بيديه ، ومضى بها الى داره واعدا أن يجيئنا بها فى الغد سرا دون أن يراه أحد •

وجاء يزور ابنه فى اليوم التالى ، ولبت عنده قرابة ساعة على عادته ،

ثم دخل علينا وجلس قربي وقد لاحت في وجهه امارات مضحكة تعني أنه
يكنم سرا ويخفي أمرا • كان يتسم ويفرك يديه ، فرحا كل الفرح بأنه
يحمل سرا ، ثم شرح لي أنه نقل الكتب الى منزلنا دون أن يراه أحد ،
وأنه خبأها في ركن من المطبخ بحراسة ماترينا • وانتقل الحديث بعد ذلك
الى عيد الميلاد الذي تنتظره • فأطرب العجوز في الكلام على الطريقة التي
سنعمد اليها في تقديم الهدية لابنه ، فكان كلما ازداد توغلا في هذا
الموضوع ظهر عليه أن قلبه مثقل بأمر لا يستطيع أن يتكلم فيه ، ولا يجرؤ
أن يتكلم فيه ، كأن شيئا من الخشية يصدده عنه • فكنت أنتظر صامتا •
لقد اختفى ذلك الفرح الخفي ، وذلك الرضى النفسى اللذبان كنت أفرؤهما
حتى ذلك الحين واضحين كل الوضوح في حركات يديه وجعدات وجهه
وغمزات عينه اليسرى ، وأصبح قلقه وحزنه يزدادان دقيقة بعد دقيقة ،
ثم لم يستطع أن يكظم ما في نفسه ، فبدأ يقول خائفا بصوت متردد
متلعثم :

- اسمعى يا فرفارا ألكسيفنا •• هل تعرفين ماذا يا فرفارا

ألكسيفنا ؟ ••

انه مضطرب أشد الاضطراب •

- اليك الأمر : حين يجيء عيد ميلاده ، تأخذين أنت عشر كتب
فتقدمينها هدية منك اليه ، منك وحدك ، وأخذ أنا الكتاب الحادى عشر
فأقدمه هدية منى ، منى أنا وحدى • فبهذه الطريقة تقدمين أنت هدية اليه
ويتاح لي أن أقدم أنا أيضا هدية •

هنا اضطرب العجوز وصمت • ونظرت اليه : انه ينتظر قرارى على

خجل ولهفة وهم في آن معا •

قلت له :

- ما الذى يحملك على العدول عن هدية نشترك فى تقديمها معا
يا زاكار بتروفتشى ؟

- ذلك .. يا فرفاراكسييفا .. ذلك .. اننى قدّرت .. اننى
.. لاننى ...

وازداد اضطرابه ، فاحمر وجهه وتلغم لسانه وجمد لا يتحرك .

وقال أخيرا يشرح رأيه :

- اسمى يا فرفاراكسييفا ... انه يتفق لى احيانا ان اسير فى
طريق الضلال و ... اريد ان اقول ان من واجبى ان انبثك باننى اسير
دائما فى طريق الضلال ... دائما ... على وجه التقريب .. فما أكاد
اكف عن السير فى هذا الطريق حتى أعاود السير فيه ... الا سجين
عادات سيئة ... أعمل ما ينبغى ألا أفعله ... هل فهمت ما أريد أن
اقول ؟ ... يكون الجو باردا جدا فى بعض الايام ، وأكون انا مثقلا
بأنواع الهموم والاحزان ، بل قولى ان الحزن يعترينى على حين فجأة ،
فيكفى أن يقع لى شىء مزعج حتى أفقد قدرتى على ضبط نفسى ... فاذا
أنا أسير فى طريق الضلال ... أشرب كأسا أو كأسين زيادة . ويستاء
منى بتروشا عندئذ استياء شديدا ، ويغضب غضبا قويا يا فرفاراكسييفا ،
ويأخذ يلومنى ويقرعنى ويعظنى وينصحنى بغير انقطاع ... لذلك أريد
أن أبرهن له الآن ، بهذه الهدية التى سأهديها اليه ، اننى قد أصلحت
ما فسد من أمرى ، واننى بدأت أسلك فى الحياة سلوكا حسنا . أريد
أن أريه اننى وفرت بعض القروش لأشترى كتابا ، أريد أن أريه اننى
ظلمت أدخر زمتا طويلا حتى جمعت ما أشترى به كتابا . ذلك أننى

لا أملك من المال الا ما يعطينيه بتروشا من حين الى حين ، وهو يعلم ذلك ،
فسيرى اذن ماذا أفعل بالدريهمات التي ينفجنى بها ، وسيرى أنتى فعلت
ذلك من أجله •

شعرت نحو العجوز بشفقة كبيرة • ولم ألبث أن عزمت أمرى •
وكان ما يزال ينظر الى قلقا • فقلت له :

- اسمع يا زاكار بتروفتش ، ستعطيه أنت الأحد عشر كتابا كلها •

- كيف هذا ؟ كل الكتب ؟ أعطيه الكتب كلها ؟

- نعم ، كلها •

- منى أنا ؟

- نعم منك أنت ؟

- أى هدية اليه منى أنا ؟

- نعم هدية اليه منك أنت ، منك أنت •

أحسب اننى قلت ما قلت واضحا كل الوضوح ولكنه لم يفهم الا
بعد زمن • فعاد يقول ساهما شارد اللب :

- طيب ! سيكون هذا شيئا عظيما ، عظيما حقا • ولكن أنت يا فرافرا

ألكسييفنا ... ماذا تفعلين فى هذه الحالة ؟

- الأمر بسيط • لن أهدي اليه شيئا !

صاح العجوز كمن اعتراه زعر على حين فجأة :

- كيف ؟ كيف ؟ لاتهدين شيئا الى بانكا ؟ ألا تحبين اذن أن تقدمى

اليه هدية ؟

كان العجوز مدهوشا أشد الدهشة ، حزينا أبلغ الحزن ، وأحسب انه كان مستعدا للتراجع عن اقتراحه أصلا من أجل أن أستطيع أنا أن أهدى الى ابنه شيئا . يا لقلب هذا العجوز ما أظيه ! فطمأنته قائلة انه يسعدنى أن أقدم الى ابنه هدية ولكننى لا أريد أن أحرمه من فرحته . قلت : « اذا سر اينك بالهدية ، وسعدت أنت بذلك ، فسأكون أنا أيضا سعيدة ، لأننى سأشعر ، فى قرارة نفسى ، بأننى أهديت اليه هذه الكتب حقا » . اقتنع العجوز بكلامى أخيرا . ولبث فى منزلنا ساعتين أيضا ، لا يستقر فى مكان ، بل ينهض ويتحرك ويصخب ويلعب ساشا لعب الأطفال ، ويقبلنى خفية أو يقرصنى فى ذراعى ويجعد وجهه مستهزئا بآنا فيدوروفنا خلصة دون أن تراه ، حتى طردته آنا فيدوروفنا آخر الأمر . الخلاصة أن العجوز جن جنونه حماسة كما لم يقع له ذلك يوما من قبل .

وحل اليوم العظيم ، فجاء العجوز فى الساعة الحادية عشرة تماما ، بعد الصلاة رأسا ، مرتديا ثيابا أحسن ترقيعها ، مع صديرة جديدة وحذاءين جديدين حقا ، ممسكا فى كل يد بحزمة من كتب . كنا جميعا فى تلك اللحظة عند آنا فيدوروفنا نحسب قهوة (كان اليوم يوم أحد) . وطفق العجوز يتكلم على بوشكين فيما أظن ، قائلا عنه انه شاعر ممتاز . ثم اضطرب وارتبك وقال فجأة ان على الانسان فى هذا العالم أن يسلك سلوكا لائقا ، فاذا سلك أحد سلوكا سيئا كان لنا أن نستنتج من ذلك أنه يتبع طريق الضلالة . وأضاف يقول ان الميول السيئة تقود الانسان الى الضياع والدمار . حتى لقد استشهد بحالات من الإفراط والانحلال تستحق أن تكون عظة وعبرة ، وأعلن فى ختام كلامه أنه قد أصلح نفسه منذ زمن ، وان سلوكه أصبح سلوكا سليما لا غبار عليه ولا عيب فيه ، سلوكا يمكن أن يعد قدوة ، وانه كان قد أحسن من قبل بصدق مآخذ

ابنه عليه ، وأدرك منذ زمن طويل أنها صحيحة كل الصحة ، فعزم أمره على اتباع وصاياها ، فاستطاع أن يصل الى ذلك حقا ، فهو الآن قد كف عن الشراب لا قولاً بل فعلاً ، والدليل على ذلك انه يهدى الى ابنه هذه الكتب التي اشتراها بما ادخر من مال خلال مدة طويلة •

كنت أصنى الى كلام العجوز فما أستطيع أن أمسك عن الضحك والبكاء معا الا في كثير من العناء • انه يعرف كيف يحسن الكذب عند الضرورة • • حملت الكتب الى غرفة بوكروفسكى ، ووضعت على أرضها • وحزر بوكروفسكى الحقيقة فوراً • ودعى العجوز الى تناول طعام الغداء معنا • فكنا جميعا سعداء كل السعادة طوال ذلك اليوم • وبعد الغداء لعبنا بالورق • وأكثرنا ساشا من الحركة منقاداً لطبعها الحي ، ومزاجها العنيف •

وجاريتها أنا في ذلك • وأظهر بوكروفسكى اهتماما خاصا بي ، حتى لقد حاول مرارا أن يكلمني على انفراد ، ولكنني لم أستجب له • كان ذلك اليوم أسعد أيام حياتي في تلك السنين الاربع •

أصل الآن الى ذكريات حزينة موجعة • ان كل ما تلا ذلك كان أليماً شاقاً • سأتكلم الآن عن الأيام السود من حياتي • وربما كان هذا هو السبب في أن قلبي يقاوم فيتحرك على الورق تحركاً أبطأ ، كأنه يرفض أن يكتب ما بقى على أن أقوله • ولاشك أن هذا هو ما خصني على الاسترسال ، بكل ذلك الانفعال وذلك الحب ، في سرد أدق تفاصيل حياتي المسكينة في ذلك العهد الذي كنت فيه سعيدة • كان عهداً قصيراً جداً ثم تالت المصائب بعد ذلك ، سوداء سوداء لا يعلم الا الله هل تنتهي في يوم من الأيام •

ابتدأت مصائب حياتي بمرض بوكروفسكى وموته • لقد مرض

بوكروفسكى بعد انقضاء شهرين على الحوادث التى أتيت على وصفها •
 كان فى الأسابيع الأخيرة قد بذل جهودا كبيرة ، ذاهبا هنا وهناك من أجل
 أن يكفل لنفسه موردا يعيش منه ، لأن وضعه لم يكن على شئ من
 الاستقرار والاطراد • وظل الى آخر لحظة كسائر المصدورين يأمل أن
 يعيش طويلا • وقد عرض عليه أن يوظف معلما فى مكان ماء ، ولكن هذه
 المهنة كانت ترعبه • وحرمه سوء صحته من أن يعين لوظيفة من وظائف
 الدولة ، ولو قد عين لوظيفة من هذه الوظائف لكان عليه أن ينتظر زمتا
 طويلا قبل ان يتقاضى شيئا من راتبه على كل حال • الخلاصة انه لم يلق
 الا اخفاقا بعد اخفاق فى كل جهة من الجهات ، فساء طبعه وفسد مزاجه ،
 وكان مرضه يتفاقم أثناء ذلك ولكنه لم يشعر بهذا التفاقم • وجاء الخريف •
 فكان يخرج كل يوم بمعطفه الرقيق الخفيف الذى كان يرتديه طالبا ، يحاول
 أن يحسن أحواله بالتماس وظيفة فى أى مكان ، واستعطاء عمل من
 الأعمال أيا كان ، فكانت هذه المساعي تعذب نفسه عذابا مريرا • وكان
 الماء ينفذ فى حدائه ، وكان يعود الى البيت مبلا بالمطر ، الى أن جاء يوم
 اضطر فيه أن يلزم فراشه ، ثم لم يبارحه بعد ذلك الا الى القبر •••
 مات فى وسط الخريف قبل نهاية شهر تشرين الاول (أكتوبر) •
 أستطيع أن أقول اننى لم أكد أترك غرفته طوال مدة مرضه ، أعتنى
 به وأسهر عليه ، حتى لقد اتفق أن أنفقت ليلالى بأسرها قرب سريره •
 كان يندر أن يفيق من غيبوته • انه يهدى فى كثير من الأحيان ، ويقول
 كلاما لا يعلم الا الله ما هو • يتحدث عن الوظيفة التى يبحث عنها ، وعن
 كتبه ، وعن أبيه ••• وبهذا عرفت عن حياته تفاصيل كنت أجهلها الى
 ذلك الحين ، بل ما كان يمكن أن تخطر لى على بال • كان جميع من فى
 المنزل ينظرون الى نظرة غريبة فى أول عهده بالمرض ، وكانت آنا

فيدوروفنا تهز رأسها استكارا واستياء ، ولكنني لم أغض بصرى ، فسرعان ما كفوا عن لومى على اهتمامى بالمريض ، ولا سيما أمى •

وكان بوكروفسكى يعرفنى فى بعض اللحظات ، ولكن ذلك لا يحدث الا نادرا ، فلقد كان فى أكثر الأحيان غائبا عن نفسه • وسمعتة فى بعض الليالى يناقش شخصا فى خياله مناقشة طويلة • ان كلامه غامض مبهم لا يتميز ولا يبين ، وان صوته الذى يشبه أن يكون صادرا من كهف يدوى فى الحجرة الصغيرة دويّه فى قبر • كنت فى تلك اللحظات أشعر بخوف • وفى الليلة الأخيرة خاصة ، كان بوكروفسكى فى حالة غريبة من الهياج • كان يعانى آلاما مبرحة ، فهو يئن ويتأوه ، فتمزق شكواه قلبى تمزيقا • وظهر الذعر فى وجوه جميع من فى المنزل • حتى لقد أخذت آنا فيدوروفنا تدعو الله أن يأخذه اليه بأقصى سرعة • ودعى الطبيب ، فقال ان المريض سيموت فى نحو الصباح حتما •

قضى العجوز بوكروفسكى الليل كله فى الدهليز أمام باب غرفة ابنه ، حيث فرشوا له بساطا على الارض • كان يدخل على ابنه فى كل لحظة مستطلعا • ان منظره مخيف حقا • كان الحزن يسحقه سحقا ، حتى ليبدو من شدة الانسحاق فاقد الاحساس بليد الشعور • وكان رأسه يترنح جزعا • وكان جسمه كله يرتجف ويرتمش • وكان يدندن هامسا بغير توقف كأنه يجادل نفسه • قدرت انه سيصبح مجنوننا من فرط الأسى •

حتى اذا جاء الفجر نام العجوز على البساط وقد أرهقه العذاب وأنهك قواه • وأخذ الابن يحتضر فى نحو الساعة الثانية ، فأيقظت الأب • كان بوكروفسكى صاحيا صحوا كاملا فى تلك اللحظة ، فودعنا جميعا • شئ غريب ! لم أستطع أن أبكى ، ولكن روحى كانت تتمزق •

واللحظات الأخيرة هي التي عذبتني أكبر العذاب • ان بوكروفسكى يطلب بلسانه المتلعثم المختلط شيئا ما ، فلا أستطيع أن أفهم ماذا يريد • كان قلبي يتحطم ألما ويأسا • ظل بوكروفسكى يتحرك ويضطرب ساعة كاملة وقد تملكته رغبة عجزت عن فهمها ، فهو يحاول أن يفصح عنها بإشارات من يديه الباردتين أولا ثم يأخذ يتوسل بصوت منطفيء شاك أصم تخالطه حشرجات منذ ذلك الوقت ، ولكن الكلمات التي يلفظها ما هي الا أصوات متقطعة مبهمة أظل عاجزة عن ادراكها • أتيت به بجميع من فى المنزل واحدا بعد آخر ، وعرضت عليه ماء لعله يريد أن يشرب ، ولكنه كان يهز رأسه بالنفى هذا حزينا •

وأدركت أخيرا قصده • كان يطلب منى أن أزيح ستارة النافذة وأن أفتح مصراعها • لعله كان يريد أن يلقى نظرة أخيرة على ضوء النهار ، على خليفة الله ، على الشمس • فأزحت الستارة ، ولكن ضوء النهار كان شاحبا حزينا ، كالحياة التي تنطفئ فى المسكين المحتضر •

لم يكن ثمة شمس ، فالغيوم تغطي السماء بحجاب صفيق كثيف ، والجو ممطر ، وكل شيء يبدو قاتما مظلما حزينا • هذا رذاذ من مطر ينقر الزجاج ويتزحلق عليه خيوطا من الماء باردة متسخة • ان ضوء النهار لا يكاد يدخل الغرفة ، ولا يكاد يستطيع أن يكبى ضوء الصباح الصغير المشتعل أمام الأيقونة • وألقى على المحتضر نظرة أخيرة مثقلة بحزن كبير ، وهز رأسه • فما هي الا دقيقة واحدة حتى كان ميتا •

اتخذت أنا فيدوروفنا الاجراءات اللازمة للجنازة • اشترى تابوت بسيط ، واستؤجرت عربة صغيرة • ومن أجل أن تعوض أنا فيدوروفنا خسارتها استولت على جميع الكتب وعلى الأمتعة الشخصية التي تركها المتوفى • فاحتج العجوز وشاجرها شجارا صاخبا ، واسترد ما استطاع أن

يسترده من مجلدات حشا بها جيوبه وحشا بها قبعتيه ولم يشأ أن
ينفصل عنها خلال الايام الثلاثة التالية ، وظل يحملها حتى حين أن
أوان الذهاب الى الكنيسة . كان يبدو أنه أصبح أبله ، فهو ما ينفك
يضطرب حول التابوت غيبى الحركات كأنما هو يريد أن يحيط التابوت
بمنايته ، فتارة يعدل العصبه على جبين المتوفى ، وتارة يشعل الشموع أو
ينقلها من موضعها . كان واضحا أن فكره لا يستطيع أن يثبت على شيء .
ولم تحضر أمى ولا آنا فيدوروفنا صلاة الجنائز فى الكنيسة . أما أمى
فلأنها كانت تحسن انها مريضة ، وأما آنا فيدوروفنا فلأنها تشاجرت فى
اللحظة الاخيرة مع العجوز بوكروفسكى ، بعد أن كان فى نيتها أن تحضر
الصلاة ، فأثرت بعد تلك المشاجرة أن تبقى فى البيت . حضرت اذن
صلاة الجنائز وحدى مع الاب . واعتزاني أثناء القداس نوع من الغم
والخوف ، كأننى أوجس شرا سيقع فى المستقبل . ولم ألبث فى الكنيسة
الى آخر القداس الا وقد خارت قواى . وأغلق التابوت أخيرا ، وسمر ،
ووضع على العربة ، فسرعان ما سارت به فورا . لم أرافق العربة الا الى
آخر الشارع ، ذلك ان الحوذى لكز الحصان هنالك فأخذ يجرى عدوا .
فكان العجوز يركض وراء العربة باكيا بصوت عال ، وكانت سرعة
الركض تقطع انتحاياته . وقد سقطت قبعة العجوز عن رأسه فلم يرض
أن يتوقف عن الركض لتناولها ، فكان المطر يبلل رأسه ، وهبت ريح
قارسة ، فكان البرد الشديد يلسع وجهه التى تصفحه الرياح . ولكن
العجوز لا يشعر بشيء ، ولا يحس شيئا ، ولا ينفك ينتقل وراء العربة
من جانب الى جانب باكيا . ان أذبال « ردنجوتيه » الرث تطير وترتفع
فى الهواء كالأجنحة ، وان الكتب تخرج من جيوبه وتسقط على الارض ،
ولكنه ممسك بيديه كتابا ضخما منها يبدو متشبها به تشبث الغريق بقارب
النجاة . كان المارة يرفعون قبعاتهم ويرسمون اشارة الصليب ، وكان

آخرون يتوقفون ويأخذون ينظرون الى المعجوز البائس مدهوشين • وفي كل لحظة تفلت من جيوب المعجوز كتب فتسقط على وحل الطريق ، فكان الناس يستوقفونه وينبهونه الى سقوط الكتب فيتناولها ويستأنف ركضه ليلحق بمركبة الميت • وقد انضمت اليه عند ناصية الشارع امرأة فقيرة أشبه بشحاذة عجوز ، فشاركته السير وراء هذه الجنازة التي لم يتبمها أحد غيرها • وانحرفت العربية فغابت عن بصرى أخيرا • ففقلت راجعة الى المنزل ، فما ان وصلت حتى ارتميت على صدر أمي وأنا أشعر بحزن عميق لا يوصف • ضمنت أمي في ذراعي ضما قويا ، وأغرقتها بالقبل باكية منتحبة ، وشدت جسمي الى جسمها خائفة جزعة ، كأنني أحاول أن أحبس في حضني آخر صديق بقي لي في هذا العالم ، لأدفع عنه الموت ••• ولكن ملاك الموت كان يحوم منذ ذلك الحين حول أمي المسكينة •

١١ حزيران (يونيه)

كيف أشكر لك ، ياماكار ألكسييفتش ، نزهة الأمس فى الجزر ؟
ما أحلى طراوة الجو هنالك ، وما أجمل خضرة الطبيعة ! اننى ما رأيت
خضرة منذ زمن ! كنت أعتقد طوال مدة مرضى اننى سأموت ، وكنت أعد
موتى قريبا محتوما لا مناص منه . فلك أن تقدر اذن ماذا كان شعورى
أمس أثناء تلك النزهة . لا تؤاخذنى على اننى كنت حزينة ذلك الحزن
كله طول الوقت . والحق اننى كنت مسرورة جدا سعيدة جدا . ولكن
أجمل لحظات سعادتى لا بد أن يخالطها دائما شىء من حزن . ولئن بكيت
قليلاً فلا تعبأ بهذا ولا تلتفت اليه : أنا نفسى لا أدرى لماذا أبكى فى بعض
الأحيان . اننى حادة الشعور ، سريعة الاحتياج ، وجميع مشاعرى يمازجها
ألم . لعل شحوب الجو ، وصفاء السماء ، وغياب الشمس ، وهدوء الأفق ،
لعل ذلك كله قد ساهم فى هذا . . . لا أدرى . . . وأغلب الظن اننى
كنت بالأمس مهيأة لأن أحس الأشياء بنفسى حزينة وقلب مثقل ، حتى
لتوشك روحى أن تنفجر فى بعض اللحظات ، فتهمر الدموع من عينى
على حين فجأة . ولكن لماذا أكتب لك هذه الاشياء ؟ تلك الاشياء مؤلمة ،
والتعبير عنها مؤلم أكثر منها أيضا . لعلك تفهمنى مع ذلك : لقد كنت
فرحة حزينة فى آن واحد . ما أطيبك يا ماكار ألكسييفتش ! كنت
بالأمس لا تنظر فى عينى بغير أن تقرأ مشاعرى ، وكانت نفسك تفيض
حماسة اذا رأيت حماسى . عند كل غابة صغيرة نراها ، وفى كل شعب
نسير فيه ، وأمام كل غدير نقف عليه ، كنت دائما تتقدمنى معتزاً كل
الاعتزاز ، وتنظر الى عينى بغير انقطاع ، كأنك تطوف بى فى أراضيك ،
تظهرنى على جمالها وتحملنى على الاعجاب بها . هذا كله يشهد بأن لك
قلبا طيبا نبيلاً يا ماكار ألكسييفتش . وذلك بعينه هو ما يجعلنى أحبك .

وداعا الآن • لقد عاودنى المرض اليوم • فان قدمى تبللتا أمس فأصابنى
برد • وفيدورا متسوعة أيضا • ان بيتنا يضم الآن مريضتين اثنتين •
لا تنسى وأكثر زيارتك •

المخلصة لك : ب.د

١٢ حزيران (يونيه)

عزيزتى فرارا الكسييفا ، يا يمامتى

كنت أتوقع يا ماتوشكا ، أن أقرأ لك قصائد طويلة من شعر فى
وصف ذلك النهار الذى قضيناه معا بالجزر ، ولكنك لم تكتبى الا صفحة
واحدة صغيرة • واذا كنت أقول هذا ، فلأن ما كتبته قليل حقا ، ولكن
ما كان أجمل ما قلته ، وما كان أروع ! لقد ضمت رسالتك كل شىء :
وصفت الطبيعة ، وصورت مناظر الريف ، وعبرت عن أنبل المشاعر
والعواطف ، هل هناك شىء لم تضمه هذه الرسالة القصيرة ؟ لقد وصفت
كل شىء وصفا يبعث على الإعجاب ، أما أنا فليس لى موهبة • فمهما اسوتد
من صفحات وصفحات ، فاننى لا أعبر عن شىء ، ولا أصل الى شىء • لقد
حاولت فما ظفرت •

تقولين ، يا صديقتى العزيزة ، اننى انسان شهيم طيب القلب ، واننى
عاجز عن ايداء أحد من الناس ، واننى أقدر ما أودع الله خليقته من صنوف
الجمال ، وتكيلين لى كل أنواع المديح والاطراء • هذا كله حق ياماتوشكا
هذا كله صدق • أنا كما تصفين فعلا ، أعرف ذلك بنفسى • ولكن حين

أقرأ أشياء كالتى تقولونها فى رسالتك ، فان قلبى يرق على غير ارادة منى ،
ثم تغزوينى خواطر سود وأفكار حزينة • اسمعى يا ماتوشكا ، هناك
ما أحب أن أقصه عليك أنا أيضا يا صديقتى العزيزة •

اعلمى أولا اننى حين عينت موظفا لم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة
من عمرى ، فخدمتى فى الوظيفة تقارب ثلاثين عاما ، وسأستطيع أن أحتفل
قريبا بمرور ثلاثين عاما على عملى فى هذه الوظيفة • آه ما أكثر ما أبليت
من أردية رسمية خلال هذه المدة ! ولقد تقدمت فى السن ، وأمعت فى
الجد ، ونضج فكرى ، وتعلمت معرفة الناس • لقد عشت ، نعم لقد عشت ؛
أستطيع أن أقول اننى عشت فى هذا العالم ، حتى لقد أوشكت أن أرشح
لنيل وسام • قد لا تصدقين كلامى ولكننى أقول لك الحقيقة • ومع ذلك
وجد أناس أشرار آساءوا الى ونالونى بأذى • لا أكمك يا صديقتى
الطيبة اننى رجل معلق ، رجل محدود من غير شك ، ولكن قلبى لا يقل
طيبة عن قلب أى انسان آخر ••• هل تعلمين يا فارتكا ما صنع بى
أولئك الأشرار ؟ ولكن فيم الكلام على ما صنعوه بى ! الأحرى أن
تسألينى لماذا صنعوا بى ما صنعوه ؟ لأننى انسان بسيط رقيق هادى • طيب
القلب لم يرق لهم أن أكون كذلك ، فكان لا بد أن أدفع الثمن • وهجموا
على • قالوا فى أول الأمر : « أنت كيت وكيت يا ماكار ألكسيفتش » •
ثم قالوا « أما ماكار ألكسيفتش ، فلا داعى الى الكلام عنه » ، وانتهوا الى
أن يقولوا : « هو ماكار ألكسيفتش ما فى ذلك ريب » • أرأيت ياماتوشكا
كيف وقع هذا كله ؟ كل شىء يقع على ماكار ألكسيفتش • وجدوا أن
خير ما يفعلونه أن يشهروا بى فى المنطقة كلها ، حتى صار ماكار
ألكسيفتش مضرب المثل ، ثم لم يفهم أن يصبح اسمى مضرب المثل ،
وأن يصبح شتمة وسبة تقريبا ، بل راحوا يهاجمون جذائى وردائى الرسمى
وشعر رأسى ، وحتى وجهى • لم يرضهم شىء فى ، فكان على أن أبدل كل

شيء على ما يرضون • وهذا كله يستمر منذ زمن سحيق ، ويتكرر كل يوم •
 ولقد تعودت في آخر الأمر ، لأننى أتلاءم مع كل شيء ، لأننى انسان مسالم ،
 لأننى انسان بسيط متواضع ، ولكن لماذا هذا كله ، لماذا ؟ قولى لى : لماذا
 هذا كله ؟ بمن ألحقت أذى ؟ هل منعت أحدا أن يرفع ؟ هل وشيت بأحد
 الى الرؤساء ؟ هل نلت مكافآت لا أستحقها ؟ هل دبرت مكائد ؟ هل هيات
 دسائس ؟ حرام أن يظن بى ذلك ••• وهل فى وسعى أن أفعل شيئا من
 هذا ؟ احكمى بنفسك يا صديقتى العزيزة : هل لى من الذكاء ما يمكننى
 من الغدر والمكر والوقية • فلماذا يهاجمونى اذن ذلك الهجوم الشرير ؟
 غفر الله لى ! أنت ترين اننى رجل محترم ، فأنت خير منهم جميعا
 يا ماتوشكا • ولتساءل : ما أفضل الفضائل المدنية ؟ لقد صرح أوستاش
 ايفانوفتش مؤخرا ، أثناء حديث خاص له ، ان أفضل الفضائل المدنية
 هى أن يعرف المرء كيف يكسب المال • قال ذلك مازحا (أنا أعلم انه
 قال ذلك مازحا) ، ولكن العبرة التى يجب أن نستخرجها من قوله هى
 ان من واجب الانسان أن لا يكون عالة على أحد فى هذا العالم • وأنا
 امرؤ لا أعتد على أحد • اننى أملك ما أضمن به لنفسى كسرة خبز •
 هى كسرة خبز بسيطة ، أعترف بذلك ، والخبز جاف يابس أحيانا ،
 هذا صحيح ، ولكنه لى ، كسبته بعملى حلالا وآكله محافظا على شرفى •
 فماذا يريدون منى أكثر من ذلك ؟ أنا أعلم حق العلم انه ليس بالمزبة
 الكبيرة أن أعمل ناسخا طول النهار ، ولكننى فخور بعملى • اننى أقوم به
 جادا مخلصا ، وأتعب فى سبيله وأعرق • أهى خطيئة أن يعمل امرؤ
 ناسخا ؟ يخيل الى أنهم ما ينفكون يهزأون بى قائلين « هه ••• هه •••
 هذا ناسخ •• هذا ناسخ » . فهل فى النسخ ما يشين ، هل فيه ما يلطخ
 الشرف ؟ ان خطى واضح جلى يسر الناظرين ، وصاحب المعالى راض
 عنه كل الرضى • اننى أنسخ لصاحب المعالى وثائق هى على جانب عظيم

من خطورة الشأن ، صحيح اننى لست بنى أسلوب . لست أجهل ذلك .
أعلم اننى لا أملك شيئا من أسلوب ، لعن الله الأسلوب . لذلك لم أرتق
فى وظيفتى . ولذلك أيضا أكتب اليك فى هذه اللحظة يا صديقتى العزيزة
بساطة تامة ، لا أنمق العبارات بل أقول ما أقول عفو الخاطر كما أحسه
فى قلبى . أنا أعرف كل هذا . ولكن قولى : لو كان كل انسان يكتب
من نفسه ولنفسه فمندا الذى سيقوم عندئذ بعمل النسخ ؟ ذلك هو السؤال
الذى أطرحه عليك ، وأطلب منك أن تقولى أنا على حق فيه أم لا ؟ اننى
أدرك اليوم أن هناك حاجة الى ، واننى لا غنى عنى ، وانه ليس من الخير
أن يحاول الناس ازعاج انسان شريف دون ما داع الى ذلك ، وأن
يناكدوه فى أمور سخيفة تافهة . فليعدونى فأرا ما داموا قد وجدوا بنى
وبين الفأر شبا . أسلم لهم بذلك . ولكن للفأر ضرورته أيضا ؛ ان له
نفعا فى هذا العالم ، وقد يُحرص على الفأر أحيانا ، وقد يعطى الفأر
مكافآت . . . أنا فأر من هذا النوع . كفانى الآن كلاما فى هذا الموضوع
يا صديقتى العزيزة ! وعلى كل حال فليس هذا ما كنت أريد أن أكتب
اليك فيه . غير أننى تحمست قليلا . ومن الممتع مع ذلك أن ينصف المرء
نفسه من حين الى حين . وداعا يا صديقتى العزيزة ، يا يمامتى ، يا عزاء
قلبى . سأجى اليك . سأزورك حتما ، يا شعاع ضيائى ، يا نور عيني .
لا تسأمنى كثيرا بانتظار ذلك . سأحمل اليك كتابا . وداعا الآن يا فارنكا .

صديقك المحب المخلص

ماكاز ديفوشكين

عزيزى السيد ماكار الكسييفتش !

اكتب اليك على عجل ، لأن على أن أسرع ، فهناك شغل يجب أن
أنجزه اليوم لأقدمه الى أصحابه . اسمع ما سأقوله لك : هناك فرصة
مواتية لصفقة مغرية . لقد قالت لي فيدورا ان لدى أحد معارفها رداء كاملا
من أردية الموظفين يريد أن يبيعه ، وهو جديد تقريبا ، مع سروال
وصديرة وبقعة ، ويظهر انه معروض للبيع بسعر زهيد . لست الآن فى
عوز ، فلديك قليل من مال ادخرته ، قلت لي هذا أنت نفسك فلا تمنع
ولا تكن بخيلا . ذلك أمر لا بد منه . انظر الى نفسك ، انظر الى ثيابك
كم أصبحت حلقة بالية رثة ؟ ألا تخجل أن ترتدى هذه الثياب التى لا يخلو
موضع فيها من ترقيع ؟ وليس عندك رداء رسمى جديد . أنا أعرف ذلك
رغم أنك تنفيه وتدعى نقيضه . الله يعلم أين ذهبت به ، أين ذهبت بالرداء
الجديد ، أين بعته ! فاسمع كلامى ، واتبع نصيحتى ، واشتر هذا الرداء،
أرجوك . افعل ذلك من أجلى . اذا كنت تحبني فبادر الى شرائه .

لقد بعثت الى بقمصان هدية منك . فلماذا تدمر نفسك هذا التدمير
يا ماكار الكسييفتش ؟ لا شك أن القمصان قد كلفتك ثمنا باهظا . كيف
تستطيع أن تبذل كل هذه النفقات فى سبيلى ؟ حقا انك تجد متعة فى
التبذير وتبديد المال سدى . لم أكن فى حاجة الى هذه القمصان . كل
هذا زائد عن الحاجة . أنا أعلم حق العلم انك تحبني ، لا شك فى ذلك
قط . صدق انك لست فى حاجة الى تذكيري به عن طريق الهدايا . انه
ليشئ على نفسى قبول هذه الهدايا منك . فأنا أعلم انها تكلفك نفقات
باهظة . كفى هدايا . أقول لك هذا مرة واحدة . هل تفهمني ؟ أرجوك،
أتوسل اليك أن تكف . وتسالني يا ماكار الكسييفتش أن أبعث اليك بتمتة
ذكرياتي . انك تتمنى أن أنجز كتابتها كاملة . لا أدري كيف فعلت حتى
كسبت ما سبق أن بعثت به اليك لتقرأه ، ولكننى أعتقد اننى لن أملك من

القوة ما يمكنني من الرجوع الى الماضى • اننى أوتر أن أنسى هذا الماضى •
تلك ذكريات أخاف منها • أما أمى المسكينة التى تركت ابتها الشقية
فريسة لهؤلاء الشياطين فان الكلام عنها يشق على نفسى أكثر من الكلام
عما عداها أيضا • ان دمي يفور فى قلبى حين أفكر فيها • كل هذه
الأمر ما تزال حية فى نفسى • لم يتسع وقتى لأن أنوب الى رشدى تماما
بل ولا أن أهدأ بعض الهدوء رغم أن سنة بكاملها قد انقضت منذ ذلك
الحين • ثم انك تعلم كل شىء على كل حال •

حدثتك عن أحوال أنا فيدوروفنا الآن • انها تصفنى بالعقوب ،
وتتصل من كل تبعه ، وترفض اتهامها بأنها كانت شريكة بيكوف فى ذنبه •
وهى تدعونى أن أعود الى منزلها ، قائلة ان تظاهرى بأننى ضحية لا يخدعها
عن أمرى ، واننى أسير فى طريق الضلال • وهى تعد بأن تصلح الأمور
مع السيد بيكوف ، وأن تجبره على اصلاح أخطائه نحوى اذا أنا عدت
الى منزلها • وقد أكدت ان السيد بيكوف على استعداد لأن ينفحنى بائنة •
اننى أوتر أن أتجاهله • اننى مرتاحة هنا ، معك ، ومع فيدورا الطيبة التى
يذكرنى اخلاصها بالمرحومة مريتي • أما أنت فانك تحميتى بسلطة
اسمك ، رغم انك لآتمت الى الا بقربى بعيدة • اننى أعرف أولئك الناس
على حقيقتهم • سأحاول أن أنساهم اذا استطعت ذلك • ماذا يريدون منى
بعد كل ما فعلوا ؟ فيدورا ترى أن ذلك كله ليس الا أقاويل يتقولونها ،
وانهم سيدعوننى وشأنى هادئة آخر الأمر • أسأل الله أن يصدق رأيها •••

ب • د

يا يمامتى ، يا ماتوشكا !

أريد أن أكتب اليك ، ولكننى لا أعرف من أين أبدأ • أليس غربيا
يا ماتوشكا أن نجيا الآن هذه الحياة أنا وأنت ؟ أقول هذا لأننى لم أعش

طوال حياتي الى الآن أيا ما حافلة بسعادة كهذه السعادة ، كأن الله قد شاء أن يهب لي بيتا وأسرة • ولكن يا ابنتي، يا ابنتي الصغيرة المعبودة، ما هذا الذي تقولينه بصدد تلك القمصان الأربعة الصغيرة التي أرسلتها اليك ؟ انك في حاجة اليها ، علمت ذلك من فيدورا ، وانها لسعادة كبيرة لي يا ماتوشكا أن أستطيع تلبية رغباتك وتحقيق أمنياتك • فلا تحرميني من هذه السعادة، لا تحزيني ، لا تثيري الاعتراضات تلو الاعتراضات طول الوقت • لم أعرف في حياتي كلها فترة كهذه الفترة ، ولا عهدا كهذا العهد • لقد بدأت أعرف ما هي الحياة ، وأخذت أسير قدما في هذا العالم : فأنا أشعر أولا بأنني أعيش حياة مضاعفة لأنك تسكنين على مقربة مني فيعزيني هذا كثيرا • وثانيا فان ساكنا من سكان منزلنا قد دعاني الى احتساء الشاي معه اليوم • انه جاري راتازايف ، الموظف الذي ينظم السهرات الادبية في غرفته • سيعقد اجتماع في هذا المساء ، وستحدث في الأدب • هذا ما نفعله الآن يا ماتوشكا ، هكذا نحن الآن ، ووداعا الى حين • أكتب هذا كله عفوا ، لغير ما غاية ، لا لشيء الا أن أعلمك اني بخير ، ان صحتي حسنة • أبلغتني ، ياروحى المطيفة ، بواسطة تيريز ، انك في حاجة الى قليل من الحرير المصبوغ لأشغالك في الخياطة • سوف أستويه لك يا ماتوشكا • سوف أشتريه لك • وسوف أشتري حريرا أيضا • سوف يسعدني أن ألبى طلبك منذ الغد • ثم انني أعرف أين تباع هذه الأشياء • بانتظار ذلك أظن :

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٢٢ حزيران (يونيه)

عزيزتى السيدة فرارا الكسييفينا !

يجب أن أبلغك ، يا صديقتى العزيزة جدا ، أن مصيبة كبيرة قد وقعت فى منزلنا ، وهى حادث يثير أعماق العطف والشفقة . فى نحو الساعة الخامسة من هذا الصباح خطف الموت أحداً أولاد السيدة جورشكوف . لا أعلم المرض الذى أصيب به ، لا أدرى أهو الحصبة أم هو مرض آخر ، وقد زرت أسرة جورشكوف هذه : أناس تعساء يا ماتوشكا . ما أقسى البؤس الذى يعيشون فيه ! وما أشد الفوضى فى غرفتهم أيضا ! على أن هذا ليس بالأمر الذى يثير الدهشة : ان الأسرة كلها تعيش فى غرفة واحدة ، قسمت قسمين بحاجز بسيط من قيسل الحشمة . لقد استطاعوا أن يحصلوا على تابوت صغير ، بسيط جدا لكنه جميل : اشتروه جاهزا . ان الولد المتوفى صبى فى العاشرة من العمر كانوا يعتقدون عليه آمالا كبارا . ان رؤيتهم تؤلم النفس حقا يا فارنكا . الأم لا تبكى أبدا ، ولكن من يراها يحس ان حزنا رهيبا يسحق قلبها سحقا . مسكينة . لعل موت الصبى قد خفف عنهم عبء اطعام شخص . ولكن ما يزال عندهم اثنان ، رضيع وبنت صغيرة عمرها ست سنين أو تزيد قليلا . أية بهجة يمكن أن يشعر بها المرء حين يرى طفلا يتألم ، وحين يكون هذا الطفل فلذة كبده ، ثم هو لا يستطيع أن يدفع عنه الأذى وأن يساعده فى شيء ، أما الأب فقد كان جالسا على كرسيه المهترز ، يشابه المهترئة القدرة ، لا يتحرك من مكانه ، ولكن الدموع تسيل على خديه . لعله لا يبكى حزنا بل يبكى هكذا ، من قبيال العادة ، لأن عينيه تخضلان من فرط ما أفسدهما البؤس والضعف . انه غريب جدا ، هذا الرجل ، ما يكاد المرء يخاطبه بكلمة حتى يحمر ويضطرب ويرتج عليه فما يستطيع

جواباً • ورأيت البنت الصغيرة ، بنته ، متكئة على التابوت بوجه صغير مهموم
حزين • مسكينة ! لأحب يا عزيزتى فارنكا ، لأحب أن أرى الاطفال
مطرقين مفكرين ، هل تعلمين ؟ ليس منظرهم عندئذ بالمنظر الذى يسر
القلب ! وكان ملقى على الارض شىء يشبه أن يكون «عروسا» من خرق،
ولكن البنت لا تلعب بها • ظلت هنالك واقفة لا تتحرك ، وقد أسندت احدى
أصابعها الصغيرة الى فمها • أعطتها صاحبة البيت قطعة سكر ، فلم تأكلها •
منظر حزين يا فارنكا ، أليس كذلك ؟

ماكار ديفوشكين

٢٥ حزيران (يونيه)

أرد اليك الكتاب الذى أعرتيه ، هذا كتاب تستحيل قراءته • ان المرء
ليخجل أن يمسكه بيده • أين وقعت على هذه الجوهرة الثمينة ؟ دعنا
من المزاح ، هل تحب الكتب التى من هذا النوع حقا يا ماكار ألكسييفتش؟
لقد وعدونى هنا منذ حين بأن يأتونى بشىء أقرؤه • سأعيرك الكتاب اذا
شئت • أما الآن فالى اللقاء •
حقا ان وقتى لا يتسع لكتابة مزيد •

ب • د •

٢٦ حزيران (يونيه)

عزيزتى فارنكا !

الواقع اننى لم أكن قد قرأت هذا الكتاب يا ماتوشكا • وانما طافت
عيناي على بضعة أسطر منه ، فبدأ لى مسليا ، وقدرت أن صاحبه كتبه

ليضحك الناس ، وقلت لنفسى عندئذ : لا بد أن يكون مضحكا جدا ، وقد يحظى باعجاب فارنكا . فذلك أرسلته اليك .

لقد وعدنى راتازايف بأن يعيرنى أدبا شائقا ذا قيمة . هكذا سيكور عندك كتب يا ماتوشكا . ان راتازايف يفهم أمور الأدب . انه رجل على جانب عظيم من العلم . وهو نفسه يكتب . ان له قلما سريع الحركة نشيطا . ويا لأسلوبه ما أجمله ! انه لذو أسلوب فى كل كلمة يقولها . شئ لا يصدقه عقل . فى أبسط جملة ، فى الجملة المبدولة ، فى جملة من الجمل التى يمكن أن أقولها أنا مثلا لفالدونى أو تيريز ، يستطيع هو أن يبت أسلوبا جميلا . اننى أحضر سهراته أيضا : ندخن الغليون ، ويأخذ يقرأ لنا ، وتستمر القراءة أحيانا خمس ساعات متتالية ونحن نصغى اليه . لذة كبيرة ، متعة عظيمة ، جمال رائع ، أزهار ، أزهار طول الوقت : فى كل صفحة تستطيعين أن تجمعى باقة من أزهار . ثم ان الرجل لطيف طيب القلب ، دمخ الخلق . ما أنا أمامه ؟ لا شئ ، لا شئ البتة ، انه ذو شهرة ، أما أنا فماذا أنا ؟ لا شئ ! أنا لاوجود لى قط . ومع ذلك فهو لطيف جدا فى معاملتى . اننى أنسخ له بعض الأشياء . ولكن اياك أن تتخيلى يا فارنكا أن وراء هذا غرضا ، وانه يلاطفنى لأننى أنسخ له هذه الأشياء . أبدا ، لا تصدىقى وشايات كهذه الوشايات يا ماتوشكا .

لا تصدىقى وشايات دنيئة كهذه الوشايات ، لا ، لا ، اننى أقوم له بهذا العمل من تلقاء نفسى ، بملء ارادتى ، أنسخ كتاباته لأسرته ، فاذا لاطفنى فليسرنى هو أيضا . هذا أكيد . انه رجل طيب ، طيب جدا ، وهو كاتب لا مثيل له .

الأدب شئ حسن يا فارنكا ، شئ جميل ، عرفت هذا اول أمس . وهو شئ عميق ، انه يثبت القلب ، ويثقف العقل ، وما الى ذلك . لا أذكر

كل ما قالوه عن هذا الموضوع في كتابهم • كان كتابا جيد الاسلوب ،
الأدب لوحه أعنى لوحه ومرآة ، يجد فيه المرء أهواء وتعبيرا ، ونقدا
مرهفا غاية الزهافة ، وتعاليم تقوّم الاخلاق ، ووثائق •• تعلمت هذا
عندهم ، هذا كله تعلمته عندهم • أعترف لك بصراحة يا ماتوشكا اننى
حين أجلس بينهم مصغيا اليهم (مدخنا غليوننا مثلهم) فأسمعهم يتناقشون
ويتكلمون فى أمور شتى ، أحس فجأة اننى مضطرب جدا ، خجل جدا
يا ماتوشكا • لا تملك أنا وأنت الا أن نصمت فى مثل هذه الظروف •
أشعر عندئذ اننى غيبى ، فأخجل من نفسى ، وأحاول خلال ساعات أن
أوفق الى كلمة صغيرة ، الى نصف كلمة ، أقولها فى المناقشة ، ولكن
الكلمة لا توافينى كأنما على عمد • ما أشد الحسرة التى تعترينى فى مثل
تلك اللحظات يا فارنكا ! ما أشد الأسف الذى أشعر به حين أدرك اننى
لست من مستواهم ، وحين أتصور ، على حد تعبير المثل ، اننى كبيرت
ناسيا أن أحمل معى عقلى • فى أى شىء أفضى أوقات فراغى مثلا ؟ أنام ،
بغناء ، مع أن فى امكانى أن أشغل نفسى بأمور ممتعة جميلة بدلا من هذا
النوم الذى يزيد عن الحاجة • فى امكانى مثلا أن أجلس الى منضدتى
فأكتب شيئا • ويكون فى هذا متعة لى ، ومتعة لغيرى من الناس • لبتك
تعلمين يا ماتوشكا كم يتقاضى هؤلاء الكتاب ثمنا لكتاباتهم سامحهم الله !
انظرى الى راتازايف هذا ! انه يقبض مالا كثيرا ، مالا كثيرا ! ماذا تكلفه
كتابة صفحة ؟ ان فى وسعه أن يكتب خمس صفحات فى اليوم ، وقد قال
لى انه يتقاضى عن كل صفحة ثلاثمائة روبل • فاذا اتفق له أن يضيف
حكاية مضحكة أو شيئا طريفا حصل على خمسمائة روبل • انه يحصل
عليها ، ولا مناص •• حتى لقد يدفع له فى بعض الأحيان ألف روبل ••
ولكن هذا نادر ••• ما قولك فى هذا يا فرفارا ألكسييفنا ؟ وليس ذلك
كل شىء ••• ان عنده دفترًا كتب فيه قصائد شعرية ، ليست بالقصائد

الطويلة ، وهو يطلب ثمنها سبعة آلاف روبل يا ماتوشكا ! تخيلي هذا !
... ان هذا المبلغ يساوي ثمن عمارة ، ثمن منزل فخيم ! قال لي انهم
عرضوا عليه خمسة آلاف ، ولكنه رفض . أردت أن أردّه الى الصواب
فقلت له : « اقبل خمسة آلاف روبل من هؤلاء الناس يا أخي ، اقبل
ما يرضونه عليك ، اضحك عليهم ثم دعهم وشأنهم ، ثم ان خمسة آلاف
روبل ثروة » ، فأجابني قائلاً : « لا بل أريد سبعة آلاف ، وسيدفعونها لي
أخيراً ، هؤلاء الأوغاد » . حقا انه لرجل فذ .

وما دمت أحدثك عنه يا ماتوشكا ، فلماذا لا أتقل اليك هنا جزءاً من
كتابه « أهواء ايطالية » ؟ ذلك هو عنوان أحد الكتب التي ألفها . أقرئي
يا فارنكا ، ثم احكمي بنفسك .

« ... ارتعش فلاديمير ، وانطلقت أهواؤه جامحة عارمة غاضبة ،
وأخذ الدم يغلي في عروقه .. »
صاح يقول :

« - أيتها الكونتيسة ، أيتها الكونتيسة ، انك لا تعرفين مدى هذه
العاطفة الرهيبة ، ولا تدركين مدى جنوني . لا ، لا ، ان أحلامي لم
تكذبني الخبر . اني أحب ، أحب حائقا ، أحب منتشيا ، ساخطا ، أحب
كما يحب رجل فقد عقله ، كل دم زوجك لن يكفي لاطفاء جذوة الحماسة
الهاذية ، ولتهديم النار التي تلتهمني . لن تستطيع حواجز تافهة وعقبات
مسكينة أن تصد الامواج العارمة التي تهز قلبي هزا قويا لا سبيل الى
مقاومته ، ولا أن تطفىء النيران الجهنمية التي تضطرم في نفسي المتعبه
الظمأى . آه يا زينايد ، آه يا زينايد ! .. »

« قالت الكونتيسة مدممة وهي تلقي رأسها على كف الفتاة :

« - فلاديمير !

« فصاح سميلسيكى بالغا أوج الفرح والسعادة :
» - زنايد !

« وانطلقت من صدره آهة • لقد أشعل الحريق أشعة ساطعه
هيكل الحب ، وأرعى صدر العشيقين الشقيقين •

« عادت الكوتيسة تدمدم نشوى ، بينما كان صدرها ينهض
وبينما كانت عيناها تلتعان ، وبينما كان خذاها يحمران :
» - فلاديمير !

« وتم زفاف جديد رهيب !

« وبعد نصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته ، فقال
لها وهو يقرص خدها :

« - ألا يحسن ، يا غزالتى ، أن نطلب سماورا لضييفا العزيز ؟

ما رأيك يا ماتوشكا ، صحيح ان فى هذا الكلام شيئا من الجراءة...
أسلم لك بذلك ... ولا سبيل الى انكاره ... ولكن ما أجمله كلاما ،
وما أعذبه أسلوبا ! ما هو جميل فهو جميل لا يمكن جحوده • وان شئت
نقلت أيضا جزءا من قصة عنوانها : « أرمالك وزليخة » •

تصورى يا ماتوشكا : ان القوزاقى ارمالك ، الرجل الوحشى الشرس
المخيف الذى غزا سيبيريا ، قد هام بحب زليخة ، ابنة القيصر السيبيرى
كوتشوما ، التى وقعت أسيرة فى يده • هى قصة من عهد ايفان الرهيب
كما ترين • اليك الحوار الذى قام بين ارمالك وزليخة :

« - أنت تحييننى اذن يا زليخه ؟ ألا رددى هذا ، ردديه ... »

« قالت زليخه مدممة :

« - أجبك يا ارمالك •

« - ايه أيتها السماوات ، ايه أيتها السماوات ، لك الحمد والشكر!

اننى سعيد !

«لقد وهبت لى كل ماحلمت به نفسى الحارة الغنيقة منذ أيام المراهقة •
الى هنا قدتتى يا كوكب مصيرى ، ومن أجل هذا اذن انما دفعتنى الى ه
المكان البعيد وراء الحدود ، لسوف أجعل الناس جميعا يعجبون •
زليخة ، ولن يستطيع الرجال ، لن يستطيع هؤلاء الشياطين الفضا
يلومونى ، آه ••• ألا ليتهم كانوا قادرين على أن يفهموا آلام رو
الرقية ، وأن يروا القصيدة التى تضمها عبرة واحدة من عبرات حبيبتى
زليخة ، آه ••• دعينى أكفكف هذه العبارة بقبلايتى ، دعينى أشرب هذه
الدمعة المباركة ، هذه الدمعة الالهية ••• أيتها المخلوقة السماوية » •••

« قالت زليخة :

« - الناس أشرار يا ارمك ، الناس ظالمون ، لسوف يضطهدوننا ،
ويسوموننا سوء العذاب ، لسوف يستكثرون فعلتنا ويحكمون علينا ،
يا عزيزى ارمك • ما عسى أن تصير اليه ، فى مجتمعك البارد المتجمد
المتعطر الذى لا قلب له ، الفتاة المسكينة التى شبت وترعرعت بين نلوج
سيبيريا ، مسقط رأسها ، ولم تعش أبدا الا تحت خيمة أبيها • لن يفهمنى
الناس يا معبودى ، يا فارس أحلامى •

« فزار ارمك يقول وقد جنت عيناه :

« - لسوف يهوى السيف القوازقى على رؤوسهم عندئذ صافرا ••

وتخيلى الآن يا فارنكا ، كيف سيكون اضطراب ارمك هذا حين
يعلم أن زليخة قد قتلت ، ان الملك المعجوز الاعمى كوتشوما قد استغل

ظلمة الليل ، فتسلل في غيبة ارمالك الى معسكره وقتل ابنته هو ، بغية أن يضرب ارمالك ، الذي سلبه نور عينيه وتاج ملكه ، ضربة قاضية •

« صاح ارمالك يقول وهو في حالة غضب وحشى جنونى ، وقد أخذ يسن خنجره على مسن من حجر :

« - أحب صليل الحديد على الحجر • أحب الدم • أحب الدم • يجب أن أقتلهم جميعا ، يجب أن أذبحهم جميعا ، يجب أن أقطع أجسادهم اربا اربا •••• »

وبعد ذلك ، لما أدرك ارمالك انه لن يقوى على أن يعيش بعد موت حبيبته زليخة ألقى بنفسه فى نهر ارتيش ، وانتهت بذلك القصة •

اقرئى أيضا هذا المقطع القصير • لقد كتب بروح الوصف الهزلى ، للاضحاك لا أكثر :

« هل تعرفون ايفان بروكوفيتش بولتوبوزوف ؟ ذلك الذى عض ايفانوفتش فى ساقه ؟ ان ايفان بروكوفيتش رجل خشن الطبع قليلا ، لكنه وهب مزايا كبيرة • ولا كذلك بروكوب ايفانوفيتش ، فانه يعبد أكل اللفت مع العسل • ذلك حين كان ما يزال متعلقا ببيلاجيا أنطونوفنا ••• ولكن لعلمكم لا تعرفون ببيلاجيا انطونوفنا ؟ انها تلك المرأة التى تلبس تنورتها مقلوبة دائما •••• »

هذا للفكاهة يا فارنكا ، وما أجملها فكاهة ، كنا نمسك خواصرنا بينما هو يقرأ لنا هذه القصة • ولكنه فى سفيه ، غفر الله له ! اننى أسلم يا ماتوشكا بأن هذا الكتاب بذى قليلا ، وأنه أيضا ماجن ، ولكنه من ناحية أخرى سليم جدا ليس فيه شىء من الحاد أو لبرالية • يجب أن نلاحظ يا ماتوشكا ان سلوك راتازايف سلوك ممتاز ، وهذا هو السر فى انه كاتب رائع ، لا كغيره من الكتاب •

تخطر ببالي في بعض الاحيان فكرة غريبة : ماذا لو أخذت أنا أيضا ،
نعم أنا أيضا ، في كتابة شيء ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟ لنفرض مثلا انه
ظهر في المكتبات ذات يوم ، دون سابق انذار ، كتاب بهذا العنوان :
« قصائد ماكار ديفوشكين » ما رأيك يا ملاكي الصغير ؟ كيف تجددين
هذا ، وما عسى تفكرين ؟ اما أنا يا ماتوشكا - يجب أن أعترف لك
بالحقيقة - فانتى متى نشر الكتاب لن أجرؤ أبدا على أن أضع قدمي في
شارع نيفسكي ، بل لا يمكن أن يخطر ببالي أن أضع قدمي في هذا
الشارع . ذلك ان كل واحد من الناس سوف يشير الى باصبعه قائلا :
هذا هو ، هذا هو المؤلف ، هذا هو الكاتب ديفوشكين ، الشاعر ، انه هو
بعينه ، انه ديفوشكين بدمه ولحمه » . ما عسى يحدث في تلك اللحظة
يارب ! ما عسى يحدث بسبب حذاءي ؟ يجب أن أسر اليك عرضا
ياماتوشكا ان حذائي مرقمان دائما . أما النعلان فكثيرا ما يتفق أن يفرا
على نحو غير لائق . فما عسى يحدث حين يعلم جميع الناس ان الكاتب
ديفوشكين يتعل حذاءين مرقمين ؟ لابد أن تعلم بذلك كوتيسة أو
دوقة ما ، فما عساها تقول يومذاك ؟ اننى أطرح عليك هذا السؤال ،
لأننى أتخيل الكوتيسات لا يتبهن الى الاحذية ، ولا سيما أحذية
صغار الموظفين (ذلك أن الاحذية تتفاوت) ، ولكن لابد أن يروى الناس
للكوتيسة ان حذاءي مرقمان . ان أصدقائي أنفسهم سيخونوننى عندئذ ،
وعلى رأسهم راتازايف . . . لسوف يكون راتازايف أول من يفضحنى
. . . انه يختلف الى الكوتيسة ف أحيانا كثيرة . وهو يدعى انه يزورها
بغير كلفة متى خطر بباله أن يفعل ، ويصفها بأنها امرأة قذة ، ضليعة في
الأدب ، وانها سيدة حقا . يا له من نموذج عجيب راتازايف هذا ! . .
ولكن حسبي ما كتبته الى الآن حول هذه الأمور . . اننى أكتب اليك
يا ملاكي لا لشيء غير أن أسليك . . أكتب اليك عفو الحاطر لأسرى عنك

قليلًا • وداعا يا يمامتى ، رسالتى اليك طويلة هذه المرة ، ومرد ذلك خاصة الى اننى رائق المزاج • لقد تغدينا عند راتازايف ، فما أعجب الأشياء التى تخليتها هنالك ! (انهم صبية أشقياء مغترون ، يا ماتوشكا) ما أكثر الأشياء التى تخليناها ••• ولكنك لست من أستطيع التحدث اليه فى تلك الأشياء ! أرجو أن لا تظنى بى سوءا يا فارنكا • فانما ذكرت لك هذا عرضا ••• سأبعث اليك بكتب حتما • اتنا تتداول هنا كتابا بعنوان « بول دو كوك » ، ولكن هذا الكتاب لم يخلق لمثلك يا عزيزتى • هو كتاب لا يناسبك ولا يليق أن تقرئه • يقال ان هذا الكتاب قد أثار استياء نبيلا لدى جميع النقاد فى سان بطرسبرج • أرسل اليك الآن رطلا من المربب اشتريته لك خصيصا • كليه يا روحى العزيزة واذكرينى كلما قضمت قطعة منه • أما فنود السكر فلا تقضيه قضا بل مصيه مصا ، والا أوجع القضم أسنانك • لعلك تحين مسكر الشعير أيضا ؟ اذا كنت تحينه فاذكري لى ذلك ، وداعا الآن ، وداعا • كان الله معك يا يمامتى • أما أنا فسأظل •

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٢٧ حزيران (يونيه)

السيد العزيز ماكار ديفوشكين

تؤكد فيدورا أن هناك أناسا يحبون أن يهتموا بأمرى ، فيكفلوا لى عملا طيبا لدى أسرة من الأسر كمرية • فما رأيك يا صديقى ؟ أيجب أن أقبل أم لا ؟ واضح اننى لن أبقى عالة عليك فى هذه الحالة ، والأجر

حسن فيما يظهر • ولكنني من جهة أخرى أخاف قليلا أن أسكن لدى غرباء • هم أسرة من مالكي الأطياف • سوف يستعلمون عني ، وسوف يأخذون يلقون عليّ الأسئلة تلو الأسئلة ، سوف يستطلعون أمرى فماذا أجيهم عندئذ ؟ ثم انني عدا ذلك متوحشة كثيرا ، أحب الأركان التي عشت فيها زما طويلا ولا يروق لي أن أبارحها • ان المرء يشعر بالراحة والطمأنينة في الأماكن التي ألفها واعتادها ، مهما يكن قد لاقى فيها من شقاء • ثم ان هؤلاء الناس يقيمون في مكان بعيد • ولا يدرى إلا الله ما الذي يتوقعونه مني ! لعلهم لا يريدون الا أن أكون خادمة للأطفال • وعدا ذلك ، فانهم لا يوحون اليّ بالثقة • لقد غيروا معلمة أولادهم ثلاث مرات في غضون سنتين • فما هي نصيحتك يا ماكار ألكسيفتش ؟ أرجوك أن تسدي الي بنصيحتك ، أوجب أن أقبل هذا العرض أم يجب أن أرفضه ؟ ... ولكن قل لي : لماذا لا تجيء اليّ أبدا ؟ انه ليندر أن تضع قدميك عندي • فلا أكاد أراك الا يوم الأحد في الصلاة ! يالك من متوحش ! انك مثلي تماما ، ألسنت قريبتك ؟ أنت لا تحبيني يا ماكار ألكسيفتش ، وكثيرا ما أشعر بحزن شديد حين أكون وحدي • ويتفق لي في بعض الأيام ، ولا سيما عند الغسق أن أحس بأنني وحيدة ، وحيدة تماما في هذا العالم • لقد ذهبت فيدورا لشراء بعض الأشياء • وها أنا ذا جالسة أحلم وأحلم ، الي غير نهاية : أستعرض الماضي ، الساعات الحزينة والساعات السعيدة • ينبجس كل شيء في ذهني ، كأن الذكريات تتبع من خلال ضباب • أرى بخيالي الوجوه المألوفة (وأحسب أحيانا انني أراها بعيني فعلا) ، ولا سيما وجه أمي ، فانتى أراه أكثر مما أرى غيره من الوجوه • • • وما أكثر ما أحلم أيضا • • • انتى أحس أن صحتى مضعضة • انتى ضعيفة شديدة الضعف • في هذا الصباح مثلا ، حين نهضت من فراشي ، شعرت بأوجاع • ثم انتى أسعل سعالا سيئا • أنا أعلم

انتى ساموت فى القريب ، أحس بذلك منذ الآن ، فمن ذا الذى سيهتم
بدفى ؟ من ذا الذى سيسير وراء نعشى ؟ من ذا الذى سيكيني ؟ ... هل
يجب أن أموت فى منزل غرباء ، لدى أناس لا أعرفهم ، بمدينة بعيدة ؟
... ربه ! ما أشقى الحياة وما أكثر أحزانها ! ويا ماكار ألكسييفتش ،
الى متى ستظل تمطرني بسكالكرك ؟ انى لأتساءل حقا من أين جاءك كل
هذا المال ؟ يا صديقى ، ادخر مالك ، ناشدتك الله ، لا تتلفه ولا تبذره
سدى ! ان فيدورا تباع الآن سجادة فرغت من تطريزها . سنأخذ ثمنها
خمسین روبلا ورقا . هذا سعر حسن جدا ما كنت أطمع فى الحصول
على مثله . سأعطى فيدورا ثلاثة روبلات فضة ، وأصنع لنفسى بالباقي
توبا ، توبا بسيطا ، ولكنه دافىء يدفع عنى غائلة البرد . وسأصنع لك
صديرة أيضا ، أستغلها بنفسى بعد أن أختار لها قماشاً جيداً .

حصلت لى فيدورا على كتاب « حكايات بيلكين » ، وها أنذا أرسله
إليك اذا كنت تحب أن تقرأه . لكنى أرجوك أن تعنى بالكتاب ، وأن
لا تحتفظ به عندك طويلا ، لأنه ليس لى . والكتاب من تأليف بوشكين .
لقد قرأت هذه الأفاصيص منذ ستين بصبحة أمى ، فلما أعدت قراءته الآن
شعرت بحزن شديد . اذا كان لديك كتب أخرى فارسلها لى ، شريطة
أن لا تأتى من راتازايف . ذلك أنه لن يفوته أن يعطيك كتبا من تأليفه ،
اذا كان قد نشر شيئا حتى الآن . كيف تستطيع أن تتذوق ما يكتبه ياماكار
ألكسييفتش ؟ ان ما يكتبه لهو ترهات وسخافات ... وداعا الآن . لقد
أطلت الثرثرة معك . حين أكون حزينة يحلو لى أن أتحدث عن أى شيء .
... ذلك دواء مفيد أحس بعده بشيء من الراحة ، لا سيما اذا استطعت أن
أقول ما كان يتقل على صدرى . وداعا يا صديقى ، وداعا .

المخلصة لك

ب . د

عزيزتى ماتوشكا ، عزيزتى فرارا الكسييفنا !

متى تكفين عن تعذيب نفسك هذا التعذيب كله بدون داع ؟ ألا تخجلين ؟ هلا عقلت يا ملاكى الصغير ؟ كيف يمكن أن تدور فى رأسك خواطر كهذه الخواطر ؟ ما أنت بمريضة يا روحى ، ما أنت بمريضة قط . بالمعكس . . . أؤكد لك انك كالزهرة نضارة وفتحة . صحح انك شاحبة بعض الشحوب ، ولكنك كالزهرة نضارة مع ذلك . ثم ما قصة تلك الأحلام أو الرؤى التى تسترسلين فيها ؟ دعى عنك هذه السخافات يا يمامتى ، ولا تفكرى فيها بعد الآن قط ، هل تفهمين ؟ لماذا لا أترسل أنا فى مثل تلك الأحلام ؟ هل ترين أنتى أحلم ، هل ترين أن لى رؤى كذلك الرؤى ؟ أجيبى ! هلا اقتديت بى يا ماتوشكا ! انتى أعيش حياة هادئة ، أنام نوما مريحا ، وأتمتع بصحة جيدة . ذلك شىء يسر القلب يا عزيزتى . انسى هذه الخزعبلات يا حياتى ، انسيها ، أنا أعرف رأسك الصغير يا بنتى ، يكفيك أيسر شىء حتى تسترسلى فى الأحلام ، فسرعان ما يغزو قلبك الحزن . ناشدتك الله لا تفعلى هذا بعد اليوم . أما أن تعملى فى منزل غرباء فهذا مستحيل . لا ، لا ، لا . ما هذه الفكرة السخيفة التى راودتك ؟ ماذا دهاك فجأة ؟ وفى مكان بعيد عن هنا ؟ يا ماتوشكا ، لن أسمع بذلك ، سأعارض هذا المشروع بكل ما أوتيت من قوة . سأبيع ردائى القديم فأخرج الى الشارع بقميص اذا اقتضى الأمر ، ولكن لن يعوزك شىء عندنا . لا يا فارتكا ، لا ، انتى أعرفك . تلك خواطر سخيفة ، تلك أفكار مجنونة . لا شك أن فيدورا وراء ذلك كله . انها امرأة غبية بلهاء ، ولا شك انها هى التى أثرت فىك . لعلك لم تعرفى فيدورا هذه بعد ، هى امرأة حمقاء تحب الشجار ، وتهرف بما لا تعرف ، وتخبط فى

كلامها خبط عشواء ... بهذا انما اودت بحياة زوجها المسكين وأرسلته الى القبر . ألعلمها أوحى اليك بشيء من عدم الرضا عن حياتنا الراهنة ؟ لا ، لا ، يا ماتوشكا ، مستحيل ! ما عساني أصبح اذا ابتعدت أنت ، ماذا يبقى لي أن أفعله في هذه الحياة ؟ لا يا فارنكا ، لا يا حياتي ، اطردى من رأسك هذه الأفكار ؟ ماذا ينقصك عندنا ؟ ان وجودك ينبوع فرح لنا ، ينبوع دائم لا ينضب . انك تحيينا ، فعيشى اذن هادئة حيث أنت الآن . اعلمى فى الخياطة أو فالتفتى الى القراءة ... لابل دعى الخياطة اذا شئت ، سياتن أن تخطى وأن لا تخطى ... ولكن ابقى معنا . والا فأين نذهب نحن ؟ .. قولى أين نذهب نحن ؟ سأتيك بكتب ، وقد تقوم بنزهة جديدة بعد زمن ، ولكن اتركى تلك المشاريع يا ماتوشكا ، اتركها ، اعقلى ، ودعك من هذه السخافات التى تندفعين فيها لغير ما سبب . سأجيبك اليك ، سأجيبك قريبا جدا ، ولكن اسمحى لي أن أقول لك بصراحة واخلص ان ما تقولينه عن راتازايف ليس صحيحا . أنا أعلم اننى رجل لا ثقافة له ، أعترف بذلك ، فانتى لم أتابع الدراسة ، وليس هذا ما أريد أن أتكلم فيه على كل حال ، لست أنا موضع الكلام الآن . ولكننى لا أسمح أن يمس راتازايف ، وقد أردت أنت أن تمسيه . هو صديقى ولذلك أدافع عنه . ان ما يكتبه جد جدا ، بل ممتاز ، بل رائع . لست أوافقك على رأيك فيه ، ولن أستطيع أن أحيد حكمك عليه . ان له أسلوبا مزهرا ، رشيقا ، مفعما بالصور ، زاخرا بالمعاني . انه كاتب ممتاز فى الواقع . لعلك ، حين قرأت تلك الفقرات ، كنت فى لحظة ذهول أو خدر . بافارنكا ، لعلك قرأتها موصدة القلب دونها ، أو لعلك كنت معتكرة المزاج ، أو لعلك كنت غاضبة من فيدورا ، أو لعل حادثا مزعجا آخر كان يشغل بالك فى تلك اللحظة . يجب أن تعيدى قراءتها يا فارنكا ، حين تكونين راتئة المزاج ، راضية النفس أو فرحة القلب ، حين تكونين بسبيل قضم مربة

أو مص سكرة : في لحظة كهذه انما يجب أن تعمدى قراءة تلك الفقرات •
لا أنكر (ومن ذا الذى ينكر ذلك ؟) أن هناك كتابا اعظم من راتازايف ،
وان هناك كتابا أعظم بكثير • ولكن اذا كان أولئك الكتاب مشهورين ، فإن
راتازايف كاتب ممتاز أيضا • انهم يجيدون الكتابة جدا ، ولكن
الكتابة هو أيضا • انه يختلف عنهم ، انه يكتب بطريقته الخاصة
ليحسن صنعا اذ يكتب • وداعا الآن يا ماتوشكا، لا أستطيع أن أفيض
مما أفضت ، وأن أطيل هذه الرسالة مزيدا من الاطالة • اننى مسد
هناك أعمال تنادىنى • ولكنى أتوسل اليك يا ماتوشكا ، أضرع ايده
يا طاترى الجميل ، أن تهدئى روعك ، أن تطمئنى بالا ، وأن تطيبى نفساء
كان الله معك وسأظل :

صديقك الأمين الوفى
ماكار ديفوشكين

حاشية : أشكر لك ارسالك الكتاب الى • سأقرأ بوشكين أيضا مادمت
ترغبين فى ذلك • وسأجىء اليك فى هذا المساء ، أعدك بهذا •

عزيزى ماكار الكسييفتش

لا يا صديقى ، لا ، لا أستطيع أن أستمع على العيش بينكم • لقد
غيرت رأيى ، وأدركت أنى أسىء صنعا اذا أنا رفضت عملا مجزيا الى
هذه الدرجة • سيكفل لى هذا العمل رغيفا على الأقل • سأبذل ما أملك من
جهد ، وسأتحمل ما أستطيع تحمله من عناء ، وسأحظى برضاء هؤلاء
الغرباء عنى وجبهم لى ، بل سأحاول أن أغير طبيعى اذا اقتضى الامر ذلك •
صحيح ان من الصعوبة والمشقة والالم بمكان أن يعيش المرء لدى غرباء ،

وأن يكون رهنا باحسانهم اليه وعطفهم عليه، وأن يكره نفسه على الملائح،
وأن يخفي عواطفه ويكتم مشاعره ، ولكن الله سيمدني بعون من عنده .
يستحيل أن أبقي متوحشة طول عمري على كل حال . لقد سبق لي أن
مررت بظروف من هذا النوع . تلك كانت حالتي في صغري حين كنت
أعيش في مدرسة داخلية . كنت اذا جئت الى البيت يوم الاحد أظل أقفز
وأثب طول النهار ، حتى أن أمي كانت تؤنبني على ذلك ، ولكنني لم أكن
أحفل بالتأنيب ، فان نفسي تكون في تلك اللحظات طافحة سعادة ومرحاً .
حتى اذا جاء المساء استبد بي حزن رهيب ، لأن عليّ أن أعود الى المدرسة
الداخلية في الساعة التاسعة ، حيث كل شيء بارد ، غريب عني ، قاس عليّ .
كانت المربيات تظهر كثيرا من الشراسة في معاملتي ، فكان قلبي ينقبض
انقباضاً أليماً ، وكنت أحس بالدموع توشك أن تظفر من عيني ، فأذهب
أختبئ في ركن مظلم ، فأذرف العبرات صامتة وحيدة ، أخفيها عن
الآخرين ، حتى لا يظنوا بي الكسل . والحق انني لم أكن أبكي لهذا
السبب ، لم أكن أبكي لأن عليّ أن أستأنف العمل والدراسة . ثم تعودت .
نعم تعودت ، بل بلغت من هذا التعود أنني حين جاءت لحظة ترك المدرسة
الداخلية بكيت أيضاً وأنا أودع صديقاتي . انني آسىء صنعا اذا عشت عالة
عليكما . ان هذه الفكرة تعذبني عذاباً شديداً . أقول لك هذا بصراحة ،
لأنني صريحة معك دائماً . هل تظن أنني لا ألاحظ أن فيدورا تستيقظ
مبكرة في كل صباح تفصل الغسيل ثم تظل تعمل الى ساعة متأخرة من
الليل ، مع ان عظامها الهرمة في حاجة الى شيء من راحة ؟ وهل تظن انني
أجهل انك تدمر نفسك في سبيلي ، انك تخرج آخر كويك تملكه لتتفقه
عليّ ؟ انك لا تستطيع أن تفعل هذا بمواردك وحدها يا صديقي . لقد قلت
لي في رسالتك انك ستبيع آخر متاع من أمتعتك في سبيل أن لا يعوزني
شيء . انني أصدقك يا صديقي وأؤمن بشهامتك وطيب قلبك ، ولكنك

تلقى الكلام على عواهنه يا صديقي • انت تملك الآن شيئا من مال لم يكن
فى الحسابان ، هو تلك المكافآت التى نلتها • ولكن ما عسالك فاعلا بعد
ذلك ؟ اننى دائما مريضة ، أنت تعرف ذلك ، فلست قادرة على أن أعمل
مثلك ، رغم اننى أتمنى ذلك • ثم اننى لا أجد شغلا بالقدر الذى يجب
لى • فماذا الذى بقى على أن أحاوله والأمر كما ترى ؟ ماعساى أصيب
هنا ؟ أأضنى نفسى بطول الانتظار حزينةً بينما أنتما تعملان يا صديقى
العزيزين ، يا صديقى الطيبين ؟ كيف يمكن أن أنفعكما فى شيء ، فى أى
شيء ، وأنا على ما أنا عليه ؟ ولماذا تتصور أنك لا غنى لك عنى يا صديقى ؟
أى جميل صنعت لك ؟ أى خير قدمت اليك ؟ صحيح اننى متعلقة بك من
أعماق نفسى ، صحيح اننى أحبك كثيرا ، كثيرا جدا ، ولكن قدرى قاس
مر حزين • أنا أعرف أن أحب ، وأستطيع أن أحب ، ولكن هذا هو
كل شيء واأسفاه ، لأننى عاجزة بنفسى عن أن أصنع لك خيرا ، وعاجزة
عن أن أرد لك جميلا • فلا تشبث بى مزيداً من التشبث ، بل فكر فى
الأمر مليا ، وأبلغنى كلمتك الأخيرة • وابتظار ذلك أظن :

صديقتك المخلصة

ب • د

اول تموز (يوليو)

عبث يا فارنكا ، عبث ، كل هذا عبث • متى انقطع المرء عن مراقبتك ،
وضعت فى رأسك لا أدرى ماذا ، ووجدت ما تتعلمين به فقلت : هذا الأمر
لا يجرى كما يجب أن يجرى ، وهذا الأمر الثانى أيضا ، وذلك الثالث

كذلك ، الخ • اننى أرى الآن ان هذا الكلام كله هراء • ماذا تبغين يا ماتوشكا ؟ مم تشكين يا عزيزتى ؟ قولى لنا ماذا يتقصك هنا ؟ انك تحييننا ، واتنا نحبك ، فنحن اذن جميعا سعداء راضون ؟ ماذا تريدن أكثر من ذلك ؟ هل تتخيلين أن ما يتقصك هو ان تعيشى لدى غرباء ؟ انك لتجهلين ما هم الغرباء ! اسألينى أجبك • انما أعرف ما رجل غريب يا ماتوشكا ! أعرف ذلك حق المعرفة • لقد اتفق لى أن أأكلت من خبز رجل غريب • انه شرير يا فارنكا ، شرير يا عزيزتى ، يبلغ من الشر أن قلبك الصغير المسكين سيدوى عنده ، لأنه لن يكف لحظة عن اضائه باللوم والتقريع ، لن يكف لحظة عن ايدائه ••• ثم ان نظرتنه نظرة سيئة • أنت عندنا بخير ، أنت عندنا فى دفة ، كأنك فى عش صغير بمنجى من كل أذى • فاذا سافرت كنت كأنك تهجريننا وتأخذين حياتنا • ما عسى نصبح هنا يدونك ؟ ما عسى أفعل أنا الشيخ المسكين فى هذه الحالة ؟ تزعمين أنك لا تفيدننا فى شىء ••• أنت لا تفيدن فى شىء ؟ ما هذا الكلام ؟ لا يا ماتوشكا ••• هلا فكرت فى الأمر بنفسك ؟ كيف يمكن أن لانكون فى حاجة اليك ؟ كيف يمكن أن نستغنى عنك ؟ أنت تفيدننى جدا يا فارنكا ، ان وجودك يحسن الى كثير يا عزيزتى ! ••• فى هذه اللحظة مثلا ، أفكر فىك فىمتلى قلبى فرحا • وفى بعض الأيام أكتب اليك رسالة أودعها ما أحس به ، وأودعها كل نفسى ، فأتلقي منك جوابا عليها ، جوابا مفصلا ، فهل هذا قليل ؟ لقد اشتريت لك خزانة ملابس ، وأوصيت لك بقبعة صغيرة • وانت تعهدين الى أحيانا بشراء شىء من الأشياء فافعل ••• فكيف يمكنك أن تقولى بعد هذا انك لا تفيدننى فى شىء ؟ ما عساي أفعل بدونك وحيدا فى شيخوختى ، ولأى شىء يمكن أن أصلح ؟ لعلك لم تفكرى فى هذا حتى الآن يا فارنكا ! لا ، لا ، يجب عليك أن تفكرى فى هذا حتما ، يجب عليك أن تتسألى : « فى أى أمر يمكن أن يكون مفيدا بعدى ؟ » •

لقد تعودت عليك يا صديقتى العزيزة • فماذا عسى يقع لو سافرت ؟ لسوف أمضى الى شاطئ • نهر نيفا وينتهى الامر ، نعم ، هكذا ستجرى الامور يا فارنكاء ، ماذا تريدان أن أصبح بدونك؟ آه يا فارنكاء ، يا فارنكاء ، يا حياتى ، يا روحى ، أترارك تمنيان أن تحملنى عربة موتى الى مقبرة فولكوفو فى يوم قريب ، وأن تسير وراء نعشى امرأة فقيرة شحاذة بأسمالها البالية الخلقه ، وحدها فى الجنازة ، وأن يهيل على بعض الرجال بضع محارف من تراب ، ثم ينصرفوا الى شأنهم ويتركونى وحدى هناك ••• انه لائم ، انه لائم أن تقولى ما قلته يا ماتوشكا ••• شهد الله انه لائم ! ••• أعيد اليك كتابك يا بنيتى ، يا فارنكا العزيزة ، فاذا أردت يا طفلتى أن تعرفى رأىى فى هذه الأفاصيص ، فاعلمى اننى لم أقرأ فى حياتى كلها كتابا يبلغ هذا المبلغ من الروعة • اننى لأسأل اليوم يا ماتوشكا ، كيف أمكننى أن أعيش حتى الآن فى مثل الجهل الذى عشت فيه ، يا لقبائى !••• سامحنى الله !••• ماذا صنعت ؟ من أى غايه خرجت ؟ اننى لا أعلم شيئاً يا ماتوشكا ، لا أعلم شيئاً قط • أقول لك بكل بساطة يا فارنكا : اننى انسان بلا ثقافة • لم أقرأ حتى الآن الا قليلا ، قليلا جدا ، يشبه أن لا يكون شيئاً • قرأت كتاب « أخلاق الانسان » وهو كتاب عميق ، وقرأت « الصبى الصغير الذى يلعب بالأجراس » وقرأت « طيور ايبيكوس » ، ذلك ما قرأته ، ولم أقرأ شيئاً آخر غيره فى حياتى • وقد فرغت الآن من قراءة « ناظر المحطة » فى كتابك • يجب أن أعترف لك بالحقيقه يا ماتوشكا : انه لأمر عجيب أن يستطيع امرؤ أن يعيش فى هذا العالم دون أن يخطر بباله أن هناك على مقربة منه كتابا يقص فيه قصة حياتنا كلها شاهد عيان ! ان أمورا من حياتى كانت خافية على غامضة فى نفسى ، فاذا هى تظهر لى شيئاً بعد شئ منبثقة من ذاكرتى أثناء قراءة هذه القصة ، واذا أنا أراها من جديد ، واذا أنا أفهمها أول مرة • ثم ان هناك سببا آخر جعلنى أحب كتابك هذا • ان ثمة

كتبنا لا شك أنها عظيمة ، ولكن المرء منا يستصعب فهمها مهما تكن قيمتها ،
ومهما يبذل في سبيل ذلك من جهد ، لأنها مسرفة في العمق ، مسرفة في
الذكاء . أنا مثلاً غليظ الذهن كان ذهني غليظاً دائماً على أى حال ،
ذلك شيء ولد معي حين ولدت فلا أستطيع أن أقرأ الكتب التي تفوق
قدرتي على الفهم أما كتابك هذا ، فإني أقرؤه كما لو كنت كتبه
بنفسي كأن مؤلفه قد تناول قلبي أنا - إذا جاز التعبير - تناوله كما هو
في واقعه ، فأظهر عليه الناس ، مقلِّباً إياه على جميع وجوهه، ليصفه وصفاً
دقيقاً بجميع تفاصيله ، نعم بجميع تفاصيله . انه في غاية البساطة ، أجل
في غاية البساطة هذا حق ، ولعله كان في وسعي أن أكتب مثله ،
ولماذا لا أكتب مثله ؟ انني أحس هذه الأشياء نفسها تماماً ، وقد اتفق أن
وجدت في ظروف تشبه كل الشبه ظروف صمصون فيرين الشقي مثلاً . . .
ذلك أن كثيراً منا هم أمثال صمصون فيرين هذا أناس طيبون بؤساء !
الا ما كان أحذق المؤلف في كتابة هذا الكتاب ! لقد أوشكت الدموع أن
تنهمر من عيني يا ماتوشكا حين قرأت أن هذا الخاطيء العائر الحظ قد
ظل يشرب الى أن فقد الذاكرة ، فنام مع حزنه المر طوال النهار بفرائه
المصنوع من جلد الخراف . حتى اذا استيقظ شرب كأساً صغيرة لاغراق
أحزانه ، ثم ما لبث أن عاد يبكي بكاء يثير الشفقة، ويجفف دموعه بأكمامه
القدرة ، لأنه تذكر عنزته ، شاء المسكينة الصغيرة الضائعة ، ابنته دياناشا .
ألا ان هذا كله لطيعي جداً ، وصادق جداً ! حق ما أقول ياماتوشكا،
أعيدى قراءة الكتاب بنفسك : ان ما يصفه الكتاب لهو الصدق عينه ، لهو
الحياة نفسها رأيته أنا نفسي ، لأن ذلك كله موجود أمام عيني .
أنظري الى تيريز مثلاً . ليس بالمرء حاجة الى الذهاب بعيداً من أجل أن
يقع على أمثله . وهذا الموظف الفقير الذي يسكن عندنا قد يكون
هو أيضاً انساناً مثل صمصون فيرين لكنه لا يسمى صمصون فيرين

بل يسمى جورشكوف • هذا مصير مشترك بين الناس جميعا يا ماتوشكا ، وهو شقاء يمكن أن ينزل علينا نحن ، يمكن أن ينزل على أنا • والكونت أيضا ، الكونت المتغطرس الذى يسكن فى شارع نفسكى أو على شاطئ نهر نيفا ، ان من الممكن أن يصيبه هذا المصير نفسه • قد يبدو الأمر عندئذ مختلفا حين يقع لكونت ، لأن كل شيء يجرى لدى الناس الذين هم من نوعه على نحو آخر ، على نحو أرفع ، ولكن الأمور تستوى فى الحقيقة • • لأن كل شيء يمكن أن يقع ، قد يقع هذا لى أنا • • • قد أسقط فى الاثم يا فارنكا ، قد أسقط فى هوة الشقاء • سوف تضعين نفسك يا صديقتى العزيزة ، وسوف تجربينا نحن الى الضياع أيضا • هلا طردت من رأسك الصغيرة هذه الأفكار المتمردة يا عزيزتى ؟ هلا أرحتنى من هذا العذاب فى غير طائل ؟ ألا فكرى أيها الطائر الصغير المسكين الذى لم يبيت ريشه بعد ، ما عساك صانعة من أجل أن تتهدى نفسك بنفسك ، من أجل أن تصونى نفسك من الضياع ، من أجل أن تحمى نفسك من شر الأشرار ؟ كونى عاقلة يا فارنكا ، وعودى الينا • لا تلقى بالا بعد الآن الى النصائح الغبية التى ينصحونك بها ، لا تصنى الى هذا الهذر السخيف • وأقرئى كتابك مرة أخرى ، أقرئيه باتباه وامعان • ان قراءته ستنتفعك وستسرى عنك •

تحدثت عن « ناظر المحطة » الى راتازايف • فقال ان هذه الاشياء كلها قد انقضت زمانها وأصبحت بالية ، وان الكتاب يؤلفون الآن كتبا تظم لوحات وأنواعا شتى من الوصف • يجب أن أعترف على كل حال بأننى لم أفهم شروحه حول هذه النقطة فهما جيدا • وقد خلص من كلامه الى أن بوشكين كاتب جيد ، وانه صنع أشياء كثيرة لمجد روسيا المقدسة ، وقال لى كذلك أشياء أخرى عنه • • • نعم يا فارنكا ، انه كتاب جيد حقا ، جيد جدا • فأعيدى قراءة هذا الكتاب ، ولكن أقرئيه باتباه وامعان • اتبعى

نصيحتي ، فإذا فعلت أفرحت قلب هذا الشيخ المسكين ، أنا • واسأل الله
يا حمايتي أن يجزيك عنى خير الجزاء فى هذه الحال ، ولا شك فى أنه
سيجزيك خير الجزاء •

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

السيد العزيز ماكار الكسييفتش

جاءتني فيدورا اليوم بخمسة عشر روبلا فضة • ما كان أشد ابتهاجها
هذه المسكينة ، حين أعطيتها عن هذا المبلغ ثلاثة روبلات • أكتب اليك
الآن مستعجلة • اننى بسبيل تفصيل صديرة لك ••• انه نسيج رائع :
زهرات صغيرة على أرضية صفراء • وأرسل اليك كتابا يضم أقاصيص
شتى • لقد قرأت بعض هذه الأقاصيص ، وأنصحك خاصة بقراءة القصة
التي عنوانها « المعطف » • اقرأ هذه القصة • أراك تلح على اصطحابي الى
المسرح • ألا يكلف الذهاب الى المسرح نفقات باهظة ؟ اللهم الا أن
نشترى تذاكر فى المشى • منذ مدة طويلة لم أذهب الى مسرح • حتى
اننى لا أتذكر الآن متى ذهبت آخر مرة • كل ما أخشاه أن يكلف الذهاب
نفقة باهظة : ذلك ما يشغل بالى • ان فيدورا تهز رأسها طول الوقت ،
مؤكدة انك تنفق الآن أكثر مما تكسب • وأنا أدرك هذا بنفسى على كل
حال • ما أكثر ما أنفقت من أجلى مثلا ! حذار أن يسبب لك هذا بعض
المكاره ! لقد حدثتني فيدورا عن اشاعات مفادها انه قام بينك وبين صاحبة
الدار شجار بسبب تأخرك فى دفع أجر الغرفة • اننى قلقة عليك جدا •

الوداع الآن • يجب على أن أسرع • هناك عمل مستعجل يجب أن أنجزه :
يجب أن أغير أشرطة قبعة •

حاشية : تخطر على بالي فكرة : اذا ذهبنا الى المسرح فسأضع على
رأسي قبعتي الصغيرة الجديدة، وسأسدل على كفتي خمارا أسود • أتخسب
أن هذا سيكون جميلا على ؟

٧ تموز (يوليه)

عزيزتي السيئة فرارا ألكسييفنا !

أعود الى ما قصصته عليك أمس • نعم يا ماتوشكا ، لقد عرفت أما
أيضا ، في ذلك الزمان ، ما هو فقدان الصواب ، واختلال الرشد • لقد
تولت بتلك المثلثة الصغيرة ، وهمت بحبها هياما شديدا • وليس هذا
بشيء على كل حال • فالأنكى من ذلك انى لم أكن قد رأيتها تقريبا ،
وانى لم أكن قد ذهبت الى المسرح الا مرة واحدة ، ومع ذلك استطعت
أن أفتتن بتلك المرأة • كنت فى ذلك العهد أعيش فى منزل جيرانى فيه
خمس شبان لا يكاد يفصلهم عنى حائط ، وهم شبان لهم رؤوس مجنونة ،
انعقدت أواصر الصلة بينى وبينهم دون أن أريد ذلك ، ورغم أننى حاولت
جهدى أن أظل على مسافة منهم • وعندئذ ، من أجل أن لا أكون متخلفا
عنهم ، أخذت أجاريهم ، أخذت أقلدهم جميعا • ما أكثر ما حدثونى عنها •
وكلما أقيمت حفلة تمثيل فى المسرح ذهبت الجماعة كلها الى المسرح •
كانوا لا يملكون حتى للطعام والشراب ما يكفى من مال • ولكنهم يذهبون
الى المسرح ، يشتررون تذاكر بالمشى ، ويأخذون يصفقون هنالك ما شاء

لهم هواهم أن يصفقوا ، حتى لتكاد تدمى أيديهم من شدة التصفيق كأنما قد مسهم جن ، ويأخذون يهتفون باسم المثلة في غير انقطاع • فإذا عادوا الى المنزل بعد ذلك ، لم يكن هناك سبيل الى النوم ، فهم لا يريدون على أن يتحدثوا عن تلك المثلة طول الليل ، فيناديها كل واحد منهم باسمها • انهم هائمون بها جميعا فقلوبهم جميعا تخفق بحجب واحد •

وانتهى الأمر بأن أدخلت حكاياتهم الاضطراب في قلوبى المسكين ، وكنت فى ذلك العهد فتى فى ريعان الشباب ، فرأيتنى أذهب معهم ذات مساء الى المسرح ، لا أدري كيف تم ذلك ، وكانت أماكنا هنالك فى آخر الممشى ، فكنت لا أستطيع أن أرى من هنالك الا ركنا من الستارة • ولكننى كنت أسمع كل شيء • كان لهذه المثلة صوت عذب حقا ، كان له جرس صاف كأنه رنين الفضة ، حتى ليشعر المرء حين يسمع صوته انه يسمع تغريد هزار صغير • صفقا جميعا ، حتى شعرنا من فرط التصفيق بألم فى الأيدي ، وكانت هتافاتنا تتعالى صراخا من شدة الحماسة • ولا أدري كيف لم توقفنا الشرطة بسبب هذا الصخب الذى أحدثناه • ومع ذلك فقد أُخرج أحدنا من المسرح • فلما عدت الى البيت كنت كمن هو فى حلم • لم يكن قد بقى فى جيبى الا روبل واحد من فضة ، وكان علىّ أن أنتظر عشرة أيام حتى أقبض راتبى • فهل تعرفين ماذا فعلت ياماتوشكا؟ فى صباح الغد ، قبل أن أذهب الى المكتب ، دخلت مخزن عطور فرنسية ، فاشتريت عطورا واشتريت صابونا معطرا ، فأنفقت فى ذلك آخر كوبك أملكه • اننى ما أزال أساءل حتى اليوم لماذا اشتريت تلك الأشياء جميعها ! الحق اننى لا أدري أنا نفسى لماذا فعلت ذلك • ولم أعد الى بيتى للعشاء فى ذلك اليوم ، بل قضيت وقتى كله أتجول تحت نوافذ منزلها • كانت تسكن فى شارع نفسكى ، بالطابق الرابع • ومضيت الى بيتى بوثة لأرتاح ساعة قصيرة ، ثم ما لبثت أن عدت الى شارع نفسكى ، أستأنف تجولى

تحت نوافذ منزلها • وظللت أعيش على هذا النحو شهرا ونصف شهر •
أمشى فى اثر المثلة وأتبع خطاها ، فأستأجر عربات وراهما ، مختارا من
الحوذيين من أراه أسرع من غيره جريا • بددت دراهمى ، وتراكت على
الديون ، ثم رأيتى فى يوم من الأيام وقد كفتت عن حبها : سئمت
القضية • أنظرى يا ماتوشكا ماذا تستطيع ممثلة أن تفعله برجل لائق •
ولكن يجب أن أذكر أننى كنت فى ذلك العهد شابا صغيرا ، صغيرا جدا •

م • د

٨ تموز (يوليو)

السيدة العزيزة جدا فرارا الكسييفنا !

أسرع فأرد اليك الكتاب الذى أعرتنيه فى اليوم السادس من هذا
الشهر • وأبادر فأتتهر الفرصة لأصارحك فى هذا الأمر • انه لسيىء
يا ماتوشكا ، انه لسيىء منك أن تدفعينى الى مثل هذا البعد دفعا لا هوادة
فيه • اسمحى لى ان أقول لك ان الله العلى القدير هو الذى يحدد مصير
كل انسان ويعين وضع كل انسان فى هذا العالم • ان الله تعالى هو الذى
تقضى مشيئته أن يكون فلان من الناس جنرالاً ، وأن يكون فلان الآخر
موظفا وضيع الشأن هين المنزلة من موظفى الحكومة • هذه ارادة الله •
ان ارادة الله هى التى تشاء أن يكون فلان من الناس أمرا ، وأن يكون
فلان الآخر محكوما عليه أن يطيع باحترام دون أن يدمدم بكلمة • ذلك
كله انما نظم وفقا لاختلاف البشر فى الاستعدادات والكفاءات • فبعض
الناس مؤهلون لبعض الأمور ، وبعضهم الآخر غير مؤهلين لهذه الأمور ،

ولكن لهم كفاءات أخرى فى مقابل ذلك • ومواهب البشر هذه انما هى
من صنع الله •

بعد قليل أكون قد سلخت من عمرى ثلاثين سنة فى خدمة الحكومة •
لقد قمت بواجباتى دائما خير قيام ، فلا يستطيع أحد أن يأخذ على شئنا فى
هذا المضمار • وكان سلوكى حسنا ، فما أدمنت على شراب ولا تدخلت
يوما فى الاضطرابات السياسية • صحح ان لى بعض العيوب كمواطن ،
اننى اعترف بذلك ولا أخفيه قط ، ولكننى أملك بعض المزايا أيضا •
اننى أحظى بتقدير رؤسائى ، حتى أن صاحب المعالي نفسه راض عنى •
ولئن لم يظهر لى حتى الآن ما ينبىء عن تقدير خاص ، فأنا أعلم أنه راض
عنى • ان خطى واضح جلى ، رشيق رشاقة كافية ، لا هو بالضخم جدا
ولا بالدقيق جدا ، قريب من الكتابة المعتادة ، مقروء دائما ، مرض دائما •
وليس فى دائرتنا أحد غير ايفان بروكوفيفتشس له خط كخطى ، ومع ذلك
فهو لا يضاھينى • ولقد وخط الشيب رأسى من طول ما جهدت فى عملى •
وليس هنالك من خطية ذات بال يمكن أن تؤخذ على • صحح اننى
ارتكبت بعض الخطايا الصغيرة ، ولكن من المعصوم عن ارتكاب بعض
الخطايا الصغيرة أحيانا ؟ اما أن أكون قد قارفت ذنبا كبيرا أو جريمة من
الجرائم ، كمخالفة للنظام أو كإفلاق للراحة العامة ، فذلك أمر لم يخطر
ببال أحد أن ينسبه الى • لم يؤخذ على شئ من هذا فى يوم من الأيام ،
لم تعرف حياتى شيئا من هذا قط • حتى لقد أوشكت أن أنال وساما •
حسبى أن أقول ذلك ••• كل هذا كان يجب أن تعرفيه فى الواقع
يا ماتوشكا • وكان يجب عليه هو أن يعرفه أيضا ، انه منذ قرر أن يصفنى
كان ينبغى له أن يعرف الحقيقة كاملة • لا ياماتوشكا ، ماكنت أتوقع منك
هذا ! ••• ما كنت أتوقع منك هذا يا ماتوشكا ، منك أنت خاصة على
كل حال ••

كيف ؟ ألن يستطيع المرء أن يعيش فى ركنه العادى ، أيا كان هذا الركن من جهة أخرى ؟ هل أصبح من غير الجائز للمرء أن يحيا دون أن يعكر ماء جاره ، على حد قول المثل ، دون أن يؤذى أحدا ، خانيا ربه مهتما بنفسه ، حتى لا يؤذيه أحد أيضا ، حتى لا يدخل أحد الى ركنه الصغير فيحشر أنفه فى شئونه الداخلية ؟ هل من الضرورى أن يعرف كيف اعيش فى بيتى ، وهل أملك صديرة ، وهل عندى ما أحتاج اليه من ملابس تستر جسمى ، وهل لى حذاءان ، وهل حذاءاى جيد نعلهما ، وهل أطعم اذا جعت ، وما طعامى وما شرابى ، وما هى النصوص التى أنسخها ؟ أى ضير يا ماتوشكا فى أن أجتاز الطريق ماشيا على رؤوس الأصابع اذا لم تكن الطريق مرصوفة ، حتى لا يهترى حذاءاى ؟ ما حاجتهم الى الكتابة عن أخيهيم ؟ انه يتفق له أن يمر بأيام بؤس وحرمان وأن لا يحتسى قليلا من الشاى ، فهل من الضرورى أن يشرب جميع الناس الشاى ؟ هل أنظر أنا الى فم كل انسان لأعرف ماذا يدخل الى بطنه ؟ مع من سلكت هذا السلوك ؟ ومن أهنت هذه الأهانة ؟ لا ياماتوشكا ، عيب علينا أن نجرح انسانا لم يمسسنا بسوء • اسمعى يا فرفاراكسييفنا على سبيل المثال : انتى أقوم بواجبى كل يوم بهمة ونشاط واخلص ، والرؤساء راضون عنى ، وهم يحترموننى (مهما يقولوا فهم يحترموننى ، هذا أكيد) ، فاذا بانسان يأخذ يكتب عنى ويشهر بى ويسىء الى دون سبب ظاهر ودون أى عذر مقبول • نعم انه يتفق لى أنا أيضا أن أصنع لنفسى رداء جديدا أو أن أشتري حذاءين ، فأبلغ من فرحى بذلك أن لا أنام الليل ، ذلك شىء يبهبج النفس • انها لمتعة حقا أن يتعل المرء حذاء رشيقا جديدا • هذه لذة • هذا شعور شعرت به ، اعترف بذلك ، والوصف هنا صادق • ومع ذلك يدهشنى ان رئيسنا فيدور فيودورفتش قد سمح بصدور هذا الكتاب ، عن غفلة منه ، لأن الكتاب ينال منه أيضا •

صحيح أن هذا الموظف الكبير ما يزال شابا ، وانه يجب أحيانا أن يرفع
صوته . ولكن لماذا يجب أن لا يصرخ قليلا ؟ هل من الضروري أن لا
يؤنب أحدنا تانيا شديدا حين يجب التأنيب ؟ أنا أسلم بأنه يفضب أحيانا
بدون سبب ظاهر . ولكن هذا أمر لا غنى عنه ، احتفاظا بالمهابة
وتهذيبا للناس . ان من الواجب أن يوحى اليهم بهذا الاحترام
المفيد . ذلك اننا معشر البشر - أقول هذا بيني وبينك - لا نفضل
فعلا حسنا الا اذا شعرنا بشيء من الحشوية . ما من أحد يفكر
فى غير مصالحه ، وفى غير تقدمه ، فهو يريد أن يذكر هنا ، وأن
يشاد به هناك ، أما أن يعمل فذلك ما يحاول أن يتملص منه ما وسعه
التملص . ثم ان الموظفين ليسوا جميعا فى رتبة واحدة ، فبعضهم فوق
بعض درجات ، ولا غرابة والحالة هذه أن يختلف بعضهم عن بعض لهجة
وحذقة على حسب الرتبة . ذلك فى طبيعة الأمور . وكذلك بنى العالم
ياماتوشكا . ان الحياة الاجتماعية تعتمد على مظاهر السلطة التى يصطنعها
بعضنا تجاه بعض ، وعلى الطريقة التى يتخاطب بها بعضنا مع بعض لوما
وتانيا . وبدون هذه الاحتياطات لا يمكن أن يوجد العالم ، ولا يمكن
أن يقوم نظام فى أى مكان . لذلك يدهشنى حقا أن يسمح فيدور
فيودوروفتش بنشر هذا الكتيب الجارح المؤذى سهوا أو اهمالا .

وأى شيطان دفع هذا الكاتب الى الكتابة ؟ ما نفع هذا الذى
كتبه ؟ هل سيرسل الى أحد القراء معطفا جديدا بعد أن يقرأ هذه القصة ؟
هل سيشتري لى حذاءين جديدين ؟ لا يافارنكا ، ان الناس سيقراون
القصة ، ثم لا يزيدون على أن يرغبوا فى معرفة تتمتها . يحاول المرء أن
يختبئ ما وسعه الاختباء ، ويجهد أن يكون صغيرا ما أمكنه ذلك ، ويبدل
قصاره فى سبيل أن لا يلتفت اليه أحد ، حتى ليخشى أحيانا أن يظهر
أنفه فى الخارج لأنه لا يحب أحكام الناس ، لأنه يخشى أن يجعله الناس

أضحوكة لغير سبب ، ثم اذا هو يرى حياته المدنية والعائلية كلها معروضة
مبسوطة فى الأدب بلا خجل ولا حياء ولا حشمة ولا عذار ، واذا كل
شئ من ذم مطبوع مكشوف معرى ، يحكم عليه الناس ويضحكون منه
ويهزأون به ! لن يستطيع المرء أن يخرج بعدئذ الى الشارع ، لأن كل
شئ قد بلغ من دقة الوصف فى الكتاب أن الناس سيعرفونه حتى من
مشيته . وكان يهون الأمر لو أن الكاتب قد كفر عن كتابه بتخفيف
الخاتمة ، باضافة شئ يلطف القصة . كان فى وسع المؤلف مثلا عندما
وصف كيف قصف الرجل المسكين بالقراطيس ، أن يذكر أن هذا الرجل
كان انسانا فاضلا ، وانه كان مواطنا صالحا ، وانه كان لا يستحق أن يعامله
زملاؤه هذه المعاملة ، لأنه كان يحترم دائما من هم أكبر منه سنا (كان
فى وسع المؤلف هنا أن يضرب مثلا صالحا) ، وأنه لم يؤذ أحدا طوال
حياته ، وانه آمن بالله وانه حين مات (اذا أصر المؤلف اصرارا مطلقا على
أن يمته) حزن جميع الناس وبكوه . وكان من الأفضل أيضا أن لا يوت
المسكين ، وانما يُعمل ما يجب من أجل أن يُعثر له على العطف ، أو أن
يستدعيه فيدور فيدوروفتشس - لا . . . ماذا أقول ؟ - أقصد أن يستدعيه
الجنرال حين علم بفضائل هذا المرؤوس ، فيبلغه انه نال ترقية ، وانه
سيعطى راتبا حسنا . بذلك كان يمكن انقاذ كل شئ : يعاقب الأشرار
وتكافأ الفضيلة ، ويرتدع الزملاء الخيباء . بهذه الخاتمة كان يمكن أن
أختم أنا القصة . ماذا فى هذه القصة من خير ، ماذا فيها من جمال خارق؟
ان المؤلف لم يزد على أن حكى واقعة مبتدلة ، لم يزد على أن وصف شيئا
مستمدا من الحياة اليومية ! كيف خطر ببالك يا عزيزتى الغالية أن ترسلى
الى كتابا كهذا الكتاب ؟ انه كتاب مفرض يا فارنكا . ثم انها قصة غير

معقولة • لأنه لا وجود لموظفين من هذا النوع • لا ، لا ، سوف أشكو
أمرى الى السلطات يا فارنكا ، سوف أشكو أمرى ، قررت ذلك •

خادمك المخلص

ماكار ديفوشكين

٢٧ تموز (يوليو)

ان الأحداث الأخيرة ، وكذلك رسائلك ، قد أذهلتى وأفزعتنى ،
ولكننى فهمت أخيرا كل شيء بعد الذى روتته لى فيدورا • لماذا بلغ بك
الحزن واليأس هذا المبلغ ؟ لماذا ألقىت بنفسك الى الهوة التى تضطرب فيها
الآن ؟ هلا قلت لى لماذا يا ماكار الكسييفتش ؟ ان الشروح التى قدمتها لم
تقنعنى أبدا • ألم أكن على حق حين أصررت على قبول العمل المجزى
الذى عرض على ؟ ألا تعترف بأننى كنت على حق ؟ ثم ان حادثك الأخيرة
قد أخذت تقلقنى حقا • لقد كنت أشعر طبعاً انى مدينة لك كثيراً منذ
كنت تؤكد لى ان ما تنفقه فى سبيلى ليس الامدخرات ادخرتها للطوارىء •
ولكننى أعلم الآن انك لم تكن قد ادخرت شيئاً ، وانك حين عرفت عرضاً
ما أعانى من بؤس ، رقى قلبك لى فقررت أن تساعدنى بانفاق رواتب عدة
أشهر قبضتها سلفة ، واعلم أيضاً انك مضيت بعد ذلك تبيع ملابسك أثناء
مرضى • ان اكتشافى هذه الحقيقة قد جعلنى فى وضع أليم جداً ، حتى
صرت أتساءل الآن كيف يمكن أن أقبل كل هذا ، وماذا يجب أن يكون
رأىى فيه ! لماذا لم تكثف يا ماكار الكسييفتش بحسناتك الأولى التى دفعتك
ليها الشفقة ومشاعر القرابة فحسب ، بدلا من الاندفاع فى انفاق المال فى
أمور لا فائدة منها ولا طائل تحتها كما فعلت بعد ذلك ؟ لقد خنت صداقتنا

يا ماكار ألكسيفتش حين لم تكن صريحا معي فأخفيت عني الحقيقة .
اننى اليوم وقد أدركت أن دريهماتك الأخيرة قد ضاعت فى شراء ادوات
زينة لى وتبعثرت ثمنا لسكاكر ونزهات وتذاكر مسرح وهدايا كتب ،
أكفّر تكفيرا باهظا عن تلك اللذات بعذاب الضمير من فرط الندم على
خفتى التى لا تتغفر (لأننى كنت أقبل منك ذلك كله دون أن أراعى
وضعك) . ان كل ما فعلته بغية ان تفرحنى يستحيل الآن الى عذاب لى ،
ولا تبقى منه الا حسرات عقيمة . لقد لاحظت كأبتك منذ مدة ، ورغم انى
توقعت فى كثير من الهم والقلق أن يحدث حادث أليم ، فان ما حدث ما كان
ليخطر لى على بال . ما هذا ؟ كيف يمكنك أنت يا ماكار ألكسيفتش أن
تستسلم لمثل ذلك اليأس ؟ ما عسى يقول عنك جميع أولئك الذين
يعرفونك ، وما عسى يكون رأيهم فيك ؟ كيف يمكنك أنت يا من كنا
نحترمك أنا وجميع الناس لطيب قلبك وتواضع نفسك ورجاحة عقلك ،
كيف يمكنك أن تسقط فى تلك الرذيلة المقوتة التى أحسب أنها لم
تعهد فيك قط حتى الآن ؟ يا لهول ما شعرت به حين علمت من قم فيدورا
انهم لموك من الشارع سكران ، وان الشرطة قادتك الى منزلك ! لقد
صعقت من الدهشة وذهلت عن نفسى وتبله عقلى فى تلك اللحظة ، رغم
اننى كنت أتوقع أن يحدث شىء غير عادى ، لأنك كنت قد غبت عنا أربعة
أيام . هل فكرت يا ماكار ألكسيفتش فيما سيقوله رؤساؤك حين يعلمون
سبب تنييك ؟ تقول لى ان جميع الناس يسخرون منك الآن ، وان جميع
جيرانك أصبحوا يعرفون صداقتنا ، وان سخرياتهم وأمازيجهم لا تتسانى
أنا أيضا . لا تحفل بهذا يا ماكار الكسيفتش ، وهدىء روعك ، ناشدتك
الله ! وانى شديدة القلق أيضا بسبب ذلك الذى وقع لك مع الضباط .
لقد سمعت بهذا النبأ غامضا . قل لى ، أرجوك ، ما معنى هذا كله ؟ كتبت
لى انك لم تكن تجرؤ على مصارحتى ، وانك كنت تخشى أن تفقد

باعترافاتك صداقتي ، وانك كنت في ذروة اليأس ، لأنك لم تعرف كيف
تساعدني أثناء مرضي ، وانك بعث كل ما عندك حتى تجنبي الذهاب الى
المستشفى ، وتقول انك اقترضت مالا من جميع الجهات ، وان مناقشات كانت
تقوم بينك وبين صاحبة البيت في كل يوم . ولكنك اذ أخفيت عني
الحقيقة قد اخترت أسوأ الحلول . وأنا أعلم الآن كل شيء على كل
حال . كنت لا تريد أن تضطرنني الى الاعتراف بأنني السبب في وضعك
الحالي البائس ، ولكنك بسلوكك الآن تحزنتي حزنا أشد ، وتجعلني
أقاسي ألما أكبر . كل هذا يقلقني ويث الاضطراب في نفسي يا ماكار
الكسيقتش . آه يا صديقي ! ان الشقاء مرض معبد ، فيجب على
الأشقياء والمساكين أن يتجنب بعضهم بعضا ، يجب عليهم أن يتحاشوا أى
اتصال بينهم ، حتى لا تزداد آلامهم بعدوى متبادلة ، لقد جئتك بمحن لم
تعرفها من قبل في حياتك المتواضعة المنعزلة . انه ليعذبني عذابا شديدا
وانه ليقتلني ان أدرك اليوم ذلك .

اكتب لي الحقيقة كلها صراحة ! قل لي ماذا حدث وكيف أمكن أن
تعزم أمرك على القيام بمثل هذا العمل ! طمئني اذا كنت تستطيع ذلك .
ليست الأنانية هي ما يدفعني الآن الى الكلام عن طمأنيتي وهدوئي ، وانما
تدفعني الى ذلك صداقتي لك ، وتحضني عليه المودة التي محضتك والتي
لا يمكن أن تمحي من قلبي يوما . انتظر ردك . لقد أخطأت الظن في
والحكيم على يا ماكار الكسيقتش .

صديقتك المخلصة الودود

فرارا دوبروزوبولوفا

عزيرتى الغالية فرارا الكسييفنا

لك ما تشائين . أما وقد انتهى الآن كل شيء وأخذت الأمور تعود الى مجراها الطبيعي شيئا بعد شيء ، فسأقول لك يا ماتوشكا ما يلى : انك تخشين مما قد يظن بى ويقال عنى ، لذلك أسارع فأصارك يا فرارا الكسييفنا بأن سمعتى هى عندى أعلى شيء فى هذا العالم ، لذلك أعتقد أن علىّ وأنا أبلغك أنواع الشقاء التى عانيتها وضروب الفوضى التى وقعت فيها ، أن أذكر لك فى الوقت نفسه انه ما من احد من رؤسائى علم بما حدث ، أو سيعلم به يوما ، وأن رؤسائى سيظنون يظهرون لى اذن نفس التقدير الذى كانوا يظهرونه لى من قبل . أمر واحد يقلقنى ويرهقنى : اننى أخشى النائم والاشاعات . فى منزلنا ما تنفك صاحبة البيت تصيح وتصرخ ، وان تكن ، منذ دفعت لها جزءا من دينها علىّ بفضل روبلاتك العشرة ، أصبحت لا تزيد على أن تنذر . أما السكان الاخرون فليس هنالك ما أشكوه فيهم . ان سلوكهم معى حسن . كل ما فى الأمر أن علىّ أن أتجاشى اقتراض شيء من المال منهم ، فمتى لم أقترض منهم شيئا من المال كانوا فى غاية اللباقة هم أيضا . وأحب فى ختام هذه الشروح أن تعلمى يا ماتوشكا أن تقديرك هو أئمن ما أملك فى هذا العالم ، وذلك ما يعزىنى فى هذه الساعة عن الفوضى العارضة التى ألت بحياتى . لقد انجلت الغمة والله الحمد ، وانقضت الضربة الأولى والاضطرابات الأولى من هذه المساة . وقد أمكن أن تحتمليها دون أن تعدينى صديقا خان الصداقة، أو رجلا أنانيا ، لأننى حاولت أن أحتفظ بك قريبة منى فخادعتك لعجزى عن الانفصال عنك يا من أحبك وأرى فيك ملاكى الصغير . لقد عدت الى العمل بهمة ونشاط ، وأنا أقوم بواجبى اليومى على خير وجه .

حتى ان أوستاش ايفانوفتش لم يقل كلمة واحدة حين مررت أمس أمامه •
لا أكتفك يا ماتوشكا أن ديوني تعذبني وتضنيني وتقتلني قتلا ، وكذلك
خلو خزاتى من الثياب ، ولكننى أعود فأقول ان هذا كله لا قيمة له ،
فأرجوك بل أتوسل اليه يا ماتوشكا أن لا يحزنك هذا الأمر أيضا • لقد
أرسلت الى نصف روبل آخر • ان نصف الروبل هذا قد طعن قلبى
طعنا يا فارنكا • انظرى أين أصبحنا ، انظرى الى أين آلت أمورنا !
لست أنا من يساعدك الآن اذن ! يا لى من شيخ عجوز أبله ! • • • بل أنت
التي تهين الى نجسدى يا عزيزتى اليتيمة المسكينة ! يجب أن نشكر
لفيدورا انها استطاعت أن تحصل على شيء من المال • وليس لى الآن أى
أمل من هذه الناحية ياماتوشكا، لن أقبض شيئا ، فاذا فتح باب الأمل، فلن
يفوتنى أن أبلغك ذلك تفصيلا • ولكن النماثم، النماثم المقيته الكريهة، هى
ما يعذبنى أكثر من شيء آخر ، وداعا يا ملاكى الصغير • أقبل يدك
الجميلة ، وأضرع اليك أن تبلى من مرضك • لست أقبض فى الكتابة اليك
الآن لأن على أن أمضى الى عملى ، لأننى أحب أن أبرهن على همتى
واخلاصى عسى أن أمحو خطيئتى وعسى أن ينسوا تفييى • أرجىء الى
المساء تمة شروحي فى موضوع جميع تلك الأحداث، وكذلك فى موضوع
حادتى مع الضباط •

صديقك الذى يحترمك ويحبك حبا عميقا

ماكار ديفوشكين

٢٨ تموز (يوليو)

آه يا فارنكا ، يا فارنكا ، الحطية هي الآن خطيتك ! الذنب هو الآن ذنبك ! وسوف يظل هذا الذنب جاثما في ضميرك . لقد استطعت برسالتك أن تقلبي دماغى رأسا على عقب ، أن تلقيني الى اضطراب ما بعده اضطراب . . . الآن ، الآن فقط ، انما أدرك ، حين أغوص هادئا الى أعماق قلبى ، أنتى كنت على حق ، على حق تماما . ما عن استهتارى الأخير أتحدث هنا (دعينا من ذلك الاستهتار ، ولا تعودى الى الكلام عليه) ، وانما أتحدث عن حبى لك ، فأقول انه لم يكن جنونا منى أن أحبك ، لا لم يكن حبى لك جنونا قط . يجب أن أقول لك يا ماتوشكا انك لا تعرفين شيئا . ولو كنت تعرفين لماذا وقع ما وقع ، ولماذا كان حقا أن أحبك ، لقلت غير الكلام الذى قلته . ان جميع تلك الكلمات الحكيمة العاقلة التى تزجيناها الى ، أنت لا تقصدينها . انك تكئينها ، ولكن الذى فى قلبك شيء آخر . أنا من ذلك على يقين . يا ماتوشكا ، لا أعرف الآن ولا أتذكر الآن تذكرنا واضحا تلك القصة التى وقعت لى مع الضباط . ولكن يجب أن تعلمى يا ملاكى أنتى كنت قد مررت قبل ذلك بفترة مضطربة أقصى الاضطراب . تخيلى اننى كنت منذ شهر بكامله لا يكاد يمسكنى عن الانهيار الا خيط واهن ان صح التعبير . كنت فى وضع ينذر بأن الكارثة وشيكة . كنت أحتبىء منك ، بل وأحاول أن لا يلمحنى أحد فى منزلنا أيضا ، ولكن صاحبة المنزل قامت بفضيحة وأخذت تصرخ . طبعاً ليس يهمنى أن تصرخ ، فلتصرخ ما شئت ، ولكن المسألة أن صراخها أخرجنى وأشعرنى بالعار . . . تلك نقطة أولى . والنقطة الثانية انها كانت قد علمت بصدقاتنا ، لا أدرى كيف ، فأخذت تصيح فى أرجاء المنزل كله مشهّرة بهذه الصداقة قائلة أمورا تبلغ من الفظاعة اننى تعجّدت ذعرا وسدّدت أذنى حتى

لا أسمع ماتقول • ولكن من المؤسف أن السكان الآخرين لم يسدوا آذانهم
مثلى ، بل فتحوها واسعة وأرهفوا السمع ••• حتى صرت لا أعرف
أين أختبئ •••

ذلك كله يا ملاكى الرقيق ، هذه المصائب التى تراكمت تراكما
رهيبا ، هى ما أجهز علىّ وانتهى بتحطيمى تحطيما كاملا • وعلمت فجأة
من فيدورا أمورا غريبة : علمت ان زائرا وقحا جاء اليك وألحق بك اهانة
اذ عرض عليك أمرا شائئا مخزيا • لقد طعنك هذا الرجل طعنا أصاب
أعماق قلبك يا ماتوشكا ، أنا أعلم ذلك قياسا على ما شعرت به أنا أيضا من
اننى طعنت • فى تلك اللحظة ياملاكى ، فى تلك اللحظة تماما انما زلت
قدمى ، وترنحت وسقطت فى الهوة • هرعت أخرج من المنزل يا فارنكا
وقد عراني غضب جنونى لا يوصف ، غضب لا عهد لى بمثله من قبل •
كنت أريد أن أذهب الى ذلك الشخص الحقيق ، الى ذلك المجرم الذى
لا حياة له ، دون أن أعرف ماذا أريد أن أصنع ، لأننى لا أطيق يا ملاكى
الصغير أن يلحق بك أحد اهانة • آه ما كان أشد حزنى ! ما كان أعمق
تعاستى ! وكان المطر ينهمر غزيرا فى ذلك اليوم ، فالوحد فى كل مكان ،
والجو كالح جهم حزين • فكرت أن أعود الى المنزل وأن أعسل عما
عقدت عليه النية ! ••• وفى تلك اللحظة انما وقعت يا ماتوشكا •••
التقيت باميل ، اعنى ايميلين ايلتس ، وهو موظف فى ادارتنا ، أو موظف
سابق ، لأنه لم يعد موظفا ، فقد صرف من الخدمة ، ولا أدرى ماذا يعمل
الآن ، فانما هو يذهب هنا وهناك ليعيش • التقينا فسرنا معا ، ثم
تبعته ، وهكذا حدث كل ما حدث ••• ثم ••• ولكن أية متعة يمكن أن
تجديها يا فارنكا فى قراءة قصة أنواع العذاب التى قاساها صديق ، وفى
معرفة صنوف التدهور التى عاناها ، وألوان النوايات التى تردى فيها ؟

المهم ان ايميلين هذا هو الذى دفعني وحرضنى فى اليوم الثالث عند
المساء : فذهبت الى ذلك الشخص ، الى ذلك الضابط • كنت قد حصلت
على عنوانه من بواب عمارتنا • والحقيقة اننى كنت أراقب هذا الشاب منذ
مدة طويلة • كنت أراقبه منذ كان يسكن فى منزلنا ••• الخلاصة •••
اننى أدرك اليوم اننى قد ارتكبت خطأ ، لأننى لم أكن فى حالتى الطبيعية
حين أعلموه بقدمى • يجب أن أقول يا فارنكا ، حتى آكون صادقا اننى
لا أتذكر على وجه الدقة ما حدث عندئذ • كل ما أذكره أنه كان فى
بيته ناس كثير ، كان بيته يمتلئ ضباطا ، اللهم الا أن أكون قد رأيت
الشخص شخصين ••• الله أعلم ••• لا ولا أتذكر أيضا ماذا قلت له ،
ولكننى أتذكر اننى تكلمت كثيرا ، يحضنى على ذلك استياء شديد •
وعندئذ ، نعم عندئذ ، انما أخرجونى ودحرجونى الى آخر السلم •••
لا! لم يدحرجونى ، بل دفعونى دفعا فحسب • وأنت تعلمين البقية يا فارنكا ،
تعلمين على أية حال عدت الى منزلى • هذا هو كل شئ • لا شك اننى
بهذا قد أهنت نفسى ، وضعت كرامتى ، وهدرت مهابتى • ولكن ما من
أحد علم بالأمر • واذن فكأن شيئا لم يحدث • ألا تظنين ذلك يا فارنكا ؟
ومما أعلمه علم اليقين على كل حال هو أن هياست أو سيوفتش قد هجم
فى السنة الفائتة على شخص بطرس بتروفتش ، فى مكتبنا ، هجوما
كهذا الهجوم ، ولكنه فعل ذلك سرا ، خفية ، على غير علم أحد •
استقدمه الى غرفة الحارس • وكنت أنا أراقبهما من شق الباب • فرأيته
يتصرف كما ينبغى التصرف فى مثل هذه الحال ، ولكن بطريقة رفيعة
نييلة ، لان أحدا لم يره غيرى • وما قيمة أن أراه أنا ؟ أنا لست شيئا ،
أقصد اننى لم أقص الحكاية على أحد • وبعد ذلك الحادث لم يتظاهر
هياست أو سيوفتش وبترس بتروفتش بشئ البيت • لاحظنى أن بطرس
بتروفتش رجل معتر بنفسه ، حريص على سمعته أشد الحرص ، لذلك

لم يرو لأحد شيئاً ، حتى انهما ما يزالان يتبادلان التحيات ويتصافحان أمام
الناس . لست أنكر يا فارنكا ، ولن أحاول أن أنكر اننى سقطت سقوطاً
مريماً . لا أجد هذا ، والأنكى من ذلك اننى فقدت اعتبارى فى نظر
نفسى . لا شك أن هذا الشقاء قد كتب على منذ ولدت ، لا شك أن
ذلك قدرى ، وما من انسان فى هذا العالم يمكن أن يفلت من قدره . . .
أنت تعلمين ذلك . هذا هو يا فارنكا الشرح الكامل والسرد الدقيق لما
قاسيت من مكاره وما عانت من تدهور . وهذه كلها أمور يمكن ان
لا تقرأ . وفيم قراءتها وقد استوى كل شئ الآن ؟

اننى أشعر بشئ من الاعياء يا ماتوشكا ، وقد فقدت كل بشاشة فى
النفس وكل فرحة فى القلب . لذلك أكتفى بأن أؤكد لك ما أشعر به
نحوك من تعلق وحب واحترام ، وأظل ، يا عزيزتى المحترمة جداً فرقاراً
ألكسيفنا :

خادمك المطيع
ماكار ديفوشكين

٢٩ تموز (يوليو)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش

قرأت رسالتك ، فأوشكت أن أصبح من فرط الدهشة . أحد شيئين
يا عزيزى : اما أنك تخفى عنى شيئاً ما ، وأنت لم تقص على الا جانباً
من المكاره التى وقعت لك ، واما أنك ، يا ماكار ألكسييفتش ، ما تزال
تعانى اضطراباً نفسياً . . .

ان رسائلك تدل على شىء من ذلك فى الحقيقة ... تعال الى ،
ناشدتك الله ، زرني فى هذا اليوم نفسه . اسمع ، تعال الينا للعشاء ،
هكذا ، بغير كلفة . اننى أجهل جهلا تاما كيف تعيش فى مسكنك ،
وهل تفاهمت مع صاحبة البيت أخيرا . انك لا تكتب الى شىئا فى هذا
الموضوع ، كأنك تعتمد السكوت عن هذه المسألة . أودعك الآن
يا صديقى . ولكنى أرجوك أن تأتى الينا اليوم ، تعال حتما . والأصلح
على كل حال أن تتعشى كل يوم معنا . ان فيدورا تجيد الطهى . وداعا .

المخلصة لك

فرقارا دوبروزيولوففا

اول آب (أغسطس)

عزيزتى فرقارا السكييفنا !

انه ليسعدك يا ماتوشكا ان الله وهب لك فرصة الرد على الاحسان
بالاحسان، وأن تبرهنى لى على الشكر والامتنان . اننى أقدر هذا يافارنكا،
وأؤمن بطيبة قلبك الصغير ، قلب الملاك ، فلست أعتب عليك اذن ، ولكن
لا تذكرينى ، كما فعلت فى المرة الماضية ، بأننى فى أواخر أيامى قد
اندفعت فى أعمال طائشة كأعمال المجانين . لقد أنمت ، نعم أنمت ، اذا
كنت تصرين على أن تصفى عملى بأنه اثم ... ولكن يشق على نفسى ،
يا صديقتى الطيبة الشهمة النبيلة ، أن أسمع هذه الأشياء من فمك أنت .
ذلك قاس على نفسى . لا تؤاخذينى اذا قلت هذا الكلام يا ماتوشكا . ان
شىئا فى صدرى يتمزق . ان الفقراء أصحاب نزوات وبدوات . الطيبة
أرادت لهم ذلك . الفقير انسان متشدد كثير الشك والحذر . له طريقة

خاصة فى رؤية العالم ، فهو يلتفت نحو كل عابر سبيل ، ويلقى على ما حوله نظرات قلقة وجلى ، ويسترق السمع الى كل كلمة ، متسائلا : أتراهم يتكلمون عنه ؟ أتراهم يطلقون ملاحظة من الملاحظات عن مشيته المتعثرة المضحكة ؟ أتراهم أرادوا أن يقرأوا ما فى نفسه ساخرين ؟ ها هم أولاء ينعمون فيه النظر ، ليروا هيئته من الجهة اليسرى ، ثم ليدرسوا هيئته بعد ذلك من الجهة اليمنى ، ذلك انهم يعلمون يا فارنكا ان الانسان الفقير لا يساوى أكثر من خرقة بالية ، وانه لا يطمع لنفسه فى أى نوع من الاحترام ، مهما يقل القائلون ومهما يكتب الكتّابون ! آه من هؤلاء الكتاب الثرثارين ! آه من هؤلاء الذين ما ينفكون يسودون ورقا ! فمهما يتقنوا صف العبارات وتميق الجمل ، سيظل الانسان الفقير ما هو ، ولن يتغير فيه شىء . أما لماذا سيظل ما هو لا يتغير فيه شىء ، فلأن هؤلاء الناس جميعا يرون أن كل شىء لديه يجب أن يكون مكشوفاً مبسوطة أمام الأعين معروضا للابصار ، فلا شىء فى نفسه يجب أن يظل سرا أو أن تكون له حرمة . ليس له أن يكون ذا كرامة أو كبرياء . . . حرام عليه ذلك ! خذى هذا المثال : لقد حكى لى ايميليان منذ مدة أن بعض الناس نظموا له اكتاب تبرع من أجل مساعدته فكان جميع المكتتبين يعتقدون أن من حقهم أن يشرعوا فى تحقيق يشبه أن يكون رسميا ، يجلو لهم شخصه ويكشف لهم عن حياته . لقد ظنوا انهم يهدون اليه دريهماتهم . كذب هذا . الحق أنهم دفعوا ثمن رؤية رجل فقير . كل شىء فى هذا الزمان يتم على نحو عجيبا يا فارنكا ، حتى البر والاحسان . . . ولكن لعل الأمر كان كذلك فى جميع الأزمان ، من يدرى ! أحد أمرين لاناك لهما : اما أن هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يتصرفون من أجل أن يفعلوا الخير ، واما أنهم مسرفون فى المكر والحذق . تلك أمور لعلك تجهلنها يا ماتوشكا : ألا فلتعلميها اذن الآن . أنا جاهل فى كل ما عدا

هذا ، أما هذا فأعلمه حق العلم • قد تسألننى لماذا يعرف الفقير هذا ؟
لماذا يفكر الفقير على هذا النحو ؟ هى التجربة يا عزيزتى ، التجربة
وحدها • هو يعرف مثلا ان ذلك السيد الذى يمشى فى الشارع على
مسافة بضعة خطوات منه متجها الى أحد المطاعم ، يقول لنفسه : « وددت
لو أعلم ما عسى يأكل اليوم هذا الموظف البائس • أما أنا فسوف آمر
لنفسى بطبق من شواء ، وأما هو فلا شك أنه سيكتفى بجريش مسلوقة بلا
زبدة » ، هناك ناس من هذا النوع يا فارنكا ، هناك بشر يقضون أوقاتهم
كلها فى تأملات من هذا القبيل • ان أولئك الكتاب الوقحين وأولئك
المخربين الأوغاد الذين تزينهم يتزهون فى الشارع ، فلا يكون لهم من
هم الا أن يلاحظوا هل يضع فلان على الأرض راحة قدمه كلها أم هو
يمشى على رءوس الأصابع ، يحبون أن يعرفوا أليس فى حذاءى ذلك
الموظف البسيط ثقب تخرج منها أصابع قدميه عارية ؟ أليس كماه
مهترئين حتى الكوعين ؟ انهم يلاحظون ذلك ثم يصفونه وينشرونه كتبا
كريبه مقيته ! فيم بهمهم أن يكون كماى مثقوبين حتى الكوعين ؟ اغفرى
لى يا فارنكا اذا جئتك بتشبيه فظ فقلت ان الرجل الفقير يشعر فى هذه
الأمر كلها بنفس الحياء الذى الذى تشعرين أنت به كفتاة • فأنت
لا تحيين طبعاً - واغفرى لى هذا التشبيه الثقيل أيضا - أن تتعري أمام
الناس • فكذلك الرجل الفقير ، لا يجب أن يحشر أحد أنفه فى خدره
ليرى كيف يعيش • لم يكن من الخير اذن يا فارنكا أن أهان فى المرة
الماضية بالتواطؤ مع أعدائى الذين يحاولون أن ينالوا من شرف رجل
فاضل ومن عزة نفسه •

كنت أشعر اليوم بضيق شديد فى المكتب ، كنت أتجمع على نفسى
كقنفذ أو كعصفور متوفى • خيل الى أن العار يلتهمنى ويحرقنى من
أخص القدمين الى قمة الرأس • كنت متضايقا من نفسى برما بها

يا فارنكا • وكيف لا يخجل المرء ولا يرتبك حين يظهر كوعه من كم قميصه وحين تتراصن أزرار رداؤه على طرف خيط؟ كان كل شيء في هندامى قوضى ، هذا الصباح ، كأنما على عمد • ان المرء يفقد شجاعته فى مثل هذه الظروف • ثم ••• لقد أخذ ستيفان كارلوفتش نفسه يحدثنى فى بعض الاعمال اليوم • فما هى الا لحظة حتى انطلقت منه صيحة تعجب قائلا : « آ ••• ياما كار انكسييفتش ، باتوشكا ••• » • لم يكمل قول ما كان يدور فى فكره ، ولكننى حزرت ذلك فورا ، فاصطبغ وجهى بالحمرة ، حتى لقد احمرت صلعتى • الحق أن صيحة التعجب تلك كانت تبدو عابرة لا شأن لها ، ومع ذلك فهى تفلقنى ، وهى تثير فى رأسى أفكارا لا حصر لها • أتراهم فى الدائرة قد علموا بما جرى ؟ وقانى الله شر هذا ، ما عسى يقع لو علموا ؟ لا أكتمك أنتى أشتبه فى شخص معين • ان هؤلاء الأشقياء لا يعرف قلبهم الرحمة ولا الشفقة • سوف يفضحوننى ، سوف يبيعون كل أسرار حياتى ، لا حرمة لشيء عندهم •

أنا أعرف الآن من الذى فضحنى • ان راتازايف هو الذى دبر هذه المكيدة • انه يعرف أحد الموظفين فى دائرتنا ، فلا بد انه قص عليه الأمر عابرا أثناء حديث جرى بينهما ، مضيئا اليه أمورا من عنده فيما أتخيل ، أو لعله تحدث عن الأمر فى دائرته هو ، ففسرت الاشاعة من هناك الى دائرتنا • ذلك أن جميع سكان منزلنا ، بغير استثناء ، يعرفون تلك القصة ، ويومثون الى نافذتك بالاصبع • وأمس ، حين ذهبت أتعشى عندك ، وقفوا جميعا على النافذة ، وروت صاحبة المنزل المثل السائر الذى يتحدث عن الشيطان يحوم حول الطفل ، ثم قالت بعد ذلك كلمة نابية فى الكلام عليك • ولكن هذا كله لا يعد شيئا اذا قيس بما يبيته راتازايف من نية حقيرة ، وهى أن يضعنا أنا وأنت فى الأدب ،

وأن يصفنا وصفا ساخرا • لقد صرح هو نفسه بذلك ، ونقل الى أقواله
أناس شرفاء من سكان منزلنا • انقلب عقلي رأسا على عقب منذ سمعت
هذا الكلام • أصبحت لا أستطيع أن أفكر فى شيء ولا أعرف أى قرار
اتخذ • لماذا نخفى عن أنفسنا يا ملاكى اللطيف أننا بآثامنا قد أثرنا
سخط الله علينا ؟ اقترحت يا ماتوشكا أن ترسلى الى كتابا أتسلى بقراءته •
ألا سحقا لهذا الكتاب ! اننى لا أريد كتابا ، بثت الكتب كلها ! فهى
لا تساوى شيئا وليس لها من قيمة • ما هى الا قصص غير معقولة ، ما هى
الا حكايات سخيفة مستحيلة ! ليست الروايات الا بلاهات وغباوات كتبها
أصحابها لتعطلهم عن العمل ، دون أن يكون لهم هدف الا أن يملئوا
فراغهم ! ثقى يا ماتوشكا ، ثقى فى هذه الأمور بخبرتى الطويلة ! لا تلقى
بالا الى أولئك الذين يحدثونك عن كاتب اسمه شكسبير ! - يظهر أن فى
الأدب كتابا بهذا الاسم - دعيك من شكسبير ومن غير شكسبير ! ان
شكسبير هذا لا يساوى شيئا هو أيضا ••• ما ذلك كله الا ترهات
وتفاهات ! • ما ذلك كله الا تلفيقات واختراعات تتخذ حجة لاصدار
كراريس فى هجاء الناس والسخر منهم والضحك عليهم •

المخلص لك

ماكار ديفوشكين

٢ آب (أغسطس)

السيد العزيز ماكار الكسييفتش

لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ لسوف يصلح كل شيء بمعونة
الله • لقد جاءت فيدورا بشغل كثير ، لى ولها ، وشرعنا نعمل فورا فى

كثير من الهمة والنشاط والحماسة • لعنا نستطيع بذلك أن نذل جميع
المصاعب • تعتقد فيدورا أن آنا فيودوروفنا ليست غريبة عن متاعبي
الأخيرة • ولكن هذا لا يهمنى الآن • اننى أشعر اليوم بفرح خاص •
تقول انك تتوى اقتراض بعض المال ! اياك ثم اياك ! فلن تستطيع الخروج
من المأزق متى آن أوان السداد • الأفضل من هذا أن تزداد قربا منا ،
وأن تكثر زيارتك لنا • أما صاحبة بيتك فلا تعبأ بها ولا تلق اليها بالا •
وأما عن أعدائك ومضطهيدك الأخر ، فأنا على يقين من أنك تعذب
نفسك بشكوك لا محل لها ولا داعى اليها يا ماكار ألكسييفتش ! راقب
نفسك ! قلت لك فى المرة الأخيرة ان كلامك يدل على انك تعاني اضطرابا
شديدا • أودعك الآن ، الى اللقاء • انتظرك عندى اليوم • لا تتخلف •
المخلصة لك

ب • د

٣ آب (اغسطس)

ملاكى اللطيف فرقارا ألكسييفنا !

أسارع فأنبئك ، يا شعاع ضيائى ، ان بعض الآمال قد أشرقت فى
نفسى • كتبت تقولين لى يا ملاكى الصغير ان على أن لا أفتراض شيئا من
المال • ولكننى يا حمامتى لا أستطيع أن أستغنى الآن عن الاقتراض • ان
حالى سيئة منذ الآن ، فكيف اذا حصل لك شىء لا قدر الله • ان جسمك
ضعيف • وأنا انما أكتب اليك فى هذه اللحظة لأقول لك ان الاقتراض
لا بد منه ولا غنى عنه • لذلك أتابع محاولة الاقتراض •
ان مكانى فى المكتب يا فرقارا ألكسييفنا يجاور مكان ايميليان

ايفانوفتش • ليس هو ايميليان الذى تعرفينه • انه ايميليان آخر يعمل
موظفا مثلى ، ونحن أقدم موظفى الدائرة : نحن عمادها ان صح التعبير •
وهو انسان طيب النفس مخلص ، لكنه صموت يظل مبتعدا عن الناس ،
منطويا على نفسه ، يوحى مظهره بأنه دب حقا • ولكنه فى مقابل ذلك
رجل لا يكل ولا يمل من العمل • وله قلم ما أروع ! • • خط انجليزى
قح ! يجب أن أعترف ، حتى أكون صادقا ، بأن خط هذا الرجل المحترم
لا يقل جمالا عن خطى • لم تقم بيننا صلة قوية حتى الآن ، وكنا نقتصر
على تبادل التحيات : « صباح الخير » ، « مع السلامة » ، الخ • • • وكنت
فى بعض الأحيان اذا احتجت الى موسى أبرى بها قلمى أتجه اليه قائلا :
« أعرنى موسى » • • الخلاصة أن كل شىء بيننا كان لا يزيد على التزام
المواضعات التى تقضى بها اللباقة • وها هو ذا يسألنى فى هذا الصباح على
حين فجأة : « ما بالك يا ماكار ألكسييفتش ؟ انك تبدو شاردا لللب كثير
التفكير » • أدركت أنه يريد لى خيرا • فقلت له : « والله • • • يا ايميليان
ايفانوفتش ، الأمر كيت وكيت » • طبعاً لم أذكر له كل شىء ، معاذ الله !
لا ولن أذكر له كل شىء يوما • ولو أردت ذلك لما تجرأت على كل
حال • كل ما هنالك انى كشفت له عن بعض الأمور الجزئية ، وأسرت
اليه اننى فى ضيق ، الخ • • • فأجابنى بقوله : « ولماذا لا تقرض شيئا
من المال ما دام الأمر كذلك يا عزيزى ؟ اذهب الى بطرس بتروفتش ،
فانه يقرض بفائدة • ولقد سبق أن أقرضنى بفائدة معتدلة محتملة • آه
يا فارنكا ، لقد وثب قلبى من صدرى حين سمعت هذه الكلمات •
وأخذت أفكر وأفكر • قلت لفسى : من يدرى ؟ قد يلهم الله بطرس
بتروفتش ، هذا الرجل المحسن ، أن يقرضنى أنا أيضا • وأجريت
حسابى فقدرت أننى سأستطيع أن أدفع لصاحبة البيت دينا على ، وانى
سأستطيع أن أساعدك أيضا ، وانى سأستطيع أن أحسن هندامى قليلا

آخر الأمر • ذلك أن المخجل أن يكون هندامى على ما هو عليه الآن •
لقد أصبحت أشعر بضيق وحرَج في المكتب ، ناهيك عن أولئك الساخرين
الأشرار الذين لا ينتظرون الا حجة من أجل أن يستهزئوا • وهينى
لا أحفل بهم بل أدعهم وشأنهم ••• ان من الممكن أن يمر صاحب
المعالى بمكتبى ، وهذا يحدث من حين الى حين ، ومن الممكن ، لا قدر
الله ، أن يلقى على نظرة فيرى ملابسى غير لائقة ، وهو امرؤ يعتقد أن
النظافة وحسن الهندام أهم من أى شىء آخر • صحيح انه لن يقول لى
شيئا • ولكننى سأموت فى مكائى من فرط الحياء والحجل والاضطراب •
ذلك ما قد يحدث • لذلك استجمعت شجاعتى ، ودستت خجلى فى
جيبى المثقوبة ، وتوجهت نحو بطرس بتروفتشى ممثلا بالأمل مرتعشا من
الحشية فى آن واحد • لكن الأمور لم تنته الى ما أحب يا فارتكا •
تخيل أن ذلك كله لم يجدنى نفعا • كان فى تلك اللحظة مشغولا يكلم
تادى ايفانوفتشى ، فدنوت منه من جانب ، وشدت كفه قائلا : « بطرس
بتروفتشى ، هيه ••• بطرس بتروفتشى » ، فالتفت الى ، فتابعت أشرح له
اننى فى حاجة الى ثلاثين روبلا ، النخ • فلم يفهم فى أول الأمر ما أريد ،
حتى اذا شرحت له الأمر مرة أخرى ، أخذ يضحك ، ولكنه لم يجب
بشىء بل اكتفى بالصمت • وكررت طلبى ، فقال لى عندئذ : « هل
عندك رهن ؟ » ثم أكبَّ ينهمك فى كتابته ، متابعا عمله دون أن ينظر
الى • اضطربت قليلا • ثم أجبته قائلا : « لا ليس عندى رهن يا بطرس
بتروفتشى » • وحاولت أن أقنعه بأننى سأرد اليه القرض متى قبضت
راتبى ، واننى لن أتأخر عن السداد لحظة ، فذلك عندى واجب مقدس •
وناداه أحد فى تلك اللحظة ، فمضى اليه • وأخذت أنتظر ، فلما عاد
جعل يبرى قلمه كأنه لا يلاحظ وجودى • فاستأنفت كلامى قائلا له :
« أما من وسيلة يا بطرس بتروفتشى ؟ أما من طريقة ؟ » • ولكنه ظل

صامتا لا يجيب ، متظاهرا بأنه لا يسمعى . فانتظرت بضع دقائق أخرى واقفا قربه . ثم قررت أن أحاول محاولة أخيرة ، فشددت كمة مرة ثانية ، فلم ينبس بحرف ، حتى اذا فرغ من برى قلمه عاد ينهمك فى الكتابة ، فلم يسعنى الا أن أنصرف عنه . هؤلاء يا ماتوشكا أناس أخيار جديرون بالاحترام ما فى ذلك ريب ، ولكنهم مسرفون فى الكبر والصلف والزهو ، فلا يعرف المرء كيف يأخذهم . نحن صغار جدا بالقياس اليهم يا فارنكا . لذلك أكب اليك هذا كله .

وقد أخذ ايميليان ايفانوفتش يضحك حين رويت له القصة ، وهز رأسه الى ذلك هو أيضا . ولكنه فى مقابل هذا بث فى نفسى بعض الأمل يا فارنكا . انه رجل طيب شهم . وعدنى بأن يوصى بى شخصا يعرفه ، يقيم ، يا فارنكا ، فى حى فيبورج ، ويقرض بفائدة أيضا ، وهو موظف بالدرجة الرابعة عشرة فيما يظهر . يدعى ايميليان ايفانوفتش . ان الرجل سيقرضنى المبلغ حتما . سأمضى اليه غدا يا ملاكى الرقيق . . . سأمضى اليه ، ما رأيك ؟ ألسنت على حق ؟ لا غنى لى عن الاقتراض يا فارنكا . صاحبة البيت تقول انها ستطردنى ، وهى ترفض أن تقدم لى طعام العشاء . حذاءى فى حالة يرثى لها يا ماتوشكا ، وأنا فى حاجة الى أزرار ، والى أشياء أخرى كثيرة أيضا . ما عسى يحدث لو لاحظ أحد من رؤسائى هدامى الرث ؟ سيكون ذلك مصيبة يا فارنكا ، سيكون ذلك مصيبة ، سيكون ذلك كارثة حقا .

ماكار ديفوشكين

عزيزى ماكار الكسييفتش

ناشدتك الله يا ماكار الكسييفتش أن تحصل على مال بأية وسيلة ،
أن تقترض مالا بأقصى سرعة • ما كنت لأرضى أن أطلب منك مساعدة
فى الظروف الراهنة ، ولكنك لا تعرف الوضع الذى أنا فيه • يستحيل
علينا أن نبقى فى هذا المسكن بأية حال • لقد أصابتنى مكاره رهيبه ، ولا
تستطيع أن تتخيل مدى الاضطراب النفسى الذى أعانيه فى هذه اللحظة •

تصور يا صديقى أن رجلا لا نعرفه ، رجلا مسنا يشبه أن يكون
شيخا عجوزا مع أوسمة كثيرة ، جاء إلينا هذا الصباح • دهشت من
مجيئه أشد الدهشة ، لأننى لا أعرف لزيارته سببا • كانت فيدورا قد
خرجت منذ لحظة لشراء شئ • أخذ الرجل يلقى على الاسئلة تلو
الاسئلة ، فهو يسألنى عن معيشتى وعن مشاغلى ، ثم اذا هو يصرح لى
فجأة قبل أن أفرغ من الاجابة على أسئلته ، بأنه عم ذلك الضابط ، وبأنه
قد استاء كثيرا من السلوك السيئ الذى سلكه معى ابن أخيه فعرضنى
لسوء السمعة فى المنزل كله ، وقال ان ابن أخيه صبى غر طائش العقل ،
وعرض على أن أكون فى حمايته ورعايته ، وأكد فى الوقت نفسه أن على
أن لا ألقى بالا الى الشبان ، مضيفا الى ذلك انه يقدر ظروفى ويعطف
على عطف الأب على ابنته ، ويشعر نحوى شعور الأب نحو ابنته ، وانه
على استعداد لأن يساعدنى فى كل أمر • فاحمر وجهى وتساءلت ماذا
يجب أن يكون رأيى فى هذا الكلام ، ولكننى لم أتسرع فأشكره • وماهى
الا لحظة حتى رأيت يده يمسك يدي عنوة ، ويلاص خدى ، ويقول اننى
فتاة جميلة ، وانه افقتن حين لاحظ أن لى نقرتين فى وجنتى (الله أعلم
ماذا قال فى هذا !) وأراد أخيرا أن يقبلنى بحجة أنه شيخ عجوز (ماكان

أبشعه !) وفي هذه اللحظة دخلت فيدورا • فاضطرب قليلا وعاد يؤكد مرة أخرى أنه يقدرني ويحترمني لما أتصف به من تواضع ولما يتصف به سلوكي من استقامة ، وانه يمني أن أثق فيه وأن لا أخشاه قط • ثم جذب فيدورا الى ركن من الاركان واراد أن يعطيها بعض المال متذعرا بحجج غريبة • ولكن فيدورا رفضت أن تأخذ المال طبعاً • وقرر الرجل أخيرا ان ينصرف ، لكنه جدد تأكيداته واعدا أن يعود مرة أخرى ، وأن يجيئني بقرطين (كان يبدو مضطربا هو نفسه) ونصحني أن أستبدل بشقتي شقة أخرى ، وأوصاني بمنزل وصفه بأنه جيد جدا وبأنه لن يكلفني أجرا • وصرح بأنه يشعر بكثير من العطف نحوي لانني فتاة شريفة عاقلة • ونصحني بأن أتجنب الشبان الذين فسدت أخلاقهم ، وذكر أنه يعرف أنا فيودوروفنا ، وانها كلفته بأن يبلغني انها ستزورني هي أيضا • فهمت في تلك اللحظة كل شيء • فتملكني غضب شديد حتى أصبحت كالمسورة • هذه أول مرة في حياتي أتعرض فيها لمثل هذا الموقف • صرخت في وجهه حانقة ساخطة • فاضطرب اضطرابا شديدا • وهبت فيدورا في تلك اللحظة الى نجدتي ، فأخرجته من البيت اخراجا يوشك أن يكون طردا • وخلصنا الى أن أنا فيودوروفنا هي التي دبرت الأمر كله ، والا فكيف له أن يعرفنا ! ••

أتوجه اليك الآن يا ماكار ألكسييفتش ضارعة أن تساعدنا • ناشدتك الله ألا تتركنا على مثل هذا الوضع ! اقترض مالا ، ولو مبلغا ضئيلا ، لأننا لا نملك ما ندفعه نفقات انتقال ، ومن المستحيل علينا قطعاً أن نمكث هنا بعد الآن • ذلك رأى فيدورا أيضا • لا بد لنا من خمسة وعشرين روبلا • سأردها اليك ، سأجنيها بعملى • ستأثني فيدورا بأشغال جديدة بعد بضعة أيام ، فاذا كنت مترددا عن الاقتراض لأن الفائدة باهظة مثلا، فلا توقنك هذه الصعوبة ، بل وافق على كل شيء • سأرد اليك المبلغ

كاملا ، ولكن ناشدتك الله لا تتركنى بلا سند • يحز فى نفسى طبعاً أن
أزعجك فى الظروف الحالية ، ولكنك الآن أملى الوحيد ، ولا أمل لى
سواك • وداعاً يا ماكار ألكسيفتش • فكر فىّ ، وليكلل الله مساعيك
بالنجاح •

ب • د

٤ آب (اغسطس)

بماتى ، عزيزتى فرارا الكسييفنا

ان هذه الضربات الكثيرة التى ياغتك بها القدر ترهقنى وتضينى •
ان هذه النوازل الرهيبة تهشم قلبى وتشل روحى • ان هذا الجنس من
المتطفلين الذين تعددت أنواعهم ومن الشيوخ العجز الذين يبعثون على
الاشمئزاز لا يشيعون الحزن واليأس فى قلبك وحدك يا ملاكى الرقيق ،
بل لقد آلوا على أنفسهم فوق ذلك أن يجهزوا علىّ أنا اجهازا كاملا •
ولسوف يصلون الى مبتغاهم ، هؤلاء الطفيلون ، أوكد لك ذلك • ذلك
أنتى أوتر الآن أن أموت جوعاً على أن لا أهب الى مساعدتك • اذا لم
أساعدك فذلك هو الموت عندى يا فارنكا ، الموت الاكيد ، الموت المحقق •
واذا أنا ساعدتك فستتعددين عنى ، ستطيرين الى بعيد يا طائرى الصغير ،
ستهجرين عشك الصغير الذى ياغتك فيه البوم الحقيقير يريد أن يقضى
عليك ضرباً بالمناكير • ذلك ما يعذبنى ويضينى يا ماتوشكا • ولكن كيف
أمكنك يا فارنكا أن تكونى قاسية هذه القسوة كلها أنت أيضاً ؟ ما هذا
الذى يدور فى خلدك ؟ انهم يضطهدونك ويهينونك ، فتألمين وتتعذبين

يا طائرى الصغير ، ثم اذا أنت ترديدن على ذلك فتجملين تلومين نفسك على أنك تزعجينى وتضايقينى . انك تعدين بأن تكدى فى العمل حتى تردى الدين ، فكانك ترديدن أن تقتلى نفسك قتلا ، وأنت على ما أنت عليه من سوء الصحة ووهن الجسم ، فى سبيل أن تسدد المال فى مواعيده . هلا فكرت يا فارنكا فيما تقولين ؟ لماذا تقدرين أن عليك أن تضاعفى جهدك فيما تقومين به من أعمال الحياطة ، وأن ترهقى نفسك ، وتعذبى روحك بهذه الهموم كلها ، وأن تتعبى عينك الجميلتين ، وتهدى البقية الباقية من قواك ؟ صحيح يا ملاكى أننى امرؤ لا يصلح لشيء ، ولكننى سأحاول أن أكون مفيدا لك على كل حال . سأذكر جميع العقبات . سأحصل على عمل اضافى فى خارج الوظيفة . سأنسخ لكتّاب كتر ، أفرض نفسى عليهم ، واجبرهم على أن يعهدوا الىّ بأعمال ، لأنهم فى حاجة الى ناسخين . ولكننى لن أسمح لك بأن تقتلى نفسك فى الشغل ، لن أرضى أن تنفذى مشروعك المقيت هذا . سوف أقترض مالا يا ملاكى الرقيق ، اطمننى . تطلين منى يا يمامتى أن لا يصدنى الربا الفاحش عن الاقتراض . ولكن ذلك لن يصدنى يا ماتوشكا ، لا لن أخاف ، لن يثينى أى شيء بعد الآن . سوف أطلب قرضا مقداره أربعون روبلا ورقا يا ماتوشكا . ليس هذا بكثير يا فارنكا ، أليس كذلك ؟ هل تقدرين أنهم سيقروضونى أربعين روبلا على الثقة ؟ هل يمكن أن يثقوا بى لأول وهلة ؟ هل أستطيع ، أعنى هل أستطيع فى رأيك أن أوحى بالثقة والاطمئنان دفعة واحدة ؟ أقصد : هل توحى بذلك هيئتى ، هل يوحى بذلك منظرى ؟ هل أحدث فى نفس من يرانى انطبعا حسنا ؟ حاولى أن تذكرى يا ملاكى الرقيق هل أحدث فى نفس من يرانى أثرا حسنا من أول نظرة ؟ هل يرتاح الىّ الناس حين يروننى ؟ ذلك أننى أشعر بنوع من الرهبة حين ألقى على نفسى هذا السؤال ، أشعر بخوف مرضى والحق يقال . من هذه الروبلات الأربعين

سوف أحفظ لك يا فارنكا بخمسة وعشرين ، ثم أعطى صاحبة البيت روبلين فضة ، أما الباقي فأنفقه على نفسي ، على حاجاتي أنا . صحيح أن المستحسن أن أعطى صاحبة البيت أكثر من ذلك ، حتى لقد يكون هذا ضروريا لا غنى عنه . ولكن فكرى فى الأمر أنت نفسك يا ماتوشكا . احسبى النفقات التى لا بد لى منها ، ترى انه يسنحيل على أن أنقذ صاحبة المنزل أكثر من روبلين فضة . غير وارد اذن أن أفعل ذلك ، ومن الأفضل أن لا نتحدث فيه . سوف أشتري حذاءين بروبل فضة . اننى أتساءل : هل يمكن أن يتماسك حذاءى القديمان حتى الغد ، هل يمكن أن أتعلهما لأذهب بهما الى المكتب فى الغداة . أحتاج أيضا الى عصبة للمعق ، ذلك أن العصبة العتيقة قد بليت منذ سنة . ولكن لما كنت قد وعدتني بأن تفصلنى لى عصبة من مازرك العتيقة ، بل وصدرة أيضا ، فانتى لا أفكر الآن فى شراء عصبة ولا صدرة . حلت اذن مشكلة الحذاءين والعصبة . أحتاج عدا هذا الى أزرار ، لأننى فقدت نصف أزرار سترتى . اننى لأرتعش حين أتصور أن صاحب المعالى قد يرى ما انا فيه من فوضى ! ما عساه يقول عندئذ يارب ! على اننى لن أسمع الملاحظات التى قد يديها فى هذه الحالة ، لأننى سأموت ، نعم سأموت على الفور ، سأموت خجلا وحياء وشعورا بالعار ! آه ما أقسى هذا يا فارنكا ! سيبقى لى اذن بعد كل هذه النفقات التى لا بد منها ثلاثة روبلات ورقاء وسيكفينى هذا المبلغ لأقيم أودى ، وكذلك لأشتري نصف رطل من التبغ ، لأننى لا أستطيع يا ملاكى الرقيق أن أعيش بلا تدخين : منذ تسعة أيام لم أضع الغليون فى فمى مرة واحدة . فى وسمى أن أشتري لنفسى هذا التبغ دون أن أقول لك ذلك ، ولكننى أخجل أن أفعل . أتعيشين أنت فى مثل هذا البؤس ، وتحرمين نفسك من كل شيء ، ثم أبدا أنا المال فى سبيل ملذات صغيرة تافهة ؟ لذلك تريننى أحدثك فى هذا الأمر الآن حتى

لا يرهقنى عذاب الضمير • يجب أن أعترف لك بصراحة يا فارنكا ،
اننى الان فى وضع هو الدمار بعينه ، وضع ما مررت بمثله فى حياتى
أبدا • ان صاحبة البيت تحقرنى ، وما من أحد يحترمنى • مصعب من
جميع الجهات ، ثم ديون وديون ، وفى المكتب ، حيث لم يكن زملائى
يجبوتنى كثيرا حتى قبل الآن ، ساء وضعى مزيدا من السوء يا ماتوشكا •
اننى أحاول أن لا يتبسه الى أحد ، فأنكمش على نفسى ، وأختبئ عن
الناس ، وأتسلل الى مكانى فى المكتب تسلا ، حتى أتجاسئ نظرات
الآخرين وحتى لا أرى شيئا أنا أيضا • هذه أمور لا أكاد أملك من
الشجاعة ما يمكننى من البوح بها ••• وما قولك اذا رفض أن يقرضنى؟
لا ••• لا ••• الأفضلى يا فارنكا أن لا أفكر فى هذا ، وأن لا أهدم قلبى
بمثل هذه الحواظر • ومن أجل ذلك انما أكتب اليك الآن •• لأجنبك
التفكير فى مثل هذا الأمر ، ولأوقيك العذاب الذى سوف تعائنه اذا خطر
بإلك فكرة سيئة كهذه الفكرة • يا رب ، يا رب ! ما عسى يحدث لنا فى
مثل تلك الحالة ؟ ما عسى يحدث لنا اذا رفض أن يقرضنى ؟ صحيح انك
لن تستطيعى الانتقال من بيتك عندئذ ، وانك ستظلين فى هذا المنزل ،
فتمكين قريبة منى غير بعيدة عنى • ولكن •• لا •• سوف أعجز حتى
عن العودة الى بيتى اذا أخفقت فى مساعى ، سوف أهلك نفسى عندئذ فى
مكان ما ، سوف أموت • لقد طالت رسالتى • ويجب على أن أخلق
ذقنى • ان من الأفضل أن يخلق المرء ذقنه ••• من المستحسن دائما أن
يعنى المرء بمظهره • أسأل الله أن يعيننا ويشد أزرنا • وسوف أصلى الآن
ثم أمضى الى مساعى •

م • ديفوشكين

ه آب (اغسطس)

السيد العزيز جدا ماكار الكسييفتش !

ليتك لا تعذب نفسك هذا التعذيب كله على الأقل ! أليس ما بنا من شقاء كافيا بدون هذا التعذيب الذي توقعه في نفسك ؟ أرسل اليك ثلاثين كوبكا فضة • يستحيل علىّ أن افعل أكثر من ذلك اطلاقا • فاشتر ما أنت في أمس الحاجة اليه حتى تعيش الى غد على كل حال • لم يبق لنا شيء تقريبا ، ولا أدري ما عسى يكون الغد • ذلك محزن ياماكار الكسييفتش • ولكن ليس يفيد في شيء أن تحزن هذا الحزن كله : لقد أخفق مسعاك ، فما حيلتنا وماذا نستطيع أن نفعل ؟ فيدورا تؤكد أن ذلك ليس بكارثة • ان في امكاننا أن نمكث في هذا المسكن الى حين ، ولن يجدينا كثيرا أن نتقل الى مسكن آخر على كل حال ، ففي وسعهم دائما أن يعشروا علينا اذا هم أصروا • ومع ذلك أرى أنه لا يستحسن أن نبقى هنا الآن • ولولا أنني حزينة جدا لكتبت اليك شيئا في هذا الموضوع •

غريب طبعك يا ماكار الكسييفتش ! انك تسرف في الأسى لأحزان الآخرين • وعلى هذا سوف تقضى حياتك كلها شقيا تيمسا الى أبعد حدود الشقاء والتعاسة • انني أقرأ كل رسالة من رسائلك بانتباه شديد ، فأدرك أنك تعذب نفسك من أجلى ، وأن الهموم تركبك في سبيلي ، وأن حزنك علىّ أشد من حزنك على نفسك في أي وقت من الأوقات • سيقول جميع الناس طبعاً انك رجل طيب القلب • أما أنا فأرى أن هذا اسراف في طيب القلب • ما أقوله الآن هو نصيحة من صديقة تخلص لك الود يا ماكار الكسييفتش ، أنا شاكرة لك ، شاكرة لك جدا ، جميع الجهود التي بذلتها في سبيلي • انني أعرف هذه الجهود ، وأشعر ازاءها بأعمق الامتان والتأثر • أنظر الى الأمر بنفسك واحكم فيه : انه ليحز في

نفسى ويؤلمنى أشدّ الألم أن ألاحظ ، بعد كل المصائب التى نزلت بك
والتى كنت أنا سببها على غير ارادة منى ، أنك ما تزال حتى اليوم لاتعيش
الابى ولى ، فكأن العالم كله قد خلا الا من أفراحي وأتراحي ونفسى .
لو كان على المرء أن يأسى هذا الأسى كله لما يقع لغرباء ، وأن يتعذب هذا
العذاب لآلام كل انسان من الناس ، لأصبح أشقى أهل الارض طرا .
حين جئت الى اليوم آيبا من مكتبك هالنى منظرک . كنت شاحب الوجه ،
مذعورا يائسا ، مشعث الهيئة غريب السحنة . لماذا ؟ لأنك كنت تخشى
أن تروى لى اخفاقك فى مسعاك ، لأنك كنت تخاف أن أحزن وأن
أقلق . حتى اذا لاحظت أننى مرتاحة تخففت من عبئك فجأة . لا تعذب
نفسك يا ماكار الكسييفتشس ، لا تنحدر الى هوة الحزن واليأس ، كن
عاقلا ، أرجوك ، أضرع اليك . لسوف ترى أن جميع الأمور ستتحل ،
وأن كل شىء سينتهى الى خير . والافلن تستطيع أن تعيش متألما لآلام
الآخرين هذا التألم دائما . وداعا يا صديقى . أضرع اليك مرة أخرى
ان لا تسرف فى القلق علىّ .

ب • د

• آب (أغسطس)

يمامتى ، عزيزتى فارنكا !

طيب ، يا فارنكا ، طيب . أنت ترين أن اخفاقى فى الحصول على
مال حتى الآن ليس بالكارثة الكبيرة . طيب طيب . هأنذا راض سعيد
امتثالا لأمرک . وانى لأفرح حين أتصور أنك أصبحت لا تفكرين فى

تركى أنا الشيخ العجوز الفقير ، وأنت باقية فى هذا المسكن . الحق ان قلبى طفق فرحا حين قرأت ما تقولينه فى رسالتك عن العواطف التى أكنها لك ، وحين رأيت انك تعرفين كيف تقدرين هذه العواطف حق قدرها . لا أتحدث عن هذا افتخارا ، بل لأننى أرى فيه برهانا على العاطفة التى تحمليها لى ما دمت تفلقين أيضا لما آلت اليه حالة قلبى . طيب يا عزيزتى ، ما لنا وقلبي الآن . دعينا من قلبى الآن . انك تأمريننى بأن أتجمل بالشجاعة . طيب يا ملاكى الرقيق . أنا أعلم انه لا بد للمرء من الشجاعة . ولكن فكرى أنت فى الامر يا ماتوشكا ، واقطعى فيه برأى : ما الحذاءان اللذان أذهب بهما غدا الى العمل ؟ تلك هى المسألة يا ماتوشكا . هذا أمر يمكن أن يقتل المرء قتلا ، يمكن أن يدمره تدميرا كاملا ؛ لا سيما وأنتى لا أتألم على نفسى فحسب ، ولا أتعذب من أجلى وحدى . ثم انه يستوى عندى أن أخرج بلا معطف ولا حذاءين فى هذا الجو البارد وهذا الصقيع المتجلد ، اننى قادر على احتمال ذلك ، مستعد لقبول كل شىء . فأنا انسان بسيط ، انسان صغير ، ولكن ما عسى يقول الآخرون ، يارب ، ما عسى يقول أعدائى ، ما عسى تقول هذه الألسنة الطويلة كلها ، حين أرى بلا معطف ؟ من أجلهم ، من أجل الناس ، انما يضطر المرء الى ارتداء معطف وانتعال حذاءين أيضا . من أجل الناس انما يتجمل المرء بهذه الأشياء ما فى ذلك ريب . فأنا اذن فى حاجة الى حذاءين ، يا روحى ، يا ماتوشكا ، صوناً لشرفى ومحافظة على سمعتى ؛ صدقى يا ماتوشكا أن الحذاءين الثقين يسيئان الى سمعتى وشرفى كليهما ، صدقى تجربة عجوز عاش طويلا وعرف العالم وبلا الحياة وخبر الناس . صدقى ما أقوله لك أنا ، لا ما يكتبه أولئك المخربشون الذين يسودون صفحات طويلة ويسمون أدباء .

لم أقص عليك ، يا ماتوشكا ، تفاصيل ما جرى أمس . لقد تأملت

كثيرا ، وعانيت من عذاب النفس في ذلك الصباح وحده أكثر مما عانيت خلال سنة برمتها • اليك ما حدث : نهضت من فراشي وغادرت البيت في ساعة مبكرة جدا من الصباح ، حتى أستطيع أن أجده في منزله وأن أصل الى عملي بعد ذلك دون تأخر • كان المطر يهطل ، وكان الشارع مليئا بالوحل • تذررت بمعطفي • ومضيت أسعى في الشارع وأنا أتمتم : « يا رب ، اغفر لي آثامي ، وهب لي النجاح في مساعي » ، حتى اذا مررت أمام كنيسة ن ، رسمت اشارة الصليب ، وأعلنت لله توبتي عن كل ما قارفت من شر ، وخطر بآلى في تلك اللحظة أنني لا أستحق أن أخطب الله • سرت منكفئا على نفسي ، لا أريد أن أنظر فيما حولى • سرت لا يعينى الطريق الذى أسلكه • كانت الشوارع مقفرة وكان المارة القلائل الذين أصادفهم يبدون مهمومين منهمكين : ولا عجب في ذلك ، فمن ذا الذى يخرج في مثل هذه الساعة ومثل هذا الجو متنزها ؟ والتقيت بجماعة من العمال متسخى الايدي ، أقبلوا علىّ يدفعوننى عابرين ••• يا لهم من أفظاظ غلاظ ! تركتني عندئذ شجاعتي ، واعترانى خوف ، حتى أصبحت لا أريد أن أفكر في المبلغ الذى يجب علىّ أن أقترضه ، ولا أجرؤ أن أفكر فيه ، وانما أسير ضاربا في الارض على غير هدى • وقرب جسر « الانبعاث » انفلت نعل أحد حذاءى حتى كاد يفصل عن الحذاء ، ولكننى تابعت سيرى لا أدرى كيف ! وهأنذا ألمح النساخ ارمولايف على حين فجأة سائرا في اتجاه هو عكس الاتجاه الذى كنت سائرا فيه • وقف ارمولايف أمامى ونظر الىّ وظل يتابعنى ببصره كأنه يتمنى لو يطلب منى بعض المال ليشرب به خمرا • قلت في نفسى عندئذ « هذا هو الأوان حقا ! » وكنت أشعر بتعب شديد ، فتوقفت أستريح بضع لحظات ، ثم تابعت سيرى • بحثت فيما حولى عن شيء يمكن أن أقف عليه تفكيرى نشدانا للسلوى وسعيا الى بث شيء من الشجاعة في نفسى • ولكننى لم

استطع الى ذلك سيلا : كان يستحيل ان اثبت افكارى على اى شىء •
يضاف الى ذلك اننى كنت قد اتسخت بالوحل اتساخا شديدا حتى صرت
استحى من نفسى • وأخيرا لمحت من بعيد بيتا خشبيا اصفر اللون له
دربزين • قلت لنفسى : « ذلك هو البيت الذى وصفه لى ايميليان
ايفانوفتش ، هنا يسكن ماركوف » (ماركوف هو الرجل الذى يقرض
يقائدة يا ماتوشكا) • نسيت فى تلك اللحظة كل شىء • ورغم ثقتى بان
منزل ماركوف هو هذا المنزل قطعا ، أردت أن أتأكد من ذلك ، فدنوت
من البواب وسألته « أهذه دار ماركوف يا أخ ؟ » فأجابنى بفظاظة وغلظة
كأنه كان غاضبا من أحد وكأنه كان يحسب كل كلمة يقولها : « نعم
هى دار ماركوف » يالهؤلاء البوابين ما اشد عبوسهم وتجهمهم ! وعلى أن
هذا كان لا يعينى فقد خلف فى نفسى اثرا مزعجا • هذه حقيقة صادقة
دائما : ان كل ما يقع لنا يناسب حالتنا النفسية ، فاذا كان المرء شجى
النفس معتكر المزاج ، فلا تقع له الا احداث مزعجة • مررت امام الدار
ثلاث مرات ، فكانت عزيزتى تخور مزيدا من الخور فى كل مرة • قلت
لنفسى : « لا ، لا ، سوف يرفض أن يقرضنى ، فهو أولا لا يعرفنى ،
وهو ثانيا لن يرضيه مظهرى » • وقلت أخيرا : « القدر هو الذى يقرر •
على الأقل لن ألوم نفسى على أننى لم أحاول • وما يُقتل المرء لأنه حاول » •
قررت آخر الأمر اذن أن أفتح الرتاج فى رفق • فما ان فعلت حتى
انقضت على نازلة جديدة : انه كلب شرير صغير • حيوان حقير غبى ،
غضب منى ، فأخذ ينبج بكل ما يملك من قوة ، لا يتوقف عن العواء
الحائق لحظة واحدة ! ••• يا له من كلب قذر ! ••• ان أمورا يسيرة
من هذا النوع ، ان أشياء صغيرة تافهة كهذا الشىء ، يمكن أن تجهز
على انسان ، ان تخرجه عن طوره أحيانا ، أن تبدد دفعة واحدة كل ما قد
عقد عليه العزم ! ودخلت الدار أقرب الى الموت منى الى الحياة ، وهناك

واقفتى مصيبة جديدة • اجتزت عتبة باب المدخل فى ظلام دامس ، فكنت لا أعرف أين أضع قدمى ، وكانت هنالك امرأة ، نعم امرأة ، تصب دلو من اللبن فى آنية ، فلما صدمتها أفلت الدلو من يديها ، فانسكب اللبن على الارض • طفقت المرأة تعول وتوعوع ! يا لها من حمقاء ! « هلا نظرت أين تسير يا عجوز ، عم تبحث هنا يا قرد ؟ » وانطلقت منها ألفاظ أخرى أيضا أخذت بعدها تتحجب فما تتوقف عن الانتحاب • أروى لك هذا كله يا ماتوشكا ، لأن هذه القصص تقع لى دائما فى هذا النوع من الشئون • لا بد لى دائما ، فى مثل هذه الحالة ، أن أشب فى شىء او فى أحد • وهرعت الى المكان عجوز شمطاء سمعت الصراخ • انها صاحبة البيت ما فى ذلك ريب • تقدمت اليها رأسا ، وسألتها : « أهنا يسكن السيد ماركوف ؟ » فقالت « لا » ثم نظرت الى من أخمض القدمين الى قمة الرأس ، فأضافت بعد ثانية أو ثابنتين : « ماذا تريد منه ؟ » ، فشرحت لها الغرض الذى جئت من أجله ••• قلت ان ايميليان ايميلتش ••• الخ الخ • « فأنا أحب أن أكلمه فى عمل » • فنادت العجوز ابتهاه وهى صبية شبت عن الطوق ، لكنها حافية القدمين ، وقالت لها « اذهبي فنادى أباك ، انه هناك عند المستأجرين • تفضل أيها السيد » • دخلت الغرفة • انها حجرة لائقة ، قد علقت على جدرانها لوحات هى صور جنرالات ، جنرالات فحسب ، وفيها ديوان ، ومنضدة مدورة ، وأصيص زهر • فلما لبثت وحيدا أخذت أفكر : « ماذا لو انصرفت ، ماذا لو ذهبت دون أن أنتظر التمة ؟ » يمينا يا ماتوشكا لقد تمنيت أن أهرب ! قلت لنفسى : « خير لى أن أعود فى الغد ، فسيكون الجو فى غد أفضل • خير لى أن أصبر قليلا ، فان هذا النهار غير ملائم ولا هو بمشجع : لقد سفحت دلو اللبن على الارض ، وهؤلاء الجنرالات المعلقة صورهم على الجدران عابسون كثيرا • خير لى أن أعود غدا » وفيما كنت أتجه نحو

الباب أريد الخروج ، دخل على الرجل • انه أشيب الشعر ، له عينا
وغد ، يرتدى ثوبا من ثياب المنزل ملطخا بالدهن والوسخ ، ويسد على
خصره جبلا اتخذه حزاما • سألتني عن الهدف من زيارتي ، فذكرت له
ان ايميليان ايفانوفتش هو الذي ارسلني اليه ، وانني في حاجة الى اربعين
روبلا ، وانني جئت اليه لأكلمه في هذا العمل ••• ولكنه لم يدع لي
أن أنهي كلامي ، وقرأت في عينيه فورا ان كل أمل قد ضاع • قال :
« لا داعي الى الكلام في أعمال ، فليس معي مال • أتراك تملك رهنا
تقدمه ؟ ، فأجبت بآني لا أملك ما أرهنه ، ولكن ايميليان ايفانوفتش •••
الخلاصة قلت انني في حاجة ملحة الى المال • اصغى الى كلامي في
هذه المرة حتى النهاية • فلما انتهت قال : « لا جدوى ، ليست القضية
قضية ايميليان ايفانوفتش • القضية أنه ليس عندي مال • هذا كل
شيء ••• » قلت لنفسى : الامر اذن كما قدرت ، كما توقعت ، كما تنبأت ،
وددت في هذه اللحظة لو تشق الارض فتبلعني • وشعرت بقشعريرة
تسرى في جسمي كله ، وأحسست بساقى تقصان ، وبظهري ينمل •
فنظرت اليه ، فرأيتَه ينظر الىّ هو أيضا وكأنه يقول : « مالك لا تنصرف؟
ماذا تنتظر بعد ؟ » لو كنت في ظروف غير هذه الظروف لمت في أرضي
خجلا وعارا • وسألني الرجل فجأة : « ما حاجتك الى هذا المال ؟ »
(لقد تجرأ أن يلقي عليّ هذا السؤال يا ماتوشكا) ، ففتحت فمي أهم
بالكلام حتى لا أبدو غيبا ، لكنه لم يشأ حتى أن يصغى الي ، بل كرر
يقول : « لا ، لا ، ليس عندي مال ، ولولا ذلك لقدمت لك هذه الخدمة
راضيا مسرورا • حاولت أن أقنعه ، فتكلمت وتكلمت ، قائلًا ان المبلغ
ليس بالمبلغ الضخم ، وانني سأرده اليه في موعده ، بل قبل موعده أيضا ،
وأضفت انني أقبل الفائدة التي يفرضها ، وانني سأرد اليه كل شيء ،
وحلفت له على ذلك • لقد انصرف ذهني اليك في تلك اللحظة يا ماتوشكا ،

فكرت فيما تقاسين من شقاء وعذاب ، فيما تلاقين من مصاعب ، فيما تعانين من بؤس ، وتذكرت أيضا نصف الروبل ذلك الذي أرسلته الى • صاحب الرجل يقول : « لا ، لا ، لا داعى الى الكلام على الفوائد ، كان يهون الأمر لو كان لديك رهن • أما بغير رهن فلا ••• وليس عندى مال على كل حال • يمينا ليس عندى مال ••• والا لكان يسرنى أن أقرضك شهد الله •• » تجرأ أن يحلف وأن يشهد الله ، يا له من لص ! •••

ذلك ما حدث يا ماتوشكا ، لا أتذكر الآن كيف خرجت من عنده ، ولا كيف قطعت حى فيسورج ، وانما وجدتنى بعد حين على جسر « الانبعاث » • كنت أشعر باعياء رهيب ، فأنا خائر القوى متجمد مرتعش ؛ ولم أستطع أن أصل الى مكتبى الا فى الساعة العاشرة • أردت أن أنظف نفسى قليلا فى الدهليز ، ولكن سينا جريف ، الحظير ، نبهنى الى أن ذلك محظور ، فقد أتلّف الفرشاة « والفرشاة ملك الدولة يا سيدى العزيز » هكذا قال • انهم يعاملوننى الآن على هذا النحو من المعاملة يا ماتوشكا ، أنا فى نظرهم أهون شأننا من حصيرة ، ذلك ما يرهقنى ويضينى يافارنكا • ليست مصاعب المال هى التى تقتلنى ، وانما تقتلنى هذه الاذلالات ، وهذه الهمسات ، وهذه الابتسامات وهذه السخريات ؛ وقد أرى صاحب المعالى يبدى ملاحظة من الملاحظات فى شأنى فى يوم قريب ! آه يا ماتوشكا ••• لقد انقضت الايام الجميلة ••• أعدت اليوم قراءة رسائلك الى • ألا ما أتعسنى يا ماتوشكا ، ألا ما أشقانى ، وداعا يا صديقتى العزيزة ، والله أسأل أن يحميك ويرعاك •

م • ديفوشكين

حاشية : حاولت أن أقص عليك المصيبة ساكبا فيها شيئا من فكاهة ودعابة • ولكننى لم أظفر بذلك فى هذه الساعة • لقد

أردت أن أعمل بنصائحك • سأجىء اليك يا ماتوشكا ،
سأجىء حتما •

١١ آب (أغسطس)

فرارا ألكسييفنا ، يمامتى ، ماتوشكا ، لقد ضعت ، ضعنا كلانا ،
ضعت أنا وضعت أنت ، ضياعا لا خلاص منه ، ولا عودة عنه ، سمعتى
••• كرامتى ••• كل شىء انتهى الآن • سوف أهلك ، وسوف تهلكين
أيضا يا ماتوشكا • سوف نهلك معا ، ولا أمل لنا فى نجاة ، وأنا الذى
قدتلك الى هذه الهاوية ، نعم أنا ••• انهم يستهزئون بى يا ماتوشكا ،
انهم يحقروننى ، انهم يجعلوننى أضحوكة ••• أخذت صاحبة البيت
تهينتى وتستمنى بلا حرج • صرخت فى وجهى اليوم ، قدفتنى بكل
ما يخطر على البال من ألفاظ ، عاملتى كما لا تعامل الارض • وفى المساء
أخذ أحد أصدقاء راتازايف يقرأ بصوت عال مسودة رسالة كنت قد
كتبتها لك ثم سقطت من جيبى سهوا • لا تستطيعين يا ماتوشكا أن تتخيلي
السخريات التى سمحوا لأنفسهم بها فى هذا الأمر • لقد ضحكوا ملء
أشداقهم ، هؤلاء الخونة ، وقالوا عنا ما يقال وما لا يقال من غمزات
ولمزات • هرعت الى غرفتهم أخجل راتازايف • لمته على انه خان
الصدقة • قلت له انه خائن • ولكن راتازايف هذا أجابنى بأننى أنا
الخائن ، لأننى أقوم بغزواتى سرا • قال لى : « لقد أخفيت عنا الحقيقة ،
فما أنت الا غاو عتيق ، ما أنت الا لوفلاس مخنك ! » انهم جميعا يطلقون
على الآن اسم لوفلاس ، ولا ينادوننى الا بهذا الاسم ، ولا يعرفوننى الا
بهذا الاسم ، فهل تفهمين يا ملاكى الرقيق ، هل تفهمين ؟ انهم على علم

بكل شيء ، انهم يعرفون الآن كل شيء . يعرفون كل شيء عنك أنت أيضا يا صديقتي العزيزة ! يعرفون تفاصيل حياتك . فهموا كل شيء ، وهذا لله كان يمكن أن يهون . ولكن فالدوني ، الخادم ، يشاركهم . طلبت منه اليوم أن يذهب الى البقال ليشتري لي بعض الاشياء ، فرفض أن يذهب بحجة انه مشغول ، فلما قلت له « من واجبك أن تطيع » أجابني بقوله : « لا ، ليس من واجبي أن أطيعك أنت أيها السيد » . حتى اذا لم أطق احتمال هذه اللهجة الجارحة من هذا الفلاح الجاهل فوصفته بأنه غبي قال لي « اذا كنت أنا غبيا مرة فأنت غبي مرة ونصفا » . فقدرت انه سكران ، وأن الخمرة هي التي جعلته وقحا هذه الوقاحة كلها ، فقلت له : « لا شك أنك سكران أيها الوقح » فلم يتورع أن يجيبني بقوله : « أكان يمكن أن أشرب خمرا بمالك ؟ أنت لا تملك ما تشرب به كأسا صغيرة . أنت تستجدي دريهمات من امرأة » . وأضاف قوله : « ويعد نفسه بعد ذلك سيدا ! » . انظري أين صرت الآن يا ماتوشكا . لقد أصبحت أستحي أن أحيا يا فارنكا . صرت كالمذنب الذي شد الى عمود تشهيرا به وفضحا له . هويت الى أدنى ما يهوى اليه متشرد بغير جواز سفر ! يا لها من محن ! يا لها من محن رهيبية ! لقد سقطت ، سقطت سقوطا كاملا ! ضعت ، ضعت ضياعا لا عودة عنه .

•••

١٣ آب (أغسطس)

عزيزي الغالي جدا ماكار ألكسييفتش !

جميع المصائب تهبط علينا . أصبحت لا أدري ما الذي سأصير اليه . ما عسك صانعا الآن ؟ ذلك اننى لا أستطيع أن أفيدك فى شيء الآن . لقد

احترقت يدي اليسرى باللكوة اليوم • سقطت اللكوة منى غفلة فأحدرت
يدي وأحرقتها ••• أحدرتها وأحرقتها فى آن واحد • يستحيل على أن
أعمل الآن •

أما فيدورا فهى مريضة منذ ثلاثة أيام • اننى قلقه قلعا فظيما •
أرسل اليك ثلاثين كوبكا فضة • لم يبق لنا شيء تقريبا ، ومع ذلك ، يعلم
الله كم أتمنى أن أساعدك على مصاعبك الراهنة • أكاد أبكى أسفا
وحسرة • الوداع يا صديقى • لسوف يعزىنى كثيرا أن تزورنا اليوم •

١٤ آب (أغسطس)

ماذا دهالك يا ماكار ألكسييفتش ؟ ناشدتك الله قل لى ماذا دهالك ؟
أأنت لا تخاف الله اذن ؟ انك توشك أن تفقدنى عقلى تماما ، عار عليك !
انك تضع نفسا تضييعا كاملا ، هلا فكرت فى سمعتك على الأقل ؟ أنت
رجل شريف النفس نبيل القلب ذو أنفة وكبرياء • فما عسى يحدث
إذا عرف جميع الناس سلوكك ؟ لن يبقى لك عندئذ الا أن تموت خجلا
وحياء وشعورا بالعار ! هلا رحمت شعرك الأثيب ؟ هلا خشيت الله ؟
لقد صرحت فيدورا بأنها لن تساعدك بعد اليوم أبدا • ولن أعطيك أنا
قرشا واحدا فى المستقبل • انظر الى أين قدتنى يا ماكار ألكسييفتش !
أتظن أنه يستوى عندى أن تكون جيد السلوك أو سيىء السلوك ؟ انك
ما تزال تجهل ما أعانيه بسبيك ! لقد أصبحت لا أجروء أن أظهر على
سلم الدار : فجميع الجيران يفرسون فى وجهى ويومئون الى بأصابعهم
ويذيعون عنى أشياء فظيعة ، بل ولا يتورعون أن يقولوا « اننى هائمة
غراما بسكير » ! أتظن ان سماع مثل هذه الأقوال أمر ممتع ؟ حين يؤتى

بك الى البيت سكران فان جميع سكان المنزل يهزون أكتافهم احتقارا ويشيرون اليك قائلين : « هو ذا يعيدونه الى بيته ! » اننى أستحى عنك ، فلا أعرف ماذا أقول . يمينا لأتركن هذا البيت ، لأعملن خادمة فى أى مكان . أما أن أبقى هنا فمستحيل . كتبت اليك أرجوك أن تأتى الينا فلم تفعل . ان دموعى وآهاتى لا تأثير لها فيك اذن يا مكار ألكسيقتش ! ومن أين حصلت على مال تشرب به خمرا ؟ ارحم نفسك ناشدتك الله ! لسوف تهلك ، لسوف تهلك هلاكا سخيفا ! وباله من عار فوق ذلك ، يا له من تلطix للشرف ! ان صاحبة بيتك لم تدع لك أن تدخل فى مساء أمس ، فاضطرت أن تقضى الليل فى الدهليز . أعرف كل شىء . لا تستطيع أن تتخيل ما أعانى من آلام حين أعلم بهذه الامور . تعال الينا يا مكار ألكسيقتش ، لسوف تسلى عندنا . سوف نقرأ معا ، وسوف نستحضر بعض الذكريات . ستقص علينا فيدورا قصص أسفارها الى الحج . ارحمنى يا صديقى العزيز ، لا تضيع نفسك ، ولا تقدنى الى الضياع أيضا . أنا لا أعيش الا لك . ومن أجلك انما أبقى هنا . اعلم هذه الحقيقة وتصرف على هديها . كن كريما على نفسك ، واصمد للشقاء . تذكر القول المأثور : ليس الفقر عيبا . وفيم اليأس على كل حال ؟ لسوف تنقضى هذه الهموم وهذه المتاعب . وسوف تصلح الحال بعون الله . وانما يجب عليك الآن أن تصبر . أرسل اليك عشرين كوبكا ، فاشتر تبغا واشتر ما تشتهى ، ولكن لا تنفق هذا المال فى الانهم! ناشدتك الله ، تعال الينا ! تعال حتما ! قد تكون خجلاان منا ، فما تحب أن تظهر أمامنا . تغلب على هذا الشعور . هذا خجل زائف . يكفي أن تتوب توبة صادقة . ضع أملك فى الله يصلح الله أمرك .

فرارا الكسييفنا ، ماتوشكا !

أنا أشعر بالخجل ، يا طائري الجميل ، يا فرارا الكسييفنا ، أنا أشعر بالعار . ولكن هل ما فعلته أمر خارق يا ماتوشكا ؟ أى ضمير فيه ؟ لماذا يكون حراما على المرء أن يفرح نفسه قليلا ، وأن يتيح لقلبه شيئا من الانسراح ؟ اننى حين أشرب أنسى التفكير فى نعل حذائى . والنعل شىء تافه ، وسيظل الى الابد تافها وضيعا قدرا باليا . بل ان الحذاء نفسه شىء حقير ، كان حكماء اليونان لا يتعلمون أحذية . لماذا يجب علينا نحن أن نهتم كل هذا الاهتمام بشىء هين هذا الهوان ؟ هل فى هذا ما يدعو الى نقدى واهاتى ؟ هل فى هذا ما يدعو الى احتقارى ؟ ايه يا ماتوشكا يا ماتوشكا ! لشد ما أظهرت فى رسائلك من قلق لهذا الامر ! أما فيدورا فقولى لها على لسانى انها امرأة تافهة مضطربة مفتونة بالفضائح ، وانها الى ذلك غبية جدا ، غبية غباء لا سبيل الى مغالته . كلمة أخرى فى موضوع شعري الشائب : لقد أخطأت فى هذه النقطة أيضا يا عزيزتى الغالية ، لأننى لست أبدا ذلك الشيخ الهرم الذى تتصورين . ايميليان يبعث اليك بتحياته . كنت تقولين فى رسالتك انك حزنت حزنا شديدا وانك بكيت ، فاعلمى اذن اننى حزنت حزنا شديدا أيضا واننى بكيت أيضا . وفى الختام أتمنى لك أن تكونى فى صحة جيدة وأنت تكونى راضية مسرورة . أما أنا فاننى فى صحة جيدة واننى راض مسرور ، وما زلت يا ملاكى اللطيف صديقك :

ماكار ديفوشكين

سيدتى وصديقتى العزيزة فرارا ألكسييفنا !

أحس بأننى مذنب ، أشعر بأننى آثم فى حقلك • ولكننى لا أرى أية فائدة فى الاعتراف لك بذلك كله يا ماتوشكا ، مهما تقولى ! حتى قبل أن أرتكب الاثم ، كنت أعرف ذلك ، وكنت أحس ذلك • ولقد تدهورت وهويت الى الحضيض لشعورى بخطيئتي • ماتوشكا ! أنا لست شريرا ولا قاسيا ، ومن يشأ يا يمامتى أن يعذب قلبك الصغير المعبود ، لا بد أن يكون نمرا كاسرا على الأقل • وأنا امرؤ لى نفس كنفس الحمل وداعة ، وليس بى ميل الى الوحشية الدموية كما تعلمين • ينتج عن ذلك ، يا ملاكى اللطيف ، أننى لست مسئولاً عن سلوكى تماما ، فلا قلبى ولا فكرى يتحمل تبعه هذا السلوك • فاذا سألتنى من الجانى اذن ، قلت لك لا أدرى من الجانى فى حقيقة الامر • تلك قصة سوداء مظلمة ، قصة غامضة ياماتوشكا • لقد أرسلت الى ثلاثين كوبكا فضة ، ثم أرسلت الى عشرين كوبكا بعد بضعة أيام : فأخذ قلبى يئن حين نظرت الى هذه القروش تتصدق علىّ بها يتيمة فقيرة • لقد احترقت يدك ، وبعد قليل لن يكون معك ما تسدين به رمقك ، ثم أنت تبكين طالبة الىّ أن أنترى لنفسى تبغا • فماذا كان يجب علىّ أن أفعل فى هذه الحالة ؟ هل كان يجب علىّ أن أرضى بسلبك مالك كما يفعل لص من قطاع الطرق ، وأن آخذ هذا المال دون أن يعذبنى ضميرى أيتها اليتيمة المسكينّة ؟ لقد فقدت عندئذ شجاعتي يا ماتوشكا ، وخارت قواى ، أعنى اننى أحسست فى أول الامر على غير ارادة منى ، اننى لا أصلح لشيء ، واننى أنا نفسى لا أفضل نعل حذائى ، فرأيت اذن انه من غير اللائق أن أقدر نفسى أى تقدير ، وأن أهب لنفسى أى اعتبار ، وأيقنت اننى أتفه من التفاهة ، وأننى شيء مخجل ،

شيء حقير لا كرامة له • فلما فقدت احترامى لنفسى على هذا النحو ،
واستسلمت لانكار مزاياى وكرامتى ، شعرت اننى قد ضعت • وكانت
تلك اللحظة هى لحظة السقوط ، السقوط الذى لا مهرب منه • ان القدر
هو الذى أراد ذلك • نعم هو القدر • ولا يدلى فى الامر ، ولا حيلة
لى فيه ، ولست أنا الجانى • خرجت من المنزل أنشد استنشاق الهواء
فحسب • ولكن كل شيء كان يساهم فى دفعى الى الشقاء ذلك اليوم .
الطبيعة تبدو شديدة الحزن والأسى والشجن ، الجو بارد ، والمطر ينهمر •
وكان طبيعيا أن أجد ايميليان فى طريقى ••• ذلك أمر لا مفر منه • كان
ايميليان قد رهن كل ما يملك للحصول على قروض لم يلبث أن أنفقها •
فلما التقيت به لم يكن قد أكل شيئا منذ يومين ، وكان يفكر فى رهن
أشياء لا يستطيع المرء حقا ان يرهنها ، فما هى بالأشياء التى ترهن • فماذا
تريدين يا فارنكا ؟ لقد خضعت ••• خضعت لا استسلاما لميل شخصى ،
بل رحمة بالانسان • هكذا سقطت فى الاثم يا ماتوشكا ، ما أكثر ما بكينا
معا يا ماتوشكا ، أنا وهو ! ••• وتكلمنا عنك • انه انسان طيب ، انسان
له قلب مرن ذهب ، انسان حساس جدا • انى أشعر بذلك شعورا قويا
كثيرة تنزل بى ••• ان
س بالامور احساسا قويا ••• أنا أعرف
بمبنى • اننى منذ عرفتك أخذت أعرف نفسى معرفة
• ، وأصبحت أحبك مزيدا من الحب يوما بعد يوم • كنت
، يا ملاكى الرقيق ، انسانا منعزلا ، انسانا لا يعيش حقا ،
••• سانا يشبه ان يكون نائما • كانوا جميعا ، أولئك التعساء ، يزعمون أن
لى دماغا متحجرا ، وكانوا يهزمون بى ويسخرون منى صراحة ، حتى
صرت أحتقر نفسى بنفسى • كانوا يؤكدون اننى غبى أبله ، حتى صدقت
اننى كذلك فعلا • فلما ظهرت لى ، أضأت وجودى كله ، وغمرت بالنور

حياتي المظلمة القائمة • صار كل شيء فيّ عندئذ مضيئا : قلبي وروحي ؛
وأخذ كل شيء يشع • وفزت بالطمأنينة الداخلية حين أدركت بفضلك
انني لست أسوأ من غيري • فليس يعوزني الا البريق الخارجي ، وشيء
من اللعان والمظهر ، ولكنني انسان بالقلب والفكر • حتى اذا أدركت
أخيرا ، وا أسفاه ، أن القدر يهجم على ويفتك بي رغم كل شيء ؛ حتى
اذا اندفعت ، وقد أذلتى القدر ، فأنكرت عزة نفسى وكرامتى ، غلبنى
الشفاء على أمرى ، وأرهقتنى الكوارث تلو الكوارث ، فبخارت عزيزتى
وهويت الى قاع اليأس • أما وقد عرفت الآن كل شيء يا ماتوشكا ،
وعرفت كيف حدث لى ذلك الامر ، فانى أضرع اليك دمع العينين أن
لا تلجى مزيدا من الأحاح ، وأن لا تلقى على أسئلة جديدة فى هذا
الموضوع ، فان قلبى ليمزق ، وانى لأشعر بمرارة ثقيلة وحسرة
لا تطاق •

وأنا اذ أعبر لك عن احترامى يا ماتوشكا ، أبقى صديقك الامين
الوفى :

ماكار ديفوشكين

٣ ايلول (سبتمبر)

لم أكمل رسالتى السابقة يا ماكار ألكسييفتش ، لأننى كنت حزينة
حزنا شديدا • لم أملك القدرة على مواصلة الكتابة • تمر بى لحظات
أحب فيها أن أكون وحيدة أستسلم لحزنى وكآبتى دون أن يرانى أحده
وقد أصبحت هذه اللحظات تكثر فى حياتى يوما بعد يوم • ان فى ذكرياتى
شيئا يصعب تفسيره وتعليه يجذبنى اليها جذبا لا سبيل الى مقاومته ، جذبا

يلعب من القوة انه يتفق لى فى بعض الاحيان أن أبقي ساعات طويلة
لا أشعر بشيء مما حولى ، وأسى الحاضر نسيانا تاما . ان كل شعور فى
حياتى الراهنة ، سواء أكان بهيجا أم أليما أم كئيبا ، يوقظ فى نفسى
العواطف التى تماثله من حياتى الماضية . والى عهد طفولتى ، الى عهد
طفولتى الذهبى ، انما ينصرف ذهنى وتنصرف أحلامى عندئذ فى أكثر
الاحيان ، وبعد هذه الاحلام أشعر دائما بارهاق شديد . لقد أصبحت
ضعيفة ، فالاحلام النفسية تضينى ، وذلك يفاقم ما أنا فيه من تضعف
الصحة ووهن العافية .

ولكن الصباح فى هذا اليوم مضى نير تذهبه الشمس بأشعتها وقلما
نرى له مثيلا هنا فى الخريف ؛ وقد بث هذا الحياة فى نفسى وأنشها ،
فاذا قلبى فرح منذ نهضت من فراشى . هو الخريف اذن قد وصل !
لشد ما كنت أحب هذا الفصل من فصول السنة فى الريف ! لقد كانت
حياتى النفسية غنية غنى كبيرا فى ذلك الحين ، رغم اننى كنت ما أزال
طفلة . كنت أوثر أماسى الخريف على أصبحه . أتذكر الآن بحيرة
صغيرة كانت تقع فى سفح رابية ، غير بعيدة عن منزلنا . اننى أتذكر هذه
البحيرة حتى لكأننى أراها بعينى فى هذه اللحظة : كانت واسعة كبيرة ،
هادئة رائعة ، صافية مضيئة كأنها البلور ؛ كان سطحها يبدو ساكنا سكونا
تاما فى بعض الاحيان متى كان المساء هادئا . ما من ورقة على الاشجار
التي تحف بشطآنها تتحرك . الماء يشبه أن يكون غافيا ، فهو راكن كأنه
مرآة . الهواء طرى ، يكاد يكون باردا . والندى يحط على العشب .
وأضواء تشتعل فى الأكواخ عند الشاطىء . قطعان الماشية تثوب . تلك
هى الساعة التى كنت أحب أن أتسلل فيها من المنزل فأمضى قرب بحيرتى
أحلم وأغرق فى تأملات صامتة . هذه نار حطب جاف تحترق فى كوخ
أحد الصيادين قرب الماء ، وهذا ضوء اللهب ينعكس سحائب سحائب على

صفحته • السماء تبدو باردة ، زرقاء زرقة عميقة ، تقطعها أخاديد متوهجة عند الأفق ، ثم تصفر الأخاديد شيئاً بعد شيء • الهلال يظهر في السماء • الهواء يشبه أن يكون له رنين • يكفي أن يطير عصفور على حين فجأة ، أو أن تنزلق حصى تدفعها نسمة خفيفة ، أو أن تنبجس على سطح البحيرة سمكة تصفق الماء ، حتى يسمع المرء هذه الاصوات كلها • وكان الظلام يتكاثف شيئاً فشيئاً في بعيد ، فكل شيء يبدو كأنه يفرق هناك في ضباب ، بينما يصبح للأشياء القريبة حواش أوضح وحدود أدق كأنها مقسودة قدا بسكين • ان كل شيء يظهر عندئذ بنا مجلوا : القارب الصغير المنسي قرب الشيطان ، الجزيرات الصامتة المثورة هنا وهناك ، البرميل المهجور في مكان على ضفة البحيرة • ومن حين الى حين تهب نسمة فتغضن صفحة البحيرة ، ويرتجف غصن من أغصان السيس الصفراء الاوراق بين أعواد القصب • وهذا طائر متأخر من طيور السميح يطير على حين فجأة ، ثم يغطس في الموجة الباردة ليستأنف بعد ذلك طيرانه سافقا جناحيه الى أن يختفي في الضباب ••• كنت أتأمل حالمة ، وأصفي اصغاء شديدا • ما أعذب الجو في تلك اللحظات ! وما أعظم ما كنت أشعر به من سعادة ! كنت أيامئذ صبية صغيرة • كنت أحب الخريف حبا جما حين يتقدم الفصل فيجنى الفلاحون قمحهم ويفرغون من أعمالهم في الحقول • ذلك أوان السهرات الطويلة الجميلة داخل الاكواخ بانتظار الشتاء الذي يقبل • الطبيعة تصطبغ عندئذ بألوان قاتمة ، والسماء الجلمة تغشاها غيوم مظلمة ، والأوراق الصفراء تتراكم فتشكل بسطا رخوة عند أطراف الغابات المعراة ؛ الحرج يزرق في أول الامر ثم يصير الى سواد ولا سيما عند المساء ، حين يسقط بخار رطب فتنبجس الاشجار من الضباب انبجاس عمالقة ، في منظر من أشباح مرعبة • كان يتفق لي أحيانا أن أتلبث أثناء نزهة من النزهات ، فاذا أنا أراني متخلفة وحيدة على حين

فجأة • كنت عندئذ أعذ الخطى خائفة ، وأرتعش ارتعاش ورقة فى مهب
الريح ، وقد تملكنى زعر شديد من تصور شيخ رهيب أو عملاق شرير
قد ينبجس من وراء جذوع الأشجار المخيفة بين لحظة وأخرى • وكانت
الريح ترعش الغابة على حين بفتة فتملؤها همهمة صماء فى أول الامر ،
ثم تتسع الهمهمة وتتكاثر محتاجة أرجاء الغابة شيئا بعد شيء ، مثيرة فى
جميع الجهات آهات حزينة وأنان غامضة • والريح فى جريانها المستميت
تهوى على الأغصان المستدقة فتززع عنها أوراقها الصغيرة بفتة ، وتجرفها
أمامها فى زوبعات غضبي حائقة • وهذه أسراب من الطيور تهب على
حين فجأة كأنها مدعورة ، فتجرى وراء الأوراق الميتة وهى تطلق صرخات
حاددة ، وتشكل جموعها الكثيفة سحائب طويلة تسود السماء وتحجبها
تماما • ما أشد الخوف الذى كان يخنق صدرى فى تلك اللحظات ! كان
يخيل الى عندئذ اننى أسمع صوتا يدمدم على مقربة منى قائلا : « اركضى ،
اركضى ، اهربى أيتها البنية ، لا تتلبى فى هذا المكان ، لأن أمورا رهيبة
تهب هنا ، اركضى ، اسرعى ، فرى ، فكان الهلع يشلنى شلا ، وكان
قلبي يأخذ يخفق خفقانا شديدا ، وكنت أطلق ساقى فى الريح مسرعة
فى الجرى ما أمكننى الاسراع ، فما أصل الى المنزل الا وقد تقطعت
أنفاسى من اللهاث • الغرفة ممثلة صعبا ومرحا • الاطفال توزع عليهم
أعمال سهلة ، فهم يقشرون الباسلاء أو يقشرون خضارا أخرى ؛ وعيدان
من خشب طرى رطب تططقق فى المدفأة • وكانت المربية المعجوز أوليانا
تحدثنا عن الزمان الماضى ، وتقص علينا حكايات مرعبة يدور فيها الكلام
على ساحرات وعلى أرواح عائدات من العالم الآخر • فكنا نحن الاطفال
نتراص وتتقارب متلاصقين ، مبسمين ابتسامة من يشعر بالامن والطمأنينة •
ولكننا نصمت على حين فجأة قلقين : « هس ••• ما هذا الصوت ؟ كأن
أحدا يقرع الباب » • ولكن لا شيء من ذلك ••• وانما هو مغزل

العجوز فلوروفنا يدمدم دمدتمه الهادئة • ما كان أشد الضحك الذى
ينفجر عندئذ فى رهطنا ؟ ثم كان يتفق لنا ألا نستطيع سبيلا الى النوم
فى الليل ، لأن مخاوف عجيبة تستبد بنا أو لأن أحلاما مرعبة تلاحقنا •
وكنا نستيقظ أحيانا فما نجرؤ أن نتحرك بل نظل ساكين تحت أغطيتنا
مرتعشين • ولكننا نهض فى الصباح نضرين نضارة الزهور • ونلقى
نظرة نحو النافذة فنرى البرية فى خارج المنزل قد تجلدت ، ونرى
صقيا دقيقا قد تعلق بالأغصان العارية ، ونرى طبقة من الجليد رقيقة
كالورق قد فرشت صفحة البحيرة ، ونرى يخارا أبيض يتصاعد على
سطحها ، ونرى أسراب العصافير تطير فى السماء وتملأ الهواء زقزقات
فرحة • الشمس ترسل أشعتها الساطعة فى جميع الجهات ، فتسقط على
طبقة الجليد الرقيقة فتحطمها تحطيم الزجاج • كل شىء مضى فرح
نير • وتعود النار تزفر فى الموقد • وتتعلق حول السماور ، ثم تأخذ
نضحك متى ظهر لنا من وراء الزجاج ذلك البوز الاسود ، بوز كلبنا
بولكان الذى ترتعد فرائصه من البرد لأنه قضى الليل فى الخارج ، والذى
أخذ يحيينا محركا ذيله فى فرح • ويمرُق أمام نوافذنا أحد الفلاحين
مسرعا ، على عربة يجرها حصان قوى • انه ماض الى الغابة ليحجى منها
بشىء من حطب • انا نشعر جميعا برضى عظيم وسعادة كبيرة ! ••• لقد
كان المحصول وافرا ، والقمح يتكدس فى الحبوب حيث تسطع تحت
ضوء الشمس يادر ضخمة يغطيها القش • انها للذة أن يرى المرء هذه
اليادر ؟ يشعر المرء عندئذ بطمأنينة وثقة وسعادة : لقد وهب الله لكل
واحد رزقا طيبا • فالجميع يعلمون أن الخبز لن يعوزهم فى هذا الشتاء •
الفلاح الصغير يعرف أن امرأته وأولاده لن يجوعوا فى أيام البرد
الشديد • لذلك فالفتيات ما تنفك تطلق أغانيها الراعشة فى السهرات
الطويلة مدوية بغير انقطاع ، وما تنفك جوفاتها تصاحب حلقات الرافسين

في أحواش المزارع بلا توقف • ولذلك أيضا تخضل الأعين في الكنيسة
يوم الاحد شكرا للمخالق على ما وهب وأعطى ••• ألا ما كان أجمله من
عهد ، ذلك العهد الذهبي من طفولتي !

هكذا رأيتي أبكي فجأة بكاء طفلة ، بعد استرسالى في استحضار
تلك الذكريات كلها • رأيت ذلك الماضى رؤية واضحة جدا ، جلية
جدا ، دقيقة جدا ، وانبثق هذا الماضى في نفسى مضيئا ذلك الضياء كله ،
بينما الحاضر حالك هذه الحلقة ، مظلم هذا الظلام ••• ترى كيف
يتمهى هذا كله ؟ كيف ينتهى هذا كله ؟ يراودنى فى بعض اللحظات
يقين قوى يشبه أن يكون رؤية ، بأننى سأموت فى هذا الخريف • أنا
فى الواقع مريضة جدا ، مريضة جدا جدا • اننى أفكر فى الموت كثيرا ،
ولكننى لا أريد أن أموت هنا ، لا أريد أن أدفن فى هذه الارض غير
الكريمة • من يدرى ؟ قد اضطر الى ملازمة فراشى قريبا ، كما حدث
فى المرة الماضية ابان الربيع ، مع أننى لما أبرأ من مرضى تماما بعد • فى
هذه اللحظة مثلا أشعر بوهن شديد جدا • لقد غابت فيدورا طول النهار
لشؤون تخصصها ، فقتت فى البيت وحيدة • وقد أصبحت أخشى الوحدة
ور دائما أن فى العرفة أحدا لا أراه ،

• • يحدث لى هذا خاصة بعد أن استرسل فى
، ثم ارتد فجأة الى الواقع الراهن • ان غما ثقيلًا يعترينى
ى ر بده اللحظات ، فأشعر بخوف شديد • لذلك ترانى أبعث اليك
اليوم برسالة طويلة هذا الطول كله •

ان تلك المخاوف تتبدد وتزول حين أكتب • أودعك الآن خاتمة
هذه الرسالة ، فلم يبق عندى ورق ، وليس يتسع وقتى لمزيد من الكتابة
على كل حال • نفذ ما حصلت عليه من بيع ثيابى وقبعتى الصغيرة ، فلم

يبق لي منه الا روبل واحد فضة • أحسنت اذ دفعت الى صاحبة البيت
روبلين • ستهداً الآن بعض الوقت •

يجب عليك أن تدبر أمرك بحيث تصلح رداءك قليلا • أستودعك
الله • اننى متعبة مرهقة • لا أدري لماذا أصبحت واهنة هذا الوهن كله •
ان أيسر جهد يرهقنى • ماعسانى فاعلة اذا جاءنى شغل ؟ ان ذلك كله
يقتلنى قتلا فى الواقع •

ب•د

• ايلول (سبتمبر)

يمامتى ، عزيزتى فارنكا !

عانيت اليوم مشاعر مختلفة • أولاً : لم يفارقنى الصداع لحظة طول
النهار • ومن أجل أن أخفف عن نفسى قليلا مضيت أتتره على شاطئ •
فوتانكا • المساء مظلم رطب • لقد هبط الليل منذ الساعة الخامسة • ولم
تكن السماء ممطرة ، ولكن الضباب لا يقل عن مطر غزير • ان سحبات
كبيرة مستطيلة تنزلق على السماء • وكان رصيف القناة يزدحم بالناس •
وكان جميع هؤلاء الناس يلوح فى وجوههم المرعبة حزن شديد وعبوس
قاس ، فكان ذلك يفرق المرء فى جو من الكآبة والأسى : فلاحون سكارى ،
نساء ثرثارات فطس الأنوف يتعلنن أحذية لكن رؤوسهن عارية ، عمال ،
حوزيون ••• وهنا وهناك رجل ينحث الخطى وراء عمل من الاعمال ،
وصيبة صفار ، وأجير فقال بمعطف مخطط ، له وجه ضامر سوده
الدخان ، يحمل فى يده قفلا • وبعد ذلك بقليل جندى محال على التقاعد

يشبه أن يكون عملاقا من العملاقة ، ينتظر فرصة أن يبيع لأحد المارة موسى أو خاتما من البرونز + ذلك هو الجمهور الذي رأيته هناك . طبعاً لم يكن الوقت الذي خرجت فيه الى النزهة هو الساعة التي يخرج فيها وجوه الناس . وما الفوتانكا أخيراً الا قناة لعبور المراكب . ياللفوضى التي يراها المرء هناك ! ان المرء ليعجب كيف يمكن لهذه الاشياء جميعاً أن تجد متسعاً لها في ذلك المكان أمر يصعب فهمه : فلاحات يقفن على الجسور أمام بسطاتهن التي تحمل حلوى رطبة وتفاحا يوشك أن يكون عفناً . انهن قدرات جدا ، هاته النساء ، مبللات الثياب . شيء يثير الحزن في القلب ، هذه النزهة على فوتانكا + البلاط رطب تحت الاقدام ، وعلى الجانبين مبان عالية قائمة سودها الدخان . أمامي الضباب . وفوق رأسي الضباب . مساء قاتم مظلم يبعث الكآبة في النفس .

فلما انحرفت نحو شارع جوروخوفايا كان الليل قد أطبق ، فأخذوا يشعلون الفوانيس . منذ زمن لم يتفق لي أن وجدت في شارع جوروخوفايا + ياله من شريان صاحب يعج بالضوضاء ! ما أغنى واجهات المخازن في هذا الشارع ! كل شيء هنالك يسطع ويتلألأ : الأقمشة ، الأزهار وراء الزجاج ، القبعات الصغيرة المزدانة بأشرطة ملونة . قد يتوهم المرء ان هذه الاشياء كلها ليست الا للزينة + ولكن لا : هنالك أناس يشترون هذه الاشياء لهدونها الى نساءهم . شارع مترف باذخ . وتوجد في شارع جوروخوفايا مخابز ألمانية كثيرة ، أغلب الظن ان الذين يستغلون هذه المخابز أناس على جانب عظيم من الغنى والثراء . ما أكثر العربات التي تمر في كل لحظة ! كيف تستطيع أرض الشارع أن تحتملها ؟ انها مركبات فخمة ، يتلألأ زجاجها كأنه مرايا ، وليس في داخلها الا قטיפه وحرير ، وللخدم فيها مظهر ارسقراطي جدا ، على أكتافهم تلمع الشارات المقصبة ، وعلى جنوبهم تدلى سيوف . كنت أنظر

فى كل عربة من هذه العربات التى تمر • انها ملى بسيدات يرتدين
أجمل الثياب ، لعلهن أميرات أو كوتيسات • هى الساعة التى تخرج
فيها هذه الصفوة من أبناء المجتمع الراقى ذاهبة الى حفلات الرقص أو
اجتماعات السهر • لا بد أن تكون رؤية أميرة أو سيدة عظيمة ، عن
كتب ، منظرا شائقا • أحسب أن هذا لا بد أن يكون ممتعا ، أما أنا فلم
يتح لى أن أرى هذا المنظر فى حياتى ، اللهم الا من بعيد ، كما رأيت
فى هذا المساء وأنا ألقى نظرة الى داخل العربات • لقد انصرف خيالى
انك فى تلك اللحظة - آه يا يمامتى - يا صديقتى العزيزة ! ان قلبى
لينزف دما متى فكرت فىك • لماذا أنت شقية هذا الشقاء كله يا فارنكا ،
يا ملاكى الرقيق ؟ أهذه السيدات خير منك ؟ أية ميزة لهن عليك ؟
أنت طيبة جميلة مثقفة ، فلماذا يكون حظك هذا الحظ ؟ لماذا تعيش
النفوس الطيبة النبيلة فى الشقاء والهجران ، بينما لا يحتاج غيرها حتى
الى البحث عن السعادة لأن السعادة هى التى تلقى بنفسها بين ذراعيه ؟
أعرف يا ماتوشكا ان هذا التفكير شر ، أعرف أن هذا التفكير حرام ،
فهو لبرالية وزندقة والحاد • ومع ذلك فانى أتساءل صادقا باسم الحقيقة
المقدسة نفسها : لماذا خلق نساء للسعادة ، بقرار من القدر ، منذ كن فى
أرحام أمهاتهن ، بينما نساء أخريات يرين النور فى ملاجئ أيتام ؟
ما أكثر ما تهبط السعادة على ايفان ما ، ايفان غبى ، وكأن القدر يقول
له : « ما أنت يا هذا الا ايفان ما ، ولكننى أريد لك أن تعيش فى رغد
وفرح ، تتمتع بخيرات أجدادك ، تشرب وتأكل وتلهو • فانعرف من هذه
الملذات ما شاء لك هواك • فمن أجل هذا خلقت يا عزيزى ، وهكذا
يجب أن تكون » • أعرف ، يا ماتوشكا أن هذه الأفكار اثم ، اثم كبير ،
ولكن المرء يسقط فى هذا الاثم على غير ارادة منه فى بعض الأحيان •
لماذا لا تسلكين أنت أيضا مركبات فخمة يا طائرى الجميل الرقيق ؟ لو

ملكتم مثل هذه المركبات لهب جنرالات يستجدون منك نظرات عطف
حين تمرين ، جنرالات لا أناس تافهون مثلي ، وللبست حريرا وذهبا ،
لا ثيابا عتيقة من غليظ القماش كما تلبسين الآن ، ولكنك أشبه بتمثال
من الخزف تضارة وامتلاء وازدهار خدين ، لا نحيلة هزيلة ضامرة
الوجه كما تظهرين اليوم . لو كنت كذلك لكان حسبي أنا ، من أجل
سعادتي ، أن ألمحك في الشارع وراء نافذة ساطعة الاضواء ، وأن ألمح
خيالك يتبختر على جدار ، حسبي عندئذ ، حتى تفيض نفسي بهجة ،
يا طائري الصغير الجميل ، أن أتصور أنك سعيدة ، راضية فرحة .
فانظري أين نحن الآن ؟ كأنما لا يكفيك أن أناسا أشرارا دفعوك الى
الشفاء ، فلا بد أن يجيء أيضا رجل حقير وقع سافل يهينك ويسىء اليك
في عقر بيتك . يكفي أن يكون هذا الوقع مرتديا رداء أنيقا ، وأن ينظر
اليك من خلال نظارة ذات اطار ذهبي ، حتى يظن ان كل شيء مباح له ،
وان عليك أن تصفى الى أحاديثه السفهية متسامحة راضية ، أليس الامر
كذلك حقا أيها الأصدقاء الطيبون ؟ ولماذا هذا كله ؟ لأنك يتيمة ، لأنك
بلا سند ، لأنك محرومة من صديق قوى يستطيع أن يحميك ! ما هذا
الرجل السافل ، ما هؤلاء الناس الذين لا يخشون أن يهينوا طفلة فقيرة
مثلك ؟ ليس هؤلاء الأوغاد بشيء ، انهم عدم . . . انهم يتظاهرون بالوجود
حتى يلتفت اليهم ويحسب حسابهم ، ولكنهم ليسوا في الواقع شيئا !
أنا من هذا على يقين عميق . تلك هي حقيقة هؤلاء الناس ، وفي رأيي
يا صديقتي العزيزة ان العازف على أرغن برباريا الذي رأيته اليوم في
شارع جوروخوفايا أجدر بالاحترام منهم . صحيح انه يجرب نفسه في
الشوارع من الصباح الى المساء جاهدا أن يحصل على بضع كوكبات
قديمة مهترئة تتيج له أن يأكل من جوع ، ولكنه سيد نفسه يكفل رزقه
دون أن يستجدي أحدا . انه لا يريد صدقة . بالعكس : هو يجهد في

سبيل لذة الآخرين ، وكأنه يقول : « أنا مفيد بمقدار ما أطيق ، أحاول أن أسليك ما وسعني ذلك. » • صحيح انه بائس ، وأن كبريائه لا تخفف شيئا من بؤسه • ولكنه بائس ممثلي النفس نبلا • صحيح انه متعب ، وانه يتجلد من شدة البرد ، ولكنه يعمل ، ويستمر يعمل ، على طريقته طبعاً . هناك ناس كثير من هذا القبيل يا ماتوشكا ، هناك ناس كثير من هؤلاء الرجال الشرفاء ، من هؤلاء الرجال الذين لا يجنون مالا كثيرا (تبعا لمقدار العمل الذي يقومون به وتبعا لفائدة هذا العمل) ولكنهم لا يدينون لأحد بشيء ، لا ينشدون عطف أحد ، ولا يأكلون من خبز أحد • أنا من هؤلاء الرجال يا صديقتي ، أنا مثل ذلك العازف على أرغن برباريا • لا أقصد أنتى مثله ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، لست مثله أبدا • ولكننى مع ذلك أشبهه بمعنى ما ، أشبهه من جهة نبل الجهد • أنا أجهد مثله على قدر ما تطيق قواى ، وأنا أعمل ما أستطيع أن أعمله • ليس ما أعمله بالكثير ••• أنا أعرف ذلك ••• ولكن ما من انسان يقدر أن يعطى أكثر ما عنده •

إذا كنت أحدثك عن العازف على أرغن برباريا ، يا ماتوشكا ، فلأننى شعرت اليوم بثقل الفقر مضاعفا • لقد وقفت أنظر الى العازف • واقتنى أفكار سود ، فجعلت نفسى أمامه ، عسى أن تزاولنى تلك الأفكار السود • كان قد وضع آله تحت نافذة من النوافذ • وتجمع حوله نفر قليل : أنا وحوذيون ، وفنائة كبيرة ، وبنية صغيرة قدرة شعاع ، ثم صبي صغير فى العاشرة من عمره ، كان يمكن أن يكون جميلا لولا ما يظهر فى وجهه من مرض : انه هزيل شديد الهزال ، كل ما يرتديه قميص فوقه معطف صغير لا يكاد يغطيه ، وهو حافى القدمين تقريبا • كان الصبي يصغى الى الموسيقى فانغرا فاه ، تلك سنه • كان لا يستطيع أن يحول بصره عن الدمى التى تدور فوق الأرغن ، بينما يدها وقدماه تتجمدان

من شدة الصقيع • كان يرتجف من البرد عاضا بأسنانه طرف كفه • لاحظت انه كان يمسك ورقة صغيرة في يده المقبوضة • ومر سيد فقدف للمازف على الأرغن بقطعة صغيرة من النقد ، سقطت فى درج يحجبه شبك من وراءه يرقص فرانسى وسيدات جميلات • فلما سمع الصبى رنين قطعة النقد ارتعش ونظر فيما حوله رجلا ، واذ حسب اننى أنا الذى قذفت قطعة النقد هرع نحوى فمد الى الورقة مرتجف اليدين ، وقال لى مرتعش الصوت : « اقرأ » ففضضت الورقة وقرأتها • هى قصة معروفة • اليك ما كان مكتوبا فى الورقة : « انا أمهم أيها المحسنون ، وأنا أحتضر • أولادى الثلاثة جياع • ساعدوهم اليوم ، فاذا مت تذكرتكم فى العالم الآخر ودعوت لكم ، لأنكم رحمتهم أولادى » • ماذا تريدان يا صديقتى العزيزة ؟ تلك حالة شائمة • الأمر واضح • ولكن ماذا كان يمكننى أن أفعل ؟ لم أعطه اذن شيئا • ولقد طعن قلبى أن أضطر الى رفض تقديم معونة • كان الصبى الصغير المسكين قد ازرق وجهه من شدة البرد ، ولعله كان جائعا ، ومن يدرى على كل حال : ربما كان صادقا غير كاذب ، بل لا شك فى انه قال الحقيقة • أنا أعرف هذه الأمور • ولكن الأمر الذى يثير حفيظتى أن لا تراعى هاته الأمهات أولادهن ، فيرسلنهم الى الشارع بهذه البطاقات أشباه عراة فى مثل هذا الجو البارد • لعلها امرأة حقاء لا ارادة لها • أظن انها مهجورة لا يعنى بها أحد ، فهى تسقى فى منزلها حزينه يائسة ، ولعلها مريضة فعلا • مع ذلك كان ينبغى لها أن تتجه الى أحد تطلب معونة • وقد تكون امرأة كاذبة ترسل ابنها الهزيل الجائع الى الشارع عامدة لتوهم الناس بأنها مريضة • فما عسى أن يتعلم هذا الصبى الشقى حاملا بطاقات من هذا النوع ؟ أى درس سيستمد من الحياة ؟ سوف يقسو قلبه ، هذا كل شىء • فهو يمضى ، ويركض ، ويستجدى ، والناس يمرون مسرعين لا يلتفتون اليه ولا

يسمعون كلامه • انهم قساة لا يحسون ، والعبارات التي يقذفونه بها
جوابا على سؤاله تصيب قلبه بجروح عميقة : « امض ، ابعده ، اذهب ،
أيها الولد البطل ... أنت كذاب • هذه قصص معروفة » • ذلك ما يسمعه
من جميع الناس ، فيمتلي قلبه حقدا على البشر • عبثا يرتعش من شدة
البرد ، هذا الصبي الصغير الشقي ، المدعور ذعر عصفور صغير سقط من
عش تداعى • لقد تجلدت يداه وقدماه من الصقيع • وتقطعت أنفاسه من
القر • وسيأخذ يسعل في ذات يوم • فما هي الا فترة قصيرة اذا بالمرض
يتسلل الى جسمه تسلل الأفعى ليستقر في صدره • ثم ينحني الموت عليه
في ركن مظلم وسخ يتمدد فيه بلا من يعنى به أو يراه أو يمد له يد
العون ... تلك هي حياته • ذلك ما يمكن أن تصير اليه حياة انسان في
هذا العالم • آه يا فارتكا ! انه ليشق على قلب المرء أن يسمع أحدا يطلب
صدقة ثم يكون مضطرا أن يمضى دون أن يعطى شيئا ، مكتفيا بأن يقول
للسائل : « الله يعطيك » • ثمة استجداء يطبق المرء أن يسمعه دون أن
يحفل به كثيرا (ذلك ان هناك طرقاتى فى التضرع الى المارة يا ماتوشكا)
فهناك ضراعات بطيئة منعمة يحس المرء حين يسمعا انها عادة مألوفة ولحن
محفوظ ، ذلك هو الاستجداء المستمر المحترف • ففي مثل هذه الحالة
لا يشعر المرء بألم شديد حين لا يعطى المستجدي شيئا : فهؤلاء متسولون
مزمنون ألفوا هذه الحياة ، فيقول المرء لنفسه حين يلقاهم انهم قادرون
على تذليل مصاعبهم ، فقد تعلموا كيف يدبرون أمورهم وكيف يخرجون
من مأزقهم • غير أن هناك ضراعات لا يحس المرء حين يسمعا أن
صاحبها قد ألفها حتى أصبحت عنده عادة من العادات فان لها نبرة
خاصة ، وهى تتصف بأنها خشنة حتى لتكاد تكون قاسية مرعبة • فى هذا
اليوم مثلا حين تناولت الورقة من يدي هذا الصبي ، لمحت على بعد
خطوتين ، قرب سياج الاشجار ، بأسا آخر لم يكن يستوقف المارة ،

ولكنه اتجه الىّ على حين فجأة قائلاً : « اعطني خمس كوكبات أيها السيد من مال الله » • قال ذلك بصوت يبلغ من التقطع والقسوة اننى شعرت بما يشبه الرعب ، ولكننى لم أعط السائل شيئاً ، لأننى كنت أنا نفسى لا أملك شيئاً • يجب أن أقول أيضاً ان الأغنياء لا يحبون أبداً أن يشكو الفقراء حظهم جهاراً • يظهر أن هذا يؤذيهم ويزعجهم • والبؤس مزعج دائماً على كل حال : كأن أناة الفقراء تعوق نوم الأغنياء • يجب أن أعترف لك يا صديقتى العالمة جداً اننى أكتب اليك هذه الأشياء كلها ، أولاً لأخفف عن نفسى ، وثانياً لأظهرك بعض الاظهار على أسلوبى • لا شك انك لاحظت أن أسلوبى قد تحسن منذ زمن • لقد تعلمت الكتابة • ومع ذلك فاننى فى هذه اللحظة أشعر بكآبة تبلغ من القوة اننى أخذت أجد متعة فى العطف على نفسى رغم علمى بأن ذلك لن يغير من حالى شيئاً ، ولكنه ينصفنى بعض الانصاف • ذلك واقع يا صديقتى العزيزة • انه ليتفق لنا أحياناً أن نصغر أنفسنا فى نظر أنفسنا ، أن نفرض من قيمة أنفسنا ، فما نعد أنفسنا شيئاً ، وان نهوى بذلك الى القاع من الشعور بالتلاشى • واذا جاز لى أن أعمد هنا الى التشبيه فلعلنى أستطيع أن أقول ان السبب فى ذلك هو اننى أنا نفسى أشبه ذلك الصبى الفقير الذى سألتى صدقة منذ حين • أحب يا ماتوشكا أن أعمد فى التعبير هنا الى الرمز والتشبيه ، فاستمعى الىّ : انه يتفق لى يا صديقتى العزيزة جداً ، وأنا ذاهب الى عملى فى الصباح المبكر ، أن أتأمل منظر المدينة التى تستيقظ وترتد الى الحياة بينما تتصاعد فى الهواء أدخنة المصانع وبينما تبدأ الشوارع تتحرك كمرجل يغلى ، وتضطرب فى صحب ما ينفك يترأيد حتى يشمل كل شيء ، انه يتفق لى أن أبلغ من الافتتان بالمشهد الذى ينتشر أمامى أن أحس عندئذ على حين فجأة بما يشبه أن يكون لطفة بالسبابة تسقط على أنفى المسرف فى الفضول ، فأغذ الحطى مبتعداً مسرعاً ،

شاعرا على حين بقتة بأننى صغير ، وأتابع طريقى قائلا لنفسى ان هذه الحياة الصاخبة لم تخلق لى . ولكن ألا فكرى فى الأمر وتساءلى عما يجرى وراء الجدران المسودة بالدخان من هذه المباني الحجرية الكبيرة . حاولى أن تنفذى الى أسرارها وقولى لى بعد ذلك ألسنت على خطأ حين أغض من قيمة نفسى على ذلك النحو ، وحين استسلم لذلك التسوع من التصاغر والتضاؤل ! لاحظى يا فارنكا اننى أتكلم هنا على سبيل الرمز ، فما يجوز أن يفهم كلامى بنصه . انظرى ماذا يختبئ وراء هذه المنازل الشامخة : هذا رجل بسيط من العاملين فى حرفة من الحرف يستيقظ من نومه ، فى ركن مظلم مملوء بالدخان ، فى جحر رطب موبوء يسمونه غرفة أو مسكنا لأنه لا مفر من تسميته كذلك : انه طوال الليل لم يحلم الا بالخدش الذى أحدثه مقصه فى الجلد أمس سهوا حين كان يقعد منه حذاء ، كأن هذه النازلة يجب أن تلاحق الرجل حتى فى نومه . صحيح ان الرجل ليس الا صاحب حرفة ، ليس الا حذاء فقيرا ، فهو يعذر اذا اقتصر تفكيره واقتصرت أحلامه على الشيء الذى يستأثر بمشاغله كل يوم ، فان أولاده ليصبحون ، وان امرأته لتتصور جوعا . وليس الحذاءون وحدهم هم الذين يستيقظون على هذه الحالة النفسية أيضا . وما كان ذلك ليعد شيئا ، وما كان ليستحق أن يذكر لولا أمر آخر يضاف اليه يا ماتوشكا : ذلك الأمر الآخر هو أن فى ذلك المبنى نفسه ، فى الطابق الذى يقع فوق هذا الطابق أو تحته ، يوجد بيت فاخر الأثاث أنيق الرياش ؟ والرجل الذى يسكن هذا البيت قد حلم هو أيضا بحذاءين . صحيح انهما غير الحذاءين اللذين حلم بهما الحذاء . فلعلهما يختلفان شكلا ، ويمتازان أناقة . ولكن ذلك لا يمنع أنهما حذاءان . ذلك هو الرمز فيما أقوله يا ماتوشكا : نحن جميعا حذاءون من بعض النواحي . وما كان ليعد هذا كله شيئا أيضا . وانما مصدر البلاء انه ما من أحد

الى جانب الشخص الغبي يهمس فى أذنه قائلا : ألا تستحى يا فلان ان لا تفكر الا فى هذه الأشياء ، وان لا تشغل الا بذاتك ، أن تحيا لنفسك وحدها ؟ أنت لست حذاء • وأولادك فى كمال الصحة وتمام العافية ، وامراتك غير جائعة • هلا نظرت فيما حولك عسى أن تقع على ما هو أكرم من هذه الهموم ، وعلى ما هو أنبل من الاحذية ؟ « ذلك ما أردت أن أقوله لك يا ماتوشكا على سبيل الرمز • قد أكون فى هذه اللحظة مسرفا فى جرأة التفكير واستقلال الرأى يا صديقتى • ولكنها فكرة تراودنى أحيانا وتلازمنى من وقت الى وقت ، فتخرج من قلبى عندئذ أقوال عنيفة على غير ارادة منى • لقد أخطأت اذن حين غضضت من قيمة نفسى ، وحططت من قدرها ، متأثرا بضجة المدينة وصخبها وهديرها • وفى الختام : لعلك تظنين يا ماتوشكا اننى أتجنى على نفسى ، واننى أخترع قصصا ، واننى أستسلم للكآبة ، أو اننى أنسخ هذا كله عن كتاب من الكتب • تخطئين يا ماتوشكا اذا وقع فى وهمك شيء من هذا • اننى لا أهبط الى الاقتراء على نفسى ، ولا ألق شيئا ، ولا أستسلم لأفكار سود ، ولا أنقل شيئا عن كتب • وانما هى الحقيقة •

عدت الى منزلى طافح النفس حزنا • وجلست الى منضدتى ، وسخنت ابريق الشاى على السماور وتهيأت لاختساء كأس أو ربما كأسين فى هدوء ؟ وانى لفى ذلك اذا بذلك الرجل الفقير البأس الذى يسكن معنا فى المنزل ، أقصد جورشكوف ، يدخل على • كنت قد لاحظت فى ذلك الصباح انه كان يحوم حول سكان المنزل الآخرين ، حتى لقد ظهر لى فى لحظة من اللحظات أنه يحاول الاقتراب منى • يجب أن أقول لك عابرا يا ماتوشكا ، انهم أشد فقرا وأكثر بؤسا منى ! تصورى : زوجة ! وأطفال ! لو كنت فى مكان جورشكوف لما عرفت ماذا أصنع حقا ! هذا جورشكوف يدخل على اذن وقد علقته بأهدابه عبرة صغيرة

قدرة على عاداته ، ها هو ذا يحييني ويقرع نعليه ، ولكنه يبدو مرتبكا مضطربا لا يستطيع أن ينبس بكلمة . أفعدته على كرسى . صحيح ان الكرسى مكسور ، ولكن ليس عندي كرسى آخر . قدمت له كأسا من الشاي . فاعتذر في أول الامر ، ورفض ؛ ثم اعتذر ، وانهى أخيرا الى تناول الكأس الذى كنت أمدتها اليه . أراد أن يشربه بلا سكر . فلما أصررت على أن يحليه بشيء من السكر جعل يعتذر من جديد ، وظل يرفض مدة طويلة قائلا انه لا حاجة الى السكر . ثم رضى أن يلقى فى الكأس قطعة صغيرة جدا من السكر ، قال بعدها ان الشاي حلو جدا جدا . انظري الى أى حد من المذلة يمكن أن يؤدى الفقر بالانسان ، قلت : « ما عساك قائلا لى يا عم » . فقال : « اليك المسألة ! » وأخذ يشرح لى ما هو فيه من عسر وضيق قال : « يا مكارا ألكسيفتش ، ناشدتك الله ساعد هذه الاسرة البائسة . ليس عندنا طعام لزوجتى وأولادى . ولا أطيق ، أنا الأب ، أن أحتمل هذا » . أردت أن أجيبه ، ولكنه لم يدع لى أن أتكلم . قال : « اننى أخشى جميع من فى هذا المنزل يا مكارا ألكسيفتش . ليس معنى هذا اننى أخاف منهم ، ولكننى أشعر بحرج . هم جميعا أناس متكبرون ، أناس ذو شأن . ولقد خشيت أن أزعجك أيضا ، أيها المحسن ، لأننى أعلم أن لك متاعبك وهمومك أنت أيضا ، وأنت لا تستطيع أن تهب كثيرا . ولكن افرضنى مبلغا صغيرا على الأقل . لقد تجاسرت فطلبت اليك هذا ، لأننى أعرف انك انسان طيب شهيم ، لأننى أعلم انك كنت أنت نفسك فى ضيق وعسر ، وانك ما تزال تعاني متاعب كثيرة ، وان قلبك ، لهذا السبب نفسه ، يمكن أن يتألم لآلام الآخرين وأن يشفق عليهم ، وأن يرحمهم » وختم كلامه بارجونى أن أعفر له جراته ، وأن أعفو عن مخالفته الأدب فيما أقدم عليه . أجبته بأننى أود لو أساعده ، ولكننى لم يبق معى شيء ، لم يبق معى شيء .

البنة • فعاد يلح قائلاً : « ماكار ألكسييفتش لست أطلب الكثير ...
يكفيني ... » (قال ذلك واصطبغ وجهه في تلك اللحظة بحمرة شديدة
بلغت شعره) « زوجتي وأولادي جياع ... ألا تستطيع أن تقرضني
بضع كوبكات ؟ ... » انقبض صدرى انقباضاً رهيباً • قلت لنفسى : انهم
ينفوقوننى بؤساً • لم يكن قد بقى معى الا عشرون كوبكا حصلت عليها
سلفة ؛ وكنت أنوى أن أشتري لنفسى فى الغد أشياء لا غنى عنها • قلت
له تقريبا ما يلى : « لا ، لا ، يا عزيزى ، آسف ... مستحيل ... »
قال : « ماكار ألكسييفتش • اعطني أى شىء ... اقترضنى ولو عشرة
كوبكات » • عندئذ لم أستطع أن أقوم مزيدا من المقاومة • فأخرجت
من الدرج كوبكاتى العشرين ، وأعطيته اياها • • • هل أخطأت يا ماتوشكا؟
آه ... يا له من بؤس ! يا له من بؤس ، وتحدثنا بعد ذلك • سألته :
« ماذا صنعت يا أخى ، ماذا صنعت حتى غرقت فى هذا الشقاء كله ، ولماذا
ظننت وأنت على ما أنت عليه من فقر ، ان عليك أن تستأجر غرفة بخمسة
روبلات فضة؟ فشرح لى انه استأجر هذه الغرفة منذ ستة أشهر ، وانه دفع
أجرها عن ثلاثة أشهر سلفا ، ثم انبجست صعوبات ، وساءت حاله وتفاقم
وضعه حتى أصبح لا يعرف الآن أين يضع رأسه ! • • مسكين ! • • كان
يأمل أن تحل قضيته فى هذه الاثناء • • وقصته قصة حرجة مزعجة • •
تصورى يا فارنكا انه مضطر للمثول أمام المحكمة متقاضيا فى أمر لا أعرف
ماهو • • الدعوى قائمة بينه وبين تاجر سرق الدولة فى مقابلة • واكتشف
التلاعب والاختلاس ، فأحيل التاجر الى القضاء ، فجر معه جورشكوف ،
وأقحمه فى هذه الورطة ، مع أن المسكين لم يشارك فى الامر • • اللهم
الا ان نقول انه شارك فيه مشاركة غير مباشرة • فلا ذنب له الا انه كان
مهملا بعض الاهمال ، ولم يكن على قدر كاف من الحيلة والحذر ، فغابت
عنه مصلحة الحزينة ، وذلك أمر لا يغتفر • • والقضية قديمة ينظر فيها

القضاة منذ سنين ولما يُفرغ منها وبيت فيها ، فهناك وقائع جديدة تظهر من حين الى حين بغير انقطاع ، فتزيد متاعب جورشكوف . قال لى جورشكوف مؤكدا : « لم اُقراف الفعل المشين الذى ينسب الى . لست مذبا فى هذا الامر ، لم ارتكب أية سرقة ، ولا خنت الأمانة ولا أسأت استعمال الثقة . . ولقد أصابته هذه القضية بضرر كبير . طرد من الوظيفة ، ورغم انه لم تثبت عليه جنابة معينة ، فانه يستحيل عليه قبل ان تثبت براءته تماما ان يحصل من هذا التاجر على سداد مبلغ ضخم يدين به التاجر له ولكنه ينكره عليه أمام القضاء . أنا أصدق كلامه . ولكن المحكمة لم تقتنع وا أسفاه ، يجب أن أقول ان القضية معقدة جدا ، متشابكة كثيرا ، مفتولة الخيوط الى غير حد ، فلا سبيل الى فكها وحلها . وما ان يظن أن نقطة من النقاط قد اوضحت وظهرت الى النور حتى يعود التاجر الى التعمية والتضليل بحيل بارعة ومكر حاذق . اننى أشارك جورشكوف شقاه يا صديقتى العزيزة ، وأشاطره الهه وعذابه ، وأشعر نحوه بعطف شديد . رجل بلا عمل ، ولا يمكن أن يجد عملا لأنه فقد ثقة الناس به . ولقد أنفق جميع ما سبق أن ادخره . والقضية تطول وتطول ، وتزداد تعقدا يوما بعد يوم . وهذا ولد جديد يولد له ، فيزيد ميلاده الطين بلة ، وتزداد النفقات فى غير داع الى زيادة وهم على ما هم عليه . ويمرض الابن : فهذه نفقات اخرى . والام مريضة . والاب نفسه مصاب بمرض قديم لم يعالجه . لقد عانى هذا المسكين من العذاب مالا يتصوره خيال . لكنه يدعى ان القضية تقترب من الحل ، فما هى الا أيام وتثبت براءته ما فى ذلك ريب . لقد آلمنى وضعه كثيرا يا ماتوشكا ، آلمنى وضعه كثيرا . . اننى ارثى لحاله . ولقد عزيتته وواسيته يا ماتوشكا ، حاولت أن أسرى عنه ، وأن أقوى عزيمته . انه انسان أعزل خائف . وهو فى حاجة الى أن يشعر بشيء من حماية . ولذلك تلطفت فى الكلام معه ،

فكنت دمثا رقيقا • أودعتك يا ماتوشكا ، وأسأل الله أن يرعاك وأن ينعم
عليك بالصحة والعافية • حين أفكر فيك ، فكأن بلسما يمس روحي
الموجعة • ورغم اني أتألم لك ، فان تألمي هذا عذب في نفسي •

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٩ أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا ، عزيزتي فرارا الكسييفنا !

أكتب اليك وأنا في حالة نفسية فظيمة • لقد هزني الحادث المروخ
الذي وقع اليوم فقلب نفسي رأسا على عقب • ان رأسي يدور ، وان
الاشياء تتراقص أمام بصري • آه يا صديقتي الغالية ! كيف أستطيع أن
أقص عليك ما حدث ؟ ما كان لأحد أن يتصور ما وقع ، ما كان لأحد أن
يتنبأ بما وقع • لا بل يستحيل أن لا أكون قد أوجست ما وقع ! بلى بلى ،
لقد خمنتته تخميننا غامضا ، حزره قلبي حزرأ • بل انني لأنذكر انني
رأيت حلما في يوم من الايام ، وأحسب أن ما وقع انما كان مدار حلمي
عليه •

اليك ما جرى • سأقصه عليك ببساطة ، لا أتكلف أسلوبا ، ولا
أصطنع زخرفة ولا تميقا ، بل أرويهِ بالكلمات التي يلهمني اياها الرب •
ذهبت الى عملي في هذا الصباح ، فجلست في مكاني وأخذت أكتب •
يجب أن أقول لك يا ماتوشكا انني قد نسخت في الليلة البارحة أيضا •
جاء تيموتي ايفانوفتشس فاقترب من منضدتي وتفضل فأمرني بنفسه أن أعيد

نسخ نص هو وثيقة مستعجلة وهامة جدا فيما قال • أوصاني قائلا : « أعد نسخ هذا يا ماكار ألكسييفتش ، بأجمل خط تستطيعه ، أعد نسخه بعناية عظيمة وسرعة كبيرة ، فيجب أن تقدم الوثيقة في هذا اليوم للتوقيع » •
يجب أن أسر اليك هنا ، يا ملاكي الرقيق ، اننى لم أكن بالأمس مرتاح البال ، بل كنت مكدر النفس معتكر المزاج ، حتى لقد كنت أتحناني أن أنظر فيما حولى : ان حزنا عميقا وكآبة قاتمة قد استبدا بنفسى • كان قلبى فى صقيع ، وكانت نفسى فى ظلام ، وكان التفكير فيك لا يبارحنى حُظة يا طائرى الصغير • أخذت أنسخ ، فنقلت النص نقلا جميلا جدا ، لا يمكن أن يؤخذ عليه عيب • ولكن كيف أشرح لك ما حدث ؟ هل الشيطان هو الذى دفعنى الى ذلك ؟ أم هى قوة خفية من قوى القدر تدخلت فى الامر ؟ أكأنت المسألة محتومة لا مفر منها ؟ المهم اننى أسقطت من النص عند النسخ سطرا بكامله • ونشأ عن ذلك أن معنى النص أصبح ••• يارب يارب ! ••• لم يبق للنص معنى البتة ••• ولم يتسع الوقت للحصول على التوقيع بالأمس • وانما قدموه الى صاحب المعالى اليوم • ذهبت أنا الى مكتبى فى الصباح كالعادة دون أن يخطر على بالى شئ ، واستقررت فى مكانى الى جانب ايميليان ايفانوفتش • يجب أن أذكر لك يا صديقتى العزيزة اننى قد أصبحت منذ زمن أشد خجلا من أى وقت مضى ، واننى أصبحت أشعر بشئ من الحرج والاضطراب والحشية بغير انقطاع • حتى لقد غدوت فى الآونة الاخيرة أتحناني أن أنظر الى زملائى وأتجنب أن ينظروا الى • أصبح يكفى أن يصر كرسي أحد جيراني حتى أشعر فورا اننى أقرب الى الموت منى الى الحياة من شدة الرعب • وعلى هذه الحالة النفسية انما كنت اليوم أيضا ، ملتصقا بمقعدى خافضا رأسى منكمشا انكماش قنفذ • حتى ان وليم كيموفتش (وهو رجل مناكد رهيب لانظير له فى العالم بأسره) لم يسهه الا أن يقول لى بصوت عال يستطيع أن يسمعه

الجميع : « ما بك فى هذا الصباح يا ماكار ألكسييفتش ، ان لك لوجها عجبيا ، هىء هىء هىء هىء ! ... » قال ذلك وجعد وجهه تجعيدا لم يملك معه جميع كانوا هنالك الى جانبه أو الى جانبى الا أن ينفجروا ضاحكين ، على طبعاً ... لا يشعرون باى حرج بل يمعنون فى القهقهة لا يشبه عنها شىء . اما انا فقد صفرت جسمى والتصقت اذناى براسى واغمضت عيني ولبثت فى مكانى على هذه الحال لا أتحرك . تلك هى عادتى فى ظرف كهذا الطرف ، فانهم ما يلبثون عندئذ أن يدعونى وشأنى . وانى لكذلك اذا أنا أسمع ضجة ، وأسمع وقع خطوات سريعة فى المرر ذاهبة آية . وسمعت - أهذا حق أم أن أذنى تخدعانى ؟ - سمعت صوتا ينادينى ، سمعت صياحا ينطق باسمى . انهم يستدعون ديفوشكين ! أخذ قلبى يرتجف فى صدرى ، واعترائى ذعر لا أستطيع له تعليلا . لا أدرى مم خفت فى تلك اللحظة ؟ . ولكننى أستطيع أن أقول اننى لم أشعر بمثل هذا الرعب يوما فى حياتى . التصقت بمقعدى مزيدا من الالتصاق ، كأننى لم أسمع شيئا ، وكأننى أظهار بأننى غير موجود ؛ ولكن الضجة تكبر وتقترب ، وها هى ذى تدوى فوق أذنى « ديفوشكين ، ديفوشكين ، أين ديفوشكين ؟ » كذلك صاح صوت . وقال الصوت يخاطبى « ماكار ألكسييفتش ... أنت مطلوب الى مكتب صاحب المعالى . هيا أسرع ، لقد جعلت من النص الذى نسخته كارثة » ذلك كل ما قاله الصوت ، ولكن هذا الذى قاله الصوت كان كافيا ... أليس كذلك يا ماتوشكا ؟ كان كافيا كل الكفاية . ألا ترين ذلك ؟ أحسست ان صاعقة أصابتنى ، تجعدت من شدة الذعر ، شعرت اننى فقدت حواسى . نهضت عن مكانى ، وسرت كأننى آلة أتحرك ، وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة . اجتازوا بى حجرة أولى فحجرة ثانية ، فحجرة ثالثة ، الى أن بلغوا بى مكتب صاحب المعالى . رأيتنى فحاة هنالك ، واقفا أمامه . يستحيل على أن

أحس لك الخواطر التي دارت في رأسي في تلك اللحظة • أظن انني نسيت حتى أن ألقى السلام من فرط اضطرابي • كنت كالمعتوه ، وكانت شفثاي ترتجفان ، وكانت ساقاي تصطكان • ولهذا ما يبرره يا ماتوشكا • أولا كنت أشعر بالخجل والعار • لقد وقع بصري مصادفة على مرآة كانت على يميني ، فكان ما رأيته خليقا بأن يجعلني مجنونا تماما ؛ وثانيا كنت قد بذلت دائما كل ما أستطيع من جهد حتى لا يلتفت اليّ أحد ، وحتى لا يراني أحد ، متظاهرا بأنني غير موجود في هذا العالم ، حتى ان صاحب المعالي لم يكن قد شعر بوجودي في دائرته على أغلب الظن • لعله سمع عرضا باسم موظف اسمه ديفوشكين ، ولكنه لم يدخل حتما في التفاصيل ، ولا اهتم بأمرى أي اهتمام •

بدأ صاحب المعالي يقول بصوت غاضب حائق : « كيف أمكن أن تفعل هذا أيها السيد ؟ أين كانت عينك اذن ؟ تلك وثيقة خطيرة كنت في حاجة ملحّة اليها فما أنت ذا قد أفسدتها ! ما بالك ساهما شارد اللب ؟ » قال صاحب المعالي هذا ثم التفت الى أوستاش ايفانوفتش • أدركت من خلال ضباب كلمات متقطعة تسقط على أذني « اهمال ، غفلة ، أنت تجلب لنا متاعب » • فتحت فمي لا أدري لماذا • أردت أن أستغفر ، أن أطلب الصفح والعفو ، ولكنني لم أستطع • أأهرب ؟ لم أجرؤ أن أحاول ذلك • وعندئذ ، عندئذ يا ماتوشكا ، حدث شيء يبلغ من الفسوة ان قلبي في هذه اللحظة يسقط من يدي خجلا وعارا حين أتذكره • ان زري ، هذا الزر الذي لم يكن يشده الى مكانه الا خيط واهن ، قد انقطع فجأة ، لعنه الله (لعنتي صدمته من قلة الانتباه) فاذا هو يشب ويقفز ويدور ويتدحرج على أرض الغرفة محدثا صوتا كأنه صوت جرس ، ثم يتوقف أمام قدمي صاحب المعالي تماما • حدث ذلك كله والجميع صامتون واجمومون • كان هذا هو التعليل الوحيد ، الاعتذار الوحيد ، الجواب

الوحيد الذى استطعت أن أقدمه بين يدي صاحب المعالي • لم أستطع أن أقول بعدئذ شيئا • وكانت نتائج ذلك رهيبه • فسرعان ما لاحظ صاحب المعالي هيئتي واتبه الى هندامى • تذكرت فى تلك اللحظة ما كنت قد رايتَه فى المرآة • وكاننى فقدت عقلى فاسرعت اريد أن اتناول الزر • أحسب اننى أصبحت لا أعرف ماذا أصنع • لقد ملت على الارض وأردت أن أمسك الزر ، ولكنه أفلت من يدي وعاد يدور ثم يدور ، فلم أستطع أن ألتقطه • الخلاصة : اننى لمعت أيضا بخراقتى • شعرت فى تلك اللحظة ان البقية الباقية من قواى تبارحنى ، وان كل شيء قد ضاع منذ الآن ، ضاع الى الابد ، فلا سمعة ولا كرامة • كل شيء قد انتهى وتحطم • أحسست اننى هويت • أخذت تدوى وتدندن فى أذنى جمل غريبة ، وخيّل الىّ اننى أسمع صوت تيريز وصوت فالدونى • واستطعت أخيرا أن ألتقط الزر بعد لأى ، فنهضت عن الارض وانتصبت قائما • ويا ليتنى بقيت بعد ذلك ساكنا ممسكا حزام سروالى بيدي ، ولكن لا ••• ليس ههنا ما فعلته ، بل أخذت أربط الزر بالخيط المقطوعة ، كما لو كان من الممكن أن يثبت الزر بهذا فى مكانه • وكنت أثناء ذلك أتسم ، نعم أتسم • حول صاحب المعالي بصره عنى فى أول الأمر ثم عاد ينظر الى ، وسمعته يقول عندئذ لأوستاش ايفانوفتشس « ما هذا ؟ هل ترى هيئته ؟ ماذا اصابه ، لم هو كذلك ؟ » آه ياماتوشكا ! ماذا يمكن ان أصبح فى ظرف كهذا الفلرف • وسمعت أوستاش ايفانوفتشس يقول عنى : « لم يكن فى يوم من الأيام محل شكوى ، سلوكه ممتاز ، وهو يتقاضى مرتبا كافيا كما تقضى الأنظمة » فقال صاحب المعالي « ألا يمكنك أن تعطيه سلفة لتساعده قليلا ؟ » فقال أوستاش ايفانوفتشس : « لقد تقاضى سلفا عن عدة أشهر ••• تقاضى سلفا حتى تاريخ كذا ••• » أغلب الظن ان له مصاعب شخصية ، ولكن سلوكه كان طيبا دائما • ولم

يلاحظ عليه شيء قط ، ولم يوجه اليه لوم يوما . أحسست بحر شديد
يا ملاكى الرقيق ، كان لهيا من جهنم يلفح وجهي ، وقدرت أننى
سأموت فى مكانى . قال صاحب المعالى : « طيب . أعيذوا نسخ النص ،
ولكن بسرعة ! ديفوشكين ! تعال الى هنا ، ستعيد نسخ هذه
الورقة ، ولكن بدون خطأ هذه المرة . وبالمناسبة . . . » هنا التفت
صاحب السعادة نحو الاشخاص الآخرين وأصدر اليهم أوامر شتى ،
فتفرقوا ، فما كادوا ينصرفون حتى أسرع صاحب السعادة يخرج محفظة
نقوده ، ويسل منها ورقة مائة روبل « اليك هذا . اننى أعطيك ما أستطيع ،
فخذها بلا كلفة ، وسترده الىّ فى المستقبل » . قال ذلك ووضع الورقة
فى يدي . ارتعشت يا ملاكى ، أحسست أن نفسى تهتز اهتزازا قويا .
كنت لا أدرى ماذا يحدث لى . أردت أن أتناول يده لأقبلها . فرأيت
وجهه هو يحمر حتى الشعر . يمينا لا أبالغ . اننى أقول لك الحقيقة
دقيقة كاملة يا ماتوشكا : لقد أمسك يدي الوضيعة وهزها مصافحا ، هزها
هكذا ، كما لو كنت نداء من أنداده ، كما لو كنت أنا أيضا جزئالا . ثم
قال لى : « انصرف الآن . . . لقد عملت ما أستطيع . . . لا ترتكب أخطاء
فى المستقبل . أما هذه المرة فالله غفور رحيم » .

اليك الآن يا ماتوشكا ما عقدت النية عليه : اننى أطلب اليك والى
فيدورا كما كان يمكن أن أطلب ذلك الى أولادى لو كان لى أولاد ، أن
تدعوا الله له . أقصد أن يكون الأمر كما يلى : لا تكون دعوات الأولاد
وصلواتهم من أجل أبيهم بل يتوجهون بالدعاء كل يوم والى الأبد من
أجل صاحب المعالى . هناك شيء آخر أريد أن أعبر عنه يا ماتوشكا ،
وهأنذا أؤكدك جهارا نهارا . اصغ الى يا ماتوشكا : اننى أحلف صادقا
أن ما أبهجنى فى هذه الحادثة ، رغم كل الآلام العظيمة التى عانيتها فى
الأيام الحالكة من بؤسنا ، ورغم كل الحزن العميق الذى كان يضى

قلبي حين كنت أفكر فيك أو حين كنت أرى شقاءنا أو حين كنت أدرك
وضعي ومذلتى وعجزى ، أقول ان الذى أبهجنى فى هذه الحادثة ، رغم
كل ذلك ، ليس هو المائة روبل بقدر ما هو تفضل صاحب السعادة
بمصافحة يدي الوضيعة ، يدي أنا الذى لا أساوى فتنة ، أنا السكير !
لقد رد الىّ بذلك احترامى لنفسى ، وهو بهذه البادرة الكريمة قد أنعش
روحى ، وجعل حياتى رضية الى الأبد . اننى لعلى يقين قوى ، مهما تكن
خطاياى عند الله العلى القدير ، ان دعائى له بالسعادة والهناء والنصر
والتوفيق ، سترقى الى السماء وسيستجيب لها الرب ! ..

ماتوشكا ، أنا الآن فى هذه اللحظة مضطرب اضطرابا رهيبا . أحس
أن نفسى مهتزة أعمق الاهتزاز . قلبى يخفق خفقانا قويا كأنه يريد أن
يشب من صدرى . وأنا أشعر عدا ذلك بوهن شديد فى جسمى كله .
ارسل اليك خمسة وأربعين روبلا ورقا . وسأدفع لصاحبة البيت عشرين
روبلا ، ثم أحتفظ بالباقي لنفسى : بعشرين روبلا أصلح ثيابى ، فيبقى لى
خمسة عشر روبلا أصرفها فى تدبير معاشى . ولكن جميع هذه المشاعر
التي تراكمت طوال هذا النهار قد هزتنى هزا عميقا وزعزعت كيانى من
الجدور . سأرقد لأستريح قليلا . على أثنى الآن هادىء . كل ما هنالك
ان نفسى تشبه ان تكون محطمة من الانفعال ، فأنا أحسها ، هنالك فى
أعماق كيانى ، ترتجف وترتعش وتهتز . سأجىء اليك زائرا . أما الآن
فاننى مضطرب الفكر بعد هذه الانفعالات كلها فكأننى سكران . . . ان
الله يرى كل شىء يا ماتوشكا . . . الله يرى كل شىء يا يمامتى المعبودة .

صديقك المحترم

ماكار ديفوشكين

١٠ ايلول (سبتمبر)

عزيزى الغالى جدا ماكار الكسييفتشس !

اننى مقتبلة أشد الاعتباط لسعادتك ، واننى أقدر المزاي الاخلاقية
الرفيعة التى يتحلى بها رئيسك حق قدرها يا صديقى . هكذا نستطيع
الآن أن نخلد الى شىء من الهدوء بعد تلك الآلام كلها . ولكننى أضرع
اليك أن لا تستأنف تبديد المال يمتة ويسرة على غير هدى . عشن حياة
هادئة ، حياة متواضعة الى أقصى حد ممكن ، واعزم أمرك منذ اليوم على
أن تدخر كل ما تستطيع ادخاره ، حتى لا تفاجأ مرة أخرى بمصاعب لم
تكن فى الحسبان . أما نحن فلا تقلق علينا . أرجوك لا تقلق علينا .
سنعرف أنا وفيدورا كيف ندبر أمورنا وكيف نخرج من متاعنا بوسيلة
أو بأخرى . ما كان ينبغى أن ترسل الينا مبلغا ضخما هذه الضخامة ،
يا ماكار الكسييفتشس . لسنا أبدا فى حاجة الى مثل هذا المبلغ الضخم . نحن
راضيتان بما عندنا لا نطلب مزيدا . صحيح اننا سنحتاج قريبا الى بعض
المال لترك هذا المنزل ، ولكن فيدورا تأمل أن تقبض فى القريب مبلغا
مستحقا لها منذ زمن . ومع ذلك سأحتفظ بعشرين روبلا للطوارئ .
أما الباقي فأرده اليك . وفر دراهمك يا ماكار الكسييفتشس ، صدقتى .
تستطيع بعد اليوم أن تنعم بحياة هادئة ، فاعتن بصحتك وكن فرحا .
كنت أود أن أطيل الكتابة ، ولكننى أشعر بتعب شديد . اضطررت الى
ملازمة الفراش طول نهار أمس . أشكر لك وعدك بزيارتى . زرنى
يا ماكار الكسييفتشس ، فأسر بذلك سرورا كبيرا .

ب.د.د.

١١ أيلول (سبتمبر)

عزيزتي الغالية جدا فرارا الكسيفنا !

أناشذك الله يا صديقتي العزيزة جدا ، أتوسل اليك ، أضرع اليك
ألا تتركيني الآن ، ألا تتعدي عني في اللحظة التي أصبحت فيها
سعيدا كل السعادة راضيا عن حياتي كل الرضى ! يمامتي ، لا تصغي الى
نصائح فيدورا ، واعلمي انني سأتبع في سلوكي دائما الطريق التي
نشيرين به وترغين فيه . سأحسن سلوكي ، احتراما لصاحب السعادة
على الأقل . سيكون سلوكي حسنا جدا ، ساكون مستقيما نسيطا . وسنظل
تبادل رسائل سعيدة هائلة ، يسر كل منا الى صاحبه بخواتمه وأفكاره ،
ويشاطر كل منا صاحبه أفراحه وهمومه ، اذا كان هنالك هموم سنقاسي
منها أيضا . سنعيش معا فرحين منسجمين . وسنهتم بالأدب ياملاكي
الراقي ، هل توافقين ؟ لقد تبدل مصري تبدا كاملا ، تبدا حسنا .
صاحبة البيت مثلا أصبحت أكثر تسامحا . وأصبحت تيريز أقل حماقة
وغباء مما كنت أتصور . حتى فالدوني أصبح يظهر خفة ونشاطا ومرونة .
أما راتازايف فقد تصالحت معه . ذهبت أراه قبل سائر السكان وأنا أفيض
فرحا . انه فتى طيب جدا يا ماتوشكا . اعلمي انه فتى طيب جدا
. . . . وليس ما قيل عنه من سوء الا اثرثة ظالمة وتجنيا ! لقد اقتنعت أن
ذلك كله لم يكن الا افتراء دنيئا . لم يخطر بباله أبدا ، في يوم من
الأيام ، أن يصفنا ، أن يتخذنا موضوع رواية يكتبها . أكد لي ذلك هو
نفسه . وقد قرأ لي بضع صفحات من آخر كتاب له . أما ذلك اللقب
الذي أطلقه عليّ ، أعنى اسم « لوفلاس » فيظهر انه لا يشتمل على شيء
من اهانة ، ولا هو بالاسم المعيب . لقد شرح لي معنى هذا الاسم . هو
كلمة مستمدة من لغة أجنبية تعنى شيئا من هذا القبيل « الفتى النسيط

الجرىء» ، أو قولى بتعبير أقرب الى الأناقة وأسلوب أدنى الى الأدب ،
« السيد الذى يعرف ما يجب له » ذلك هو معنى تلك الكلمة • فليس
فيها اذن شيء من غمز يجرح الشعور أو يسئ الى الكرامة • هى مزحة
غير مؤذية يا ملاكى الرقيق • ما أنا الا جاهل ، لذلك ساءنى هذا اللقب •
لكن كل شيء صلح الآن ، وقد اعتذرت الى راتازايف ••••• ثم ان الجو
جميل جدا اليوم يا فارنكا ••• هو جو رائع عذب ••• صحيح انه كان
فى الصباح شيء من صقيع ، وان رذاذا من المطر والبرد قد خالط الهواء
قليلا • ولكن ذلك لا يعد شيئا ••• حتى أن الهواء قد تنضر من ذلك •
ذهبت أشتري لنفسى حذاءين ، وقد عثرت فعلا على حذاءين مدهشين •
ثم مضيت أتجول متنزها فى شارع نفسكى • وقرأت عددا من جريدة
« النحلة » ها ••• نسيت شيئا أساسيا ••• يجب أن أروييه لك الآن :

اليك المسألة :

فى هذا الصباح تحدثت مع ايميليان ايفانوفتش وهياسنت
ميخائيلوفتش عن صاحب السعادة • نعم يا فارنكا : يظهر اننى لست الرجل
الوحيد الذى حظى منه بكل هذا الكرم وهذا السخاء • لقد نعم آخرون
باحسانه أيضا ، والناس جميعا يعرفون طيبة قلبه ونبل نفسه • كثيرون
أولئك الذين يتغنون بفضائله ويمدحون مزاياه • وفى بيوت كثيرة تذرف
دموع العرفان بالجميل حين يجيء ذكره ويدور الحديث عليه • لقد كفل
فى بيته يتيمة مسكينة ، وعنى بمستقبلها ، وزوجها رجلا محترما من موظفى
مكتبه • واهتم كذلك بآبن امرأة أرملة ، فعينه فى وظيفة من وظائف
الحكومة • وقام بأعمال أخرى كثيرة من أعمال البر فحين علمت ذلك
يا ماتوشكا رأيت أن من واجبى أن أشد أنا أيضا نشيدى الصغير فى
مدحه ، فقصصت على الجميع بصوت عال قصة ما أعقدقه على صاحب

السعادة وما غمرني به • قلت لهم الحقيقة كلها ، فلم أخف عنهم شيئا • وضعت خجلى في جيبى • والامر فى الواقع أمر خجل وكرامة شخصية ازاء عظمة كهذه العظمة • أذعت الحقيقة جهارا حتى لا يجهل أحد ما يتحلى به صاحب المعالى من نفس عظيمة وروح كبيرة • تكلمت بحماسة ، بحرارة ، دون أن يحمر وجهى • بالعكس : كنت فخورا بسر هذه القصة • أفضيت لهم بكل شيء (الا مانعلق بك طبعاً ياماتوشكا) : حكيت لهم متاعبى مع صاحبة البيت ، ومع فالدونى ، وحدثتهم عن راتازايف ، وعن حذامى ، وعن ماركوف • حدثتهم عن كل شيء ، كل شيء • صحيح ان بعضهم ابتسم فى بعض اللحظات • بل الحقيقة انهم جميعا ابتسموا • حتى لقد ضحكوا قليلا • لاشك ان قد كان فى هيئتى أو فى وجهى ما يبعث على الضحك ، أو لعل قصة حذامى هى التى أضحككنهم ••• نعم هى قصة الحذاءين قطعاً • ذلك ان من غير المعقول أن يضحكوا بنية سيئة • أنا على يقين من هذا • وقد ضحكوا لأنهم شبان ، وربما لأنهم أغنياء أيضا • ولكن لم يخطر ببالهم أن يسخروا من أقوالى وأن يستهزئوا بكلامى • ما كان لهم أن يتخذوا من مدحى لصاحب عبت وهزء • هذا مستبعد تماما • ألا تظنين ذلك

بل حتى الآن الى كمال استردادى لهدوء نفسى ياماتوشكا • هذه الأحداث كلها هزا عنيفا • هل عندك ما يكفيك من حطب لندفنه ؟ حاذرى أن ينالك برد يا فارنكا • سرعان ما يصاب المرء بالزكام فى هذا الجو • آه منك يا ماتوشكا ! هل تعلمين انك تقتلينى قتلا بأفكارك السود الحزينة تلك ؟ اننى أدعو لك الله بغير انقطاع • لبتك تعلمين كم أدعو لك وكم أصلى من أجلك يا ماتوشكا ! قولى : هل لديك تجربة من صوف ، وهل عندك ما تدثرين به جسمك اتقاء البرد على الأقل ؟

كوني حذرة يا يمامتى • اذا أعوزك شيء فلا تغفلى أن تذكرى لى ذلك :
أنشدك الله لا تهينى شيخا مسكينا بالاحجام عن التوجه اليه فى مثل هذه
الحال • لا تغفلى على • المستقبل باسم مشرق ، ولن تكون أيامنا بعد
الآن الا وضاء سعيدة •

آه يا فارتكا ! ما كان أصعب وآلم تلك الأيام الشقية ! لقد انقضت
الآن ، فلا تتحدثى عنها ، هى بضع سنين ثم نسى هذه الفترة فما تخطر
لنا على بال • اننى أتذكر سننى شبابى • يا لذلك العهد ! كان يتفق لى أن
أظل أياما بلا قرش فى جيبي •• كنت أقاسى من البرد وأعانى من الجوع
•• ومع ذلك ما أعظم الفرح الذى كان يملأ نفسى ! كنت أقوم أحيانا
بنزهة فى الصباح على نهر نفسكى ، فاذا لمحت وجهها جميلا ، كان يكفينى
ذلك حتى أظل سعيدا النهار كله الى المساء ! ما كان أجمله عهدا ! ما كان
أجمله عهدا يا ماتوشكا ! ما أمتع الحياة فى هذا العالم يافارتكا ! ما أمتها
فى بطرسبرج خاصة ! لقد تبت الى الله بالأمس باكيا ، وضرعت الى
الرب أن يغفر لى الخطايا التى انجرفت اليها خلال هذه الفترة القاتمة ،
من دمدمات تدمر وتمرد ، الى اتجاهات نحو البرالية ، الى فجور وفسق ،
والى قمار وميسر ••• ولقد ذكرتك فى صلواتى وأدعيتى منفلا أعمق
الانفعال • أنت وحدك ، يا ملاكى الصغير الرقيق ، بثت فى نفسى القوة ،
وواستينى ، وعزيتينى ، وخففت عنى ، ووجهتنى بنصائحك الحكيمة الى
طريق الرشاد • لن أسى هذا يا ماتوشكا ، لن أنساه أبدا • اليوم تناولت
رسائلك فقبلتها جميعا واحدة بعد أخرى ! نعم يا يمامتى ! أودعك الآن
ياماتوشكا • قيل لى ان هناك ، على مقربة منا ، رداء يراد بيعه • سأمضى
أستطلع الأمر • وداعا ياملاكى الرقيق ، وداعا •

صديقك المخلص اخلاصا عميقا

ماكار ديفوشكين

١٥ أيلول (سبتمبر)

السيد العزيز جدا ماكار الكسييفتش !

اننى مضطربة اشد الاضطراب • اسمع ما حدث • يجب أن أذكر لك أولا اننى كنت أوجس منذ زمن وقوع حادث مخوم • فانظر فى الامر بنفسك يا صديقى العزيز : ان السيد بيكوف هو الآن فى بطرسبرج • • لقد صادفته فيدورا • فلما لمحها استوقف عربته ودنا منها وأراد أن يعرف أين تسكن الآن • وقد رفضت فيدورا فى أول الأمر أن تقول له شيئا • فصرح لها وهو يضحك ضحكة صغيرة ساخرة انه يعرف من تستضيف عندها (لا شك ان أنا فيدوروفنا هى التى قصت عليه كل شيء) وعندئذ لم تستطع فيدورا أن تكظم غيظها وأن تكبح جماح نفسها ، فأخذت تكيل له الشتائم فى الشارع ، وتصب عليه أنواع التقرع ، قائلة :
... لا تلتفت لى ... كذا ما قال ... من ضروب المذابح
، يكون المرء شقيا حين
، أن أعيش من عملى ،
بـ وظيفة من الوظائف ، ولكن
الابد ، واننى عدا ذلك مريضة مشرفة على
- شابة فى مستقبل العمر ، واننى أضع فى رأسى
• وان « فضائلنا قد حال لونها » فيما يظهر (تلك كلماته) •

قدرنا أنا وفيدورا انه يجهل عنوانها • ولكن تصور أنه بالأمس ، بعد خروجى من البيت لشراء بعض الأشياء من قناطر جوستينى ، دخل غرفتنا على حين فجأة • واضح انه كان يتمنى أن لا يجدنى فى منزلى • فأخذ يسأل فيدورا عن معيشتنا مسهبا ، وأخذ ينعم النظر فى أرجاء الغرفة ، وأحب أن يعرف شيئا عن عملى فى الخياطة ، ثم ألقى على

فيدورا فجةً هذا السؤال : « من هو ذلك الموظف الذى تقوم بيننا وبينه علاقات صداقة ؟ » واتفق أن كنت أنت مارا فى تلك اللحظة نفسها ، فدلته فيدورا عليك ، فنظر اليك وابتسم . وتوسلت اليه فيدورا عندئذ أن ينصرف قائلة له ان أحزاني قد هدت قواى وجعلتني مريضة ، فحسبى مالقيته ، ولا داعى لأن أتألم مزيدا من الألم حين أعود فألقاه أمامى . فصمت لحظة ثم قال انه جاء عرضا ، فقد مر بالمكان مصادفة ، وكان فى وقته متسع ، فدخل بغير غاية يقصدها أو هدف يرمى اليه . وأراد أن يعطى فيدورا خمسة وعشرين روبلا ، ولكنها رفضت أن تأخذ منه شيئا بطبيعة الحال . ترى ماذا تعنى هذه الزيارة ؟ ماذا كان يريد منسا ؟ لم أستطع أن أفهم من أين عرف عنا هذه الأخبار كلها . اننى أقلب الأمر على وجوهه وأفرض الفروض ، وأظن الظنون ، فلا أهتدى الى جواب على هذا السؤال . تدعى فيدورا أن أكسينيا زوجة أخيها التى تأتى الينا أحيانا تعرف الغسالة أناستازيا ، وان ابن عم أناستازيا خفير فى وراة يعمل فيها أحد أصدقاء ابن أخى أنا فيدوروفنا ، فلعل بعض الاشاعات قد تسربت عن هذا الطريق . ومن الجائز أن تكون فيدورا مخطئة على كل حال . والحق اننا لا ندرى كيف نفكر فى هذا الأمر كله ولا كيف نعلله ونفسره . أمن الممكن أن يعود مرة أخرى ؟ ان تصور هذا وحده يملؤنى رعبا ! حين أطلعتنى فيدورا مساء أمس على ما جرى بلغت من الرعب اننى أوشكت أن يغمى على . ماذا يريدون فوق ما فعلوا ؟ اننى لا أريد أن أعرفهم بعد الآن . لماذا يصرون على الاهتمام بأمرى أنا المسكينة البائسة الشقية ؟ آه ما أشد المخاوف التى أشعر بها فى هذه الساعة ! يخيل الى أن بيكوف سيدخل علينا من لحظة الى أخرى . فما عسى يقع لى عندئذ ؟ ماذا يخبى لى القدر أيضا ؟ أنا أناشدك محبة يسوع أن تجيئى الى بغير ابطاء يا ماكار الكسيسيفتش . تعال الى ، أضرع اليك ، تعال .

١٨ أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا ، فرارا الكسييفنا !

حدث اليوم فى منزلنا حادث حزين كل الحزن ، لا يعلل ولا يفسر ، ولا كان فى خيال أحد أن يقع . ان صاحبنا المسكين جورشكوف (يجب أن أقول لك هذا عابرا ياماتوشكا) قد أمكن أن يرد اليه اعتباره . فقد قضت المحكمة فى قضيته منذ مدة طويلة ، وذهب اليوم الى المحكمة ليتبلغ قرارها النهائى . انتهت القضية نهاية ترضيه كل الرضى . ذلك انها برأته من جميع ما نسب اليه ، عدا انه ارتكب أخطاء اهمال وغفلة . وقضى قرار المحكمة أن تدفع له من أموال التاجر المصادرة المبالغ الضخمة التى يستحقها ، وبذلك تحسنت حالته المادية أيضا تحسنا كبيرا . وأصبح شرفه غير ملطخ من جهة أخرى ، ومعنى هذا أن جميع شئونه قد صلحت كثيرا . الخلاصة أن جميع ما كان يتمناه قد تحقق له . عاد الى البيت فى الساعة الثالثة مضطرب الوجه شاحبا شحوبا شديدا . كانت شفتاه ترتجفان ، ولكنه كان يتسم . قبل زوجته وأولاده . وهرعنا جميعا الى غرفته نهته ، فبدت فى وجهه علائم التأثير الشديد لهذه البادرة من جانبنا ، وراح يحيى ويسلم فى جميع الجهات ويصافح كلا منا عدة مرات . حتى لقد لاح لى أن جسمه نفسه قد كبر ، فكأن قامته انتصبت ، وأحسب أن العبرة الصغيرة المألوفة أصبحت غير عالقة بأهدابه . كان المسكين مضطربا اضطرابا شديدا ، فهو لا يستطيع أن يستقر فى مكان دقيقتين . كانت يده ما تنفك تقبض على هذا الشيء أو ذاك ، ثم ما تلبث أن تنبذه بغير داع ، وكان يتسم بلا انقطاع ، ويحيى ، ويجلس ، ثم ينهض ، ثم يعود الى الجلوس ، وهو بين هذا وذاك لا يكف عن الكلام ، وكان كلامه مشوشا لا تسلسل فى معانيه ولا اتساق بين أفكاره . كان يقول

كلاما من هذا النوع : « شرفى ، سمعتى ، أولادى ، صيتى الحسن بين
الناس . . . » • حتى لقد أخذ ينتحب فجأة فى لحظة من اللحظات ••
وترقرت فى مآتى أكثرنا دموع أيضا • وأراد راتازايف أن يعزیه وأن
يقوى عزيمته فقال له وهو يرت على كتفه : « مالك تتكلم عن الشرف
يا عزيزى وأنت لا تملك ما تسد به الرمق • المال يا عزيزى ! المال !
ذلك هو الأمر المهم ! احمد الله على أنه وهب لك هذا المبلغ الضخم ،
ذلك ما يجب أن تحمد الله عليه ! » • وأحسست فى تلك اللحظة أن
جورشكوف قد استاء • لا أقول أنه أظهر امتعاضا ، ولكنه رمى راتازايف
بنظرة غريبة ، وأبعد يده عن كتفه • ذلك وضع ما كان ليتخذه من قبل
ياماتوشكا • لكل انسان طبيعه على كل حال • فأنا مثلا ما كنت لأظهر شيئا
من الزهو فى مثل هذه اللحظة من السعادة • ألا يتفق لنا ياماتوشكا أن
نسرف فى التحية والسلام وأن نفرض على أنفسنا مزيدا من التواضع
والتذلل لا لشيء غير شهامة شبت فى النفس ، وحنان استولى على القلب ؟
ولكن دعينا من هذا الآن ، فما هو بالأمر الذى من أجله أكتب اليك فى
هذه اللحظة • قال جورشكوف : « نعم ، أنا معتبط بالمال أيضا ، الحمد لله »
ثم لم يزد بعد ذلك على أن ظل يردد طول الوقت قوله : « الحمد لله ،
الحمد لله ! ••• » • وطلبت امرأته غداء أرقى نوعا وأكبر مقدارا مما
اعتادت أن تطلب ، فلبتها صاحبة البيت ، حتى لقد أرادت أن تهيب الطعام
بنفسها • ان صاحبة البيت امرأة شهمة على طريقتها الخاصة ، فى بعض
الأمر على الأقل • وظل جورشكوف يذهب ويحجى قبل الغداء • كان
يدخل على جميع من فى البيت ، دعى أم لم يدع • يدخل الغرف مبتسما
ويجلس على كرسي ويقول بضع كلمات أو يلبث صامتا • ثم يتكلم على
حين فجأة • حتى لقد مضى عند الضابط البحار الى حد تناول ورق
اللعب ، والمشاركة فى اللعب طرفا رابعا • لعب بضع لحظات ، فتاه عقله

بين أوراق اللعب ، فقال ، « باس » عدة مرات ، ثم نهض بغتة وهو يدمدم : « لا ، لا ، لا ، لم أشأ أن ألعب جادا ، وانما أحييت أن أرى فحسبه ثم انصرف . فلما لقينى فى المر تناول يدي وحقق فى عيني تحديقا غريبا بعض الغرابة ، ثم ابتعد وهو ما يزال مبتسما . لكن ابتسامته كان فيها شيء من ثقل ، فهى تخلف فى نفس من يراها شعورا أليما ، فكأنها ابتسامه ميتة . وكانت امرأته تبكى فرحا . لقد ظللت السعادة بيتهم مرة . كان جو غرفتهم يشبه أن يكون جو عيد . تناولوا غداءهم مسرعين . وقال الرجل لزوجته بعد الغداء : « اسمعى يا عزيزتى : أحب أن أرتاح قليلا » واضطجع فى سريره . نادى ابنته ، فوضع يده على رأسها ، ولاعب شعرها مدة طويلة . ثم التفت الى امرأته يسألها : وابنتا بتنكا ؟ أين هو ؟ فرسنت امرأته اشارة الصليب وأجابته خائفة مذعورة بأن ابنتها قد مات ، وبأنه يعرف هو ذلك . فقال لها : « طبعا طبعا أنا أعرف ذلك ، أنا أعرف كل شيء ، أنا أعرف أن بتنكا هو الآن فى ملكوت السموات » . فأدركت امرأته عندئذ أن زوجها ليس فى حالة طبيعية ، فالحادث قد هزه هزا عنيفا عميقا ، فقالت له : « خير لك يا عزيزى أن تنام بضع لحظات » . فقال : « نعم نعم ، سأنام فورا . . . أنا . . . قليلا . . . » وتحول عنها الى الجهة الأخرى ، فظل ساكنا دقائق لا يتحرك ، ثم لم يلبث أن التفت الى امرأته من جديد ، يحاول أن يقول بضع كلمات فى أغلب الظن . فلما لم تسمع امرأته كلامه واضحا سألته قائلة : « ماذا تريد يا صديقى ؟ » . ولكنه لم يجب . فانتظرت بضع لحظات ، ثم قالت لنفسها : « لا شك انه غفا » . وذهبت الى صاحبة البيت تثرثر معها قرابة ساعة . حتى اذا عادت الى الغرفة وجدت أن زوجها لما يستيقظ بعد ، وانه ما يزال ساكنا فى سريره . فقدرت أنه نائم ، وجلست على كرسى ، وأخذت تشتغل . قالت لنا فيما بعد انها غرقت عندئذ فى تأملاتها ، فانقضى على ذلك نصف ساعة . انها

لا تتذكر الآن الموضوع الذى دارت عليه تأملاتها ، وكل ما تقوله هو أنها فى أثناء ذلك نسيت حضور زوجها نسيانا كاملا ، ولكنها ارتدت فجأة الى الواقع بسبب احساس مقلق انتابها على حين فجأة ، فأذهلها هذا الصمت الغريب ، هذا الصمت الذى يسود الغرفة ويشبه صمت القبور . ألت نظرة على السرير فلاحظت أن زوجها لم يغير وضعه ، فاقتربت منه ورفعت عنه الغطاء ، فأدركت فى تلك اللحظة فقط ، أن جسمه كان قد برد . لقد مات جورشكوف ياماتوشكا . مات فجأة ، كأن صاعقة نزلت عليه . أما سبب موته فأنا أجهله كل الجهل . وقد بلغت من التأثر والاضطراب لهذا الحادث يافارتكا اننى لم أثب الى نفسى حتى هذه اللحظة . لا أستطيع أن أصدق أن من الممكن أن يموت انسان هذه الميتة ، من لحظة الى أخرى! مسكين جورشكوف ! مسكين ! ... ما أكثر ما لقي من صنوف الشقاء والعذاب ! ياله من مصير ! ياله من مصير ! ان امرأته غارقة فى دموعها وان فى هيئتها الآن ذعرا لا يوصف . أما البنت فقد لطت فى ركن من أركان الغرفة ساكنة لا تتحرك . ان فى الغرفة حركة ذهاب واياب كبيرة ... وهم يتكلمون الآن عن تحقيق طبى سيتم اجراؤه .. لأدرى تماما ... ولا أستطيع أن أزودك بتفاصيل عن هذا الموضوع . ولكننى أتألم لهم أشد الألم ، أشد الألم . انه لما يحزن النفس أن يتصور المرء انه لا يعرف فى أى يوم ، فى أى ساعة ... أن من الممكن أن يموت الانسان ميتة بلهاء فى لحظة كانت فكرة الموت فيها أبعد ما تكون عن خياله .

صديقك

ماكار دييفوشكين

١٩ ايلول (سبتمبر)

سيدتى العزيزة فرارا الكسييفنا !

أسارع فأنبئك أن صديقى رانازايد قد جاءنى بعمل أقوم به لأحد الكتاب • هو مؤلف جاء يزوره فأعطاه مخطوطة كبيرة لأتولى أنا نسخها •• لن يعوزنى العمل اذن • الحمد لله • ولكن المؤسف أن خط المؤلف يبلغ من الرداءة أننى لا أستطيع قراءته ، فأنا أتساءل كيف يمكننى أن أفكه • ثم انهم يطلبون أن أنجز نسخ المخطوطة فى مهلة قصيرة جدا ، لأن الأمر مستعجل • يعالج الكتاب أمورا كثيرة أحس أننى لا أفهم منها شيئا ••• وقد اتفقنا على أجر هو أربعين كوبكا عن كل صفحة • أذكر لك هذه التفاصيل كلها يا صديقتى لتعلمى أن ما سأكسبه سيفيض عن حاجتى • أودعك الآن ياماتوشكا • وسأشرع فى العمل قورا •

صديقك الوفى

ماكار دييفوشكين

٢٣ ايلول (سبتمبر)

صديقى العزيز جدا ماكار ألكسييفتش !

منذ سبعة أيام لم أكتب اليك ، وقد شغلت خلال هذه المدة بأمر كثيرة ، كما مرت بى أحداث تشير القلق والاضطراب • أول أمس ، زارنى بيكوف • كنت عندئذ وحدى فى البيت ، لأن فيدورا كانت قد خرجت • فتحت له الباب ، فلما رأيته اتابنى رعب وذعر ، حتى اننى

لم أستطع أن أقوم بأيّة حركة • وشعرت بوجهي يصفّر • دخل وهو يطلق ضحكة صاخبة مدوية على عادته، وتناول كرسيًا بنفسه فقعده عليه • لبثت مدة طويلة لا أستطيع أن أتوب إلى نفسي وأن أملك شعوري • وأخيرا مضيت أعتصم بركن من العرفة ، واستغرقت في شغلي فما لبث أن كف عن الضحك • أغلب الظن أن مظهرى قد فاجأه • كنت قد تحللت نحوًا شديدًا في الآونة الأخيرة • خدائى خاسقتان ، وعينائى غائرتان ، ووجهي شاحب شحوبا شديدًا • لا شك أن الذين عرفونى منذ سنة يصعب عليهم أن يعرفونى الآن • أنعم النظر إلى مدةً طويلةً باتباه شديد ، ثم عاد إلى مرجه وضحكه • أبدى ملاحظة لا أتذكرها الآن ، ولا أدري بماذا أجبت ، ولكنه استأنف ضحكه حين سمع جوابي • مكث عندي ساعة كاملة يلقي علىّ الأسئلة تلو الأسئلة • وأخيرا ، لحظةً همّ أن ينصرف ، أمسك يدي وقال لي (وأنا أتقل اليك أقواله بنصها) : « فرفارا ألكسيفنا ، يجب أن أتعرف ، بينى وبينك ، ان أنا فيدوروفنا التي هي قريبتك والتي تربطني بها صداقة ، هي امرأة حقيرة دنيئة شريرة » • (استعمل لفظة أخرى أيضا ، ولكنها لفظة غير لائقة) « لقد دفعت ابنة عمك الصغيرة في طريق سيئة ، وأدت بك أنت أيضا إلى الضياع • أما أنا فقد سلكت في ذلك الظرف سلوك رجل جبان • ولكن ما العمل ؟ تلك قصة مبتذلة شائعة » • قال هذه الكلمات وانفجر ضاحكا • كان يقهقه ملء حنجرتة • وقال أخيرا انه لا يجيد القاء خطبة طويلة ، وانه ذكر الشيء الأساسى الذى أملى عليه ضميره أن يذكره ، لأن الشرف يقضى بذلك ، وانه سيوجز فيما سيضيفه من قول • وشرح لي عندئذ ، بغير اسهاب ولا لف ولا دوران ، انه يريد أن يتزوجنى ، وانه يرى ان من واجبه أن يرد إلى اعتبارى وشرفى ، وانه غنى ، وانه سيأخذنى بعد الزواج إلى أراضيه ، وانه ينوى أن يفرغ هناك لصيد الأرناب ، وأضاف

الى ذلك انه لن يعود الى بطرسبرج أبدا ، لأن بطرسبرج مدينة مملّة
مضجرة موبوءة ، وان له هنا ابن أخ هو في رأيه ولد حقير ، لذلك آلى
على نفسه أن يحرمه من ميراثه ، حتى أن هذا هو السبب الذي يحرص
من أجله على أن يتزوجني ، وذلك ليكون له ورثة شرعيون ، فذلك هو
الباعث الأساسي الذي دفعه الى القيام بهذا المسعى عندي . ولفت نظري
بعد ذلك الى إنني أعيش حياة فقيرة جدا، وانه ليس بالمستغرب أن أمرض
وأنا أقيم في مثل هذا الكوخ الحقير الذي أسكنه . وتنبأ لي بموت وشيك
اذا أنا أصررت على البقاء هنا ولو شهرا واحدا آخر . وقال ان البيوت
في بطرسبرج سيئة ، وسألني أخيرا هل أنا في حاجة الى شيء ؟ .

بلغت من الانشدهاء لهذا العرض اننى أخذت أبكي ، لا أدري لماذا ،
فظن أننى أذرف دموع العرفان بالجميل . فقال انه كان دائما يعدنى فتاة
طيبة القلب ، رقيقة العاطفة ، حساسة الشعور ، مثقفة ، ولكن ما كان له
مع ذلك أن يقدم على ما يقدم عليه الآن لولا انه سأل عن سلوكى الراهن
فعرّف تفاصيله . قال انه مطلع على كل شيء ، وانك رجل فاضل الأخلاق ،
وأنه لا يريد أن يبقى مدينا لك ، فهو يريد أن يعرف هل يكفى خمسمائة
روبل في رأيتك تعويضا لك عن كل ما صنعته في سيبلي ؟ فلما قلت له
ان خيراتك علىّ هى من تلك الخيرات التى لا يمكن أن يكافئها أى مبلغ
من المال ، صاح يقول ان هذا كله سخافات ، وان هذا كله من باب
الروايات ، واننى ما زلت شابة ، واننى أحب قراءة الشعر ولا شك ، وان
الروايات تضعيف الفتيات وتفسد أخلاقهن ، وانه يحققر جميع الكتب على
وجه الاجمال . ونصحنى أن أنتظر ان أكبر بضع سنين أخرى حتى
أصدر أحكاما صحيحة في حق الناس . وأضاف قوله : « سوف تتعلمين
عندئذ كيف تعرفينهم » . وسألني بعد ذلك أن أفكر فيما عرضه علىّ متمهلة
غير متعجلة ، لأنه سوف يؤلمه كثيرا ان اتخذ قرارا خطيرا هذه الخطورة

دون أن أفكر فى الأمر تفكيرا عميقا . وقال ان الخفة والطيش والاندفاع مع الهوى تؤدي بالشباب الذين لم يخبروا الحياة الى الضياع ، ولكنه ، من جهته ، يتمنى من أعماق قلبه أن يجيء جوابى بالموافقة على عرضه . أما اذا رفضت هذا العرض فسيجد نفسه مضطرا أن يتزوج تاجرة من سكان موسكو ، لأنه آلى على نفسه أن يحرم ذلك الوغد ابن أخيه من ميراثه . وترك لى خمسمائة روبل أجبرنى على قبولها اجبارا ، لأستطيع أن أشتري لنفسى بها حلوى . . . كذلك قال . وأكد اننى لن ألبث أن أسمن فى قرينته وأتربل ، واننى سأعيش عنده فى وفرة وبجسوحة . وأضاف الى ذلك انه كان فى هذه الأيام الأخيرة مشغولا جدا ، فهناك أمور كثيرة يجب أن يسويها ، وانه جاء الى عابرا ، منتهزا فرصة بين موعدين هامين . وانصرف بعد ذلك . فأخذت أفكر مليا . قلبت الامر على وجوهه المختلفة ، ولبثت أتأمل ساعات وساعات الى غير نهاية ، وعانيت من اضطراب الفكر ما عانيت ، حتى انتهت أخيرا الى اتخاذ قرار . لقد قررت يا صديقى أن أتزوجه . لا بد أن أقبل ما عرضه على . انه الرجل الوحيد الذى يمكنه أن يغسل عارى ، وأن يصلح سمعتى ، وأن يجنبى البؤس وأنواع الحرمان وصور الشقاء فى المستقبل . ما الذى يمكن أن أطمع فيه بعد الآن ؟ ما الذى أستطيع أن أنتظره من القدر ؟ فيدورا تقول ان على المرء أن يعرف كيف يمسك السعادة من شعرها ؟ هى تؤكد أن . . . ولكن ما هى السعادة بعد كل حساب ؟ أما أنا فلا أتصور مخرجا آخر على كل حال ، فاعلم ذلك يا صديقى الغالى . ما العمل ؟ لقد أضيت صحتى بالعمل ، وسوف يستحيل على أن أوصل هذا العمل دائما . اما أن أوظف لدى أسرة ، فان ذلك سيميتنى حزنا وأسى . وما من أحد يريدنى على كل حال . ان جسمى عليل ، وسأكون لذلك عبئا على الآخرين . طبعا ليس ما اخترته هو

الجنة • ولكن ماذا يجب أن أعمل يا صديقي ؟ ماذا أستطيع أن أعمل ؟
الحق اننى ليس لى فى الأمر خيار •

لم أسألك نصحا • أردت أن أزن جميع جوانب القضية بنفسى •
والقرار الذى أبلغتلك اياه منذ هنيهة قرار مبرم لا رجوع عنه ، وسأبلغ
بكوف هذا القرار فوراً ، فهو يصير على أن أبلغه جوابى الحاسم • وهو
لأن يستعجلنى ، قائلاً ان أعماله لا تمكنه من الانتظار ، وان عليه أن
يسافر ، وانه لا يستطيع أن يرجى سفره لأسباب تافهة • لا يدري الا
الله هل سأجد السعادة هنالك ! ان مصيرى رهن بارادة الله المقدسة •
ولكننى عزمت أمرى ، واتخذت قرارى • يقولون ان بيكوف رجل شهم •
سوف يحترمنى ، وقد أعلم ان أحترمه أيضا • هل يمكن أن نرجو من
زواجنا أكثر من ذلك ؟

ها قد أطلعتك على الوضع يا ماكار ألكسييفتش • أنا واثقة انك
ستفهم ما أنا فيه من حزن • لا تحاول أن تشينى عن عزمى ، فسوف تضع
جميع جهودك فى هذا السيل سدى • حاول أن تزن فى قرارة نفسك
جميع الأسباب التى دفعتنى الى اتخاذ هذا القرار • لقد تعذبت كثيرا فى
أول الأمر ، ولكننى هادئة كل الهدوء الآن • اننى أجهل ما يخبئه لى
المستقبل • فليكن ما يكون ، ولتتم مشيئة الله ! ••• وصل بيكوف ، لذلك
أقطع الرسالة قبل اكمالها • هناك أمور كثيرة كان يجب أن أقولها لك
أيضا •

٢٣ أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا ، فرارا الكسييفنا !

أسارع الى الرد على رسالتك يا ماتوشكا . أبادر فأقول لك
ياماتوشكا اننى قد ذهلت . كل هذا غريب متناقض ... أمس دفنا
جورشكوف . نعم يا فارنكا . الأمر كذلك اذن . هو كذلك اذن يافارنكا .
لقد تصرف بيكوف تصرف رجل شريف . وقبلت أنت دفعة واحدة
يا صديقتى ... ولكن ... صحيح ان مقاديرنا بيد الله ... هى بيد
الله ... أنا أعرف ذلك ... ولا بد أن يكون الامر كذلك ... أريد
أن أقول ان مشيئته هى العليا ، ولا بد أن تنفذ مشيئة الله . والله العلى
القدير مشيئة لا تجحد عدلتها ولا يجحد عمقها ، ولكننا لا نستطيع أن
تنفذ الى سرها ... ومصائرنا كمشيئة الله أيضا . ان بيكوف يريد لك
السعادة ... أنا واثق من ذلك . واضح انك ستسعدين الآن يا ماتوشكا ،
وأنتك ستعيشين فى يسر ووفرة وبجودة يا يمامتى ، يا ملاكى الصغير
المعبود ، يا طائرى اللطيف ... ولكن يا فارنكا لم هذا التعجل كله ؟ ...
الأعمال .. نعم .. الأعمال .. السيد بيكوف مشغول جدا .. صحيح ..
كل انسان فى هذا العالم مشغول .. وقد يكون السيد بيكوف مشغولا
أيضا . لقد لمحته لحظة خروجه من عندك .. انه رجل مهيب ، مهيب
جدا .. ولعله مهيب أكثر مما ينبغى .. ولكن هذا كله ليس واضحا
وضوحا كاملا .. ليست القضية قضية هيئته المهية الآن .. ثم ان فكرى
مشوش مضطرب فى هذه اللحظة .. فأنا لا أهتدى الى أفكارى ولا أعرف
ماذا أريد أن أقول . هناك نقطة هامة بوجه خاص : ما الذى سنعمله
من أجل أن نواصل التراسل ؟ وأنا ؟ وأنا ؟ أيجب أن أبقى وحيدا بعد
الآن ؟ لقد وزنت كل شىء يا ملاكى الرقيق ... نعم وزنت كل شىء ..

نظرت فى كل شىء ، كما طلبت منى ذلك ... و زنت كل شىء فى قرارة
قلبى ، و زنت جميع البواعث التى تذكرينها . كنت على وشك الانتهاء من
نسخ الصفحة العشرين من المخطوطة ، فاذا بهذه الأحداث كلها تسقط
على رأسى فجأة . ستسافرين اذن يا ماتوشكا . ستحتاجين الى أشياء
كثيرة استعدادا للسفر : أحذية ، ثوب ... اننى أعرف مخزنا فى شارع
جوروخوفايا . هل تذكرين حديثى الذى وصفت لك فيه ذلك المخزن؟
ولكن لا .. لا .. ما هذا الذى تقولين يا ماتوشكا؟ هلا فكرت فى الامر
قليلا؟ انك لا تستطيعين أن تسافرى الآن ... مستحيل ... مستحيل
استحالة مطلقة! هناك بضائع كثيرة يجب أن تشتريها قبل السفر ،
وستكونين فى حاجة الى عربة ، الى مركبة خاصة . ثم ان الجو قد ساء .
انظرى الى المطر كيف ينهمر غزيرا فى هذه اللحظة! انه مطر ردىء ،
انه مطر رطب .. ثم .. ثم .. سوف يصيبك برد يا ملاكى الرقيق ،
وسوف يصيبك برد روحى . أنت ، يا من تخشين الناس كل تلك
الحشية ، تقررين أن تسافرى؟ وأنا؟ مع من أبقى ، أبقى وحيدا؟
فيدورا تقول ان سعادتك هناك! انها امرأة قاسية عنيفة ، انها لا تفكر
الا فى ضياعى . أنت آتية الى الكنيسة لصلاة الغروب هذا المساء
يا ماتوشكا؟ سوف يطيب لى أن آتى لأراك هناك . ذلك صحيح كل الصحة
يا ماتوشكا ، صادق كل الصدق : انت فتاة فاضلة الخلق ، حساسة الشعور
مثقفة . ولكننى أرى أن زواجه بتاجرة موسكو خير له ... ألا ترين
هذا الرأى يا ماتوشكا؟ ان من الأفضل أن يختار تلك التاجرة ، فليزوجها
اذن . سأب اليك يا فارنكا الطيبة متى هبط المساء فأقضى عندك ساعة
أو بعض ساعة . ان الغسق يهبط مبكرا فى هذا الفصل . سأجى اليك .
أنت تنتظرين الآن بيكوف . فمتى انصرف ، سنرى ... انتظرى زيارتى
يا فارنكا . سأجى فى هذا المساء .

ماكارد ديغوشكين

صديقي العزيز ماكار الكسييفتش !

يرى السيد بيكوف أن من الواجب حتما أن يكون عندى ثلاث
دستات قمصان من الحرير الهولندى . فلا بد لنا اذن من خياطين لتفصيل
دستتين أخريين من القمصان ، لأنه لم يبق أمامنا الا وقت قصير . ان
السيد بيكوف يستعجلنى نافداً الصبر ، وهو يقول ان حكاية الحزن هذه
قد طالت كثيرا . سيتم زواجنا بعد خمسة أيام ثم نسافر فى الغداة . ان
السيد بيكوف يقول ان علينا أن نسرع ، ويقول ان علينا أن لا نضيع الوقت
فى ترهات . أنا مهدودة القوى بسبب هذه الهموم . فلا أكاد أستطيع
الوقوف على ساقى من الاجهاد . هناك أشياء كثيرة يجب أن أسويها ،
أشياء كثيرة تغمرنى حتى الرأس ؛ وانى لأتساءل : ألم يكن من الأفضل
أن أعدل عن هذه الحكاية كلها أساسا . بالمناسبة : ليس عندنا ما يكفى
من النسيج المخرم والقماش الشبيك ، فيجب أن نشترى من هذين
النوعين ، لأن السيد بيكوف يقول انه لا يطيق أن تكون ثياب زوجته
كثياب طباحة ، وان على أن « أخرس جميع نساء المالكين فى الأراضى
المجاورة لأراضيه » ، تلك هى كلماته . لذلك أرجوك يا ماكار
ألكسييفتش أن تذهب الى مدام شيفون بشارع جوروخوفايا ، فتوصيها
أولا بأن ترسل لنا خياطات ، وتوصيها ثانيا بأن تتكرم بالمجىء الى . اننى
متعبة اليوم . فالبرد شديد فى مسكننا ، وكل شىء فى البيت فوضى . ان
عمة السيد بيكوف تبلغ من الشيخوخة والهرم انها لا تكاد تستطيع أن
تنفس . وأنا أخشى فى كل لحظة أن توافيها منيتها قبل سفرنا . ولكن
السيد بيكوف يؤكد أن الامر بسيط ، وانها ستسترد قواها . كل ما فى
البيت مقلوب رأسا على عقب . السيد بيكوف لا يعيش معنا ، حتى ان

الخدم يتغيرون كثيرا ، فلا أدري أين يعثر المرء عليهم • وكثيرا ما يتفق أن لا يكون في خدمتنا أحد غير فيدورا • أما وصيف السيد بيكوف الذى كان ينبغى أن يشرف على كل شيء ، فقد انصرف منذ ثلاثة أيام دون أن يقول شيئا • السيد بيكوف يزورنا كل صباح ، فما ينفك يلوم ويقرع ويؤنب ، حتى لقد أخذ بالأمس يضرب ناظر المبنى ضربا مبرحا تشأت عنه مصاعب مع الشرطة ••• لا أدري بمن أستعين لايصال هذه الرسالة اليك ، لذلك أبعثها بواسطة البريد • ها ••• نعم ••• نسيت الشيء الأساسى : قل لمدام شيفون ان عليها حتما أن تبدل المخمرات وفقا للعينة التى درسناها أمس ، وأن تجيء بنفسها الى لترينى اختيارا جديدا • قل لها أيضا اننى غيرت رأيى فيما يتعلق بالصدار ، فأنا أرى الآن أن يحاك بالابرة • ثم ان الأحرف الأولى من الاسم يجب أن تطرز فى المناديل على الطارة ، هل فهمت ما أقول ؟ على الطارة لا بالتقليب • انتبه الى ما أقول • اياك أن تنسى اننى أريد تطريزا على الطارة • ها ••• كدت أنسى أيضا : أوصها ، ناشدتك الله ، أن تخطط الأوراق عالية جدا على رداء الكتفين ، وأن تقويها بصفائح وأن تخطط الياقة بشيك أو بتخريج عريض • لاتنس أن توصيها بهذا يا ماكار ألكسييفتش ، أرجوك •

صديقتك

ب•د

حاشية : يعذب ضميرى اننى أزعجك بهذه المهمات • لقد ظلمت أول أمس تجوب المدينة طوال الصباح من أجلى • ولكن ما حيلتى؟ ليس فى منزلنا نظام ، وأنا نفسى مريضة • فلا تؤاخذنى يا ماكار ألكسييفتش • ما عسى يخرج من هذا كله يا صديقى

الشهم الطيب ماكار ألكسييفتش ؟ اننى أنهيب أن أسأل
المستقبل • اننى أوجس خيفة وأعيش فيما يشبه الضباب •

حاشية : ناشدتك الله يا صديقى ، لا تنس شيئا مما عهدت به اليك • أخشى
أن تخطيء أو أن تختلط عليك الأمور • تذكر جيدا : على
الطارة لا بالقلب •

ب • د

٢٧ ايلول (سبتمبر)

المحترمة جدا فرارا الكسييفنا !

نفذت تنفيذًا دقيقًا جميع التوصيات التي كلفتنى بها • تدعى مدام
شيفون انها فكرت من تلقاء نفسها فى التطريز على الطارة ، فذلك أليق ،
إذا صح ما فهمته ، لأننى فى الواقع لا أعرف على وجه الدقة ماذا قالت لى
فى هذا الموضوع • وهناك أيضا مسألة التخريج التي كتبت اليّ فيها •
لقد كلمتنى هى أيضا عن التخريج • ولكننى يا عزيزتى لا أستطيع أن
أتذكر ما شرحته لى فى شأن التخريج هذا • كل ما يمكن أن أقوله هو
انها أفاضت فى الكلام عليه وأسهبّت •

امرأة عجيبة ، ما هو الموضوع تماما ؟ على كل حال ستردد على
أسماعك ما قالته لى • يجب أن أعترف لك يا ماتوشكا اننى كالتائه • حتى
لقد فوتّ عملى اليوم • صدقيني يا عزيزتى اذا قلت لك انك مخطئة فيما
تحسينه من حزن • ثقى أننى ، فى سبيل تهدئة خاطرک ، مستعد لأن

أجوب جميع مخازن المدينة • تقولين انك تخشين المستقبل • فلماذا هذه الحثية ما دمت ستعرفين كل شيء في الساعة السادسة من هذا المساء : سوف تجيئك مدام شيفون بنفسها • فلا تقلقي ، وأملي خيرا يا ماتوشكا • لسوف ترين ان جميع الأمور سترتب على أحسن وجه ، كما أقول لك • أما التخريج ، أما ذلك التخريج اللعين ، فسحقا للتخريج والتخريم والتطريز جميعا • كان يمكن أن أزورك يا ملاكي الرقيق ، كان يمكن أن أتب الي بيتك لحظة ، كان يمكن أن أجيء اليك حتما ••• حتى لقد دنوت من أبواب منزلك مرتين اثنتين •• ولكن هذا الرجل بيكوف ، عفوا ، أفصد السيد بيكوف متجههم الوجه جدا ••• لذلك لم أجازف •••
تم ماذا ؟

ماكار ديفوشكين

٢٨ أيلول (سبتمبر)

السيد العزيز ماكار الكسييفتش :

أتوسل اليك أن تركض فورا الى الصائح ، فتقول له انني عدلت عن قرطى الأذنين اللذين أوصيته بصنعهما من لآلىء وزمرد • ان السيد بيكوف يرى ان هذا اسراف في البذخ ، وان الثمن باهظ خاصة • انه غضبان جدا • يقول انا نبالغ في الانفاق ، وانا نتهبه نهبا • حتى لقد صرح أمس بأنه لو كان يتبأ بجمع هذه المصاريف لتجنب بلوج هذا الطريق أساسا • وهو يقول انا سنسافر فورا بعد الزفاف ، ولن يكون هنالك مدعون ، ولا يجب أن أتوقع أن أرقص وأتسلى ، فما تزال أعياد

نهاية العام بعيدة • انظر كيف يتكلم ، والله يعلم مع ذلك هل كنت أنا
فى حاجة الى هذا كله ! ان السيد بيكوف نفسه هو الذى حرص على أن
يوصى بها فى البداية • ولست أستطيع أن أرد عليه بشيء ، لأنه سريع
الغضب • ترى كيف ستكون حياتى ؟

ب • د

٢٨ ايلول (سبتمبر)

يماضى فرارا الكسييفنا !

اننى - أقصد ان الصائغ يقول انه قد نفذ أمرى • أما أنا فقد أردت
أن أذكر لك فى بداية هذه الرسالة اننى مريض لا أستطيع أن أبارح
سريرى • لقد جاء المرض اللعين فى غير أوانه ••• جاء فى الوقت الذى
يجب علىّ فيه أن أسوى أمورا كثيرة ••• فى الوقت الذى أنت فيه
محتاجة الى ، قاتل الله الزكام ••• يجب أن أخبرك أيضا أن خاتمه
الرزايا ان صاحب السعادة رأى من اللازم اليوم أن يظهر شيئا من
القسوة ، فصب غضبه الشديد على ايميليان ايفانوفتش ، وبلغ من ذلك
أن قواه خارت أخيرا حتى تقطعت أنفاسه • مسكين ! هأنذا أخبرك بكل
هذه المزعجات • وكنت أريد أن أبلغك شيئا آخر ، ولكننى أخشى أن
أزعجك وأعكر صفوك ، لأننى ، يا صديقتى ، لست الا رجلا بسيطا بغير
ثقافة ، أكتب ما يخطر ببالى هكذا بغير تكلف • وقد تجددين هنا وهنالك
ما ••• الخلاصة ••• ماذا بعد ؟

صديقك

ماكار ديفوشكين

٢٩ أيلول (سبتمبر)

فرارا الكسييفنا ، صديقتى العزيزة !

رايت اليوم فيدورا ، يا يمامتى . قالت لى ان الزفاف سيتم غدا ،
وانك مسافرة بعد غد ، وان السيد يكوف قد هيا الخيول . أما صاحب
السعادة فقد حدثك عنه فى رسالتى الاخيرة . ها . . . نعم . . . لقد
دققت فواتير مخزن شارع جوروخوفايا : الحسابات صحيحة ، ولكننى
أرى أن الاسعار باهظة . لماذا يوجه اليك السيد يكوف هذه الملامات ؟
كونى سعيدة يا ماتوشكا . أنا مقتبسط لك ! نعم ! وسيهجنى دائما أن
أعرف أنك سعيدة . كنت أود لو أجيء الى الكنيسة ، ولكن ذلك
مستحيل ، لأننى أشعر بالآلام فى خاصرتى . أعود الى مسألة التراسل
بيننا . ان هذه المسألة تقلقنى وتقض مضجعى . من ترى يتولى نقل
رسائلنا يا ماتوشكا ؟ بالمناسبة ، لقد كنت كريمة جدا مع فيدورا يا صديقتى
العزيزة . لقد أحسنت صنعا يا عزيزتى ، أحسنت جدا . ذلك منك عمل
طيب خير ، وسيجزيك الله جزاء حسنا على جميع ما قدمت من خيرات
وحسانات . ان الله لا يضع أجر من أحسن عملا . هذه عدالة الرب . .
عاجلا أو آجلا . ماتوشكا ، هناك أمور كثيرة أود لو أكلمك فيها . اننى
أستطيع أن أكتب اليك كل ساعة بل كل دقيقة ، فأقص عليك كل شيء ،
وأسر اليك بكل شيء . ما زلت محتفظا بكتابك (أقاصيص بيلكين) .
لا تستردى منى هذا الكتاب يا ماتوشكا ! اهده الى يا يمامتى ! لا لأننى
أشتهى قراءته كثيرا ، بل لأن الشتاء يدنو ، وليلالى الشتاء طويلة كما
تعلمين ، وسأشعر بسأم ، وقد أشعر بحزن ، فأنتلى عندئذ بقراءته .
قررت يا ماتوشكا أن أترك غرفتى التى أسكنها ، وأن أتقل الى بيتك
القديم مستأجرا عند فيدورا . لن أرضى أن أنفصل عن هذه المرأة الشهمة
بعد اليوم أبدا . ثم انها صاحبة همة ونشاط فى العمل . لقد طفت أمس

بكل ركن من أركان بيتك المهجور المقفر ، أنعم النظر في كل شيء
تفصيلا . ما يزال كل شيء في مكانه . منضدة الخياطة لم تتزحزح ،
والشغل الذى كنت قد بدأت ما يزال عليها في زاوية الغرفة . نظرت في
الشيء الذى كنت تخطينه . ان فصاصات من القماش مبعثرة هنا وهناك .
كنت قد لفتت خيطا على احدى رسائل أيضا . وفي درج طاولتك عثرت
على ورقة كتب عليها « السيد العزيز ماكار ألكسييفتش أسارع ف . . . »
- هذا كل ما كتب على الورقة . لا شك أن أحدا قطع عليك الكتابة في
أهم موضع . وفي ركن آخر وراء حاجز ، رأيت سريرك الصغير . . .
أواه يا يمامتى ، أودعك الآن ، أودعك ! . . . ناشدتك الله ، أجيبي على
رسالتى هذه ، أجيبي بأى شيء ، ولا تدعيني أنتظر طويلا . . .

ماكار ديفوشكين

٣٠ أيلول (سبتمبر)

ماكار ألكسييفتش ، صديقى العزيز !

تحققت مشيئة الأقدار . تقرر مصيرى . أنا أجهل ما سيكون هذا
المصير . ولكننى أذعن لإرادة الرب . سنسافر غدا . أودعك الآن آخر
مرة يا صديقى العزيز ، يا من أحسنت الى وكنت لى بمثابة أب ! لا يؤلمك
سفرى ! عش سعيدا . تذكرنى . أسأل الله أن يباركك وأن يكألك
برعايته . سأفكر فيك كثيرا ، كثيرا جدا ، وسأدعو لك فى صلواتى .
لقد انتهت الآن ، انتهت تلك الفترة من حياتى . لست أحمل الى حياتى
الجديدة كثيرا من الذكريات السعيدة . وهذا يجعل ذكرى ما صنمته
فى سبيل أجمل وقعا فى نفسى ، ويجعل منزلتك فى قلبى أرفع مكانا

وأعظم شأننا • أنت صديقي الوحيد • انت وحدك أحيتني هنا • لقد رأيت كل شيء ، وعرفت كم كنت تحبني • كان يكفيك أن أبتسم حتى تصبح سعيدا • كان سطر واحد من رسائلي قادرا على أن يملأ نفسك فرحا • سيكون عليك الآن أن تعود فراقى • ما عسى أن تكون حياتك المنعزلة بعدى ؟ من عسى يعتنى بك يا صديقي العزيز ، يا صديقي الوحيد ؟ أترك لك كتابي ، وأترك لك منضدة خياطتي ، وأترك لك الرسالة التي بدأت كتابتها ولم أكملها فوجدتها في درجى • حين ستنظر الى هذه الاسطر التي لم تكمل ، سوف تستطيع أن تكملها بخيالك من عندك وان تضيف اليها كل ما كنت تود لو تقرأه ، وكل ما كان يمكن أن أكتبه لك فى الواقع ، والله أعلم ماذا كنت أود لو أكتبه اليك اليوم !
••• أذكر من حين الى حين صديقتك المسكينة فارنكا التي أحبتك كثيرا • رسائلك جميعها بقيت فى خزانة فيدورا ، بالدرج الأعلى • تقول انك مريض ، ولكن السيد بيكوف لا يريد أن أخرج الآن • سأكتب اليك يا صديقى ، أعدك بذلك • وأودعك اذن الى الأبد يا صديقى ، يا صديقى العزيز ، يا أخى ، الى الأبد ، ••• آه ••• ما أكثر ما كان يمكن أن أقبلك فى هذه اللحظة ! وداعا يا صديقى ، وداعا ، وداعا ، كن سعيدا ، وأسأل الله لك العافية • سأظل أدعو لك ما حييت • ما أشد حزنى فى هذه اللحظة ! ما أثقل الحمل الذى أحسه جانما على صدرى • السيد بيكوف ينادينى •

صديقتك التي ستحبك دائما

ب • ٥٠

حاشية : روجى تفيض حزنا ، نفسى تطفح دموعا النحيب الذى
أكتمه فى صدرى يخفقنى خنقا • وداعا • رباه ! ما أفسى
الفراق ! لا تنس أبدا صديقتك الشقية فارنكا !

فارنكا ، عزيزتى ماتوشكا ، يمامتى ، معبودتى فارنكا !

لقد أخذوك وسوف تسافرين • لو انتزعوا قلبى من صدرى لكان
ذلك أهون علىَّ من بعدك عنى • كيف أمكن هذا ؟ انظرى : انك تبكين ،
ومع ذلك سوف تسافرين • لقد استلمت رسالة منك منذ هنيهة ، رسالة
مبللة بالدموع ! معنى هذا انك لا تحيين أن تسافرى ، معنى هذا أنهم
يأخذونك عنوة • معنى هذا انك ترحمينى وتشققين على ! معنى هذا
انك تحيينى ! كيف ستعيشين الآن ومع من ؟ لسوف يذوب قلبك الصغير
هنالك حزنا وضجرا وشعورا بالعزلة الروحية • لسوف تهد الكآبة قلبك
الصغير هذا ، ولسوف يحطمه الأسى تحطيمًا • سوف تموتين ، وسوف
يدفنونك عندئذ فى تلك الارض الرطبة الباردة من ذلك المكان النائي
الغريب ، ولن يكون ثمة أحد يبكىك • السيد يكوف لن يتسع وقته
للبكاء • السيد يكوف لن يفكر الا فى صيد الارانب • أواه يا ماتوشكا !
أواه يا ماتوشكا ! لماذا اتخذت ذلك القرار ؟ كيف أمكن أن تعزى على
هذا الامر ؟ ماذا صنعت بنفسك ، ماذا صنعت بنفسك ؟ ما هذا الذى جنيته
على نفسك ؟ ان القبر هو ما ستجدينه عندهم ، سوف يميونك يا ملاكى
الرقيق ! ذلك ان جسمك ضعيف واهن يا ماتوشكا ! أين كنت أنا
الأحمق فى هذه الآونة ؟ أين كانت عيناى ؟ اننى بدلا من أن أعارض
معارضة حاسمة نعم بدلا من ذلك كنت أبله لا يفكر ، وأعمى

لا يرى ... كأن كل ما حدث كان عدلا لا اعتراض عليه وضرورة
لا مناص منها ، وكأن ذلك كله لا يعنيني فى شيء ! وكنت أثناء ذلك أذهب
وأجىء هنا وهناك بحثا عن تخريمة أو تخريجة ... لا يا ماتوشكا ،
لا ، لن أسمح بهذا ، سوف أنهض من سريرى • قد أبل من مرضى غدا ،
فأستطيع أن اخرج ... فألقى بنفسى تحت عجلات العربى ، ولا أدعك
تسافرين • هلا فكرت فى الامر قليلا ؟ بأى حق ، بأى حق يفعلون هذا ؟
سأسافر معك ، سأركض وراء العربى اذا رفضت أن تأخذينى ، سأظل
أركض وراء العربى الى أن ألفظ آخر أنفاسى وتزهق روحى • هل
تصورين ماذا ينتظره هنالك ، ماذا ينتظره فى ذلك المكان الذى تسافرين
اليه يا ماتوشكا ؟ اذا كنت تجهلين ماذا ينتظره ، فاسألينى أنا • أنا أعرف •
لن ترى من حولك الا فىفى مقفرة يا صديقتى ، الا فىفى مقفرة ، وسهولا
جرداء ممتدة الى غير نهاية ، وأرضا عارية كراحة الكف • الفلاحات
اللائى يعيشن فى تلك البلاد قاسيات القلوب ، لا حس لهن ولا شعور •
والفلاحون غلاظ جفاة سكارى فى كل لحظة • الاشجار ذهبت عنها
أوراقها فى هذا الفصل ، والسماء ممطرة ، والبرد قارص ، فهل الى
هذا المكان تسافرين ؟ للسيد بيكوف أن يسافر اذا شاء • فان له هنالك
ما يشغله • سوف يعيش مع أرابيه • أما أنت ، أنت ، فما عسك تفعلين ؟
لن يكون لك هناك من دور الا دور زوجة مالك كبير يا ماتوشكا ؟ فانظرى
الى نفسك : أنت امرأة من هذا النوع ؟ ... كيف أمكن أن يقع هذا
كله يا فارنكا ؟ الى من عسانى أكتب الآن يا ماتوشكا ؟ هل أليت على
نفسك هذا السؤال يا ماتوشكا : « الى من سيرسل رسائل بعد الآن ؟ »
من ذا الذى سأناديه هاتفاً ماتوشكا ؟ على من سأطلق هذا الاسم العذب
الرقيق ؟ وأين عسى أراك بعد ذلك يا ملاكى الجميل ؟ لسوف يمتيتى
هذا يا فارنكا ، سوف يمتيتى حتما ، لن يحتمل قلبى عذابا كبيرا كهذا

العذاب . لقد أحبيتك أكثر من ضوء النهار ، أحبيتك كما لو كنت ابنتي ،
أحبيت فيك كل شيء يا ماتوشكا ، ومن أجلك انما كنت أعيش على كل
حال ، من أجلك أنت وحدك . كنت أعمل ، وأنسخ وثائق ، وأمشي ،
وأنتزه ، وأكتب مشاعري على الورق رسائل صداقية ، كل ذلك لأنك
كنت تسكنين قبالتى على مقربة منى . لعلك تجهلين هذا ، ولكن الامر كان
كذلك . ولكن لا ، اصغى الى يا ماتوشكا ، فكرى قليلا يا يماتى : كيف
يمكنك أن تسافرى ، كيف يمكنك أن تتركينا ؟ مستحيل هذا يا صديقتى ،
مستحيل هذا يا صديقتى ، مستحيل هذا ، لست قادرة على القيام بهذه
الرحلة . لا تستطيعين أن تقومى بها ، مستحيل يجب استبعاد هذا
الامر يجب استبعاده استبعادا كاملا . المطر ينهمر الان ، وأنت
ضعيفة واهنة ، وستصابين ببرد ، سوف تتبلل عريتك ، وسوف ترشح الى
داخلها مياه الأمطار . هذا أكيد . ثم انها ستتخطم ، هذه العربية ، متى
اجتزمت المدينة الى الضواحي . ستتخطم حتما . أنت تجهلين ان العربات
التي تبني الآن فى بطرسبرج متداعية الهياكل ؟ اننى أعرف هؤلاء الذين
يصنعون العربات : يكفيهم أن تكون المركبة جميلة المنظر ، وأن تشبه
دمية حلوة المظهر ، ولا يعنيه بعد ذلك أن تكون متينة أو متهاكمة . يمينا
انها تتخطم لأيسر سبب . سوف أرقع أمام السيد بيكوف يا ماتوشكا ،
فأبين له ذلك ، وأبرهن له عليه . وأنت أيضا يا ماتوشكا ، سوف تبرهنين
له على ذلك ، سوف تشرحين له بحجج معقولة دامغة حاسمة ان عليك
أن تبقى هنا ، وان من المستحيل عليك أن تسافرى . لماذا لم يتزوج تلك
المرأة ، تاجرة موسكو ؟ لقد كان من الأفضل أن يتخذها امرأة له . ان
تاجرة خير له منك . ذلك أحسن له كثيرا . أنا أعرف هذا ، أعرفه حق
المعرفة ، وأعرف لماذا ! أما أنت فكان يمكن أن أحتفظ بك هنا قريبة
منى . ما هو عندك بيكوف هذا ؟ ما الذى أرضاك فيه على حين فجأة ؟

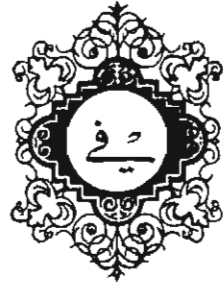
الألأنه اشترى لك كل ذلك التخرىب ؟ أىكون هذا هو السبب ؟ ولكن
ما قيمة التخرىب ؟ ما نفع التخرىب ؟ ذلك كله ترهات يا ماتوشكا ...
الأمر أمر حىاة انسان يا ماتوشكا ! أما التخرىب فما هى الا خرق حقيرة
يا ماتوشكا ، تلك هى التخرىب : خرق لا أكثر . اننى أنا أىضا ، أنا
نفسى ، سأشترى لك تخرىب . سأشترى لك تخرىب متى قبضت راتبى .
نعم نعم سأشترى لك تخرىب . اننى أعرف مخزنا تباع فىه التخرىب .
انتظرى حتى أقبض راتبى فقط يا ماتوشكا ، يا طفلى المعبودة ! رباه
رباه ! أنت مصرة قطعاً على السفر مع بكوف الى الفىافى ؟ هل قررت
قرارا لا عودة عنه ، أن تسافرى بغير رجعة ؟ آه يا ماتوشكا ! لا ...
لا ... سوف تكئين الى : سوف تبعين الى رسالة تصفين لى فىها كل شىء ،
تفصيلاً ... وحين ستكونين بعيدة ، ستكئين الى من هنالك أىضا . والا ،
يا ملاكى الصغىر المشع المشرق ، فان هذه الرسالة ستكون الاخيرة ...
مستحيل ، لماذا تكون الاخيرة ؟ لماذا هذه الرسالة بعينها ؟ أهكذا ، فجأة؟
لا ... لا ... سوف أكتب اليك أىضا ، وسوف تكئين الى أنت كذلك
... هل تلاحظين ان أسلوبى أخذ يتحسن ؟ آه يا صديقتى ، اننى لا أعبا
بالأسلوب ، لا أحفل به ! فى هذه اللحظة نفسها ، أصبحت لا أعرف ماذا
أكتب ، نعم أصبحت لا أعرف ماذا أكتب ، وأنا لا أعيد قراءة ما أكتب ،
ولا أصحح عباراتى ولا أنقحها . وانما أكتب لأكتب فحسب ، لأحدثك
أطول مدة ... آه يا يمامتى ، يا بنيتى ، يا ماتوشكا

المشرف

١٨٤٦

« المثل » (Dvoïnik) ،
كتبت هذه الرواية سنة ١٨٤٤ -
١٨٤٥ ، ونشرت سنة ١٨٤٦ في
« حوكيات الوطن » ، المجلد ٤٦ ،
في شهر شباط (فبراير) ١٨٤٦

الفصل الأول



نحو الساعة الثامنة استيقظ ياكوف بتروفنس
جولدياكين ، الكاتب في إحدى الإدارات الحكومية ،
بعد نوم طويل • فشاءب ، وتمطى ، ثم فتح
عينيه تماما آخر الأمر • ومع ذلك ظل مستلقيا
على فراشه دقيقتين ، ساكنا لا يتحرك ، وكأنه لا يعلم علم اليقين أهو
استيقظ حقا أم هو لا يزال نائما ، ولا يعلم علم اليقين أكل مايراه حوله
هو جزء من العالم الواقعي ام هو امتداد الرؤى المضطربة التي راها في
حلم •

غير أن حواس السيد جولياكين أخذت تستوعب شيئا فشيئا ، بمزيد
من الدقة والحدة ، مجال ادراكاته المألوفة • فيها هو ذا يرى ما ألف أن
يراه من نظرات محدقة اليه : نظرات جدران الغرفة التي يغشاها الغبار
والدخان ، ويميل لونها الى خضرة متسخة ، ونظرات منضدته المصنوعة
من خشب الأكاجو ، ونظرات كراسيه التي هي تقليد لكراسي خشب
الأكاجو ، ونظرات منضدته المصبوغة باللون الأحمر وديوانه التركي

المغطى بقماش مشمع يضرب لونه الى حمرة وتزينه زهيرات خضراء ؛
ونظرات ثيابه التي خلعتها بالأمس على عجل ورماها على الديوان كتلا
مكورة . وها هو ذا يرى آخر الأمر ، من خلال نافذته ، نظرة حزينة
كابية يلقيها عليه نهار عكر حائل اللون من نهر الخريف ، فتثقل هذه
النظرة على صدره : ان في هذه النظرة كثيرا من العبوس ، وان في
التقطيب الذي يصاحبها كثيرا من الحدة والشراسة ، فلم يبق في ذهن
السيد جوليا دكين أى شك : ليس هو الآن فى عالم محدد من عوالم
الرؤى والأحلام ، بل هو حقا فى العاصمة ، فى مدينة سان بطرسبرج ،
فى شارع « الدكاكين الستة » ، فى مسكنه بالطابق الثالث من عمارة كبيرة .
فلما اكتشف السيد جوليا دكين هذا الاكتشاف الهام ، عاد يغمض عينيه ،
كأنه يأسف على رؤى حلمه الأخير ويتمنى أن يرتد اليها ولو لحظة .
ومع ذلك لم يلبث أن وثب عن سريره بعد هنيهة ، ربما لأنه اهتدى الى
الفكرة المركزية التى كانت تدور حولها تهاويل فكره مضطربة مشوشة
حتى ذلك الحين . وسرعان ما هرع نحو مرآة صغيرة مستديرة كانت
موضوعة على المنضدة . ان الوجه الذى يترامى فى المرآة رث بعض
الرثاثة ، وعينه اللتان تشبهان أن تكونا مغمضتين قد تورمتا من النوم . انه
وجه من تلك الوجوه التى ليس لها طابع يميزها ، فلا يمكن أن تلتفت
النظر من أول وهلة . ومع ذلك فقد بدا على صاحب الوجه أنه راض عنه
كل الرضا بعد أن تفرس فيه .

قال السيد جوليا دكين بصوت خافت : « الحمد لله ! لو قد حدث لى
شئ فى هذا الصباح ، لو قد وقع لى ما يزعج ، كأن تنبت فى أنفى دمل
أو شئ من هذا القبيل ، اذن لكنت قصة سخيفة . . . ما ينبغي التشكى .
ليس هنالك دمامة ؛ وكل شئ يجرى على خير ما يُشتهى حتى الآن » .

ابتهج السيد جوليا دكين من حسن سير أموره ، فأعاد المرآة الى مكانها المألوف . ورغم أنه حافى القدمين ، ورغم أنه ما يزال فى ملابس الليل ، هرع نحو نافذة غرفته التى تطل على فناء العمارة ، وأخذ ينظر الى ما يجرى فيها ، بكثير من الاهتمام .

وقد لاح أنه راض كل الرضى عما رأى ، فقد أشرق وجهه بابتسامة غبطة . ثم اقترب من المائدة على رعوس الأصابع . وبعد أن ألقى نظرة على ما وراء الحاجز ، حيث يوجد مخدع خادمه بتروشكا ، فتأكد أن بتروشكا ليس هناك ، فتح أحد أدراج المائدة ، ومدّ يديه الى أعماقه ، فأخرج من تحت كومة من الأوراق المصفرة المتسخة محفظة خضراء اللون بالية بعض البلى ، وفتحها بكثير من الحذر والتأنى وألقى نظرة عجبلى على جيبها الخفى . لا بد أن كدسة الأوراق النقدية الخضراء والشهباء والزرقاء والمتعددة الألوان ، قد أنعش منظرها نفس السيد جوليا دكين ، اذا صدق ما ارتسم على وجهه من معنى حين وضع المحفظة مفضوضة على المائدة .
وها هو ذا يفرك يديه منشرح القلب فرحاً أشد الفرح .

وأخيراً أخرج كدسة الأوراق النقدية هذه التى كانت له موضوع آمال خفية كثيرة ، فأخذ يعدها مرة أخرى ، بعد أن عدها قرابة مائة مرة منذ أمس ، جاساً كل ورقة منها بالابهام والسبابة فى كثير من الجهد والاجتهاد .

وتتمم يقول بعد أن فرغ من حسابها : « سبعمائة وخمسين روبلا ، أوراقاً نقدية يميناً انه لمبلغ عظيم مبلغ جميل متمع » . كذلك تابع يقول بصوت مرتجف يكسره انفعال اللذة ، قابضاً على الكدسة يديه ، مبتسماً ابتسامة الجهد والوقار « نعم ، مبلغ جميل جداً مبلغ يسر له قلب كل انسان وددت لو أرى انساناً يحسب مثل هذا المبلغ

تافها ، فى هذه اللحظة ! ان ميلفا كهذا يمكن أن يمضى بالمرء بعيدا
بعيدا »

« ولكن ماذا جرى ؟ أين ذهب بتروشكا اللعين » . كذلك تساءل
السيد جوليا دكين ، ثم مضى بملابسه تلك نفسها يلقى نظرة على ما وراء
الحاجز مرة أخرى . ليس بتروشكا هناك . ولكن ، فى مقابل ذلك ،
ها هو ذا السماور الموضوع على الأرض ، المهجور ، يغلى غضبا ويهدد
فى كل لحظة بأن يطفح ، حتى لكأنه يريد أن يقول للسيد جوليا دكين ،
بلغته السرية اللغناء الموشوشة ، شيئا من هذا القيل : « هلا تناولتني
يا سيدى الشهم . أنا مستعد . أنا مستعد كل الاستعداد » . قال السيد
جوليا دكين لنفسه : « لعنه الله . . . هذا الكسلان ، هذا الأحمق الذى
يثير الحق . أين ذهب يتسكع ؟ » .

استاء السيد جوليا دكين استياء له ما يسوغه ، فمضى الى حجرة
المدخل ، وهى ممر بسيط صغير ينتهى بباب يطل على السلم ، فشق الباب
فرأى خادمه عندئذ وقد أحاط به جماعة من سكان المنزل وأناس ممن
يضعون وقتهم فى الثرثرة . كان بتروشكا يقص عليهم حكاية وكانوا هم
يصفون اليه . ولا بد أن الموضوع الذى كان يجرى عليه الحديث ، بل
وجريان هذا الحديث أصلا ، لم يعجبا السيد جوليا دكين قط ، لأنه سرعان
ما نادى بتروشكا وعاد الى غرفته مستاء استياء شديدا بل قولوا غاضبا
حائقا . قال لنفسه : « ان هذا الوغد لا يتورع أن يبيع انسانا فى سبيل
كوبك واحد ، ولا سيما مولاه . . . وقد فعل ذلك وانتهى الأمر . . .
باعنى . . . أراهن على أنه باعنى بأقل من كوبك » .

سأل السيد جوليا دكين خادمه :

— ماذا هناك ؟

• - جىء بالبذلة يا سيدى •

• - البسها وتعال •

ارتدى بتروشكا بذلته ودخل غرفة مولاه مبتسما ابتسامة بلهاء •
كانت بذلته غريبة الى أبعد حدود الغرابة • انها البذلة العادية التى يلبسها
الحجاب ، ولكنها مهترئة كثيرا ، خضراء اللون ذات شرائط مذهبة ، قد
تنسلت خيطانها ، وبدا واضحا انها فصلت لرجل أطول من بتروشكا
• بنصف متر •

وكان بتروشكا يحمل بيده قبعة مزدانة بشرائط مذهبة وريش
خضراء • وعلى فخذه يتدلى سيف له غمد من جلد • ويجب أن نذكر ،
اكتمالا للوحة ، أن بتروشكا ، على عادته الراسخة المتأصلة ، وهى عادة
التجول بملابس المنزل التى تستحق أن توصف بأنها أكثر من مهملة ،
كان حافى القدمين •

فتش السيد جوليا دكين خادمه من جميع النواحي ، فبدا راضيا عن
هذا التفتيش • واضح أن البذلة قد استؤجرت لمناسبة ذات أهمية • ومن
جهة أخرى كان بتروشكا ، أثناء هذا التفتيش ، يتابع بكثير من الانتباه ،
كل حركة من حركات مولاه ، دالا على استطلاع شديد واهتمام غريب
ينبىء بنفاد الصبر ، ولا شك فى أن هذا قد أربك السيد جوليا دكين
• كثيرا •

• - طيب • والعربة ؟

• - العربة وصلت أيضا •

• - للنهار كله ؟

• - نعم للنهار كله • خمسة وعشرون روبلا •

- هل حذاءى موجودان أيضا؟

- نعم *

- يا أبله ! ألا تستطيع أن تكلم بأدب؟ ألا تستطيع أن تقول : نعم سیدی؟ هات الحذاءين **

لاح على السيد جوليا دكين أنه مبهيج أشد الابتهاج بحذاءيه الجديدين • وأمر لنفسه بعد ذلك بشاى ، وطلب الى بتروشكا أن يعد له ما يجب اعداده للاغتسال والحلاقة • وأنفق فى الحلاقة وقتا طويلا ، ثم أنفق فى الاغتسال وقتا أطول ، واحتسى الشاى على عجل ، من أجل أن يفرغ بعد ذلك للمهمة الكبرى ألا وهى الباس شخصه • ارتدى سرواليه اللذين يشبهان أن يكونا جديدين ، ولبس قميصا ذا أزرار مذهبية ، وصديرة تزيتها أزهار جميلة زاهية الألوان ، وعقد على عنقه ربطة من حرير مبرقتس ، ثم ارتدى رديجوتته ، الجديد أيضا ، الذى أحسن تفيضه بالفرشاة •

وكان وهو يرتدى ثيابه ما ينفك يلقي على حذاءيه نظرات حب وحنان • فهو فى كل لحظة يرفع هذا أو ذاك منهما ليعجب بشكله ، مدمما بين أسنانه بكلام متصل لا يتوقف ، ومضيفا الى هذا الحديث الداخلى من حين الى حين علامات فى وجهه تفيض رضى •

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جوليا دكين كان فى ذلك الصباح ذاهلا بعض الدهول ولا شك ، لأن البسمات وحركات الوجه التى كان يرشقه بها بتروشكا وهو يساعده فى ارتداء ثيابه قد غابت عن انتباهه تماما • حتى اذا فرغ من ملبسه من القدمين الى الرأس ، وبعد أن أصلح زيه دون أن يغفل عن أيسر التفاصيل ، وضع محفظة نقوده فى جيب

ردنجوته • وكان بتروشكا أثناء ذلك قد دس قدميه في حذاءيه وأصبح على أتم تهيؤ •

فلما تأكد السيد جوليا دكين من أن جميع الاعدادات قد تمت ، وأنه لا شيء يوجب أن يبقيا في الغرفة بعد ذلك ، خرج يهبط السلم بخطى محمومة سريعة ، وقلبه يخفق خفقانا شديدا من فرط الانفعال •

وتقدمت نحو باب المبنى عربية زرقاء مزدانة بأشعرة الشرف والنسب، محدثة ضحكة كبيرة • تبادل بتروشكا بضع غمزات متواطئة مع الحوذى ومع المتسكعين الذين كانوا هنالك ، وهو يساعد مولاه في ركوب العربية؛ ثم صاح بالحوذى ، وهو لا يكاد يستطيع حبس ضحكة بلهائه ، قائلا له : « هيا » ، ووثب يستقر على الدكة في خلف • تحركت العربة وسط هدير الجلاجل وزمزمات العجلات متجهة نحو شارع نفسكى • فما ان تجاوزت العربة الزرقاء باب المنزل حتى أخذ السيد جوليا دكين يفرك يديه بحركات متشنجة ، وحتى أفلتت منه ضحكة طويلة صامتة هي ضحكة رجل ذى مزاج مرح استطاع أن ينجح فى تدبير مكيدة موفقة ، فهو مبتهج بذلك من أعماق قلبه •

غير أن اندفاعه الفرح هذه قد انتهت بسرعة ، وظهر على وجه السيد جوليا دكين تعبير غريب يفيض قلعا •

وها هو ذا ، رغم رطوبة الجو ورغم الضباب ، ينزل زجاج الباب، ويأخذ يتفرس المارة على جانبي الطريق وقد بان فى وجهه الهم • ولكنه ما ان أحس أن الناس يلاحظونه حتى اصطنع هيئة الثقة بالنفس وتقنع بمظهر الوقار • فلما وصل الى ملتقى شارع ليتانيا وشارع نفسكى أحس بشعريرة لعل سببها أن يكون احساسا مزعجا ، فاذا بوجهه يتصمر تصعر وجه رجل شقى داس أحد الناس على دمل فى قدمه سهوا ، ثم اذا

هو يرمى الى أبعد ركن مظلم من العربية بحركة مباغثة تشبه أن تكون
خائفة جزعة •

ذلك أن السيد جوليا دكين قد رأى اثنين من زملائه هما موظفان
شابان يعملان فى الدائرة التى يعمل هو فيها •

وقد أحس السيد جوليا دكين احساسا واضحا بأن زميله قد دهشنا
هما أيضا دهشة شديدة من الالتقاء بزميلهما فى ظروف كهذه الظروف ،
فهذا أحدهما يشير الى السيد جوليا دكين بيده • وقد بدا للسيد جوليا دكين
أيضا أنه يسمع الآخر يناديه باسمه بصوت عال ، وذلك أمر لا محل له
فى الشارع طبعاً •

بقى صاحبنا فى ركن العربية دون أن يجيب • قال لنفسه : « يالهم
من صبية صغار ! أى عجب فى هذا كله • رجل فى عربية ، فأى عجب
فى هذا ؟ رجل فى حاجة الى الذهاب بعربة ، فذهب بعربة ••• أمر
بسيط ••• حقا انهم لمزيلة ، هؤلاء الصبية ••• أنا أعرفهم ••• صبية
يستحقون السوط . كل ما يهمهم هو أن يقبضوا أجورهم ويتجولوا هنا
وهناك • لو كان الامر بيدى لوضعتهم حيث يجب أن يكونوا ، ولكن
حتى يكون لهذا نفع •••

ولم يكمل السيد جوليا دكين جملة ••• فانه قد ذعر حتى كاد
يموت ذعرا حين رأى عربية فخمة تمر على يمين عربته ، يجرها حصانان
من قازان ، وقد ألفت أن يراها • ان الشخص الجالس فى هذه العربية
قد لمح وجه السيد جوليا دكين الذى كان فى تلك اللحظة قد أخرج رأسه
من باب العربية طيشا • فبدا على السيد أنه دهش دهشة كبيرة لهذه
المصادفة التى لم تكن فى الحسبان ، فمال ما استطاع الميل وأخذ يتفحص

بكثير من الاستطلاع والانتباه الركن الذى أسرع صاحبنا يقبع فيه من
العربية •

كان هذا السيد هو اندره فيليوفتش ، الرئيس الادارى للقسم
الذى يعمل فيه جوليا دكين مساعدا لمدير المكتب • فلما رأى جوليا دكين
أن اندره فيليوفتش قد عرفه تماما وأنه يتفرس فيه بكل عينيه ، ولما
أدرك من جهة أخرى أنه لا يستطيع الاختباء احمر احمرارا شديدا حتى
الأذنين • قال فى نفسه : « أيجب على أن أحييه ، أن أرد على علائم
الاهتمام التى يبديها ، أن أكشف له عن نفسى ••• أم الأفضل أن أتظاهر
بأننى لست أنا بل شخص آخر يشبهنى شها قويا ، وفى هذه الحالة أنظر
إليه كأن لم يكن شئ ؟ ••• » • ان السيد جوليا دكين ما ينفك يلقى على
نفسه هذه الأسئلة وقد تملكه ذعر لا يوصف • انه يدمدم قائلا : « نعم
نعم ، لست أنا ، طبعاً ، لست أنا ، نازعا قبعتة أمام اندره فيليوفتش
ناظرا إليه لا يحول بصره عنه ؛ وهو يتمم بصوت ينسبه أن يكون مخفقا :
« أنا ، أنا ، ما أنا ، لا شئ ، يمينا لست أنا ، لست أنا حتما » • ولكن
العربية الفخمة كانت قد تجاوزت عربة السيد جوليا دكين ، وكانت الجاذبية
المغناطيسية فى نظرة رئيس السيد جوليا دكين قد غابت • ومع ذلك فان
جوليا دكين الذى ما يزال أحمر الوجه مبتسما ، ظل يدمدم ••• وقال
لنفسه أخيرا :

« ما كان أعبانى حين تظاهرت بأننى لم أعرفه ••• كان يجب على
أن أحييه ، نعم ، أن أحييه صراحة ، من مستوى واحد ، بل بشئ من
الرفعة والنبيل •• تحية يمكن أن تقول له : « نعم يا اندره فيليوفتش ،
أنا أيضا مدعو الى العشاء ••• الأمر بسيط جدا كما ترى » • وتماوده
ذكرى غلظته ، فيحترق شعورا بالحجل والعار ، ويقطب حاجبيه ، وينظر

الى مقدمة العربة كأنه يلتهمها بنظراته التهاما ، حتى ليحس من يراه يريد أن يسحق بهذه النظرات جميع أعدائه وأن يحيلهم الى رماد وأوحى اليه بفكرة على حين فجأة ، فها هو ذا يشد الحبل المثلث في كوخ الحوذى ، فيأمر الحوذى بوقف العربة والعودة القهقري الى شار ليتاينايا . وكان سبب هذه الرجعة بسيطا : فقد شعر جوليا دكين في تلك اللحظة برغبة لا سبيل الى مقاومتها في أن يبوح بشيء هام جدا لطبيب كريستيان ايفانوفتشس . وهو على كل حال لا يعرف طبيبه هذا الا منذ زمن قصير جدا ، أو قل اذا شئت الدقة انه لم يره الا مرة واحدة ، وذا في الاسبوع الماضي . لقد استشاره يومئذ في أمر طبي تافه . « ولأ يشبه الطبيب الكاهن من حيث أن على المرء أن يعترف له بكل شيء ، ان من الحماسة أن يخفى المرء عن طبيبه أى شيء (كذلك كان بطلنا يقول لنفسه وهو يخرج من العربة أمام مدخل منزل مؤلف من خمس طوابق بشارع ليتاينايا) « نعم . . . هو كذلك . . . أليس الأمر كذلك هل الأمر كذلك ؟ هل يجوز هذا ؟ هل هذا مناسب ؟ ولكن . . . أى ض فى هذا ؟ » . هكذا استمر جوليا دكين يدمدم وهو يصعد السلم متقه الأنفاس لا يستطيع أن يهدى دقات قلبه الا بكثير من العناء ، وهو قاف ألفا ، اذ ندة ، دقا قويا جدا متى كان بطلنا يصعد الى أحد الناس . « نعم أكون غيا اذا أخفيت عنه . سأنتظر باننى جئت اليه عابرا . . . وسو يرى ما هو الأمر » . وفيما كان جوليا دكين يفكر هذا التفكير وصل الطابق الثانى ووقف أمام باب الشقة رقم ٥ : هذه لوحة جميلة من نحاس قد نقش عليها :

كريستيان ايفانوفتشس روتنشتبستس
دكتور فى الطب والجراحة

واستفاد بطلنا من زمن التوقف هذا ليشكل لنفسه وجهها باشا ،
هاشا ، بل ولطيفا محبباً • وهم أن يشد حبل الجرس • غير أن فكرة
برقت في ذهنه في هذه اللحظة نفسها، وهي فكرة في محلها جدا على كل
حال • أليس من الأفضل تأجيل زيارته الى الغد؟ ما من حاجة اليها في
هذا اليوم نفسه في الواقع ••• ولكنه سمع وقع خطوات على السلم
فجأة ، فاذا هو ينفذ نقيض ما نواه ، فيدق جرس كريستيان ايفانوفتش ،
وقد بدا في وجهه العزم والتصميم •

الفصل الثاني



كريستيان ايفانوفش روتشبتس ، الدكتور في
الطب والجراحة ، رجل قوى البنية جيد الصحة
وان يكن متقدما في السن • ان حاجيه الكثيفين
ولحيتي وجنتيه قد أخذت تشيب • وان نظرة عينيه
المعبرتين الساطعتين تبدو قادرة وحدها على أن تستأصل جميع الامراض •
وهو يحمل على صدره وساما رفيعا • كان في ذلك الصباح جالسا على مقعد
مريح في مكتبه يشرب فنجانا من القهوة جاءت به امرأته ، ويحمر في
الوقت نفسه وصفات لمرضاه • لقد أمر منذ هنيهة بمرهم لرجل عجوز يعاني
من البواسير ، فبعد أن شيعه حتى الباب ، عاد يجلس على مقعده منتظرا
الزيارة القادمة • وفي تلك اللحظة انما دخل عليه السيد جوليا دكين •
ان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن كريستيان ايفانوفش لم يكن يتوقع
هذه الزيارة قط ، بل وأنه لم يكن يرغب أبدا في رؤية السيد جوليا دكين
أمامه ، فهذا ما يدل عليه الاضطراب المفاجيء الذي ظهر فيه ، والتعبير

الغريب بل الغاضب الذي لاح في وجهه • والسيد جوليا دكين ، من جهته ، يشعر دائما بكثير من الضيق والحرج حين يكون عليه أن يواجه أحد الناس وأن يحدثه في شئونه • واذ لم يتسع وقته لتحضير مقدمة يبدأ بها كلامه - وذلك يشكل عنده عقبة كبيرة دائما - فقد اضطربت حاله فدمدم ببضع كلمات مشوشة يعتذر بها عن مجيئه ؛ ولم يعرف بعد ذلك أى وضع يتخذ ، فجلس على كرسى ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن أحدا لم يدعه الى الجلوس ، ف شعر بأن عمله غير لائق ، فأراد أن يصلح ما اقترف من مخالفة للآداب الاجتماعية ، فأسرع ينهض عن الكرسى المعتصب ، ويقف على قدميه ؛ ثم ثاب الى رشده ف شعر مضطربا بأنه قد ارتكب غلظتين متلاحقتين فاندفع يرتكب غلظة ثالثة • وأملا في تبرير نفسه أخذ يجمع بأفوال غير مفهومة تصاحبها ابتسامة شاحبة • وأخيرا احمر وجهه احمرارا شديدا ، واضطرب اضطرابا كبيرا ، فصمت ، وعاد الى مكانه على الكرسى ثم لم ينهض عنه • ومع ذلك فانه من أجل أن يستر دثقه بنفسه لم ينس أن يرشق صاحبه بنظرة من تلك النظرات الثاقبة التى تمتاز بمزية خارقة هى أنها تسحق جميع أعدائه وتحيلهم رمادا • وفوق هذا ، فقد كانت تلك النظرة تدل على استقلال بطلنا استقلالا كاملا ، فهى تؤكد تأكيدا فصيحاً أن السيد جوليا دكين انسان سوى ، أنه رجل عادى ، كسائر الناس ، راض عن مصيره ولا يطلب المزيد •

تنحج كريستيان ايفانوفتش ، علامة الاستحسان لسلك بطلنا ، ثم حدق اليه بنظرة فاحصة • فقال جوليا دكين مبتسما : « انما جئت يا كريستيان ايفانوفتش أطلب منك رحابة الصدر مرة أخرى ••• »

كان واضحا أن السيد جوليا دكين يجد مشقة فى الاهتداء الى

كلماته •••

قال كريستيان ايفانوفتشس وهو ينفث نفثة كثيفة من الدخان ويضع
سيجاره على المائدة :

- همم ... نعم نعم ... عليك مع ذلك أن تواظب على استعمال
الدواء الذى وصفته لك . ولقد سبق أن اوضحت لك ان علاجك انما
يكون بتغيير عاداتك ... أنت فى حاجة الى تسلييات تسرى عنك . أنت
فى حاجة الى أصدقاء تتردد اليهم ... أنت فى حاجة الى معاشره الناس
ومخالطة المجتمع . وعليك فى الوقت نفسه أن لا تكون عدو الزجاجة
وأن تصاحب أناسا يحبون الحياة ويقبلون عليها ويفرفون من مباحجها .

فأسرع السيد جوليادين يقول ، وهو لما يزل مبتسما ، انه يرى
أن سلوكه سوى جدا ، شبيه بسلوك الآخرين ، وان تسليياته هى التسلييات
التي يتعاطاها الآخرون ؛ وانه يستطيع خاصة أن يذهب الى المسرح ، وانه
يملك ما هو فى حاجة اليه من مال كسائر الناس ؛ وانه يعمل صباحا فى
مكتبه ويبقى مساء فى بيته ؛ أى انه انسان كسائر البشر . حتى لقد انتهز
السيد جوليادين هذه الفرصة فألمع الماعا خفيا الى اعتقاده بأنه ليس دون
غيره من الناس ، فهو يملك شقة فى عمارة مناسبة ، حتى أن فى خدمته
خادما هو بتروشكا . ولكن السيد جوليادين ، حين وصل الى هذا الموضع
من حديثه ، توقف عن الكلام فجأة .

قال الطيب :

- همم ... لا ... لا ... أنا لم أتكلم عن هذا ... ليس هذا ما أردت
أن أطلبه منك . وانما أردت أن أعرف هل أنت على وجه العموم تحب
صحبة الناس وتحب أن تنظر الى الحياة من جانبها الجميل ؟ ... أى
بكلمة واحدة : هل سلوكك فى الحياة هو سلوك انسان سوداوى أم هو
سلوك انسان متفائل ؟

— أنا يا كريستيان ايفانوفتش ...

قاطعته الطيب قائلا :

— همم ... أكرر : أنت في حاجة الى تغيير طراز حياتك تغييرا

جذريا • ان عليك أن تتغلب على « طبعك »

شدد كريستيان ايفانوفتش تشديدا قويا على كلمة «تغلب» ، وتجمع

على نفسه في وضع ممتاز جدا ثم أردف يقول :

— عليك أن لا تهرب من التسلية ، عليك أن تختلف الى المسارح

والحلقات ، وعليك خاصة أن لا تهمل الزجاجة • اياك والبقاء في بيتك ،

فليس ينفعك في شيء أن تلازم بيتك •

دمدم جوليا دكين يقول وهو يرشق محدثه بنظرة مفهومة ويبدو

عاجزا عن العثور على الكلمات التي يفصح بها عن فكره :

— أنا أحب الهدوء يا كريستيان ايفانوفتش • نحن في البيت اثنان

فقط : أنا وبتروشكا ... أقصد خادمي يا كريستيان ايفانوفتش • أريد

أن أقول بذلك يا كريستيان ايفانوفتش انني أسير في طريقي ، نعم ، في

طريقي الخاص ، يا كريستيان ايفانوفتش • أنا مكتف بنفسي ، ولست

رهنا بأحد ، هذا اذا لم يخطئ ظني • على أن ذلك كله لا يعنى من

التنزه يا كريستيان ايفانوفتش •

— ليس التنزه في هذه الأيام بالمتع كثيرا ، فان الجو أقرب الى أن

يعد رديئا •

— صحيح يا كريستيان ايفانوفتش • ورغم أنني بطبعي شديد

التحفظ والانكماش على نفسي ، كما سبق أن تشرفت بايضاح ذلك لك

فيما أعتقد ، فإني أتابع طريقي ، وهو طريق انمزالى • أنا أعرف أن

دروب الحياة واسعة ... أعنى ... أقصد ... معذرة يا كريستيان
ايفانوفتش ، لست قديرا فى مجال فصاحة اللسان •

- همم .. هكذا ؟

- أقول هذا يا كريستيان ايفانوفتش من أجل أن تعذرني اذا لم
أعبر عن نفسى بفصاحة كافية •

كذلك نطق السيد جوليا دكين بلهجة فيها شيء من المطالبة ، وكان
واضحا أنه يجد مشقة فى العثور على كلماته • وأردف يقول وهو يتشم
ابتسامة غريبة :

- من هذه الناحية ، لست كسائر الناس يا كريستيان ايفانوفتش •
أنا لأجيد الخطب الطويلة والجمل الرشيق • ولكننى ، فى مقابل ذلك ،
يا كريستيان ايفانوفتش ، أعمل ، نعم أعمل يا كريستيان ايفانوفتش ...

- همم ... طيب ... وماذا تعمل ؟

ساد الصمت لحظة • نظر الطيب الى السيد جوليا دكين نظرة فاحصة
مرتابة • كما ألقى السيد جوليا دكين على محدثه نظرة مثقلة بالحذر
والشك •

تابع بطلنا يقول بلهجة شاكية تنم عن انزعاجه ، وقد بدا عليه
الاضطراب ازاء هذا العناد القوى لدى محدثه :

- أنا يا كريستيان ايفانوفتش ... أنا يا كريستيان ايفانوفتش ...
أنا ... أنا أحب الهدوء والسكون والركون ... وأكره ذلك التحرك
الكثير الذى يتحركه المرء فى المجتمع بغير طائل • فهناك ، أقصد فى
المجتمع الراقى ، يجب على المرء أن يعرف كيف يصقل خشب الأرض
ببعليه (هنا ظهر على جوليا دكين أنه ينقر الأرض بكعب حدائه) ...

نعم ... ذلك أمر مطلوب هناك ... ويجب على المرء هناك أن يحسن استعمال الجنس ... أن يعرف كيف يجامل وكيف يمدح بحذق وبراعة ... نعم ... كل ذلك لا بد منه هناك . وأنا يا كريستيان ايفانوفتش لم أتعلم شيئا من هذا كله ... لم أتعلم فى حياتى هذه الحيل ... لم يتسع وقتى لتعلمها ... أنا امرؤ بسيط ، بلا مكر ولا دهاء ، ولا طلاء خارجى . فى هذا المجال ، يا كريستيان ايفانوفتش ، ليس لى قدرة ؟ أنا هنا ألقى سلاحى وأتركه تماما .

نطق السيد جوليا دكين بهذه الأقوال الأخيرة بلهجة تدل دلالة بليغة على أنه لا يأسف أى أسف لالقاء سلاحه فى ميدان الترهات السخيفة ، وعلى أنه لا يأسف أى أسف لكونه غير حاذق فى حيل المجتمع ومكر الناس . وكان كريستيان ايفانوفتش يصنعى اليه مطرقا وقد أطال شفقيه تعبيرا عن عدم الاستحسان . كان كمن يتوجس سرا . وأعقب كلام بطلنا المسهب صمت طويل .

قال كريستيان ايفانوفتش أخيرا بصوت خافت :

- أحسب أنك ابتعدت قليلا عن موضوعك . أعترف لك بأننى لم أستطع أن أتابع تفكيرك الا بكثير من العناء .

- لست قديرا فى مجال الفصاحة يا كريستيان ايفانوفتش . لقد سبق أن تشرفت بذكر ذلك لك يا كريستيان ايفانوفتش . لا ... لست قديرا فى ميدان الفصاحة (كذلك ردد السيد جوليا دكين بلهجة غدت على حين فجأة قاطعة جازمة مستبدة) .

همهم الطيب :

- همم ...

واستأنف بطلنا كلامه يقول بصوت مخنوق لكنه وقور رصين ،
متوقفا على كل جملة :

- كريستيان ايفانوفتشس ، حين دخلت عليك بدأت كلامي معتذرا .
والآن أريد أن أكرر ما سبق أن قلته ، ومن أجل ذلك أسألك التسامح
ورحابة الصدر . ليس هناك ما أخفيه عنك يا كريستيان ايفانوفتشس . أنا
انسان ليس له شأن يذكر يا كريستيان ايفانوفتشس ، وأنت تعلم ذلك .
ولكنني لا يؤسفني ، لحسن حظي ، أنني انسان ليس له شأن يذكر .
بالعكس يا كريستيان ايفانوفتشس . ومن أجل ان افصح عن كل فكري
أقول لك انني فخور بكوني انسانا ليس له شأن يذكر . ما أنا بالرجل
الماكر الذي يدبر المكائد ... وهذا أمر أعتر به أيضا . لا أقوم بعمل
من الأعمال خفية ، بل أعمل صراحة ، في وضوح النهار ، دون احتيال .
ورغم أنني قادر ، نعم قادر ، أنا أيضا ، على الايذاء ، فأنني لا أريد الايذاء
يا كريستيان ايفانوفتشس ، لا أريد أن أُلطخ نفسي ، بل أفضل أن تبقى
يدي طاهرتين . ومع ذلك فأنا أعرف وسائل الايذاء ... لكنني لا أريد
أن أؤذي يا كريستيان ايفانوفتشس . أقول لك على سبيل الحقيقة والمجاز
معا ، انني أغسل يدي وأطهرهما .

كان السيد جوليا دكين منتعشا . وفي هذا الموضع من حديثه لزم
لحظة من صمت بليغ جدا ، ثم أردف يقول :

- أنا أسير في طريقي قدما يا كريستيان ايفانوفتشس ، في وضوح
النهار ، لا أبحث عن دروب ملتوية ، لأنني أحتقر الأساليب الملتوية
وأتركها لغيري . ولست أرغب في اذلال أناس لعلهم أشرف منك ومني
... عفوا ... أقصد أشرف مني ومن غيري يا كريستيان ايفانوفتشس ،
لا أشرف منك ومني . انني أكره الفخر . انني أحتقر الففاق الدنيء ،

وأحقر الوشايات والأقويل والنمائم • انى ألبس قناعا فى حفلة تقنع ،
لا فى جميع الأيام ، تجاه جميع الناس • وأريد فى الختام أن ألقى عليك
سؤالا يا كريستيان ايفانوفتشس ، سؤالا واحدا : كيف تتقم أنت من عدو ،
من عدو رهيب ، أو من عدو تعده رهيبا على الأقل ؟

هنا توقف جوليا دكين عن الكلام راشقا كريستيان ايفانوفتشس بنظرة
تحد • لقد صب كلامه المسهب المطنب بوضوح وجلاء وثقة لا يدايتها
وضوح ولا جلاء ولا ثقة ، فكان يزن كل قول من أقواله ساعيا الى احداث
أقوى تأثير ممكن • ولكن ما ان أنهى خطابه حتى أخذ يتفرس فى محدته
وهو يشعر بقلق شديد ، بقلق عظيم • انه يلتهمه الآن بنظرته التهاما ،
ينتظر جوابه خائفا وجلا مشوشا نافذ الصبر تفيض نفسه هما وغما • فما
كان أشد استغرابه وذهوله حين لم يزد كريستيان ايفانوفتشس على أن دمدم
ببضع كلمات بين أسنانه ؟ ثم قرب كرسيه من المائدة وقال له بلهجة
جافة ولكنها لا تخلو من أدب وتهذيب ، ان وقته ثمين جدا ، وانه لا يفهم
هذه الأقوال كلها فهما واضحا ؟ وانه يظل مع ذلك فى خدمته وتحت
تصرفه ، ولكن فى حدود اختصاصه ، أما فى كل ما عدا ذلك فلا يتحمل
أية تبعة • قال الطيب ذلك ثم أخرج ريشة ، وتناول ورقة فشاها ثم
قطعها على قد الورقة التى تكتب عليها الوصفات الطبية ، ثم أعلن لبطلنا
أنه سيصف له علاجا مناسبيا •

تمتم جوليا دكين وهو ينتصب على قدميه ويخطف يد الطيب اليمنى :

- لا •• لا •• يا كريستيان ايفانوفتشس ••• لا حاجة الى هذا ••
لا حاجة الى هذا البتة • حقا يا كريستيان ايفانوفتشس لا ضرورة لهذا •

ولكن بينما كان السيد جوليا دكين يقول هذا الكلام كان شخصه
يعانى تحولا غريبا • ان بروقا عجيبة تومض فى عينه الرماديتين ، وان

ارتجافا احتلاجيا يهز شفتيه ، وان عضلات وجهه ترتعش • ان جسمه كله ينبض • واستطاع بالاستمرار في حركته الأولى أن يوقف يد الطيب ، ثم تسمر في مكانه جامدا لا يتحرك ، ولاح عليه أنه يتردد منتظرا أن يوحى اليه بما يجب عليه أن يفعله •

مشهد غريب جرى عندئذ بين الرجلين • الطيب متحير لحظة ، مسمر على كرسيه ، ثم فاقده صبره ، محمق في السيد جوليا دكين • وجوليا دكين يحدق الى الطيب هو أيضا بهذه الشدة نفسها وهذا العنف نفسه • ويتصب كريستيان ايفانوفتش أخيرا ، متشبثا بياقة رديجوت زبونه • فيقف الرجلان وجها لوجه لحظات ، جامدين صامتين ، لا يحول أحد منهما بصره عن صاحبه • وعندئذ يظهر الرد الثاني لدى السيد جوليا دكين ، يظهر ظهورا مباغتا غريبا ليس في الحسبان • ان شفتيه تحتلجان ، وان ذقنه ترتجف ارتجافات عنيفة ، وها هو ذا ينفجر آخر الأمر باكيا • انه يشهق ، ويهز رأسه ، ويلطم صدره بيده اليمنى ، بينما يده اليسرى متشنجة على ياقة سترة كريستيان ايفانوفتش • أراد أن يتمم بضع كلمات ، أراد أن يقدم بعض الشروح ، ولكن ما من كلمة أمكن أن تخرج من فمه •

واستطاع كريستيان ايفانوفتش أخيرا أن يثوب من ذهوله الطارىء وأن يعود الى صوابه •

دمدم يقول وهو يدفع السيد جوليا دكين الى المقعد :

— كفى ، أرجوك ، هدىء نفسك ، أقعد •

قال السيد جوليا دكين بصوت أصم مهموم :

— لى أعداء يا كريستيان ايفانوفتش ، نعم ، لى أعداء • أعداء عتاة

آلوا على أنفسهم أن يضيعونى •••

- هيا ... دعك من هذا ! ... أى أعداء هم هؤلاء ! ما ينبغي لك أن تفكر فى أعدائك • اقعد اقعد •

بذلك ختم الطبيب كلامه وقد استطاع أخيرا أن يقعد السيد جوليا دكين •

كف بطلنا عن الهيجان • ولكن عينيه ما تزالان ثابتين على وجه كريستيان ايفانوفتش • وكان واضحا أن كريستيان ايفانوفتش منزعج فهو يذرع العنفة طولا وعرضا • وساد صمت طويل •

قال السيد جوليا دكين أخيرا ، وهو ينهض منكسر النفس مغلوبا :
- أشكرك يا كريستيان ايفانوفتش ، أشكرك شكرا لا حدود له •
اننى متأثر أشد التأثر بكل ما صنعته من أجلى اليوم • لن أنسى فضلك ما حييت ، وسأظل معترفا بجميلك أبد الدهر •

فكان رد الطبيب على هذه المحاولة الجديدة من السيد جوليا دكين أن قال له :

- كفى • • أقول لك كفى • • هدى نفسك •

ثم أضاف وهو يدفعه مرة أخرى الى الكرسي :

- قل لى الآن : ما الذى يشغل بالك ، ما الذى يقلق نفسك ؟
حدثنى عن متاعبك • • وقل لى قبل كل شئ : من هم هؤلاء الأعداء الذين تشير اليهم ؟ ما الذى يجرى على غير ما تحب ؟

قال السيد جوليا دكين مطرقا الى الأرض :

- لا • • يا كريستيان ايفانوفتش ، لا • • دعنا من هذا كله الآن • • سنتحدث فيه مرة أخرى • • دعنا من هذا كله ليوم آخر ، ليوم

أنسب من هذا اليوم يا كريستيان ايفانوفتش ، ليوم يصبح فيه كل شيء واضحا ، ليوم تسقط فيه الأفتنة عن بعض الوجوه .. نعم ، ليوم ينجلي فيه كل شيء . أما الآن ... أقصد ... بعد كل ما جرى بيننا ... تعرف ذلك بنفسك يا كريستيان ايفانوفتش ... فاسمح لي أن أتمنى لك يوما سعيدا يا كريستيان ايفانوفتش ..

بهذا ختم السيد جوليا دكين كلامه ناهضاً متناولا قبعته ، وقد لاح في وجهه الحزم .

– لك ما تشاء .. همم ..

وصمت الطيب لحظة ثم أردف يقول :

– اعلم على كل حال أنني ، من جهتي ، سأفعل كل ما يمكنني أن أفعله ... اعلم انني أريد لك الخير صادقا كل الصدق .

– أنا أفهمك يا كريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك . نعم ، أفهمك كل الفهم اليوم ... ومهما يكن من أمر ، فأرجوك أن تغفر لي ازعاجي اياك يا كريستيان ايفانوفتش ..

– همم ... لا ... ليس هذا ما أردت أن أقوله . على كل حال ، افعل ما يحلو لك . وواظب على العلاج كالعادة .

– سأواظب على العلاج ، كالعادة ، كما أمرتني يا كريستيان ايفانوفتش ، نعم ... سأواظب ... وسأشترى الدواء من الصيدلية نفسها ... ليست الصيدلة في أيامنا هذه بالتجارة البسيطة يا كريستيان ايفانوفتش .

– بأى معنى تقول هذا ؟

بالمعنى العادى يا كريستيان ايفانوفتش ، أريد أن أقول بذلك
ان الأمور تجرى على هذا النحو فى هذه الأيام ••

- همم •••

- نعم ، وان أيسر شاب رقيق ، لا الصيادلة وحدهم ، يسمح لنفسه
اليوم بجميع الوقاحات فى معاملة انسان خير •

- همم ••• ماذا تقصد ؟

- أقصد يا كريستيان ايفانوفتش شخصا بعينه نعرفه جميعا
يا كريستيان ايفانوفتش ، نعرفه حق المعرفة ، أنا وأنت ••• أقصد فلاديمير
سيميونوفتش ، اذا شئت أن أسميه •••

- ها •••

- نعم يا كريستيان ايفانوفتش ، ولكننى أعرف كذلك أناسا
لا يتورعون عن مفاجأة آداب المجتمع من أجل أن يقولوا ما يفكرون فيه •

- ها •• كيف ذلك ؟

- الأمر بسيط • ولكن هذه الحالة حالة خاصة فى حقيقة الأمر •
هناك أناس يعرفون ، عند اللزوم ، أن يقدموا لك طبقا من الطعام هو
حسك بالقشدة !

- حسك بالقشدة ؟

- نعم •• حسك بالقشدة ••• يا كريستيان ايفانوفتش ••• هذا
تعبير شعبى ••• نعم ، هناك أناس يعرفون كيف يخفون خبثهم وراء ستار
من الملاطفة ••• هناك أناس من هذا القبيل يا كريستيان ايفانوفتش •

- الملاطفة ؟

- نعم ، الملاطفة .. التهئة .. اليك المثال : كان على أحد أصدقائي
الحميمين ، فى هذه الأيام الأخيرة ...

- ماذا كان عليه ؟

كذلك سأل الطبيب وهو يتفرس وجه السيد جوليا دكين بانتباه
شديد :

- نعم ، كان على أحد أصدقائي الحميمين أن يهنئ صديقا آخر
من أصدقائي ، وهو رجل محبب جدا ، لطيف جدا ، يمكن أن يسمى
صديقا ممتازا . لقد رقى هذا الصديق الثانى الى درجة أعلى فى الادارة
التي يعمل فيها ، فاليك العبارات التي قالها له الصديق الأول مهنتا :
«يسعدنى أعمق السعادة يا فلاديمير سيمينوفتشس أن أقدم اليك تهانى ،
أن أقدم أصدق تهانى ، ومما يزيدنى سعادة أن الزمان الذى نعيش فيه ،
كما لا يبجهل ذلك أحد ، هو زمان أبناء ذوى الغنى والنفوذ » .

كان السيد جوليا دكين يشفع كلماته الأخيرة هذه بتحريك رأسه
تحريكا يفيض بمعانى الدهاء ، ويشفعها بغمزات مكر يوجهها الى محدثه :

- همم ... اذن هذا ما قاله له ؟

- نعم هذا ما قاله له يا كريستيان ايفانوفتشس ، قاله له بهذا النص
نفسه ، قاله وهو يحدق أيضا فى عيني أندره فيلييوفتشس ، عمّ صاحبنا ،
عمّ فلاديمير سيمينوفتشس .

وفى الواقع يا كريستيان ايفانوفتشس ، فيم يهمنى أن يرقى الى رتبة
معاون قاض ، فيم يهمنى ذلك ؟ وأكثر من هذا أنه يريد أن يتزوج ،
على أن حليب مرضعته لما يجف على شفّته ، اذا أذنت لى بهذا التعبير ..

نعم ... لقد قلت لهذا الفلاديمير سيمينوفتش ... هاقد ذكرت لك كل
شيء ... فاسمح لي أن أنصرف •

- هممم ...

- نعم يا كريستيان ايفانوفتش ، اسمح لي الآن أن أنصرف • وبعد
الاماع الى أبناء ذوى الغنى والنفوذ ، أردت أن أصيب بحجر واحد
طائرين • كنا عند أولسوفى ايفانوفتش • وكان ذلك أول أمس • فالتفت
نحو كلارا أولسوفينا التى كانت قد غنت أغنية عاطفية ، وفلت لها :
« لقد غنيت هذه الاغنية بكثير من العاطفة فى الواقع ، ولكن الذين استمعوا
اليك لم يعجبوا بك بقلب نقى جدا • • » • كانت غمزتى واضحة جدا
جدا يا كريستيان ايفانوفتش • أنت تفهمها حق الفهم • لقد أفصحت لها
بهذه الغمزة افصاحا واضحا عن أن الذين يستمعون اليها لا ينشدونها
هى ، بل ينشدون من ورائها شيئا آخر •

- آ ... وماذا فعل هو ؟

- بلعها ... يا كريستيان ايفانوفتش ... على حد التعبير الشعبى •

- هممم ...

- نعم • • تماما يا كريستيان ايفانوفتش • أما الشيخ ، أبو الأنسة ،
فقد قلت له : « أولسوفى ايفانوفتش ، أنا أعرف كل ما أدين لك به ،
وأقدر ما أسبغته على من حسنات منذ طفولتى حق قدره • ولكننى أرجوك
أن تفتح عينيك يا أولسوفى ايفانوفتش • انظر حواليك ! أما أنا فأحاول
أن أخرج المسألة الى الضوء يا أولسوفى ايفانوفتش » •

- آ ... هكذا ...

- تماما يا كريستيان ايفانوفتش • • هكذا • •

- وهو ، عندئذ ؟

- هو؟ ماذا تتوقع أن يعمل يا كريستيان ايفانوفتشس؟ لقد أخذ يهرف ويخبط في كلامه خبط عشواء... قال لى: «أنا أعرفك جيدا... ان صاحب المعالي انسان يفيض كرما وجودا...» ، ثم استرسل في حديث غامض مبهم: ماذا تتوقع؟ لقد أخرفت السنون عقله كما يقال •

- ها... اذن هكذا جرت الأمور •

- تماما يا كريستيان ايفانوفتشس • ونحن جميعا كذلك • هو شيخ عجوز ، قلت لك ذلك • احدى قدميه فى القبر ، كما يقال ، ولكن يكفى أن تسترسل أمامه فى نائم حتى يصبح آذانا مصغية •

- نائم؟

- تماما يا كريستيان ايفانوفتشس • انهم يحيكون الآن مؤامرة • والدب الكبير ، العم ، أسرع يضع يده فى العجين ، وكذلك ابن الأخ ، صاحبنا الصبى ، طبعا !... لقد تواطئوا مع عدد من النساء العجائز ، ولا شك أنهم طبخوا طبقا على طريقتهم... هل تعرف ماذا اخترعوا من أجل أن يقتلوا انسانا؟

- من أجل أن يقتلوا انسانا؟

- تماما يا كريستيان ايفانوفتشس ، من أجل أن يقتلوا انسانا • من أجل أن يقتلوه مغنويا • أطلقوا شائعة... ما زلت أقصد صديقى الحميم فى الواقع... فهمته؟

أنفص كريستيان ايفانوفتشس رأسه ، علامة التأيد •

- نعم... روجوا عنه اشاعة... أعترف لك يا كريستيان ايفانوفتشس أنني أستحي أن أذكر لك الاشاعة التى روجوها ••

- همم ...

- أشاعوا عنه أنه قد تمهد تمهدا رسميا بالزواج .. أنه قد خطب
أخرى ... هل تصور هذه الأخرى التي أشاعوا أنه خطبها ؟

- صحيح ؟

- صاحبة معظم حقير ، ألمانية ، امرأة عامية ، يتناول وجباته في
مطعمها . زعموا أنه خطبها .. سدادا لديونها عليه .

- هم الذين يحكون هذا ؟

- هل تصدق يا كريستيان ايفانوفتش ؟ هذه الألمانية ، الحظيرة ،
الديثة ، التي لا حياة لها ، هذه الكارولين ايفانوفنا ... أتعرفها ؟

- أعترف أنني من جهتي ...

- أفهمك يا كريستيان ايفانوفتش ، أفهمك . أنا أيضا ، من جهتي ،

أحس أن ...

- قل لي من فضلك : أين تسكن الآن ؟

- أين أسكن يا كريستيان ايفانوفتش ؟

- نعم .. أريد أن أعرف .. أظن أنك كنت في الماضي تعيش ..

- صحيح يا كريستيان ايفانوفتش ، كنت أعيش ، كنت أعيش ...

نعم ، كنت في الماضي أعيش ... هذا واقع ... كنت أعيش ...

كان السيد جوليا دكين يجيب بذلك مرفقا كلماته بضحكة نحيلة .
ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب في نفس محدثه .

قال الطيب :

- لا ... لقد أسأت فهم سؤالي ... أردت أن أقول أنني من

جهتي ...

- أنا أيضا أردت أن أقول ياكريستيان ايفانوفتش ، انتى من

جهتى ***

كذلك قال السيد جوليا دكين ضاحكا • ولكن يظهر اننى أطلت
زيارتى يا كريستيان ايفانوفتش • أمل أن تأذن لى بالانصراف الآن ••

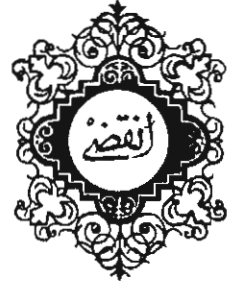
- همد ***

- تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك ، أنا أفهمك كل الفهم
••• وأخيرا اسمح لى أن أتمنى لك يوما سعيدا •

هكذا ردد السيد جوليا دكين بغير أى كلفة أو حرج ازاء محدثه •
ثم انحنى محيا وخرج من الغرفة ، تاركا الطيب فى ذروة الذهول ••
هبط السلم وهو يتسهم ابتسامة مشرقة ، ويفرك يديه فرحا مرحا • حتى
إذا صار عند باب العمارة استنشق الهواء النقي ، وشعر بتحرر وانطلاق •
وأوشك أن يعد نفسه أسعد انسان على وجه الأرض ، وهم أن يتجه
نحو مكتبه ، لولا أنه سمع فجأة قرعة عجلات ورنين جلاجل ••• انها
عربة واقفة أمام الباب • فرفع عينيه وتذكر كل شىء • وفتح بتروشكا
باب العربة • فشعر السيد جوليا دكين فى هذه اللحظة باحساس غريب
أليم • واصطبغ وجهه بحمرة بضع لحظات • لكأن قلبه قد طعن ••
ووضع قدمه على درجة العربة ، ثم التفت ينظر نحو نوافذ كريستيان
ايفانوفتش • لقد حزر ! كان الطيب واقفا هنالك يرقبه مستطلعا متعجبا ،
يلعب لحيته بيده اليمنى • قائل جوليا دكين لنفسه وهو يرتدى فى ركن
من العربة : « هذا الطيب غبى • نعم ، غبى جدا • قد يكون بارعا فى
معالجة مرضاه • ولكن ذلك لا يمنع أنه غبى كأوزة » •

استقر السيد جوليا دكين فى العربة أخيرا • وعوى بتروشكا يقول
للسائق : « هيا » • ودرجت العربة من جديد متجهة نحو شارع نفسكى •

الفصل الثالث



ذلك الصباح في حركة جهنمية •

فحين وصلت العربة الى شارع نفسكي ، امر السيد جوليادكين بالوقوف على مقربة من جوسيتيني دفور ، ثم قفز من العربة وأسرع يدخل تحت القناطر يحاذيه خادمه الوفي بتروشكا ، وماهى اللحظة حتى كان في أحد مخازن المصوغات الذهبية والفضية ، ولم يلبث ، وقد بدا مرهقا بالهموم والتعبات الثقالة ، يساوم على طقم كامل للمائدة ، وعلى طقم للشاي ، فاستطاع أن يحصل عليهما بألف وخمسمائة روبل ، وبهذا السعر نفسه حصل على علبه سيجار أخاذة المظهر وعلى طقم كامل من أمواس الحلاقة بالفضة ، واهتم أيضا ببعض الأشياء المفيدة والجميلة ، ووعد وعدا جازما في آخر الأمر بأن يعود غدا ، بل بأن يرسل أحدا بعد الظهر لاستلام هذه المشتريات ، وحرص على أن يسجل عنوان المخزن دقيقا ، وأصغى بانتباه الى البائع الذي أثار مسألة العربون ، فوعده بأن يدفعها في الوقت المناسب ، ثم ودع البائع المشدوه مسرعا وخرج • طاف

السيد جوليا دكين الشارع دون أن يحول بصره عن بتروشكا، يتبعه رهط من أصحاب الدكاكين • وكان واضحا أنه يبحث عن مخزن آخر • وفيما هو يطوف الشارع توقف عند أحد « الصرافين » ، فأبدل أوراقه المالية الكبيرة بأوراق مالية صغيرة ، وبدا ، رغم خسارته في التبديل ، مغتبطا بهذه العملية اغتباطا كبيرا ، لأنها ضخمت حجم محفظته تضيخا واضحا • وبعد ذلك دخل مخزن أقمشة للسيدات ، فأوصى هنالك أيضا على أشياء كثيرة ، متعهدا تعهدا قاطعا بأن يعود في الغد ، وسجل كذلك العنوان ، وأجاب على سؤال البائع عن العربون بأنه سيدفعه في حينه • ثم دخل دكاكين أخرى ، فسأل عن أسعار أشياء شتى ، مساوماً في كل مكان ، تاركا مخزنا من المخازن ليعود إليه بعد قليل ، مناقشا التجار حول الأسعار مناقشة طويلة لا تنتهي ، باذلا نشاطا كبيرا على وجه العموم • حتى إذا ترك حتى جوسيتيني دفور ، اتجه الى مخازن عرض الأثاث ، فسأل عن اثاث كامل لست حجرات ، وتلبث طويلا أمام مقعد طريف من المقاعد التي تمد « آخر صيحة » من صيحات الموضة ، ثم خرج من المخزن بعد أن تعهد للبائع بأن يرسل من يستلم هذه الأشياء كلها حالا ، وبعد أن وعد بدفع عربون على عادته •

وزار مخزنا آخر من مخازن عرض الأثاث أيضا ، فأوصى على أشياء أخرى • كان، سده أذ، حاجته الم، بذل، النشاط لا ينضب لها معين • ثم هذا المكر كله • حتى لقد لا يدري الا الله لماذا • • وهو ، نطة ، على أية حال من الأحوال ، أن يجد صسه وجهها بوجه امام اندره فيلبيتش ، أو حتى أمام كريستيان ايفانوفتش • • وفي أثناء ذلك دفت الساعة الثالثة • فاستقر السيد جوليا دكين في

عربته • لقد أنهى أعمال الشراء التي سعى فيها ، فلم يشتر بعد نهار من البحث الا قفازين وزجاجة عطر بروبل ونصف روبل •

ولا يزال أمامه متسع من الوقت • لذلك أمر الحوذى أن يمضى به الى مطعم مشهور فى شارع نفسكى كان لا يعرفه الا بالاسم • فلما وصل الى المطعم خرج من عربته وأسرع يدخل قاعته ، بنية الاستراحة قليلا ، وتناول أكلة خفيفة ، وانتظار « ساعته » خاصة • أكل كما يأكل امرؤ ينتظر عشاء هاما دسما ، فيقرر أن يطعم شيئا يخادع به الجوع • وشرب كذلك كأسا صغيرا من الفودكا ، ثم قبع فى أحد المقاعد ، وبعد أن أجال بصره فى القاعة ، استغرق بهدوء فى قراءة جريدة وطنية صغيرة •

قرأ سطرين أو ثلاثة أسطر ، ثم نهض ينظر الى نفسه فى المرآة ، فرتب شعره وهندامه قليلا ، ثم اقترب من النافذة فألقى نظرة ليتأكد من أن عربته لا تزال فى مكانها ••• وعاد أخيرا الى مقعده وتناول جريدته من جديد ••

كان واضحا انه قلق مضطرب • وألقى نظرة على الساعة المعلقة فى الحائط فعلم أن الساعة هى الثالثة والرابع • لا يزال عليه أن ينتظر مدة طويلة • وقدّر السيد جولياكين أنه ليس من اللائق كثيرا أن يبقى أمام مائدة خالية ، فأمر لنفسه بفتح من الشوكولاتة ، رغم انه لم تكن به أية رغبة فى احتساء شىء من الشوكولاتة فى تلك اللحظة والحق يقال • شرب الشوكولاتة • فلما لاحظ بعدئذ أن عقرب الساعة قد قطع مسافة طويلة نهض ليدفع الحساب • وفى تلك اللحظة نقره أحد على كتفه • فالتفت فرأى أمامه اثنين من زملائه هما اللذان التقى بهما صباحا فى شارع ليتانيايا - وهما شابان مبتدئان فى الحياة وفى الوظيفة الحكومية ، وكانت

علاقة بطلنا بهما علاقة ملتبسة ، فلا هي علاقة مودة ، ولا هي علاقة عداوة
• صريحة

كان الطرفان كلاهما يحاولان أن يراعى قواعد اللياقة ، ولكن كان
يبدو أن قيام تقارب وثيق بينهما أمر مستحيل • أما في اللحظة الحاضرة
فقد لاح أن هذا اللقاء قد أزعج السيد جوليا دكين كثيرا ، فهو يقطب
حاجبيه ، بل يبدو مضطربا خلال بضع لحظات •

وسرعان ما أخذ الشابان الموظفان يزرقان قائلين :

- يا كوف بتروفتش ، يا كوف بتروفتش ! أنت هنا ؟ يالها من
مصادفة !

فأسرع السيد جوليا دكين يقاطعهما وقد انزعج قليلا بل استاء من
هذه الدهشة التي أظهرها الموظفان على هذا النحو الفج ، وبهذه الطريقة
التي ليس فيها تحرج ولا كلفة ، أسرع يقاطعهما قائلا :

• السيدان

مهجة انطلاق كاذب وجرأة زائفة ، فقال :

ذن هاربان أيها السيدان ! هه هه هه !

أجل أن يبرز المسافة بينه وبينهما ، ومن أجل أن يرد هذين
ين الطائشين الى مكانهما ، حرك يده بحركة من يريد أن
يربت على كتفى واحد منهما • ولكن طابع الألفة الملائمة التي أراد أن
يطبع به حركته لم يوفق ، فبدلا من أن يقوم بحركة هادئة محتشمة فعل
شيئا آخر تماما • وسأل الشابين :

- وبعد ... ألا يزال صاحبنا الدب فى المكتب ؟

- من تقصد يا ياكوف بتروفتش ؟

- الدب ... ألا تعرفان من يطلق عليه اسم الدب ؟

قال جوليا دكين ذلك وأخذ يضحك . والتفت نحو المستخدم يتناول
بافى الدراهم ، ثم أضاف :

- هو آندره فيليبش طبعاً !

وضع النقود فى جيبه ، ثم كرر سؤاله بلهجة جادة جداً هذه
المرّة . فتبادل الموظفان نظرة ذات دلالة ، وقال أحدهما يبيحيه :

- نعم يا ياكوف بتروفتش ... انه لا يزال فى المكتب ، حتى لقد
طلبك .

- ها ... لا يزال هناك .. طيب ... فليبق هناك . وقد طلبنى
اذن ؟

- نعم طلبك يا ياكوف بتروفتش . ولكن ماذا جرى لك ؟ أراك
متعطراً متدهناً ... أنيقاً كل الأناقة !

- نعم ، أيها السيدان ، نعم ... الخلاصة ...

قال السيد جوليا دكين ذلك وحول عنهما بصره محاولاً أن يتسم
.. واذ رأى الموظفان انه يتسم أخذوا يضحكان مقهقهين قهقهة صاخبة .
فقطب السيد جوليا دكين وعبس ، ثم قال بعد لحظة صمت ، عازماً ، فيما
يظهر ، على أن يكشف لهما عن حقيقة هامة :

- أحب أن أقول لكما ، أيها السيدان ، على مودة وصدقة ، انكما
لم تعرفانى حتى الآن الا فى ضوء معين ... ولست ألوم آيا منكما على
ذلك . ولعلمنى أنا المسئول عنه .

زم السيد جوليا دكين شفتيه وتفرس في محدثيه وقد بدا في وجهه
الجد والوقار • فتبادل الشابان مرة أخرى نظرة عجلي مختلصة •

- انكما ، أيها السيدان ، لما تعرفاني بعد • وليس من المناسب في
هذه الساعة وفي هذا المكان أن أشرح لكما من أنا • ولكنني أحب أن
أقول لكما بضع كلمات عابرا • ان هناك ، أيها السيدان ، أناسا لا يحبون
الطرق المتلوية كثيرا ، ولا يلبسون قناعا الا حين يذهبون الى حفلة مقنعة ،
أناسا يؤمنون بأن حياتهم يجب ألا تنقضي في تعلم اتقان تلميع البلاط
بنعالهم • وان هناك أيضا ، أيها السيدان ، أناسا لا يعدون أنفسهم في
ذروة السعادة حين يرتدون سراويل جميلة التفصيل • وان هناك ، آخر
الأمر ، أناسا يكرهون أن يتحركوا كثيرا فيما لا طائل تحته ، ويحتقرون
الاستعراضات والدسائس والتملق ، ويتحاشون فوق ذلك كله ، أيها
السيدان ، أن يحشروا أنوفهم حيث لا يجب أن تكون • والآن اسمحوا
أن أستأذنكم بالانصراف •

توقف جوليا دكين عن الكلام • وبدا على الشابين الموظفين أنهما
مسروران بكلامه المسهب كل السرور ، لأنهما لم يلبثا أن انفجرا ضاحكين
في كثير من الوقاحة • التهب السيد جوليا دكين غيظا وقال :

- اضحكا أيها السيدان •• اضحكا ما اتسع وقتكما للضحك ••

ثم أضاف مستاء وهو يتناول قبعته ويتجه نحو الباب :

- من يعيش ير ••

ولكنه عاد يلتفت نحوهما مرة أخيرة ليقول :

- ومع ذلك أيها السيدان ، أحب أن أقول لكما أيضا ، أحب أن
أذهب الى أبعد من ذلك ، مادنا هنا بين أربعة جدران ، فأقول لكما :

هذه مبادئى فى الحياة : « الصمود عند الاخفاق ، رباطة الجأش عند النجاح ، والامتناع عن الاضرار بأحد على أية حال من الأحوال » . لست بالرجل الذى يحسن تدبير المكائد ، وانى بذلك لفخور . لست أصلح للدبلوماسية . يقال أياها السيدان ان الطائر يطير نحو الصياد قدما . الا أن فى هذا القول نصيبا من صدق ، وانى لأصدقه على كل حال . ولكن قولنا لى : من الصياد ومن الطائر فى عالمنا هذا ؟ تلكما مسألة يجب أن تناقش أياها السيدان .

وبعد لحظة من صمت يفيض بلاغة ، اصطنع السيد جوليا دكين هيئة أخرى جادة وقورة الى أبعد حدود الجد والوقار ، ثم حيا محدثيه مقطب الحاجبين مزمووم الشفتين ، وخرج تاركا صاحبيه على أشد حالة من الدهول .

سأله بتروشكا بلهجة قاسية ، وقد بدا عليه السأم من التجول فى هذا البرد القارس :

- الى أين نذهب الآن ؟

وكرر سؤاله ، فاذا هو يلتقى بنظرة رهيبة صاعقة ، بتلك النظرة التى سبق أن استعملها السيد جوليا دكين مرتين فى الصباح ، ولجأ اليها الآن مرة أخرى وهو يهبط درجات باب المطعم .

- الى جسر اسماعيلوفسكى .

صاح بتروشكا :

- الى جسر اسماعيلوفسكى . هيا ! ...

« المفروض ألا يبدأ العشاء عندهم قبل الساعة الرابعة ... وقد لا يبدأ قبل الخامسة ... ألسنت اذن ذاهبا قبل الأوان ؟ ولكن ماذا لو

وصلت قبل الموعد ! هذا عشاء عائلي • نعم ••• أستطيع أن أسمح لنفسى
بالمجيء دون التقيد « بالرسميات » ••• « بغير كلفة » كما يقال فى
أوساط الناس المهذبين • لماذا لا يكون من حقى أن أتصرف « بغير كلفة » ؟
لقد أنبأنا الدب أن كل شىء سيكون « بغير كلفة » فى منزلهم ••• فلماذا
لا أستعمل أنا هذا الحق ؟ ••• « ذلك كان مجبرى خواطر السيد
جوليادكين أثناء الطريق • ومع ذلك كان اضطرابه ما ينفك يزداد •
كان واضحا أنه يتهىأ لمواجهة موقف حرج شائك ، اذا لم نقل أكثر من
ذلك • كان السيد جوليادكين يهمس ، ويلوح بيده اليمنى ، وينظر من
خلال باب العربة بغير انقطاع •

حقا ان من يراه فى هذه اللحظة على حالته تلك ، لا يمكن أن
يتصور أنه ذاهب الى عشاء ، الى عشاء عائلي ، « بغير كلفة » ، كما يقال
فى أوساط الناس المهذبين • ووصل أخيرا قرب جسر اسماعيلوفسكى ،
فمين للحدودى احدى العمارات ، فاجتازت العربة باب العمارة مقرعة ،
وتوقفت عند سلم الجناح الأيمن من المبنى • ولمح السيد جوليادكين على
نافذة الطابق الثانى وجه امرأة ، فبعث اليها بقبلة على راحة يده • والحق
أنه لم يكن يدرك هو نفسه ماذا يفعل ••• كان فى تلك اللحظة لا ميتا
ولا حيا • وخرج من العربة ، شاحب الوجه ، مضطرب النفس ، وصعد
درجات المدخل ، ونزع قبعته بحركة آلية ، وعدل ثيابه واندفع يصعد
السلم مصطك الركبتين •

سأل الخادم الذى جاء يفتح له الباب :

- هل أولسوفى ايفانوفتش فى بيته ؟

فأجابه الخادم :

- نعم هو فى بيته ••• بل ليس هو فى بيته •••

- كيف؟ ما هذا الذي تقوله يا صديقي؟ أنا آت للعشاء أيها الرجل
الشهم • ثم انك تعرفني •

- طبعاً • ولكنني 'أمرت أن لا أدعك تدخل •

- أنت ••• أنت مخطئ ••• ولا شك • هذا أنا ••• أنا مدعو
••• مدعو الى العشاء يا صاحبي •••

كذلك قال السيد جوليا دكين متدفقا في الكلام ، نازعا عنه معطفه ،
عازما على الدخول الى الصالون •

قال الخادم :

- معذرة • ممنوع • لقد 'أمرت بأن لا أستقبلك ••• أمرت بأن
أمنعك من الدخول • هذا كل شيء •

امتقع لون السيد جوليا دكين • وفي هذه اللحظة فتح باب احدى
غرف البيت ، وأقبل منها الى حجرة المدخل الخادم العجوز الذي يعمل
عند أولسوفى ايفانوفتش •

قال الخادم الأول يخاطب العجوز :

- يا ايميليان جيراسيموفتش ••• أنظر الى هذا السيد ••• انه
يريد الدخول ، وأنا •••

- أنت غبي يا ألكسى • امض الى الخدمة فى الصالونات ، وابعث
الى بذلك الوغد سيموفتش •

قال جيراسيموفتش ذلك ، ثم التفت الى السيد جوليا دكين ، فأعلن
له بلهجة مهذبة ولكنها قاطعة :

سیدی • مستحیل استحالہ مطلقہ یا سیدی • مولای
• انہ لا یستطیع أن یتقبلک •

دقۃ أنه لا یستطیع أن یتقبلنی ؟
بن خجلا • ثم أضاف :

موفتش ••• ولكن لأى سبب هذه الاستحالة

•• مستحیل استحالہ مطلقہ •• لقد أعلنت وصولک ، فقيل
« أن یعذرنا » • الخلاصۃ ••• لا یستطیع مولای أن

- ولكن لماذا ؟ كيف ؟ كيف ؟

- عجيب ! اسمح لی •••

- ولكن لماذا ؟ هذا غير ممكن • قل لی ••• ولكن ••• لماذا ؟ أنا
مدعو الى العشاء ••• « على كل حال اذا كان یطلب أن أعذره فذلك أمر
آخر •• وعلى ذلك یا جیراسیموفتش ••• اشرح له ••• أرجو ••

- عفوا ••• اسمح •••

قال جیراسیموف ذلك وهو یبعد بیده السيد جولیا دكين جازما ،
فاتحا بذلك ممرا عریضا لسیدین دخلا الدهلیز • انهما آندره فلییوفتش
وابن أخیه ، فلا یبیر سیمونوفتش • تفرس الرجلان كلاهما فی السيد
جولیا دكين مذهولین • وأراد آندره فلییوفتش أن یقول شیئا ، ولكن
السید جولیا دكين كان قد عزم أمره ، فها هو یغادر حجرة المدخل خافض
العیین ، محمرّ الوجه ، مشعث الهیئة ، وعلى شفقیه ابتسامۃ حزینة •

- سأمر فيما بعد يا جيراسيموفتش • سأجىء أشرح الأمر •••
لا شك فى أن كل شىء سيتضح فى حينه •

دمدم بذلك وهو يجتاز العتبة منتقلا الى فسحة السلم •

- ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش •••

كذلك نادى آندره فيليوفتش وهو يهرع وراء بطلنا • وكان بطلنا
قد أصبح على فسحة الطابق الأدنى • فالتفت بقوة نحو آندره فيليوفتش •

سأله بصوت قاطع :

- ماذا تريد يا آندره فيليوفتش ؟

- ما الذى جرى يا ياكوف بتروفتش ؟ ماذا بك ؟

- لا شىء يا آندره بتروفتش • لقد جئت الى هنا من تلقاء نفسى •

هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليوفتش •

- ماذا تقول ؟

- أقول ان هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليوفتش،
وأحسب أنه ليس لأحد أن يأخذ على شسىئا من سلوكى فيما يتصل
بعلاقاتى الرسمية •

- ماذا تقول ؟ فيما يتصل بعلاقاتك الرسمية ؟ ••• ولكن ماذا بك

أيها السيد ؟ ماذا بك ؟

- لا شىء ••• يا آندره فيليوفتش • لا شىء اطلاقا • بنىة وقحة

•• ولا شىء غير ذلك •

- كيف ؟ كيف ؟

اضطرب آندره فيليوفتش ، وذهل ، فأصبح لا يعرف ماذا يقول

•• وكان السيد جوليا دكين أثناء ذلك الحوار ما يزال واقفا على فسحة سلم الطابق الأدنى ، محدقا ببصره الى رئيسه ، وكأنه يهم أن يشب عليه في كل لحظة • واذ أدرك بطلنا اضطراب محدثه خطأ خطوة الى أمام ، بغير شعور تقريبا • فتراجع آندره فيليوفتش خطوة أيضا • فتقدم جوليا دكين مزيدا من التقدم ، فنظر آندره فيليوفتش حواليا وقد بدا في وجهه القلق • وفجأة أخذ السيد جوليا دكين يصعد السلم بخطى سريعة • ولكن خصمه وثب أسرع منه ، فدخل البيت ، وأغلق الباب وراءه •

لبث السيد جوليا دكين وحيدا على السلم • زاغت عيناه • ظل واقفا هنالك ، مصعوقا ، مسمرا ، يجتر خواطر غريبة • عادت الى خياله ذكرى • انها ذكرى تتصل بموقف عجيب وجد فيه منذ مدة قصيرة •

دمدم يقول وهو يحاول أن يتسم :

— هه هه هه •••

وفي تلك اللحظة سمع وقع أقدام وصوت كلام في الطابق الأدنى •• لاشك أنهم مدعوون آخرون من ضيوف أولسوفي ايفانوفتش • تاب السيد جوليا دكين الى رشده ، فأسرع يرفع ياقة فراء معطفه ، ويخفي وجهه فيها ما استطاع اخفاه ، ثم أخذ يهبط السلم بخطى سريعة ، متواثبا متسرا ، يوشك أن يسقط عند كل خطوة • كان يشعر بوهن ، ويحس بنوع من الخدر • وقد بلغ من الاضطراب أنه حين وصل الى درجات المدخل لم ينتظر أن تتقدم العربية اليه ، بل اتجه هو اليها مجتازا الفناء الموحد • وحين همّ أن يصعد الى العربية أحس فجأة برغبة قوية في أن يغور تحت الأرض أو أن يختبئ هو وعربته في جحر من جحسور القتران • اُخيل اليه أن جميع من كانوا في هذه اللحظة عند أولسوفي

قد وقفوا ينظرون اليه ، أحس أنه لو التفت لحظة واحدة لمات على الفور
في مكانه •

- ما الذى يضحكك أيها النبى ؟

كذلك سأل بتروشكا بعنف بينما كان بتروشكا يساعده فى ركوب
العربة :

- أنا ؟ لا شيء ! لست أضحك ... الى أين نذهب الآن ؟

- الى البيت • بسرعة •

صاح بتروشكا وهو يستقر فى مؤخرة العربة :

- الى البيت !

« بوز غراب » • كذلك قال السيد جوليا دكين فى نفسه •

وتحركت العربة ... وقطعت جسر اسماعيلوفسكى ، فاذا بالسيد
جوليا دكين يشد الحبل شدا قويا بعد مدة على حين فجأة ، ويأمر الحوذى
بالعودة القهقري • فيدير الحوذى الحصانين ، ويصل بعد دقيقتين مرة
أخرى الى الفناء من العمارة التى يقع فيها منزل أولسوفى ايفانوفتش •

صاح بطلنا :

- قف • لا داعى • اخرج •

وكان الحوذى كان يتوقع أن يصدر اليه هذا الأمر الجديد ، فلم
يحتج ، بل دار فى الفناء دون أن يتوقف وخرج الى الشارع •

لم يأمره السيد جوليا دكين بأن يعود به الى منزله ، بل أمره بأن
يقطع جسر سيميونوفسكى ، ثم أمره بدخول شارع صغير ، ثم بالتوقف

عند حانة حقيرة المظهر • هنالك نزل من العربية ، فنقد الحوذى أجره ،
وأمر بتروشكا أن يمضى ينتظره فى البيت • أما هو فقد دخل الحانة ،
فاتخذ لنفسه مكانا خاصا وأمر بعشاء • كان فى حالة نفسية سيئة • ان
رأسه مقر سديم لا يصدق • سار فى الصالون زمنا ، وهو نهب قلق
شديد • وجلس آخر الأمر دافنا جينه فى يديه ، وأخذ يفكر بكل
ما أوتى من قوة باحثا عن حل للمشكلة التى يطرحها الموقف •

الفصل الرابع



فى ذلك اليوم الرائع الفخم ، وهو عيد ميلاد كلارا أولسوفينا ، البنت الوحيدة لمستشار الدولة بيرنديف ، الذى كان فى الماضى حاميا للسيد جولياكين، أقيمت فى ذلك اليوم حفلة عشاء ذات أبهة وعظمة وجلال لم يشهد لها مثل منذ زمن طويل فى منازل كبار الموظفين من حى اسماعيلوفسكى وغيره ، حفلة عشاء لها مظاهر وليمة من ولائم بلتازار ، يذكر بذخها وترفها وتسيقها بالمآدب البابلونية الكبرى • لم يعوز هذه الحفلة شئ ، لا شمبانيا كليكو ، ولا المحار ، ولا الفاكهة التى تشتري من محلات ايليسيف وميلوتين الشهيرة • كانت الصالونات مزدحمة بجمهرة مرموقة متألثة من الناس تضم جميع كبار موظفى الحكومة • وقد اختتم ذلك اليوم المشهود الذى تميز بتلك الوليمة الفاخرة ، اختتم بحفلة راقصة ، كانت عائلية طبعاً ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت رائعة فخمة الى أبعد حدود الروعة والفخامة ، سواء من ناحية حسن النوق ومن ناحية علو مقام الشهود •

أنا أعلم ان الحفلات الراقصة التي من هذا النوع موجودة ، ولكنها نادرة .
انها اعياد كبرى يحتفل بها احتفالا عائليا ، وهذه الاعياد لا تقوم عادة الا
في بيوت راقية جدا ، كبيت مستشار الدولة بيرنديف مثلا . بل اننى
لأذهب الى أبعد من ذلك فأدعى أن مستشارى الدولة لا يقدرّون جميعا
على اقامة مثل هذه الحفلات ! اه يا ليتنى كنت شاعرا ! شاعرا
له مواهب هوميروس او يوشكين (ذلك اننى بمواهب دون مواهب هذين
الشاعرين لا اجازف . . .) اذن لصورت لك ، أيها القارىء ، بريشه
بارعة والوان زاهية ، الخطوط الكبرى من ذلك الاصيل المظفر !

لو كنت شاعرا املك تلك المواهب لبدأت قصيدتى بوصف العشاء
. . . . ولألححت خاصة على تلك اللحظة الفذة الفريدة الفخمة ، التى رُفع
فيها أول كأس احتفاء بملكة ذلك اليوم : كنت سأظهرك أولا على المدعوين
وقد تجمدوا انتظارا ، وصمتوا صمتا مهيبا ، صمتا هو الى بلاغة ديموستين
أقرب منه الى البكم . ثم أقدم اليك آندره فيليوفتش ، عميد هذا الحفل ،
الذى يمتاز فوق ذلك بجميع حقوق النصدر ، اذ نهض مزين الصدر
بالأوسمة ، تزيينا ينسجم وشعره الأشيب ، فنطق بأولى التمنيات ، رافعا
كأسه المملوءة بخمر نادر ، خمر يستورد من مملكة بعيدة للاحتفال
بأحداث هى على هذا القدر من خطورة الشأن وعلو القيمة ، خمر هى
شراب ثمين أشبه برحيق الآلهة منه بخمر البشر ؛ ولصورت لك بعد ذلك
المدعوين وأبوى ملكة اليوم السعدين ، لحظة رفعوا كؤوسهم اقتداء بآندره
فيليوفتش ، وقد ثبتت نظراتهم عليه بانتظار خطابه .

ولأريتك آندره فيليوفتش نفسه ، وقد تأثر تأثرا عميقا فذرف فى
كأسه دمعة خاطفة ، ثم لصورته لك يكيل المديح للجميلة ويعرب لها عن
تمنياته ويقترح على المدعوين أخيرا أن يشربوا نخبها ، ويفرغ كأسه

ولكننى أعترف لك بكثير من التواضع أيها القارىء أنتى كنت سأعجز
حتما عن وصف تلك اللحظة التى تمتاز بروعة قصوى ، أعنى اللحظة
التي ريت فيها كلارا أولسوفينا ، ملكة هذا العيد ، يزهو وجهها كوردة
من ورود الربيع ، وتحمر سعادة وخفرا ، ثم ترتدى بين ذراعى أمها
الحنون وقد فاضت نفسها انفعالا . وكنت سأعجز كذلك عن تصوير هذه
الأم الحنون ذارفة دموع السعادة ، وعن تصوير الأب أولسوفى ايفانوفتش
مستشار الدولة . لقد كان هذا الشيخ المحترم الوقور ينشج باكيا ؛ نعم
لقد كان هذا الرجل الذى فقد خلال السنين الطويلة التى قضاها فى
الوظائف استعمال ساقيه ، ولكن كافاه القدر على ذلك مكافأة عادلة، فزوده
بمال كثير ، ومنزل جميل ، وأملاك عدة ، ووهب له ، خاصة، ابنة جميلة
كالنهار ، أقول كان هذا الرجل ينشج باكيا كطفل ، ويؤكد من خلال
الدموع ان « صاحب السعادة محسن عظيم . . . » لا . . . ما كان لى
بحال من الأحوال أن أصف الانفعال الشديد الذى استولى فى تلك
اللحظة على الحضور الذين تعلقت أبصارهم بشقتى آندره فيليوفتش .

ان موظفا شابا من موظفى السجل (وكان مظهره فى تلك الدقيقة
أقرب الى مظهر مستشار محترم منه الى مظهر موظف بسيط فى السجل) ،
لم يستطع أن يجبس عندئذ دموعه ، فعبر بذلك عن انفعال سائر الحضور .

وكان مظهر آندره فيليوفتش ، من جهة ، لا يشبه فى تلك اللحظة
مظهر مستشار ، مظهر رئيس دائرة . . . لا . . . وانما كان مظهره مظهرا
آخر ، مظهرا لا أستطيع أن أصفه ، ولكنه ليس مظهر مستشار على كل
حال . . . فلقد كان يحلق . . . كان فوق كل هذا . . .

وأخيرا ، لو كنت أملك تلك المواهب اذن ل . . . ولكن أين أنا من
الأسلوب الناصع الرفيع ، أين أنا من الأسلوب القوى المشرق الذى يمكننى

من وصف الجو العاطفي المؤثر في تلك اللحظات الرائعة التي تهيب بالمرء الى السمو الأخلاقي ، وهي لحظات من الحياة يبدو كل شيء فيها أنه يسهم في تأكيد ظفر الفضيلة على الجمود والكفر والرييلة والحسد . . . لا . . . اتنى أوثر أن أصمت ، وأوثر بالصمت ، بصمت هو أبلغ من الكلام ، أن أصف لكم ذلك الفتى السعيد الذى شارف على السادسة والعشرين من عمره ، فلاديمير سيمونوفتش ؛ ابن أخى آندره فيليوفتش . انه الآن واقف يقترح ، بدوره ، نجبا آخر .

جميع النظرات معلقة به : نظرات الأبوين المخضلة بالدموع ، ونظرات عمه الساطعتين اعتراضا ، والنظرات التي تفيض خفرا وحياء من ملكة اليوم ، والنظرات التي تشع حماسة من أكثر المدعويين ، وأخيرا نظرات بعض زملاء هذا الشاب اللامع ، وهي نظرات تقرا فيها شيئا من حسد . أريد أن أصمت . ولكن هذا الفتى ملئ بما يجذب اليه ويفرئ فيه . والحق أن مظهره أقرب الى مظهر شيخ ، بالمعنى الحسن من معانى هذا التشبيه طبعاً . ان وقفته ووجهه المحمر ورتبته (وهي رتبة معاون قاض) التي تلتحم به التحاماً فكأنهما شيء واحد ، ذلك كله كان في تلك اللحظة كأنه يهتف قائلاً : « تلك هي الدرجات القصوى من السعادة التي يمكن أن تقود الفضيلة انسانا اليها . » لا ولا أريد أن أروى لكم تفصيلاً كيف اقترح أنطون أنطونوفتش سيتوشكين ، الموظف برتبة رئيس دائرة ، زميل آندره فيليوفتش ، وزميل أولسوفى ايفانوفتش فى الماضى ، والصدىق القديم للأسرة ، وعرباب الفتاة فوق ذلك ، نعم كيف اقترح هذا الشيخ العجوز ، ذو الجمجمة التي تشبه القمر ، نجبا آخر هو أيضا ، وكيف غنى على طريقة الديك بعض الأمازيح المقفاة . ان هذا التجروء الذى كان نسيانا لائقا للياقة - ان صح التعبير - قد أضحك جميع الحضور حتى الدموع ، وهذه كلارا أولسوفينا نفسها تنهض بموافقة أبويها فتقبله

وتشكره فى كثير من اللطف والمرح • وحسبى أن أضيف أن المدعويين ، كما ينتظر ذلك فى ختام وجبة كهذه الوجبة ، قد أخذوا يشعرون ، بعضهم نحو بعض ، بعواطف حارة جدا ، أخوية جدا •

ونهضوا أخيرا عن المائدة • فأما الرجال المتقدمون فى السن بعض التقدم ، فانهم بعد أن تبادلوا كلمات تتسم بالمودة الحارة والصدافة الحميمة، انسحبوا فى وقار الى الصالون القريب • وأما الشباب – وكان الوقت ثمينا ما ينبغى أن يضع سدى – فلم يلبثوا أن جلسوا الى موائد القمار الخضراء شاعرين شعورا عميقا بقيمتهم الخاصة • وأما السيدات اللواتى مكن عى الصالون الكبير فسرعان ما تلفظن تلفظا نادرا فذا وأخذن يتحدثن فى شئون الزينة • وهذا رب المنزل ، الشيخ المحترم الذى فقد استعمال ساقيه فى خدمة العدالة والحقيقة وكوفىء على النحو الذى ذكرناه آنفا ، يطوف على حلقة ضيوفه متوكئا على عكازين ، تسنده ابنته وفلاديمير سيمونوفتش • وتستبد بالشيخ النيل على حين فجأة لطافة عجيبة فيقرر أن يقيم حفلة راقصة مرتجلة دون أن يهتم بالنفقات • وهذا فتى نشيط (هو ذلك الموظف فى السجل ، الذى قلنا انه أشبه بشيخ محترم منه بمراهق) ، يرسل فورا للمجىء بموسيقين على جناح السرعة •

وصل الموسيقيون بعد قليل ، وعددهم أحد عشر موسيقيا ، وفى الساعة الثانية والنصف تماما دوت أولى ألحان رقصة فرنسية ، ثم تبعها رقصات أخرى ••• لا داعى الى القول ان ريشتى لا تملك من الرهافة والقوة ما يمكننى من أن أصف وصفا أميناً هذه الحفلة الراقصة المرتجلة التى تكرم بها رب المنزل المبيض الرأس ، لما أوتى من لطف فذ وكرم نادر • وأنى لى أنا القصاص المتواضع الذى يروى مغامرات السيد جوليا دكين – وهى مغامرات عجيبة ، أعتزى بذلك – أنى لى أن أنقل الى

القارىء ذلك التآلق الخارق والانسجام الرائع فى ذلك العيد الذى اثلثف فيه الجمال والتألق والفرح والمرح ائتلافا موقفا مع الأناقة المحتشمة والاحتشام الأنيق . كيف أصف ألعاب وضحكات جميع هاته السيدات اللواتى كن أشبه بغادات أساطير منهن بنساء موظفين - وذلك مديح أزجيه لهن - كيف أصف وجناتهن وأكتافهن التى تشبه أن تكون ألوانها ألوان زهر الليلك ، كيف أصف قاماتهن المشوقة وأقدامهن الصغيرة الماكرة النشيطة ... وكيف أصف فرسانهن اللامعين ، هؤلاء الممثلين المحترمين للإدارة الحكومية !

ان المراهقين والكهول ، الفرحين والرصينين من الشبان ، والمرحين والحالمين ، والذين يمشون بين كل رقصة ورقصة الى الصالون الاخضر الصغير ليدخوا غليوننا والذين لا يدخون بين كل رقصة ورقصة ... ان هؤلاء جميعا يحملون أسماء مجيدة . ان لهم جميعا ألقابا شريفة . انهم جميعا يفيضون لباقة ورشاقة وأناقة ، ويشعرون شعورا عميقا بقيمتهم ومنزلتهم . ويكادون يتخاطبون جميعا بالفرنسية ، وحتى الذين يستعملون منهم اللغة الروسية يعبرون عن أنفسهم بطريقة رقيقة مزاجين بين المرح وبين الجميل المثقلة بالمعاني . فى صالون التدخين ، فى صالون التدخين فقط ، كانوا يسمحون لأنفسهم بشيء يسير من الخروج على اللغة الراقية ، فتقلت من ألسنتهم جملة مألوفة لطيفة من هذا النوع : « هيه ... يا بيرو التقى التقى ... لقد عرفت كيف تفضح صاحبك » أو « مرحى أيها الوغد فاسيا ، لقد وصلت الى غاياتك ، عرفت كيف تتعب غادتك بغير رحمة . »

ولكن قلمى يخوننى أيها القارىء ، كما سبق أن تشرفت بأن قلت لك هذا . لذلك أوتر أن أصمت أو قل أن أعود الى السيد جوليا دكين البطل الحقيقى لهذه القصة الصادقة .

يجب أن أقول ان حالته الآن غريبة بعض الغرابة ، اذا لم أقل أكثر من ذلك . انه حاضر هناك ، هو أيضا ، أيها السادة . ليس حاضرا في حفلة الرقص ، ولكنه يشبه أن يكون حاضرا فيها . ليس لديه أية نية سيئة يا سادتي . انه لا يريد أن يسيء الى أحد . ولكنه مع ذلك في منعطف سيء . هو الآن - وانه للغريب حتى أن تقول هذا - في دهليز سلم الخدمة بمنزل أولسوفى ايفانوفتش . لا شيء في ذلك يا سادتي ، لا شيء في ذلك . ان السيد جوليا دكين لم يفكر في أى سوء . هو الآن قابع في ركنه الصغير . لقد لطا في ركن صغير غير دافئ جدا بطبيعة الحال ، ولكنه ركن مظلم في مقابل ذلك ، تخفيه بعض الاخفاء خزانة ضخمة وحواجز قديمة . انه في وسط كومة من الخرق العتيقة والأواني القديمة . انه مختف في هذه اللحظة ، يراقب ، ويتابع مجرى الأحداث مشاهدا محايدا . انه حتى الآن ، أيها السادة ، لا يزيد على أن يلاحظ . في وسعه طبعاً أن يدخل هو أيضا أيها السادة ولماذا لا يكون في وسعه أن يدخل ! ليس عليه حتى يدخل الا أن يتقدم خطوة واحدة . سيعرف كيف يدخل برشاقة . انه قابع هناك منذ ثلاث ساعات ، في البرد ، وراء الخزانات والحواجز ، وسط كل هذه الأكداس . انه ينتظر . ومن أجل أن يبرر نفسه أمام نفسه ، تذكر منذ لحظة جملة للوزير الفرنسى السابق فيليل : « من صبر ظفر » . لقد قرأ هذه العبارة سابقا في كتاب لا قيمة له ، وهى تعود الآن الى ذاكرته فى وقتها تماما . انها تناسب وضعه الراهن جدا . ويجب أن تقول أيضا أن أفكارا كثيرة تراود خاطر انسانٍ يمكث منتظرا ، فى دهليز بارد مظلم ، خلال ثلاث ساعات ، أن تنتهى الأحداث التجارية الى حل موفق .

هكذا ، بعد أن تذكر جملة الوزير الفرنسى فى الوقت المناسب ، خطر بباله - لا يدري الا الله لماذا - الوزير التركى القديم مارذيميريس ،

ثم خطرت بباله مارجراف لوزير الجميلة ، التي كان قد قرأ قصتها في أحد الكتب • ثم خطر بباله بعد ذلك أن يسوعين قد اتخذوا مبدأ لهم أن يعدوا جميع الوسائل حسنة متى كانت تؤدي الى تحقيق الغاية المنشودة • ان تذكر هذه الحقيقة التاريخية قد بث في نفس السيد جوليا دكين شيئا من الثقة • حتى لقد استخرج منها على الفور أن هؤلاء يسوعين ، أن جميع يسوعين ، من أولهم الى آخرهم ، أغبياء أقصى الغباوة ، وانه قادر على أن يضمهم جميعا في جيبه ! ••• آه ••• ليت الغرفة التي يوجد فيها البوفيه خالية ، ولو دقيقة واحدة (هي الغرفة التي تتصل رأسا بالدھليز الذي يقبع فيه السيد جوليا دكين في هذه اللحظة) ••• لو كانت خالية اذن لاجتاز هذه الغرفة ، رغم جميع يسوعين ، ولانتقل بعد ذلك الى الصالون الكبير ، فالى غرفة القمار ، من أجل يدخل من هناك الى القاعة التي يقوم فيها رقص البولكا • نعم ، لو كانت الغرفة خالية اذن لمر حتما ، مهما كلف الأمر ••• ان في وسعه أن يتسلل خفية ••• فما يلاحظه أحد ، وتتجعجج حيلته ••• وسيعرف عندئذ ماذا بقى عليه أن يعمل ••• تلك كانت ، في هذه اللحظة ، الحالة النفسية لبطل قصتنا الصادقة ، رغم أنه ما يزال يصعب علينا كثيرا أن نصف عواطفه وصفا دقيقا •

طبعا ، لقد استطاع أن يصل الى سلم الخدمة والى الدهليز على أساس التفكير التالي : « ماداموا قد وصلوا هم ، فلماذا لا أصل أنا ؟ » • أما أن يمضى الى أبعد من ذلك ، فهذا أمر آخر ••• انه لم يجروا أن يفعل ••• لا عن جبن طبعا ، بل بمحض ارادته : انه يؤثر أن يتصرف خفية ••• وهو الآن يرقب فرصة التسلل خلسة • انه يرقب هذه الفرصة منذ ثلاث ساعات • ولماذا لا يصبر ؟ ان فيليل نفسه قد صبر • « ولكن ما شأن فيليل هنا ؟ » • كذلك قال السيد جوليا دكين لنفسه فجأة ،

« ثم من هو فيليل هذا ؟ ... أما أنا فيجب عليّ الآن أن أتمكن من الدخول ... فما العمل ؟ ألا انك أشبه بأولئك المثلين التانويين الذين لا يفعلون شيئا ولا يقولون شيئا على خشبة المسرح ... ألا انك لشخص غبي أبله » .
هكذا قال جوليا دكين لنفسه وهو يقرص خده المتجلد بأصابعه المتخدره من شدة البرد . « ما أنت الى جوليا دكا مسكين ، لا أكثر من ذلك ... أنت اسم على مسمى ! » .

يجب أن نذكر أن هذه المداعبات الصغيرة التي داعب بها جوليا دكين شخصه قد نطق بها جوليا دكين دون أى هدف معين ، بل ترجية للوقت فحسب . ولكن ها هو ذا يتقدم . لقد خلا البوفيه . لم يبق فيه أحد . لاحظ جوليا دكين ذلك من كوة صغيرة ... خطوتان ، فاذا هو على الباب . وهمّ أن يفتح الباب ...

« أمضى أم لا أمضى ؟ نعم ، أمضى أم لا أمضى ؟ بل سأمضى ... لماذا لا أمضى ؟ الشجاع يجد طريقه دائما . » . بث هذا التفكير بعض الثقة فى نفس بطلنا . ولكن ها هو ذا يتراجع فجأة . « لا ... لا يجب ... هب أحدا دخل فى هذه اللحظة ... هذا واحد يدخل فعلا . لماذا تكاسلت ببلاهة حين كانت الطريق خالية ؟ يجب أن أفتح وأن أدخل مهما كلف الأمر ... يجب أن أفتح . الكلام سهل . جرب أن تفتح وأنت على ما أنت عليه من طبع متردد ، ومزاج جبان . لقد خفت ... كدجاجة مبللة . هو الهلع والجزع ... ما فى ذلك شك ... أنا أعرفك .. هو الجبن .. أعرفه فيك .. لا جدال فى هذا .. اذن ليس عليك الا أن تبقى حيث أنت ، كرزمة ، كرزمة لا أكثر .. لو كنت فى منزلى الآن لكنت بسبيل احتساء فنجان طيب من الشاي . واذا تأخرت عن العودة سيأخذ بتروشكا يفيلق حتما ... أليس الأفضل أن أعود الى

المنزل؟ نعم، والى جهنم كل ما عدا ذلك! هيا، سأعود. انتهى الأمر... ..

ما ان اتخذ جوليا دكين هذا القرار حتى وثب وثبة مفاجئة الى امام، كأن نابضا قد انفلت فيه على حين بفته. فاذا هو، بخطوتين اثنتين، فى القاعة المخصصة للوفيه. وما لبث أن خلع معطفه بسرعة، ونزع قبعته، فندسهما فى ركن، ثم رتب شعره وزينته بعض الترتيب، و... و... أخيرا، تقدم... فاجتاز الصالون، وتسلسل من هناك الى غرفة أخرى، فمر بين المقامرين المحمومين دون أن يلاحظه أحد... وبعدئذ... ابتداء من تلك اللحظة أصبح السيد جوليا دكين لا يدرك شيئا مما يجرى حوله، وها هو ذا يظهر فى قاعة الرقص منقضا انقراض الساعة.

وشاءت المصادفة التى تشبه التعمد، أن يكون الرقص متوقفا فى تلك اللحظة بعينها. السيدات يتجولن فى القاعة جماعات متألفة. والرجال مجتمعون حلقات تتحدث، وبعضهم يطوفون فى القاعة محتجزين حسناواتهم للرقصة القادمة. ولكن السيد جوليا دكين لم ير الا كلارا أولسوفينا، والا آندره فيليوفتش الى جانبها. ولاحظ أيضا فلاديمير سيميونوفتش، ثم لاحظ ضابطين أو ثلاثة، وشابين أو ثلاثة شبان لهم مظهر مليء بوعود كثيرة... وعود يكون بعضها فى بعض الأحيان قد تحقق... وكان النابض الذى دفع جوليا دكين دفعا الى دخول حفلة الرقص التى لم 'يدع اليها كان ما يزال يحركه هو نفسه. فيها هو ذا يتقدم ثم يتقدم، فيصطدم فى طريقه بمستشار ويدوس على قدمه؛ ثم يسير أثناء اندفاعه على أطراف من ثوب سيدة عجوز فيمزقه، ويزرحم خادما كان يطوف على المدعوين بطبق، ويصدم سيدا آخر أيضا، ولكن دون أن يلاحظ شيئا من هذا كله، أو قل متظاهرا بأنه لا يلاحظ شيئا

ولا يرى شيئاً ، وانما هو يتقدم ثم يتقدم الى أن وجد نفسه وجها لوجه
أمام كلارا أولسوفينا •

لا شك أبداً ، نعم لا ريب اطلاقاً في أنه لو استطاع في هذه اللحظة
بعينها أن يغيب تحت الأرض الى الأبد ، لفعل ذلك بغير أى تردد ، وبسرور
عظيم • ولكن فات الأوان ، وما وقع فقد وقع •

أمر لا يغتفر ••• ما الذى بقى عليه أن يعمله ؟ قال السيد
جوليادكين لنفسه : « الصمود عند الاخفاق ، والاستمرار عند النجاح »
ليس السيد جوليادكين انساناً ماكرًا يدبر المكائد ، انه لا يملك فن
تلميع خشب الأرض بنعله ••• ذلك هو الأمر • وشر ما فى المسألة أن
هؤلاء اليسوعيين يتدخلون ••• اليسوعيون ••• لا شأن له بهم الآن •
وها هم جميع أولئك الناس الذين كانوا حتى تلك اللحظة يتجولون
ويتحدثون ويضحكون ، ها هم أولاء يتوقعون فجأة بما يشبه السحر ،
ويصمتون ويتحلقون دائرةً حول السيد جوليادكين •

أما بطلنا فكأنه كان لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً ••• كان لا يستطيع
أن ينظر اليهم •• لا •• ما كان له أن ينظر اليهم بحال من الأحوال • كان
واقفاً هنالك ، مسمراً على قدميه ، مطرقاً الى الارض •

قال فى نفسه « يمينا لأطلقن على رأسى رصاصة فى هذه الليلة ••
أما الآن فليكن ما يكون • • وما كان أشد دهشته وأعمق انشداه هو
نفسه حين أخذ يتكلم فجأة • بدأ السيد جوليادكين كلماته بالتهنئات
والتمنيات المألوفة •

انطلق يزجى التهنئات بلا مشقة ، ولكنه حين وصل الى التمنيات
أخذ يدمدم • وشعر فى ذات نفسه أنه اذا أخذ يجمع بكلام غير مفهوم

فقد فسد كل شيء حتما . وذلك ما وقع . لقد تخبط لسانه . . . فتوقف
عن الكلام . . . غاص في الكلمات ، احمر وجهه ، فقد توازنه . . . رفع
عينه . . . طاف بها على الحضور طويلا . . . تفرس في الناس . . . انهار .
المدعوون من حوله جامدون ، بكم ، ينتظرون النهاية . وأخذت
دمدمات تُسمع خارج الحلقة . وانطلقت ضحكات . نظر السيد جوليا دكين
الى آندره فيليبوفتش نظرة مذلة وخضوع . فرد عليه آندره فيليبوفتش
بنظرة كانت خليقة أن تلقيه على الارض جثة هامة بدون شك ، لولا أنه
كان قد أصبح أقرب الى الموت منه الى الحياة قبل ذلك . وطال الصمت .
تمتم السيد جوليا دكين يقول بصوت لا يكاد يسمع ، وهو يشبه أن
يكون ميتا من شدة الذعر :

- مرد هذا كله الى ظروفى الخاصة ، الى حياتى الخاصة يا آندره
فيليبوفتش . ليس هذا خطوة رسمية يا آندره فيليبوفتش .

أجابه آندره فيليبوفتش بصوت أجس :

- ينبغي لك أن تستحى أيها السيد ، ينبغي لك أن تستحى .

كان آندره فيليبوفتش فى ذروة الاستياء . وتناول يد كلارا
أولسوفييفا وأدار ظهره للسيد جوليا دكين .

- ليس لى أن أستحى يا آندره فيليبوفتش . مم أستحى ؟

كذلك تمتم السيد جوليا دكين ، بينما كانت عيناه تطوفان على الحفل
باحثتين بين أفراد هذا الجمهور المتجمد عن وجه معروف ، عن انسان من
بيئته ، من منزلته الاجتماعية .

وأردف يقول بصوت ما يزال خافتا :

- ليس هذا بشيء يا سادتي ، ليس هذا بشيء ، أوكد لكم ، ما هذا
بشيء . ذلك أمر يمكن أن يقع لجميع الناس .

وحاول جوليا دكين أن يخرج من الحلقة مترددا متعشرا فأفسح له
ممر . واستطاع بطلنا أن يتسلل بين صفيين من المشاهدين المبهوتين
المستطلعين المتعجبين . لقد كان قدره يقوده . أدرك السيد جوليا دكين
ذلك ادراكا كاملا . لا شك أنه كان مستعدا لأن يدفع أعلى ثمن في سبيل
أن يجد نفسه مرة أخرى في ركنه الصغير ذاك من دهليز سلم الخدم ،
دون أن يكون عليه من أجل ذلك أن يخالف قواعد الحشمة والأدب .
ولكن ذلك كان مستحيلا بعد الذي وقع . لذلك وجه جميع جهوده نحو
الثور على ركن صغير هاديء ، ركن صغير يستطيع أن يندس فيه ، أن
يلبد فيه . لو استطاع أن يقع على مثل هذا الركن لمكث هنالك متواضعا
ساكنا مسالما لا يزعج أحدا ولا يلفت إليه نظر أحد ؟ ولا استطاع بسلك
لا مأخذ عليه أن يحظى بحسن معاملة المدعويين ورب المنزل .

ولكن جوليا دكين شعر في تلك اللحظة بنوع من دوار . شعر أن
قواه تخور ، وأنه يوشك أن يسقط . وكان قريبا جدا من الركن الصغير
المنشود ، فالتجأ إليه واعتصم به ، واستقر هنالك ، ثم لم يلبث أن اتخذ
وضع مشاهد يلاحظ ملاحظة محايدة . وفي الوقت نفسه اختطفت يدها
ظهري كرسيين واستولتا عليهما استيلاء حازما ، وأخذت عيناه ، وقد
استردتا نشاطهما تقطعان أعين أصدقاء كلارا أولسوفينا المتجمعين حوله .
كان على مقربة منه ضابط فارع القامة قوى الجسم جميل المظهر . فشرع
جوليا دكين ازاء أنه أشبه بذبابة صغيرة .

- سيدى الملازم ، ان هذين الكرسيين محجوزان ؟ فهذا لكلارا

أولسوفينا وهذا للأميرة تشفتشيكانوف ، اللتان ترقصان الآن ، وأنا
أحفظهما لهما •

كذلك تمت السيد جوليا دكين بلهجة ضارعة • فلم يجبه الملازم ،
بل رشقه بنظرة صاعقة ، وأشاح وجهه عنه • واذ شعر بطلنا أنه صد من
هذه الجهة وخذل ، جرب حظه في جهة أخرى ، فاستفرد سيدا خطيرا
الشأن يزدان صدره بوسام من درجة عالية ، وهو مستشار دولة ، فكانت
النظرة التي رد عليه بها هذا السيد تبلغ من تشييط العزيمة أن أثرها كان
أشبه بأثر قادوس من ماء بارد صب على رأسه • فصمت السيد جوليا دكين •

قال لنفسه : « فلنلزم الصمت • لا كلمة بعد الآن • يجب أن
يدركوا تمام الإدراك أنني واحد كسائر الناس ، أنني مدعبو كسائر
المدعوبين ، وأن مركزي لا يقل علوا عن مراكزهم » •

فلما اتخذ هذا القرار ثبت نظره على أفقية ردنجاته • ولكن بصره
لم يلبث أن انتقل الى سيد ذي مظهر محترم كل الاحترام •

قال لنفسه : « هذا السيد يضع على رأسه شعرا مستعارا ، فإذا نزع
عنه الشعر المستعار لم تجد تحته الا جمجمة عارية ، نعم ، جمجمة لا تقل
ملاسة عن راحة كفى » • وما كاد السيد جوليا دكين يقوم بهذا
الاكتشاف الخطير حتى اتجه فكره الى الأمراء العرب • قال لنفسه :
« يكفى أن تنزع العصبة التي يضعونها على رؤوسهم تيمنا بالنبي العظيم
حتى لا تظهر تحتها الا جمجمة ملساء ، جمجمة عارية تماما » •

ثم انتقل فكره ، بتداعي المعاني من غير شك ، عن طريق التفكير
في شؤون المسلمين ، الى البوابيح التركية ، فلاحظ أن آندره فيليبوفتش
كان ينتقل حذاءين هما الى البوابيح التركية أقرب منهما الى الأحذية •

ومهما يكن من أمر فقد بدا على جوليا دكين أنه أخذ يألف وضعه قليلا قليلا . وبرق في ذهنه خاطر : قال لنفسه : ليت هذه الثريا تنفصل عن سلسلتها في هذه اللحظة ، ليتها تسقط ، اذن لهرعت أنقذ كلارا أولسوفينا على الفور . سوف أنقذها عندئذ ثم لا أزيد على أن أقول لها : « لا تجزعى ! ماهذا بشيء . أنا مقنك » . ثم أخذ السيد جوليا دكين يبحث عن كلارا أولسوفينا بين الحضور ، ولكنه بدلا من أن يراها ، رأى جيراسيموفتش ، رئيس الخدم العجوز في منزل أولسوفى ايفانوفتش . كان الخادم العجوز مقبلا عليه ، وقد لاح في وجهه انشغال البال . ارتش السيد جوليا دكين . شعر باحساس غريب ، غامض ، لكنه مزعج ازعاجا واضحا على كل حال . جعد السيد جوليا دكين وجهه ونظر حوله . تمنى لو يألف ، تمنى لو يخرج من القاعة ، خفية ، خلسة ، محاذيا الجدران ، لا يراه أحد ولا يسمعه أحد . تمنى لو يتبخر . . . ولكن كان الأوان قد فات . . . فقبل أن يتخذ قرارا ، كان جيراسيموفتش قد أصبح أمامه .

قال بطلنا وهو يتسم :

- اسمع يا جيراسيموفتش . . . يجب عليك أن . . . أنظر . . . هل ترى تلك الشمعة هناك على الشمعدان الكبير ؟ انها توشك أن تسقط . . . يجب عليك أن تأمر بعديلها يا جيراسيموفتش ، والا سقطت حتما .
- أية شمعة ؟ ولكنها معدولة ! . . . أما أنت فان شخصا يطلبك هناك .

- من يطلبنى يا جيراسيموفتش ؟

- لا أعرف من هو تماما . انه خادم مرسل من . . . سألنى : « هل

ياكوف بتروفتش جوليا دكين هنا ؟ قل له أن يأتي من فضلك • هناك أمر
مستعجل وهام جدا •••• « • ذلك ما قاله لي •

- لا يا جيراسيموفتش ، أنت مخطيء ، أنت مخطيء قطعاً •
- أشك في ذلك •

- لا يا جيراسيموفتش ، ليس هناك أي شك ، ليس هناك أي شك
اطلاقاً • لم يطلبني أحد • لا يمكن أن يطلبني أحد ، على كل حال ••
وأنا هنا في بيتي ، أقصد في مكاني •

استرد جوليا دكين أنفاسه ونظر حوله • انه يشبه في الامر • جميع
الاعين مصوبة اليه ، جميع الأذان متجهة نحوه • ان كافة هؤلاء الناس
المجتمعين في القاعة يظهرون معلقين به ، منتظرين ما سيقع • كأن الحضور
جميعاً كانوا يشاركون في الحادث • السيدات يوشوشن قلقات ، وقد
ابتعدن قليلاً • رب المنزل متلبث على مسافة من جوليا دكين • انه لا يبدو
مشاركاً مشاركة فعالة في محن بطلنا • كل شيء يجري بكثير من اللباقة
والرعاية على كل حال • ومع ذلك شعر بطلنا شعوراً واضحاً بأن اللحظة
الحاسمة قد حانت • ان عليه أن يضرب ضربة كبرى • أن له أن يبيد
أعداءه • كان السيد جوليا دكين مضطرباً اضطراباً عميقاً • وأخيراً واتاه
الوحي • فيها هو ذا يخاطب جيراسيموفتش قائلاً بصوت مرتجف لكنه
حاسم :

- لا يا صديقي ، لا ؛ مامن أحد يطلبني • أنت مخطيء • أكثر من
ذلك انك منذ هذا الصباح قد أخطأت حين أكدت لي ••• نعم ، حين
تجرات فأكدت لي (هنا رفع جوليا دكين صوته) ان أولسوفي ايفانوفتش ،
المحسن الي ، الانسان الذي كان لي منذ زمن طويل بمثابة أب ، قد أوصد

دونى بابه فى هذا اليوم الرائع ، فى هذا اليوم من آياه سعادة قلبه ، قلب
الآب ***

تصفح جوليا دكين الحضور • انه يبدو راضيا عن نفسه ، ويبدو فى
الوقت ذاته منفلا انفعالا عميقا • وظهرت دموع فى أطراف أهدابه •

استأنف يقول :

- أعود فأقول يا صديقى انك قد ارتكبت خطأ لا يغتفر •

لحظة مؤثرة • أحس جوليا دكين أنه قد أحدث أثرا محققا • وقف
وقفة متواضعة ، متجمعا على نفسه ، غاضا بصره ، ينتظر أن تتدفق عليه
عواطف أولسوفى ايفانوفتش ، أن يعانقه أولسوفى ايفانوفتش • بدا على
الحضور الاضطراب والاشدهاء • حتى جيرا سيموفتش الرهيب ، الذى
لا يرحم ، لاح عليه أن نفسه قد اهتزت ، فهو لا يستطيع أن ينطق بكلمة
*** ها هى ذى الأوركسترا ، الأوركسترا اللعينة ، تأخذ على حين فجأة
تعزف رقصة بولكا •

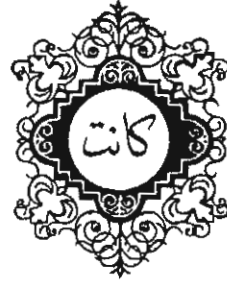
انقطع السحر • انتهى كل شىء • انتفض السيد جوليا دكين • تقهقر
جيرا سيموف قليلا الى وراء • اندفع جمهور المدعوين يرقص كبحر مائج •
ان فلاديمير سيمونوفتش هو الذى افتتح الرقص مع كلارا أولسوفيفنا •
وتبعهما الملازم الجميل يراقص الأميرة تشفتسيكانوف • الذين لم يرقصوا
أسرعوا يعجبون بأزواج الراقصين الذين اندفعوا يتحركون على أنغام
البولكا • ما أجمل رقصة البولكا ! انها رقصة حديثة جدا ، مثيرة جدا •
لا شىء مثلها يدير الروس • حتى لقد أنست الناس السيد جوليا دكين الى
حين • غير أن انقلابا كبيرا لم يلبث أن وقع فجأة • اضطرب الناس
وتزاحموا *** وتوقفت الموسيقى وسط البلبلة الشاملة • لقد وقع حادث

غريب ليس فى الحسبان . ان كلارا أولسوفيفنا قد نهارت على أحد المقاعد ،
متقطعة الأنفاس ، محمرة الخدين ، لاهثة الصدر خائرة القوى . . . لاشك
أن الرقص هو الذى أتمبها . خفقت جميع القلوب لها . وهرع الناس
يحتشدون حولها . كل واحد منهم يريد أن يظهر اهتمامه بها وقلقه عليها
وامتنانه من المتعة الكبرى التى هيأتها لهم جميعا . وفجأة ظهر جوليا دكين
أمامها . انه شاحب الوجه ، مضطرب اضطرابا عميقا ، يبدو خائر القوى
تماما هو أيضا . . . انه يجبر نفسه جرا . . . وها هو ذا يمد يده نحوها
ناظرا اليها نظرة ضارعة . كانت كلارا أولسوفيفنا مصعوقة فلم يتسع
وقتها لسحب يدها . ونهضت تستجيب لدعوته كأنها آلة لا تعي ماذا تفعل .
اهتز السيد جوليا دكين ، وخطا خطوة الى أمام ، ثم خطوة أخرى ، ورفع
ساقه ، وهم بخطوة نائلة فضرب الارض بقدمه مترنحا فاقتا توازنه . . .
لقد أراد أن يرقص هو أيضا مع كلارا أولسوفيفنا . . . أطلقت الفتاة
صرخة . فهرع أصدقاؤها يخلصون يديها من قبضة يد السيد جوليا دكين .
فما هى اللحظة حتى كان بطلنا مدفوعا ملقى على مسافة عشر خطوات من
الجميلة . وسرعان ما تكونت حلقة جديدة حوله . وسمعت صرخات
حادة . انهما سيدتان عجوزتان أو شك السيد جوليا دكين أن يقلبهما أثناء
تفهقره المفاجيء . وعمت فوضى شديدة . الناس يسائل بعضهم بعضا ،
ويتناقشون ، ويزمجرون . الاوركسترا صمتت تماما . السيد جوليا دكين
يتحرك وسط الحلقة التى احتشدت حوله ويدمدم كالألة وهو يتسم
ابتسامة ضعيفة قائلا : « نعم . . . ولم لا ؟ البولكا فى رأى رقصة حديثة .
هى رقصة شائقة ، وجدت لمتعة هاته السيدات . . . ولكننى أرضى أن
أجربها أنا أيضا ، بسبب الظروف . . . » .

ولكنهم لم يحفلوا برضاه . فما هى اللحظة حتى أحس بطلنا بيد
تمسك ذراعه ، وأخرى تتناوله من ظهره ، فى كثير من الرفق مع ذلك .

وأحس أنه 'يدفع في اتجاه معين • وسرعان ما لاحظ أنهم يقودونه 'قدما نحو الباب • أراد السيد جوليا دكين أن يقوم بإشارة ، أن يقول كلمة • ولكن لا ••• لقد أصبح لا يريد شيئا البتة • أصبح يكتفى بأن يضحك ضحكا ضعيفا ، كأنه آلة لا ارادة لها • وشعر أخيرا بأنهم يلبسونه معطفه ، ويغطسون رأسه في قبعته حتى العينين • وأدرك بعد ذلك أنه صار على فسحة السلم ، في البرد والظلام ••• وأنه أخذ يهبط السلم • زلت قدمه • خيل إليه أنه يسقط في هاوية • أراد أن يصرخ • ولكن كان قد أصبح في فناء الدار • شعر بنسمة طرية تهب على وجهه • توقف هنيهة • وفي تلك اللحظة نفسها ترامت الى أسماعه أصوات رقصة جديدة • لقد عادت الاوركسترا تعزف • فتذكر السيد جوليا دكين كل شيء فجأة • بدا أنه يسترد قواه • انتزع نفسه من المكان الذي كان ثاوبا فيه حتى ذلك الحين كالمسمر تسميرا • وثب • طار • ظل يركض لا يلوى على شيء • الى أين كان ذاهبا ؟ الى أي مكان ••• الى أي مكان يوجد فيه هواء ••• توجد فيه حرية •••

الفصل الخامس



الساعة تدق منتصف الليل فى جميع أبراج سان بطرسبرج ، حين وصل السيد جوليا دكين الى رصيف نهر فوتاكا قرب جسر اسماعيلوفسكى . كان خارجا عن طوره • انه يهرب من أعدائه

وما يوقعونه فيه من ضروب الاضطهاد • يهرب من وابل الضربات التى يمطرونه بها ، يهرب من صرخات النساء العجائز المذعورات ، ومن نظرات آندره فيليوفتش القتلة • كان السيد جوليا دكين ميتا ، متلاشيا ، بأوسع معانى الكلمة • واذا كان لا يزال الآن قادرا على أن يركض ، فما ذلك الا بمعجزة ، بمعجزة لا يكاد يصدقها هو نفسه • وكانت الليلة رهيبه ، رطبة ، يملؤها الضباب والمطر والتلج ، وتموج فيها أنواع الزكام والرشح والحمى ، ليلة مثقلة بجميع هبات شهر نوفمبر فى سان بطرسبرج • الريح تزار فى الشوارع المقفرة ، وتجعل مياه نهر فوتاكا السوداء تثب الى مستوى أعلى من مستوى سلاسل الضفة ، وتأتى تناكد المصاييح الضئيلة المنثورة على

الرصيف ، فتستجيب المصابيح لزئيرها المشؤم بصريير نحيل حاد . أصوات شاكية موجعة الأنين ، ألحان لا نهاية لها يعرفها جميع سكان العاصمة حق المعرفة . المطر والتلج يهطلان في آن واحد معا . والماء تحمله هبات الريح ، فيتساقط خطوطا كثيفة تكاد تكون أفقية ولا تقل غزارة عن الماء المنهمر من مضخة . وكانت القطرات تضرب وجه المسكين جوليا دكين ضربا شديدا وتمزقه تمزيقا ، حتى لكأن ألوانا من الابره والدبابيس تنفذ في جلده .

وفي وسط ظلام الليل ، الذي تخترقه قرعات العربات البعيدة ويخترقه زئير الريح وصريير المصابيح ، كانت تسمع ضجة متصلة مشؤمة هي ضجة الماء المتساقط على الأرض من الأسطح والآفاريز والمزاريب وما من انسان يرى في الطريق ، وهل يمكن أن يرى في الطريق انسان في مثل هذه الساعة المتأخرة وفي مثل هذا الجو الرهيب ! كان السيد جوليا دكين وحده يكردح على رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة . انه يستعجل الوصول بأقصى سرعة الى بيته الواقع في الطابق الرابع من عمارة بشارع « الدكاكين الست » . كان الثلج والمطر والريح وجميع عناصر الطبيعة الثائرة في سماء تشرين الثاني (نوفمبر) بسان بطرسبرج ، على ميعاد في هذه الليلة الفظيعة ، تهاجم جوليا دكين البائس من كل صوب بلا هوادة ، بعد أن هدته مصائبه الخاصة هذا كافي ، فهي تنفذ الى عظامه ، وتعمى بصره ، وترجحه وترنجه وتجعله يتعثر ويخرج عن طريقه ، وتسلبه في الوقت نفسه آخر ما بقي له من عقل . كأن تحالفا قد قام بين قوى الطبيعة وبين أعدائه بغية افساد نهاره ومسائه وليله افسادا كاملا .

ولكن من الغريب أن السيد جوليا دكين كان يبدو غير مكترث أي أكثرات بشيء مما كان يصيبه به القدر من أهوال شديدة في ذلك الأوان .

فان ما جرى له قبل لحظات فى منزل مستشار الدولة بيرنديف كان قد قلب نفسه رأسا على عقب وهد روجه هدا • فلو رآه فى هذه اللحظة مشاهد محايد ، ورأى كيف كان المسكين يهرول على الرصيف ، اذن لأدرك على الفور مدى النوازل التى انصبت عليه منذ حين ؛ ولأدرك أن السيد جوليا دكين لم يكن ينشد فى تلك اللحظة الا شيئا واحدا هو أن يهرب ، أن يختبئ ، أن يهرب من نفسه ، أن يختبئ عن نفسه • نعم ، ذلك ما كان ينشده السيد جوليا دكين فى تلك اللحظة • بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك • ان السيد جوليا دكين لم يكن يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يهرب من نفسه فحسب ، بل كان كذلك مستعدا لأن يسذل كل شيء فى سبيل أن يتلاشى تالشيا تاما ، فى سبيل أن يصير الى رماد فورا • هو الآن لا يلوى على شيء ، ولا يلتفت الى شيء ، ولا يدرك شيئا • انه يبدو غير حافل اطلاقا بجميع الحواجز التى تنتصب أمامه فى تلك الليلة المشئومة ، غير حافل لا بطول الطريق ، ولا بقسوة الجو والمطر والثلج والريح •

وعلى رصيف نهر الفونتاكا سقط الجرموق الذى كان يغطى حذاءه الأيمن ، وبقى غاطسا فى الوحل والثلج ، فلم يلاحظ السيد جوليا دكين ذلك ، ولا خطر بباله لحظة أن يعود أدراجه باحثا عنه • كان السيد جوليا دكين من شدة انشغال البال وشروذ الذهن أنه رغم الاعصار توقف عدة مرات وظل على حافة الرصيف مسمرا كالوتد متجمدا بلا حراك ، يتذكر جميع تفاصيل ذلك السقوط القاسى الذى عاناه • كان يحس أنه يموت • وما هى الا ثانية واحدة حتى كان يستأنف ركضه المسعور ، هاربا من عدو خفى لا يرى ، محاولا أن يفلت من مصائب جديدة أشد هولاً • كانت حاله رهية حقا ••

ووقف السيد جوليا دكين أخيرا خائر القوى ، فاتكأ على سور رصيف

النهر ، فى وضع انسان أخذ أنفه يعرف فجأة ؛ وراح السيد جوليا دكين يتأمل مياه الفونتاكا السوداء العكرة . لا نستطيع أن نقول كم من الزمن لبث على هذه الحال . ولكن الأمر المحقق هو أنه قد بلغ غاية الحزن واليأس والارهاق ، حتى كاد يخنق . لقد نسي كل شيء ، كل شيء ، جسر اسماعيلوفسكى ، وشارع « الدكاكين الستة » ، ومصائبه الأخيرة وأصبح لا يبالي شيئا ولا يحفل بشيء . لقد انتهت القضية ، وصدر الحكم ، وأبرم ولا حيلة له فى دفع ما حدث .

وفجأة فجأة ارتعش جسمه كله من قمة الرأس الى أخصم القدم . وها هو ذا يتقهقر خطوتين الى وراء ، بوثة غريزية ، ويجعل يلقى نظرات على ما حوله وهو فريسة قلق لا يغالب . ولكن ليس هنالك شيء خاص ، ليس هنالك أحد ومع ذلك ، مع ذلك ، كان السيد جوليا دكين قد اعتقد فى هذه اللحظة أنه لمح شخصا كان موجودا هناك ، قريبا جدا منه ، متكئا على سور الرصيف . والغريب أن هذا الشخص قد خاطبه ، وكلمه بصوت سريع منقطع . ان السيد جوليا دكين لم يدرك تماما معنى أقواله ، ولكن لا شك أن أقواله كانت تدور على شيء يتصل به اتصالا وثيقا .

« ما هذا ؟ هل حلمت ؟ » كذلك تساءل السيد جوليا دكين وهو يجيل بصره من جديد على ما حوله « ولكن أين أنا فى الواقع ؟ آه . . . آه . . . » بهذا ختم هتافه وهو يهز رأسه . ومع ذلك أخذ يتفحص الفضاء الممطر البارد الذى يحيط به وقد تملكه قلق شديد ، بل رعب قوى . حاول أن ينفذ بصره فى الظلمات التى يملؤها البخار من حوله . ولكنه لم ير شيئا . بدا له كل شيء على حاله لم يتغير . وتكاثرت هطول الثلج غزارة وكثافة . فلا يستطيع المرء أن يميز شيئا أبعد من

عشرين خطوة • وكان صريف المصابيح قد اشتد أيضا ؛ وكانت الأغنية الحزينة الشاكية التي تغنيها الريح قد ازدادت كذلك حزنا وشكاة ••• فكأنها ضراعات شحاذ عاد يكرر استعطاءه مصرا على أن ينفخ ما يسد به رمقه • « آه ••• ماذا جرى لي ؟ » ، كذلك تساءل السيد جوليا دكين وهو يستأنف سيره في طريقه بعد أن أنعم النظر فيما حوله مرة أخيرة • وفي أثناء ذلك ظهر شعور جديد في نفس السيد جوليا دكين • لم يكن هذا الشعور قلقا ولا رعبا ••• ان قشعريرة متشنجة تسرى الآن في جسمه كله ••• لحظة أليمة ••• احساس لا يطاق •

« لا خير •• ليس هذا بشيء ••• قد لا تكون لهذا أية نتائج ، وقد لا يسىء الى شرف أحد • لعل الأمور كلها تجري على أحسن وجه ••• لعل جميع المسائل ستحل مع الزمن ، فلا يقول أحد بعد ذلك شيئا ، ويبرر بعد ذلك كل شيء » • كذلك تابع السيد جوليا دكين يقول لنفسه دون أن يفهم هو نفسه معنى أقواله • شعر السيد جوليا دكين ببعض العزاء حين راودت نفسه هذه الخواطر • فاتصّب قليلا ، ونفض ثيابه ، وأسقط الثلج الذي كانت طبقة كثيفة منه تغطي قبعته وياقته ومعطفه وربطة عنقه وحذاءيه • ولكنه لم يستطع أن يتخلص من ذلك الشعور الغريب الحاد ، من ذلك الغم الهائل ••• ودوت طلقة مدفع في مكان ما ، بعيد جدا •

قال بطلنا :

« يا له من جو غريب ! ان طوفانا يوشك أن يحدث • يظهر أن الماء قد ارتفع ارتفاعا كبيرا » • فما ان عبر عن هذه الفكرة ، بل قل ما ان تصورهما حتى رأى أمامه شخصا مقبلا عليه • لعله عابر آخرته ظروف طائرة ، كالسيد جوليا دكين تماما • فلا شيء في هذا خارق للعادة فيما

يبدو • ولكن السيد جوليا دكين اضطرب اضطرابا شديدا وذعر ذعرا قويا ، لسبب نجهله ••• لا لأنه خشي أن يكون هذا العابر رجلا سيء الاخلاق ••• قال السيد جوليا دكين لنفسه : « قد يكون وجود هذا الرجل المجهول هنا مصادفة من المصادفات لا أكثر ••• ولكن قد يكون لاقباله على سبب ، فهو يريد أن يقطع طريقى وأن يتحرش بى ••• » والحق أن السيد جوليا دكين لم يعبر عن هذه الفكرة تعبيرا واضحا جدا ؛ فلعلها لم تكن أكثر من حدس خاطف يصاحبه احساس أليم • ثم ان أو ان التفكير والشعور باحساسات كان قد فات • فالرجل قد أصبح على مسافة خطوتين من السيد جوليا دكين • فسرعان ما عمد السيد جوليا دكين ، على عادته التى يحرص عليها ، الى اصطناع وضع خاص جدا ، وضع يعبر تعبيرا بليغا عن أنه ، هو جوليا دكين ، موجود هنا عرضا ، ماض فى طريقه انسانا طيبا مسالما ، لا يفكر فى أى شر ولا يخطر بباله أى سوء ، وأن الطريق عريض يتسع لجميع الناس ، أما هو ، جوليا دكين ، فليس فى نيته أن يستفز أحدا أو أن يتحدى أحدا • وفجأة توقف جوليا دكين متجمدا كأن صاعقة نزلت عليه • والتفت بفتة ليتفحص عابر السيل الذى تجاوزه منذ هنيهة • لكن حركته قد أحدثها نابض أدار رأسه الى الوراء كما تدوير الريح كف المعدن التى تدل على اتجاهه • وكان الرجل المجهول قد غار بسرعة فى اعصار الثلج • كان يبدو هو نفسه مستعجلا أيضا • وكان هو نفسه غارقا فى معطفه حتى الرأس كذلك ، مثل جوليا دكين تماما ، وكان يكردح هو أيضا على طول رصيف الفوتناكا بخطى صغيرة سريعة متقطعة بعض التقطع •

« ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » • كذلك تمتم السيد جوليا دكين وهو يتنسم ابتسامة شك وحذر ، بينما كانت تسرى فى جسمه كله قشعريرة تهزه هزا ، وبينما أصبح ظهره كالجليد صقيعا • كان الرجل المجهول

قد غاب ، حتى أن وقع أقدامه أصبح لا يسمع . ومع ذلك ظل السيد جوليا دكين مسمرا في مكانه لا يتحرك محققا بصره في الاتجاه الذي سار فيه عابر السيل . وأخيرا تاب السيد جوليا دكين الى رشده قليلا قليلا ، فقال لنفسه متحسرا : « ماذا دهاني ؟ أتراني أصبحت مجنوناً ؟ » . ثم التفت واستأنف سيره معجلا ومضاعفا خطاه ، محاولا أن يخلى دماغه مما يغلي فيه ، حتى أنه أغمض عينيه في سبيل أن يحقق هذا الهدف . وفجأة ، وسط زفير الريح وهممة العاصفة سمعت أذناه مرة أخرى وقع أقدام تقترب منه ، فارتعش ، وفتح عينيه ، فإذا هو يرى أمامه من جديد ، على مسافة عشرين خطوة ، شكلا انسانيا . كان الشكل يتقدم نحوه سريعا . كان الرجل يبدو مستعجلا . وكانت خطواته قوية متقطعة . ان المسافة التي تفصل بينهما تتناقص تناقصا سريعا . أصبح السيد جوليا دكين يستطيع أن يميز قسما وجه هذا العابر المتأخر تميزا واضحا . وها هو ذا يتفرس فيه فيطلق صرخة قوية من فرط الانشداء والرعب . اصطكت ركبته . ان العابر هو ذلك الرجل نفسه الذي التقى به جوليا دكين قبل عشر دقائق ، يظهر الآن له فجأة من جديد . على أن ظهور هذا الرجل مرة أخرى على هذا النحو الذي يثير وحده الحيرة والاضطراب لم يكن مع ذلك هو السبب الوحيد في انشداء السيد جوليا دكين . وقد بلغ السيد جوليا دكين من شدة الاضطراب أنه جمد في مكانه وتنحج بصوت أجش ، وأراد أن يقول شيئا ، ثم أسرع فجأة يلاحق الرجل المجهول معولا ، ربما ليحاول أن يوقفه بأقصى سرعة ممكنة . وتوقف الرجل المجهول فعلا ، ولبت على مسافة عشر خطوات من بطلنا . كان ضوء المصباح القريب ينيره كله . التفت نحو السيد جوليا دكين وتهايا للاستماع الى كلامه مهموم الوجه نافذ الصبر .

قال بطلنا بصوت مرتجف :

- معذرة • لعننى أخطأت •••

كان واضحا أن الرجل المجهول قد ضاق ذرعا بإيقافه ، فلم يلبث أن أدار ظهره وابتعد مسرعا ، كأنه يريد أن يتدارك التوانى التى أضاعها فى صحبة السيد جوليا دكين . أما بطلنا فكانت أنسجة جسمه كلها ترتجف ، وكانت ركبتاه تترنحان ، ثم خارت قواه فتهاوى على نصب على حافة الرصيف وهو يثب . يجب أن نذكر أن لانفعاله هذا سببا . ذلك أنه قد أحس أنه يعرف الرجل المجهول . بل يجب أن نقول أكثر من ذلك . نعم لقد كان يعرفه . هو على يقين من أنه يعرفه . لقد سبق أن رآه مرارا . فى أية مناسبة ؟ أمس ؟ ولكن ليس الأمر الهام أنه رآه مرارا قبل الآن . ان هذا الرجل ليس فيه ما يمكن أن يلفت الانتباه من أول وهلة . انه رجل كسائر الرجال ، رجل ذو مظهر لائق كمظهر سائر الرجال . ولعله يمتاز بمزايا كبيرة . رجل طيب على وجه الإجمال ، لا يريد بأحد أذى .

ان السيد جوليا دكين لا يحمل له أية عداوة ، لا يكن له أى بغض ، بل لا يظن له أى شعور من مشاعر الكره . بالعكس . ومع ذلك - وهذا ما يبدو لنا على جانب عظيم من خطورة الشأن - فان السيد جوليا دكين لا يريد بأية حال من الأحوال أن يلقى هذا الرجل ، ولا سيما فى الظروف الراهنة . نعم ، ان السيد جوليا دكين يعرف هذا الرجل معرفة تامة . بل انه يعرف اسمه واسم أسرته . ومع ذلك فانه لو أعطى ذهب العالم بأسره لما أراد أن يناديه بهذا الاسم ، ولا أن يعترف بأن هذا الرجل يسمى بهذا الاسم فعلا . أما كم قضى السيد جوليا دكين من الوقت على هذه الحالة من الانشداه والانصعاق قاعدا على النصب ، فذلك ما لا أستطيع أن أحده على وجه الدقة . كل ما أعرفه أنه بعد أن تاب أخيرا الى صوابه

نهض عن النصب فجأة وأخذ يركض كمنجنون ، بكل ما أوتى من قوة ، حتى تقطعت من الركض أنفاسه . وفي أثناء ذلك بارحه أحد حذاءيه تاركا الحذاء الثانى يتما . لكن ركضه أخذ يتباطأ شيئا فشيئا ليستطيع أن يتنفس . ونظر فيما حوله فلاحظ أنه قد قطع رصيف الفوتتاكاه كله دون أن يشعر بذلك ، وأنه عبر جسر آينتسكوف ، وخلف وراءه جزءا كبيرا من شارع نفسكى . انه الآن فى ناصية شارع ليتانيايا . فسار فى هذا الشارع .

كان عندئذ فى وضع انسيان واقف على حافة هاوية : الارض تحت قدميه تفتت ، تهتز ، تتحرك ، تندرج نحو قاع هوة تجر المسكين الذى أصبح لا يملك لا من القوة ولا من الشجاعة ما يمكنه من أن يشب وثبة الى الوراء ، ومن أن يحول بصره عن اللجة الفاغرة . ان الهوة تجذبه . انه يشب فيها ، معجلا بنفسه لحظة ضياعه . كان السيد جوليادين يحس ، يعرف ، يوقن أنه مقبل على مصيبة جديدة ما ، كأن يلتقى بالرجل المجهول مرة أخرى مثلا . ومن الغريب مع ذلك أنه كان يتمنى هذا اللقاء ، ويعدده أمرا لا معدى عنه ولا مناص منه . انه لا يشتهى الا شيئا واحدا : أن يفرغ من هذا كله فى أقرب فرصة ، وأن يوضح هذا الوضع أخيرا بأية وسيلة ، ولكن بأقصى سرعة ممكنة . وهو ما يزال يركض ، ما يزال يركض كأنما تحركه قوة غريبة غير منظورة . كان جسمه قد ضعف وتخدر . أصبح لا يستطيع أن يفكر فى شيء ، ومع ذلك فان أفكاره تتعلق بكل شيء كأنها الموسج . وهذا كلب صغير تائه مبلل حتى العظام ، مرتعش من شدة البرد ، يقتفى خطى بطلنا . انه يركض حذاءه ، جاعلا ذنبه بين قائمته ، لاصقا أذنيه برأسه ، ملقيا على السيد جوليادين ، من حين الى حين ، نظرات تفيض خوفا وعطفا . وها هى ذى فكرة بعيدة ، كان بطلنا قد نسيها منذ زمن طويل ، فكرة دارسة من بقايا حادث قديم

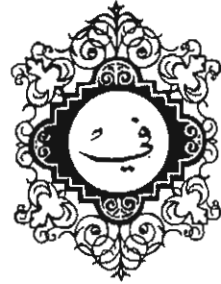
ولا شك ، تعود الآن الى ذهنه • لم يستطع السيد جوليا دكين أن يتخلص من هذه الفكرة • انها تمسك بخنائه ، تطرق دماغه طرقا ، تعذبه تعذبا شديدا • « آه ••• يا للكلب الحقير القدر ؟ » • كذلك كان يردد السيد جوليا دكين دون أن يفهم معنى كلماته • وأخيرا لمح الرجل المجهول عند ناصية شارع ايطاليا • ولكن الرجل المجهول لم يكن مقبلا عليه في هذه المرة • كان يركض هو أيضا في الاتجاه الذي يركض فيه بطلنا ، متقدما عليه بضعة أمتار • وهكذا وصل الرجلان الى شارع « الدكاكين الست » • كانت أنفاس السيد جوليا دكين مقطوعة • توقف الرجل المجهول أمام المنزل الذي يسكنه السيد جوليا دكين • وسمع صوت رنين الجرس ، ثم سمع صوت صرير المزلاج الحديدى ، وفتح الباب ، فانحنى الرجل المجهول وتسلسل وغاب • ووصل السيد جوليا دكين الى الباب فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، فوثب اليه سريعا كالسهم ، واندفع الى الفناء غير حافل بهمهمات البواب ، فسرعان ما لمح رفيقه العالى الذى غاب عن بصره هنيهة •

كان الرجل المجهول متجها نحو السلم المؤدى الى بيت السيد جوليا دكين • فوثب بطلنا يتعقبه • ان السلم مظلم رطب وسخ ، وعلى فسحاته تتراكم أكوام من الخرق البالية ونفايات البيوت ، فمن كان غريبا عن هذا المكان لا يعرفه ، فلا بد أن يتوه فى الظلام وأن يقضى نصف ساعة فى صعود درجات السلم ، متعرضا عند كل خطوة لأن تنكسر ساقيه ، متدمرا من السلم بهاجر القول تدمره من أصدقائه الذين شاءت عقولهم السخيفة أن تسكن فى عمارة كهذه العمارة • ولكن الرجل المجهول كان كمن أئف المكان واعتاد عليه ، فهو يصعد درجات السلم بخفة ورشاقة ، دون عناء ، عارفا كل موضع من مواضعه •

وأوشك السيد جوليا دكين أن يدركه ، حتى أن حافة معطف الرجل المجهول قد لظمت أنف بطلنا عدة مرات • كان قلب بطلنا لا يكاد يخفق •

وتوقف الرجل السرى أمام باب بيت جوليا دكين ، فطرقه ، فما لبث بتروشكا أن فتح الباب ، وذلك أمر كان يمكن أن يثير دهشة بطلنا فى أى ظرف غير هذا الظرف • لم يكن بتروشكا قد نام • لكأنه كان ينتظر هذه الزيارة انتظارا خاصا • دخل الرجل المجهول وتبعه الخادم حاملا شمعته بيده • اندفع بطلنا فى الدهليز خارجا عن طوره ، واجتاز الممر الضيق دون أن ينضو معطفه أو أن يخلع قبعته ، ووقف على عتبة غرفته مصعوقا مشدوها كأن صاعقة نزلت عليه • لقد تحققت جميع نبوءاته التى أوحى بها اليه احساسه • ان كل ما خشيه ، وكل ما قدره فكره هو الآن بسبيل التحقق فى الواقع • لقد انقطعت أنفاسه ، وأصاب رأسه دوار • كان الرجل المجهول جالسا أمامه ، على سريريه هو ، يتسم له ، وينمزر بعينه ، ويحرك له رأسه بإشارات صداقة ومودة • انه هو أيضا لم يخلع معطفه وقبعته • أراد السيد جوليا دكين أن يصرخ ، ولكنه لم يستطع • أراد أن يحتج ، ولكنه لم يقو على ذلك • انتصب شعره فوق رأسه • جلس دون أن يشعر أى شعور بما يفعل ، فكأنه ميت ذعرا ورعبا • وكان هنالك ما يدعو الى الذعر والرعب على كل حال • لقد عرف رفيق ليلته معرفة تامة آخر الأمر • ان رفيقه ذاك لم يكن الا هو نفسه • نعم ، انه هو نفسه ، هو جوليا دكين بشخصه ، هو جوليا دكين ثان ، لكنه شبيه به شبيها مطلقا ، مماثل له تماما ، أو قل بكلمة واحدة انه ما يطلق عليه اسم « المثل » ، هو « مثل » السيد جوليا دكين من جميع النواحي •

الفصل السادس



الساعة الثامنة تماما من الغداة استيقظ السيد
جوليادكين في سريره • فما لبثت الأحداث الحارقة
التي وقعت له أمس ووقعت له في الليلة البارحة ،
في تلك الليلة المضطربة التي لا يصدقها عقل ، تلك
الليلة الحافلة بمغامرات لا يتصورها خيال ، أقول ما لبثت تلك الأحداث أن
غزت ذاكرته وخياله بكل ما فيها من تعقد مروع • ان ذلك الحُبث كله
وذلك الشر كله وتلك القسوة الجهنمية كلها ، وذلك الكره كله ، من جانب
أعدائه ، ولاسيما آخر مظهر من مظاهر ذلك الكره ، قد جمدت بطلنا حتى
لكأنه الجليد صقيعا • ثم ان كل شيء كان يبلغ من الغرابة ومن البعد عن
المعقول ، ومن الشذوذ ، ومن الاستحالة أن بطلنا لا يكاد يستطيع أن
يصدقه • حتى لقد كان السيد جوليادكين مستعدا لأن يعزو ذلك كله الى
كابوس نادر ، الى اختلال طرأ على خياله حيناً ، الى جنون أصاب عقله
فجأة • غير أن خبرة طويلة مرة بالحياة كانت قد علمته أن الكره يمكن أن

يحنق البشر الى أبعد حد ، وأن يدفعهم الى أنواع من القسوة ليس لسوتها
نهاية ، انتقاما لكرامة مطعونة أو ثارا لطموح خائب . ثم ان ما يحسه من
ألم فى أطرافه وصداع فى رأسه وأوجاع فى كليته وزكام شديد يدل
دلالة بليغة على أن نزهة الامس ومحن الليلة البارحة أقرب الى الصدق .
هذا الى أن السيد جوليا دكين كان يعلم منذ زمن طويل أن شيئا ما يدبر
هنالك ، عندهم وأنهم يتآمرون على أحد . فماذا عليه أن يفعل ؟
وبعد أن فكر السيد جوليا دكين فى الأمر تفكيرا طويلا ناضجا قرر أن
يذعن ، أن يخضع ، أن لا يرفع صوته بأى احتجاج فى هذا الأمر ، حتى
« اشعار » آخر على الأقل .

« أليس من الجائز فى الواقع أن لا يكونوا قد قصدوا الا الى
تخويني ؟ لذلك فانهم متى رأوا أننى لا أرد ، ولا أحتج ، بل أخضع
خضوعا تاما ، وأتحمل كل شئ بمذلة ، تراجعوا أول المتراجعين من تلقاء
أنفسهم . » .

تلك هى الخواطر التى دارت فى ذهن السيد جوليا دكين ، حين كان
متمددا على فراشه يتمطى ويحاول أن يخفف آلام أعضائه المحطمة ،
وينتظر ظهور بتروشكا على عادته .

انه ينتظر منذ ربع ساعة . وها هو ذا يسمع أصوات حركة بتروشكا
الكسول وراء الحاجز بسيل اعداد السماور . ومع ذلك قرر أن لا يتاديه .
أكثر من ذلك أن السيد جوليا دكين كان يخشى فى هذه الساعة أن
ينفرد بخادمه بتروشكا . كان يقول لنفسه : « ما عسى يدور فى خلد
هذا الوغد الآن حول هذه القضية كلها ! صحيح أنه صامت لا يتكلم ،
ولكن هذا لا ينفى أنه يفكر » . وظهر بتروشكا حاملا بيديه طبقا . ألقى
عليه السيد جوليا دكين نظرة وجلى . كان السيد جوليا دكين ينتظر أن يرى

أفعال بتروشكا وأن يسمع أقواله نافذ الصبر . « أتراه يجيء على ذكر أحداث الأمس ؟ ... » ولكن بتروشكا لم ينبس بكلمة واحدة ، حتى لقد كان أعمق صمتا وأكثر عبوسا وأشدّ تجهما منه في العادة . كان واضحا أنه منزعج . ان عينيه المخفوضتين تفيضان اشمئزازا . لم يلق على مولاه نظرة واحدة ؟ ولندكر عابرين أن هذا قد ساء بطلنا قليلا .

وضع بتروشكا الطبق على المائدة ، ثم استدار وانصرف الى ما وراء الحاجز صامتا كأنه أخرس . تمتم السيد جوليا دكين يقول وهو يصب الشاي لنفسه : « انه يعرف ، انه يعرف ، انه مطلع على كل شيء ، هذا الكسول ... »

ومع ذلك تحاشى السيد جوليا دكين أن يلقي على خادمه أى سؤال ، رغم أن الخادم عاد الى الغرفة عدة مرات لشئون تتعلق بخدمة مولاه . كان بطلنا قلقا غاية القلق . وكان يقبض صدره أشد الانقباض حين يتصور أن عليه أن يذهب الى مكتبه .

كان يوجس أن الأمور هنالك ليست على ما يجب أن تكون . وهو يقول لنفسه : « لو ذهبت الى المكتب لعرضت نفسى لتاعب جديدة ، أفليس من الأفضل أن أتريث قليلا ، أن أصبر قليلا ؟ ليفعلوا ما يحلو لهم أن يفعلوه . أما أنا فمن مصلحتى أن أفضى نهارى هنا لأسترد قواى ، ولأبل قليلا من مرضى ، ولأفكر فى هذه القضية كلها ولو قليلا . وبعد ذلك أختار اللحظة المناسبة ، فأسقط عليهم سقوط حبات البرد على الرؤوس . . . بذلك تنجح مكيدتى وأخرج من الأمر ظافرا . . . » وكان السيد جوليا دكين أثناء استرساله فى هذه التأملات يدخن غليوننا بعد غليون ؟ والزمن ينقض ، حتى صارت الساعة هى التاسعة والنصف .

قال السيد جوليا دكين لنفسه : « الساعة التاسعة والنصف ؟ لقد فات

أوان الذهاب الى المكتب • ثم اننى مريض ، نعم ، مريض ، مريض فعلا • من يستطيع أن يدعى غير ذلك ؟ ولست أبالى على كل حال ! فليجيئوا مستطلعين اذا أرادوا ! ليرسلوا طيبا يتحقق من مرضى ! لست أبالى قط • ان فى ظهري أوجاعا شديدة ، وأنا أسعل ؛ ان بى زكاما • ثم اننى لا أستطيع الخروج فى مثل هذا الجو السيء • ذلك مستحيل ، مستحيل تماما •• والا فقد يصيبنى مرض خطير •• قد أموت •• نعم •• لم لا ؟ ما أكثر الذين يموتون فى هذه الأزمان ! ••••• »

هذه الخواطر هدأت ضمير السيد جوليا دكين تهدئة كاملة ، وأمدهته فى رأيه بتسوية للتقريب الذى لا بد أن يوجهه اليه آندره فيليبوفتش لوماً له على قلة نشاطه ونقص همته • يجب أن نذكر أن السيد جوليا دكين كان يحرص حرصا مطلقا ، حين يوجد فى ظروف كهذه الظروف ، على أن يبرر نفسه أمام نفسه بحجج لا سييل الى دحضاها • فلما وصل فى هذه المرة أيضا الى تبرير كامل ، تناول غليونه فحشاه وأخذ يدخنه • ولكنه ما ان نشق منه بضعة أنفاس حتى وثب عن سريره فجأة ، ورمى غليونه بعيدا ، ومضى يغسل وجهه ويحلق ذقنه ويمشط شعره ويلبس رداءه الرسمى ؛ حتى اذا فرغ من ذلك جمع بعض الأوراق ، وهرع يمضى الى مكتبه راكضا •

دخل السيد جوليا دكين مكتبه وهو يشعر بخجل شديد ووجل قوى • ان قلبه يخفق خفقانا محموما بانتظار أن يقع له حادث مشوم • كان ذلك فى نفسه احساسا غامضا لا شعوريا ، ولكنه فى الوقت نفسه احساس مزعج • استقر فى مكانه المؤلف خائفا ، قرب رئيسه فى العمل أنطون أنطونوفتش سييتوشكين • ولم يلبث أن غرق فى الأوراق الموضوعه أمامه لا يرفع بصره ، ولا يدع لنفسه أن يذهل عن عمله • كان قد قرر جازما وآلى على نفسه أن يتحاشى ، بكل ما أوتى من قوة ، أى احتكاك أو أى تحريض من

شأنه أن يمرضه لسوء بأسئلة وقحة أو أمازيح أو غمزات تتناول مغامرة
الأمس ؛ حتى لقد عزم أمره على أن يتجنب الملاحظات المعتادة من أسئلة
وأجوبة عن الصحة يتبادلها مع زملائه • ولكن المحافظة على هذا الوضع لم
تكن بالأمر السهل كثيرا •

أضف الى ذلك أن السيد جوليا دكين ، حين يواجه حادثا أليما ،
لا تعذبه نتائج هذا الحادث بقدر ما تعذبه الشكوك ويعذبه القلق والخوف
والهم • لذلك لم يستطع أن يفى بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو أن
يتحاشى أى احتكاك أو أى تحريض ممكن •

فها هو ذا يرفع رأسه من حين الى حين خلسة ، متصفحاً وجوه
زملائه ، محاولاً أن يكتشف علامة من شأنها أن تطلعه على حادث جديد
خاص يتعلق به ، وأن تطلعه على مؤامرة جديدة تحاك له •

كان يحاول أن يربط بين أحداث الأمس وسلوك من هم حوله الآن •
واتهى آخر الأمر ، وقد استبد به قلق شديد ، الى أن يتمنى نهاية لهذا
الموقف الذى لا يطاق ، نهاية سريعة ، ولو أدى ذلك الى أسوأ النتائج
وأخبت الاشاعات ! انه لا يبالي ! ولم يلبث القدر أن استجاب لرغبته • فما
كاد السيد جوليا دكين يعرب عن أمنيته هذه ، حتى تبددت شكوكه على
أغرب نحو يمكن أن يخطر ببال •

لقد افتتح باب الغرفة المجاورة فجأة بصريير ضعيف وجل يدل على
أن الداخل شخص لا قيمة له • وهذه قامة يعرفها بطلنا حق المعرفة تمر
أمام منضدته خرقاء متحيرة ، فلا يرفع السيد جوليا دكين رأسه ، وانما يكتفى
بأن يلقى على هذا الشخص الجديد نظرة خاطفة ، فاذا هو يعرف كل
شئ ويفهم كل شئ بأدق التفاصيل دفعة واحدة • شعر بالعار يرضيه ،

فأغرق المسكين رأسه فى أوراقه ، تماما كما تفعل النعامة التى تخفى
رأسها فى الرمل المحرق حين يطاردها صياد .

انحنى القادم الجديد أمام آندره فيليوفتش ، ولم يلبث أن سمع
صوت آندره فيليوفتش رسميا ملاطفا كالصوت الذى يعمد الى اصطناعه
رؤساء العمل عادة فى مخاطبة مرءوسيهم الجدد . قال آندره فيليوفتش
وهو يشير الى طاولة أنطون أنطونوفتش : « اجلس هنا ، أمام السيد
جوليادكين . سيعهد اليك بعمل فورا » . وختم آندره فيليوفتش كلامه
بإشارة موجزة وقوية تحمل للقادم الجديد معنى التشجيع ، ثم استغرق فى
قراءة كدسة الأوراق الضخمة التى كانت أمامه .

رفع السيد جوليادكين عينيه أخيرا . ولئن لم يسقط مغشيا عليه
فورا ، فما ذلك الا لأنه كان قد أوجس هذا المشهد . كان قد تنبأ فى
الواقع بكل شئ ، وكان قد حزر جميع نيات القادم الجديد . ان أول
حركة قام بها السيد جوليادكين هى أنه ألقى نظرة حوالية ليرى هل أخذ
الموظفون يتهايمسون فى الأركان ، وهل أخذت مزحة من الأمازيح المؤلفه
فى المكتب تطوف فى القاعة ، وهلا ففر أحد الأفواه ذهولا وانشداها ،
وهلا تهاوى أحد الحضور تحت الطاولة ذعرا ورعبا . فما كان أشد
دهشة حين لم يلاحظ شيئا من ذلك البتة ! لقد أدهشه وضع زملائه
ادهاشا كبيرا ، وبدا له هذا الوضع غير معقول . انخلع قلب السيد
جوليادكين هلما من هذا الصمت المطبق الخارق . ما هذا الصمت والوقائع
ظاهرة واضحة كل الوضوح ! ...

أمر غريب ، شاذ ، قاس ! .. شئ يبعث فى الجسم تشعريه ! .. هذه
هى الأحوال التى مرقت فى ذهن السيد جوليادكين سريعة كالبرق . كان
السيد جوليادكين يحترق . وهناك ما يدعو الى ذلك . ان القادم الجديد

الذى كان فى تلك اللحظة جالساً أمام السيد جوليا دكين ، هو بعينه زعر
السيد جوليا دكين ، هو بعينه عار السيد جوليا دكين ، هو بعينه الكابوس
الذى وافى السيد جوليا دكين فى ليلته تلك : انه السيد جوليا دكين نفسه .
صحيح انه ليس جوليا دكين الذى كان فى تلك اللحظة جالساً على كرسيه ،
فاغراً فاه ، حاملاً قلمه . صحيح انه ليس جوليا دكين الذى يقوم بوظيفة
مساعد لرئيس مكتبه ، والذى يجب أن يمضى ، أن يذوب فى الجمهور ،
والذى يعبر سلوكه كله تعبيراً واضحاً عن أن لسان حاله يقول :
« لا تمسونى ولن أمسك » أو يقول : « لا تمسونى فانتى لا أمسك » .
. . لا . . ليس هو جوليا دكين ذلك . . وانما هو جوليا دكين آخر ،
جوليا دكين آخر تماماً ، ولكنه مع ذلك مثل الأول ، له قامة الأول نفسها ،
وله جسم الأول نفسه ، وله صلعة الأول نفسها ، وهو يرتدى الملابس
نفسها التى يرتديها الأول . . فلا شىء ينقص هذا التشابه الكامل وهذا
التماثل التام . فلو وضع أحدهما الى جانب الآخر لما استطاع أحد فى
العالم أن يدعى أن فى وسعه أن يميز بين جوليا دكين الصادق وجوليا دكين
المزيف ، أن يميز بين القديم والجديد ، أن يميز بين الأصل والصورة .
كان بطلنا فى تلك اللحظة - وليسمح لنا بهذا التشبيه - فى وضع
انسان جاءه مازح خبيث فأمر أمام وجهه مرآة ليناكته وازعاجه .
قال جوليا دكين لنفسه : « ماذا جرى ؟ أنا فى حلم ؟ أنا فى حالة يقظة
أم أنه كابوس الأمس يستمر الآن ؟ كيف يكون هذا ممكناً ؟ بأى حق
يفعلون هذا ؟ من ذا الذى أذن باستخدام هذا الموظف الجديد ؟ نعم ، من
ذا الذى أصدر الأمر بذلك ؟ أنا نائم ؟ أنا أحلم ؟ » ومن أجل أن
يتمتحن السيد جوليا دكين حالته قرص نفسه . . . حتى لقد نوى على الفور
أن يقرص أحد زملائه . . . ليس هناك أى ريب ! لا . . . ما هو بنائم .
أحسن السيد جوليا دكين بالعرق يتصبب منه قطرات كبيرة . . . أدرك أن

شيئا خارقا يحدث له ... شيئا لم يُر له نظير من قبل ، شيئا هو لذلك على جانب رهيب من الخطر ، وتلك مصيبة المصائب ... أحس جوليا دكين وأدرك جميع سيئات هذا الموقف الجديد ، موقف المهزلة التي هو الآن بطلها الأول ونموذجها •

وشيئا فشيئا أخذت تراوده شكوك حول وجوده نفسه ، ورغم أنه كان مستعدا لكل شيء ، راعبا في أن يرى تبدد جميع هذه الشكوك بصورة من الصور آخر الأمر ، فقد كان يحس أن ظرفا يعادل تعقده المفاجأة التي ليست في الحسبان كان قد تجاوزه • انه مرهق معذب • ان قلعا رهيبا يهد نفسه هدا ، حتى ان فكره وذاكرته يبارحانه تماما في بعض اللحظات • فلما تاب الى رشده بعد احدى هذه الغيوبات لاحظ أنه كان بسبيل الجرى بقلمه على ورقة من الأوراق على نحو آلى لا شعورى ؛ فسرعان ما أخذ يعيد قراءة ما كتبه ، لفقدانه ثقته بنفسه ، فلم يستطع أن يفهم شيئا مما كتب بطبيعة الحال •

وفجأة نهض جوليا دكين الثاني الذي كان جالسا أمام بطلنا جلسة هادئة الى تلك اللحظة ، نهض ومضى الى المكتب المجاور ، ربما لطلب بعض المعلومات • نظر السيد جوليا دكين حواليا • ان كل شيء هادئ • ليس 'يسمع الا صرير الأقلام خفيفا ، والا حفيف الأوراق 'تقلب ، والا همسات قليلة في الأركان البعيدة عن طاولة آندره فيليبوفتش • رفع السيد جوليا دكين عينيه نحو أنطون أنطونوفتش • لا شك أن تعبير وجهه الذي يفصح افساحا أميناً عن حالته النفسية وعن الهموم التي تسببه لها الاحداث الراهنة ، قد بدا غريبا لرئيسه ، لأن أنطون أنطونوفتش الشهم لم يلبث أن وضع قلمه ، وسأله عن صحته في كثير من العطف والشفقة •

ثاماً جوليا دكين يقول :

- صحتي جيدة جدا يا أنطون أنطونوفتش • الحمد لله يا أنطون
أنطونوفتش • صحتي الآن حسنة يا أنطون أنطونوفتش •••

كذلك أخذ السيد جوليا دكين يكرر متهيباً ، مردداً اسم رئيسه لدى
كل كلمة يقولها •

لما يجرواً بعد على البوح لأنطون أنطونوفتش بما في نفسه •

- ها •• طيب •• كنت أحسب أنك تشكو ألماً ما •• ولا غرابة في
هذا على كل حال ، لا سيما في هذه الآونة التي تتكاثر فيها الأمراض
السارية ••• هل تعلم أن •••

- نعم يا أنطون أنطونوفتش ، نعم ، أعرف أن هذه الأمراض
موجودة ••• ولكن يا أنطون أنطونوفتش ، ليست هذه هي المسألة
(كذلك أضاف يقول السيد جوليا دكين وهو يتفرس في محدثه محمداً)
••• لا أدري يا أنطون أنطونوفتش كيف أستطيع ••• أعني لا أعرف
تماماً من أين أبدأ يا أنطون أنطونوفتش •••

- لا أفهم ماذا تقول •• أعترف لك بأنني لا أفهم ماذا تريد أن
تقول ••• عليك أن تشرح ما تريد قوله بمزيد من الوضوح •

واذ لاحظ أنطون أنطونوفتش شدة اضطراب السيد جوليا دكين
الذي امتلأت عيناه بالدموع ، ارتبك هو أيضاً ، فأضاف يسأله :

- قل لي ما الذي •••

- الحقيقة يا أنطون أنطونوفتش ••• يوجد هنا ••• يا أنطون
أنطونوفتش ••• موظف •

- نعم ••• صحيح ••• يوجد موظف هو سميك •••

صاح السيد جوليا دكين :

- ماذا ؟ هو سميتي ؟ هل اسمه أيضا جوليا دكين ••

- نعم ••• هو سميك ••• اسمه أيضا جوليا دكين ••• أليس هو

أخاك ؟

- لا يا أنطون أنطونوفتش ، أنا •••

- غريب ••• خيل الى أنه لا بد أن يكون أحد أقربائك ••• هل

تعلم أن بينك وبينه بعض الشبه ؟ لكأنكما من أسرة واحدة •••

ظل السيد جوليا دكين متجمدا من الدهشة • حتى لقد عقل لسانه
بضع لحظات ، فلم يستطع أن يقول شيئا • وهناك في الواقع ما يدعو الى
ذلك • ماذا ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن ينظر بهذا القدر من
قلة الاكترات وعدم المبالاة الى ظاهرة غريبة هذه الغرابة كلها ، ظاهرة
فريدة حقا في نوعها ، ظاهرة لا بد أن تخطف بصر أى مشاهد عادى ؟
كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن يتحدث بصدده هذه الظاهرة عن تشابه
كالتشابه الذى يكون بين أفراد أسرة واحدة ؟ ان الأمر أمر تماثل كامل
بل وحدة تامة ، كالوحدة بين انسان وصورته فى المرآة •

أردف أنطون أنطونوفتش يقول :

- اسمع يا ياكوف بتروفتش ! أحب أن أسدى اليك بنصيحة •

عليك أن تذهب الى طبيب ، فتستشير. فى أمر صحتك • انك لا تبدو فى

حالة طبيعية تماما • ولاسيما عينك ••• ان لهما تعبيراً غريباً •••

- لا يا أنطون أنطونوفتش ••• طبعا أنا لا أشعر بأننى ••• أعنى

••• أريد أن أسألك عن هذا الموظف •

- هه ؟

- ألم تلاحظ فيه شيئا غير عادى يا أنطون أنطونوفتش ؟ شيئا
مميزا على نحو خاص ؟

- مثلا ؟

- مثلا ، أريد أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش : ألم تلاحظ أن فيه
شبهها غريبا بأحد . . . بى أنا مثلا ؟ لقد ذكرت منذ هنيهة أنه يشبهنى كما
يشبه أفراد الأسرة بعضهم بعضا . . . ذكرتَ هذا عرضا دون الحاح . . .
ولكن هل فى علمك أنه يوجد أحيانا شخصان يتشابهان تشابها كاملا
كتشابه قطرتى ماء ، حتى ليستحيل تمييز أحدهما عن الآخر ؟ . . . ذلك
ما أحببت أن أحدثك فيه . . .

قال أنطون أنطونوفتش بعد لحظة من تفكير ، وكأنه يدرك لأول مرة
ظاهرة لها هذه الخطورة :

- نعم . . . صحيح . . . ان تشابهكما يشير الدهشة حقا ، ورأيتك
فى محله تماما . ان من الممكن فعلا أن يخلط المرء بينكما فلا يميز أحدكما
عن الآخر (كذلك قال أنطون أنطونوفتش وهو يحملق مزيدا من الحملقة)
انه تشابه يشبه أن يكون معجزة . . . تشابه خرافى يا ياكوف بتروفتش ،
كما يقال أحيانا . . . انه مثلك تماما . حقا انه مثلك تماما . هل لاحظت
ذلك يا ياكوف بتروفتش ؟ ولقد كان فى نيتى أن أحدثك فى هذا الأمر
من تلقاء نفسى ، ولكن يجب أن أعترف لك أنتى فى البداية لم أول هذه
القضية كبير اهتمام . هذه معجزة . . . معجزة حقا . . . بالمناسبة يا ياكوف
بتروفتش : أظن أنك لم تولد هنا ، أليس كذلك ؟

- نعم لم أولد هنا .

٧
- هو أيضا لم يولد هنا ، لعلكما كلاكما من أقليم واحد ؟ هل
أستطيع أن أسألك أين كانت تقيم والدتك فى العادة ؟

- قلت ••• يا أنطون أنطونوفتش ••• قلت انه ليس من هنا •

- نعم ليس من هنا •

وتابع أنطون أنطونوفتش المهذار الذى يفرح لكل ثمرة ، تابع
يقول :

- حقا انها لمعجزة • حقا ان فى الأمر ما يثير الدهشة • كثيرا
ما يتفق لنا أن نصادف هكذا أشياء جديرة بالاهتمام ، فللمسها ونصطدم
بها ثم لا نلاحظها • ليس عليك أن تضطرب كثيرا على كل حال • فتلك
أمور تحدث • لذلك سأقص عليك قصة مشابهة وقعت لاحدى خالاتى :
انها هى أيضا قد رأت نفسها مثلين قبيل وفاتها •

- معذرة اذا قاطعتك يا أنطون أنطونوفتش ••• ولكننى أريد أن
أعرف يا أنطون أنطونوفتش كيف استطاع هذا الموظف ••• أقصد كيف
دخل الى هنا ؟

- انه يحل محل المرحوم سيميون ايفانوفتش • لقد شغرت الوظيفة
بوفاة سيميون ايفانوفتش ، فبحثوا عن من يحل محله ، ثم عينوه هو •
بالمناسبة : هل تعرف أن سيميون ايفانوفتش ، هذا الشهم ، قد خلف فيما
يقال ثلاثة أطفال صغار ؟ لقد ارتمت زوجته المسكينة عدة مرات على
قدمى صاحب السعادة متوسلة ضارعة • يقال مع ذلك انها تمثل ، فهى
تملك مالا ولكنها تخفيه •••

- ولكننى أريد أن أعود الى موضوعنا يا أنطون أنطونوفتش •••

- أى موضوع ؟ ها ••• نعم ••• ولكن لماذا تهتم بهذه المسألة هذا

الاهتمام كله ؟ ... أعود فأقول لك : لا تصدع رأسك • ذلك كله موقت • ثم ماذا آخر الأمر ؟ ليس الذنب ذنبك • ان الله هو الذى دبّر الأمور على هذا النحو • هى مشيئة الله • والاحتجاج على مشيئة الله اثم • حكمة الله العظمى هى التى أرادت ذلك • أما أنت يا ياكوف بتروفتس فما أحسب أنك مستول عن هذا كله فى شيء • المعجزات فى هذا العالم كثيرة • ان أمتنا الطيبة كريمة سخية ... ولن يحاسبك أحد على تىء يوما ... بالمناسبة : أظن أنك قد سمعت عن ذنبك الأخوين ال ... ماذا يسميان ؟ ها ... نعم ... ذنبك الأخوين السيامين اللذين ولدا ملتصقى الظهرين ، فهما يعيشان هكذا معا • يظهر أن ذلك يدر عليهما مالا كثيرا •

– اسمح لى يا أنطون أنطونوفتس ...

– أنا أفهمك • أنا أفهمك • طيب • ماذا أخيرا ؟ ليس الأمر بذى بال • أعود فأقول لك اننى بعد أن فكرت فى المسألة مليا لا أرى ما يوجب أن تصدع رأسك • ماذا تريد ؟ هو موظف كأى موظف آخر ، وهو فيما يظهر رجل شيط • لقد قدم نفسه قائلا ان اسمه جولسادكين ، وانه قادم من إقليم آخر ، وانه كان يعمل كاتباً فى إحدى دوائر الدولة • وقد تمت بينه وبين صاحب السعادة مقابلة خاصة •

– صاحب السعادة ؟

– جرت الأمور على خير نحو • قدم لصاحب السعادة شروحا كافية • قال : « ذلك هو وضعى على حقيقته يا صاحب السعادة • ليس لى ثروة شخصية • وأحب أن أعمل ، لا سيما تحت الأوامر النيّرة التى يصدرها صاحب السعادة » ، وهلم جرا • ... وتدفق يكيل المديح لصاحب السعادة بكثير من الحذق والبراعة • ولا شك أنه كان يحمل توصية على كل حال ، والا لما تم تعيينه طبعاً •

- ومن الذى أوصى به ؟ ... أقصد من الذى وضع يده فى هذه القضية المخجلة ؟

- يظهر أنه كان يحمل توصية جيدة جدا . حتى أن صاحب السعادة وآندره فيليوفتش قد ضحكا قليلا فيما يقال .

- صاحب السعادة وآندره فيليوفتش ضحكا قليلا ؟

- نعم ... أقصد .. ابسما ، وقال له ان هذا يبدو لهما كافيا ، وانهما من جهتهما موافقان تماما ، شريطة أن يعمل بصدق و إخلاص ...
- ثم ؟ وبعد ذلك ؟ اننى متحير قليلا يا أنطون أنطونوفتش . أكمل ، أرجوك أن تكمل ...

- معذرة ... مرة أخرى ، أنا لا أفهمك ... قلت لك ليس فى الأمر كله شئ خارق . أعود فأقول : عليك أن لا تصدع رأسك . ليس فى هذه القضية ما يهددك .

- ليس هذا هو الموضوع . وانما أردت أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش ألم يصف صاحب السعادة الى ذلك بضع كلمات .. عنى أنا مثلا ؟

- نعم ؟ طبعاً ... حتما ... ولكن ليس هناك شئ ذو بال . فى وسعك أن تكون مطمئنا كل الاطمئنان . هى مصادفة غريبة ، أسلم لك بذلك . لاحظ أنتى لم أتبه الى الأمر من أول نظرة فى البداية . لأدرى كيف لم ألاحظ هذا الشبه قبل أن تبهنى اليه . على كل حال ، تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان . لم يقلوا شيئاً ذا خطر ، لم يقلوا شيئاً من ذلك البتة (كذلك أضاف يقول أنطون أنطونوفتش اللطيف وهو ينهض عن كرسيه) .

– أريد أيضا يا أنطون أنطونوفتش ...

– اعذرني ... لقد أفرطت في الثرثرة حتى الآن ، بينما هنالك عمل مستعجل هام جدا يجب أن أقوم به . ثمة معلومات يجب أن أحصل عليها .

وفجأة انطلق صوت آندره فيليوفتش العذب ينادى قائلا :

– أنطون أنطونوفتش ! صاحب السعادة يطلبك .

– حالا ، حالا يا آندره فيليوفتش ، أنا ذاهب إليه فوراً .

تناول أنطون أنطونوفتش كدسة من الأوراق ، فهرع أولاً نحو طاولة آندره فيليوفتش ، ثم مضى الى مكتب صاحب السعادة .

« ها ... هذه هي المسألة اذن ، تلك هي اللعبة التي يدبرونها في هذه اللحظة ... الآن أرى الاتجاه الذي تسير فيه الرياح ... ليس هذا كله بالأمر السيء ... ان الأمور تجري مجرى حسنا » . كذلك قال السيد جوليا دكين لنفسه وهو يفرك يديه احديهما بالأخرى . لقد بلغ من الفرح أنه أصبح لا يحس بوجود الكرسي تحته . « انهم يعدون قضيتنا مسألة عادية . كل شيء يغدو اذن ترهات وسفاسف ... وفعلا لا أرى أحداً يحتاج .. ان جميع هؤلاء الأوغاد غارقون في أعمالهم . عظيم .. عظيم ... اننى لأحبهم جميعاً هؤلاء الناس الطيبين ... ولقد أحببتهم دائماً ... اننى مستعد لأن أقدرهم وأن أحترمهم ... ومع ذلك يبدو لي ... حين أفكر في الأمر ملياً ... هذا الأنطون أنطونوفتش ... من الخطر أن أبوح له بما في نفسى ... لقد أثقلته السنون ... وأفرط شعره في المشيب ... على كل حال ، فالأمر الأساسي الهام في الموضوع أن صاحب السعادة لم يقل كلمة واحدة في هذه المسألة ... عظيم ... أنا أؤيد ذلك . ولكن ما شأن آندره فيليوفتش في هذا كله هو وضحكاته

الصغيرة ؟ فيم يتدخل ؟ ياللعنة العتيقة ! ... انه دائما فى طريقك ،
هذا الرجل . انه مؤهب فى كل لحظة لأن يجتاز الطريق أمامك ، كنقطة
سوداء ... نعم ... دائما أمامك ووراء ظهره ! ... »

مرة أخرى أجال السيد جوليا دكين بصره فى القاعة . ومرة أخرى
شعر بالأمل يملأ نفسه . ومع ذلك كان ثمة شىء ينقص عليه صفوه .
هو فكرة بعيدة ، فكرة تنذر بشؤم . قرر فى لحظة من اللحظات أن يستبق
الأمر ، أن يبادر الى شىء ، أن يسائل بعض زملائه بطريقة من الطرق .
ان فى وسعه أن يفعل هذا عند الخروج من المكتب مثلا ، بل فى وسعه
أن يفعله هنا ، بحجة الاستفسار عن أمر من الأمور التى تتصل بالعمل .
فى وسعه مثلا أن يدس بين جملتين قولا كهذا القول : « أمر عجيب .
هل رأيتم الى هذا التشابه الغريب ؟ محاكاة كاملة ! » . فإذا تظاهر بأنه
يمزح هو نفسه ، استطاع أن يقدر مدى الخطر . « يجب على المرء دائما
أن يخشى الماء الصافى ، قرب شيطان يثوى فيه ! » . تلك هى النتيجة التى
خلص اليها بطلنا . ومع ذلك تدارك نفسه فى الوقت المناسب ، فلم تنتقل
نياته الى حيّز التنفيذ . لقد أدرك أنه ان فعل ذلك كان يمضى بعيدا جدا .
قال لنفسه وهو يلطم جبينه لكمة خفيفة : « تلك هى طبيعتك : ما ان
تدخل اللعب حتى تتحمس . نفس ظمأى الى العدل ! لا ... الأفضل
أن تنتظر قليلا يا ياكوف بتروفتش . يجب أن تتريث قليلا ولو تحملنا
فى سبيل ذلك بعض العذاب . » . ورغم هذه النتيجة التى خلص اليها
فقد شعر بالأمل يملأ نفسه . خيل اليه أنه يبعث من بين الموتى .

قال لنفسه : « تحسنت حالى الآن . لكن ثقل طين قد أزيح عن
صدرى . غريب . لقد كان كل شىء بسيطا كتحية . فُتح الصندوق من
تلقاء نفسه . كان كريلوف على حق ... يا كريلوف هذا من ماكر
حيث يحسن تأليف القصص ... أما القادم الجديد فليعمل ... فليعمل

ما شاء أن يعمل ، شريطة أن لا يجور على أرض غيره ، وأن لا يسيء الى أحد . نعم ، هو كذلك أنا موافق على أن يعمل ، أنا أويد ذلك تأييدا تاما »

كانت الساعات أثناء ذلك تنقضى كانت تطير طيرانا . هي الساعة الرابعة منذ الآن . المكاتب تغلق . تناول آندره فيليبوفتش قبعته ، وحذا جميع الموظفين حذوه كالعادة . تأخر السيد جوليا دكين قليلا ، من أجل أن يخرج آخر الحارجين .

تفرق الموظفون ومضى كل منهم الى منزله . فلما صار السيد جوليا دكين فى الشارع أحس أنه سعيد كما لو كان فى الجنة . حتى لقد شعر برغبة فى أن يقوم بجولة قصيرة ، فى أن يتنزه بشارع نفسكى .

قال لنفسه وهو يسير : « ما أعجب المقادير ! لقد تغير الوضع تغيرا جذريا على حين فجأة حتى الجو تحسن تحسنا واضحا . هذه هى الزلاقات وهذا هو الجليد ! الجليد يناسب الروس . وأنا أحب الروس لو شاهد صياد هذا لهتف يقول : هذه طلائع البرد والتلج يجب على أن أصاد أربنا طيبا على هذه الثلجة الاولى يمينا ليس ثمة ما يزعج كل شيء يجرى مجرى حسنا » هكذا تجلت حماسة جوليا دكين . ومع ذلك كان هنالك شيء ما يزال يدغدغ داخل رأسه . أهو قلق ؟ أهو خوف ؟ لا غير أن قلبه لا يزال فيه من الفزع ما يجعله عاجزا عن التغلب على نفسه . قال : « لا داعى الى التعجب على كل حال . فلنتظر المستقبل صبر من ظفر يضحك جيدا من يضحك أخيرا . وما هى المسألة فى الواقع ؟ هلا فكرنا قليلا ! هلا حللنا قليلا ! نعم علينا أن نحلل يا صديقى الشاب ، علينا أن نحلل . أنا رجل مثلك ، نعم ، أنا رجل شبيه بك ، شبيه بك

من جميع النواحي • طيب • ثم ماذا؟ هل فى هذا ما يدعونى الى الشكوى والنواح؟ هل فى هذا ما يدعونى الى البكاء؟ أى ضمير فى هذا كله؟ اننى بعيد عن هذه القضية كلها، أغسل منها يدي وكفى! ••• لقد قررت، لقد اتخذت قرارا حاسما الى الأبد •

« أما هو فليؤمّن عمله • يقولون انها معجزة، يقولون انها ظاهرة عجيبة ••• يشبهونها بظاهرة الأخوين السيامين ••• لماذا يستشهدون بالاخوين السيامين؟ هما توأمان طبعاً ••• ولا كذلك نحن ••• ثم ان الحياة مليئة بالفرائب، حتى لدى عظماء الرجال • فالتاريخ يروى أن سوفوروف الشهير نفسه كان يفتنى كما يفتنى ديك ••• صحيح انه يدعى أن هذا كان من قبيل الدبلوماسية ••• ولكن ما القول فى كبار القادة؟ ••• اننى، من جهتى، أسير فى طريقى هادئاً مسالماً، أظل فى ركنى، لا أريد أن أعرف شيئاً عن الآخرين، أحب أن أكون بريئاً كل البراءة ••• لا أحفل بعدوى ••• لست بمن يدبر المكائد ويضع المؤامرات ••• وأنا بهذا فخور • اننى طاهر نقى، مهذب، دمث، لا أعرف الحقد •••

وفجأة صمت السيد جوليا دكين، وتوقف مختلجاً مرتجفاً كورقة فى فى مهب الريح •• حتى لقد أغمضت عيناه بضع لحظات • ومع ذلك تأمل أن يكون الشيء الذى أثار رعبه سرايا ووهما من أوهام الحواس، ففتح عينيه وألقى نظرة وجلى على يمينه ••• لا ••• لم يكن ما رآه سرايا أو وهما ••• فالى جانبه كان يكردح الرجل الذى رآه فى صيحة ذلك اليوم • انه يتسم له، ويتفرس فيه بوقاحة، وكأنه ينتظر فرصة مواتية ليجرى معه حديثاً • ولكن الفرصة تأخرت •••

وهكذا ظل الرجلان يسير أحدهما الى جانب الآخر قرابة خمسين

خطوة •

ان طاقة السيد جوليا دكين منصبه كلها على هدف واحد : هو أن
يفطس في معطفه اكمل غطس وأعمق غطس ، وأن ينزل قبعته على رأسه
حتى تصل الى عينيه • ولكنه رأى فجأة - وتلك غاية الوقاحة - أن
معطف صاحبه وقبعته كمعطفه وقبعته هو تماما •

تمتم بطلنا أخيرا يقول وهو يحاول أن يتكلم بصوت خافت دون أن
ينظر الى صاحبه :

- أحسب أيها السيد أن طريقتنا مختلفان ••• بل أنا موقن من ذلك
(أضاف هذا بعد لحظة صمت) • ثم اننى أعتقد أنك فهمتني حق الفهم
(هكذا ختم كلامه بلهجة قاطعة) •

فدمدم صاحب السيد جوليا دكين يقول أخيرا :

- كنت أود ••• كنت أود ••• رجائى من كرمك أن يغفر لى ••
أن يسامحنى •• اننى لا أعرف أحدا أتجه اليه هنا •• فوضعى •• آمل
أن تغفو عن جرأتى ووقاحتى •• لقد بدا لى أنك تعطف علىّ ، أنك
أظهرت شيئا من الاهتمام بى فى هذا الصباح ••• ولقد شعرت أنا أيضا
بشئ من الانجذاب نحوك •• اننى ••

هنا تمنى السيد جوليا دكين لزميله الجديد أن يفور تحت الأرض الى
الأبد •

استأنف صاحبه يقول :

- ليتنى أستطيع أن آمل يا ياكوف بتروفتش أن تصغى الىّ فى
تسامح ورحابة صدر •

فأجابه السيد جوليا دكين قائلا :

- هنا؟ نحن؟ هنا؟ نحن؟ لا .. لا .. لا .. لنذهب الى بيتي ...
لنقطع أولا شارع نفسكي ، فنكون في الجهة الأخرى أكثر ارتياحا ، ثم
نمضي في الشارع الصغير •

قال صاحب السيد جوليا دكين طيعا خائفا :

- طيب • لنسر في الشارع الصغير •

كان واضحا من لهجته أنه بسبب وضعه يرى أن لا فائدة من
المنافسة ، وأن الشارع الصغير يكفيه •

أما السيد جوليا دكين فكان لا يفهم شيئا مما يجري اطلاقا • انه لم
يشب الى رشده بعد • انه يشك في حواسه وفي عقله •

الفصل السابع



السيد جوليا دكين بعض صوابه وهو يصعد السلم • حتى اذا وصل امام باب بيته قال لنفسه : « ألا ما أصغر عقلي ! لكأنه عقل عصفور ! ••• لماذا أجيء به الى هنا ؟ اننى أضع الجبل فى عفتى بنفسى ؟ ما عسى يقول بتروشكا حين يرانا معا ؟ ما عسى يظن هذا الجرو بعد اليوم وهو كثير الظنون والشكوك منذ الآن ؟ ••••• ولكن الندم قد فات أوانه • وطرق جوليا دكين الباب فانفتح ، وأخذ بتروشكا يساعد السيد جوليا دكين وصاحبه فى خلع معطفيهما •

وجازف السيد جوليا دكين بنظرة مختلصة على خادمه محاولا أن ينفذ الى وجهه وأن يحزر ما يجول فى خاطره • فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن خادمه لم يظهر أى استغراب • حتى لكأنه قد أعد نفسه لهذا الاحتمال اعدادا تاماً • كانت هيئته على عادتها ، هيئة ذئب جائع ، موارب النظرة ، متأهب فى كل لحظة للانقضاض على أول قادم واقتراسه • قال

بطلنا لنفسه : « لا شك أنهم قد ألقى عليهم اليوم جميعا سحر ؛ لا شك أن ان جنياً قد مر من هنا . نعم هذا أكيد . لا شك انهم جميعا قد وقع لهم شيء خاص في هذا اليوم . لعنهم الله ! . . . يا للورطة ! . . . » تلك كانت أفكار السيد جوليا دكين وخواطره لحظة كان يدخل ضيفه الى الغرفة ويدعوه الى الجلوس ملاطفا . كان يبدو على صاحبه أنه مرتبك ارتباكاً شديداً ، وجل وجل و اجلا واضحا ، فهو يحاول أن يختطف نظرات السيد جوليا دكين عسى أن يقرأ فيها ما يجول في ذهنه . كانت حر كاته واشاراته تنبئ عن الحيرة والخشية والمذلة . وكان مظهره في تلك اللحظة مظهر رجل ارتدى ثياب غيره لأنه لا يملك ثياباً لنفسه (وليعفر لنا هذا التشبيه) ، فأكمامه قصيرة حتى لتكاد تصل الى كوعيه ، وهو يجاول في كل لحظة أن يعدل صديرته المسرفة في القصر ؛ وهو تارة يدور في مكانه ويمحى ويحاول أن يختفي ، وتارة يتفحص نظرات من يحيطون به ويصيح بسمعه ، ويحاول أن يلتقط أحاديثهم ليعرف هل هم يتحدثون عنه ، وهل هم يضحكون منه . . . صفوة القول أن الرجل كان على نار ، فهو يحمر ، ويفقد سيطرته على نفسه ، ويقاسى من مذلة كبريائه مقاساة رهيبية .

وضع السيد جوليا دكين قبعته على حافة النافذة ، فأسقطتها حركة مفاجئة ، فهرع الضيف يلتقطها ، وأخذ ينفذ عنها النبار ، ثم أعادها الى موضعها ، تاركا قبعته هو على الارض ، قرب الكرسي الذي جلس على طرفه خجلا وجلا . ان هذا الحادث الصغير قد أزال الغشاوة عن عيني السيد جوليا دكين ، فأدرك أن الرجل خاضع لمشيئته ، فلا حاجة به الى أن يكلف نفسه عناء ، لا حاجة به الى أن يبحث عن موضوع حديث ، وانما يترك الأمر للضيف يحمل تبعته .

وكان الضيف من جهته لا يجروء أن يشرع في شيء ، فهو ينتظر أن يقوم رب البيت بالخطوات الأولى . ترى أكان هذا خجلا أم خفرا أم

أدبا؟ انه ليصعب أن نجيب عن هذا السؤال اجابة قاطعة • وفي أثناء ذلك عاد بتروشكا • انه الآن واقف على العتبة ، متجه بصره الى عكس الجهة التي كان فيها مولاه والضيف ، ولها هو ذا يسأل بصوت أبيض ولهجة مهملة: « هل على أن أمر بعشائين ؟ » • وهذا جوليا دكين يدمدم مترددا : « أنا •• أنا •• لا أدري •• نعم ، يا صديقي نعم ، مر لنا بعشائين • » •

غاب بتروشكا • وتصفح السيد جوليا دكين وجه ضيفه خفية • فأحمر وجه الضيف حتى الأذنين • ان السيد جوليا دكين رجل طيب • لذلك سرعان ما انتهى بفضل طيبة قلبه الى هذه النتيجة : « مسكين هذا الرجل • لقد تسلم وظيفة في هذا الصباح ، وكان قبل ذلك يعيش حياة قاسية من غير شك • ولعل كل ما يملكه هو هذا الرداء الذي يستر به جسمه • أتراه يملك ما يدفعه ثمن وجبة طعام ؟ مسكين هذا الرجل ! ان وجهه مهدم منهار يدل على المذلة • ولكن لا خير ••• فلربما كان هذا أفضل ••• » •

قال يخاطب صاحبه :

— اسمح لي • هل يمكنني أن أعرف اسمك ؟

— يا ••• يا ••• يا كوف بتروفتش •

كذلك تمتم الضيف يقول وقد لاح في وجهه الاضطراب والحجل ، حتى لكأنه بهم أن يعتذر عن كونه يحمل اسم السيد جوليا دكين نفسه •

فردد بطلنا يقول وهو عاجز عن السيطرة على اضطرابه :

— يا كوف بتروفتش ؟

فأجاب الضيف الطبع بقوله :

— نعم ، هذا هو اسمي • أنا سميتك •

وهمّ الضيف أن يرسم على شفّيه ابتسامة ، وأن يجازف بقول كلمة طيبة ، ولكنه لم يلبث أن توقف عن ذلك ، مصطنعا هيئة الجد ، مرتبكا بعض الارتباك ، حين لاحظ أن محدثه لا يرغب فى شيء من المزاح فى هذه اللحظة .

قال السيد جوليا دكين :

- هل لى أن أعرف السبب الذى شرفنى بـ ...

فبادر الضيف يقاطعه بصوت خجول وهو ينهض قليلا عن كرسيه :

- اننى وقد عرفت عظمة نفسك ، وكرم روحك قد أذنت لنفسى ان

أتجه اليك ... ملتسماً صداقتك ... وحمایتك .

هكذا ختم الضيف عبارته ، وكان واضحا أنه مرتبك بالعشور على الكلمات المناسبة التى لا تكون مسرفة فى التملق والترلف ، ولا تكون مسرفة فى اذلال كرامته ، ولا تكون كذلك مفرطة فى رفع الكلفة بحيث تعبر عن تكافؤ فى غير محله . كان مثله فى التصرف كمثل شحاذ يرتدى رداء رسميا مرقما ويحمل فى جيبه وثائق مشرفة ، ولكنه شحاذ لما يتسع وقته بعد لمدّ اليد فى طلب الصدقة .

أجابه السيد جوليا دكين وهو ينقل بصره بين ضيفه وجدران غرفته

ونفسه :

- انك تخرجنى ... فكيف ... أقصد فيم أستطيع أن أنفعل ؟

- لقد شعرت ، يا ياكوف بتروفتش ، بانجذاب نحوك منذ لقيتلك

أول مرة . فليكن كرمك شفيعى عندك فتغفر لى .. نعم ، لقد عقدت

بعض الآمال ... لقد تجرأت فأملت يا ياكوف بتروفتش ... أنا رجل

نازح عن وطنه يا ياكوف بتروفتش ، أنا رجل فقير قاسى ماقاسى يا ياكوف

بتروفتش .. وأنا هنا غريب . ولقد عرفت أنك تحمسل ، عدا المزايا
الكبيرة التي فطرت عليها نفسك العظيمة ، نفس الاسم الذي أحمله أنا ..
قطب السيد جوليا دكين حاجيه . وأضاف الضيف يقول :
- لقد علمت أنك سمى ، وأنتك من نفس الاقليم الذي أنا منه .
لذلك قررت أن أتجه اليك أعرض عليك وضعي المربك .
فأجابه السيد جوليا دكين بصوت مضطرب :
- طيب طيب . ولكننى لا أدرى حقا ماذا أقول لك ... ستحدث
فى هذا كله بعد الغداء ...

انحنى الضيف ممثلا . وكان الغداء قد حضر . فقد وضع بتروشكا
المائدة . فأخذ الرجلان يأكلان كمن يقوم بواجب من الواجبات المفروضة .
لم يدم الغداء طويلا . كانا كلاهما متعجلين . ان السيد جوليا دكين غير
مرتاح . انه خجل من هذه الوجبة الفقيرة التي يقدمها لضيفه ، خجل من
ناحيتين : الأولى أنه كان يود لو يولم له وليمة لائقة ، والثانية أنه كان
يحب أن يظهر له انه لا يعيش حياة شحاذ .

وكان صاحبه غير مرتاح كذلك ، وكان يبدو خجلا الى أبعد حدود
الخجل . انه بعد أن تناول وأكل قطعة من الخبز لم يجزؤ أن يمد يده
لتناول قطعة أخرى ؟ وكان متحرجا كذلك من تناول قطعة كبيرة ؛ وكان
يردد فى كل لحظة أنه ليس بجائع قط ، وأن الغداء فاخر ، وأنه راض
كل الرضى ، وأنه سيظل شاكرا مدى الحياة . فلما انتهى الغداء أشعل
السيد جوليا دكين غليونه ، واقترح على ضيفه اشعال غليون آخر يحتفظ
به للأصدقاء خاصة . جلس الرجلان أحدهما أمام الآخر ، وأخذ الضيف
يروى مفاخراته .

دام كلام جوليا دكين الثانى ثلاث ساعات أو أربعا . والحق أن مارواه

لم يكن الا سلسلة من أحداث تافهة عادية • تحدث عن عمله فى ادارة حكومية بالأقاليم ، وعن قضاة تحقيق ، وعن رؤساء محاكم ، وعن مكائد مألوفة فى دوائر الدولة • وتحدث كذلك عن فساد أحد الموظفين المرتشين، وعن وصول مفتش من المفتشين ، وعن تغيير رئيس الادارة ، وعمّا أصابه هو من مصائب لا يستحقها • وأشار أيضا الى العمة العجوز بيلاجيا سيموتوفنا ، ثم أفاض فى الكلام تفصيلا على آخر ما بقى من متاعب : ضياع وظيفته على أثر مكائد دبرها له أعداؤه ، مجيئه الى سان بطرسبرج سيرا على القدمين ، الشدائد والمكاره التى عاناها ، صنوف البؤس وألوان الشقاء التى قاسى منها فى العاصمة ، مساعيه الطويلة العقيمة فى البحث عن وظيفة • لقد أنفق آخر قرش مما كان قد ادخره ، حتى أصبح مضطرا الى أن يعيش فى الشارع فعلا ، يأكل خبزا يابساً مبللا بدموعه ، وينام على الأرض • ومن حسن حظّه أن وجد رجل محسن عنى بأمره ، وأوصى به خيرا ، فاستطاع أن يحصل على هذه الوظيفة آخر الأمر • وكان أثناء كلامه يبكى ويجفف دموعه بمنديل أزرق مخطط يمكن أن يحسبه الناظر قماشاً مشمعا • وفى الحتام فتح قلبه تماما للسيد جوليا دكين ، فاعترف له بأنه لا يملك الآن أى مورد من أجل أن يعيش ويسكن ، ولا من أجل أن يكسب • حتى أنه لم يستطع أن يجمع مبلغا يكفيه لشراء حذاءين • أما الرداء الرسمى الذى يرتديه فقد استأجره بضعة أيام •

تأثر السيد جوليا دكين تأثرا شديدا من سماع هذه القصة ، ورق قلبه لصاحبه وأشفق عليه اشفاقا عميقا • صحيح أن قصة الرجل كانت من القصص العادية المألوفة الى أبعد حد ، غير أن كل كلمة من كلماته قد استقبلها قلب السيد جوليا دكين كأنها كلام الله ، كأنها القربان المقدس • لقد تبذرت جميع الشكوك التى غزت نفسه فى الساعات الأخيرة • فقلبه الآن حر طليق يفيض فرحا • حتى لقد عد السيد جوليا دكين نفسه

غيبا ، فكل شيء يبدو طبيعيا ، ولم يكن ثمة ما يوجب أن يعذب نفسه وأن يخاف ذلك الخوف كله في غير طائل . صحيح أن في الأمر نقطة شائكة . . . هي هذا التشابه . . . ولكن لماذا يعد هذا التشابه كارثة من الكوارث . ليس الانسان مسئولا عما تفعله الطبيعة . وليس في هذا التشابه ما يحطم حياة انسان ، أو ما يطلع شرف انسان ، أو ما يعيب سمعة انسان . زد على ذلك أن ضيفه يلتمس منه الحماية . وهو يبكى ويندب ويشكو مصيره ؛ ولا يبدو مؤذيا ، بل هو رجل مسكين تافه مبرأ من الكره والمكر . وكان يبدو هو نفسه خجلا من هذا التشابه الخارق ، ولو لأسباب قد تكون مختلفة . ليس في وضعه ما يمكن أن يؤخذ عليه . انه لا يطلب الا أن ينال رضى صاحب البيت الذى قدم له غداء . ان له نظرة انسان يعذبه ضميره ، انسان يحس أنه آثم في حق آخر . كان أثناء الحديث يعود فيوافق السيد جوليا دكين على رأيه ، متى دار الكلام على موضوع يمكن أن يثير خلافا في الرأى . فاذا اتفق له ، عن سهو أو غفلة ، أن وجد نفسه يناقض مخاطبه مناقضة واضحة ، لم يلبث أن تدارك خطأه وصحح رأيه ، واندفع فى شروح جديدة مؤكدا أن رأيه يتفق ورأى السيد جوليا دكين من جميع النواحي وفى جميع النقاط ، وأنه يفكر كما يفكر السيد جوليا دكين تماما ، وأنه ينظر الى الامور نظرتة اليها : لقد كان يفعل كل ما يستطيع أن يفعله من أجل أن يكون على وفاق مع السيد جوليا دكين . وقد خلص السيد جوليا دكين من هذا كله الى أن الرجل لطيف محبب الى القلب من جميع الوجوه . وفى أثناء ذلك جرى بالشأى . وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة . فكان السيد جوليا دكين يشعر بارتياح كبير ، وقد طابت نفسه وأشرق مزاجه .

انه الآن منتعش يفيض قلبه حماسة ، فلم يلبث أن أخذ يسترسل مع صاحبه فى حديث حار متدفق . ان من عادة السيد جوليا دكين حين

يطيب يومه أن يحب الكلام كثيرا على الأمور الشائعة . فكذلك كان في هذا المساء : تحدث عن العاصمة ، عن ألوان الجمال التي تتمتع بها ، عن ضروب التسلية التي تحفل بها ، عن النوادي ، عن آخر لوحة رسمتها ريشة برولوف . وروى قصة ذينك الانجليزين اللذين جاءا من لندن الى سان بطرسبرج خصيصا من أجل أن يعجبا بجمال سور « حديقة الصيف » ، ثم لم يلبثا أن غادرا سان بطرسبرج بعدئذ على الفور . وتحدث بعد ذلك عن عمله في الدائرة ، وعن أولسوفي ايفانوفتش وعن أندره فيليوفتش ، ثم أعلن أنه يرى أن روسيا تسير في طريق التقدم من ساعة الى ساعة ، واستشهد في هذا الصدد بهذا البيت من الشعر :

في كل يوم تزهر الآداب

وذكر كذلك واقعة أخرى كان قد قرأها أخيرا في جريدة « نحلة الشمال » ، وتكلم عن أفعى من أفاعى اليتون بالهند تملك قوة خارقة ، وتكلم عن البارون برايتوس ، الخ ... الخ . الحلاصة أن السيد جولادكين كان راضيا كل الرضى في ذلك المساء ؛ أولا لأنه كان ينعم بهدوء كامل وطمأنينة تامة ، وثانيا لأنه أصبح لا يخشى أعداءه ، حتى لقد أصبح يحس أنه متأهب لأن يواجههم في معركة حاسمة ، وأخيرا لأنه كان هو نفسه في ذلك المساء في موقف الحامى والمحسن .

ومع ذلك فلقد كان يحس في قرارة نفسه بأن هذه السعادة ليست كاملة تماما في تلك اللحظة ؛ كان يحس في قرارة نفسه بوجود سوس ينخر فيها ، سوس صغير طبعاً ، لكنه سوس نشيط ؛ وكان هذا السوس يأكل قلبه في تلك اللحظة . كانت ذكرى السهرة التي انقضت في الليلة البارحة عند أولسوفي ايفانوفتش تعذبه . لقد كان مستعداً لأن يضحى بأشياء كثيرة في سبيل أن لا تقع بعض الاحداث التي وقعت أثناء تلك

السهرة • قال لنفسه أخيرا وقد عزم عزمًا قاطعًا على أن يسلك في المستقبل سلوكًا لا مأخذ عليه ، وأن يتحاشى ارتكاب أخطاء كنتك الأخطاء : « ليس الأمر بذي بال على كل حال ... » ، واذ شعر عندئذ بتحسّن حالته النفسية حتى ليشبهه أن يكون سعيدًا ، أحب السيد جوليا دكين أن يتمتع بالحياة قليلًا • فجاء بتروشكا يحمل زجاجة من خمر الروم ، فصنع منها شرابًا ، فأفرغ الرجلان في جوفيهما منه كأسًا ، ثم كأسًا أخرى ؛ فازداد الضيف تلفظًا وتوددًا ، حتى لقد برهن غير مرة على انطلاق سجيته وسعادة مزاجه ، وشارك السيد جوليا دكين انشراحه ومرحه ، وبدا عليه أنه شديد الابتهاج بفرح جوليا دكين ، وأنه يعمده صديقه الوحيد الحق •

وتناول قلما وورقة على حين فجأة ، وأخذ يكتب طالبًا الى السيد جوليا دكين أن لا ينظر اليه • حتى اذا فرغ من الكتابة مدّ الى صديقه ما أنجته قريحته • هي رباعية عاطفية بعض الشيء ، لكنها رائعة من ناحية الشكل والخط • وقد نظمها صاحب اللطيف بنفسه طبعًا • وهذه هي :

وهبك نسيت عهد الود لن أنسى لك الودا

صروف الدهر ألوان ولكن لا تخن عهدا

فعاثق السيد جوليا دكين ضيفه والدموع في عينيه من فرط التأثر ، وأخذ يفيض الى صديقه الجديد بأخفى أسراره ، فأشار مرارًا الى آندره فيليوفتشس والى كلارا أولسوفييفا ، وما فتىء يكرر له قوله : « آ ... سوف ترى يا ياكوف بتروفتشس ... سوف تتفاهم أحسن تفاهم أنا وأنت • سوف نعيش كما يعيش أخوان حقا ... كالأسماك في الماء ... وسنمكر ، يا أخى ، سنمكر • سنكيد لهم ، نعم سندبر لهم مكيدة على طريقتنا ... وإياك خاصة أن تثق بهم أو أن تطمئن اليهم أو أن تسر لهم بشيء • أنا أعرفك يا ياكوف بتروفتشس ... أنا أعرف طبعك ... قد

لا تتورع عن أن تقص عليهم كل شيء ، لأنك انسان حساس النفس
مستقيم الخلق • فاجعلهم دائما على مسافة منك يا أخى ••• « • وافق
الضيف السيد جوليا دكين موافقة تامة ؛ وأجزل له الشكر حارا ، حتى
لقد ذرف بضع عبرات • وأردف بطلنا يقول بصوت مرتجف ضعيف :
« اسمع يا ياشا ، اسمع ، تعال فاسكن معى الى حين أو الى الأبد •
سنسعد بالسكنى معا • ما رأيك أيها الأخ ؟ ثم لا تعبأ بهذا التشابه بيننا ،
لا تحفل بهذه المصادفة الغريبة ! لا تعذب نفسك بهذا الأمر ، ولا تثر
عليه ! انها الطبيعة ••• والتمرد كفر • ان أمانة الطبيعة سخية كريمة ،
فافهم هذا حق الفهم يا أخى ياشا • أقول لك ذلك عن حب ، عن حب
أخوى • سوف يكيدون لنا يا ياشا • ولكننا سنعرف كيف نمد لهم الشباك ،
و كيف نوقعهم فى الفخ ••• سوف ترى ••• » •

وكان الرجلان قد وصلا من الشراب الى الكأس الرابعة • وكان
يسيطر على السيد جوليا دكين شعوران : فأما الأول فهو أنه لا يستطيع
الوقوف على قدميه ، وأما الثانى فهو سعادة ليس لها حدود •

وكان طبيعيا أن يدعو صاحبه الى المبيت فى مسكنه • فكذلك فعل •
وأمكن اعداد سرير للضيف يضم صفيين من الكراسي كيفما اتفق • وقال
السيد جوليا دكين الجديد ان المرء ليحلو له أن يبيت عند صديق ولو
افترش الأرض ، وانه مستعد لأن ينام فى أى ركن شاكرا ممتنا • وأضاف
يقول انه يشعر الآن أنه فى الجنة ، بعد سلسلة طويلة من المكاره والمصائب
والآلام • آه ما أكثر ما رأى وما قاسى ! ولعل المستقبل ما يزال يخبئ له
آلاما أخرى أيضا ! فرأى جوليا دكين الأكبر أن يحتج على هذه المزاعم
احتجاجا قويا ، وأن يبرهن لصاحبه على ضرورة الايمان بعدالة الله •••
فأمّن صاحبه على قوله مطلبا مسهبا فى القول ، وأعلن هو أيضا أن « عدالة

الله لا نظير لها ، . . . وبهذه المناسبة ، استشهد جوليا دكين الأكبر بالأثر الكائن قائلاً انهم على حق حين يتهلون الى الله حتى أثناء النوم .

وخالف بطلنا آراء كثير من العلماء الذين يتكبرون للنبي « التركي » ، محمد ، فقال انه يعده رجلاً عظيماً . ولم يلبث السيد جوليا دكين أن انتقل من الكلام على الأثر الكائن الى الكلام على « صالون » جزائري من صالونات الحلاقة ، فوصفه وصفاً حياً جميلاً كان قد قرأه في أحد الكتب . وضحك الرجلان طويلاً من سداجة الأثر الكائن ، ولكنهما لم ينسيا أن يشيدا بتعصبهم الذي يزيد الأفيون قوة وحرارة . وأخذ الضيف يخلع ملابسه . فانسحب السيد جوليا دكين الى ما وراء الحاجز . فهو يخشى أولاً أن لا يكون قميص ضيفه لائقاً ، فمن المستحسن أن يغيب حتى لا يشعر بشيء من المذلة ؛ وهو يريد ثانياً أن يتأكد من سلوك بتروشكا ، أن يسبره قليلاً ، أن يبت في نفسه شيئاً من الفرح اذا أمكن ذلك ، أن يلاطفه بعض الملاحظة . كان السيد جوليا دكين يرغب رغبة قوية في أن يسود السلم وأن تسود السعادة في بيته هذا المساء . ولنلاحظ أيضاً أن وضع بتروشكا كان نعم دائماً بالقدرة على جعل السيد جوليا دكين قلقاً غير مرتاح .

قال بطلنا بصوت عذب رخيماً وهو يدخل الحجرة المخصصة لخادمه :

— عليك أن تنام الآن يا بطرس . ارقد الآن وأيقظني غداً في الساعة

الثامنة . هل فهمت يا بتروشكا ؟

كان في لهجة السيد جوليا دكين عذوبة قصوى ورقة عظمى ، ولكن بتروشكا ظل أحرص لا يتكلم ، وظل يتحرك مشغولاً حول سريره ، ولم يتنازل حتى أن يلتفت نحو مولاه ، وذلك أيسر مظهر من مظاهر الاحترام .

تابع السيد جوليا دكين يقول :

- هل سمعتنى يا بتروشكا ؟ ارقد الآن يا بتروشكا ، وفى غد صباحا ، أيقظنى فى الساعة الثامنة • هل فهمت ؟

فدمدم بتروشكا يقول متمللا :

- فهمت فهمت • هل هذا سحر يصعب فهمه ؟

- طيب طيب يا بتروشكا • أنا ما قلت لك هذا كله الا من أجل راحتك وسعادتك • نحن الآن سعداء ، وقد أردت أن تكون أنت أيضا سعيدا • وأنا الآن أتمنى لك ليلة طيبة • نم جيدا يا بتروشكا ، نم جيدا • العمل مقسوم علينا جميعاً ••• واياك خاصة ياعزيزى أن ينصرف ذهناك الى تخيل أشياء •••

قال السيد جوليا دكين ذلك ثم توقف فى منتصف جملة مسائله نفسه : « ترى ألم أسرف فى القول ؟ ألم أبالغ ؟ أنا دائما هكذا ••• أتجاوز الحدود • » • ثم انصرف تاركا حجرة بتروشكا ، مستاء من نفسه بعض الاستياء • ثم انه كان عدا ذلك منزعا من فظاظه خادمه واتفلقه • قال لنفسه : « يا للوعد الحقير ! ••• يشرفه مولاه بمخاطبته متلطنا هذا التلطف ، ثم هو لا يحس ذلك ولا يشعر به ••• على أن هذا سجية عامة فى جميع هؤلاء الخدام • » • وعاد السيد جوليا دكين الى غرفته وهو يترنح قليلا ، فلما رأى ضيفه مضطجعا جلس لحظة قربه •

بدأ يقول بصوت خافت وهو يرجح رأسه :

- اعترف يا ياشا ، اعترف بأنك مذنب فى حقى أيها الحبيث •
أأنت ••• ياسمى ••• أنت ••• لا داعى الى الكلام ! •

قال ذلك بلهجة مرحة فى غير كلفة ؛ ثم مضى الى غرفته بعد أن تمنى لصاحبه ليلة هائلة بكثير من المودة والصدقة • ولم يلبث أن اضطجع

هو أيضا ، مبتسما يخاطب نفسه : « أنت اليوم سكران يا عزيزي
يا كوف بتروفتش ، أنت سكران أيها اللثيم ... آه منك أيها الوغد
يا جولبادكين ... نعم ذلك هو الاسم الذي تستحقه ... أنت الليلة
فرحان ... ولكن لماذا ؟ لسوف تسكب في غد دموعا أيها البكاء ...
لا أمل فيك ! » .

وأحس بطلنا في هذه اللحظة بشعور غريب واخز هو مزيج من
الندم والشك . قال لنفسه : « أتراني أسرفت في الحماسة ! أنا الآن
سكران . ان في رأسي دوارا ... آه ... اننى لم أعرف كيف أضبط
نفسى ... ان أنا الا أبله ... ولا شك أننى قلت سخافات كثيرة ...
كيرة كجبل ... يا لى من شخص تافه ... صحيح أن الففران ونسيان
الاساءة هما من الفضائل الحميدة ... ولكن هذا لا ينفى أننى أخطأت .
ذلك واضح وضوح ماء البصخر » . قال السيد جولبادكين ذلك ثم نهض
فتناول شمعة واتجه نحو سرير ضيفه سائرا على رءوس الأصابع . كان
يريد أن يلقى نظرة أخيرة على وجهه . فظل مائلا عليه مدة طويلة يتفرس
فيه غارقا في تأمل عميق . ودمدم يقول لنفسه أخيرا : « منظر لا يسبر ...
محاكاة مضحكة ، محاكاة مضحكة لا أكثر ولا أقل ... » .

وعاد السيد جولبادكين الى سريريه فسرقد في هذه المرة رغم كل
شئ . وما لبث رأسه أن أصبح مقر صخب حقيقى : ان أنواعا من قرعمة ،
ورنين ، وصرير تغزو دماغه . وفقد شعوره بالأشياء قليلا قليلا ... أراد
أن يسترد وعيه ، أراد أن يثبت فكره على نقطة بعينها ، أراد أن يتذكر
أمرا يتعلق بمسألة ذات شأن هام خطير ، مسألة حرجة دقيقة الى أبعد
حدود الحرج والدقة ... ولكنه لم يظفر بذلك . لقد استولى الكرى على
رأسه المسكين فنام ... نام كما ينام رجل لم يألف الشراب ثم شامت له
المصادفة في ليلة صداقة أن يفرغ في جوفه خمس كنوس .

الفصل الثامن



الغداة ، استيقظ السيد جوليا دكين في الساعة
الثامنة على عادته • فلم تلبث أحداث الليلة البارحة
أن عادت الى ذهنه • صعر وجهه • قال لنفسه
وهو ينهض عن سريره وينظر نحو ضيفه « لقد
تصرفت أمس تصرف أحمق • • • ولكن ما كان أشد دهشته حين لاحظ
أن ضيفه والسرير الذي لا بد أن ضيفه كان نائما عليه قد تبخرا ! • • •
فلم يكذ يستطيع أن يمتنع عن اطلاق صرخة تعجب ! قال لنفسه : « ما هذا !
ما معنى هذه الظاهرة الجديدة ؟ » • كان بطلنا يتأمل المكان الخالي مشدوه
العقل فاغر الفم • صرَّ الباب وظهر بتروشكا حاملا صينية الشاي • تتمم
بطلنا بصوت لا يكاد يسمع وهو يشير بأصبعه الى المكان الذي كان يحتله
بالأمس سرير صاحبه : « أين هو ؟ أين هو اذن ؟ » • فلم يجب بتروشكا
في أول الأمر بشيء ؟ حتى أنه لم يتنازل أن يرفع عينيه الى مولاه ، وانما
اتجه ببصره الى ركن من الغرفة على يمينه ، فلم يسمع السيد جوليا دكين

الا أن يحرق بصره الى ذلك الركن هو أيضا وأخيرا بعد صمت طويل،
أجاب بتروشكا يقول بصوت أجش فظ : « ليس مولاي فى البيت » .
قال جوليا دكين بصوت لاهت وهو يلتهم خادمه بنظرته التهاما :
- أنا مولاك يا غبى !

فلم يجب بتروشكا ، ولكنه ألقى على مولاه نظرة لم يملك مولاه
ازاءها الا أن يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين . كانت نظراته ثقيلة
باستياء جارح يعدل اهانة مباشرة . وسقطت ذراعا السيد جوليا دكين ، على
حد التعبير الرائج . وأخبره بتروشكا أخيرا أن الثانى قد انصرف منذ
ساعة ونصف ساعة ، وأنه لم يشأ أن ينتظر . بدا قول بتروشكا جائزا
ومعقولا ، فلا داعى الى الشك فى صدقه . أما نظراته المهينة ، واستعماله
تعبير « الثانى » فهما من النتائج المحتومة لهذه المصادفة العجيبة ، لهذا
التشابه المذهل .

أدرك السيد جوليا دكين ، ولو فى غموض وابهام ، أن الأمور لن
تقف عند هذا الحد ، وأن القدر ما يزال يدخر له مفاجآت لن تكون
سارة .

قال لنفسه : « طيب طيب . سوف نرى . سوف نرى كل شىء فى
حينه ، فنعرف أين نحن وماذا يجب أن نفعل . . . » ثم أردف يدمدم
بصوت مختلف كل الاختلاف ، بصوت متأوه هو الى الأيمن أقرب : « آه
يا رب ! لماذا دعوته ؟ لماذا أنا هكذا ؟ لأى هدف فعلت هذا كله ؟ ألا انى
لأدس رأسى فى الشوطة التى هياها لى هؤلاء المجرمون قطاع الطرق .
نعم ، انى أعقد الحبل على عنقى بنفسى . آه منى ، آه من عقلى ، عقل
المجانين ! انك يا جوليا دكين لا تستطيع أن تقاوم شهوة ارتكاب الخطأ ،
لا تستطيع أن تقاوم الرغبة فى أن تكذب ككلميد ، ككاتب فى الدواوين ،

كفندلفت تافه . . . ان أنت الا خرقة رخوة عفنة . . . ان أنت الا نثران
. . . ان أنت الا امرأة مهذار . . . ذلك أنت . . . آه يا رب ! ولقد نظم
الوعد أشعارا أيضا ! . . . أعرب لى عن صداقته . سأعرف كيف أريه
الباب اذا تجاسر أن يعود . سأقول له مثلا : أنظر يا صاحبي . . . ان
مرتبى ضئيل . . . أو لعلى أستطيع أن أخيفه اذا قلت له : لما كانت
حالتى العامة على ما ترى ، فيجب أن أذكر لك أنك لا بد أن تدفع نصف
أجر المسكن ونصف نفقات الطعام . . . وأن تدفع المبلغ مقدما . آه . . .
لا . . . يا للفكرة السخيفة ! لا . . . هذا مستحيل . . . هذا يسىء الى
سمعتى ، هذا فظاظة . . . لعلى أستطيع أن أحاول وسيلة أخرى . . .
أن أوحى الى بتروشكا مثلا بأن يكون وقحا فى معاملته ، بأن لا يظهر له
شيئا من الاحترام ، بأن يندفع غاضبا فى وجهه على نحو من الأنحاء
بفظاظة . . . نعم يمكن طرده بهذه الطريقة . هذا ما يجب أن يعمل .
ولكن أأدعهما يصطرعان هما الاتنين ؟ . . . لا . . . ليس هذا باللائق
أيضا . . . ليس هذا باللائق أبدا . . . ليس هذا بالخير . . . واذا لم يعد ؟
لن يكون هذا خيرا كذلك . آه . . . لقد أسرفت فى الحديث معه أمس . . .
آه . . . الأمور لا تجرى كما يجب أن تجرى . . . انها تجرى مجرى
سيئا . ما أخف عقلى ! ما أشد حماقتى ! اننى عاجز عن تحقيق شيء من
الترتيب فى أفكاري . . . عاجز عن تحقيق شيء من النظام فى رأسى
المسكين . . . وماذا اذا عاد ليرفض ما عرضته عليه ؟ آه . . . ليته يعود . . .
لسوف يسرنى كثيرا أن يعود . . . »

كان السيد جوليا دكين غارقا فى هذه الخواطر وهو يتلعب الشاي
ويراقب ساعة الحائط فى الوقت نفسه .

« هى الساعة التاسعة الا ربعا الآن . آن لى أن أذهب . ما الذى
سيقع لى ؟ ما الذى سيقع لى ؟ وددت لو أعرف ماذا يحاك لى الآن من

المكائد ! ما هي خطتهم ؟ ما هي نياتهم ؟ ما هي وسائل عملهم ؟ نعم يحسن أن يعرف المرء على وجه الدقة الى أين يريد أن يصل هؤلاء السادة من ذلك كله ، وما هي الخطوات الأولى التي سيقومون بها ! * * * »

نفد صبر السيد جوليا دكين • فيها هو ذا يرمى غليونه الذي لا يزال ملآن الى النصف ، ثم يسرع فيرتدى ثيابه ، ويهرع الى مكتبه راكضاً ، يريد أن يجتنب ما يمكن اجتنابه ، أو يريد على كل حال أن يتحقق بنفسه مما سيجرى • الخطر قائم لا محالة ؟ هو لا يجهل ذلك •

« هيا هيا ، سننفذ الى السر حالا ، سنوضح الأمر كله قريباً » ، كذلك كان يردد السيد جوليا دكين في الدهليز وهو ينضو معطفه ويخلع جرموقيه • لقد قرر بطلنا أن يباشر العمل ، فها هو ذا يعدل ثيابه ويصطنع وضعاً لائقاً مهيباً • وفيما هو يهم أن يدخل المكتب ، اذا به يجد نفسه ، عند عتبة الباب ، أمام صاحب الليلة البارحة ، صديقه الجديد ، وجها لوجه ، أنفاً لأنف • بدا على السيد جوليا دكين الأصغر أنه لا يتعرف السيد جوليا دكين الأكبر ، رغم أنهما متقابلان • كان الموظف الجديد مشغول البال جدا ، على عجلة من أمره ، نافذ الصبر ، يكفى أن يرى المرء وجهه حتى يقول لنفسه على الفور : « لا شك أن الرجل مكلف بمهمة خاصة * * * »

قال بطلنا ، وهو يتشبث بيد ضيف الليلة البارحة :

— ها * * * هذا أنت يا ياكوف بتروفتش !

فصاح السيد جوليا دكين الأصغر يقول متملصاً :

— بعد قليل ، بعد قليل ، معذرة ، ستقول لي هذا كله فيما بعد •

— اسمح لي مع ذلك يا ياكوف بتروفتش ، يخيل الي يا ياكوف

بتروفتش أنك كنت تنوى أن * * *

– ماذا تقول ؟ اسرع فى ذكر ما تريد أن تذكره

لقد توقف ضيف السيد جوليا دكين وهو ظاهر الانزعاج والتملسل والتبرم • وجعل أذنه عند أنف محدثه •

– يجب أن أعترف لك يا ياكوف بتروفتش بأننى مستغرب أن تستقبلنى هذا الاستقبال لقد كان من حقى أن أتوقع منك موقفا غير هذا الموقف

– لكل طلب أصول معينة لا بد من التقيدها • فاذهب الى سكرتير صاحب السعادة ثم قدم عريضة مستوفية الشروط الى السيد مدير مكتبه • ان لك طلبا ، أليس كذلك ؟

– لست أفهمك يا ياكوف بتروفتش • انك تذهلنى يا ياكوف بتروفتش • ألسنت تعرفنى ؟ أم أن ذلك مزاح يتفق ومزاجك المرح ؟ قال السيد جوليا دكين الأصغر وكأنه لم يتعرف السيد جوليا دكين الأكبر الا فى هذه اللحظة :

– آ هذا أنت ؟ هذا أنت ؟ قل لى اذن : هل نمت نوما طيبا ؟

قال الموظف الجديد ذلك ثم حرك شفثيه بابتسامه رسمية مؤدبة ، ولكنها لا محل لها فى الظروف الراهنة ، ما دام لدينا للسيد جوليا دكين بالفضل ، حتى هذه اللحظة فى أقل تقدير • وشفع ابتسامته الرسمية المهذبة بكلمة قصيرة أعلن فيها لمخاطبه أنه يسره أن يعرف أنه نام نوما طيبا ؛ ولم يلبث أن انحنى انحناء خفيفة ، وتحرك فى مكانه ، ونظر مرة الى يمين ومرة الى شمال ، ثم خفض عينيه ، وحدق الى باب قريب ، وتمتم يقول انه مكلف بمهمة خاصة مستعجلة جدا ، وهرع يدخل الى الغرفة المجاورة سريما كومض البرق •

قال السيد جوليا دكين بصوت بهيم وقد صقع لحظة : « قصة عجيبية
... قصة عجيبية حقا ... أهذا هو الامر اذن ؟ ، ، وهنا شعر السيد
جوليا دكين برعدات تتجتاح جسمه كله . تابع يناجي نفسه ، وهو يتجه
نحو مكتبته : « على أنني قد أوجست هذا كله منذ زمن طويل ... انه
مكلف هنا بمهمة خاصة ... هذه هي المسألة . أمس ، لا أكثر ، قلت
ان هذا الرجل موجود هنا للقيام بمهمة خاصة عهد به اليها أحدهم » .
- هل أنهيت نسخ نص الأمس يا ياكوف بتروفتش ؟ أهو معك
الآن ؟

كذلك سأله أنطون أنطونوفتش بينما كان السيد جوليا دكين يجلس
على كرسيه .

فأجابه السيد جوليا دكين مدمدا وهو يلقي على رئيسه نظرة مهدمة :
- نعم هو معي !

- طيب ... لقد سألتك عنه لأن آندره فيليوفتش قد طلبه مرتين
حتى الآن . وأحسب أنه لا بد أن يطلبه بعد قليل ...

- النص جاهز على كل حال ...

- طيب طيب ... عظيم !

- أحسب يا أنطون أنطونوفتش أنني قد قمت بواجبي دائما
باخلاص ، وانتي انجزت دائما الاعمال التي يعهد بها الي رؤسائي
بحماسة ونشاط .

- أكيد ... ولكن ماذا تريد أن تقول بهذا ؟

- أنا ؟ ... لا شيء . يا أنطون أنطونوفتش ... وانما أردت أن
أشرح لك يا أنطون أنطونوفتش ... أقصد ... أردت أن أنبهك الى

أن الشر والحسد ، وهما الرذيلتان الساعيتان أبدا في طلب رزقهما اليومي
الكره ، لا يوفران أحدا •••

– اعذرني ••• لست أفهم عنك تماما • الى من تشير في هذه
اللحظة ؟

– أريد أن أقول بهذا يا أنطون أنطونوفتش انني في هذه الحياة
قد اتبعت الطريق القويم دائما ، وانني أكره الطرق الملتوية ، وانني لست
بالشخص الذي يدبر المكائد ••• وذلك أمر أستطيع أن أعتر به ويمكنني
أن أبرهن عليه اذا أتحت لي الفرصة •

– نعم ، هذا جائز ، بل انني اذا فكرت في الأمر مليا أستطيع أن
أوافقك على صدق ما تقول موافقة تامة كاملة • ولكن اسمح لي يا ياكوف
بتروفتش أن ألفت نظرك الى أن المجتمع الراقي لا يتسامح دائما في حق
غمزات عنيفة تتناول شخصيات مرموقة • أنا من جهتي قد أغفر لأحد
الناس أن يقول عنى سوءا من وراء ظهري – وما أكثر ما يقول الناس من
وراء الظهر ! ••• – أما أن يواجهني أحد بوقاحات ، فذلك أمر لا يمكن
أن أسمح به أبدا أيها السيد ! لقد شاب شعري في خدمة الدولة أيها
السيد ، ولست أسمح لأحد أن يهينني في هذه السن الوقور •

– ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش •• ليس هذا ما أقصده
يا أنطون أنطونوفتش ••• يخيل الى يا أنطون أنطونوفتش أنك لم تفهم
عنى حق الفهم ••• أنا من جهتي يا أنطون أنطونوفتش لا يمكن الا أن
أصور أن من الشرف •••

– وأرجو أن تعذرنا نحن أيضا • لقد نشأنا وترينا على الطراز
القديم • وقد فات الأوان الآن ، فلا نستطيع أن نتبنى أساليبكم الجديدة •
ويخيل الى من جهة أخرى أننا قد أظهرنا قدرا كافيا من حسن الفهم

وسداد الرأى فى خدمة الوطن • وأنت لا تجهل أيها السيد أنتى أحمل
وساما ، جزاء ما قدمت من خدمات خلال خمسة وعشرين عاما فى العمل
موظفا فى الدولة •

- أعرف هذا يا أنطون أنطونوفتش ، وأنا من جهتى أشاركك
شعورك مشاركة كاملة • ولكننى كنت أتكلم عن شىء آخر ••• كنت
أتكلم عن القناع يا أنطون أنطونوفتش •••

- عن القناع ؟

- أقصد ••• أخشى أن تفسر كلامى تفسيراً خاطئاً مرة أخرى ••
ان معنى ما أقوله يتفق وآراءك كل الاتفاق يا أنطون أنطونوفتش • أنا
لا أزيد على أن أفضل القول حول الفكرة الرئيسية ، إبرازها ، وهى
أن لابسى الأفتحة ليسوا قلة فى زماننا هذا يا أنطون أنطونوفتش ، حتى
أصبح يصعب على المرء أن يتعرف الشخص وراء القناع •••
- لا ••• ليس يصعب هذا كثيرا ، حتى لقد يكون فى بعض
الأحيان سهلا سهولة كافية ، فما يحتاج المرء الى المضى بعيدا •••

- عفوك يا أنطون أنطونوفتش ••• اننى أتكلم الآن عن حالتى
الخاصة • فأنا مثلا يا أنطون أنطونوفتش لا أضع على وجهى قناعا الا حين
تقتضى الظروف ذلك ••• كأن أحضر عيد كرنفال ••• أو أن أحضر
اجتماعات مفرحة من هذا القبيل ••• هذا بالمعنى الحقيقى لا المعنى المجازى
طبعا • أما فى علاقاتى اليومية بالناس فأنا لا أضع على وجهى قناعا قط ،
هنا بالمعنى المجازى ، بالمعنى الرمضى • ذلك ما أردت أن أقوله لك يا أنطون
أنطونوفتش •

- طيب طيب ، ولكن دعنا من هذا كله الآن • ثم ان وقتى لا يتسع
للمناقشة •

قال أنطون أنطونوفتش هذا وهو ينهض عن كرسيه ويجمع الأوراق اللازمة للتقرير الذى كان عليه أن يقدمه لصاحب السعادة ؛ ثم أردف :
- أما عن حالتك الخاصة ، فسوف يوضح لك الأمر قريبا ، فتملم عندئذ من هو الذى يجب أن تحمّله التبعة ، من هو الذى يجب أن تهممه .
وعلى هذا فأنا أرجوك ملحا أن تعينى فى المستقبل من الشروح الخاصة والترزات التى تسيء الى العمل •

اصفر السيد جوليا دكين ، وجمعهم يقول :
- لا يا أنطون أنطونوفتش ••• لم يكن فى نيتى يا أنطون أنطونوفتش •••

ولكن رئيسه كان قد ابتعد • فلما صار السيد جوليا دكين وحيداً استمر يناجى نفسه فى خياله سائلا : « ما الذى يحدث هنا ؟ ما هذه الرياح التى تهب الآن هنا ؟ ما معنى هذه الغمزة الجديدة ؟ » •

أصبح صاحبنا أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وراح يتأهب لحل هذه المشكلة الجديدة ، حين سمع ضجة تقوم فى الغرفة المجاورة على حين فجأة • وفتح الباب ، وظهر آندره فيليوفتش على العتبة نافذ الصبر • كان قد ذهب الى مكتب صاحب السعادة قبل برهة قصيرة لبعض الأعمال • صاح آندره فيليوفتش ينادى السيد جوليا دكين • واذ كان السيد جوليا دكين يعرف الأمر سلفا ولا يريد أن يضطر آندره فيليوفتش الى الانتظار ، فقد هب واثبا عن كرسيه ، وأخذ يتحرك مسرعا ، فتناول الملف المطلوب منه ، فنفض عنه الغبار مداريا اياه مدلا له • وفيما كان يتأهب للسير وراء آندره فيليوفتش الى مكتب صاحب السعادة متأبطا ملفه ، اذا به صار قرب آندره فيليوفتش الذى كان ما يزال واقفا عند فتحة الباب ، يفاجأ بظهور السيد جوليا دكين الأصغر بغته • لقد تسلل هذا الى الغرفة تسللا ، وكان

يدو مشغول البال متقطع الأنفاس ، غارقاً في الأعمال • وها هو ذا يصطنع هيئة وقورة رسمية ، ويقبل قدما نحو السيد جوليا دكين الأكبر الذي كان على بعد مائة فرسخ من توقع مثل هذا الهجوم •

– الأوراق يا ياكوف بتروفتش ، الأوراق ••• لقد شرفنا صاحب السعادة بسؤالنا عن أوراقك هلى هي جاهزة ؟ ان آندره فيليوفتش ينتظرك !

كذلك هذر بصوت خافت وسرعة كبيرة ، الصديق ' الجديد للسيد جوليا دكين • فأجابه السيد جوليا دكين يدمدم بصوت خافت وسرعة كبيرة أيضا :

– لست فى حاجة الى أن أعرف أنه ينتظرني •

– ليس هذا ما أردت أن أقوله يا ياكوف بتروفتش ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، ليس هذا أبدا • أنا معك يا ياكوف بتروفتش ، أنا معك بكل قلبى •••

– أرجوك أن تعفينى من هذا ••• اسمح لى ، اسمح لى •••

– عليك طبعاً أن تحرص على أن تضع الملف فى غلاف يا ياكوف بتروفتش • ولا تنس أن تضع شريطة صغيرة فى الصفحة الثالثة • اسمح لى يا ياكوف بتروفتش •••

– وبعد ؟ ••• بل اسمح لى أنت •••

– ولكن ها هنا بقعة حبر يا ياكوف بتروفتش ! هل لاحظت أن ها هنا بقعة حبر ؟

وفى هذه اللحظة صاح آندره فيليوفتش ينادى السيد جوليا دكين مرة ثانية •

- أنا آت يا آندره فيليوفتش ، فوراً ؛ هناك شيء صغير على أن ...
وأخيراً أيها السيد ، ألا تفهم الروسية ؟

- خير طريقة أن تحك البقعة بموسى ، يا ياكوف بتروفتش .
صدقنى ... هذا أفضل ... ودع هذا لى أنا يا ياكوف بتروفتش ...
ثق بى ... سأحك البقعة بموسى حكاً بسيطاً .

وصاح آندره فيليوفتش ينادى السيد جوليا دكين مرة ثالثة .
- ولكن أرجوك ... أين ترى بقعة هنا ؟ يخيل لى أنه لا أثر
لأية بقعة هنا .

- بل توجد بقعة .. بقعة كبيرة .. انظر .. هى ذى .. اسمح
لى .. هنا رأيت البقعة ، أنظر .. هل تسمح ؟ هات الملف قليلاً يا ياكوف
بتروفتش ... لا يحتاج الأمر الى أكثر من حك قليل بالموسى ... أنا
أفعل عنك ذلك حياً بك يا ياكوف بتروفتش ... أفعله بطيب خاطر ...
أحك البقعة قليلاً بالموسى ، وينتهى كل شيء .

وهنا وقع شيء لم يكن فى الحسبان ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال .
ان السيد جوليا دكين الأصغر الذى استطاع أن يتغلب على بطلنا فى هذه
المنافسة الصغيرة التى شبت بينهما ، قد استولى على الأوراق التى كان يطلبها
صاحب السعادة ، استولى عليها رغم مقاومة السيد جوليا دكين ؛ ولكنه بدلاً
من أن يحك بقعة الجبر المزعومة بموسى حياً بخضمه كما ادعى ذلك كذباً
ونفاقاً ، طوى الأوراق بسرعة ، ووضعها تحت ابطه ، ومضى يدرك آندره
فيليو فتش بوئتين . ان آندره فيليوفتش لم يلاحظ مناورات السيد
جوليا دكين الأصغر . وهرع الاثنان الى مكتب المدير .

لبث بطلنا مسمراً فى مكانه ممسكاً بيده الموسى التى كان يتأهب
لاستعمالها فى حك بقعة الجبر فيما يبدو . انه لم يفهم بعد كل ما جرى .

انه لا يشب الى رشدہ • لقد تأثر بهذه الضربة الأخيرة تأثرا شديدا ، ولكنه ما يزال يعتقد أن المسألة مسألة سوء تفاهم • واستبد به قلق رهيب لا يوصف ، فاذا هو ينتزع نفسه من مكانه انتزاعا ، ويسير مسرعا نحو مكتب المدير • وكان وهو يجري نحو مكتب المدير يسأل الله العلى القدير مخرجا موقفا من هذا المأزق ***

وفى القاعة الأخيرة ، قبل مكتب المدير ، التقى بطلنا وجها لوجه بأندره فيليوفتش وسميّه • لقد كانا عائدين من مكتب صاحب السعادة • امحى السيد جولياكين • كان آندره فيليوفتش يتكلم مرحا وهو يتبسم • وكان السيد جولياكين الأصغر يتبسم أيضا ، ويتفنج متزلقا ، ويسير بخطى قصيرة على مسافة من آندره فيليوفتش من قبيل الاحترام ، ويوشوشه من حين الى حين مشرق الوجه فيجيبه آندره فيليوفتش هازا رأسه بكبير من الملاطفة • يجب أن نقول ان عمله (كما علم بذلك فيما بعد) قد أرضى صاحب السعادة كثيرا ، حتى لقد تجاوز الآمال التي كان يعقدها صاحب السعادة ، فهو قد أنجز العمل فى المهلة المحددة ، وصاحب السعادة مرتاح الى هذا كل الارتياح ، راض عنه كل الرضى • بل يظهر أن صاحب السعادة قد كالم المديح للسيد جولياكين الأصغر ، وشكر له صنيعه شكرا حارا ، وأضاف الى ذلك أنه سيحسب حساب هذا فى المستقبل ، وأنه لن ينساه قط •

كان طبيعيا أن تكون أول حركة يقوم بها بطلنا هى أن يحتج ، أن يحتج بكل ما أوتي من قوة ، فى حدود الامكان • لذلك أسرع نحو آندره فيليوفتش ، وقد امتقع لون وجهه حتى صار فى صفرة الموتى ، وهو لا يكاد يعي ما يصدر عنه من أفعال • ولكن آندره فيليوفتش ، ما ان علم أن المسألة التي كان السيد جولياكين الأكبر يريد أن يتحدث فيها

مسألة شخصية خاصة ، حتى رفض أن يصغى اليه ، وحتى نبهه بقسوة الى أنه لا يملك لحظة من فراغ يقفها على الاهتمام بشئون شخصية •

وقد بلغت لهجة الرفض من الخشونة والجفاف أنها أحدثت في بطلنا تأثيرا عميقا • فقال لنفسه : « ربما كان من مصلحتي أن أجيء اليه مواربا ، عن طريق أنطون أنطونوفتش مثلا • • • ولكن شاء سوء حظ بطلنا أن كان أنطون أنطونوفتش غائبا • فلقد نودى هو أيضا ، فهو في عذبة اللحظة مشغول •

قال بطلنا لنفسه : « لقد كان على حق حين طلب الى أن أعفيه من الشروح والترثرات • نعم ، ذلك ما كان يقصد اليه هذا الفاسق • طيب • • • لم يبق عليّ والحالة هذه الا أن أمضى أتوسل الى صاحب السعادة •»

وتهاوى السيد جوليا دكين على أحد الكراسي ، وهو ما يزال ممتقع اللون ، مضطرب العقل ، نهبا للشكوك ، لا يدرى ماذا يفعل • • • وكان ما ينفك يردد في ذهنه قائلا لنفسه : « لا شك أن من الأفضل أن لا يكون لهذا كله أى دلالة • فالحق أن وضعنا كهذا الوضع أمر لا يصدقه العقل من أية ناحية نظرت اليه • هذه ترهات حتما • • • ذلك مستحيل قطعا • لا • • • لا شك أن هذا كان رؤيا • • • لاشك أنني ذهبت بنفسى الى المدير • • • ثم حسبت نفسى شخصا آخر • • • على كل حال • • • هذا كله مستحيل •»

وما كاد السيد جوليا دكين ينتهي الى استحالة هذه القضية أساسا حتى ظهر سميئه في المكتب بفته ، وهو يحمل تحت ذراعه وفي يديه مقدارا كبيرا من الملفات •

وفيما كان يمر أسرّ الى اندره فيليبوفتش بيضع كلمات لاشك أنها كانت ضرورة لا غنى عنها ، وتبادل بضعة أقوال مع موظف آخر ، ولاطف هذا قليلا ، ومازح ذلك شيئا • كان واضحا أن وقته لا يتسع لمشاغل

تافهة • وشاء حظ بطلنا أن جوليا دكين الأصغر ، بينما كان يهيم أن يجتاز عتبة الباب ليخرج من المكتب ، استوقفه موظفان أو ثلاثة موظفين شباب دخلوا الغرفة فأخذوا يتحدثون معه • فما كان من السيد جوليا دكين الا أن هرع نحوه • ولكن السيد جوليا دكين الأصغر أدرك حيلة بطلنا فوراً فلم يلبث أن أخذ يبحث عن مخرج ليتملص من الحديث وهو قلق النظرة • غير أن بطلنا كان قد أمسك بكمه • ابتعد الموظفون الذين كانوا على مقربة من صاحبنا يرقبون نتائج الأحداث مستطلعين •

كان السيد جوليا دكين يعرف حق المعرفة أن جميع عواطف المودة كانت متجهة نحو خصمه ؟ وكان يدرك أن مكيدة قد دبرت له • وذلك سبب آخر يدعو الى تأكيد حقوقه • لقد كانت اللحظة حاسمة •

قال سيته وهو يرشقه بنظرة تفيض احتقاراً :

- نعم ؟

وكان السيد جوليا دكين الأكبر لا يكاد يستطيع التنفس • بدأ يقول :

- لا أدري ، أيها السيد ، كيف أفسر سلوكك الغريب معي •

فأجابه السيد جوليا دكين الأصغر وهو يلقي نظرة حوله ، ويشفع النظرة بغمزة للموظفين الذين يحيطون به ، كأنما لينبههم الى أن التمثيلية الهزلية ستبدأ :

- طيب ، أكمل كلامك •

- ان ما يظهر في أساليك من وقاحة واستهتار واستخفاف يدينانك مزيداً من الادانة في الحالة الراهنة ••• يدينانك ادانة يعجز عنها ما قد

أقوله أنا من كلام ... لا تعقد آمالا كثيرة على حيلك فهي خرقاء لا تنطلي
على أحد .

- دعك من هذا الكلام يا ياكوف بتروفتش ! أليس الأحرى أن
تقول لي كيف نمت البارحة ؟

كذلك قال السيد جوليا دكين الأصغر لمحدثه وهو يحدق في عينيه .
فأجابه بطلنا وقد نفذ صبره وأصبح لا يكاد يستطيع الوقوف على
ساقيه من فرط الاضطراب :

- لا تنس نفسك أيها السيد ، وآمل أن تغير لهجتك ...

فقال له جوليا دكين الأصغر وهو يصعر وجهه تصيرة استفزاز :

- ها ... يا عزيزي ...

- ثم اذا هو يقوم بحركة مفاجئة لا يمكن أن يدفع أى شيء على
التنبؤ بها .. فيمسك باصبعه الخد اليمنى الربلة من وجه بطلنا ، على
سبيل المداعبة .

اشتعل بطلنا غيظا . انه الآن أخرس من شدة الحنق ، أحمر اللون
كالجنبرى ، مرتعد الأعضاء جميعا . أدرك خصمه أن بطلنا عيل صبره
فهو يوشك أن يهجم . لذلك سارع يسبقه الى ذلك على أوقع صورة ،
فها هو ذا يربت على خده اليمنى مرتين ، ويدغدغه مرتين ، ملاعبا خصمه
الجامد من الدهول ، الطائش اللب من الحنق ، مرضيا بذلك من كانوا
يحيطون بالرجلين من الموظفين الشباب ؟ ثم ها هو يمضى الى قمة الغطرسة
فيلكز كرش خصمه ويقول له وهو يتسهم ابتسامة تفيض لؤما وغمزا :
« يا لك من ماكر يا عزيزي ... لسوف ندبر لهم مكائد يا ياكوف
بتروفتش ، نعم سوف ندبر لهم مكائد ... » ثم ها هو ذا ، دون أن



يدع لبطلنا فرصة الأوبة الى رشده بعد هذه الهجمة الجديدة ، يتسهم
ابتسامة جديدة على المشهد ، ثم ما يلبث أن يصطنع هيئة رسمية ، هيئة
رجل مشغول جدا ، فيخفض عينيه ، ويتقلص ، ويدمدم بقوله مسرعا :
« هناك مهمة مستعجلة يجب أن أقوم بها » ، ثم يحرك ساقيه القصيرتين
منسلا الى الغرفة المجاورة •

لبث بطلنا على حاله مبهورا مشدوها • انه لا يصدق عينيه ، ولا
يستطيع التخلص من انفعالاته •••

وثاب أخيرا الى صوابه • فسرعان ما أدرك أنه قد ضاع ، أنه قد
صار أضحوكة ، أن شرفه قد تلتخ : أن العار أصبح يجلبه • لقد
استهزى به على مرأى من الناس ، والشخص الذى استهزأ به هو الرجل
الذى كان يعده فى الليلة البارحة خير صديق له • لقد ساءت سمعته الى
الأبد •

واندفع السيد جوليا دكين يلحق بعسوده ، لا يحفل بمن شهدوا
الاهانة ولا يعبأ بهم • قال يردد لنفسه : « انهم متواطئون ، يسرون جميعا
يدا بيد ، ولا يفكر أحد منهم الا فى تحريض الآخر على • • » ومع ذلك
ما كاد السيد جوليا دكين يقطع عشرة أمتار حتى أدرك أن كل ملاحقة
باطلة لا طائل تحتها ولا خير منها ، فعاد أدراجه •

قال يخاطب غريمه بينه وبين نفسه : « لن تفلت منى • سوف تقع
فى فخى عاجلا أو آجلا ••• سوف يسأل الذئب عن دموع الحمل • • »
ووصل الى كرسيه فجلس عليه وهو يفيض حقدا ياردا وتصميما قويا •
« لن تفلت منى ! » كذلك ردد السيد جوليا دكين • لم يبق الأمر
عنده أمر دفاع ، بل أصبح أمر هجوم •
لو رأى أحد السيد جوليا دكين فى هذه اللحظة ، وقد احمر وجهه

من الغضب وأصبح لا يكاد يستطيع أن يسيطر على انفعاله ، لو رآه يغمس ريشته في الجبر ويأخذ يكتب حاتقا ، لقال حتما ان القضية لن تقف عند هذا الحد ، وان بطلنا لن يكتفى قط بحل مبتذل بسيط . ان قرارا جازما فاطعا قد فام في أعماق نفسه . ولقد حلف ليضعنه موضع التنفيذ لامحالة . . . الحق أنه لما يعرف تماما أى سلوك يجب عليه أن يسلك ، أو قل انه لا يعرف ما الذى يجب عليه أن يفعله أصلا . ولكن لا ضير . . . « لا ياسيدى ، ان الاعتصاب والوقاحة لا ينجحان فى هذا الزمان . الاعتصاب والوقاحة سوف يوصلانك الى القوة لا الى السعادة يا سيدى . ان جريشكا أوتريبيف وحده قد وصل الى أغراضه باغتصاب اسم ولقب . لقد خدع شعبا أعمى ، ولم يخدعه زمنا طويلا على كل حال . » .

ورغم هذه الاعتبارات قرر السيد جوليا دكين ، حتى يرد ، أن ينتظر اللحظة التى تسقط فيها جميع الأئمة من تلقاء ذاتها ، فتتكشف عندئذ حقيقة الناس والأشياء . وكان عليه أولا أن ينتظر ساعة انتهاء العمل ، فلا يشرع فى شىء قبل ذلك . هناك اجراءات معينة عليه أن يتخذها عند الخروج من المكتب . حتى اذا اتخذ هذه الاجراءات أصبح يعرف الحطة التى يجب عليه أن يتبعها لتحطيم هذا الصنم الوقح ، لسحق هذه الأفعى التى تقضم الجثة ، هذه الأفعى التى تحقر الضعفاء . ومهما يكن من أمر ، فان السيد جوليا دكين لن يسمح أبدا بأن يعامل كخرقة بالية لا تصلح الا لتنظيف الأحذية المتسخة ؛ انه لن يسمح أبدا بهذا ، ولا سيما فى الظروف الراهنة . لولا هذه الوقاحة الأخيرة ، لكان يمكن لبطلنا أن يقرر ضبط نفسه وكبح جماحه ، ولكن يمكن أن يلتزم الصمت وأن يتجه الى المصالحة دون أن يصر على احتجاجات صاخبة كثيرة . . . ولكن يمكن أن يكتفى بمناقشة قصيرة يؤكد بها حقوقه التى لا تجحد : كان يمكن عندئذ أن يقبل بعض التنازلات فى أول الأمر ، وأن يقبل تنازلات أخرى



بعد ذلك ، وأن ينتهى أخيرا الى قبول تسوية كاملة ، اذا اعترف أعداؤه
صراحة بأنه على حق •

ويمينا انه ليكون مستعدا بعدئذ لمصالحة تامة ، حتى لقد يرق قلبه
فليلا • ومن يدري ، فقد يكون هذا بداية صداقة جديدة ، صداقة وطيدة
حارة ، أقوى وأوسع من صداقة الليلة البارحة أيضا • وفي وسع هذه
الصداقة الجديدة أن تمحو السيئات الناشئة عن هذا التشابه المشؤم بين
شخصيهما محوا تاما ؛ وفي وسعها أن تحمل السعادة الى هذين الموظفين
الذين يستطيعان أن يعيشا عندئذ في سلام وطمأنينة مائة سنة و ...
أكثر من ذلك أن السيد جوليا دكين قد أخذ يندم على تدخله دفاعا عن
حقه تدخلا كان لا بد أن تكون له عواقب سيئة •

قال السيد جوليا دكين لنفسه : « يكفي أن يتراجع ، يكفي أن يعترف
أن هذا كله لم يكن الا سفاسف ، حتى أعفر له وأعفو عنه ... لا سيما
اذا أعلن ذلك جهارا على رؤوس الأشهاد • ولكنني لن أسمح أبدا بأن
أعامل كخرقة بالية • اننى لم أسمح بذلك لأحد فى حياتى : لم أسمح به
حتى لأشخاص أقوى منه ، فكيف أحتمل مثل هذه الاهانة من رجل فاسد
مثله • لست خرقة بالية أيها السيد ، لا لست خرقة بالية • • • ويمكن
تلخيص النتيجة التى انتهى اليها السيد جوليا دكين فى جملة هى التالية :
أنت ، أيها السد ، المسئول الآثم الوحيد عن حالة الامور هذه كلها • • •
لقد قرر السيد جوليا دكين الآن أن يحتج ، أن يدافع عن نفسه ، بجميع
الوسائل ، الى النهاية القصوى • ذلك طبعه • انه لا يستطيع الرضوخ
للاهانة • انه لا يقبل أن يداس كما تداس خرقة بالية • انه لا يقبل هذا ،
ولا سيما من شخص جدير بالاحترار كهذا الشخص • قد يقبل مثل هذا
من شخص يريد بل يعزم عزا ما أكيدا على أن يعامل السيد جوليا دكين
معاملة أتان ، ويتوصل الى ذلك بدون كبير مقاومة منه ، وبدون كبير خطر

على كل حال • هذا أمر كان السيد جوليا دكين يقبله هو نفسه أحيانا •
كان في وسع الرجل أن يجعل من بطلنا خرقة بالية ، خرقة يرثى لها ،
خرقة متسخة ، ولكنها خرقة يمكن أن يكون لها مع ذلك شيء من كرامة ،
ومن حماسة ، ومن عواطف : هي كرامة صغيرة طبعاً ، وهي طبعاً عواطف
فقيرة مكبوتة في الثنايا العميقة المتسخة من الخرقة البالية التعيسة أيضا •••
ولكنها عواطف على كل حال •••

وكانت الساعات تجرى بطيئة بطئاً يبعث في النفس الحزن واليأس •
ودقت الساعة الرابعة أخيراً • فما هي الا لحظات حتى أخذ الموظفون
ينهضون ويتركون المكتب وراء رئيسهم ليمضي كل منهم الى منزله •
اندس السيد جوليا دكين بين الجمهور • كانت عينه ترقب الشخص الذي
كان عليه أن لا يدعه يفلت منه • ورأى بطلنا سميئاً يتجه نحو حراس
المعاطف • كان السيد جوليا دكين الأصغر يثرثر على عادته الكريهة مع
الحارس بانتظار أن يأخذ معطفه • انها لحظة فاصلة • واستطاع السيد
جوليا دكين أن يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور ، لأنه لا يريد أن يكون
بعيدا عن غريمه ، وطلب معطفه هو أيضا ؛ ولكن صديقه ، صديق الليلة
البارحة ، أعطى معطفه قبله • لا شك أن صاحبه قد عرف كيف يتسلل
الى الحارس ويتزلف اليه ويتملقه خفية ، بما عهد فيه من خسة وصغار •
ارتدى الغريم معطفه بسرعة ، وألقى على السيد جوليا دكين نظرة
ساخرة • ذلك تحد سافر واستفزاز مباشر على رؤوس الأشهاد • ثم ألقى
نظرة على ما حوله ، بالغرسة المألوفة فيه ؛ وأراد أن يحتفظ بما حصل
من تفوق على خصمه أمام جميع الناس ، فأسرع يختلط بالموظفين ، يقول
لهذا كلمة ، ويوشوش ذاك لحظة ، ويزجى الى الثالث ملاطفة ، ويتجه
نحو الرابع بابتسامة ، ويصافح يدا من الأيدي ، ثم يهبط السلم خفيفا
مرحاً • هرع بطلنا يجرى في أثره ، فما كان أشد اعتباطه حين استطاع

أن يدركه عند آخر درجة من درجات السلم ! ... وها هو ذا يمسكه من ياقة معطفه ... بدا على السيد جوليا دكين الأصغر غير قليل من الحيرة والارتباك ، ونظر فيما حوله نظرة مروعة ؛ ثم دمدم أخيرا يقول بصوت منطفىء :

- ما معنى هذا ؟

فقال بطلنا :

- أيها السيد ، اذا كنت رجلا محترما ، فليك أن تتذكر ما كان بيننا من علاقات الود والصدقة بالأمس .

- ها ... نعم ... بالمناسبة ، هل نمت نوما طيبا ؟

لم يستطع السيد جوليا دكين أن ينطق بكلمة واحدة من شدة خنقه وغيظه . ثم قال :

- نعم ... لقد نمت نوما طيبا جدا ... ولكن اسمح لى أن أنبهك أيها السيد الى أن لعبتك مرتبكة ارتباكا فظيما .

- من ذا الذى يدعى هذا ؟ ان أعدائى هم الذين يقولونه ...

كذلك أجاب الرجل الذى سمي نفسه للناس جوليا دكين . وبحركة مفاجئة عنيفة تملص من قبضة بطلنا الضعيفة .

ولم يلبث أن وثب الى الشارع بسرعة ، وأخذ ينظر هنا وهناك ، فلما لمح عربة جرى نحوها مسرعا ، واختفى عن عيني السيد جوليا دكين الأكبر . بقى بطلنا وحيدا ، مهجورا من جميع الناس ، فريسة غم شديد وحزن رهيب . نظر فيما حوله ، ولكنه لم يبصر أية عربة . أراد أن يركض ولكن ساقيه ترنحتا . استند بجسمه الى عمود من أعمدة الغاز ، منقلب الرأس ، فاغر الفم ، منقلص الظهر ، خائر القوى . ولبث على هذه الحال فى وسط الرصيف لحظات طويلا . كان يبدو للسيد جوليا دكين أن كل شىء قد ضاع .

الفصل التاسع



جميع الناس متواطئون على السيد جوليا دكين ،
وكان الطبيعة نفسها متواطئة عليه • ولكن السيد
جوليا دكين ظل واقفا لا يريد أن يعترف بالهزيمة •
لا ••• انه لم يهزم ••• انه لم يغلب ••• ذلك
شيء يحسه ••• وهو مستعد لأن يصارع ••• ولقد بلغ من القوة
والحماسة في حرك يديه احديهما بالآخرى ، بعد انقضاء لحظة الذهول
الأولى ، انه يكفي المرء أن يرى وضعه حتى يصبح على يقين من أنه لن
يدعن بحال من الأحوال • ولقد كان الخطر واضحا مع ذلك • ان السيد
جوليا دكين يدرك هذا حق الادراك •

وكيف كيف السبيل الى تفاديه ؟ هذا هو السؤال • ولعل في رأسه
فكرة في لحظة من اللحظات : « أليس الأفضل أن يدع الأمور تجري
على أعتابها ، وأن يتراجع لا أكثر ولا أقل ؟ لماذا لا ؟ لماذا لا ؟ أبعد •••

كان الأمر لا يعينى فى شىء أترك القضية تجرى من تلقاء ذاتها ،
فلا أتدخل الأمر لا يعينى وكفى ! ولعله يرضخ ويدعن هو
أيضا يدور كما يدور الحذروف ، هذا الفاسق ، ثم يدور ويدور ،
ثم يتوقف راضحا مدعنا نعم ، هو كذلك ، سأنتصر عليه بالأذعان .
ولكن أين الخطر فى الواقع ؟ أى خطر هنالك ؟ ليت أحدا يقول لى أين
يوجد الخطر ! . . . قضية تافهة . . . قضية مضحكة . . . لا أكثر » .

هنا توقف السيد جوليا دكين . جمدت الكلمات على لسانه . أنسب
نفسه أشد التأنيب على هذه الخواطر . وسرعان ما اتهم نفسه بالحقارة
والجبانة . ولكن هذا لا يقدم أموره خطوة واحدة . كان يحس احساسا
واضحا بأنه لا بد فى هذه اللحظة من اتخاذ قرار . وكان يحس أيضا
بأنه مستعد لأن يدفع أى ثمن لمن يرشده الى حل . ولكن كيف يستطيع
أن يجد هذا الحل بنفسه ؟ ثم ان وقته لا يتسع للبحث عن هذا الحل .
وها هو ذا يستأجر عربة ويأمر سائقها بأن يقوده الى بيته ، حتى لا يضع
كثيرا من الوقت سدى . سأل نفسه : « والآن ، كيف حالك ؟ كيف حالك
فى هذه اللحظة يا ياكوف بتروفتش ؟ ما الذى ستفعله ؟ ما الذى تنوى أن
تفعله الآن أيها الجبان ، أيها الرعديد ؟ لقد صنعت كل شىء حتى وصلت
الى ما وصلت اليه ، وهاءنت ذا تأخذ تباكى وتشكى ! » . هكذا كان
السيد جوليا دكين يستهزئ بنفسه بينما كانت رجات عريته العتيقة تهزه
وتقاذفه يمنا ويسرة . ان هذه الاستهزاءات المرة الكاوية التى تنكأ
جروحه تحدث الآن فى نفسه أقوى لذة بل أكبر متعة .

قال يخاطب نفسه : « تصور لحظة أن ساحرا ظهر أمامك الآن
فجأة - ساحرا أو أى انسان آخر يملك قدرات فوق الطبيعة - فقال لك:
اعطني اصبعاً من أصابع يدك اليمنى يا جوليا دكين فأسوى لك الأمور ،
فلا يكون هنالك بعدئذ جوليا دكين آخر ، وتعيش سعيدا بغير اصبع . . .

ألا انى مستعد لأن أعطيه الاصبع التى يطلبها ... لسوف أعطيه اياها
حتما ... لسوف أعطيه اياها دون أن تطرف لى عين ... » •
وصاح الموظف المسكين أخيرا يقول وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ:
تباً لهذا كله ... لماذا هذه المصائب جميعها؟ لماذا يجب أن يقع لى كل
هذا ، لماذا يجب أن يقع لى هذا بعينه ، لا أى شىء آخر غيره؟ وكان كل
شىء يجرى على ما أحب قبل ذلك ... كنت راضيا وكنت سعيدا ...
فهل كان لا بد أن يقع لى ما وقع؟ ... مهما يكن من أمر فلن نصل الى
شىء بالأقوال وحدها ، وانما يجب أن تقرر الأقوال بأفعال • • •

وبينا هو بهم أن يتخذ قرارا دخل الى مسكنه ، فتناول غليونه دون
أن يضع لحظة واحدة ، وأخذ ينشق بكل ما أوتى من قوة ، نافثا سحاب
الدخان فى كل اتجاه هنا وهناك ، سائرا فى الغرفة جيئة وذهابا ، وقد
تملكه انفعال شديد • وفى أثناء ذلك أخذ بتروشكا يعد المائدة • فما هى
الا لحظات حتى كان بطلنا قد اتخذ قراره الحازم الذى لا رجعة عنه •
فرمى غليونه ، وأسرع يرتدى معطفه ويخرج من المنزل قائلا لحادمه انه
لن يتعدى اليوم فى البيت • وفيما كان يهبط السلم أدركه بتروشكا
لاهتا وهو يمد اليه قبعة التى نسي بطلنا أن يأخذها من فرط تعجله •
فتناول جوليا دكين القبعة وأراد أن يقول بضع كلمات عرضا من أجل أن
يبرر هذا النسيان حتى لا يظن بتروشكا الظنون فى تعليل اضطرابه ،
ولكن بتروشكا لم يتنازل أن يلقى عليه نظرة واحدة ، بل عاد أدراجه •
فلم يسع السيد جوليا دكين الا أن يضع القبعة على رأسه مستغنيا عن أى
تبرير ، وأسرع يهبط السلم وهو يدمدم بأن كل شىء يمكن أن يسوى
على أحسن وجه • وكان يحسن مع ذلك برعدات تسرى فى جسمه كله
من الرأس الى القدمين • واستوقف حوذا وأمره أن يمضى به الى منزل
أندره فيليوفتش •

قال لنفسه فجأة وهو يهم أن يشد حبل جرس منزل آندره فيليوفتش : « ولكن أليس الأفضل أن أرجىء هذه الزيارة الى الغد ؟ »
 ثم ماعسانى قائلا له ؟ ليس ثمة شيء ذو بال أقوله له . . . ماذا أقول له ؟
 المسألة تافهة فى الواقع ، المسألة تافهة لا قيمة لها . . . هى مسألة تافهة
 تافهة مطلقة . . . هى مسألة صغيرة حقيرة ليست بذات شأن . . . أو
 لا يكاد يكون لها شأن . . . وما هى بالمسألة الخطيرة على كل حال . . . »
 وفجأة شد السيد جوليا دكين حبل الجرس . فسمع صوت الجرس
 يرن فى داخل البيت ، ثم سمع وقع خطوات تتجه نحو الباب . لعن السيد
 جوليا دكين نفسه على هذا التعجل وهذا التهور . وسرعان ما تذكر مشكلاته
 الأخيرة ومشاداته الأخيرة مع آندره فيليوفتش ، التى كانت قد انتقلت الى
 المحل الثانى من اهتمامه ، بسبب وجود ما هو أشد منها لاجابة عليه .
 ولكن أوان الهروب كان قد فات ، فها هو ذا الباب يفتح . وشاء حسن
 حظ بطلنا أن يقال له ان آندره فيليوفتش لما يعد من المكتب ، وانه لن
 يتعدى اليوم فى المنزل . قال صاحبنا يخاطب نفسه هاذيا من شدة الفرح :
 « أنا أعرف أين يتعدى . . . لاشك أنه يتعدى قرب جسر اسماعيلوفسكى . »
 وسأله الخادم هل من رسالة ينقلها منه الى مولاه ، فأجابه جوليا دكين
 بقوله : « لا يا صديقى ، شكرا ، ليس هناك شيء . . . سأعود مرة
 أخرى . . . » . قال جوليا دكين ذلك وأسرع يهبط السلم فرحا كل
 الفرح .

حتى اذا صار فى الشارع فقد الحوذى أجره وطلب اليه أن ينصرف
 فطالبه الحوذى بزيادة قائلا : « لقد انتظرت مدة يا سيدى ، ولم أرحم
 حصانى فى سبيل خدمتك » ، فكافأه السيد جوليا دكين بخمسة كوبكات
 مبهتجا ، ومضى يسير على قدميه .
 قال لنفسه وهو فى الطريق : « المسألة حرجة . . . ولا يسع المرء

أن يهملها . ولكننى اذا فكرت فى الأمر مليا أرى أنه من غير المفيد أن أفلق نفسى الآن . ما فائدة أن أجتز الحكاية نفسها فأعكر صفوى وأحق نفسى ؟ ما فائدة هذا العذاب وهذا الاضطراب وهذا الألم أسببه لنفسى ؟ ما جدوى أن أمزق قلبى ؟ ما كان فقد كان ولا حيلة لى فى العودة عنه ولا فائدة من الرجوع اليه هلا فكرت قليلا : هذا انسان أقول هذا انسان حمل رسائل توصى به خيرا وهو فيما يقال من معدن طيب خليق بأن يجعله موظفا ناجحا وسلوكه لا غبار عليه . وهو الى ذلك فقير قاسى فى حياته ألما كثيرة ، ولقى متاعب جمّة من كل نوع . والفقر ليس بعيب . فما شأنى أنا فى الأمر ؟ »

« وما هى القضية فى الواقع ؟ لقد شامت نزوة من نزوات الطبيعة أن يكون بينى وبين هذا الانسان تشابه كبير كتشابه قطرتى ماء ، حتى لكأنه نسخة منى حقا ؛ فهل يرفضون توظيفه لهذا السبب ؟ اذا كان القدر ، نعم اذا كان القدر الأعمى هو المسئول عن هذا التشابه ، فهل يداس الرجل كما تداس خرقة بالية ، وهل يمنع من حق العمل ؟ أين العدالة فى هذا ؟ انه رجل فقير مهجور أعزل ، ينفطر القلب لرؤيته . فالبر والاحسان والمحبة توجب حمايته وتأمير برعايته . نعم ، ذلك هو الأمر تماما . هل على رؤسائنا أن يفكروا فى القضية على نحو ما فكرت أنا فيها من قبل ؟ يا لغبائى ! يا لحماقتى ! ألا انتى حيوان كمشر حيوانات بلاهة من حسن الحظ أن رؤساءنا قد أحسنوا عملا فضموا الفقير المسكين لأفرض أننا توأمان ، نعم ، لأفرض أننا أخوان توأمان منذ الولادة ، وكفى ! هل فى هذا شىء خارق للمألوف ؟ أبدا ومن الممكن تعويد الموظفين الآخرين على هذه الفكرة أنا واثق أنه اذا دخل الى مكتبنا شخص غريب لما رأى فى هذا التشابه ما يسىء الى الكرامة أو يجرح الشعور حتى لقد يكون فى ذلك جانب يبعث على المحبة ،

وذلك على أساس الفكرة التالية : لقد أرادت مشيئة الله أن تخلق مخلوقين
 متشابهين تشابها كاملا فأحدهما « مثل » الثانى .. والرؤساء الكرام فهموا
 مشيئة الله فضموا التوأمين فى كنفهم ومنوا عليهما بالرعاية والحماية .. «
 واسترد جوليا دكين أنفاسه ، ثم عاد يقول وقد خفض صوته قليلا :
 « صحيح أنه كان من الأفضل أن لا يقع شيء من هذا أصلا ... لا تلك
 المصادفة التى تثير عاطفة المحبة ، ولا قصة التوأمين هذه ... ما كانت
 حاجتنا الى كل هذا ؟ لقد كان فى الامكان أن يستغنى عن القضية كلها
 أساسا ... رباة ! ما هذه الورطة التى أقحمنا فيها هؤلاء الجبن ، هؤلاء
 الشياطين ! ويجب الاعتراف على كل حال أن سلوكه لا يدل على شيء من
 خلق كريم ... ثم انظر الى وجهه الباش الذى ينم عن النفاق ... انه
 لانسان ماكر حقا ... انسان متجسس ، عبد متزلف حقير ، هذا
 الجوليا دكين ! ... انه لن يتورع عن تلميح شرفى بسلوكه الدنىء ، هذا
 الوغد ! .. يجب على أن أراقبه ! يا لهذا العمل من سخرة ! .. ولكن
 هل هذا مفيد حقا ؟ انه حتما غير مفيد ... هو رجل نذل ما فى ذلك
 ريب ... أما أنه نذل فهو نذل ... وسيظل نذلا . ولكن الآخر رجل
 شريف . طيب .. فليق هو نذلا ولا بق أنا شريفا . وسيقول الناس :
 جوليا دكين هذا نذل جبان فلنشح عنه ولا نخلطن بينه وبين الآخر ! أما
 جوليا دكين ذلك فهو شريف فاضل دمث مسالم فيمكن الاعتماد عليه فى
 العمل ، ويستحق ترقية من غير شك . هذه هى المسألة ... ولكن ...
 ماذا لو خلطوا بيننا ! هو لا يتورع عن شيء ... هو لا يتورع عن انتحال
 شخصية رجل آخر ... نعم هو لا يتورع عن ذلك أبدا ... وهو
 لا يتورع عن احالة ذلك الرجل الأخر الى خرقه بالية ... آه ...
 يا رب ! يا رب ! ما هذه النازلة ! ... »

وفيما كان السيد جوليا دكين ممثلاً بهذه الخواطر كان يضرب فى

الأرض على غير هدى ، لا يعرف الى أين تقوده قدماءه • ولم يثب الى
رشدته الا حين صار في شارع نفسكى • وكان لابد أن يثوب الى رشدته
في الواقع ، لانه اصطدم بأحد المارة اصطداما عنيفا ، فتمتم بوضع كلمات
اعتذار دون أن يرفع رأسه وكان الرجل الذي اصطدم به قد ابتعد بعد
أن نطق ببعض الشتائم • رفع السيد جوليا دكين رأسه ونظر فيما حوله •
فلاحظ عندئذ أنه على مقربة من المطعم الذي استراح فيه قبيل ذهابه الى
تلك السهرة في منزل أولسوفى ايفانوفتش • فسرعان ما أحس بقرصات
في معدته ، فتذكر أنه لم يتناول غداءه بعد ؛ واذا كان من جهة أخرى غير
مدعوا الى الغداء عند أحد فقد أسرع يصعد درجات سلم المطعم وقد قرر
أن يأكل لقمة على عجل •

الأسعار غالية قليلا ، ولكن غبنا يسيرا كهذا ليس من شأنه أن يوقف
السيد جوليا دكين ، فلا قيمة لمثل هذه السفاسف عنده في لحظات كهذه
اللحظات • في قاعة تتلألأ فيها الأنوار كان حشد كبير من الزبائن يزدحم
حول البسطة التى مدت عليها ألوان من المقبلات ترضى أشد الأذواق
رهاقة • وكان القيم على البسطة غارقا فى العمل لا يكاد يستطيع خدمة
الزبائن جميعا ، فهو يسكب الشراب ، ويقدم الأطباق ، ويتقاضى الأثمان ،
ويرد البواقي • اتخذ السيد جوليا دكين مكانه فى الصف ، حتى اذا جاء
دوره مد يده الى فطيرة صغيرة فتناولها ، ثم مضى الى أحد الأركان يأكلها
بشهىة كبيرة مديرا للحضور ظهره • فلما فرغ من التهامها عاد الى البسطة
فردّ الطبق • واذا كان يعرف الأسعار فقد أخرج قطعة من النقد بعشرة
كوبكات ووضعها على البسطة وهو يبحث بنظره عن البائع ليدله على أن
هذه الكوبكات العشرة هى ثمن فطيرة صغيرة أكلها •

فهمهم البائع يقول بين أسنانه :

— عليك روبل وعشرة كوبكات •

فدهش السيد جوليا دكين دهشة شديدة •

- أتخطبني أنا؟ يخيل الى أنني لم آخذ الا فطيرة واحدة •

فقال البائع مؤكداً :

- بل أخذت احدى عشرة فطيرة •

- ماذا تقول؟ ... يخيل الى أنك على خطأ ... فأنى واثق تقريبا

من أنني لم آخذ الا فطيرة واحدة •

- عددت الفطائر التي أخذتها • لقد أخذت احدى عشرة فطيرة •

على الانسان حين يتناول طعامه بنفسه أن يعرف كيف يدفع ثمن ما أخذ •
نحن لا نقدم هنا هدايا! ...

صعق السيد جوليا دكين •

وساءل نفسه : « أتراني سحرت؟ »

وكان البائع فى أثناء ذلك ينتظر قسرا بطلنا • وكان الناس قد

أخذوا يتحلقون حوله • فدرس يده فى جيبه وأخرج منها قطعة فضية
بروبل واحد ، مقررًا أن يدفع على الفور ، حتى لا يتعرض لارتكاب
خطيئة ...

قال لنفسه وقد احمر وجهه حتى صار بلون الجبرى : « طيب ••

فلأدفع ثمن احدى عشرة فطيرة ما دام يصر على ذلك ... لا غرابة فى
أن يأكل امرؤ احدى عشرة فطيرة ... هنيئاً مريناً ... ومهما يكن من
أمر فليس فى هذا ما يثير الدهشة أو يبعث على الضحك ... »

وفجأة ساور السيد جوليا دكين حدس سريع • فما ان رفع عندئذ

بصره حتى فهم كل شىء ، وأدرك سر السحر ... تبددت الشبهات كلها
دفعة واحدة ... فعلى عتبة الباب المؤدى الى الغرفة المجاورة ، وراء ظهر

البائع ، أى أمام بطلنا تماما ، عند فرجة الباب الذى كان السيد جوليا دكين
يظنه حتى ذلك الحين مرآة هنالك كان يقف رجل قصير لا شك
فى أنه السيد جوليا دكين نفسه لا جوليا دكين الأصلي ، لا جوليا دكين
القديم ، بطل هذه القصة ، بل جوليا دكين الآخر ، جوليا دكين الجديد .
وكان واضحا أنه مبتهج جدا . انه يتسم ابتسامة وقحة ، ويتجه الى بطلنا
بإشارات من رأسه وغمزات من عينيه . وهو يتحرك فى مكانه متهيئا
للهرب الى الغرفة المجاورة عند أول بادرة ، وللانسلاخ من هنالك الى
الخارج عن طريق سلم الخدمة ، فتستحيل عندئذ مطاردته وكان يمسك
بيده آخر قطعة من الفطيرة العاشرة ، وها هو ذا يلتهمها على مرأى من
بطلنا مطلقا بلسانه تعيرا عن الغبطة والحبور . . .

قال السيد جوليا دكين لنفسه وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ،
واحترقت نفسه شعورا بالحجل والعار : « استغل الحقيير التشابه بيننا ولم
يستح أن يفعل هذا أمام الناس أتراهم أدركوا ذلك ؟ أتراهم
يبدرونه ؟ يظهر أن أحدا لم يشعر بهذا الاتحال » . قذف السيد
جوليا دكين قطعة النقد الفضية على البسطة كما لو كانت تحرق أصابعه ،
ثم انسل من خلال الحشد وخرج ، حتى دون أن يلاحظ الابتسامة الوقحة
التي ظهرت فى وجه البائع ، وهى ابتسامة تعبر عن ظفروه وتشهد بسيطرته
الهادئة على نفسه .

قال جوليا دكين لنفسه : « هو سعيد لأنه لم يذهب بكرامتى تماما .
نعم ، يجب أن أشكر لهذا اللص وان أشكر للقدر أن الأمور قد سويت
أخيرا . صحيح أن هذا البائع كان فظا . ولكن يجب الاعتراف بأنه كان
على حق . ان له روبلا وعشرة كوبات حقا . هذا طبعى ما من
أحد يعطى شيئا بالمجان فى بلادنا . ومع ذلك كان فى وسعه أن يكون
أكثر دماثة ، هذا المتحذلق ! »

بهذا كان السيد جوليا دكين يحدث نفسه وهو يهبط السلم • حتى اذا بلغ الدرجة الأخيرة من درجات المدخل توقف على حين فجأة متجمدا • صعد الدم الى وجهه ، وظهرت في عينيه الدموع • كان في ذروة الألم والشعور بالذل • وظل جامدا على هذه الحال قرابة نصف دقيقة ، ثم قرع الأرض بقدمه قرعة قوية ، وفضز الى الرصيف بوثة واحدة ، وأخذ يركض كمنجنون لا يلتفت الى وراء ولا يلوى على شيء • ركض نحو بيته في شارع « الدكاكين الست » لاهثا دون أن يشعر بالتعب ، فما ان وصل حتى جلس على الديوان وتناول معجزة وريشة وأخرج ورقة وأخذ يكتب بيد ترتعش انفعالا (فعل ذلك قبل أن يخلع معطفه ، خلافا لعاداته اللطيفة ، وقبل أن يحشو غليونه) • واليك الرسالة التي حررها •

السيد المحترم يا كوف بتروفتس ،

« ما كان لي أن أتناول القلم لولا أن الظروف الراهنة بالاضافة الى سلوكك يا سيدي تجبرني على ذلك اجبارا • فصدقني اذا قلت لك ان الضرورة وحدها هي التي تلزمني بأن أدخل معك في شروح كهذه ؛ لذلك أرجوك أولا أن لا تعد عملي هذا جوابا على ما بدر منك من اهانات ، جوابا فكرت فيه مليا ثم عزمت عليه أخيرا ، بل نتيجة لا معدى عنها للظروف التي تحيط بمصيرنا المشترك » •

قال السيد جوليا دكين لنفسه وهو يعيد قراءة ما كتب : « يبدو لي أن هذا جيد جدا • فهو محتشم ومهذب ، ولا يخلو مع ذلك من قوة وصلابة ••• لا شيء فيه يؤذي الشعور أو يهين الكرامة فيما يخيل الى •

ثم ان هذا من حقي ••• »

واستأنف يتم كتابة رسالته :

« ان ظهورك المفاجيء الغريب فى تلك الليلة العاصفة التى كنت أنا فيها ضحية هجوم وحشى وعدوان آثم من أعدائى الذين أترفع عن ذكر أسمائهم الآن احتقارا لهم ، كان نواة جميع أنواع سوء التفاهم القائمة بيننا الآن ...»

« ثم ان اصرارك يا سيدى على أن تركب رأسك وعلى أن تتدخل عنوة فى حياتى ، العامة والخاصة ، أمر يتجاوز الحدود التى تفرضها أبسط مبادئ الأدب وأدق قواعد التعامل بين الناس فى هذه الحياة • من نافل القول أن أذكرك بما فعلت يا سيدى حين اغتصبت أوراقي وحين غششت وخادعت على حساب سمعتى ، بهدف الحصول على رضى رؤسائنا وهو شىء لا تستحقه البتة • ومن نافل القول أيضا أن أفيض فى الكلام على أسلوبك المهين المقصود الذى عمدت اليه للتهرب من مفاتحتك فى الأمر مفاتحة كان لا بد منها •»

« ولا أريد أخيرا أن أشير الى تصرفك الغريب فى المطعم - أقول الغريب حتى لا أقول الشاذ - ولست أحب طبعاً أن أندب رويلا لا قيمه له عندى ، ولكنى لا أستطيع أن أكظم استيائى حين أتذكر تلك الطعنة التى وجهتها الى شرفى يا سيدى ، وذلك بحضور أشخاص لا سك فى أنهم أناس يتمون الى بيئة راقية رغم أنى لم أشرف بمعرفتهم ...» •

قال جوليا دكين يخاطب نفسه : « أترانى لم أسرف ؟ أترانى لم أبالغ ؟ هذه الاشارة الى البيئة الراقية ، أليس لها وقع مهين ؟ ... ولكن لا بأس ... فلا بد من اظهار شىء من الحزم والصلابة • ومع ذلك أستطيع لتخفيف وقع ذلك فى نفسه أن أدس فى آخر الرسالة ملاطفة من الملاحظات تتملقه وترضيه • فلنر ماذا نستطيع أن نفعل من أجل هذا •»

« ما كنت لأسمح لفسى أن أزعجك برسالتى هذه يا سيدى لولا

اقتناعى العميق بأن نبل عواطفك واستقامة خلقك سيمليان عليك الاجراءات
التي ينبغى لك اتخاذها اصلاحا لما أفسدت حتى تعود الأمور الى ما كانت
عليه فى الماضى •

« وانى ، والأمل يملؤنى ، لأسمح لنفسي أن أعتقد أنك لن ترى
فى رسالتى هذه ما يؤذى شعورك أو يخدش كرامتك ، وأنتك لن تضن
علىّ برسالة تبعث الىّ بها مع خادمى شارحا الأمر •
» وابتظار جوابك يشرفنى يا سيدى أن أكون خادمك المخلص
جدا :

ى جوليا دكين

ما ان فرغ جوليا دكين من كتابة رسالته حتى قال لنفسه : « عظيم !
سويت المسألة ••• وصلنا فى الأمر الى مرحلة المراسلة • ذنب من هذا ؟
هو ذنبه طبعاً ! انه هو الذى أجبأت الى ضرورة مفاتحته كتابة • أنا على
حق ••• »

وأعاد السيد جوليا دكين قراءة رسالته مرة أخيرة ، ثم طواها ووضعها
فى ظرف ، ونادى بتروشكا • دخل الخادم متورم العينين من النعاس على
عادته • وكان يبدو عليه أنه منزوع انزعاجا شديدا •
قال له مولاه :

– سوف تحمل هذه الرسالة يا صديقى ••• هل تفهم ؟

ولكن بتروشكا ظل أبكم لا ينطق •

– سوف تأخذ هذه الرسالة فتحملها الى القسم الذى أعمل فيه من
المكتب ؟ وهناك سوف تسأل عن الحاجب المناوب ، وهو اليوم فإخرامايف
••• هل تفهم ؟

- أفهم •

- أفهم ••• ألا تستطيع أن تقول : نعم أفهم ياسيدي ؟ طيب •••
ستسأل اذن عن المستخدم فأخرا مايف ، فتقول له ، اسمع : ان
مولاي يبعث اليك بتحياته ويرجوك ضارعا أن تبحث في دفتر العناوين
الموجود في دائرتنا عن المكان الذي يسكن فيه الموظف جوليا دكين •
ظل بتروشكا أخرس لا ينس بحرف • وخيل الى السيد جوليا دكين
أنه رأى ابتسامة تلم بشفتيه •
- طيب • اذن ستسأله عن عنوان ذلك الموظف الجديد الذي يسمى
جوليا دكين •

- حاضر •

- ستسأله عن هذا العنوان ، فمتى حصلت عليه مضيت تحمل الرسالة
الى ذلك العنوان الذي سيذكره لك • هل تفهم ؟
- أفهم •

- فإذا وصلت الى المكان •• أقصد المكان الذي حملت اليه الرسالة ،
فرايت أن السيد الذي عليك أن تسلمه الرسالة ••• أعني جوليا دكين
هذا ••• مالك تضحك يا أبله ؟

- لست أضحك • ليس هناك ما يدعو الى الضحك • ذلك أمر
لا يعنيني • لا شأن لي أنا • لا شيء في نظري بمضحك •

- طيب ••• في هذه الحالة ، اذا رأيت أن ذلك السيد قد أخذ
يسألك عن مولاك كيف حاله ، أقصد كيف صحته ••• أعني اذا ألقى
عليك أسئلة من هذا النوع ••• فلا تجبه بشيء ، وحسبك أن تقول له :
« مولاي بخير ••• وهو يرجوك أن تبعث اليه بجواب مكتوب • » • هل
فهمت ؟

- فمهمت •

- الأمر واضح اذن • تقول له : « مولاي بخير ••• صحته جيدة ••• وهو يتهيأ لزيارة بعض الأصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتوبا • »
••• وهو يتهيأ لزيارة بعض الاصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتوبا • •
فمهمت ؟

- اذن فاذهب • آه من هذا الأبله كم يتعبني ! انه يقضى وقته مستهزئا ••• مم يضحك ؟ ألا انتي في مأزق رهيب ! أنا حقا في مأزق رهيب ! على كل حال ، قد تكون الخاتمة حسنة ••• ان هذا الوجد سينفق ساعتين كاملتين متسكما في الطريق ••• لا شك أنه سيتوقف في مكان ما ••• يستحيل على المرء أن يعهد اليه بمهمة • آه ••• ما هذه المصيبة ، ما هذه المصيبة التي تسقط على رأسي ! •••

كان بطلنا شاعرا بجميع المصائب التي نزلت عليه ، فقرر أن يهدىء روعه قليلا ، خلال ساعتين على الأقل ، بانتظار عودة بتروشكا • وظل يضطرب في الغرفة ساعة برمتها : دخن غليونا ثم تركه ، وحاول أن يقرأ ، واضطجع أخيرا على الأريكة وتناول غليونه مرة أخرى ، ثم استأنف طوافه المسعور في الغرفة • ودَّ لو يتأمل ، لو يفكر ، ولكنه كان عاجزا عاجزا مطلقا عن تركيز ذهنه • كان وضع الانتظار هذا أشبه باحتضار • فقرر أن يغير خطته • قال لنفسه : « ان بتروشكا لن يعود قبل انقضاء ساعة • فأستطيع أن أضع المفتاح عند بواب العمارة ، وأن أستفيد من هذا الوقت في القيام بتحريات ••• في القيام بتحريات أتولاها بنفسى • » • ثم لم يلبث ، لرغبته في القيام بهذه التحريات على وجه السرعة دون أن يضيع لحظة من وقت ، لم يلبث أن تناول قبعة وخرج الى فسحة السلم فأغلق الباب بالمفتاح دورتين ، ومضى الى البواب فأودعه

المفتاح وأعطاه مع المفتاح « بقشيشا » عشر كوبيكات • يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن السيد جوليا دكين قد أصبح في هذه الآونة الأخيرة كريما كرما لم يمهده مثله فيه • وخرج السيد جوليا دكين الى الشارع وانطلق الى الهدف الذي رسمه لنفسه • سار أولا نحو جسر اسماعيلوفسكى فلما بلغه بعد نصف ساعة ، دخل بغير تردد الى فناء العمارة التي كان يعرفها حق المعرفة ، ورفع عينيه نحو نوافذ مسكن مستشار الدولة بيرنديف •••

كانت جميع النوافذ مظلمة الا ثلاثا تحجبها ستائر حمراء • فقال بطلنا لنفسه : « ليس لدى أولسوفى ايفانوفتش مدعوون في هذا المساء ، والأسرة كلها باقية في المنزل • » •

لبث السيد جوليا دكين لحظة طويلة في فناء العمارة مترددا لا يدري ماذا يفعل • وأوشك أن يتخذ قرارا لكنه غير رأيه في آخر لحظة ، فحرك يده بإشارة تدل على التامل ، وغادر المكان • قال لنفسه وهو في الفناء : « لا ••• ما الى هنا يجب أن أجيء ! ما عسانى فاعلا هنا ؟ ••• الأفضل أن أمضى أقوم بتحرياتي بنفسى ••• » • فلما اتخذ هذا القرار انبج نحو مكتبه • كان عليه أن يسير مسافة طويلة شاقة في الوحل • وكان الثلج المبلل يتساقط أسنخا كبيرة • ولكن بطلنا كان في ذلك اللحظة لا يبالي العقبات • لقد تبلل حتى العظام ، وتلوث بالطين ، ولكنه لم يكن يعبأ بذلك كله • « المهم أن أبلغ الهدف المرسوم » ، كذلك كان يردد لنفسه • وكان السيد جوليا دكين يقترب من غايته فعلا • فها هو ذا يبصر من بعيد أمامه تلك الكتلة القاتمة ، ذلك المبنى الضخم الذي تشغله الادارة العامة • قال لنفسه : « قف •• الى أين أنا ذاهب ؟ ما عسانى فاعلا هنا ؟ ••• هبنى عرفت العنوان ! ••• ان بتروشكا سكوي أثناء هذا الوقت قد عاد الى

البيت حاملا جوابه ... فأنا اذن أضيع وقتنا ثمينا ... لقد بددت وقتي
سدى ! على كل حال ، لا ضير ... ما زلت أستطيع أن أتدارك كل شيء
... ولكن ألا يكون من المفيد حقا أن أذهب الى فاخرامايف ؟ ... لا
... لا داعى الى ذلك .. سأذهب اليه فى آن آخر .. اه .. لم يكن بى
آية حاجة الى الخروج من البيت .. هذه خصلة فى طبعى .. دائما
متعجل ، سواء أكان هناك ضرورة أم لم يكن هناك ضرورة .. دائما
متعجل الى استباق الأحداث ... همم .. كم الساعة الآن ؟ انها تقارب
التاسعة ولا شك .. فماذا اذا عاد بتروشكا فلم يجد أحدا ؟ حقا لقد
ارتكبت بالخروج حماقة ... آه ... ما كان أغناني عن هذه المغامرة ! »
بعد هذا الاعتراف الصادق بأن سلوكه كان حماقة ، أخذ بطلنا
يركض نحو مسكه فوصل اليه لاهتا يكاد يخنق ، فأعلمه الخفير أنه لم
ير حتى الآن أثرا لبتروشكا .

قال بطلنا لنفسه : « تماما ... هذا ما توقعته ... ومع ذلك فالساعة
الآن هى التاسعة ! .. يا للوغد الدنيء ! .. انه لا ينفك يسكر ! رباه
رباه ! ما هذه الأقدار ! يا لهذا اليوم من يوم ! .. » .

وصعد السيد جوليادين السلم ممتلىء الرأس بهذه الخواطر وهذه
الشكاوى ، ففتح باب بيته ، وأشعل شمعة ، وخلع ملابسه ، ثم اضطجع
على الديوان جائعا مرهقا مكدودا محطم الأعضاء ، ينتظر عودة بتروشكا .
الشمعة تسكب ضياءها الشاحب على الجدران ... لبث السيد جوليادين
زمتا طويلا يفكر وينظر حواليه ، الى أن نام آخر الأمر نوما كالرصاص
ثقلًا .

ثم لم يصح من نومه الا فى ساعة متأخرة . كانت الشمعة قد ذابت
تقريبا فهى الآن تدخن وتوشك أن تطفى . نهض السيد جوليادين

بوثة ، وشخف وانتفض ، فسرعان ما تذكر كل شيء ، نعم كل شيء .
انه يسمع شخير بتروشكا قويا من وراء الحاجز . وهرع نحو النافذة .
ما من ضياء فى الأفق . وفتح كوة من السكوى . ان كل شيء صامت .
المدينة نائمة ، كأنها ميتة . لا شك أن الساعة هى الثانية ، وربما الثالثة
... وانطلقت ساعة الحائط تدق دقتين . أسرع السيد جوليا دكين الى
حجرة خادمه .

فاستطاع بعد جهود كثيرة أن يوظفه ويوقفه . وكانت الشمعة قد
انطفأت أثناء ذلك . فأنفق السيد جوليا دكين ما يزيد على عشر دقائق فى
البحث عن شمعة أخرى وفى اشعالها . فلما عاد الى بتروشكا وجده قد
نام من جديد .

« وغد دنىء ، خليع حقير .. هلا صحوت ؟ هلا قمت ؟ » كذلك
أخذ يردد السيد جوليا دكين وهو يحاول أن يوظف بتروشكا . واستطاع
بعد نصف ساعة من جهود متصلة أن يوظفه آخر الأمر . فنقله الى غرفته ،
فلاحظ عندئذ أنه منطفيء سكرًا ، لا يكاد يستطيع الانتصاب على ساقيه :
- يا كسلان ، يا وغد ، يا لص ! هل تعرف أنك تطعن قلبى ، هل
تعرف أنك تقتلنى قتلا ؟ آه يا رب ! ترى ماذا صنع برسالتى يارب ! ماذا
صنع بها ؟ ولماذا كتبت أنا هذه الرسالة ؟ ماذا كانت حاجتى الى كتابتها ؟
اندفعت مرة أخرى فى حماسة لا داعى اليها ! غرورى هو الذى حضىنى !
غرورى هو الذى ورطنى ... ماذا صنعت برسالتى يا لص ؟ لمن
أعطيتها ؟

- ما أعطيتها لأحد ... ثم لم يكن معى رسالة ...

عض السيد جوليا دكين يديه من شدة حنقه ؟ ثم قال لخادمه :
... استمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

– سأسمع •

– الى أين ذهبت ؟ أجنبي !

– الى أين ذهبت ؟ ••• ذهبت الى عند أناس طيبين ••• ليس هذا

عيبا •••

– رباه رباه ! ولكن قل لي الى أين ذهبت أولا؟ هل مررت بالادارة؟

••••• إستمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

– أنا ، سكران ؟ أب •• أبدا ••• فلأمت اذا كنت أكذب !

– لا •• لا •• لا مانع أن تكون سكران •• أنا ألقيت عليك هذا

السؤال عرضا ، بل حسن أن تكون سكران •• ليس عيبا أن تكون سكران

يا بتروشكا •• ليس عيبا أبدا • لا شك أنك نسيت الآن مؤقتا •• ولكنك

ستتذكر •• قل لي : هل تتذكر أنك ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟

هل ذهبت اليه ؟ نعم أم لا ؟

– لا •• لم أذهب اليه •• لم أضع قدمي عنده ••• وهذا الموظف

لا وجود له •• أنا مستعد لأن ••

– لا يا بطرس ، أقول لك : لا •• اسمع يا بطرس •• أنا لست

غاضبا منك •• أنت ترى أنني لست غاضبا •• ما الذي حدث ؟ لا شك

أن الجو بارد ورطب في الخارج ، لذلك شربت قليلا ••• لا مانع •••

أنا لست غاضبا • أنا أيضا شربت قليلا يا أخي •• هيا ••• ابدل بعض

الجهد ••• حاول أن تتذكر ، قل لي كل شيء يا أخي •• هل ذهبت الى

الموظف فاخرامايف ؟

– طيب ••• ما دام الأمر كذلك ••• فأنا أحلف لك بشرفي أنني

ذهبت اليه •• وأنا مستعد لأن ••

- طيب .. طيب جدا يا بتروشكا ... حسن جدا أنك ذهبت اليه .. أنا لست غاضبا .. أنت ترى أنني لست غاضبا .. هيا .. هيا (كذلك تابع بطلنا يخاطب خادمه ، مظهرًا ثقته به ، مبتسما له ، رابتا على كتفه) هيا قل لى ، اعترف لى .. لقد شربت قليلا يا عفريت ... قليلا فقط .. شربت بعشرة كوبكات لا أكثر .. آه منك يا شيطان . طيب .. لا بأس . أنت ترى أنني لست غاضبا . لست بزعلان يا أخى ، لست بزعلان أبدا ...

- لا .. أنا لست شيطانا .. أوكد لك .. وأنا ذهبت الى أناس طيبين .. أنا لست شيطانا .. ولم أكن شيطانا فى يوم من الايام ..

- ولكن لا .. يا بتروشكا .. اسمعنى يا بطرس .. أنا لم أقصد سوءا . واضح أنني لم أقصد سوءا . ليس شتمة أن يوصف امرؤ بأنه شيطان . أقول لك هذا لأطمئنك . أنت تعلم يا بتروشكا أنه يقال لأحد الناس فى بعض الأحيان انه شيطان أو لئيم أو خيىث من قبيل المدح لا الذم .. معنى هذه الصفات عندئذ هو أنه حاذق ، هو أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه . بعض الناس يحبون هذا النوع من التعابير . هيا هيا ليس هذا بئىء . هيا قل لى الآن يا بتروشكا ، قل لى باخلاص وصدق ، دون أن تخفى شيئا ، هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ، وهل أعطاك العنوان المطلوب ؟

- نعم أعطانى العنوان . انه رجل طيب . ثم لقد قال لى : «مولاك رجل شريف ، رجل شهيم جدا . أبلغه تحياتى .. أبلغ مولاك تحياتى وقل له اننى أحبه وأحترمه . هو رجل شهيم يا بتروشكا ، وأنت كذلك يا بتروشكا ، أنت فتى شهيم حقا » . هذا ما قاله لى ..

صاح السيد جوليا دكين بصوت مخنق :

- آه يا رب يا رب ! والعنوان .. العنوان يا يهوذا ؟
- العنوان ؟ أعطاني العنوان ..
- أعطاك العنوان ؟ طيب .. فأين يسكن اذن جوليا دكين هذا ...
- أين يسكن هذا الموظف جوليا دكين ؟
- قال لى : « جوليا دكين يسكن فى شارع « الدكاكين الستة » ، على اليمين فى هذا الشارع ، بالطابق الثالث . هناك يسكن جوليا دكين ... »
- أعول جوليا دكين صائحا وقد خرج عن طوره من فرط الحق :
- يا لص ، يا مجرم .. عنى انما تتكلم أنت ، عنى أنا . أما أنا فأكلمك عن شخص آخر ، عن جوليا دكين آخر يا لص !
- كما تحب . أنا لا فرق عندى . لك ما تشاء .
- والرسالة ؟ ماذا فعلت بالرسالة يا قليل الحياء ؟
- الرسالة أعطيتها ، أعطيتها ... وقال لى : « بلغ مولائى تحياتى . ان مولائك رجل شهيم .. أبلغه سلامى ... »
- من قال لك هذا ؟ أهو جوليا دكين ؟
- صمت بتروشكا لحظة ، ثم ابتم كاشفا عن جميع أسنانه ، وتفرس فى مولاة محققا .
- قال جوليا دكين وهو يخنق حنقا :
- اسمع يا لص .. أجبني .. ماذا فعلت ؟ ما صنعت بى ؟ لقد قتلتنى يا شقى ، قتلتنى .. دقت عنقى .. ذبحتنى يا يهوذا !
- قال بتروشكا بلهجة حازمة وهو يتراجع خلف الحاجز :
- كما يحلو لك .. أنا لا فرق عندى .
- تعال هنا .. ارجع الى هنا يا لص .

- لا لن أرجع ، لا داعى الى الرجوع • أفضل أن أذهب الى عند
ناس طيبين •• ناس طيبين يعيشون عيشة شريفة •• ناس طيبين لا يفنون
ولا يزيفون •• لا يزدوجون •• لا يصبح أحدهم اثنين •• لا يصبح
مثلين ••

• هنا أحس السد جوليا دكين بأن يديه وقدميه تجمدت كالجليد •
أصبح لا يستطيع أن يتنفس • وتابع بتروشكا يقول :
- تماما •• لا يزدوجون •• لا يصبح أحدهم اثنين •• لا يصبح
أحدهم مثلين • لا يسيئون الى الله ولا الى البشر الشرفاء •
- أنت سكران يا حقير •• نم الآن يا لص • وغدا أؤدبك •
كذلك دمدم جوليا دكين بصوت لا يكاد يسمع • أما بتروشكا فكان
يجمعهم بأقوال لا تفهم •

• سمعه بطلنا يضطجع على سرير • لقد صرت نوابض السرير •
تءب بتروشكا تئأباً طويلاً ذا صوت ، وتمطى ، وغط أخيراً فى نوم
عميق شاحراً •

ان السيد جوليا دكين أقرب الى الموت منه الى الحياة • ان سلوك
خادمه وتلميحاته الغريبة - وهى فى الحق أغمض وأبعد من أن تسبب
هذا الغضب كله لدى السيد جوليا دكين ، لاسيما وأنها صادرة عن سكران -
قد قلبت نفسه رأساً على عقب • لا شك أن الأمر أخذ يجرى مجرى
سيئاً •

دمدم السيد جوليا دكين يقول لنفسه بينما كان جسمه كله يرتعد
بتأثير احساس غريب مزعج : « ماذا دهانى حتى أيقظته هكذا فى قلب
الليل ؟ ماذا دهانى حتى مضيت أشاجر مع رجل سكران ؟ ما عسى ينتظر

من رجل سكران ؟ انه يكذب فى كل لحظة • ولكن الى ماذا كان يلمح
هذا اللص ؟

« آه ••• يا رب ! ولكن قل لى يا جوليا دكين ! لماذا كتبت هذه
الرسالة ؟ انك أنت قاتل نفسك • ألم يكن فى وسعك أن تصمت ؟ هل
كان حتما عليك أن تخطىء ؟ أما من وسيلة لديك للاستغناء عن ارتكاب
الخطأ تلو الخطأ ؟ انك على مسافة اصبعين من ضياعك ؟ أو شككت أن تصير
الى خرقه بالية ، وهأنت ذا لا تزال تنهض محاولا أن تؤكد غرورك • لقد
أساءوا الى شرفك ، فما بالك لا تحاول أن تنقذ شرفك يا قاتل
نفسه ؟ ••• » •

بهذا كان السيد جوليا دكين يخاطب نفسه جالسا على أريكته لايجرؤ
من رعب أن يتحرك • وفيجأة جذب عينه شىء سرعان ما رأى أنه جدير
بأكبر انتباه وأعظم اهتمام ؛ فاضطرب اضطرابا شديدا ومدّ يده الى هذا
الشىء وهو يمتلىء أملا وخوفا وحيرة • ترى ألم يكن هذا سرايا ؟ ألم
يكن مجرد وهم من أوهام الحواس ؟ ألم يكن نمره كاذبة من نمرات
الخيال ؟ ••• لا لم يكن هذا سرايا • لم يكن هذا وهما • هى رسالة ،
رسالة حقا ، رسالة مرسله اليه شخصا • تناول السيد جوليا دكين الرسالة ،
خافق القلب حتى ليكاد قلبه ينخلع •

قال لنفسه : « لاشك أن هذا اللص هو الذى أتى بها • لا شك
أنه وضعها على الطاولة ثم نسيها • نعم لا شك أن هذا هو ما حدث ،
لا شك أن هذا بعينه هو ما حدث ••• » •

كانت الرسالة من الموظف فاخرامايف ، وهو زميل شاب كان فى
الماضى صديقا لبطلنا •

« لقد تبتأت بهذا كله ، كما أتنبأ الآن بما تضمنه هذه الرسالة » .
قال جوليا دكين هذا لنفسه وأخذ يقرأ :

عزيزى السيد ياكوف بتروفتش ،

ان خادمك سكران ، ولا يمكن أن يتفاهم المرء مع سكران . لذلك
أوثر أن أرد عليك كتابة . وأسارع فأؤكد لك أن المهمة التى كلفتى بها ،
أعنى اىصال الرسالة الى الشخص المرسله اليه بواسطتى ، ستنفذ بأمانة فى
الموعد المطلوب . وهذا الشخص الذى تعرفه أنت حق المعرفة هو الآن
أحد أصدقائى . لن أسميه لأننى لأحب أن أسئ الى انسان برىء كل
البراءة . ان هذا الشخص هو الآن واحد من رفاقنا فى بنسيون كارولين
ايفانوفنا ، يسكن فى الغرفة التى كان ينزلها ، أيام كنت واحدا منا ،
ضابط المدفعية ذاك الآتى من تامبوف . وأذكر لك عرضا أنك تستطيع أن
تلقى هذا الشخص حيثما يوجد أناس شرفاء مخلصون ، وتلك من الحاصل
التى لا يوصف بها جميع البشر . ثم اننى قد عقدت النية جازما على أن
أقطع كل صلة بك منذ هذا اليوم . فانه ليستحيل بعد الآن أن نحفظ بما
كان بيننا فى الماضى من لهجة الود وعلاقات الصداقة .

« لذلك أرجوك ، ياسيدى ، أن تبعث الى فور استلام هذه الرسالة
بما لى عليك من دين ، وهو مبلغ روبلين هما ثمن موسى الخلاقة المستوردة
من الخارج التى بعثك اياها دينا منذ سبعة أشهر . أمل أن تتذكر هذا
من عهد سكنانا معا عند كارولين ايفانوفنا التى أحترمها من كل قلبى .
والسبب الذى يدعونى الى سلوك هذا المسلك معك هو أنك فى رأى جميع
الناس العقلاء قد فقدت كل معنى من معانى الشرف والكرامة ، وأن
صحبتك أصبحت خطرا على أخلاق الناس الأسوياء الأبرياء . ان فى
الحياة أشخاصا يعيشون بعيدين عن مبادئ الحق والخير ، فكل كلمة من

كلماتهم كذب وكل موقف من مواقفهم نفاق مشبوه • أما الدفاع عن شرف كارولين ايفانوفنا الفاضلة التي لا غبار على سلوكها ، والتي هي فتاة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، رغم أنها تقدمت في السن ، والتي هي سليلة أسرة أجنبية محترمة ، فسيبقى هنا لك أناس يتولونه في كل زمان ومكان ؛ وقد رجاني بعض أصدقائي أن أذكر لك ذلك في رسالتي ، وأنا أتحمل تبعه ما يقولون •

« ومهما يكن من أمر فستعلم بهذا الأمر في حينه اذا كنت لم تعلمه بعد • وقد بلغنى من ذلك المصدر نفسه على كل حال أن المجد يكملك في هذه الآونة الأخيرة في مختلف أحياء العاصمة، لذلك افترض أنك أصبحت تعرف منذ الآن رأى الناس فيك • ولا يسعنى في ختام رسالتي هذه ، يا سيدى ، الا أن أبلغك أن الشخص الذى تعرفه والذى أغفل ذكر اسمه في رسالتي عن عمد حياءً يحظى بتقدير عظيم من جميع كرام الناس ؛ فهو يجمع الى دماثة الخلق وبشاشة الطبع نشاطا كبيرا وهمة فعساء في العمل ، لذلك يقدره رؤساؤه وسائر خيار القوم الذين يعيش بينهم • انه مخلص لما يقول ، وفى للصدقة ، لا يسمح لنفسه يوما أن يغتاب أولئك الذين تربطه بهم صلات الصداقة على علم جميع الناس •

« وفى الختام ، أطل خادمك المخلص •

ن • فاخمارايف

حاشية : يجب عليك أن تصرف خادمك • انه سكير ، ولا شك أنه يسبب لك متاعب كثيرة • استخدم فى مكانه أوستاس الذى كان يخدمنا فى الماضى وهو الآن بغير عمل • ان خادمك ليس سكيراً فحسب ، بل هو لص أيضا • فى الاسبوع الماضى باع كارولين ايفانوفنا رطلا من قطع

السكر بسعر بخس ، وهذا يحمل على الاعتقاد بأنه قد اختلس هذا السكر من بيتك قليلا قليلا كلما سنحت فرصة •

« أذكر لك هذا حرصا منى على مصلحتك • فلست كبعض الناس الذين لا يهمهم الا أن يهينوا وأن يخدعوا من يحيطون بهم ، ولاسيما الشرفاء الذين لا يسيئون الظن بل يسارعون الى التصديق وتنطلي عليهم الأكاذيب ؟ لست كبعض الناس الذين لا ينفكون يفتابون هؤلاء ويسيئون اليهم خفية ، بدافع واحد هو الغيرة منهم وشعورهم بالعجز عن أن يكونوا مثلهم •

ن.ف. •

ظل بطلنا ساكنا على أريكته لحظة طويلة بعد قراءة رسالة فاخرامايف • ان ضياء جديدا ينفذ الآن الى الضباب الكثيف العجيب الذى يلفه منذ يومين • أخذ يرى رؤية واضحة ••• أراد أن ينهض ، أن يسير بضع خطوات عسى أن ينعش فكره ويجمع خواطره ويركزها على نقطة وحيدة ، ويتخذ هكذا فى الهدوء قرارا •

ولكنه ما ان همَّ أن يقوم حتى عاد يتهاوى على مكانه نفسه مهدود القوى عاجزا •

« لقد تنبأت بكل شيء •• هذا أكيد •• ولكن ماذا يريد أن يقول فى رسالته ؟ ما هو المعنى الحقيقى الذى يكمن فى هذه الرسالة ؟ الحق أننى أعرف هذا المعنى • ولكن الى أين يقودنا هذا ؟ لو قد قال لى بوضوح افعل كيت أو كيت •• لو قد أعلن لى بوضوح : ' يطلب منك هذا أو يطلب منك ذاك ، اذن لأطعت ••• ألا ان المسألة أخذت تجرى مجرى مزعجا •

« آه ... ليتى فى الغد ... وددت لو أصل الى حل العقدة بأقصى سرعة ممكنة . اننى أعرف الآن ماذا يجب علىّ أن أفعل . سأقول لهم ما يلى : اننى موافق على أرائكم ، ولكننى أرفض أن أضع شرفى .. اما الآخر .. فسرى .. ثم كيف أمكن لهذا الآخر ، لهذا الشخص المشكوك فيه ، أن يكون له فى هذه المسألة ضلع ؟ ما الذى آفحمه فى هذه القضية ؟ آه .. تعال أيها الغد ! انهم الان يغتابونى ويتواطئون علىّ ويحاولون أن يدهورونى .. المهم ألا اضع الوقت سدى .. يستحسن فيما اظن ان أكتب رسالة على الفور ، أن أظهر بعض التسامح ، أن أقدم بعض التنازل .. ثم أبعث بالرسالة فى أول ساعة من ساعات الصباح ، وأتخذ من جهتى ما يجب أن أتخذه من اجراءات . نعم ، ذلك ما ينبغى أن أفعله .. سأشن حملة مضادة وسيرون النتائج ، هؤلاء الطيور ... والافلسوف يجروننى فى الوحل وينتهى أمرى .. » .

تناول السيد جوليا دكين ورقا وقلما ، وحرر الرسالة التالية جوابا على رسالة السكرتير الحكومى فاخرامايف :

عزيزى السيد نستور اجناتيفتش !

« قرأت رسالتك بدهشة عميقة وحزن صادق . فقد أدركت أنك حين كنت تلمح الى أشخاص أشرار منافقين انما كنت تقصدنى أنا . اننى لأشعر بمرارة صادقة حين أرى أن النيمة سرعان ما مدت جذورها الطويلة الكثيرة فأفسدت هدوئى وأساءت الى شرفى وسمعتى . وانه ليحزننى ويحز فى نفسى أن أدرك أيضا أن الشرفاء من الناس ، أن أولئك الذين يملكون أنبل المشاعر وأسمى الأفكار ، ويتصفون باستقامة الخلق والطبع ، يتخلون عن مؤازرة الشرف والفضيلة ويتزاحمون بكل قواهم وبكل ما أوتوا من مزايا حول العذر المؤذى الذى ما ينفك ينتشر ويمتد

بمزيد من القوة فى هذا الزمان القاسى الفاسد ، وا أسفاه ! أما عن دينك على ، فاننى أرى أن من واجبى المقدس أن أرد اليك هذين الروبلين • وأما عن تلميحاتك ، يا سيدى العزيز ، عن تلميحاتك المتصلة بشخص من الجنس اللطيف ، وكذلك عن النيات والأهداف والمطالب التى تنسبها اليه ، فاننى أعلن لك يا سيدى أنها ما تزال غامضة فى ذهنى لم أستطع الى فهمها سيلا ، فاسمح لى ، يا سيدى العزيز ، أن أربأ بسمعتى المحترمة وبعواطفى الرفيعة أن تلتطخ • وانى مع ذلك لمستعد أن تتكاشف فى الأمر بالتخاطب كلما متى شئت ؟ فذلك فى نظرى خير من تبادل الرسائل • وانى لمستعد أيضا لقبول أية خطوة فى سبيل المصالحة شريطة أن تتوافر النية الصادقة المخلصة من الطرفين •

« ومن أجل ذلك أرجوك ياسيدى أن تبلغ الشخص المذكور موافقتى على أن يقوم بينى وبينه حديث شخصى خاص ؛ وأنا أدع له أن يحدد لاجتماعنا الزمان والمكان اللذين يناسبانه •

« وقد قرأت بكثير من المرارة يا سيدى ما أملت اليه من أنه كانت لى معك مواقف تزعم أن فيها اهانة لك أو اساءة اليك • وكأنك تعب على أنى خنت صداقتنا القديمة وأنى اغتبتك وقلت فيك سوءا • اننى أعتقد أن مرد هذه الاتهامات الى سوء تفاهم ، أو قل الى سعايات دينية والى الغيرة والكره لدى أولئك الذين يحق لى ، واعيا كل الوعى ، أن أعدهم من أعدائى الألداء العتاة • ولا شك عندى فى أن هؤلاء يجهلون أن البراءة تحمل قوتها فى ذاتها ، وأن الدناءة والوقاحة والاستهتار المثير لدى بعض الناس لا بد أن تلقى عقابها احتقارا عاما فى يوم من الأيام ؛ وسيهلك هؤلاء الناس يومئذ جزاء ما جنت أيديهم من سيئات وما حملته قلوبهم من شر • لذلك أرجوك يا سيدى أن تبلغ هؤلاء الأشخاص أن أطاعهم

الغريبة ورغباتهم الدينية العجبية في أن يعتصموا بالقوة المكان الذي يحتله
غيرهم حقا من حقوقه ، لا يستحقون الا الاستغراب والاحتقار والاشفاق ،
ولا يستحقون خاصة الا أن يحجزوا في مستشفى من مستشفيات
المجانين •

« وأضيف الى هذا أن محاولات من هذا القبيل ممنوعة بحكم
القوانين ، وذلك في رأيي أمر سليم له ما يسوغه ، لأن على كل انسان
ان يقنع بالمكان الذي خصص له • ان لكل شيء حدودا ، واذا كان الأمر
في الحالة الراهنة أمر مزاح ، فانتى أوكد لك أنه مزاح كريبه يدل على
سوء ذوق صاحبه ، بل يدل على سوء خلقه • وفي وسعي أن أوكد لك ،
يا سيدى العزيز ، أن المعاني التي عبرت لك عنها منذ هنيهة بشأن المكان
المخصص لكل انسان ، مشتقة من أنبل مبادئ الأخلاق •

« وفي الختام ، يشرفنى أن أبقى خادمك المطيع :

ى • جوليا دكين

الفصل العاشر



في أن أحداث اليومين الاخيرين قد أحدثت في نفس السيد جوليا دكين اضطرابا عميقا . كان نومه في تلك الليلة قلقل . والحق أنه لم يستطع أن يغمض جفنيه أكثر من خمس دقائق . لكن مارحا خبيثا قد نثر على سريريه شوكا . قضى ليلته بين اليقظان والوسنان ، يتقلب على سريريه بغير انقطاع من جنب الى جنب ، ويشن ويدندن ، فما يكاد ينفو لحظة حتى يستيقظ . انه نهب غم شديد وخوف هائل ، ماتنفك تحاصره ذكريات غامضة ورؤى عجيبة .

انها ليلة « كوايس » لا ينقصها شيء . فتارة يتراءى له وجه أندره فيليبونتش في ظلام سرى ، متجهما قاسيا ، غيف النظرة ، لا يرحم ، وعلى شفقيه تفرغ خشن بارد يهيم أن ينطلق فيريد السيد جوليا دكين أن يقترب منه محاولا أن يبرىء نفسه بطريقة من الطرق ويحاول أن يبرهن له على أنه ليس كما يصوره أعداؤه ، وأنه انسان كسائر الناس ، بل وأنه يملك عدا ذلك مزايا كثيرة كبيرة فطر عليها وفيما هو كذلك

إذا بوجه آخر يترامى له على حين فجأة، وجه يعرفه بسهولة من فرجه فمه
الوقحة ، وإذا بهذا الوجه يدمر جميع محاولات بطلنا في لحظة واحدة ،
متوسلا الى ذلك بحيلة من الحيل الحقيرة الدنيئة ، فهو يأخذ يلمطخ سمعه
بطلنا على مرأى منه ومسمع ، وهو يأخذ يسيء الى كرامته ، ويجزئه في
الوحد ، ويقتصب في آخر الامر مكانه في الوظيفة وفي المجتمع
وتارة يشعر بطلنا بأكال في جمجمته ، نتيجة لطمه بالاصبع أصابه بها
أحدهم ؛ والمشهد يجرى على مرأى من الناس ؛ وربما في مكاتب الادارة
نفسها ؛ وهو عاجز عن دفع الاهانة وفيما يحضر بطلنا في دماغه
محاولا أن يفهم سبب عجزه عن الاحتجاج على مثل هذه الاهانة ؛ اذا
بذكرى اللطمة تتخذ شكلا جديدا ، شيئا بعد شيء .

فهو الآن ذكرى جبانة من الجبانات تحاصر ذهنه ، جبانة تافهة أو
ذات بال وهو لا يعرف تماما هل الأمر أمر شيء شهده أو أمر شيء
حدثه عنه . ولكن لعل هذه الجبانة قد صدرت عنه هو ، ولعلها تصدر
عنه كثيرا ، مرة تلو مرة ، لأغراض حقيرة وأهداف مخجلة أو لعلها
تصدر عنه مصادفة بغير سبب ، عن حياء أو عن عجز فلماذا صدرت
عنه هذه الجبانة ، نعم لماذا ؟ الحق أن السيد جوليا دكين كان يعرف
حق المعرفة لماذا .

وهنا يحمر السيد جوليا دكين وهو نائم ، ويحاول أن يسكت خجله ،
فيؤكد متمتعا « أن عليه أن يظهر شيئا من قوة الارادة ، أن عليه أن يظهر
كثيرا من قوة الارادة نعم . . . عليه ذلك . . . ولكن ما معنى قوة
الارادة الآن ؟ . . . » . ولكن الشيء الذي يحق السيد جوليا دكين حقا
شديدا الآن هو أن ذلك الشخص الكريه نفسه يعود الى الظهور في تلك
اللحظة نفسها . هل دعى الى ذلك ؟ هل جاء من تلقاء نفسه ؟ أليس الأمر

مدبرا؟ المهم أنه يظهر مرة أخرى بفرجة فمه الكريهة ، ويأخذ يدمدم هو أيضا قائلا بابتسامة وريحة : « ما قوة الارادة هذه ؟ هل نملك شيئا من قوة الارادة أنا وأنت يا ياكوف بتروفتش ؟ » • • • •

ورأى جوليا دكين نفسه بعد ذلك فى صحبة أناس عرفوا بذكائهم ورقة شعورهم ورهافة ذوقهم • ورأى نفسه لامعا مرموقا بتهذيبه الراقى وبديته الحاضرة • لقد ملك على الحفل قلوبهم • حتى لقد استطاع أن يفتن عقول عدد من أعدائه الذين كانوا حضورا فى الحفل ، فسره ذلك سرورا عظيما • كان سيد السهرة غير منازع • • • • وبلغ السيد جوليا دكين ذروة المجد حين سمع رب البيت يمدحه لأحد المدعوين على انفراد • • • • فطار صوابه فرحا بذلك • ولكن سرعان ما ظهر ذلك الشخص الكريه القاسى مرة أخرى على حين فجأة • فما هى الا لحظة حتى كان السيد جوليا دكين الأصغر يقلب الوضع رأسا على عقب • فذهب ما حصله بطلنا من انتصار ومجد أدراج الرياح • ان سميّه يكسف نجمه ويمرغه فى الوحل • وأسوأ من ذلك أنه يجعله فى نظر الناس نسخة هو أصلها اللامع ، ويبرهن جازما على أن بطلنا ليس ذلك الرجل الذى قد توهم به المظاهر ، وأن من الواجب ابعاده اذن من كل مجتمع لامع راق • وقد جرى هذا المشهد بسرعة بلغت من الشدة أن بطلنا لم يتسع وقته لأن يفتح فمه بكلمة • كان شبيهه الدنىء قد استولى على عقول المدعوين استيلاء كاملا ، فاذا هم يتأون عن السيد جوليا دكين المسكين باحتقار شديد • لم يستطع أحد منهم أن يقاوم سحر الناصب • لقد استأثر بهم جميعا ، واحدا بعد آخر ، من ألمهم الى أتفهمهم • كان هذا الشخص المزيف الصلف يعرف كيف يتملق الناس للوصول الى مآربه • كان من النعومة والحدق فى التملق أن مخاطبه ما يلبث أن يرق قلبه وتهتز عاطفته فاذا هو يأخذ ينسج ساكبا دموع الانفعال دليلا على عمق رضاه وقوة انشراحه • وذلك

كله يتم فى لحظة كومض البرق • ان ما يتصف به تاثير هذا الشخص الحثيث الماكر من سرعة لأمر يذهل العقل • فما ان يفرغ من الالتفاف على أحد الناس وأسره بالزلفى حتى تراه ينتقل الى اخر ، فما هى الا بضع كلمات من تملق تكافئها ابتسامة ودود ، اذا هو ينب بساقيه القصيرتين الصلبتين نحو ثالث ، وهكذا دواليك : مزيد من عبارات التزلف وجديد من مظاهر الود ؛ فما يكاد المرء يشقق نسمة هواء حتى يكون صاحبنا قد التفت على رابع فظفر به • لكأن الأمر سحر •• ان جميع الناس يستقبلونه باشين فرحين ، ويعطفون عليه ويميلون اليه ، ويحملونه الى السحب • وهم جميعا يعلنون على رؤوس الأشهاد أنه بأدابه الرفيعة وروحه الفكهة وفكره النقاد يتفوق على السيد جوليا دكين الأصلي تفوقا عظيما • لقد أذل بطلنا المسكين ، بطلنا البريء ، وأهانته خصمه وسامه سوء العذاب • ان الناس الآن يندون هذا الانسان الذى يفيض قلبه رحمة ومحبة لأخيه الانسان ، ويرهقونه ، ويمطرونه بوابل من اللطامات بأطراف سباباتهم •

ويسرع بطلنا المسكين هاربا الى الشارع وهو يرتعد خوفا ورعبا وحنقا • وها هو ذا يبحث عن عربة • انه يريد أن يطير فورا الى صاحب السعادة يتسكو اليه أمره ، فان لم يجده فليطر الى آندره فيليبوفتش • ولكن ما من حودى يرضى أن يقله وا أسفاه ••• فالخوذيون جميعا يقولون له : « لا يا سيدى ••• يستحيل علينا أن نقل رجلين متشابهين تشابها مطلقا ••• وما ينبغى لرجل شريف يريد أن يعيش حياة شريفة ، ما ينبغى أن يكون له مثل ••• » • وينظر السيد جوليا دكين حواليه وهو يهذى من فرط الغيظ ، فيلاحظ أن الخوذيين وبتروشكا الذى كان منضما اليهم هم جميعا على حق ما فى ذلك ريب • ذلك أن شبيهه الدنىء كان على مسافة خطوتين منه ، يتهاى لمقارفة وقاحة جديدة على عادته المقيتة •

نعم ، ان هذا الدجال الكريه الذى يتظاهر فى كل مناسبة بأدبه الجم
وعواطفه النبيلة سيرتكب الآن فعلا حقيرا لا يدل حتما على شيء من حسن
التهديب ورهافة الذوق •

فما كان من بطلنا المسكين - السيد جوليا دكين الأصلى - الا أن فر
هاربا وقد امتلأ قلبه شعورا بالعار والحزن ••• انه يركض الآن قدما
على غير هدى لا يدرى أين يذهب • ولكنه كلما خطا خطوة وكلما قرعت
قدمه أسفلت الرصيف مرة ، انبجس الى جانبه عدو جديد كأنه يخرج
من بطن الأرض ، انبجس جوليا دكين جديد ، انبجس ذلك الدجال نفسه
رهيبا حقيرا باعنا على التقزز والاشمزاز كما كان • ويأخذ هؤلاء
الأشخاص ، المتشابهون جميعا ، يأخذون يركضون واحدا وراء آخر ،
فكانهم سرب من الأوز يطارد بطلنا ويلاحقه • أصبح بطلنا لا يعرف الى
أين يهرب • أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء الجوليا دكين الذين
يجرون وراءه • تقطعت أنفاس بطلنا المسكين • وسرعان ما حاصره هؤلاء
الأشخاص المتشابهون من كل جهة • انهم ألوف • انهم مبثوثون فى كل
مكان • انهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة • وهذا رجل من رجال
الشرطة يرى نفسه مضطرا أمام هذا التراكم الفاضح الى أن يسك بتلابيبهم
فيقبض عليهم ويحبسهم فى مركز مجاور من مراكز الشرطة • واستيقظ
بطلنا وقد تجمد من الخوف والذعر وتخذرت أعضاؤه ••• فاذا ••• فاذا
هو يرى أن الواقع ليس خيرا من المنام •• ان حلقه يختنق •• خيل اليه
أن أحدا يريد أن يلتهم قلبه •• وأصبح السيد جوليا دكين عاجزا عن
احتمال هذا العذاب مزيدا من الاحتمال •

« لا •• لن يتم هذا » ، كذلك أعول يقول عن اقتناع ، وهو ينتفض
ناهضا على سريره ، فما ان صاح هذه الصيحة حتى استيقظ من نومه
تماما ••



الوقت يبدو ضحى • الضوء يغمر الغرفة على غير عادة • أشعة كبيرة من الشمس تتسلل من زجاج النوافذ الذى تشقق جليده عن أشكال كأشكال الازهار ، وتنتشر فى الحجرة • دهش السيد جوليا دكين • انه لم يالف ان تزوره الشمس قبل الظهر ، ولا يذكر أنها خالفت هذه القاعدة اكراما له فى يوم من الأيام ، اذا صدقت ذاكرته • وما ان راودته هذه الدهشه حتى سمع ساعة الجدار يفلت نابضا الذى يؤذن بانها ستدق • فقال لنفسه وهو يترقب دقائق الساعة مغموما : « ها •• سنعرف الآن كم الساعة » • فما كان أشد دهشته حين لم تدق الساعة الا دقة واحدة • صاح بطلنا وهو يشب عن سريره قائلا : « ما هذا ؟ » • وكأنه لم يصدق أذنيه ، فها هو ذا يهرع الى ما وراء الحاجز ، حتى دون أن يتدثر بشيء : كان عقرب الساعة يشير فعلا الى الواحدة ••• ألقى السيد جوليا دكين نظرة على سرير بتروشكا ••• فلم يجد أثرا لخادمه لا على السرير ولا فى الغرفة • كان السرير مرتبا • ولم يجد السيد جوليا دكين حذاءى خادمه ، وذلك دليل على أن الخادم قد خرج • مضى السيد جوليا دكين نحو باب المدخل مسرعا ، فوجده مقفلا ، فأخذ يردد بصوت خافت وقد تملكه انفعال شديد وأخذت أعضاؤه جميعها ترتعش : « ولكن أين بتروشكا ؟ » • وانه كذلك اذا بفكرة مفاجئة تومض فى ذهنه كالبرق ، فيشب نحو الطاولة ، فيفتشها وينبش كل ركن من الأركان • نعم ، لقد صدق ظنه • ان الرسالة التى كتبها فى الليل الى فاختاراييف قد اختفت •• وبتروشكا غائب •• وعقرب الساعة يشير الى الواحدة •• ثم ان الرسالة التى تلقاها أمس من فاختاراييف تشتمل على نقاط غامضة هاهى ذى تتضح الآن •• لم يبق أى شك فيما يتصل بخادمه بتروشكا : لقد رشوه •• لقد رشوه حتما •• رشوه ما فى ذلك ريب •

« ها •• هذه هى عقدة القضية كلها اذن » ، كذلك صاح السيد

جوليادكين وهو يلطم جبينه • أصبح الآن يرى الأمور رؤية أوضح •
« اذن فى مغارة هذه الألمانية الغادرة انما تدبر جميع المؤامرات • الآن
فهمت • فحين حشيتى نحو جسر اسماغيلوفسكى انما كانت تقوم اذن
بمناورة تضليل ، فهى تموه الأمور ، وتحرف اتباهى ، وتمد الفخاخ فى
أثناء ذلك • يا لها من ساحرة غدارة ! نعم ، هذه هى المسألة • كل شىء
يصبح واضحا تماما متى نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية • وظهور هذا
الوعد يصبح واضحا أيضا • الأشياء مترابطة • كانوا يدخرونه منذ زمن
طويل ، كانوا يهيونوه ويعدونوه للخروج فى اللحظة المناسبة • نعم ، أصبح
لكل شىء تمليل ••• أصبح كل شىء مفهوما •• هذه هى المسألة اذن •
طيب •• لا ضير •• لم يضع بعد كل شىء ، لم تفت كل فرصة •• ما يزال
فى الوقت متسع •• • • وهنا ، فى هذه اللحظة تماما ، تذكر بطلنا
مذعورا أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر : « ما عسى يكون الحال
إذا كان وقتهم قد اتسع منذ الآن ل ••• » ، كذلك قال السيد جوليادكين
لنفسه وأقلت من صدره أنين • فقال يطمئن نفسه : « لا ••• انهم يكذبون
••• لما يتسع وقتهم بعد •• سوف نرى على كل حال •• » • ثم أسرع
يرتدى ملابسه ، وتناول ورقة وريشة ، فحرر الرسالة التالية :

السيد المحترم ياكوف بتروفتش !

اما أنا واما أنت • يستحيل أن نكون كلانا فى وقت واحد معا !
لذلك أعلن لك أن دعواك الغربية ، المضحكة ، المستحيلة التحقيق فى
الوقت نفسه ، أعنى أن تظهر بمظهر الأخ التوأم لى وأن تستغل هذا
الظرف ، فذلك لن يزيد فى آخر الأمر على أن يلطخ شرفك بالعار وعلى
أن يضيعك • لذلك أناشدك ، فى سبيل مصلحتك أن تنسحب ، وأن تخلى
المكان للناس الشرفاء العقلاء حقا ! والا رأيتنى مضطرا الى اتخاذ اجراءات

قصوى • وعلى هذا أضغ قلمي منتظرا جوابك ••• وأظل تحت تصرفك
فى جميع الأمور - ومنها المسدسات •

ى • جوليا دكين

فلما انتهى بطلنا من رسالته فرك يديه بقوة ، ثم ارتدى معطفه على
عجل ، ولبس قبعته ، وفتح بات بيته بالمفتاح ، ومضى نحو مكتبه •
حتى اذا بلغه تردد عن الدخول • كانت الساعة هى الثانية والنصف •
لقد فات الأوان • غير أن حادثنا لا يدل ظاهره على أن له قيمة لم يلبث أن
ذهب بترده • ففى ركن من مبنى الإدارة ظهر شخص لاهت أحمر
الوجه يمشى ملامسا الجدار مشية فأر ثم يتسلل الى درجات المدخل ،
ويتسلل من هناك الى الدهليز • انه كاتب المحكمة أوستايفاف • ان السيد
جوليا دكين يعرفه حق المعرفة • فهو رجل يمكن الانتفاع به ، مستعد لكل
شئ فى سبيل عشرة كوبكات •

ان السيد جوليا دكين لا يجهل هذا الوتر الحساس فى أوستايفاف
الذى لا شك أن تغييه القصير الذى حمله عليه ظمأ قاهر قد زاد ميله الى
التقود الرنانة • واذ قرر بطلنا أن يبدل كل ما يجب أن يبدله من
تضحيات ، وثب الى درجات المدخل وتوغل فى الدهليز يلاحق أوستايفاف
وناداه ، ثم انتحى به ركنا مظلما وراء مدفأة ضخمة ، وقد لاح فى وجهه
السر ، حتى اذا صار الرجلان هنالك أخذ السيد جوليا دكين يسائله :

- هيه يا صديقى ••• ماذا يحدث فوق ؟ هل أدركت ما أريد أن
أقول ؟
- أنا أصغى اليك يا صاحب النبالة ، وأتمنى لصاحب النبالة صحة
جيدة •

– حسن جدا يا صديقي ، حسن جدا ، سأكافئك يا صديقي • والآن
قل لي يا صديقي ماذا يجري هنالك فوق !
قال كاتب المحكمة وهو يخفي بيده قليلا فمه الذي أوشك أن
ينفرج :

– ما هو السؤال الذي تشرفني بالقائه على ؟

– أنا ؟ طيب •• اسمع •• أسألك عن •• ولكن اياك أن يذهب
بك الظن الى أشياء خارقة •• بالناسبة : هل آندره فيليوفتشس هنا ؟
– نعم هو هنا •

– والموظفون الآخرون ؟

– هم هنا ، كالعادة •

– وصاحب السعادة •

– صاحب السعادة أيضا •

قال كاتب المحكمة ذلك ، وعاد يغلظ فمه بيده • وخيل الى بطلنا
أن أوستافيايف يتفرس فيه بنظرة غريبة تفيض استطلاعا وتعجبا •

– اذن يا صديقي لا شيء خارقا يحدث هنالك فوق ؟

– لا •• لا شيء البتة •

– طيب يا صديقي ، ألم يأت أحد على ذكرى بشيء ؟ ••• هه ؟
ولو عرضا •• أنت تفهم عنى يا صديقي ؟

– لا •• حتى الآن لم أسمع شيئا •

ومرة أخرى وضع كاتب المحكمة يده على فمه ، وشفع هذه الحركة

بنظرة غريبة ألقاها على مخاطبه • وكان السيد جوليا دكين يتفرس هو أيضا فى وجه أوستافيا ، محاولا أن يلتقط أية علامة تكشف عما يخفيه رأس الرجل من أفكار • لا شك فى أن هناك سرا • ثم ان لهجة أوستافيا قد تغيرت • فبينما كان الحديث يجرى فى أول الأمر بتودد ظاهر ولطف واضح أصبحت لهجة أوستافيا الآن خشنه متكبرة • كان يبدو أنه غير حافل بمصالح السيد جوليا دكين •

قال بطلنا لنفسه : « هذا من حقه • ما أنا عنده ؟ لعله أخذ مكافأة من الطرف الآخر • • فتغيب من أجل أن • • هذه قوة قاهرة • • يجب على أن أعطيه أنا أيضا • • » •

وأدرك السيد جوليا دكين أن ساعة الكوبكات قد دقت •

- خذ • • هذا لك • • يا صديقى •

- أشكر لك كرمك من كل قلبى يا صاحب النبالة •

- سأعطيك المزيد •

- أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة •

- سأعطيك اليوم مزيدا ، وسأعطيك أيضا حين تسوى هذه القضية

كلها • هل تفهم ؟

وكان كاتب المحكمة ، المتصلب كأنه وتد ، يتفرس فى السيد

جوليا دكين صامتا •

- والآن تكلم • • هل سمعت شيئا يتناولنى ؟

- يخيل الى أنتى حتى الآن • • أقصد • • حتى الآن لم أسمع

شيئا •

كان أوستافيايف يجيب على الأسئلة مقطرا كلامه كما كان يفعل السيد جوليا دكين ، محتفظا بهيئة السر ، محركا حاجبيه ، مطرفا الى الأرض ، باحثا عن التعبير المناسب ؛ أى أنه كان يجهد بجميع الوسائل أن يستحق المكافأة الموعودة ، معتقدا أن المال الذى تلقاه قد أصبح منذ الآن ملكا له لا يمكن أن ينازع فيه •

سأله السيد جوليا دكين :

- ولم يتخذ أى قرار حتى الآن ؟

- حتى الآن •• لم يتخذ أى قرار •

- طيب •• اسمع •• قد نعرف شيئا بعد قليل •

- سنعرف شيئا بعد قليل ما فى ذلك ريب •

قال السيد جوليا دكين لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئا • • » •

وأردف يخاطب صاحبه :

- خذ •• خذ هذا لك أيضا يا صديقى •

- شكرا من كل قلبى يا صاحب النبالة •

- هل كان فاخمارايف موجودا مساء أمس ؟

- نعم •• كان موجودا •

- ولم يكن أحد معه ؟ •• حاول أن تتذكر يا صديقى •

غرق كاتب المحكمة دقيقة طويلة بين ذكرياته ، ولكنه لم يظفر

بطائل : لم يستطع أن يتذكر شيئا خاصا •

- لا •• لم يكن هناك أحد غيره •

- همممم... ••

• وأعقب ذلك صمت •

- اسمع يا صديقي •• خذ هذا لك أيضا • والآن قل لي الحقيقة ••
الحقيقة كلها •

- أنا تحت أمرك •

لقد تأنس أوستافياف الآن • وهذا ما كان يتمناه بطلنا •

- والآن قل لي يا صديقي : كيف يعاملونه الآن ؟

- معاملة عادية ، معاملة جيدة جدا •

بهذا أجاب كاتب المحكمة وهو يلتهم مخاطبه بعينه التهاما •

- ماذا تعنى بقولك جيدة جدا ؟

- أعنى •• أقصد ••

ومرة أخرى أخذ أوستافياف يحرك حاجبيه • الحق أنه أصبح
يشعر بأنه محاصر فى طريق مسدود محاصرة ما تنفك تضيق ، فهو
لا يعرف بماذا يجب ليخرج من هذه الطريق •

قال جوليا دكين لنفسه : « الامور تجرى مجرى شيئا » •

- ألا تعتقد أنه يدبر شيئا مع فاخمارايف ؟

- طبعا ••• كالعادة •

- فكر جيدا •

- يقال انهما يدبران شيئا •

- ماذا يدبران ؟ قل .. أسرع ..

وعاد كاتب المحكمة يضع يده على فمه من جديد •

- أليس ثمة رسائل مرسلة الىّ من هناك ؟

- لقد ذهب الخفير ميخايف في هذا الصباح الى فاخمارايف ...
نعم ... في البنسيون الألماني • لذلك سأمضى أسأله بعد قليل اذا شئت •
- نعم اذهب يا صديقي • قدم لي هذه الخدمة ... أرجوك ...
ناشدتك الله • أقول هذا هكذا • فلا يذهبن بك الظن الى أى شيء غير
عادي • قلت هذا عرضا • اتفقنا اذن يا صديقي • أسأله • حاول أن
تعرف هل يدبر شيء ضدى هناك • ماذا يهينى هو ؟ ذلك هو ما يهمنى
أن أعرفه • اذهب وسأعرف كيف أكافئك بعد ذلك يا صديقي •
- أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة • ان ايفان سيمونوفتش هو الذى
حل محلّك فى المكتب هذا الصباح •

- ايفان سيمونوفتش ! ها • نعم • هل هذا ممكن ؟

- آندره فيليوفتش هو الذى أمره بأن يحل محلّك •

- أهذا ممكن ؟ ولكن لماذا ؟ حاول أن تعلم يا صديقي • ناشدتك
الله • حاول أن تعلم يا صديقي • حاول أن تعلم ، وأنا سأعرف كيف
أكافئك يا عزيزى • ذلك هو ما يهمنى • ولكن اياك خاصة أن يذهب
بك الظن يا صديقي الى ...

- تحت أمرك • تحت أمرك • سأذهب اليه حالا • ولكن أليس
فى نية صاحب النبالة أن يدخل المكتب اليوم ؟

- لا يا صديقي • لا • لقد جئت الى هنا عابرا ، لا لشيء غير أن

ألقى نظرة يا صديقي • اذهب وسأعرف كيف أكافئك في المستقبل ؛
هيا يا رئيسي •

— تحت أمرك ••

قال كاتب المحكمة ذلك ثم اندفع يصعد السلم وقد امتلأ همة
ونشاطا • وبقي السيد جوليا دكين وحده •

قال لنفسه : « الأمور تجري مجرى سيئا ، سيئا جدا ، آه ! ان
وضعنا معرض للخطر • ماذا يعنى هذا كله ؟ ترى ماذا كان المعنى الدقيق
لتلك التلميحات التى قالها هذا السكير ؟ من هو المسك بالأسلاك فى هذه
القضية ؟ •• آ •• الآن عرفت من هو المسك بالأسلاك • الآن فهمت
أحلوه هناك ، وبعد ذلك ؟ ان آندره فيليوفتش هو الذى أحل ايغان
سيميونوفتش محللى • فلأى غرض ؟ لا شك أنهم علموا •• هذا من فعل
فاخمارايف •• لا بل هو من فعل غيره •• ان فاخمارايف غيبى ، قليل
الذكاء ، بليد ! انهم هم أطلقوا على هذا الكلب المسعور ، للأسباب نفسها
•• هم الذين دفعوا تلك الالمانية العوراء الى رفع شكوى على •• ولقد
تبأت دائما على كل حال بأن هناك أسبابا خفية تحملهم على تدبير هذه
المكيدة كلها ، وأن ثمة شيئا يحاك وراء هذه الثرائرات التى تشبه ثرائرات
العجوز الشمطاء ••• لقد قلت لكريستيان ايغانوفتش ، قلت له انهم ألوا
على أنفسهم أن يغتالونى ، بالمعنى المجازى لهذه الكلمة طبعاً ، وانهم
يستخدمون فى سبيل ذلك كارولين ايغانوفنا • ان المرء يشعر بأن هناك
يد معلم فى هذه القضية يا سادة • لا ••• ليس هو فاخمارايف • سبق
أن قلت ذلك : ان فاخمارايف غيبى ، أما ••• أنا أعرف من يدبر هذا
كله لهم •• انه ذلك الوغد الحقيق ، ذلك الدجال المخادع • وهذا ما يفسر

تأثيره فى الناس ونجاحه بينهم • الحق أن من المهم أن أعرف دوره وامتيازاته على وجه الدقة •• وأن أعرف على أى قدم يعامل هناك ؟ ولكن لاى سبب أخذوا ايفان سيمونوفتش ؟ ما حاجتهم الى ايفان سيمونوفتش ؟ ألم يكن فى وسعهم أن يجدوا أحدا غيره ؟ النتيجة واحدة على كل حال ، سواء آأخذوه أم أخذوا غيره • الشيء المحقق أنى أشبه منذ زمن طويل فى ايفان سيمونوفتش هذا • اننى أراقبه منذ مدة طويلة • يا له من عجوز رهيب ، عجوز يبعث على الأشمزاز والتقرز ! يظهر أنه يقرض بالربا وأنه جنى أرباحا كبيرة كأرباح يهودى ! ولكن الدب هو الذى يدبر ذلك كله من وراء ! هو روح المؤامرة • كذلك بدأت المسألة •• بدأت من جسر اسماعيلوفسكى •• نعم لقد انطلق كل شىء من هناك ! » •

جعد السيد جوليا دكين خده كأنه عض قشرة ليمونة • لا شك أن ذكرى مزعجة قد استيقظت فى ذاكرته • قال لنفسه : « أوه •• على كل حال •• ليس لهذا كله كبير شأن • لنعد الى أعمالنا • لماذا تأخر أوستافيف ؟ لا شك أن أحدا قد استوقفه • أحسب أن من حقى أن أمكر أنا أيضا ، وأن أنصب بعض الشباك • يكفى أن أعطى أوستافيف بضعة نقود أخرى •••• فينحاز الى جانبى • ومع ذلك يجب أن أعرف هل هو حقا فى جانبى •• لعلهم رشوه هو أيضا •• ربما كان ضالعا فى المؤامرة منذ الآن ! ان هيئته هيئة لص ، لص عريق • انه يخفى لعبته هذا الوغد ! ما ينفك يقول لك : « لا •• لا يوجد شىء قط •• أشكرك من كل قلبى يا صاحب النبالة •• لك كل امتنانى •• » • آه •••• يا له من لص عريق ! » •

وفجأة سمع السيد جوليا دكين وقع خطوات • فأسرع يלטو وراء المدفأة • نزل أحدهم على السلم ، وخرج الى الشارع • تساءل بطلنا :

« من عساه يخرج فى هذه الساعة ؟ » • وبعد بضع لحظات سمع مرة
أخرى وقع خطوات على السلم • فلم يستطع أن يصبر ، بل جازف
فمدّ آفئه •• لكنه لم يلبث أن سحبه كأن ابرة وخزته • ان الرجل الذى
كان هابطا على السلم ليس الا ذلك الوغد الحفير ، ذلك التصاب المتعصب ،
ذلك الفاجر المكار ! كان يتقدم بخطاه القصيرة المعهودة ، بمشيته الوريحة
المكردحة ، رافعا قائمته القصيرتين عاليا ، كمن يريد أن يضرب بهما
أحدا • دمدم بطلنا يقول : « سافل •• دنى » • ولكن بطلنا لم يفته ان
يلاحظ أن « السافل الدنى » كان يتأبط المحفظة الخضراء الضخمة ،
محفظة صاحب السعادة • قال السيد جوليا دكين لنفسه : « وهذه مهمه
خاصة أخرى » ، قال ذلك وقد احمر وجهه غضبا ، وأقعا مزيدا من
الاقماء • وما كاد الوغد يخفى ، دون أن يخطر بباله أن يكون بطلنا
حاضرا ، حتى سمع بطلنا وقع خطوات على السلم مرة ثالثة •• انه كاتب
المحكمة • لقد شعر السيد جوليا دكين بذلك فورا • وما هى الا لحظة
حتى ظهر خلفه وجه مدهش هو وجه كاتب آخر من كتاب المحكمة
اسمه بيسارنكو • صعق السيد جوليا دكين من ذلك • قال لنفسه : « لماذا
يقحم فى هذه القضية ! آه من هؤلاء الهمج ! •• لا حرمة عندهم
لشئ ! ••• » •

ثم قال يخاطب بيسارنكو :

- هيه يا صديقى ، هل من جديد ؟ من ذا أرسلك يا صديقى ؟
- جئت من أجل قضيتك الصغيرة • حتى الآن ما من نبأ جديد •
- وسنبلك متى جاءنا نبأ جديد •
- وأوستافيا ؟

- يستحيل أن يتغيب يا صاحب النبالة • لقد قام صاحب السعادة
بجولة على المكاتب مرتين • ثم ان وقتي لا يتسع أنا أيضا •••

- شكرا يا عزيزى شكرا ، ولكن قل لى ••••

- ليس فى وقتى متسع ، أحلف لك ••• انهم ينادوننا فى كل
حظة ••• ابق هنا لحظة •• فاذا علمنا شيئا جديدا يتصل بقضيتك •••
أبلغناك •••

- طيب يا صديقى طيب • اقترحك جيد جدا يا صديقى العزيز •
والآن شيء آخر : اليك هذه الرسالة يا صديقى ، وسأكافئك يا عزيزى •
- تحت أمرك •

- حاول أن توصلها الى السيد جوليا دكين •

- جوليا دكين ؟

- نعم الى السيد جوليا دكين يا صديقى •

- حاضر • متى انتهيت من الأعمال المستعجلة ، سأحمل الرسالة
اليه • أما أنت فابق هنا الى حين • ما من أحد يمكن أن يراك هنا •••

- ولكن يا صديقى لاتصدق هذا •• أنا لا أبقى هنا حتى لا يرانى
أحد • لاياصديقى ، لن أنتظر هنا ، بل فى الشارع الصغير ، على جانب •
يوجد هناك مقهى • فسأنتظر فيه فاذا بلغك شيء فلا تتأخر عن نقله الى
هل فهمت ؟

- طيب ، فهمت • والآن دعنى أنصرف •

- وسأكافئك يا عزيزى

كذلك هتف جوليا دكين يقول لكاتب المحكمة الذى تملص وابتعد .
فال بطلنا لنفسه وهو يخرج من وراء المدفأة : « ان هذا الوغد يصيح أكثر
وقاحة .. آ .. ان وراء الأكمة ما وراءها .. هذا واضح . فى أول
الأمر لم يكن هناك الا تىء من كتمان ... على كل حال ربما كان
مستعجلا حقا . لا شك أنه مشغول كثيرا . اذن لقد تفقد صاحب السعادة
المكاتب مرتين .. لماذا ؟ .. لا بأس .. قد لا يكون لهذا كبير شأن .
نتنظر فترى ... » *

وهم السيد جوليا دكين أن يفتح الباب ليخرج ، ولكنه سمع فى هذه
اللحظة قرعة عربية تقف أمام المدخل . انها عربية صاحب السعادة . ولم
يكد السيد جوليا دكين يثوب الى رشده حتى كان باب العربية قد فتح ،
فاذا برجل ينزل من العربية ويصير على درجات المدخل بوثة واحدة .
ولم يكن هذا الرجل الا جوليا دكين الأصغر نفسه ، الذى كان قد غادر
الوزارة منذ عشر دقائق . تذكر بطلنا عندئذ أن منزل صاحب السعادة
قريب من الوزارة ، على مسافة خطوتين منها .

قال بطلنا لنفسه : « هى مهمة خاصة . ذلك واضح لا ريب فيه » .
ولكن الدجّال كان قد فتح باب المدخل بعد أن أصدر الى الحوذى بعض
الأوامر . انه ما يزال يتأبط المحفظة الضخمة الخضراء ، محفظة صاحب
السعادة ، مع أوراق أخرى . وحين فتح الباب أوشك أن يصدم بطلنا ،
ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ وجوده ، فكان هذا اهانة جديدة لبطلنا .
واندفع يصعد السلم راكضا .

قال بطلنا لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئا ... ان وضعى
معرض للخطر ... أما هذا ... آه يا رب ! ... » وظل بطلنا ساكنا
فى مكانه نصف دقيقة . ثم لم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هو يجرى

صاعدا السلم ملاحقا سميّه • كان قلبه يخفق خفقانا شديدا • وكان يحس برعدات تسرى في جميع أعضائه • « لا بأس ••• من لم يجازف بشيء • لم يظفر بشيء • ثم اننى فى هذه القضية كلها لست الا مشاهدا ••• » • كذلك كان يردد السيد جوليا دكين وهو يخلع قبعته ومعطفه وجرموفيه فى حجرة المدخل •

كان الغسق يرين على جو المكتب ، حين دخل السيد جوليا دكين • لم يبصر لا آندره فيليبوفتش ولا أنطون أنطونوفتش • كانا كلاهما فى اجتماع بمكتب المدير • وكان المدير من جهته يستعجل الذهاب الى صاحب السعادة فيما يظهر • وكان معظم الموظفين ، ولا سيما الشباب منهم ، قد استغلوا فرصة هذا الغياب وهذه العتمة ، ففعدوا عن العمل واستسلموا للفراغ بانتظار ساعة اغلاق المكاتب • وقد تألفت منهم جماعات تثرثر وتتمازح وتضحك • حتى أن بعض الموظفين الشباب ، وهم أديانهم رتبا ، قد أخذوا يلعبون قرب النافذة لعبة « الطرة والنقش » فى غمرة هذه الفوضى العامة • وهذا بطلنا الذى يعرف شئون الادارة حق المعرفة ، ويرغب فى التقاط بعض المعلومات النافعة ، يقترب من عدد من الموظفين هم الذين بينه وبينهم مودة ، محاولا أن يسلم عليهم • فما كان أشد دهشته وأقساها حين لاحظ ما فى لهجة أجوبتهم من غرابة وتهرب ! •• • لقد بدا له وضعهم باردا جافا بل قاسيا • لم يمد أحد له يده • واكتفى بعضهم برد التحية مختصرة ثم ابتعد عنه ، ولم يزد بعضهم الآخر على أن رد التحية بحركة صغيرة من الرأس • حتى أن أحد زملائه أشاح بوجهه عنه دون أن يرد التحية أصلا • ثم كانت الاهانة الكبرى ، وهى أن عددا من الصبيان السعاة المعتزين الذى ليس لهم رتب البتة والذين لا يجيدون تسًا غير لعبة « الطرة والنقش » وغير التسكع فى الأماكن المشبوهة على حد تعبير السيد جوليا دكين قد تجمعوا حوله ثم أحاطوا به احاطة تامة فلا

يستطيع أن يخرج من النطاق الذي أحكموا ضربه عليه ، وأخذوا
يتفرسون فيه باستطلاع وتعجب واحتقار .

ذلك نذير سييء . لقد أدرك السيد جوليا دكين ذلك ، فقرر أن
لا يوليه أى انتباه . غير أن حادثا لم يكن فى الحسبان قط ، جاء يفسد
عليه خططه فجأة ، ويبدد آماله كلها جملة .

فمن جمع الشبان الموظفين الذين تحلقوا حول بطلنا فى هذه اللحظة
المشومة ، لم يلبث أن ظهر له سميه على حين بفته . كان السيد جوليا دكين
الأصغر مرحا فرحا تشيطا على عادته . نعم ، كان كثير الحركة ، متواثب
الخطى ، ساخر اللهجة ، شديد التملق ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ،
خفيف الساقين ، على عهده به ، على ما كان دائما ، ولا سيما أثناء تلك
الجلسة التى ما يزال بطلنا يحتفظ منها بذكرى كاوية جدا . انه يدور
ويطير مبتسما ابتسامة تكشف عن أسنانه ، ابتسامة تحبب الجميع . فما
هى الا ثوان حتى كان فى وسط الجماعة يصافح الأيدى ويربت على
الأكتاف ، يمسك بذراع هذا بينما هو يشرح لذلك المهمة التى عهد بها
اليه صاحب السعادة . تكلم عما قام به من مساع وما بذله من نشاط وما
حصل عليه من نتائج . حتى لقد مضى به الأمر الى حيث قبّل أحد الموظفين
على شفتيه ، وهو خير أصدقائه ولا شك الخلاصة أن كل شيء جرى
على نحو ما رآه السيد جوليا دكين فى منامه . وبعد هذه الأنواع من الرياء
المتضع والسلام الكاذب والتقبل التملق مع جميع الناس ، بدأ للسيد
جوليا دكين الأصغر ، على حين فجأة ، أنه نسي أن يحيى أقدم أصدقائه ،
عن سهو بدون شك ، فسرعان ما مد يده الى بطلنا مسلما ، وسرعان ما تناول
بطلنا هذه اليد ، عن سهو بدون شك أيضا ، لأنه كان قد استطاع خلال
ذلك الوقت كله أن يلاحظ مكائد هذا الرجل الدجال ، أقول سرعان
ما تناول بطلنا هذه اليد التى 'مدت اليه فجأة على غير توقع ، تناولها

بشراة ، وصافحها بقوة ، وأقبل يرد التحية بعاطفة قوية وصدقة خالصة .
لقد صافح بطلنا يد صاحبه باندفاع روحى وحنان قلبى • أتراه فعل ما فعل
لان هذه البادرة من صديقه الوقح قد خدعته ، أم لانها فاجأته سرعتها ،
أم لانه شعر فى هذه اللحظة بعجزه لا أكثر من ذلك ولا أقل ؟ من
الصعب على أن أقطع فى هذا برأى • وانما المهم أن السيد جوليا دكين ،
بكمال صحوه وملء ارادته ، قد صافح مصافحة قوية ، على مرأى من
الناس ، يد ذلك الانسان الذى كان يعد عدوه اللدود •

فما كان أشد الدهول والحنق ، والهول والعار الذى شعر به بطلنا
حين رأى خصمه ، حين رأى عدوه اللدود يغير موقفه فجأة • لقد أدرك
الذجال الكريه الخطأ الذى ارتكبته ضحيته المسكينة البريئة ، فاذا هو
ينتزع يده من يد بطلنا بحركة مفاجئة نظة متعجرفة ، وبرود كامل لانخالطه
أية عاطفة من عواطف الرحمة الانسانية ، ثم اذا هو ينفض يده كمن يريد
أن يظهرها من رجس علق بها نتيجة للامسة تثير الاشمزاز والتفرز ،
واذا هو يشفع هذه الحركة بصقعة على الارض وبحركة كريهة وقحة ،
واذا هو يزيد على ذلك فيخرج منديله ويأخذ يمسح به أصابع يده التى
صافحها بطلنا • وكان المقتصب الدنى يشفع هذه الحركات كلها بنظرات
يجيلها حوله على عادته ، كأنه يريد أن يتخذ من الحضور شهودا على
سلوكه الحقير ، وهو يتفرس فى الأعين كأنه يريد أن ينفخ فيها الكره
والاحترار للسيد جوليا دكين • غير أن هذا الموقف المستفز المتحدى الذى
وقفه هذا الشخص المقيت بدا أنه أثار استنكار الحضور واستياءهم ،
فقامت هنا وهناك دمدمات واحتجاجات • وسمع السيد جوليا دكين هذه
الضجة • ولكن الذجال لم يلبث أن طلع على الحضور بمزحة فكهة
موفقة ، فاذا بالمزحة تحطم وتبدد آخر آمال بطلنا • لقد مالت كفة الميزان
مرة أخرى الى جهة عدوه القاسى الحقير •

« انظروا الى فوبلاس الروسى ، الى فوبلاسنا القومى • اسمحوالى
أن أقدم اليكم ، ايها السادة ، الفتى فوبلاس • • • كذلك دوى صوت
الغاضب رانا وقحا على عادته المألوفة ، وهو يتطير وسط الموظفين مشيرا
الى جوليا دكين الأصلى ، الواقف ساكنا متجمدا • ثم أضاف الى ذلك يقول
بلهجة ألفة لا تطاق ، وهو يتقدم نحو الشخص الذى يستهزى به : «ها
تعاق يا حبيبي • • • ووجدت مزحة هذا الشخص الدنيء صدى حسنا
لدى بعض المشاهدين ، لا سيما وأنها تومىء ايماء مباشرة وقحا الى حادث
يبدو أن جميع الناس يعرفونه •

أحس بطلنا بيد أعدائه ثقيلة على كتفيه • فلم يلبث أن اتخذ قرارا ،
فإذا هو ، وقد اتقدت عيناه ، واصفر وجهه ، وانفجرت شفتاه فى جانب ،
يتصلص من الجمهور على نحو من الانحاء ويتجه نحو مكتب صاحب
السعادة بخطى مترنحة صغيرة • فلما وصل الى حجرة المدخل وجد نفسه
وجها لوجه أمام آندره فيليوفتش الذى كان خارجا من مكتب المدير •
كان فى الحجرة عدد من الأشخاص ليس لهم أى شأن بهذه القضية ،
ولكن ذلك لم يؤثر فى صاحبنا ، فسرعان ما عزم أمره ، وجمع شجاعته
(وهو يكاد يدهش من جرأته ويفيط نفسه عليها) ، واتجه الى آندره
فيليوفتش الذى بهتته هذه الهجمة التى لم تكن فى الحسبان •

سأله آندره فيليوفتش دون أن يصغى الى كلامه المضطرب :

— ها ••• هذا أنت ••• ماذا تريد ؟

فقال بطلنا بصوت واضح رصين وهو يحدق الى مخاطبه صامدا :

— آندره فيليوفتش ••• أريد ••• هل أستطيع أن أتمس حديثا

خاصا مع صاحب السعادة يا آندره فيليوفتش ؟

– ماذا تقول ؟ ... طبعاً ... لا •

ونظر آندره فيليوفتشس الى بظلنا من رأسه حتى قدميه :

– أقول لك ذلك يا آندره فيليوفتشس لأنه يدهشنى أنه لما يحسر
أحدا حتى الآن القناع عن وجه الدجال الحقيقر !

– كيف ؟

– أقول : الحقيقر ، يا آندره فيليوفتشس !

– من تعنى ؟

– أعنى شخصا بعينه يا آندره فيليوفتشس ، أعنى شخصا بعينه يا آندره
فيليوفتشس ... وأنا على حق ... أعتقد يا آندره فيليوفتشس أن رؤساءنا
لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات (أضاف جوليا دكين ذلك خارجا عن
طوره) ... وأنا على يقين من أنك تفهم معنى مبادرنى هذه الكريمة
الشريفة .. ان علينا كما يقال أن نمد رئيسنا أباً لنا يا آندره فيليوفتشس •
وأنا أحب أن يكون هذا الرئيس العادل بمثابة أب لى أضع مصيرى بين
يديه يتصرف فيه كما يشاء • سوف أقول له ... (هنا أخذ صوت السيد
جوليا دكين يرتجف ، واحمر وجهه ، وسقطت دمعتان من عينيه) ...

بهت آندره فيليوفتشس من أقوال السيد جوليا دكين ، وبلغ من
الدهشة والذهول أنه تراجع خطوتين على غير شعور منه ، وأخذ ينظر
حواليه خائفا قلعا •

كان يصعب على المرء أن يتصور لهذا المشهد مخرجا ... ولكن
باب مكتب صاحب السعادة فتح فجأة ، وظهر صاحب السعادة فى العتبة
يصحبه عدد من الموظفين • هب جميع الحضور واقفين • ونادى صاحب

السعادة آندره فيليوفتشس • وترك الرجلان الحجرة سائرين جنباً الى جنب متحدثين فى شئون تتصل بالعمل • وتبعهما الآخرون • فلما بقى السيد جوليادين وحيدا استرد شعوره وثاب الى رشده ، ثم مضى يطلو خاضعا طائعا تحت جناح أنطون أنطونوفتشس الذى كان يسير فى آخر الموكب مهدم الهيئة متجهم الوجه •

قال السيد جوليادين لنفسه شاكيا : « آ آ آ لقد أخطأت مرة أخرى • • • غلظت مرة أخرى • • • على كل حال ، لا ضير • • • » ثم قال يخاطب أنطون أنطونوفتشس مدمدا بصوت ناعم مرتجف من الانفعال بعض الارتجاف :

– آمل أن لا ترفض أنت على الأقل أن تستمع الى كلامى وأن تنظر الى حالتى بعين الاعتبار • اننى حتى الآن لا أستطيع أن أفهم أقوال آندره فيليوفتشس • فهلا شرحتها لى يا أنطون أنطونوفتشس اذا كان ذلك فى وسعك !

فأجابه أنطون أنطونوفتشس بلهجة قاسية وهو يفصل كلماته :

– سنعرف كل شىء فى حينه •

أدرك السيد جوليادين أن رئيس دائرته لا يجب أن يواصل الحديث معه • وأضاف أنطون أنطونوفتشس قوله :

– على كل حال ، ستكون على علم بالأمر قريبا • ستبلغ رسميا فى هذا اليوم نفسه •

– ماذا تعنى بقولك « رسميا » يا أنطون أنطونوفتشس ؟ لماذا تقول : « رسميا » ؟

كذلك سأل السيد جوليادين خائفا وجلا • •

- ليس لنا أن نناقش فى قرارات رؤسائنا يا ياكوف بتروفتشس ...
- ما علاقة الرؤساء بهذا الأمر يا أنطون أنطونوفتشس ؟ ما شأنهم فى
هذه القضية؟ اننى لأأرى أى داع الى ازعاج رؤسائنا بأنطون أنطونوفتشس؟
أتراك تقصد حوادث أمس يا أنطون أنطونوفتشس ؟

- لا ... ليس الأمر أمر ما جرى بالأمس • ان فى قضيتك شيئاً
آخر يعرج !

- ما الذى يعرج يا أنطون أنطونوفتشس ؟ يخيّل الىّ يا أنطون
أنطونوفتشس أنه ما من شيء يعرج !

قاطعهُ أنطون أنطونوفتشس يقول بلهجة خشنّة :

- مع من كان فى نيتك أن تتأمر ؟

فقد السيد جوليا دكين رباطة جأشه ، وارتعش ، واصفر وجهه
اصفراراً شديداً • قال ثائراً :

- طبعاً يا أنطون أنطونوفتشس ... اذا لم يُستمع الا الى وشايات
الأعداء ، دون الاصغاء الى أقوال المتهم ، فمن الطبيعى عندئذ ...

كذلك تتم السيد جوليا دكين بصوت مخفق ، وأردف يتم كلامه :

- نعم من الطبيعى فى هذه الحالة يا أنطون أنطونوفتشس أن يُدان
برىء وأن يتألم ظلماً وعدواناً •

- ها •• وما قولك فى فعلك الدنيء مع فتاة شريفة أو شكتَ أن
تدنس سمعتها ؟ فتاة غمرتك أسرتها الكريمة السخية التى يجمع الناس
على احترامها بأنواع الخيرات ...

- عن أى فعل تتكلم يا أنطون أنطونوفتشس ؟

- ها ... ولا شك أنك تريد أن تنكر أيضا الأذى الذى ألحقته
بفتاة أخرى ، متواضعة المركز الاجتماعى طبعا ، ولكنها من أسرة أجنبية
محترمة !

- اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش ... اصغ الى كلامى من فضلك
يا أنطون أنطونوفتش !

- وما قولك فى موقفك الدنىء من شخص آخر ، فى وشاياتك
عليه ، فى اتهاماتك اياه بأفعال أنت وحدك مقترفها ؟ هه ؟ ما قولك فى
هذا ؟

تمتم بطلنا مبهورا لاهنا :

- أنا يا أنطون أنطونوفتش ؟ ولكنى لم أطرده أبدا من بيتى ...
لم أمر بتروشكا أبدا ... أقصد لم أمر خادمى أن يطرده .. لقد أكل
من خبزى يا أنطون أنطونوفتش ... استفاد من ضيافتى (أضاف السيد
جوليادكين ذلك بصوت أجش يفيض انفعالا ، وكانت ذقنه ترتعش ،
وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع)

أجاب أنطون أنطونوفتش ساخرا :

- تلك حكايات يا ياكوف بتروفتش !

فهزت لهجته الساخرة السيد جوليادكين هزا عميقا •

- اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش أن ألقى سؤالا أخيرا : هل
صاحب السعادة على علم بهذه القضية كلها ؟

- طبعا ... والآن دعنى ... لا أملك من الوقت ما أضيعه معك •
سوف تَبْلُغ اليوم كل ما يتصل بك •

– ناشدتك الله يا أنطون أنطونوفتش ... أتوسل اليك ... دقيقة
واحدة أخرى ...

– سيتسع وقتك لقص كل شيء •

– لا لا يا أنطون أنطونوفتش ... أنا ... استمع الى ... أرجوك
يا أنطون أنطونوفتش ... أنا لا أناصر الأفكار الهدامة ... أنا أتحاشى
الأفكار الهدامة • أنا مستعد كل الاستعداد لأن أسلم بأن ... حتى لقد
أعلنت رأيي قاتلاً ...

– طيب طيب ... لقد سمعت هذا ••

– لا لا • هذا لم تسمعه يا أنطون أنطونوفتش • لا ... أقصد هنا
شيئاً آخر يا أنطون أنطونوفتش ، شيئاً حسناً ، حسناً جداً ، يسرُّ سماعه
•• لقد أعلنت رأيي : يا أنطون أنطونوفتش ، وشرحته قبل الآن • اليك
رأيي الذى أعلنته وشرحته : قلت ان الله قد شاء أن يخلق شخصين
متماثلين تماثلاً كاملاً مطلقاً ، فأحدهما عين الآخر تماما ، وان رؤساءنا
الكرام الذين يملكون البصيرة الصادقة قد أدركوا مشيئة الله ، فشمّلوا
برعايتهم وحمايتهم التوأمين كليهما ... هذه فكرة حسنة يا أنطون
أنطونوفتش ... أنت ترى أنها فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش • اننى
بعيد عن الأفكار الهدامة ، كما ترى • وأعتقد أن قلوب رؤسائى تفيض
محبة ورافة كقلوب الآباء • هذا هو رأيي : فهناك من جهة أولى رؤساء
تفيض قلوبهم كرماً ورافة ، وهناك من جهة أخرى شاب يحتاج الى عمل ،
... كن لى عوناً وسنداً يا أنطون أنطونوفتش • دافع عنى واحمنى
يا أنطون أنطونوفتش • أنا لم أفعل سوءاً يا أنطون أنطونوفتش • أرجوك
... دعنى أقول كلمة أخرى يا أنطون أنطونوفتش ••

ولكن أنطون أنطونوفتش كان قد ابتعد • أما بطلنا فقد أصبح
لا يعرف أين هو ، ولا يعرف ماذا يسمع ، ولا ماذا يصنع ، ولا ماذا
يصنع به ، ولا ماذا سيصنع به ••• لقد اضطرت نفسه اضطرابا عميقا
مما سمعه ومما وقع حتى الآن ••

أخذ يبحث في جمهرة الموظفين عن أنطون أنطونوفتش ، بنظرة
ضارعة متوسلة • كان يريد أن يرى نفسه في نظره • كان يريد أن
يقول له بضع كلمات اخرى ، كلمات جميلة بريئة ظاهرة ، كلمات
يمكن أن تدل على نبل نيته •

وفي أثناء ذلك كان شعاع جديد يتسلل شيئا فشيئا الى قلب هذا
الاضطراب في عواطف بطلنا ، شعاع جديد رهيب يكشف له فجأة عن
أفاق فسيحة لأحداث ليست في الحسبان ، أحداث لم يكن بطلنا قد تصور
أنها ممكنة حتى الآن •

وفي هذه اللحظة صدمه أحدهم في خاصرته •

فالتفت فرأى أمامه بيسارنكو •

– هذه رسالة لك يا صاحب السعادة •

– ها ••• لقد أوصلت اذن رسالتى ؟

– لا بل جئء بهذه الرسالة الى هنا فى الساعة العاشرة من الصباح •

• ان الخفير سرجى ميكاييف هو الذى حملها من السكرتير فاخمارايف •

– طيب يا صديقى ، طيب جدا ، سوف أكافئك يا عزيزى •

قال السيد جوليا دكين هذه الكلمات ودس الرسالة فى جيب رديجوته

عاقدا أزراره بكثير من العناية • ونظر حواليه ، فما كان أشد دهشته حين

رأى أنه قد أصبح فى الدهليز الكبير وسط سائر الموظفين • انها ساعة انصراف الموظفين واغلاق المكاتب • لم يكن السيد جوليا دكين قد شعر بذلك أبدا ، لا ولا فهم ما هى الظروف التى جعلته الآن موجودا فى الدهليز ، لابساً معطفه منتعلاً جرموقيه حملاً قبعة بيده • كان الموظفون جامدين ساكنين ينتظرون فى وضع يدل على الاحترام • ذلك أن صاحب السعادة كان واقفاً فى أسفل السلم ينتظر عربته ، ويتحدث فى كثير من الحماسة مع اثنين من مستشارى الدولة ومع آندره فيليبوفش • وعلى بعض خطوات من تلك الجماعة كان يقف أنطون أنطونوفتش مع اثنين أو ثلاثة من الموظفين يتسمون وهم يرون صاحب السعادة ضاحكاً مازحاً ، وكان سائر المستخدمين المحتشدين فى أعلى السلم يتسمون هم أيضاً ويرصدون كل ضحكة جديدة يطلقها صاحب السعادة • كان هنالك رجل لا يتسم: انه البواب الضخم فيدوستش • انه واقف وقفة التأهب العسكرى ، قابض على مقبض الباب ، ينتظر بفارغ صبر أن ينال نصيبه اليومي من المتعة • وكانت متعته هى هذه : أن يفتح أحد مصراعى الباب عريضاً بدفعة واحدة ثم يدع لصاحب السعادة أن يمر وقد حنى هو ظهره ، كالكوس احتراماً واجلالاً ••• أما الشخص الذى كان يشعر بأكبر فرح أثناء هذا الانتظار العارض ، فلا شك أنه ذلك العدو الكريه الفاجر اللدود ، عدو السيد جوليا دكين •

كان فى هذه اللحظة لا يعرف أحداً من سائر الموظفين • كان فى هذه اللحظة لا يتوابع بينهم ولا يدور ، على عادته المقيتة الحقيرة • كان لا يحاول أن ينتهز الفرصة المواتية للتجيب اليهم وكسب مودتهم • هو الآن أبصار وأسماع كله •• انه متجمع على نفسه فى وضع غريب ، ليرهدف السمع من غير شك • انه يلتهم صاحب السعادة بعينيه ؛ ولا تظهر

على وجهه الا بضع جعدات تشنجية من حين الى حين تكشف عما فى قرارة
نفسه من حركات عميقة خفية •

قال بطلنا لنفسه : « يا للوعد ! انه يصطنع هيئة من له حظوة ! ياله
من لص : ••• وددت لو اعرف اسباب نجاحه بين الناس • انه لا يملك
شيئا ، لا فكرا ولا ثقافة ولا خلقا ولا ارادة ولا عاطفه ••• انه محظوظ
هذا الفاسق ! رباه رباه ! ما اعجب ما يمكن أن يحصل عليه انسان من
نجاح سريع ومن ثقة كبيرة ! ولسوف يمضى فى هذا الطريق قدما • بينما
انه سوف يمضى فى هذا الطريق قدما ، هذا الوعد ••• لسوف يحقق
هدفه • ان الحظ معه ، هذا اللص ! ليتنى أعرف بماذا كانوا يتهامون
منذ هنيهة ! ما هى الأسرار التى بينه وبين الاخرين ؟ بماذا كانوا يتهامون
خفية ؟ رباه ! ماعساي أصنع ؟ ما عساي أفعل ؟ ••• أمضى أقول له :
« لقد تبت ••• اننى أعترف بخطئى •• فى زماننا هذا لايد لرجل شاب
من أن يعمل يا صاحب السعادة •• ولست أشعر بخجل من هذه المصادفة
التي تبعث الاضطراب فى النفس • أعدك بأن لا أرفع صوتى بعد الآن
باحتراج • أعدك بأن أحتمل بعد الآن كل شيء طائعا صاعرا صابرا •
ترى أهذا ما يجب أن أفعله ؟ ••• لا •• ان هذا لا يجدى مع شخص
فاجر كهذا الشخص • ليس للكلمات من تأثير فى نفسه • يستحيل رد
عقل غبى كعقله الى سبيل الصواب والرشاد • ولكن فلنحاول • قد تواتبنى
فرصة مناسبة • لماذا لا أجرب حظى ؟ ••• » •

أحس السيد جوليا دكين ، وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب
وقلق أنه لا يستطيع أن يلبث فى مكانه هذا على هذه الحال • أحس أن
اللحظة الحاسمة تقترب ، فلا بد له أن يكشف أحدا بالأمر • وشيئا
شيئا أخذ يشق لنفسه طريقا الى المكان الذى يقف فيه ذلك الرجل
الذى العجيب الذى كان رفيقه فى ذات مساء •

ولكن فرقة عربية تقف لم تلبث أن سمعت في هذه اللحظة نفسها •
انها العربية التي كان صاحب السعادة ينتظرها منذ مدة طويلة • شد
فيدوستش الباب ، وفتح الطريق لصاحب السعادة منحيا كالقوس •
وأسرع الموظفون الآخرون نحو الباب في الوقت نفسه • فأنفصل السيد
جوليادكين عن سميّه في غمرة هذا الاندفاع •

انسل السيد جوليادكين في صفوف الجمهور مرددا لنفسه دون أن
يحول بصره عن الرجل الذي يريد أن يدركه « لا ••• لن تفلت مني » •
وتبشر الجمهور أخيرا ••• فأصبح بطلنا حرا طليقا ، فأسرع يطارد
عدوه •

الفصل الحادي عشر



أنفاس السيد جوليا دكين في صدره • كان يطير ،
كأن له جناحين ، ملاحقا عدوه الذي يتعد سريعا
•• ان بطلنا يشعر بحماسة عظيمة وحميا شديدة •
ومع ذلك فان كل شيء يحمل على الاعتقاد ، رغم
هذا الاندفاع القوي ، أن في وسع ذبابة أن تقلبه على الأرض بسهولة اذا
هي لطمته بجناحها لكمة صغيرة ، هذا اذا وجد ذباب في بطرسبرج في مثل
هذا الفصل من السنة • كان السيد جوليا دكين يحس بأنه عاجز عن
مواصلة السير ، وكان يحس في الوقت نفسه أن قوة غريبة مستقلة عن
جسمه استقلالا تاما كانت تجره جرا ، فلولا هذه القوة الغريبة عن جسمه
لما استطاع أن يخطو أيسر خطوة ، لأن ساقه كانتا تصطكان وترفضان أن
تسعفا • وظل يتابع جريه متقطع الأنفاس وهو يردد لنفسه كالألة :
« ما يزال يمكن أن يسوى كل شيء على أحسن وجه ، نعم على أحسن
وجه ، أو على أسوأ وجه ••• »

« ومهما يكن من أمر فقد ضاعت قضيتي ، ما في ذلك ريب
لقد دمرت •• دمرت تماما •• هذا أكيد •• محقق •• لا عفو ولا غ
•• ليس في الامكان اجراء أى تغيير •• » • ومع ذلك ففي اللحظة
استطاع فيها بطلنا أن يمسك بحافة معطف عدوه ، أحس كأنه يبعث
جديدا دفعة واحدة • لكأنه حقق نصرا عظيما • لقد نادى العدو ال
عربية ، وهم أن يركبها ، فصاح بطلنا يقول : « سيدى ، سيدى ،
منك أن ••• » • فأجابه عدوه القاسى الذى وضع احدى قدميه
العربة :

– لا ••• لا تأمل منى شيئا ، أرجوك •••

فلما حاول أن ينقل الى العربة قدمه الثانية ، حركها فى ا
مضطربا ، ولم يستطع أن يحافظ على توازنه الا فى كثير من العناء ، و
فى الوقت نفسه ، يحاول أن يتملص من تشبث جوليا دكين به ، و
بطلنا تمسك بمعطف خصمه بكل ما وهبته الطبيعة من قوى •

– ياكوف بتروفنش ، عشر دقائق فقط ••

– آسف •• ليس فى وقتى متسع •

– أرجوك يا ياكوف بتروفنش ، أرجوك ، أتوسل اليك •••
فضلك يا ياكوف بتروفنش •• من فضلك •• هى مفاتحة صريحة
بلا مواربة •• بلا لف ولا دوران •• لحظة واحدة يا ياكوف بتروفن

– ليس فى وقتى متسع يا صديقى العزيز جدا •

كذلك أجاب الدجال المرائى المنافق •

وكان تلتفه المتصنع يكشف عن مودة وفضاظة كلاهما جارحة

وأردف يقول :

- دع هذا ليوم آخر .. صدقني .. سيسرني أن أستمع بقلب مفتوح .. احلف لك .. أما اليوم فمستحيل فعلا .
قال السيد جوليا دكين لنفسه : « ما أجبنه ! » . ثم أعول يقول وقد فاض قلعا وخوفا :

- ياكوف بتروفنش ، ياكوف بتروفنش ، أنا لم أكن عدوك في يوم من الأيام . ان آلسنة سوء قد اتهمتني ظلما .. أما انا فمستعد لأن .. ياكوف بتروفنش ، هلا دخلنا لحظة الى هذا المقهى فتكاشفنا بصراحة ، بقلب مفتوح على حد تعبيرك الصحيح جدا . سنتكلم لغة صريحة رفيعة .. وسوف ترى : سوف يصبح كل شيء واضحا . نعم يا ياكوف بتروفنش ، سوف ترى ، سوف يتضح كل شيء حتما .

- في هذا المقهى ؟ موافق .. ولم لا أوافق ؟ لندخل هذا المقهى . ولكنني أضع شرطا ، شرطا واحدا ، يا عزيزي ، هو أن يتضح كل شيء آخر الأمر ، مرة واحدة . نعم ، مرة واحدة الى الأبد ، يا صديقي اللطيف .

كذلك قال جوليا دكين الأصغر وهو ينزل من العربة ويلطم كتف بطلنا بدون حياء . وأضاف يقول :

- آه منك أيها الرفيق القديم ، اننى مستعد فى سبيلك لأن أسير فى هذا الطريق الضيق ، كما اقترحت علىّ هذا فى المساء الأول ، هل تتذكر ؟ .. آه ما أخبت هذا الياكوف بتروفنش ! انه يصنع بى مايشاء (هذا ما أضافه الرفيق المنافق المرائى ، وهو يتشم ابسامة خفيفة ، ويدور حول بطلنا ويلتف) ♦

كان المقهى يقع فى زقاق صغير بعيد عن الشوارع الكبرى بالعاصمة .
فلما دخلاه كان خاليا خلوا كاملا ، الا من المانية سمينة ظهرت لهما وراء
البسطة حين سمعت رنين فتح الباب . مضى السيد جوليا دكين ورفيقه
الشريير الى الغرفة المجاورة حيث كان هناك صبي يدين حليق شمعر
الرأس يتحرك حول المدفأة محاولا أن يؤجج النار بقبضة من نشارة .
وجيء للزبون بقدين من الشكولاته تنفيذا لطلب السيد جوليا دكين .
قال جوليا دكين الأصغر لصديقه وهو يغمز غمزة خيثة :

— امرأة بضة شهية .. هه ؟

فاحمر وجه بطلنا وحاذر أن يجيب .

— ها ... معذرة .. لقد نسيت تماما .. أنا أعرف ذوقك . نحن
من عشاق الألمانية النجيلات الرشيقات يا سيدى . نعم يا عزيزى الشهم
ياكوف بتروفتش ، نحن ، أنا وأنت ، ميالون الى الألمانية النجيلات ،
شريطة أن لا يعوزهن شيء من فتنة وانغراء طبعا : نستاجر فى بيوتهن
غرفا ، ثم نعويهن ، وفى مقابل أطباق الطعام الصغيرة التى يقدمها لنا ،
وفى مقابل صحون الحساء بالبيرة وصحون الحساء باللبن التى نطعمها
عندهن ، نعطينهن قلبنا وبضع سندات .. هذه طريقتنا فى العمل . آه منك
أيها الناوى الذى يسحر قلوب النساء ويفتن عقولهن ! آه منك
يا فوبلاس !

قال السيد جوليا دكين الأصغر هذه الغمزات واللمزات الموجهة
الواقحة مصحوبة بإتسامات لطيفة ومداعبات . وكان هذا المناق يسسط
عواطف الصداقة ويعرب عن فرحته بوجوده مع السيد جوليا دكين . ولكن
بطلنا لم يكن من الغباء والسذاجة . وقلة الخبرة بحيث تنطلى عليه هذه
الأحاييل ، فلما لاحظ صاحبه المقيت الكريه ذلك أسرع يبدل أسلوبه

ويلعب باوراقه مكشوفة • فما ان نطق الدجال الحقيق بتلك الكلمات
الدينية حتى بادر يضع يده على كتف جاره طويلا غير متخرج أى تخرج،
رافعا الكلفة الى حد يثير الحفيظة ويبعث على السخط والحق ؛ ثم لم يكفه
ذلك فاندفع فى أمازيح أخرى غليظة بذئثة ، ثم أراد أن يكرر فعلته
الكريهة التى فعلها أمس حين قرص وجه بطلنا ، رغم ما اظهره بطلنا من
مقاومة وأعلنه من احتجاج واستياء • فعلى الدم فى عروق بطلنا ازاء هذه
الوقاحة • ومع ذلك كبح جماح نفسه ولزم الصمت •• كان ينتظر
ساعته •

أجاب بصوت مضطرب بعض الاضطراب ، ولكنه ما يزال مسيطرا
على نفسه :

- هذه مزاعم أعدائى •

وفى هذه اللحظة نفسها ألقى بطلنا نظرة قلقة نحو الباب • كان
يخشى أن لا يندفع مخاطبه الذى كان واضح المرح والارتياح فى مزاحة
مزعجة ثقيلة فى مكان عام ، مزاحة لا يمكن احتمالها فى مجتمع محترم
على كل حال •

أجاب الدجال على قول السيد جوليا دكين وهو يضع قدحه الذى
أفرغه فى جوفه بشراهة لا حياء فيها :

- فى هذه الحالة أوافق • فى هذه الحالة أوافق ، ولم يبق ما يقوله
أحدنا للآخر •• كيف صحتك الآن يا ياكوف بتروفتش ؟

قال بطلنا بهدوء ووقار :

- لن أقول لك الا شيئا واحدا يا ياكوف بتروفتش ، هو أننى لم
أكن عدوك فى يوم من الأيام •

- همم ... هذا شيء يجب التثبت منه ! وبتروشكا ؟ ما اسم ذلك القرد ؟ بتروشكا ، أليس كذلك ؟ نعم هو كذلك • كيف هو الآن ؟ أحسب أن حالته جيدة ! أهو على ما كان عليه دائما ؟
قال السيد جوليا دكين مدهوشا بعض الدهشة :

- حالته حسنة ، مثلما كان دائما يا ياكوف بتروفتش • لا أدري ماذا يجب ان افعل يا ياكوف بتروفتش ... ولكنني من جهتي ... بكل صدق وبكل صراحة •• اخيرا أنت تعرف يا ياكوف بتروفتش •

قال السيد جوليا دكين الاصفر بصوت شجيٍ معبر ، مصطنعا هيئة انسان حزين اعرق الحزن ، نادم اشد الندم ، هيئة انسان جدير بالاشفاق والرثاء والرحمة :

- ولكنك تعلم أنت نفسك يا ياكوف بتروفتش ، تعلم أنت نفسك أن هذا الزمان صعب •

ثم أضاف وقد عقد النية واضحة على أن يتملق بطلنا :

- انظر يا ياكوف بتروفتش ، سوف أشهدك أنت نفسك : انك رجل ذكي تستطيع أن تحكم حكما منصفا •• هل الحياة سهلة ؟ ... لا يا ياكوف بتروفتش •• ليست الحياة لعبا •• انك تعرف ذلك حق المعرفة يا ياكوف بتروفتش •

بهذا ختم الماكر المنافق كلامه بلهجة سيد ذكي مثقف ، أهل لان يناقش أخطر مشكلات الحياة وأرفع مسائل الوجود •

قال بطلنا بحماسة :

- سوف أحاطبك من جهتي يا ياكوف بتروفتش بلغة صريحة

جريئة لا احاول ان الف وان ادور • ساقول لك يا ياكوف بتروفتش ،
بكل صدق واخلاص واستقامة وشرف ، اننى برىء كل البراءة ••• نعم
يا ياكوف بتروفتش ، اؤكد لك ذلك • ثم انك تعرفه بنفسك يا ياكوف
بتروفتش • المسألة ، فى حياتنا نحن ، يا ياكوف بتروفتش مسألة سوء
تفاهم متبادل - وكل شىء ممكن فى هذه الحياة - سوء تفاهم فاقمته احكام
المجتمع ، احكام اناس رعاع عمى عيب ••• أنا اكلمك بصراحة يا ياكوف
بتروفتش : اعود فاقول لك ان كل شىء ممكن فى هذه الحياة •••
واضيف الى ذلك أننا اذا ارتضينا أن ننظر الى القضية كلها نظرة صادقه
رفيعة سامية ، كان فى وسعى أن أؤكد لك ، بغير خجل زائف ، أنه
يكاد يسرنى أن أعترف لك ببعض ما ارتكبت من أخطاء وما وقعت فيه
من ضلالات ••• نعم ، ولسوف يبهجنى أن أكشف عن هذه الأخطاء
والضلالات • أنت انسان ذكى شريف • وانك لتدرك بنفسك حق
الادراك كل ما اعترفت لك به • نعم أنا أؤكد لك أننى مستعد لأن أبوح
بكل شىء ، لأن أعترف بكل شىء ، اعترافا شريفا صادقا لا يخالطه حياء
كاذب ولا خجل زائف •

هكذا ختم بطلنا كلامه وقد لاحت فى وجهه رفعة ونبالة ووقار •
- مصير ! قدر ! ياكوف بتروفتش ••• دعنا من هذا كله الآن •
ولنستعمل هذه اللحظات القصار التى تهيأت لنا فى حديث أمتع وأفيد •
ذلك أليق بزميلين ••• ثم انك لم تنح لى أن أقول كلمتين طسوال هذه
المحادثة ••• وليس الذنب فى هذا ذنبى يا ياكوف بتروفتش •
فقاطعه بطلنا يقول بحماسة :

- ولا هو ذنبى ، ولا هو ذنبى ••• أشهد على ذلك قلبى يا ياكوف
بتروفتش ••• قلبى يؤكد لى أننى غير مسئول عن هذه القضية كلها •

ثم أضاف يقول بلهجة المصالحة :

– فلنحمل القدر تبعه ذلك كله •

وكان صوته ما ينفك يزداد ضعفا •

قال المنافق بصوت رقيق عذب :

– ماذا بك ؟ وكيف حالك عامةً في هذه الأيام ؟

قال السيد جوليا دكين بصوت أرق وأعذب أيضا :

– أعاني من سعال قليل •

– يجب أن تحاذر. هذا أوان الأمراض المعدية • ماأسرع ما يصاب

المرء بالتهاب في الحلق في هذه الأيام ! أنا من جهتي لا أكتمك أنتي

ألبس قميصا داخليا من صوف •

– أنت على صواب يا ياكوف بتروفتش • ماأسرع ما يصاب المرء

بالتهاب في الحلق !

وأضاف بطلنا بعد صمت قصير :

– ياكوف بتروفتش ، انني أدرك الآن أخطائي ••• وأتذكر بكثير

من الحنان تلك اللحظات الجميلة التي سعدت بقضائها معك في مسكني

الذي أصفه بأنه متواضع ولكنني أتجرأ فأصفه أيضا بأنه مضياف •

فأجابه مخاطبا بلهجة فيها شيء من العنب ، المسوَّغ على كل حال :

– ليس هذا ما عبرت عنه في رسالتك •

(والواقع أن السيد جوليا دكين الأصغر كان في هذه اللحظة ، في

هذه اللحظة فقط ، صادقا كل الصدق منصفا كل الانصاف) •

- كنت مخطئاً يا ياكوف بتروفتش ... اننى أرى اليوم بوصوح
أننى كنت مخطئاً حين كتبت لك تلك الرسالة اللعينة . اننى أستحى أن
أنظر اليك الآن يا ياكوف بتروفتش ... أقسم لك .. اسمع .. أعد الى
تلك الرسالة .. سوف أمزقها أمامك يا ياكوف بتروفتش .. اقرأها
معكوسة ، معكوسة تماما ، أقصد حملها معانى صداقة ومودة ، افهم كل
كلمة من كلماتها على غير معناها ، افهم كل كلمة من كلماتها بضم معناها .
لقد أخطأت خطأ كاملاً ، خطأ قاسياً يا ياكوف بتروفتش .

قال صاحب المرائى وقد لاح فى وجهه ذهول وعدم الكترات :

- ماذا تقول ؟

- أقول اننى قد أخطأت خطأ كاملاً يا ياكوف بتروفتش ، واننى
مستعد ، بغير حياء زائف أو خجل كاذب ، لأن ...

- آ .. نعم .. صحيح .. لقد أخطأت أنت .. صحيح جدا .

كذلك قال جوليا دكين الأصغر بلهجة خشنة .

قال بطلنا بوقار وصدق دون أن يدرك الازدواج الرهيب فى سلوك
صاحبه الوقح :

- حتى لقد خطرت ببالى فكرة يا ياكوف بتروفتش .. نعم خطرت

ببالى الفكرة التالية : « لقد خلق الله انسانين متماثلين تماثلاً مطلقاً .. » .

- آ .. أهذه هى الفكرة ؟

قال الشخص الحقيقير ذلك ثم نهض متناولاً قبعته . ونهض السيد

جوليا دكين أيضاً . انه لم يدرك المناورات الوقحة التى يقوم بها عدوه .

كان يتشم فى نبل ومودة . كان البرىء يحاول أن يلاطف عدوه ، أن

يواسيه ، أن يعقد بينه وبينه صلوات صداقة جديدة ...

صاح الدجال فجأة يقول :

- وداعا يا صاحب السعادة •

ارتجف بطلنا حين رأى في وجه عدوه ذلك التعبير المسعور الساخر،

• المعربد

ومن أجل ان يتخلص السيد جوليا دكين من هذا الشعور وضع اصبعين في اليد التي مدها اليه الشخص الكريه • وفي هذه اللحظة •• في هذه اللحظة تجاوزت وقاحة السيد جوليا دكين الاصغر كل الحدود .
فها هو ذا يقبض على الاصبعين ، ويضغطهما ، ثم ما يلبث أن يكرر مزاحه الصباح امام بطلنا مرة أخرى بسرعة • هنا نفذت مدخرات جميع الصبر الانساني •

أعاد جوليا دكين الأصغر الى جيبه المنديل الذي مسح به يديه ، وخرج •• واسترد السيد جوليا دكين أخيرا صوابه ، فاسرع يلحق بعدوه • ولكن عدوه كان قد اسل على عادته ، فأصبح في الحجره الأولى • انه الآن واقف قرب البسطة ، مرتاحا ، يلتهم بعض الفطائر في غير اضطراب ، ويتحدث مع الالمانية بائعة الفطائر بلطف وأدب •

قال بطلنا لنفسه : « لا داعى الى فضيحة أمام سيدة •• » • واقترب هو أيضا من البسطة منفعلا أشد الانفعال •

قال جوليا دكين الاصغر :

- حقا ان هذه المرأة اللطيفة لا بأس بها •• ما رأيك ؟

وعاد يكرر مزاحاته البذيئة معتمدا على صبر بطلنا •

كانت الالمانية السمينه تنظر الى زبونها بعينين شهباوين لاتعبران عن

شيء ، مع ابتسامه نودد وتلطف • ودان واضحا انها لا تفهم الروسية •
نفد صبر بطلنا ، واصبح من فرط استيائه من كلمات الدجال الوقحة
لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فاسرع نحو صاحبه ملتهب الوجه حنقا ،
يريد أن يمزقه اربا وأن يجهز عليه مرة واحدة • ولكن الشخص الجبان
كان قد ابتعد على عادته في الكيد والحيلة • لقد وثب فجأة فأصبح الان
على درجات المدخل • ذهل السيد جوليا دكين ولكنه لم يلبث أن أفاق من
ذهول اللحظة الأولى ، فهرع يجرى وراء الشخص الذي أهانه جريا
سريعا • ولكن خصمه لم يلبث أن ركب عربة كانت واقفة في الشارع •
لا شك أن حوذى العربة كان متواطئا مع الرجل المخادع الدجال •

وفي هذه اللحظة نفسها أطلقت الالمانية البديئة ، وقد رات زبوتيهما
يهربان ، أطلقت صرخة حادة وهزت جرس الباب بكل ما اوتيت من قوة
فالتفت السيد جوليا دكين الى خلف وهو يركض ، فرمى اليها مالا ثمن
ما شرب هو وصاحبه ، وتابع ركضه نحو العربة دون أن ينتظر أن ترد
اليه البقية ؛ واستطاع رغم تأخره أثناء ذلك أن يدرك خصمه من جديد ،
وقد تحركت العربة •

تشبث السيد جوليا دكين بجناح العربة بكل فواه ، وظل يجرى
معا على هذه الصورة محاولا أن يتسلق الى داخلها ، حيث كان عدوه
يجهد أن يصد به بكل ما اوتى من قوة أيضا • وفي أثناء ذلك كان الحوذى
يستحث فرسه الضعيفة الهزيلة بضربات من سوطه والزام والقدم ،
وكذلك بشتائم وسياب ؛ فاذا بالفرس الضعيفة الهزيلة تأخذ تعدو عدوا
سريعا على غير توقع ، عاضة زمامها رافسة بقائمتها • واستطاع بطلنا
أخيرا أن يصعد الى العربة ، فأصبح أمام عدوه وجها لوجه ، مديرا ظهره
لمعد الحوذى • بداخلت ركب الرجلين ، وأمسك السيد جوليا دكين

بيده اليمنى ياقعة الفراء المهترىء من المعطف الذى كان يرتديه خصمه
العائى الدنى ••

العربة تعدو بسرعة شديدة • والحصان المتماسكان صامتان
لا يتكلمان • الشارع محفر فالمركبة تهتز، ويوشك بظننا أن ينكسر ظهره
فى كل لحظة • وعدوه ، من جهته ، لا يعترف بأنه غلب ، فهو يستमित
فى سبيل أن يدحرج السيد جوليا دكين الى الوحل • ومن تمام المصيبة
ان الجوى كان رهيبا • فالثلج يتساقط أسناخا كبيرة ، ويتسرب الى داخل
معطف صاحبنا • ولم يكن فى وسع المرء أن يرى شيئا من شدة كثافة
الثلج والضباب • كان يستحيل على المرء أن يعرف الشارع الذى تجرى
فيه العربة سريعة سرعة شديدة • وفجأة شعر السيد جوليا دكين بذلك
الشعور الذى يحس صاحبه أنه « سبق له أن رأى ما يراه الآن » •••
فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر •

ترى ألم يوجس هذا كله فى الليلة البارحة ، فى الحلم مثلا ؟ •••
وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع • هو الآن فى ذروة القلق • انه
يحتضر • أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوه الذى لا يرحم ••• ولكن
صرخته فنيت على شفثيه ••• ثم جاءت لحظة نسيان كامل • شعر السيد
جوليا دكين شعورا غامضا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل الى فهمه •••
أمر لا فائدة منه •• أمر لا طائل تحته •• أمر لا شأن له به •• باطل
وسخف أن يحتج •• وفى هذه اللحظة ، حدثت رجة شقية فغيرت وجه
الأشياء •• سقط بظننا كسقوط كيس طحين ، وتدحرج فى الوحل وهو
يردد لنفسه أن كل شىء باطل ، وأنه أخطأ حين تحمس •

فلما نهض أبصر أن العربة كانت تقف فى فناء منزل من المنازل •
وأدرك من أول نظرة أنهم الآن فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى

ايقانونفتش • فتملكه اضطراب لا يوصف ، وهمّ أن يلاحق عدوه الدجال
ولكنه توقف في الوقت المناسب لحسن الحظ • ودفع للحوذي أجره ،
وخرج الى الشارع ، وأطلق ساقه للريح يجرى قدما ولا يلوى على
شئ • الثلج ما يزال يتساقط أسناخا كثيفة • والجو مظلم رطب يملؤه
الضباب • ان السيد جوليا دكين يطير طيرانا ، فيصدم المارة ، ويقلب
الفلاحين والنساء والأطفال ، ويتلقى بدوره صدمات تلو صدمات •••
ومن حوله ، ووراءه ، ترتفع صرخات ، وتعلو صيحات زعر ، ويقوم عباط
وشياط ••• ولكن السيد جوليا دكين لا يريد أن يرى شيئا ، ولا يريد
أن يفهم شيئا •• فلما صار قريبا من جسر سيميونوفسكى استرد صوابه
وثاب الى رشده بعد أن صدم بائعتين وما تعرضان ، فقلبهما على الأرض ،
وانقلب معهما في الوقت ذاته • قال لنفسه : « ما هذا بشئ ••• كل أمر
يمكن أن يسوى على أحسن نحو •• » • ودس يده في جيبه باخنا عن
روبل يعوض به للبائعتين ما فقدناه من فطائر وتفاح وجوز وغير ذلك من
بضائع انسفحت على الأرض • غير أن نورا جديدا ظهر في دماغه عندئذ
على حين فجأة • لقد مست يده الرسالة المغلفة التي حملها اليه كاتب
المحكمة في ذلك اليوم •

وسرعان ما تذكر السيد جوليا دكين أن هناك ، غير بعيد عن المكان
الذي هو فيه ، مطعما حقيرا يعرفه حق المعرفة • فأسرع يمشى الى المطعم
ثم أسرع يجلس الى احدى موائده التي تضيئها شمعة ملطخة ، دون أن
يضيع من وقته لحظة واحدة •

كان لا يشعر بما حوله ، حتى أنه لم ينتبه الى الخادم الذي جاء
يسأله عن طلبه ؟ فض غلاف الرسالة بسرعة ، وأخذ يقرأ مشدوه الفكر
مذهول اللب أعمق الذهول :

« أيها الانسان النيل ، العزيز على قلبى الى الأبد ،

« أنت يا من تتألم فى سبيلى !

« اننى اتألم ، اننى اتعذب ، اننى اموت عذابا ، فانقذنى .. ان رجلا محتلا ، رجلا تماما ، رجلا معروفا بغروره وتفاهته قد أحاطنى بشباكه . نصب لى فخا ، فوقعت فى الفخ . لقد ضعت . ولكننى أكرهه وأمّته .. أما أنت .. لقد باعدوا بيننا .. وحجزوا الرسائل التى كنت أكتبها اليك . وذلك كله من صنع الانسان الدنى الذى استغل ميزته الوحيدة ، وهى أنه يشبهك .

« أنا أعلم على كل حال أن فى وسع انسان غير جميل ان يفتن بسمو فكره وكرم عواطفه ورفعة أخلاقه وآدابه .

« لقد سقطت .. انهم يزوجوننى رغم ارادتى .. وان أبى ، نعم ، أبى ، مستشار الدولة ، أولسوفى ايفانوفتش ، هو الذى يقود الامر كله . أهى الرغبة فى أن يستفيد من مكاتى فى المجتمع ، ومن علاقائى بعلبة القوم ؟ »

« ولكننى قد عزمت أمرى ، وسأحتج بكل ما أوتيت من قوة معتمدة على جميع الوسائل الممكنة . انتظرنى هذا المساء ، ابتداء من الساعة التاسعة فى فناء المنزل ، تحت نوافذ مسكننا تماما . سيقام احتفال راقص عندنا . وسيأتى ضابط ملازم جميل . سأسئل من الاحتفال ، وأجىء اليك ، فتهرب معا . ان فى بلادنا وظائف كافية ينفع المرء فيها وطنه . وفوق هذا كله يجب أن تذكر يا صديقى أن البراءة تستمد فوتها من ذاتها . الى اللقاء . انتظرنى فى الفناء هذا المساء مع عربة . سأتى أحتمى بذراعيك فى الساعة الثانية تماما .

« وسأظل لك حتى الممات »

كلارا اولسوفينا

بعد أن قرأ بطلنا هذه الرسالة ظل برهة طويلة مشدوه العقل ذاهلا عن نفسه • ثم أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا مضطرب النفس فلقا ممتقع اللون ، ممسكا الرسالة بيده •

ومن تمام سوء الحظ أنه لم يلاحظ ان الانظار جميعها اصبحت متجهة اليه • كانت ملايسه فوضى ، وكان انفعاله ظاهرا ؛ وكان كل ما يراه الناس فيه ، من مشيته في القاعة او قل ركضه في ارجائها ، الى حركات يديه ، الى الكلمات الغريبة القليلة التي كانت تفلت من شفثيه على غير شعور ، كل ذلك كان لا يهيبى الناس لان ينظروا اليه نظرة حسنة • حتى الخادم كان يتامله مرتابا محاذرا • • فلما تاب الى رشده ، لاحظ أنه كان في وسط القاعة ، وأنه كان يحدق في رجل عجوز قصير وقور المظهر تحديقا غير لائق ، أو تحديقا لا محل له في أقل تقدير • كان الشيخ القصير قد فرغ من تناول غدائه ، وانحنى أمام الأيقونة ، فهو الآن جالس على كرسيه لا يحول بصره عن السيد جوليا دكين • أجال السيد جوليا دكين عينيه في أرجاء القاعة حائرا قلعا • فرأى عندئذ أن جميع الأعين كانت مصوبة اليه ، وهي أعين تفيض احتقارا وعداوة • وهذا ضابط متقاعد يرتدى بزة ذات ياقة حمراء ، يأخذ يصيح طالبا أن يؤتى بجريدة « رسول الشرطة » •

ارتعش السيد جوليا دكين • واحمر وجهه احمرارا شديدا • وخفض عينيه بحركة آلية ملاحظا أن مظهره غير لائق ولا محتشم • ما كان لرجل محترم أن يرتضى لنفسه أن يرتدى هذه الملابس في بيته

فكيف بين الناس ! كان حذاءاه وسروالاه وكل الجانب الأيسر من ردنجاته ، كان ذلك كله ملطخا بالوحل • وكانت الثنية اليمنى من سرواله منزوعة • وكان الردنجات ممزقا في مواضع عدة • فما ان رأى السيد جولياكين ذلك كله حتى تملكه خوف كاو ، فأسرع يجلس الى المائدة التى كان جالسا اليها حين قراءة الرسالة • فلم يلبث أن رأى الخادم مقبلا عليه • كان فى وجه الخادم وقاحة وشراسة • فاضطرب بطلنا وتحير وتفرس فى المائدة ، فرأى عليها أطباقا وسخة ، ومنشفة ملطخة ، وسكينا وشوكة وملعقة •

تساءل بطلنا : « من ذا أكل هنا ؟ أنا ؟ أهذا ممكن ؟ آه ... كل شئ ممكن • لقد تغديت دون أن أشعر • فما الذى يجب أن أفعله الآن ؟ » • ورفع عينيه ، فرأى الخادم واقفا أمامه يهم أن يتكلم •
- كم الحساب يا صاحبي ؟

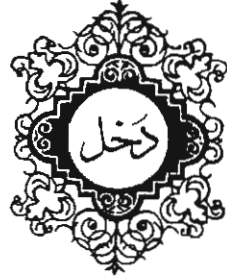
كذلك سأل بطلنا الخادم • فسمع من حوله قهقهات صاحبة • حتى لقد سمح الخادم لنفسه أن يتبسم • ففهم السيد جولياكين على الفور أنه ارتكب غلطة فاحشة ، أنه قارف خطيئة كبيرة • فاضطرب أشد الاضطراب ودس يده فى جيبيه باحثا عن منديل • كان فى حاجة الى أن يفعل شيئا ما ، الى أن يقوم بحركة ما ، رجاء أن يغطى اضطرابه • ولكن ما كان أشد دهشته وما كان أشد دهشة الحضور أيضا حين لم يخرج من جيبيه منديل وانما خرجت زجاجة فيها الدواء الذى وصفه له كريستيان ايفانوفتش منذ بضعة أيام • وهذه فكرة تلمع فى رأسه « جميع الأدوية فى صيدلية واحدة » ؟ وارتعش وهو لا يكاد يستطيع أن يكلم صيحة دعر • لقد أضاء فكره فجأة • ان السائل الذى تضمه الزجاجة كئيب اللون قائم الحمره ، تالألأ حزينا أمام بطلنا • وفجأة أفلتت الزجاجة من يديه وتحطمت •

أطلق السيد جوليا دكين صرخة ، ووثب وثبة الى وراء . ان أعضاءه كلها ترتجف . وان العرق يتقاطر على جبينه وصدغيه . « لا شك أن حياتي فى خطر » . كذلك قال لنفسه . وكان يسود الغرفة صخب شديد وصياح قوى . أحاط الناس بالسيد جوليا دكين . كلموه . أمسكوا بذراعيه ، بكنفيه . ظل هو ساكنا صامتا ، لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ولا يحس بشيء . . . وأخيرا انتزع نفسه من مكانه ، وأسرع يخرج من المطعم . أرادوا أن يستبقوه . ولكنه أبى ومضى فى طريقه يصدم كل ما يلقاه أمامه . فلما صار فى الشارع ارتدى فى عربة من العربات خائر القوى على غير وعى ، وأمر الحوذى أن يقوده الى بيته . وفى الدهليز صادف ميخايف ، خفير الادارة ، حاملا اليه رسالة عمل . . . تتم بطلنا يقول له مصعوقا ، بصوت كامد شاك : « أعرف مضمون الرسالة يا صاحبي . . . أعرف كل شيء . . . هى تبليغ رسمى » . قال ذلك وتناول الرسالة وأعطى الحفير عشرة كوبكات . وكانت الرسالة تتضمن مذكرة رسمية فعلا . انها مذيلة بتوقيع آندره فيليوفتش ، وهى تأمر السيد جوليا دكين أن يسلم ايفان سيميونوفتش جميع الملفات والاوراق التى فى عهده .

فلما دخل السيد جوليا دكين بيته رأى بتروشكا منهمكا فى تكديس ملابسه وخرقه وأسماله . ما من شك البتة . ان بتروشكا يستعد لترك مولاه ويتهيا لمغادرة البيت .

لا شك فى أن كارولين ايفانوفنا قد أغرته ، وأنه ذاهب اليها يحل محل أوستاش .

الفصل الثاني عشر



بتروشكا مترنحا • كان غير عابئ ، وكان في
وجهه تعبير غريب عن مرح وفرح ، وعن شعور
فظ غليظ بالانتصار •

واضح أنه كان قد وضع خطته • انه يتصرف الآن
تصرف انسان حر طليق ، غريب كل الغرابة عن المكان الذي هو فيه ؟ أو
قل انه يتصرف تصرف خاده لو احد من الناس لس هو جوليا دكين حتما •

قال بطلنا لاهثا :

— هأنذا يا عزيزي ! كم الساعة الآن يا صديقي ؟

ذهب بتروشكا الى ما وراء الحاجز دون أن يجيب ، ثم عاد يقول
هادئا بلهجة طليقة :

— قرية من الساعة والنصف •

- آ ... طيب ... جيد جدا يا صديقى الشهم • اذن اسمح لى
أن أقول لك يا صديقى • أخيرا • • أظن أن كل شيء قد انتهى بيننا
• الآن •

لم يجب بتروشكا بكلمة واحدة •

- طيب • • أما وقد انتهى بيننا كل شيء ، فقل لى بصراحة ، قول
صديق لصديق ، أين كنت يا عزيزى الطيب ؟

- أين كنت ؟ عند أناس طيبين •

- أعرف يا صديقى أعرف • لقد كنت راضيا دائما عن خدماتك
يا عزيزى ، وسأعطيك شهادة بذلك • • • اذن ستعمل بعد اليوم عندهم ؟

- والله يا سيدى • • أنت نفسك تعرف : ما من انسان شريف يفعل
فعلا شيئا • • هذا معروف •

- نعم ، أعرف يا صديقى الشهم أعرف • الشرفاء قلة فى هذا
الزمان • • ويجب علينا أن نقدرهم حق قدرهم يا صديقى • كيف الحال
هناك الآن ؟

- كما كانت دائما • • أما أنا يا سيدى فلا أستطيع أن أبقى فى
خدمتك بعد اليوم • • وأنت تعرف ذلك جيدا على كل حال •

- أعرف يا عزيزى أعرف • أنا أعرف همتك ونشاطك وحماسك
فى العمل • • لقد لاحظت فىك هذه المزايا دائما ، وقدرتها حق قدرها دائما
يا صديقى • • اننى أفدرك كثيرا يا صديقى • • لقد قدرت دائما الناس الطيبين
الشرفاء ، ولو كانوا خدما •

- والله هذا شيء معروف • • أنت تعلم أن شبانا مثلنا ليس لهم نظير • •

هكذا • أما أنا يا سيدي فأجد أن من الصعب أن أعيش بدون أناس شرفاء • هذا أكيد •

- حسن جدا يا صديقي الشهم ، حسن جدا • أنا متفق معك في الرأي •• طيب •• اليك أجرك وشهادتك •• والآن فلنتعاق يا صديقي الشهم ولنفترق •• ولكنني سأطلب منك خدمة صغيرة أخرى ، خدمة صغيرة أخيرة ، يا عزيزي (قال السيد جوليا دكين ذلك بلهجة وقورة) • ان كل شيء يمكن أن يقع في هذه الحياة يا عزيزي • الشقاء موجود في كل مكان يا صديقي الطيب ، حتى في المساكن المذهبة • ما من أحد يستطيع أن يفلت منه • يخيل اليّ يا عزيزي أنني كنت دائما لطيفاً معك ، أليس كذلك ؟

ظل بتروشكا صامتا لا يجيب •

ردد جوليا دكين يقول :

- لقد كنت لطيفا معك دائما يا عزيزي •• قل لي بالمناسبة يا عزيزي : كم بقي لي من ملابس ؟

- ملابسك كلها موجودة : ستة قمصان ، ثلاثة أزواج أجربة ، أربع صدرات ، صديرة من صوف ، وهناك أيضا سروالان داخليان • أنت تعرف هذا كله على كل حال • أما أنا يا سيدي ، فلا آخذ منك شيئاً البتة في يوم من الأيام •• انني أحافظ على كل ما يخصك •• وبالنسبة اليك يا سيدي •• على كل حال •• من المؤكد •• لست ألوم نفسي على شيء يا سيدي ، لست ألوم نفسي على أي شيء •• أنت تعرف ذلك يا سيدي •

- أنا أصدقك يا صديقي ، أصدقك •• ما عن هذا أردت أن أتكلم

•• اسمع يا صديقي ••

- هذا معروف يا سيدى .. جميع الناس يعرفونه .. حين كنت فى خدمة الجنرال ستوليناكوف .. كان يمنحنى اجازة كلما ذهب الى ساراتوف التى يملك فيها أطيانا .

- لا يا صديقى .. ما عن هذا أريد أن أكلمك .. أنا لا الومك على شيء .. لا تعبى رأسك هكذا يا صديقى العزيز .

- هذا معروف تماما : ان اناسا من طبقتنا يسهل اتهامهم .. انت تعرف ذلك بنفسك يا سيدى .. أما انا فقد ارضيت دائما أسيادى ، وزراء كانوا او جنرالات او اعضاء فى مجلس الشيوخ أو كوتسات .. لقد خدمت فى كل مكان : خدمت فى منزل الامير سفنتشاتكين ، وفى منزل الكولونيل بيربوركين ، وفى منزل الجنرال نيدوباروف ، وكان ياخذنى معه الى أملاكه .. هكذا ..

- صحيح يا صديقى .. هذا حسن جدا ، حسن جدا . والآن فقد جاء دورى أنا للسفر .. لكل انسان طريقه يا عزيزى ، وما من أحد يعرف الطريق التى رسمها له القدر . طيب .. ساعدنى الآن فى ارتداء نيايى يا صديقى .. ضع بزتى الرسمية مع باقى الأشياء .. وكذلك السراويل ، والمفارش ، والأغطية ، والمخدات .

- هل يجب أن أجعل هذا كله فى رزمة ؟

- نعم يا صديقى ، هذا ما يجب أن تفعله .. تحزم جميع الأشياء فى رزمة . من ذا الذى يعلم ما يخبى لنا المستقبل ؟ والآن يا صديقى ، انزل فاستدع لى عربة .

- عربة ؟

- نعم يا صديقى عربة . استأجرها لوقت طويل ، واحرص على أن

تكون العربية واسعة • ولكن اياك أن تذهب بك الظنون يا صديقى الى
تصور أشياء •••

- هل تسافر الى بعيد ؟

- لا أعرف يا صديقى ••• حقا لا أعرف ••• ومن المستحسن أن
تضع فى العربية لحافا • ما رأيك يا صديقى ؟ اننى أعتمد عليك
يا عزيزى •••

- أنت مسافر فورا ؟

- نعم يا صديقى نعم ••

- أفهمك يا سيدى • فى الكتيبة التى كنت فيها حدثت هذه المغامرة
نفسها للملازم أول • خطف ابنة أحد كبار الملاكين •
- خطف ؟ ماذا تقول ؟ ولكن يا عزيزى •••

- نعم ، خطفها وتزوجا فى أبرشية مجاورة • أعد كل شيء سلفا
ولقد لاحقوهما ولكن الأمير ، نعم الأمير المتوفى ، قد تدخل وسوى كل
شيء ••

- اذن تزوجا •• ولكن كيف علمت يا صديقى الشهم بما عقدت
عليه النية ؟

- الأمر معروف • الاشاعات تسرى سريعة على هذه الارض • نحن
على علم بكل شيء ، نعم بكل شيء ••• طبعا ، ما من انسان معصوم من
الزلل ، مبرا من الخطايا ••• ولكن يجب أن أقول لك يا سيدى •••
اسمح لى أن أقول لك ، لأننى خادم طيب •• ما دامت الأمور قد وصلت
الى هذه المرحلة الآن ، فيجب أن أقول لك يا سيدى ان لك عدوا ، ان

لك منافسا ، نعم يا سيدي ، ان لك منافسا خطرا يا سيدي •• نعم
يا سيدي •

- أعلم ذلك يا صديقي ، أعلم • أنت نفسك تعلم يا صديقي •••
طيب •• على كل حال أنا أعتد عليك • ماذا نفعل الآن يا صديقي ؟
بماذا ننصحنى ؟

- والله يا سيدي ، أما وقد اخترت هذا الحل فيجب عليك أن
تشتري أشياء كثيرة •• مفارش ، مخدات ، لحافا آخر لشخصين ، غطاء
جيدا •• وهذه الأشياء كلها تستطيع أن تجدها عند الجارة •• هناك •••
تحت •• وعندها أيضا فراء ثعلب جيد • في وسعك أن تراه وأن تشتريه
فورا • ليس عليك الا أن تنزل اليها •• هو معطف جميل مغطى بالساتان
وله فروة ثعلب •

- طيب طيب يا صديقي ، أنا موافق ، وأنا أعتد عليك اعتمادا كاملا
يا صديقي • وأنا موافق أيضا على شراء الفروة يا عزيزي • ولكن أسرع
أرجوك ، أسرع ، أسرع ؛ أنا مستعد لشراء المعطف ، ولكن أسرع أرجوك
•• لقد اقتربت الساعة من الثامنة • يجب أن نسرع يا صديقي أرجوك
يا صديقي ، أسرع •

ترك بتروشكا كدسة الملابس والأغطية والمخدات وغير ذلك من
الأثواب التي كان بسبيل جمعها وهرع يخرج من الغرفة •
وأخرج السيد جوليا دكين الرسالة مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع
أن يقرأ •

فأمسك رأسه المسكين بين يديه وأسند ظهره الى الحائط شارد اللب •
انه لا يستطيع لا أن يفكر ولا أن يقوم بأية حركة • كان لا يدرى هو

نفسه ماذا يحدث في نفسه ... فلما لاحظ أخيرا أن الدقائق تجري ،
وأن بتروشكا والمعطف لم يحضرا ، قرر أن ينزل ، ففتح باب المدخل ،
فسمع ضجة .. انها أصوات كلام ومناقشة وصياح تحت .. هن الجارات
يثرثرن ويعولن ويشتجرن . ان السيد جوليا دكين يعرف حق المعرفة
بصدد أى شىء كن يختصن . وسمع أيضا صوت بتروشكا ، ثم سمع
وقع خطوات تصعد السلم .

« آه .. يا رب .. يا رب .. لسوف يصعدون الى هنا بالعالم
كله . » كذلك تنهد بطلنا يقول وهو يعض يديه حزنا وكمدا ، ثم أسرع
عائدا الى غرفته وارتمى على الديوان داسا رأسه فى المخدة .

أصبح لا يعرف ماذا يفعل . وظل على هذه الحال دقيقة كاملة ،
ثم نهض بوثبة واحدة دون أن ينتظر بتروشكا ، فدس قدميه فى جرموقيه
وارتدى معطفه ووضع فبعته على رأسه ، وتناول محفظته واندفع يهبط
السلم ، فلما صادف بتروشكا على السلم تتم يقول له : « لست فى حاجة
الى شىء يا عزيزى . سأفعل كل شىء بنفسى . لست فى حاجة اليك
الآن . ما يزال يمكن أن يسوى كل شىء على خير وجه ... » . ووصل
الى فناء المنزل ، وأسرع الى الشارع . كان قلبه يوشك أن يتوقف عن
الحققان .. وهو ما يزال مترددا : ما عساه يصنع ؟ ما الذى يجب عليه
أن يقرره ؟ على أى شىء يجب أن يعقد عزمه فى هذه اللحظة الحاسمة ؟
وصاح أخيرا يقول وقد استبد به الكمد واليأس : « ماذا يجب أن أفعل ؟
لكأنه لم يكن فى الامكان الاستغناء عن هذا كله ! .. »

كان ما يزال يجرى قدما بخطى قصيرة لا يلوى على شىء . وتابع
يخاطب نفسه : « نعم .. ما كان أغنانى عن هذا كله ! لولا هذه القصة ،
نعم لولا هذه القصة لكان يمكن أن يسوى كل شىء ... كان يمكن أن



يسوى كل شيء دفعة واحدة ، كان يمكن أن يسوى كل شيء بضربة قوية محكمه واحدة . . . قطعت يدي اذا لم يمكن ان يسوى عندئذ كل شيء ، وانا اعرف حق المعرفة كيف كان يمكن ان يسوى عندئذ كل شيء . . . كنت سافرد بهذا الرجل فأقول له : « اسمح لي أن أصرح لك ياسيدى . . . أن المرء ، على وجه العموم ، نعم على وجه العموم ، لا يتصرف هكذا . . . نعم يا سيدى نعم . . . ما من أحد يتصرف بهذا التصرف . . . الاغتصاب لا ينجح هنا . . . وأنت امرؤ محتال دجال يا سيدى ، أنت رجل لا قيمة له ولا فائدة منه للوطن . . . نعم ، هل فهمت هذا الكلام ؟ وكان فى وسعى أن أضيف الى ذلك . . . ولكن فيم أضيف الى ذلك شيئا . . . ذلك كل شيء . . . ماذا أقول ؟ يا لى من أبله ! يا لى من أبله ؟ أأكون اذن قاتل نفسى ؟ لا لا . . . بلى بلى . . . انت امرؤ مستهتر . . . ما العمل الان ؟ ما عساي أصبح ؟ لأى شيء أصلح ؟ نعم ، لأى شيء تصلح يا جوليادكين ؟ يا جوليادكين الدنيء ! والان ؟ يجب استئجار عربة . . . لقد طلبت منى عربة . . . اذن لا بد أن تكون العربة مهيأة . . . فاذا لم يكن هنالك عربة تبلت أقدامنا الصغيرة ؟ من ذا الذى كان يمكن ان يتصور هذا ؟ آه . . . يا آنسة . . . يا آنسة . . . ان سلوكك مشين . . . ان سلوكك معيب . . . ما هذا كله الا ثمرة تربية سيئة . . . نعم لقد فهمت كل شيء منذ رأيت ما يجرى . . . لا شك فى أن هذا كله نتيجة مباشرة لتربية غير أخلاقية . . . كان ينبغي أن تستعمل معها الشدة والقسوة منذ طفولتها . . . وكان لابد لها من سوط تجلد به من حين الى حين . . . ولكنهم بدلا من ذلك كانوا يحشون فيها بأنواع المربيات والحلوى ! . . . وهذا المعجوز الذى لا ينفك يتباكى أمامها ويقول لها : آه يا حبيبتي الغالية . . . انك فى غاية اللطف والظرف ، انك فى غاية الحسن والجمال . . . يمينا لأزوجنك بكونت . . . » . . . وها هى ذى الآنسة تخرج من الظل وتلقى بأوراقها قائلة : اليكم لعبتي

ايها السادة ، فاعجبوا بي ما شاء لكم أن تعجبوا .. انهم بدلا من أن يلزموها البيت وضعوها في مدرسة داخلية لدى امرأة فرنسية ، مهاجرة ، امرأة لا يعرف لها أصل يقال لها مدام فالبالا .. فلا غرابة اذا هي لم تسر في الطريق القويم ! انحنوا لها أيها الناس ! وما هي النتيجة ؟ هي ما ترون : « انتظرني في عربة ، في الساعة كذا ، تحت نوافذ بيتنا ، وأنا أعتد عليك لتغني لي أغنية عاطفية اسبانية ... انتي أنتظرك . أنا أعرف انك تجنبي . سوف نمضي معا . سوف نعيش في كوخ ... »

« ولكن هذا مستحيل .. نعم يا سيدتي ، هذا مستحيل استحالة مطلقة .. هذا شيء تمنعه القوانين .. ليس من حق انسان أن يختطف فناة عفة طاهرة من بيت أبيها دون موافقة أهلها . وفيه هذا على كل حال ؟ فيم هذا ؟ ما كان عليك الا أن تتزوجي الرجل الذي هياه لك القدر وكفى ! أنا ... ماذا أنا ؟ أنا موظف .. وأنا مهدد بفقد وظيفتي بسبب ذلك كله . نعم يا آنسة .. انتي أعرض نفسي للمثول أمام المحاكم بسببك . فاعلمي هذا يا آنسة .. ان الألمانية هي التي تدبر هذه المكائد .. كل المصائب مصدرها هذه الألمانية الشمطاء .. انها هي التي تضع النار في البارود . يشون باسان ، ويسلطون عليه أقاويل ثرثرة نامامة بايعاز من آندره فيليبوفتش ، وتنجح المكيدة . لولا أن الألمانية وراء هذا كله ، أكان يتدخل بتروشكا في هذه القضية ؟ ما شأنه في هذا الأمر ؟ ما علاقته بهذه المسألة ، هذا الوغد الحقير ؟! .. لا يا آنسة ، لا أستطيع أن أفعل في سبيلك شيئا ، لا أستطيع قطعا ! .. معذرة هذه المرة يا آنسة .. أرجو أن تسامحيني .. والحق أنك أنت سبب البلاء كله ، يا آنسة ، لا الألمانية ! أنت سبب البلاء رأسا . الألمانية الساحرة امرأة طيبة ، الألمانية الساحرة بريئة من الذنب آنسة .. هذه هي الحقيقة . أنت وضعتني في أسوأ ورطة آنسة .. رجل أصبح من ضياعه قاب قوسين .. انه يهوى

الى العدم •• ولا يملك أن ينقذ نفسه •• ثم تبيئن أنت تحدينه عن
زواج • كيف يمكن أن ينتهي هذا كله ؟ كيف يمكن ان يسوى هذا
كله ؟ ليتى أعلم ذلك ••• • «

وفيما كان جوليا دكين يستطرد على هذه الصورة وقد استبد به الحزن
والكمد ، عاد فجأة الى الواقع ، فلاحظ أنه قد أصبح فى شارع ليتانيايا •
كان الجو رهيبا : مطر وتلج وجليد يذوب • كل شئ يشبه تماما تلك
الليلة التى لا تنسى ، تلك الليلة التى بدأت فيها جميع مصائب بطلنا فى
الظلام • وراح السيد جوليا دكين يجتر خواطره : « الزواج ؟ ألا انها
نهاية العالم •• أين عساي واجدا عربية ؟ ها •• هاهى ذى عربية •••
هناك عند الناحية فيما أظن •• فلأذهب الى هناك لأرى عن كتب • آه ••
يارب يارب ! •• »

اتجه السيد جوليا دكين بخطاه المترنحة صوب ناصية الشارع ، حيث
حسب أنه أبصر عربية • قال لنفسه : « لا لا •• هذا ما يجب أن أفعله :
سأذهب الى هناك ، فأخر ساجدا عند قدميه ، قائلا له : أنظر الى حالتى ••
اننى أضع مصيرى بين يديك ، بين يدي رؤسائى •• أتوسل اليك
يا صاحب السعادة ، أناشدك الله أن تدافع عنى ، أن تحمىنى • هذه هى
المسألة •• فعل " يحرمه القانون •• لا تركنى •• لا ترهقنى •• اننى
أجأ اليك كما يلجأ ابن الى أبيه •• أنقذ كرامة انسان شقى ، وشرفه
وسمعه • انقذنى من هذا الرجل العاتى المنحط الذى لا خلاق له •
نحن ، أنا وهو ، شخصان اثنان يا صاحب السعادة •• هو يعيش على
هواه ، وأنا من جهتى أحيا حياة بسيطة هادئة يا صاحب السعادة لا أسئ
الى أحد ولا أودى أحدا ، أوكد لك يا صاحب السعادة أننى لا أنال أحدا
بسوء قط •• أنا لا أشبهه ، أنا لا يمكن أن أنسبهه ! فأضرع اليك
يا صاحب السعادة ، رحماك يا صاحب السعادة ، غير لى وظيفتى فنتهى

هذه المشكلة ، ينتهى هذا الاحتيال الوقح وهذا الاغتصاب الدنيء .. حتى لا يكون هذا قدوة سيئة للآخرين يا صاحب السعادة . اننى أعدك أبا يا صاحب السعادة . ان الرؤساء الذين يملكون صدرا رحبا وذمة سامية لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات . بل ان فى مبادرتى هذه لروحا فروسية . اننى أتوجه اليه كتوجهى الى أب .. أضع مصيرى بين يديه ، وأعدده بأن لا أعترض على ما يتخذنه من قرار ، أنصاع لارادته وأمحي أمامه .. هذه هذه المسألة .. »

- قل لى يا عزيزى .. أنت حوذى ؟

- نعم .

- أنت حر طوال السهرة ؟

- هل المسافة طويلة ؟

- أنا أستأجر العربى للسهرة ، للسهرة كلها . لا تسأل عن المكان الذى أقصد اليه . ليس لهذا من قيمة .

- هل فى نيتك الخروج من المدينة ؟

- نعم يا صديقى . هذا ممكن . لا أدرى أنا نفسى بعد . لا أستطيع أن أقطع بذلك يا عزيزى . ومن الممكن أن يسوى كل شىء على خير وجه يا صديقى الشهم . وهذا أفضل يا صديقى .

- طبعا هذا أفضل يا سيدى . أنا أتمنى ذلك لجميع الناس .

- هو كذلك يا صديقى ، هو كذلك . شكرا يا عزيزى . فما هو

الأجر الذى تطلبه يا صديقى الطيب ؟

- أنت مسافر حالا ؟

- نعم حالا . أقصد ... سوف نذهب أولا الى مكان ما نتنظر فيه

برهة •• يجب أن تنتظر برهة •• برهة قصيرة يا عزيزى ••

- اذا كنت تكترى العربية لليلة كلها، فالأجر ستة روبلات •• يستحيل
أن أرضى بأقل من هذا فى مثل هذا الجو •

- طيب طيب يا صديقى • اتفقنا • وساعطيك مكافأة أيضا يا عزيزى •
طيب • والان هيا بنا يا صديقى •

- اجلس •• بل انتظر لحظة • سارتب بعض الترتيب • هه •••
تفضل بالجلوس الآن ! الى أين تأمر بأن أذهب بك ؟

- الى جسر اسماعيلوفسكى يا صديقى •

صعد الحوذى الى مقعده ، ولرز الحصانين اللذين لم يملن اتزاع
كيس العلف منهما الا فى عناء • وانجعت العربيه صوب جسر
اسماعيلوفسكى • ولكن السيد جولاديين لم يلبث أن شد الحبل فجاة ،
واستوقف الحوذى وطلب اليه بصوت ضارع ان ينشئ الى وراه وأن يقوده
الى عنوان آخر عينه له • دار الحوذى • وبعد دقيقتين كانت العربيه تقف
أمام العمارة التى يسكن بها صاحب السعادة • نزل السيد جولياديين
وطلب من الحوذى بكثير من الالجاج ، أن ينتظره • ثم اندفع خافق
القلب يصعد السلم • فلما وصل الى الطابق الأول ، شد جبل الجرس ،
ففتح الباب ، ووجد بطلنا نفسه فى حجرة المدخل •

- هل صاحب السعادة فى البيت ؟

كذلك سأل السيد جولاديين الخادم • فأجابه الخادم وهو ينظر اليه
من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

- ماذا تريد منه ؟

- انما جئت يا صديقى من أجل ••• أنا اسمى جولياديين •• أنا

موظف ، نعم ، أنا الكاتب جوليا دكين جئت لأشرح لصاحب السعادة بعض الأمور ...

- انتظر لحظة • صاحب السعادة مشغول •

- ولكنني لا أستطيع الانتظار يا صديقي • المسألة هامة لا تحتمل أي تأخير •

- من أرسلك ؟ هل تحمل أوراقا ؟

- لا يا صديقي ، فانما جئت في زيارة شخصية ... أبلغ صاحب السعادة أنني جئت لشرح بعض الأمور • وسأكافئك يا صديقي ...

- مستحيل • لقد منعت من ادخال أي انسان • هناك ضيوف • ارجع غدا في نحو الساعة العاشرة •

- أبلغ عني يا صديقي •• انني لا أستطيع الانتظار ، فان لم تبلغ عني كنت مشغولا •

، هيا أبلغ عنه • ماذا يمنعك من ذلك ؟ أنت خائف على نعليك أن يهترأ ؟

كذلك صاح خادم آخر كان غائبا في أحد المقاعد ، ولم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة •

- المسألة مسألة نعلين حقا ! أنت تعلم أنني منعت من ادخال أحد • لا يستقبل أحد الا في الصباح •

- هيا أبلغ عنه • أنت خائف، أن تبلغ لسانك ؟

- طيب سأبلغ عنه • ولن أبلغ لسانى • ولكنني قلت لك انني منعت من ادخال أي انسان ، منعت من ذلك معنا باتا • تعال • ادخل الى هنا •

دخل السيد جوليا دكين الى الحجرة المجاورة • وكان على المنضدة ساعة يشير عقربها الى الثامنة والنصف • خفق قلب السيد جوليا دكين • حتى لقد همَّ أن يخرج ، ولكن الخادم كان قد وقف على عتبة قاعة الاستقبال ، وصاح يعلن بأعلى صوته :

« السيد جوليا دكين » • قال بطلنا يخاطب نفسه وقد تملكه خوف شديد :

« ما هذا الصوت ؟ ألم يكن في وسعه أن يبلغ عنى خفية ؟ لقد كان يمكنه أن يقول : ان هذا الرجل يا صاحب السعادة جاء يشرح بعض الأمور متدللاً متوسلاً • فهلا تفضلت باستقباله •• أما الآن فان الأمور تجري مجرى سيئاً • لقد غرقت قضيتى فى الماء ••• على كل حال ، ليس هذا بشيء ••• » • غير أن أوان التفكير قد فات • فهذا هو الخادم يعود فيقول لبطلنا : « أدخل » ، ثم يدخله الى صالون صاحب السعادة •

شعر بطلنا وهو يدخل أنه أصبح أعمى • فهو لا يرى شيئاً • كل ما هنالك أنه أبصر قمتين أو ثلاثاً أمام عينيه • قال لنفسه : « هؤلاء ضيوف ولا شك • • » • واستطاع أخيراً أن يميز نجمة على رداء الفراك الأسود الذى كان يرتديه صاحب السعادة • وبعد رؤية النجمة ، رأى الرداء • وأخيراً عادت الى بطلنا قدرته على الابصار •••

- ماذا هنالك ؟

كذلك سأل صوت يعرفه السيد جوليا دكين جيداً •

- أنا الكاتب جوليا دكين يا صاحب السعادة •

- وبعد ؟

- جئت لأشرح أمرى ؟

- كيف .. ماذا ؟
- جئت لأراك وأشرح لك أمرى يا صاحب السعادة •
- ولكن من أنت ؟
- أنا جوليا دكين يا صاحب السعادة ، كاتب فى الإدارة •
- طيب .. وماذا تريد ؟
- المسألة يا صاحب السعادة أنتى أعدك أبا • أنا لن أثبت وجودى ،
أنا سأسحب • فاحمنى أنت من أعدائى يا صاحب السعادة • هذه هى
المسألة •
- ما هذا الذى تقوله ؟
- أصبح معروفا ...
- ما الذى أصبح معروفا ؟
صمت بطلنا • وأخذت ذقنه ترتجف •
سأله صاحب السعادة :
- وبعد ؟
- كان قصدى أن أقوم ببادرة فروسية يا صاحب السعادة • أنا أرى
من الفروسية أن يعد المرء رئيسه أبا له • • • • • فأنا أرجوك أن تحمينى • •
أتوسل اليك ضارعا ذليلا • • ان بادرات من هذا النوع لا بد أن تشجع • • •
أن تشجع • • •
أشاح صاحب السعادة وجهه عنه • اضطربت عيننا بطلنا برهة • اختنق
صدره • أخذ يلهث • بل أصبح لا يعرف أين هو • • كان يشعر بالحجل

والعار • لقد صعق وانهار •• والله وحده يعلم ماذا حدث بعد ذلك •
فلما تاب بطلنا الى رتده سمع صوت صاحب السعادة يتكلم • كان صاحب
السعادة يكلم ضيفين من ضيوفه فى حرارة وحماسة • وسرعان ما عرف
السيد جوليا دكين أحد الضيفين : انه آندره فيليوفتش • ولكنه لم يستطع
ان يتعرف الثانى • ومع ذلك فقد بدا له وجهه مألوفاً معروفاً • انه فارغ
القامة ، بدين الجسم • وهو يبدو متقدماً فى السن • وله حاجبان كثيفان •
نظرته قاسية معبرة • وهو يحمل وساما يتدلى من عنقه • كان يدخن
سيجاراً • السيجار لا يترك فمه • وكان هذا الرجل المجهول يهز رأسه
فى وفار وهو يلقي على بطلنا نظرة من حين الى حين • شعر السيد
جوليا دكين بارتباك شديد • حول عينيه ، فسرعان ما لمح ضيفا آخر عجيباً •
ففى فرجة الباب التى كان السيد جوليا دكين قد حسبها مرآة حتى ذلك
الحين ، تماما كما حدث له ذلك فى المطعم ، ظهر الرجل المعروف جيداً ،
الصديق الحميم للسيد جوليا دكين • كان الدجال قد مكث حتى ذلك الحين
فى حجرة صغيرة مجاورة ، يكتب تقريراً على عجل • كانوا فى حاجة اليه
ما فى ذلك ريب ••••• وها هو ذا يجىء الآن • انه يحمل ملفاً تحت ابطه •
اقرب من صاحب السعادة ؛ وياتنظار اللحظة التى يلفت فيها أنظار
المخاطبين اليه ، انضم الى الجماعة بمهارة كبيرة • وقف وراء آندره
فيليوفتش تماما ، الى جانب الرجل المجهول الذى يدخن السيجار • كان
يدو على السيد جوليا دكين الأصغر أنه يتابع الحديث باهتمام كبير • لقد
اتخذ وضعاً مناسباً ، فهو يهز رأسه علامة الموافقة والتأييد ، ويحرك قدميه
ويتسم ولا يتحول بصره عن صاحب السعادة ؛ وكأنه يتوسل اليه أن
يتيح له ، هو أيضاً ، أن يقول كلمة • قال السيد جوليا دكين بينه وبين
نفسه وهو يتقدم خطوة الى أمام دون أن يشعر : « يا للجان ! » • وفى

هذه اللحظة نفسها ، التفت صاحب السعادة ، واتجه نحو بطلنا . كان يبدو مترددا بعض التردد .

« طيب ، طيب ، انصرف الآن ، والله يراك . سأدرس حالتك ، وسأمر بأخذك الى ... » . قال الجنرال ذلك وألقى على الرجل المجهول نظرة ذات دلالة . فرد الرجل على النظرة بحركة من رأسه علامة التأييد . أدرك السيد جوليا دكين رأساً أنهم أخطأوا في معرفة شخصه ، وأنهم يعاملونه معاملة غير لائقة به . قال لنفسه : « لا بد لي من أن أشرح أمري بطريقة من الطرق . يجب أن أقول له : يا صاحب السعادة ... اليك المسألة ! » . ولكنه تحير وطاش صوابه ففرض بصره ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ على كل حذاء من حذاءى صاحب السعادة بقعة بيضاء . قال لنفسه : « هل يعقل أن يكون حذاء صاحب السعادة مزقين ؟ » . ولكنه لم يلبث أن أدرك أن ما حسبه بقعة لم يكن في حقيقة الأمر الا تالؤوا . فان الحذائين الملمعين بالشمع كانا يتالؤان تالؤاً ساطعاً ، وذلك هو سبب خطأ السيد جوليا دكين . قال بطلنا لنفسه : « هذا ما يسمى حقا بالبريق . ان الكلمة مستعملة كثيرا في ورشات التصوير . أما في غير ورشات التصوير فيستعمل اصطلاح آخر ... » .

رفع السيد جوليا دكين عينيه ، فأدرك أن عليه أن يتكلم بأقصى سرعة ، والا فان الأمور ستجرى مجرى سيئا ... فتقدم خطوة الى أمام .

– اليك المسألة يا صاحب السعادة ، يجب أن أقول لك .. ما من أحد يستطيع في أيامنا هذه أن يصل الى شيء بالاحتيايل والاعتصاب !
لم يجب الجنرال ، واكتفى بأن شد حبل الجرس شدا قويا .
فتقدم بطلنا خطوة أخرى الى أمام .

- انه رجل جبان لا خلاق له يا صاحب السعادة •
كذلك قال السيد جوليا دكين وهو يخفق خوفاً وذعرا ، ولا يدري
ماذا يصنع • وفي الوقت نفسه أوماً باصبعه الى سميته الذي كان يدور
حول الجنرال •

- نعم يا صاحب السعادة ، اننى أقصد بهذا الكلام شخصا تعرفه ••
قامت جلبه عامه شاملة • حرك أندره فيليبوتش والرجل الذى
يدخن السيجار رأسيهما • أمسك صاحب السعادة بحبل الجرس يشده
ثم يشده ، وينادى الخادم بلهجة صارمة •

وفى الوقت نفسه تقدم السيد جوليا دكين الأصغر وقال : «يا صاحب
السعادة ، أتوسل اليك متذللا أن تسمح لى بأن أتكلم » • كانت لهجته
قاطعة جازمة • لا شك أن هذا الرجل كان يحس أنه يتصرف تصرفا هو
حق من حقوقه •

وقال متجها بالكلام الى بطلنا ، مستبقا جواب الجنرال :

- اسمح لى أن أسألك : أأنت تعرف فى حضرة من تتكلم ههنا
الكلام ؟ أأنت تعرف أمام من تقف الآن ، وفى غرفة من توجد الآن ؟
كان الدجال يبدو منفعلا انفعالا شديدا • ان وجهه المحمر يشعل
استياء وحنقا وغيظا • حتى لقد ظهرت فى أهدابه دموع •

صاح الخادم ملء حنجرتة وهو واقف على عتبة الصالون يعلن عن
وصول ضيفين : «السيد والسيدة باسافريوكوف» • فقال السيد جوليا دكين
لنفسه : « اسم جميل • هى أسرة نبيلة من الأسر الروسية » • وفى تلك
اللحظة نفسها شعر بيد تحط على كتفه وتضغط عليها بمودة وصدافة •
وما هى الا لحظة حتى كانت يد أخرى تحط على ظهره • كان المحتال

الوقح يتحرك أمامه مشيراً للمخادمين الى الطريق التي كانا يدفغان فيها بطلنا. أدرك السيد جولياكين أنه يقاد نحو أبواب الصالون. قال لنفسه: « هذا عين ما حدث عند أولسوفى ايفانوفتش » . كان قد وصل الى الدهليز . التفت فرأى الى جانبه خادمين من خدم صاحب السعادة و«مثله» الحخير الذى كان يزقزق قائلاً : « المعطف ، المعطف ، هاتوا معطف صديقى ، معطف خير صديق لى . . » . وانتزع المعطف من يدي الخادم ، فرماه من قبيل المزاح ، المزاح الدنىء الجبان ، على رأس بطلنا . وسمع السيد جولياكين ، بينما كان يحاول التخلص من المعطف ، سمع قهقهات الخادمين تدوى واضحة متميزة . ولكنه أصبح لا يحب أن يسمع شيئاً ، وأصبح لا يولى ما يجرى حوله أى انتباه . خرج من الدهليز ، ووجد نفسه على السلم المضاء . وتبعه « مثله » يصيح وراءه :

– الى اللقاء يا صاحب السعادة .

– جيان . . .

• كذلك جمجم السيد جولياكين .

– فلنسلم بأننى جيان .

– فاجر عاهر .

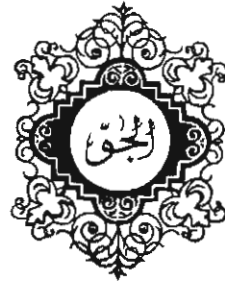
– فلنسلم بأننى فاجر عاهر . . .

بهذا أجاب العدو اللدود الدنىء بطلنا المحترم ، وهو يرشقه من أعلى الدرج بنظرة تفيض غطرسة على عادته . انه يتفرس فيه دون أن يتحرك ، محدقاً الى عينيه ، كأنه يريد بوضعه هذا أن يتحداه وأن يستفزه . فما كان من بطلنا الا أن بصق احتقاراً واستياءً ، وأسرع يهبط السلم ، وخرج الى درجات الباب .

كان قد بلغ من الانهيار والانعدام أنه لم يشعر كيف ركب العربة ،
ولا عرف من الذى ساعده فى ركوبها •

فلما عاد الى رشده ، لاحظ أن العربة تسير على طول نهر فوتناكا •
قال لنفسه: « لا شك أن الحوذى يقودنى الآن الى جسر اسماعيلوفسكى» •
وأراد بطلنا فى هذه اللحظة أن يفكر فى شىء ما ، ولكنه لم يستطع •
وكان هذا الشىء مع ذلك أمرا رهيبا لا يتصوره عقل • فما كان منه الا
أن خلس من ذلك كله الى أن قال : « لا ضير •• لا بأس •• » • وترك
للحوذى أن يقوده نحو جسر اسماعيلوفسكى •

الفصل الثالث عشر



يبدو أنه سيتحسن • فالثلج المبتل الذي كان يهطل
غزيرا حتى ذلك الحين أصبح نادرا شيئا بعد شيء،
سم لم يلبث ان انقطع عن الهطول انقطاعا تاما •
وأصبح المرء يستطيع أن يرى السماء التي تتألأأ
فيها بضع نجوم هنا وهناك • كل ذلك كان يرهق السيد جوليا دكين الذي
لا يكاد يستطيع أن يتنفس • ان معطفه المبتل يقل على كتفيه ويبدو انه يبلل
أعضاءه برطوبة فاترة؛ وساقاه المتعبتان تشبان تحت وطأة ملاسه الميتلة •
ورعشات حمى تسرى في جسمه كله كأنها بعوض ظامىء كاو • وجسمه
النهدي يفرز عرقا باردا مرضيا • وقد بلغ بطننا من الكمد أنه نسي أن
يردد جملة الأثيرة بذلك الحزم القوي المعهود: « ما يزال في الامكان
أن يسوى كل شيء على خير وجه • • » • ومع ذلك استطاع بطننا أن
يتغلب على انهياره وأن يحتفظ بشجاعته فعاد يقول مدمما: « حتى الآن
ليس لهذا كله من قيمة » • ومسح وجهه الذي تسيل عليه قطرات الماء

منهمرة فى كل اتجاه من قبته المدورة التى بلغت من الابتلال أنها أصبحت لا تستطيع ان تحجب المطر • « ليس لهذا كله من قيمة » • كذلك ردد بطلنا القول • وجلس على قطعة ضخمة من الخشب كانت قرب كومة من الحطب فى فناء العمارة التى يسكنها أولسوفى ايفانوفتش • لم يبق مجال الآن لاغنيات غرامية اسبانية يحلم بها بطلنا • فانما هو يبحث الآن عن ركن صغير مريح بعض الشيء ان لم يكن دافئا جدا ، ركن صغير مظلم يعتم به • ولتقل عابرين انه كان يغريه كثيرا أن يكون الآن فى تلك الزاوية الصغيرة من دهليز سلم الخدم ، التى لطا فيها قرابة ساعتين ، فى أولى مغامراته ، بين خزانة الملابس والحواجز العتيقة ، وسط أكوام من الأسماك والثياب الرثة والخرق البالية •

ولنذكر أن السيد جوليا دكين ينتظر هنا منذ أكثر من ساعتين ، فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى ايفانوفتش • ولنذكر أيضا أن الركن الصغير المريح الذى سبق أن لطا فيه يشتمل الآن على عيوب لم يكن يشتمل عليها فى الماضى • أول هذه العيوب أنه قد لوحظ واكتشف حتما ، فلا يد أنه محروس حراسة جيدة منذ الفضيحة التى وقعت ليلة الحفلة الراقصة • والثانى أن التجاء بطلنا الى ذلك الركن يبعده عن المكان الذى يجب عليه أن يبقى فيه انتظارا للإشارة التى ستأتى من كلارا أولسوفيفنا •

كان بطلنا على يقين من أنها ستنبهه بأشارة ما • ذلك محقق لا ريب فيه : « ثم اتنا لسانا من آثار هذه القضية كلها ، ولسنا من يجب عليه أن يختمها • » • قال السيد جوليا دكين ذلك لنفسه ثم تذكر جزءا من رواية كان قد قرأها منذ زمن طويل ، وفى ذلك الجزء كان الاتفاق بين بطلة الرواية وحبيبها « ألفرد » ، فى ظروف مماثلة لهذه الظروف مماثلة تامة ، أن تنبهه بأشارة هى شريط وردى اللون تعلقه على النافذة • أما اليوم ،

في الليل ، مع هذا الظلام وهذه الرطوبة في جو سان بطرسبرج ، فليس شريط وردى اللون بإشارة مناسبة ، لذلك ليس على بطلنا ان يتوقع ان يرى شريطا وردى اللون تعلقه حبيبته على النافذة بمثابة اشارة . قال بطلنا لنفسه : « الافضل ان الطوفى ركن من الفناء مظلم مختلف . . . » . واعتصم فعلا في ركن من الفناء يقع امام النوافذ قرب كومة من الخطب . لا شك أن حركة الذهاب والاياب لا تنقطع في هذا الفناء : فئمة حوزيون وخدم يتجولون وسط صرير العجلات وصهيل الخيول . . . ولكن المكان مريح مع ذلك . كان السيد جوليا دكين قابعا في الظل ، وليس يهيمه كثيرا أن يلاحظه أو أن لا يلاحظه حوزيون . كان يستطيع أن يرى كل شيء في المنزل ، دون أن يراه من أهل المنزل أحد . النوافذ تسطع بالأنوار . لا شك أن في منزل أولسوفى ايفانوفتش سهرة كبرى . ومع ذلك لا تسمع موسيقى . « ما هي حفلة راقصة ، بل اجتماع من نوع آخر » ؛ كذلك قال بطلنا لنفسه قلعا . ثم تساءل : ولكن هل الموعد المضروب هو هذه الليلة ؟ أليس ثمة خطأ في يوم الموعد ؟ ذلك جائز . كل شيء جائز . . . وأغلب الظن أن ما حدث هو التالي : كتبت الرسالة وأرسلت أمس ، ولكنني لم أستلمها الا اليوم ، بسبب اهمال بتروشكا ، هذا الوغد الدنيء . . . أو لعل الرسالة كتبت غدا . . . أقصد أن الموعد حدد للغد . . . فكان على أن أجيء أنتظرها مع العربية غدا . . . » .

تجمد الدم في عروق السيد جوليا دكين حين تصور هذا الاحتمال . ومن أجل أن يتحقق من صدق الافتراض دس يده في جيبه . فما كان أشد دهشته حين لم يجد فيها الرسالة ! . . . تتمم بطلنا يقول وقد كاد ينهد : « ماذا جرى ؟ أين عساني وضعتها ؟ أتراني أضعتها ؟ » ثم أضاف متنهدا : « آه . . . هذا ما كان ناقصا ! . . . وما عسى يحدث لو وقعت في أيدي أعدائي ؟ لعلها وقعت في أيديهم وانتهى الأمر ! آه . . . يارب ! . . . »

ما الذى سيقع ؟ لسوف يكون هذا فضيحة فظيعة ! آه .. يا للشقاء ...
يا للشقاء الرهيب ! ... » . وسرعان ما خطر بباله « مثله » ، فأخذ
يرتعد كورقة فى مهب الريح . لعل عدوه الدنيء ، حين رمى معطفه
على رأسه ، قد انتهز فرصة اضطرابه ليسرق الرسالة التى تسرب اليه
نبأها بواسطة أعداء السيد جوليا دكين .. قال بطلنا لنفسه : « لا سيما وأنه
ألف أن يستولى على الأدلة ... ولكن فيم الأدلة ؟ ... » . وبعد أن
اتابته نوبة أولى من الدهول والرعب ازدحم الدم قويا عنيفا فى رأس
بطلنا . فأطلق صرخة من بين أسنانه ، وأمسك رأسه المحترق بيديه ،
وتهاوى على قطعة الخشب الضخمة . وغرق فى التأمل .. دون أن يصل
إلى تركيز أفكاره . ان وجوها كثيرة تتخاطر الآن أمام عينيه ، غامضة تارة
واضحة تارة أخرى ... وأخذت تتخاطر أمام بصره كذلك أحداث كان
قد نسيها منذ زمان طويل ، وأخذت تتوافد على ذاكرته ألحان بعض الأغاني
التافهة .. كان فى ذروة الخوف والقلق ، كان فى حالة من الخوف
والقلق لا سبيل إلى وصفها . « آه ... يارب ، يارب ! » كذلك أخذ
بطلنا يردد ، عائدا إلى رشده ، خائفا نسيجا قويا فى حلقة : « يا رب ..
يارب ، هب شيئا من القوة والعزيمة لروحى الغارقة فى هوة من الشقاء
ليس لها فرار ! لقد ضعت ، لقد تلاشيت ، ما فى ذلك ريب . هذا من
طبيعة الأمور . لا يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو . لقد فقدت
وظيقتى .. فقدتها حتما .. ما كان يمكن الا أن أفقدها . طيب ...
فلنفرض الآن أن الأمور يمكن أن تسوى بطريقة من الطرق .. لنفرض
أن ما أدخره من مال يكفينى للأيام الأولى .. سيكون على أن أستأجر
مسكنا آخر ... ولن أستطيع الاحتفاظ ببتروشكا ... طيب .. فى
وسعى أن أستغنى عن هذا الوجود .. سأستأجر غرفة لدى بعض الناس ..
ذلك أمر يمكن تدبيره .. وسأستطيع أن أخرج وأن أعود متى شئت .

لن يكون هناك بتروشكا الذى يصعرب لى وجهه اذا رجعت فى ساعة متأخرة .
هذا ميزة من ميزات السكنى عند آخرين . ذلك شىء معروف . طيب .
فلنقل اذن أن الأمور حسنة هكذا . ولكننى ما زلت أتكلم فى شىء آخر ،
فى شىء آخر تماما « فى هذه اللحظة برقت فى ذهنه صورة وضعه
الراهن . فظفر حوالبه ، فأخذ يئن قائلا : « آه . . . يا رب ، يا رب !
آه . . يا رباه ! ولكن فىم كنت أفكر منذ هنيهة ؟ » . كذلك سأل بطلنا
نفسه مرهقا متحيرا ، وهو يضغط يديه رأسه المحموم .

خاطبه صوت من فوقه يقول :

- هل فى نيتك أن تمضى قريبا ؟

فارتعش السيد جوليا دكين ، ورفع عينيه ، فرأى أمامه الحوذى .
كان الحوذى مبلا هو أيضا حتى العظام ، مرتعد الفرائص . لقد دفعه
نفاد الصبر وفراغ الوقت الى أن يلقى نظرة على السيد جوليا دكين القابع
وراء كومة الحطب .

- لا أعرف لا صديقى . . أنوى أن أمضى بعد قليل ، نعم ، بعد

قليل ، يا صديقى . . ولكن عليك بشىء من الصبر . .

انسحب الحوذى وهو يدمدم بكلام بين أسنانه . فسأل بطلنا نفسه
دامع العينين : « ما له يتململ ؟ لقد استأجرت عربة للسهرة بطولها . . .
ويخيل الى أننى لا أتعدى حقوقى . . . أليس كذلك ؟ لقد استأجرت
للسهرة كلها وكفى ! . . . والأجر واحد سواء أبقى هنا أم مضى بى الى
مكان آخر . . ذلك رهن بارادتى . أنا حر . . اذا شئت مضيت واذا شئت
لبثت هنا وراء كومة الحطب . . وهذا لا يعنك . . ليس من حقت أن
تحتج . مولاك يريد أن يبقى هنا وراء كومة الحطب . . . فليبق ما شاء
له هواه أن يبقى . . . انه لا يجور على حقوق أحد . نعم . . نعم . .

تماما ... يجب أن يكون هذا مائلا في ذهنك يا آنسة ... أما الكوخ
فاعلمي يا آنسة أنه ما من أحد يسكن أكواخا في هذا الزمان . اعلمي
هذا . واعلمي أيضا ان التخلي عن الاخلاق لا حظ له من النجاح في
عصر النور الذي نعيش فيه . وأنت فيه مثال على ذلك ... أنت على ذلك
مثال محزن . لقد قدرت الأنسة أنني ساعمل في أحد المكاتب ، وأنا
سنعيش على شاطئ البحر .. فاعلمي اذن يا آنسة أنه ما من مكاتب على
شاطئ البحر .. أما أن تجعلى منى رئيسا فذلك أمر يجب أن لا نفكر
فيه . طيب .. لتصور مثلا أنني تقدمت بطلب ومضت أقول :

« اليك هذا الطلب يا سيدى ، فعيّنى رئيس مكتب .. واحمنى من
أعدائى » . طيب يا آنسة لسوف يكون الجواب هو التالى : « عندنا عدد
كاف من رؤساء المكاتب هكذا . . . وأما أنت يا آنسة فلست الآن عند
مدام فالبالا الذى كانت تلتقك دروسا فى الأخلاق أنت الآن خير مثال حى
محزن عليها .. الأخلاق تقضى يا آنسة أن تبقى فى المنزل يا آنسة ، وأن
تشرفى أبلك وأن لاتسرعى فى نشدان الزواج . سيبحث لك عن خطيب
متى أن الآوان . يجب أن تعرفى هذا . طعا يجب على الفتاة أن تسمى
بعض المواهب . من المستحسن أن تتعلم الفتاة العزف على البيانو ، وأن
تكلم الفرنسية ، وأن تعرف التاريخ والجغرافيا بعض المعرفة ، وأن تعرف
تاريخ الكنيسة وأن تتعلم الحساب - هذا أمر لا جدال فيه ... ولكن
لا ينبى للفتاة أكثر من ذلك .. ها .. هناك أيضا مسألة المطبخ . ان فن
المطبخ يجب أن يكون جزءا من تربية كل فتاة لائقة . والآن فلنعد الى
مشروعنا . أولا لن يدعوا لك أن تسافرى يا آنسى الجميلة . واذا هربت
فسيلاحقونك . وبعد ذلك يحجرون عليك ، ويضعونك فى دير من
الأديرة . فماذا عسالك تأمرينى عندئذ ؟ هل يجب على فى هذه الحالة ،
على غرار بعض أبطال الروايات السخيفة ، أن آتى كل يوم أتأمل من

أعلى أحد التلال المجاورة جدران سجنك المتجمدة ؟ وهل يجب على آزاء
هذا المنظر أن انفجر باكيا ، كما تفعل شخصية من شخصيات أحد أولئك
الشعراء والروائيين الألمان السخفاء ؟ أهذا ما تريدينه يا آنسة ؟ فاسمحي
أن الفت نظرك يا آنسة ، على مودة وصدقة ، أولا الى أن القصص التي
من هذا النوع لم يبق لها رواج عندنا ؛ وثانيا الى أنك أنت وأبويك
تستحقون بضع ضربات جزاء هذه الرويات الفرنسية التي قرأتموها والتي
أعطيت لك من أجل أن تقرئها .. اعلمي أن هذه الروايات الفرنسية
لا تعلم شيئا خيرا .. فليس فيها الا سم .. ليس فيها الا سم زعاف
يا آنسة . لعلك تصورين أن في وسعنا أن نهرب فلا ينالنا عقاب ، وأن
نمضي نعتصم في كوخ على شاطئ البحر .. حتى اذا صرنا هنالك أخذنا
نهدل هديل الحمام ، وتتساقى عواطف الحب ، وقضينا حياتنا سعيدين
يغمرنا الفرح وتشيع في قلوبنا البهجة .. وربما تصورت الى ذلك أن
يولد لنا فرخ صغير ، عصفور جميل .. فتمضي نقول لأبيك ، مستشار
الدولة أولسوفى ايفانوفتش : « هذا عصفورنا الجميل ، فانس غضبك
علينا وباركنا يا أبناء ! » .. لا يا آنسة .. أعود فأقول لك : لا يا آنسة
ما هكذا يكون التصرف السليم ! .. أما أحاديث الهوى والغرام فلا
تعوّل عليها يا آنسة . الزوج في أيامنا هذه سيد يا آنسة . وعلى الزوجة
الشريفة التي أحسن تأديبها أن تحاول جعل حياته ناعمة رضية بجميع
ما تملك من وسائل . في عصر التقدم الذي نعيشه الآن لا يحرص أحد
على مظاهر العاطفة الرقيقة والحنان الشديد يا آنسة . لقد ولى عصر جان
جاك روسو . عصرنا غير ذلك العصر . الرجل في عصرنا يعود من عمله
فإذا كان جائعا قال لزوجته : « يا عزيزتى أحب أن أكل لقمة أسكت بها
جوعى ، أحب أن أكل قطعة من السمك المدخن مثلا ، مع قدح من
الفودكا . » . فعليك اذن يا آنسة أن تكونى متأهبة في كل لحظة لتقديم

شيء من السمك المدخن ومن الفودكا لزوجك متى طلب اليك ذلك .
وهذا زوجك يقبل على طعامه يأكله حتى دون أن يرمقك بنظرة يا آنسة
وانما هو يكتفى بأن يقول لك : « هيا اذهبي الى المطبخ ، فحضري طعام
العشاء يا عزيزتي . » . سقبلت مرة في الاسبوع ، ولن يكون في قلبه
كثير من الهوى المتأجج يا عزيزتي . ذلك ما يحدث اليوم يا آنسة . نعم ،
أعود فأقول لك : هي قبلة قصيرة ليس فيها هوى متأجج . هذا ما سيحدث
لك ، اذا نحن أردنا أن نحسن التفكير ، اذا نحن أردنا أن نرى الأشياء
كما هي . وما شأنى أنا في هذا كله ؟ لماذا تجعلينى شريكا لك فى نزواتك
الخيالية يا آنسة ؟ أنت تدعين طبعاً أنتى « رجل كريم مخلص عزيز على
قلبك . . . » . ولكن اعلمى أولاً يا آنسة أنتى لم أخلق لك . فما أنا
بالرجل الحاذق فى فن الملاطفة والمجاملة ، وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة
.. انتى أكره السفاسف المعطرة الصغيرة التى يزجها الرجال للسيدات
.. انتى لا أصلح لأن أمثل دور العاشق الموله .

« ثم ان شكلى نفسه لا يصلح لذلك . فلن تجدى فى لا حبا فى
الظهور ولا طموحا ولا نفاقا يا آنسة . . . انا نعرف لك بذلك صادقين
كل الصديق مخلصين كل الاخلاص ! ، نعم ، هكذا نحن ! ان لنا طبعاً
مستقيماً وفكراً سليماً . والمكائد لا تعيننا البتة . لست بالرجل الماكر ،
وأنا بهذا فخور . تلك هى الحقيقة . انتى لا أضع على وجهى قناعاً حين
أكون بين أناس شرفاء . والحلاصة هى أن . . . »

ارتعش السيد جوليا دكين فجأة . ان لحية الحوذى ، الحمراء المبللة ،
قد ظهرت له مرة أخرى من فوق كومة الحطب .

قال السيد جوليا دكين للحوذى مثأثاً :

— سأتى حالا يا صديقى ، نعم يا صديقى ، أنا آت حالا .

حك الحوذى نقرته ، وطاف بيده على لحيته ، وتقدم خطوة الى
أمام ، ثم وقف ونظر الى السيد جوليا دكين نظرة تفيض شكاً وحذراً ! •
أنا آت يا صديقى • أنا آت • على أن أنتظر قليلاً أيضاً • لحفلة
واحدة يا عزيزى الشهم •• هل فهمت يا صديقى ؟

قال الحوذى أخيراً وهو يقترب من بطلنا حازماً :

- أليس فى نيتك أن تغادر هذا المكان ؟

- بل أنا آت يا صديقى أنا آت • اننى أنتظر قليلاً يا صديقى ••

أرأيت ؟

- رأيت •

- أرأيت يا صديقى ؟ يجب على •• بالمناسبة : من أية قرية أنت

يا عزيزى ؟

- لقد ولدت فى منزل أسيادى ؟

- هل هم أسياد طيبون ؟

- والله ••

- طيب يا صديقى • ابق هنا برهة يا عزيزى • أنت فى سان

بترسبرج منذ زمن طويل ؟

- منذ سنة •

- أنت مسرور بها راض عنها ؟

- والله ••

- طيب يا صديقى ، طيب • يجب علينا أن نحمد الله على ذلك
يا عزيزى • اليك هذه النصيحة يا صديقى : ابحث دائما عن الناس
الطيبين • لقد أصبحوا قلة فى هذا الزمان يا عزيزى • الرجل الشهم
الشريف يوفر لك شرايك وطعامك ، ويعتنى بك ، ويغسلك • أرأيت
يا صديقى ؟ رب دموع تظهر أحيانا وسط الذهب • رب انسان يبكى رغم
ثرائه • وأمامك الآن مثال محزن على هذه الحقيقة • أرأيت كيف تجرى
الأمر يا عزيزى ؟

بدا على الحوذى أنه يشعر نحو السيد جوليا دكين بشفقة • قال :

- طيب • سأنتظرك • أنت باق هنا مدة طويلة ؟

- لا يا صديقى ، لا ••• هل تعرف ؟ لقد بدأ صبرى ينفذ منذ الآن
يا عزيزى • لم يبق فى نيتى أن أنتظر طويلا ••• ما رأيك يا صديقى ؟
اننى أثق بسلامة رأيك وصدق حكمك • أحسب أنه لا فائدة من الانتظار
هنا •••

- اذن فأنت عدلت عن السفر •

- نعم يا صديقى نعم • ولكننى سأعطيك مكافأة حسنة مع ذلك •
هذا وعد • كم على لك يا صديقى الشهم ؟

- ما وعدتنى به يا سيدى • لقد انتظرت مدة طويلة يا سيدى •
لا أظن أنك ترضى لى غبنا يا سيدى •

- خذ هذا لك يا عزيزى • خذ •••

أعطى السيد جوليا دكين الحوذى الروبلات الستة الموعودة • لقد
قرر قرارا حازما أن لا يضع وقته سدى • انه يريد الانصراف مهما
كلف الأمر • ثم ان الجسور مقطوعة الآن • لقد صرف الحوذى • ولم

يبقى ثمة أى سبب يدعو الى الانتظار • خرج من الفناء ، وتجاوز باب
الدخول ، ودار نحو اليسار • ثم أخذ يركض مشرق الوجه لاهت
الأنفاس لا يلوى على شئ ، ولا يلتفت الى وراء • قال لنفسه : « ما يزال
فى الامكان أن يسوى كل شئ على خير وجه • أما أنا فقد تفاديت بهذه
الطريقة مصيبة كبرى • • • »

والحق أن السيد جوليا دكين قد شعر فجأة بهدوء وطمأنينة ، وشعر
بارتياع وتخفف • وتهد يقول : « آه • • شريطة أن يسوى كل شئ
على خير وجه » ، دون أن يجروء مع ذلك على الاعتقاد بأن كل شئ
سيسوى على خير وجه • وأردف يخاطب نفسه : هذا ما سأفعله • • • لا
يل الأفضل أن • • • أو يمكن مع ذلك أن • • • بل هذا ما يجب أن
أفعله • • • »

وفيما هو يستطرد هذا الاستطراد محاولا أن يخرج من حالة الشك
والتردد التى هو فيها ، وصل بطلنا الى جسر سيميونوفسكى • فلما صار
هنالك اتخذ هذا القرار الحكيم العاقل ، وهو أن يعود أدراجه • قال
لنفسه : « هذا أفضل • • من مصلحتى أن أتخذ هذا الموقف ، موقف
المشاهد المحايد • • المشاهد لا أكثر • • سأكون مجرد مشاهد ، مشاهدا
غريب عن هذه القضية كلها • ومهما يحدث ، فسأظل خارج القصة
لا أسأل عن شئ • • ذلك ما يجب علىَّ أن أفعله بعد الآن • • • »

حتى اذا اتخذ بطلنا هذا القرار قفل راجعا • ان هذه الفكرة
الموفقة ، وهى أن يتخذ فى المستقبل موقف المشاهد ، قد عززت ثقته
وطمأنينته • فأخذ يردد قوله : « هذا أفضل • • • هذا أفضل • • •
أكون مسؤلوا عن شئ ، وفى الوقت نفسه أشهد كل شئ • • • نعم • •
هذا خير حل ولا جدال • • • » •

عاد السيد جوليا دكين يقبع وراء كومة الحطب وقد اطمأن كل
الاطمئنان . . . انه ملجأ مريح يعصم من كل سوء . وركز انتباهه على
النوافذ . ولم يطل نظره وانتظاره هذه المرة . فما هي الا برهة قصيرة ،
اذ باضطراب غريب يظهر وراء جميع النوافذ بمسكن أولسوفى
ايفانوفتش . هذه وجوه تظهر ، وهذه هي الستائر تراح . وما هم
الضيوف يهرعون جماعات يحتشدون على زجاج النوافذ . كان يبدو عليهم
جميعا أنهم يبحثون عن شيء فى الفناء . ظل السيد جوليا دكين معتصما
وراء كومة الحطب يراقب بانتباه واستطلاع ، حركات هؤلاء
الناس . وهو يمد رأسه تارة الى يمين وتارة الى شمال ، بمقدار ما كان
الظل الذى ترخيه عليه كومة الحطب يسمح له بذلك . وفجأة تجمد الدم
فى عروقه ؟ وارتعش ارتعاشا شديدا ، وكاد يسقط مغشيا عليه من فرط
الذعر . لقد أحس فجأة أنهم لا يبحثون عن أى شيء ، بل يبحثون عنه
هو ، هو السيد جوليا دكين . كانت جميع الأنظار مصوبة نحوه . . .
وكان يستحيل عليه أن يهرب . ولو هرب لاستطاعوا أن يقبضوا عليه . .
تجمد من فرط الرعب ، وتجمع على نفسه ، وشد جسمه الى الأحطاب
وأدرك فى تلك اللحظة نفسها أن الظل الحائن قد أخذ يفضحه ، فهو
لا يستر كل جسمه . ما أشد ما كان يفرحه فى تلك اللحظة أن ينقلب
الى فأرة حتى يستطيع التسلل بين الأحطاب ، فيختفى فيها هادئا مطمئنا .
آه . . . ليت هذا كان ممكنا ! ولكنه مستحيل وا أسفاه ! وقرر بطلنا أخيرا ،
وقد تملكه أشد الرعب ، أن يرفع عينيه وأن ينظر الى النوافذ . قال
لنفسه : هذا أفضل . . . ولكن ما هى اللحظة واحدة حتى كان متلاشيا
تلاشيا كاملا . انه الآن يحترق شعورا بالعار . لقد أدرك أنهم اكتشفوه .
نعم لقد عرفوه . عرفوه جميعا ، فهم جميعا يلوحون له بأيديهم ؟ هم جميعا

ينادونه • وسمع صرير التوافذ وهي تفتح • وسمع أصواتا تهتف له
بكلام •••

دمدم بطلنا يقول وقد بلغ ذروه اليأس : « يدهشني أنهم لم يجلدوا
هاته البنات بالسوط منذ الطفولة ! ••• » • وفجأة ظهر « الرجل »
(والقارئ يعلم من « هو ») على درجات المدخل • كان بغير قبعة ، وبغير
معطف • وكان يبدو أنه يلهث • هبط الدرجات وأسرع نحو السيد
جوليادكين ، نشيط الحركة متواثب الخطى ، مظهرًا أشد الفرح بلقاء
صديقه الحميم •

قال الرجل التافه مزقزقا :

- ياكوف بتروفتش ! أنت هنا ؟ أخشى أن يصيبك برد يا ياكوف
بتروفتش • الجو هنا صقيع • تعال ادخل الى البيت •
فأجاب بطلنا بصوت مدعن :

- لا ••• ما هذا بشيء يا ياكوف بتروفتش ، ما هذا بشيء !
- ولكن ••• مستحيل ••• يا ياكوف بتروفتش • انهم ينادونك ، انهم
يدعونك اليهم باحترام ، انهم ينتظرون حضورك بشوق • لقد قالوا لي :
« من فضلك اثنا بياكوف بتروفتش • » ♦

غمغم السيد جوليادكين يقول ، محترقا متجمدا في آن واحد ،
محترقا من الشعور بالعار ، ومتجمدا من الشعور بالذعر :

- لا يا ياكوف بتروفتش •

قال الرجل الكريه بصوت يزقزق :

- نيني نيني ! ••• مستحيل •••

ثم أضاف بصوت أمر وهو يجر بطلنا نحو باب المدخل :

- هيا ••• تعال •••

أراد السيد جوليا دكين أن يقاوم ، ولكن بدا له أن من غير اللائق أن تشب بينه وبين الرجل مشاجرة على مرأى من جميع الضيوف • فتقدم • لا نستطيع أن نقول انه كان يمشى ، لأنه كان هو نفسه لا يعلم ماذا يصنع وما الذى يجرى • ثم ان هذا كله لا قيمة له •

وقبل أن يثوب الى رشده وأن يسترد شعوره وجد نفسه فى وسط قاعة الاستقبال الكبرى • كان شاحب الوجه ، مشعث الثياب ، منفوش الشعر ، زانح البصر • ألقى على الحضور نظرة شاملة • يا للهول ! كانت القاعة والغرف المجاورة مكتظة بالناس • رجالا ونساء • وها هم أولاء جميعا يخفون اليه ويتقدمون نحوه ويحتشدون حوله ، فاذا بهذا البحر المائج الهائج من البشر يدفع بطلنا الى ركن من القاعة • وأدرك هو ذلك وبرقت فى ذهنه فكرة : « انهم لا يدفعوننى نحو الباب ••• » • والحق أنهم لم يكونوا يدفعونه نحو الباب ، بل نحو المقعد المريح الذى كان يجلس عليه أولسوفى ايفانوفتش هادئا • وقرب المقعد رأى بطلنا كلارا أولسوفينا •

كانت شاحبة الوجه تبدو حزينة متعبة رغم تألق زينتها • وانتبه بطلنا ، خاصة ، الى الأزهار الصغيرة البيضاء التى كانت مغروسة فى شعرها الاسود •• انه لمنظر جميل • والى الجانب الآخر من المقعد رأى بطلنا فلاديمير سيميونوفتش مرتديا رداء فراك أسود على عروته وسامه الجديد • اقتيد السيد جوليا دكين الى أمام أولسوفى ايفانوفتش • كان يمسكه من احدى يديه سميّه الذى اصطنع لهذه المناسبة هيئة الوقار والرصانة ، وهذا أمر سر له بطلنا كثيرا ؟ ويمسكه من اليد الأخرى آندره فيليوفتش الذى كان وجهه يعبر عن الأبهة والفخامة •

تساءل بطلنا : ما معنى هذا كله ؟ « ولكنه حين أدرك أنهم يقودونه

الى امام اولسوفى ايفانوفتش أشرفت فى ذهنه فكرة • لقد خطرت بهاله
الرسالة المسروقة ••• وهاهو ذا الآن أمام مقعد أولسوفى ايفانوفتش •

تساءل بطلنا وقد تملكه غم لا سبيل الى التغلب عليه : « ماذا يجب
على ان افعل ؟ ينبغي أن آتخذ موقفا فيه كبرياء ، موقفا صريحا فيه نبل
وفيه رفة • ومع ذلك على أن أقول : هذه هى القضية أيها السادة •••

غير أن الامر الذى كان يخشاه كثيرا لم يحدث فى الواقع • فقد
استقبله اولسوفى ايفانوفتش استقبالا لطيفا • ولئن لم يمد له يده مصافحا ،
فقد نظر اليه طويلا وهو يهز رأسه الاشيب المهيب • هز راسه بوقار
وجلال ، ولكن هيئته لم تكن تخلو من لطف وتودد • ذلك كان شعور
بطلنا على الأقل • حتى لقد تراءى لبطلنا التماع دمعة فى عين الشيخ
المضطربة • وحين رفع السيد جولياكين عينيه تراءت له كذلك دموع على
أهداب كلارا أولسوفينا • وظهر له فلاديمير سيميونوفتش متأثرا أشد
التأثر أيضا • وحتى آندره فيليوفتش الذى ظل وقورا رصيناً لاتبدو عليه
ملامح الاضطراب ، كان وضعه يدل على شيء من شفقة يشعر بها نحو
بطلنا • أما الفتى الذى ألعنا اليه حين تحدثنا عن الحفلة الراقصة ، وقلنا
عنه انه يشبه كل الشبه مستشارا من مستشارى الدولة ، فقد انتهر فرصة
هذا الانفعال العام الشامل فانفجر باكيا فى نشيج مسموع ••• على أن هذا
كله ربما كان وهما من أوهام الحواس لدى بطلنا • لقد كان هو نفسه
يبكى ويحس بدموعه تجرى سخية على خديه الباردتين كالصقيع •
وبصوت يقطعه النشيج أراد أن يخاطب حاميهِ القديم وأن يفتح له قلبه •
هو يشعر الآن بأنه تصالح مع الانسانية بأسرها ومع قدره ذاته •
انه يحس بالحُب يملأ جوانحه ، لا بالحُب للشيخ الوقور فحسب ، بل
لجميع ضيوفه أيضا ، وحتى لسميِّهِ الشرير الذى أصبح لا يرى الآن أنه



سميته ولا أنه شيرير ، بل انسان عمادى محبب لطيف • أراد السيد جوليا دكين أن يكلم أولسوفى ايفانوفتشس ، ولكن ازدحام نفسه بالمشاعر حال بينه وبين ذلك • فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، واكتفى بأن وضع يده على قلبه بحركة عريضة ذات دلالة ••• ومن أجل أن يوقى آندره فيليبوفتشس الشخ الحساس من الانفعالات العنيفة قاد بطلنا الى ركن من القاعة وتركه فيه ، لكنه ترك له حرية مطلقة • وهذا بطلنا يشق لنفسه طريقا بين الجمهور الكثيف وهو يتبسم ويدمدم بكلام بين أسنانه • ان الأحداث قد حيرته ، ولكنه يشعر بأنه تصالح مع البشر والقدر تصالحا كاملا • وها هو ذا يتقدم • وها هم الناس يصطفون فى طريقه صفين ، وهم ينظرون اليه نظرة استطلاع غريب وشفقة عجيبة •

وصل بطلنا الى غرفة مجاورة • فاستقبل فيها بمثل هذا الترحيب • وكان يشعر شعورا غامضا بأن جمهرة كبيرة تسير وراءه صفا • كان يحس أن الناس تراقب كل حركة من حركاته وكل اشارة من اشاراته • وكان يسمعون يتجادلون خفية فى أمرٍ هو على جانب عظيم من خطورة الشأن • كان يراهم يتكلمون ويحركون رؤوسهم ويتهايمون ويعارض بعضهم بعضا ويشتجر بعضهم مع بعض اشتجارا حادا ••• تمنى لو يعرف فيم يتناقشون ولماذا يتهايمون ويتشاجرون • والتفت فرأى سميّه الى جانبه • فشرع فجأة برغبة جارفة فى أن يمسك يد هذا الرجل وأن ينتحى به جانبا • وكذلك فعل • رجاء أن يساعده فى جميع الظروف المقبلة ، وأن لا يتركه أبدا فى لحظة حرجة هذا الحرج • فهز السيد جوليا دكين الأصغر رأسه بوقار وصافح يد بطلنا ، فشرع بطلنا بقلبه يخفق خفقانا شديدا ويكاد يخفق من فرط الانفعال • كان بطلنا يلهث ويحس أنه مسحوق من كل جهة ، ولا يطبق احتمال جميع هذه النظريات التى تخترقه وتلتهمه وتلاشيه •• ولاحظ السيد جوليا دكين ، عرضا ، المستشار الذى

يضع على رأسه شعرا مستعارا، فحججه المستشار بنظرة قاسية فاحصة لاتتفق وعطف سائر الآخرين •• أراد السيد جوليا دكين أن يذهب إليه ، أن يتسم له ، أن يكشفه بكلمة • ولكنه لم يستطع • ونسى الواقع خلال لحظة ، وفقد الذاكرة والشعور •• فلما تاب الى رشده لاحظ أنه كان يطوف في وسط حلقة عريضة من الضيوف • وفجأة نادى أحدهم من الغرفة المجاورة صائحا : السيد جوليا دكين • كانت صيحة مباغثة تجاوزت الجموع • فتحرك جميع الناس في صخب واضطراب ، وأسرعوا نحو أبواب الصالون الأول ، وكادوا يحملون إليه السيد جوليا دكين حملا • كان المستشار الذي يضع على رأسه شعرا مستعارا والذي يملك قلبا بغير رحمة ، كان قرب السيد جوليا دكين • وتناول المستشار يد السيد جوليا دكين وأجلسه الى جانبه ، أمام مقعد أولسوفى ايفانوفتش ، ولكن على مسافة منه من قبيل الاحترام • وأحاط الضيوف بالسيد جوليا دكين وأولسوفى ايفانوفتش صفوفًا عدة ، وجلسوا حولهما • صمتوا وهدأوا • كان السكون مطبقا • انهم ينظرون الى أولسوفى ايفانوفتش وكأنهم يتوقعون حدثا هاما . ولاحظ السيد جوليا دكين أن السيد جوليا دكين الآخر وأندره فيليبوفتش قد جلسا الى جانبي مقعد أولسوفى ايفانوفتش ، أمام المستشار ••• وطال الصمت • انه الانتظار •

قال بطلنا لنفسه : « هكذا في الأسر حين يكون على أحد الأقرباء أن يسافر في رحلة بعيدة • لم يبق الآن الا أن ينهضوا ويصلوا • » • غير أن خواطره سرعان ما قطعها تحرك الضيوف • فها هم أولاء يرددون جميعا : « لقد وصل ••• لقد وصل ••• » • ولكن لم يبد على أحد أنه دهش •

تساءل السيد جوليا دكين وقد هزه احساس غريب ، ارتعش له :
« من ذا الذي وصل ؟ » •

قال المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا وهو ينظر الى
آندره فيليوفتشس بانتباه : « حان الوقت » • فما كان من آندره فيليوفتشس
الأن رفع عينيه نحو أولسوفى ايفانوفتشس ، فهز الشيخ الوقور رأسه
برصانة علامة الموافقة • قال المستشار وهو ينهض السيد جوليا دكين :
- قوموا •

فقام جميع الناس • وتناول المستشار يد السيد جوليا دكين الأكبر •
وكذلك فعل آندره فيليوفتشس بالسيد جوليا دكين الأصغر • وسار الموظفان
بالتوايمن متقابلين وجها لوجه ، سيرا هادئا وقورا ، وسط الجمهور المتنبه
القلق • وطاف بطلنا ببصره المدهوش على ما حوله ، ولكن سرعان ما نُبِّههُ
الى ضرورة المحافظة على النظام ، اذ نُبِّههُ الى سميته الذى كان يمد له يده •
« انهم يريدون المصالحة بيننا » ، كذلك قال بطلنا لنفسه ومد يده
هو أيضا فى رقة وحنان ؟ ثم مد رأسه بعد يده •• وكذلك فعل سميته •
خيل الى بطلنا أن صديقه التدار كان يتسم له ، ويغمز المشاهدين
الذين كانوا يحيطون بهما غمزا وقحا • نعم ، ترمى لبطلنا فى وجه
الدجال الدنىء تعبير سيء لا يبشر بخير ، فلقد صعر الحائن خذه فى اللحظة
التي كان يهم فيها أن يقبل صاحبه قبله يهوذا •

وسمع السيد جوليا دكين قرع أجراس يدوى فى رأسه • وزاغت
نظراته واضطربت عيناه • وخيل اليه أنه يرى جمهرة ضخمة من
أشخاص هم جميعا جوليا دكين تظهر فجأة فى القاعة متشابهة كل التشابه
متمثلة كل التمثال ، تندفق من جميع الأبواب فى لحظة واحدة •• ولكن
كان الأوان قد فات •• فان القبلة المدوية الحائنة الغادرة كانت قد أخذت
أصداؤها تترجع •

وهنا وقع حادث لم يكن فى الحسبان •• فقد انفتح مصراعا باب

الدخول مقرعين ، فاذا برجل يظهر على العتبة ، واذا بالسيد جوليا دكين
يتجمد في مكانه من فرط الذعر حين يراه . تسمرت قدما السيد جوليا دكين
على الأرض . واختفت في حلقه المنقبض صرخة رعب .

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جوليا دكين كان قد تنبأ بهذا كله
منذ زمن طويل . لقد سبق أن أوجس هذا الموقف . تقدم الرجل مهيبا
وقورا ذا أبهة وجلال . ان بطلنا يعرف هذا الوجه حق المعرفة . لقد
رآه مرارا كثيرة ، رآه في هذا اليوم نفسه . كان الرجل فارغ القامة
يدين الجسم . وكان يرتدى رداء أسود . وكانت عنقه تزدان بصليب
كبير . كان لا ينقصه الا سيجار بين شفقيه ، حتى يكون الشبه كاملا .
ان نظرتة ، كما قلنا ، قد جمدت السيد جوليا دكين ذعرا ورعبا . اقترب
من بطلنا المسكين رصيناً ذا فخامة وأبهة . مد اليه السيد جوليا دكين يده .
فتناول الرجل اليد الممدودة اليه ، وجر بطلنا الشقي وراه . نظر بطلنا
فيما جوله متحيرا قلعا مشوه الوجه من الذعر .

« انه كريستيان ايفانوفتش روتشبتس ، دكتور في الطب والجراحة .
هو صديقك القديم يا ياكوف بتروفتش » ؛ كذلك زقزق يقول صوت
كريبه في أذن بطلنا . فالتفت بطلنا ، فرأى أن الشخص الذي كلمه لم
يكن الا سميّه الدنيء ذا النفس الحقيرة الحوانة الغدارة . كان وجهه
يتألق فرحا ، فرحا عاتيا مشموما . وكان يفرك يديه منتشيا ، ويدبر رأسه
في جميع الجهات مرحا ، ويتنقل بين الناس مفتتا منتصرا . كان مستعدا
لأن يرقص من فرط الحماسة .

ووثب فجأة الى أمام ، فانتزع شمعة من يد أحد الخدم وتقدم
يضيء الطريق لكريستيان ايفانوفتش والسيد جوليا دكين اللذين تبعاه
يسيران خلفه .

وسمع بطلنا وقع خطوات المشاهدين جميعا يسرون وراءهما موكبا كبيرا • كانوا يغذون الخطى ، ويدوس بعضهم بعضا ، ويرددون جميعا أقوال الدجال جوقة كبيرة واحدة : « لا تخف يا ياكوف بتروفتشس ••• ما هذا بشيء •• هو صديقك القديم ، هو صاحبك القديم كريستيان ايفانوفتشس روتشبتس ••• »

وخرجوا الى الدهليز ، ثم الى السلم المضاء اضاءة ساطعة • واندفع جمهور غفير الى السلم • انفتح باب مدخل العمارة مقرعا • ووجد السيد جوليا دكين نفسه على درجات المدخل يصحبه الطيب • وكانت تقف في الفناء مركبة تجرها أحصنة أربعة كانت تكدف من نفاد صبرها • وبوبات ثلاث صار الدجال الكريه أمام العربية يفتح بابها • وأشار كريستيان ايفانوفتشس الى بطلنا باشارة مقنعة أن يركب العربة • والحق أن انشاع بطلنا لم يكن بذى فائدة • فهناك عدد كاف من الناس ليحمله اليها حملا •

التفت السيد جوليا دكين وهو يهذى رعبا وذعرا • كان السلم المضاء يعج بالناس • وهذه عيون مستطلعة تحديق اليه من كل جانب • وهذا أولسوفى ايفانوفتشس نفسه يرأس الاحتفال من على فسحة السلم فى الطابق الأول • كان جالسا على مقعده ، مقعد المشلول ، يتأمل المشهد فى انتباه وشفقة • وكان جميع الناس ينتظرون • فلما التفت بطلنا سرت فى الخشد دمدمة تدل على التملل ونفاد الصبر •

« أرجو أن لا يكون فى هذا كله ما يبعث على لوم •• أو ما يثير القسوة ويلفت الى انتباه كافة الناس ••• فيما يتعلق بحياتى العامة » بهذا دمدم بطلنا وقد أعيته الحيلة واضطرب اضطرابا شديدا • وقامت من حوله ضوضاء صاخبة • هؤلاء أناس يهزون رؤوسهم علامة الاستكثار • وانبعجت دموع من عيني السيد جوليا دكين •

« اذا كان الأمر كذلك فأنا موافق ... اننى أعهد بمصيرى كله الى كريستيان ايفانوفتش » ، كذلك قال جوليا دكين ، فما ان نطق بهذه الاقوال التى يعبر بها عن انه يضع مصيره بين يدى كريستيان ايفانوفتش ، حتى أطلق جميع الشهود صيحات وصرخات رهبة تصم الاذان ، هى صرخات فرح وانتصار • وسرى صدى هذه الصرخات فى الحشد كله •

امسك كل من كريستيان ايفانوفتش واندره فيليوفتش باحدى ذراعى السيد جوليا دكين ، وأخذوا يركبانه العربية • وكان سميّه يدفعه من خلف على عادته الجبانة • ومرة أخيرة ، التفت السيد جوليا دكين المسكين الى وراء ، وأجال بصره فى الحضور • فأحس برعدة تسرى فى أعضائه كلها ، كهرة صغيرة سكب عليها قادوس كبير من ماء بارد ، اذا سُُمِح لنا بهذا التشبيه • وصعد العربية • فسرعان ما تبعه كريستيان ايفانوفتش • فأغلق عليهما الباب • وسمعت قرعة السوط على خواصر الأحصنة التى تحركت تجر المركبة ... وهرع جميع الناس وراء العربية •

ان الصرخات المسعورة التى يطلقها جميع أعدائه تشيع رحيله • وظل بضع لحظات يميز بعض الوجوه حول بابى العربية التى تقله •

ولكن أعداءه أصبحوا بعيدين شيئاً بعد شئ • فأصبح لا يرى أحدا منهم ، الا سميّه الدنىء الذى لبث يرافق العربية مدة أطول • كان يركض على يسار العربية واضعا يديه فى جيبي سرواله الأخضر من ردائه الرسمى • وتشبث بالعربة عدة مرات يرسل قبلات فى الهواء الى صديقه التعميس من قبيل الوداع •

ولكن التعب غلبه آخر الأمر • فأصبح ظهوره أندر فأندر الى أن غاب غايابا تاما •

ان ألما أصم يخنق قلب السيد جوليا دكين ، وان دمه الذى يغلى

ويفور ينبض في صدغيه نبضا قويا • كان يلهث مختنقا • ود لو يفك
أزرار سترته ، ود لو يعرى صدره ، لو يدلكه بالثلج ، لو يرشه بماء
بارد • ولم يلبث أن غاب عن وعيه غايبا كاملا ••• فلما تاب الى رشده
لاحظ أن العربة كانت تجرى على طريق لا يعرفه • ان على شماله ومينه
غابات • والبرية خالية مقفرة قاحلة ••• وانهار فجأة حين لاحت له عينان
من لهب تحديق اليه في الظلام ، عينان يشرق فيها فرح جهنمي مشوم •
« ليس هذا كريستيان ايفانوفتش • من عسى يكون هذا ؟ أ يكون
«هو» ؟ «هو» ؟ لا ••• انه كريستيان ايفانوفتش ، ولكنه كريستيان
ايفانوفتش آخر ••• انه كريستيان ايفانوفتش مرعب •

قال بطلنا بصوت وجل مرتجف مرتعش ، محاولا بطواعية ومذلة
أن يرق له قلب الطيب الرهيب :

- كريستيان ايفانوفتش •• أنا لم أصنع شيئا •• يخيل الى أن ••
فقاطعته كريستيان ايفانوفتش يقول :

- سيكون لك حق في مسكن بالمجان ، مع تدفئة واطاعة وخدمة ،
وذلك كله لسث جديرا به ولا أنت تستحقه •

دوى جوابه القاسى فى أذنى بطلنا دوى حكم لا رحمة فيه • أطلق
السيد جوليا دكين صرخة ، وأمسك رأسه بيديه • وا أسفاه ! لقد تبأ
بهذا كله منذ زمن طويل •

قلبٌ ضعيفٌ

١٨٤٨

« قلب ضعيف » (Slaboé Serotsé) ،
نشرت هذه القصة في « حوليات
الوطن » ، المجلد ٥٦ ، في شهر
شباط (فبراير) ١٩٤٦



شابان ، موظفان في ادارة واحدة ،
كانا يقيمان معا في الطابق الثالث من احدى
العمارات • أحدهما اسمه أركادى ايفانوفتش
نيفيديفتش ، والثانى اسمه فاسيا شومكوف •••

ان كاتب هذه القصة يشعر طبعاً بأن عليه أن يشرح للقارىء لماذا كانت
احدى شخصيته تسمى باسمها الكامل ، بينما لا يطلق على الشخصية
الثانية الا اسم تصغير ، وهو يشعر أن عليه أن يفعل ذلك حتى يتحاشى
على الأقل أن يؤخذ عليه أنه يتصرف تصرفاً غير لائق • وسوف يكون
عليه ، فى هذه الحالة ، أن يعين لكل شخصية من هاتين الشخصيتين رتبتها ،
ثم سنها ، ولقبها ، ووضعها ، وحتى طبعها •••

ولكن كاتب هذه القصة يسمح لنفسه بأن يدخل فى الأحداث رأساً
(وهذا يدل طبعاً فى نظر بعض الناس على أنانية مفرطة) ، فها هو ذا
بعد هذا التمهيد يبدأ قصته ، وتلك طريقة يعمد اليها كثير من الكتاب على
كل حال •

عشية عيد رأس السنة ، عاد شومكوف الى بيته فى نحو الساعة السادسة من المساء . فاستيقظ أركادى ايفانوفتش الذى كان راقدا على سريره ، ونظر الى صديقه من خلال عينيه نصف المغمضتين ؛ فرأى أنه مرتد أحسن حلة ، وأنه لابس قميصا نظيفا غاية النظافة . حيرته هذا الأمر طبعاً ، وتساءل : ما لفاسيا « مهنما » هذا الهندام ولكنه تذكر أن صاحبه لم يتناول غداه اليوم فى المنزل . وفى أثناء ذلك أشعل شومكوف شمعة ، فأدرك أركادى ايفانوفتش أن صاحبه يتهاى لابقاظه من نومه .

وها هو ذا يتحنح فعلا عدة مرات ، ويدور فى الغرفة دورتين ، ثم يسقط من يده - عرضا - غليونه الذى كان قد حشاه بالتبغ ، يسقطه فى ركن قرب المدفأة . ضحك أركادى ايفانوفتش بينه وبين نفسه . وقال :

- طالت هذه التمثيلية الهزلية يا فاسيا !

- أأنت نائما يا أركاشا ؟

- لا أستطيع أن أوكد ذلك ، ولكن يخيل الى أن لا .

- يومك سعيد يا أركاشا ، يا صديقى العزيز ايه يا رفيقى الطيب ، ايه يا رفيقى الشهم انك لا تستطيع أن تحزر ما أريد أن أقوله لك .

- لذلك أجهله كل الجهل . ولكن هلا اقتربت قليلاً !

وكان فاسيا لم يكن ينتظر الا أن يدعى الى الاقتراب ، فسرعان ما اقترب من صاحبه دون أن يسيء الظن فى أركادى ايفانوفتش . ولكن أركادى ما يلبث أن يمسكه من رصغيه بحركة محكمة ، ثم يقتله فيرميه

على السرير وبقية على هذا الوضع المزعج مبتهجا بذلك ضاحكا منه •
وهتف أركادى يقول :

- ها قد أمسكتك •• ها قد قبضت عليك •
- أركاشا ، أركاشا • ما هذا الذى تفعله ؟ اتركنى •• أرجوك ••
لسوف تفسد ردائى !•

- وما قيمة أن يفسد رداؤك ؟ وما حاجتك الى هذا الرداء ؟ لماذا
كنت مطمئنا هذا الاطمئنان كله فاتحت لى أن أقبض عليك ؟ قل لى : أين
كنت ؟ أين تغديت ؟

- أركاشا ، اتركنى •• أرجوك •• أناشدك الله •
- أين تغديت ؟
- ولكن ذلك بعينه هو ما أريد أن أقصه عليك !
- هيا قص اذن !
- ولكن اتركنى أولا !
- لا •• لن أتركك قبل أن تقص على كل شيء !
- أركاشا ، ألا تحس أن هذا مستحيل ، مستحيل تماما ! هنالك

أمور ••

كذلك صاح فاسيا الذى لم يكن قوى الجسم ، محاولا أن يخلص
نفسه من بين يدي خصمه القادرتين دون أن يظفر بطائل •
- أى أمور ؟

- هناك أمور لا يمكن أن يتحدث فيها المرء وهو على هذا الوضع
والا كان يفقد كل كرامة •• لملك تضحك من هذا الكلام •• ولكن
الأمر الذى سأحدثك فيه هام جدا •••

- دعنى من الأمور الهامة ! ••• ما عسالك مخترعا أيضا ؟ أفضل

أن تروى لى رواية مضحكة • أما الأمور الهامة فلست أحرص عليها •
والأفأين الصداقة ؟ قل لى ماذا تفعل بالصداقة ! هيا هيا •• حدثت ••

- أوكد لك يا أركاشا أن ذلك مستحيل •

- وأنا لا أريد أن أسمع حديثك •

بدأ فاسيا حديثه يقول ، وهو على تلك الحال من الاضطجاع مقلوبا
فوق السرير ، محاولا أن يسبغ على كلامه ما يطبق اسباغه عليه من جد
ورصانة :

- طيب يا أركاشا ••• ربما قلت لك •• ولكن •••

- ما هيا المسألة أخيرا ؟

- طيب •• المسألة أننى خطبت !

عندئذ رفع أركادى ايفانوفتش صاحبه كما يرفع طفل ، دون أن
ينطق بكلمة ، رغم أن فاسيا ليس قصير القامة ، بل أميل الى الطول ، وان
يكن نحىلا • ثم أخذ يطوف به الغرفة حاملا اياه على ذراعيه ، ماضيا به
من أولها الى آخرها ، متظاهرا بأنه يؤرجحه ، مردداً على مسامعه من حين
الى حين قوله :

- ما رأيك اذا وضعتك فى القماط أيها الخطيب الجميل ؟

لكنه ، وقد لاحظ أن فاسيا أصبح لا يتحرك ويرفض أن يفتح فمه ،
غير رأيه ، قائلا لنفسه انه ربما يكون قد بالغ فى المزاح قليلا ، فأوقفه
على قدميه وسط الغرفة ، وطبع على خده قبلة مودة •

- هل زعلت يا فاسيا ؟

- استمع الىّ يا أركاشا •••

- كان هذا من قبيل الاحتفال برأس السنة •

- لست أقول شيئا •• ولكن لماذا تقوم بأفعال المجانين هذه ؟ قلت

لك مرارا : أركاشا ليس فى أفعالك هذه شىء من فكاهة ؛ صدقتى : ليس فيها شىء من فكاهة البتة •

- ولكن أأنت حاقدة على ؟

- طبعا لا ... وهل زعلت يوما من أحد ؟ لقد آلتى ... هذا كل

مافى الامر •

- آلتك ؟

- طبعا ... كنت آتيا اليك كما يأتى المرء الى صديق ، طافح القلب

ممتلىء النفس ، أريد أن أحدثك عن سعادتى •

- ولكن أية سعادة هذه ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟

- ألم أقل لك اننى سأتزوج ؟

هكذا أجب بلهجة حادة ، لأنه كان فى الواقع غاضبا بعض الغضب •

هتف أركاشا يقول :

- ستتزوج ؟ صحيح ؟ .. لا .. ما هذا الكلام ؟ أنظروا ماذا يقول

والدموع فى عينيه ... هيا يا فاسيا .. دعك من هذا الكلام يا صغيرى

فاسيوك .. أصحيح ما تقول ؟

وراح أركادى ايفانوفتش يقبل صاحبه من جديد •

قال فاسيا :

- هل فهمت الآن ماحدث لى ؟ أنا أعرف أنك طيب ، أنك صديقى ،

فجئت اليك فرح القلب مشرق النفس ، فاذا أنت تجبرني أن أحدثك عن

سعادتى مقلوبا على السرير موثق اليدين ، مهان الكرامة •

ثم أضاف فاسيا يقول مبتسما :

- طبعا ... ذلك مشهد يضحك يا أركاشا ... ولكننى كنت فى

تلك اللحظة لا أملك نفسى بمعنى من المعانى • لذلك لم أستطع أن أهون
من شأن القضية •• لم يكن ينقصك الا أن تسألنى عن اسمها ••• يمينا
انتى لأوتر أن أقتل على أن أذكر اسمها وأنا على ذلك الوضع •

- ولكن لماذا لم تقل لى شيئا قبل ذلك يا فاسيا ؟ لو قد أبلغتني الأمر
من قبل ، لما تصرفت تصرف المجانين ذاك !

كذلك هتف أركادى ايفانوفتش آسفاً أصدق الأسف • فقال له
فاسيا :

- طيب •• طيب •• لا تزعل •• لست حاقداً عليك •• أبدا •
أنت تعلم أن مرد هذا كله الى أنتى طيب القلب •• لذلك أمتنى جدا انتى
لم أستطع أن أروى لك الأمر على نحو ما كنت أحب أن أرويه •• وأن
أقص عليك كل شىء بهدوء ، وأن أطلعك على المسألة فى صورة لائحة ••
انتى أجبك كثيرا يا أركاشا ، ويبلغ حبى لك أنتى ما كنت لآتزوج لولا
وجودك معى ، بل لعلنى ما كنت لأوجد أيضا !

كان أركادى ايفانوفتش ، وهو انسان ذو طبيعة حساسة جدا ،
يضحك ويبكى أثناء سماعه كلام صديقه • وكذلك كان يفعل فاسيا •
تعانق الصديقان ، ناسيين مشاجرتهم الصغيرة •

- ولكن احك لى الآن كل شىء ! كيف تم ذلك يا فاسيا ؟ معذرة
يا عزيزى ، ولكننى مدهوش ، بل مصعوق ! ••• هل صحيح ما تقول ؟
ألم تلفق شيئا ؟ بلى بلى ••• لا شك أنك تمزح •

بهذا صاح أركادى ايفانوفتش وهو يلقى على صديقه نظرة شك •
لكنه ، وقد قرأ فى وجه صديقه تأكيدا لعزمه القاطع على الزواج بأقصى
سرعة ، ارتمى على السرير وأخذ من فرط فرحه « يتشقلب تشقلبات »
بلغت من القوة أن اهتزت لها جدران الغرفة •

قال أخيرا وقد هداً :

- فاسيا ، تعال اجلس !

- حقا يا عزيزي .. لا أدري من أين أبدأ ...

نظر الصديقان أحدهما الى الآخر منفعلين فرحين .

- من هي يا فاسيا ؟

قال فاسيا بصوت يرتجف سعادة :

- أسرة آرتميف .

- لا ... صحيح ؟

- صحيح .. ألم أحدثك عنهم دائما ؟ ثم انقطعت عن الاتيان على ذكرهم ... ولم تلاحظ أنت شيئا ... آه يا أركاشا ! لكم تحملت من عناء في سبيل أن أكنم عنك الحقيقة ! كنت أقول لنفسي : ربما انهار كل شيء .. لكنني أحبها يا أركاشا .. نعم أحبها .. واليك القصة (كذلك بدأ يروي القصة متوقفا وقد غلبه الانفعال) . منذ سنة كانت ما تزال مخطوبة . ولكن خطيبها أرسل الى مكان ما في الأقاليم ، بمهمة رسمية . وقد عرفته أنا .. الخلاصة : ما لنا ولهذا ! .. كان رجلا لا أدري ما قيمته .. وما هو ذا ينقطع عن الكتابة فجأة ، ويغيب غيابا تاما . انتظروه .. ثم انتظروه .. ثم أخذوا يتساءلون ما عسى تكون دلالة هذا الانقطاع . وفجأة ، منذ أربعة أشهر تقريبا ، عاد .. ولكنه عاد متزوجا ، ولم يجيء اليهم مرة واحدة ! .. شيء لا وفاء فيه ولا نبل .. شيء يبعث على الاشمئزاز ! وما من أحد يدافع عنهم ، أو يقتص لهم ! لقد بكت المسكينة كثيرا . أما أنا فكنت أحبها منذ زمن طويل ! بل كنت أحبها منذ الأبد !

فأخذت أواسيها وأعزيتها .. أخذت أتردد عليها كثيرا .. الخلاصة : أنا
نفسى لا أعرف كيف تم الأمر .. ولكنها تعلقت بى هى أيضا . ومنذ
ثلاثة أيام لم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فأجهشت باكيا وقلت لها كل
شئ ، أى قلت لها اننى أحبها .. قلت لها كل شئ .. فأجابتنى بقولها :
« وأنا أيضا يا فاسيلى بتروفتش ، مستعدة لأن أحبك .. ولكننى فتاة فقيرة
فلا تضحك على .. لقد أصبحت لا أجرؤ أن أدع لهذه العاطفة أن تنشأ
فى نفسى .. » . هل فهمت يا صاحبي ؟ هل فهمت ؟ .. وهكذا تعاهدنا .
ثم أخذت أفكر ، باحثا عن وسيلة لابلاغ أمها . قالت لى : « الأمر صعب .
انتظر قليلا .. ذلك أنها تخاف .. فقد تأبى الموافقة على خطوبتنا . » .
وظفقت تبكى . ومضيت الى السيدة العجوز أصارحها بالأمر دون أن
أقول للفتاة شيئا . حدث هذا اليوم . وجئونا أنا وليرانكا عند قدميها ..
فاذا هى تبارك خطوبتنا .. اسمع يا أركاشا ، يا صديقى ، سنسكن معا ..
لن أرضى أن أنفصل عنك بأية حال من الأحوال .

- رغم كل شئ لا أكاد أصدق أن هذا صحيح ! يمينا لا أكاد
أصدق ! .. ما يزال يخيل اليّ أن .. هل صحيح أنك ستتزوج
يا صاحبي ؟ كيف لم أعرف عن هذا الأمر شيئا ؟ يجب أن أعترف لك
يا فاسيا أن فكرة الزواج قد راودتنى أنا أيضا .. على كل حال ، مادمت
تريد أن تتزوج ، فليكن . أتمنى لك السعادة يا صاحبي ، أتمنى لك
السعادة !

قال فاسيا منفعلا وهو ينهض ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا :
- ليتك تعلم يا صاحبي مدى ما أشعر به من فرح فى قلبى وغبطة
فى نفسى . أنت تشعر بهذا الشئ نفسه ، أليس كذلك ؟ طبعاً سنعيش
عيشة بسيطة متواضعة ، ولكننا سنكون سعداء . وليس ذلك وهما . لن
تكون سعادتنا سعادة خيالية .. ستكون حقيقة ..

- اسمع يا فاسيا !

- ماذا تريد ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وهو يتوقف أمام أركادى ايفانوفيتش .

- تراودنى فكرة ... ولكننى أخشى أن أنقلها اليك . اعذرنى .
ولكن يجب أن تبدد شكوكى . مم وكيف ستعيش ؟ انه ليسعدنى طبعاً أن
أعلم أنك ستتزوج ، بل ان هذا ليملاً قلبى فرحاً ... ولكن كيف
ستعيش ؟

أجاب فانيا وهو يتأمل نيفيديفتش مدهوشاً :

- أهذا سؤال يا أركاشا ؟ ماذا دهاك يا صاحبى ؟ ان الأم نفسها لم
تتردد أكثر من دقيقتين حين شرحت لها الوضع بوضوح . أخرى بك أن
تسألنى كيف عاشوا حتى الآن ؟ خمسمائة روبل فى السنة ، لثلاثة
أشخاص ، ذلك دخلهم كله . ذلك كل ما خلفه الأب حين توفى .
فهى ، والسيدة العجوز ، والأخ الصغير الذى ما يزال تُدفع له أجور
المدرسة ، هؤلاء جميعاً يعيشون من هذا المبلغ ... وهم يعيشون مع
ذلك ! أنا وأنت نعد من الرأسمالين بالقياس اليهم ! أنا مثلاً يصل كسبى
حين يواتبنى الحظ الى سبعمائة روبل فى السنة !

- معذرة يا فاسيا .. أقسم لك ان خوفى من أن أرى الأمور تعثر
هو الذى يدفنى الى هذا الكلام ... كيف تحسب سبعمائة ؟ ... أنا
لا أرى منها الا ثلاثمائة ..

- ثلاثمائة ؟ وجوليان ماستاكوفتش ؟ هل نسيته ؟

- جوليان ماستاكوفتش ؟ . ولكن هذا العمل يا صاحبى ليس بمضمون
.. ليس كالمرتب الثابت البالغ ثلاثمائة روبل ، والذى يُعد كل روبل منه

صديقا أمينا و فيا • لا شك أن جوليان ماستاكوفتش رجل مرموق • وأنا
أضمر له كثيرا من الاحترام ، وأفهمه ، رغم أنه يحتل منصبا كبيرا ••
بل انني لأحبه أيضا ، لأنه يحبك فيدفع لك أجر عمل اضافي كان في
وسعه أن يعده عملا رسميا وأن يكلف به أى موظف •• وافقنى يا فاسيا ،
استمع الى • أنا لا أمزح • صحيح أنه ليس من السهل العثور في بطرسبرج
على شخص يضارع حظه حظك ••• أنا أسلم بذلك (صرح نيفيديفتش
بذلك متحمسا أشد التحمس) ••• ولكن ماذا لو أصبح غير راض عن
عملك ، أو لم يبق ثمة عمل يعهد به اليك ، أو استعاض عنك بشخص
آخر ! ••• لا يعلم الا الله ما قد يحدث ••• الخلاصة أنه اذا كان هناك
اليوم جوليان ماستاكوفتش ، فمن الجائز أن لا يكون هناك شيء البتة غدا !

- اسمع يا أركاشا ، من الجائز أيضا أن ينهار السقف على رأسنا

••• الآن

- طبعاً طبعاً ، أنا لا أقول •••

- استمع الى • لماذا تتصور أن يكف عن الاستعانة بخدماتي ؟ اننى

أقوم بعملى بهمة ونشاط ••• ومن جهة أخرى فهو انسان طيب يا أركاشا
•• لقد أعطاني فى هذا اليوم نفسه خمسين روبلا فضة !

- ماذا تقول يا فاسيا ؟ أكان هذا مكافأة ؟

- أبدا ••• دفع لى هذا المبلغ من جيبه • قال لى : « انك لم تتقاض

شيئاً منذ خمسة أشهر يا عزيزى ، فخذ هذا • « تلك كانت كلماته هو
نفسه • ثم أضاف : « لا يُعقل أن تقوم لى بهذا العمل عبثاً • « تفرقت
الدموع فى عينيَّ يا أركاشا •••

- قل لى يا فاسيا ، هل أكملت كتابة النسخة ؟

- لا ، لم أكملها بعد •

- فاسنكا ، عزيزى ، ماذا عملت اذن ؟

- لا تخف يا أركادى • المسألة بسيطة • بقى لى يومان • هناك

متسع من الوقت •

- ولكن كيف لم تنسخ شيئا حتى الآن ؟

- دعك دعك! انك لتنظر الى بعين يبلغ تعبيرها عن الأسف والحسرة

أن قلبى ينقلب فى صدرى ! ما قيمة هذا التأخر ؟ انك تحزننى دائما

بأوضاعك هذه ! فكر قليلا : أين ما يخيف كل هذا الخوف ؟ سأنجز كل

شئ ••• أحلف لك •••

صاح أركادى وهو ينهض وانبا :

- واذا لم تنجز ؟ ومن ذا الذى أعطاك مكافأة فى هذا اليوم نفسه ؟

وتروح تتزوج ••• آه ••• آه •••

- أقول لك لا تخف ••• المسألة بسيطة • سأقوم الى العمل فوراً

•• أقول لك ان المسألة بسيطة !

كذلك صاح شومكوف هو أيضا •

- كيف أهملت هذا الاهمال يا فاسيونكا ؟

- هوه ••• أركاشا ••• هل أستطيع أن أظل لاصقا بكرسى ؟

هل كان عقلى فى هذا ؟ اننى فى المكتب نفسه لا أكاد أستطيع الاستقرار

فى مكانى من فرط خفقان قلبى ! ••• أما الآن ، فأحلف لك •• سوف

أعمل طول الليل ••• ثم سوف أعمل فى الليلة القادمة ، ثم فى الليلة التى

بعدها ، فأكمل كل شئ •

- هل بقي عمل كثير ؟

- أرجوك ، لا تضايقني ، لا تشغلني عن العمل ، اسكت .
اقرب أركادي ايفانوفتش من سريره على رموس الاصابع ، وقعد
عليه . ولم يلبث أن أراد النهوض من جديد ، ولكنه لم ينهض ، خشية
أن يزعج صديقه . ومع ذلك فانه لا يكاد يستطيع الاستقرار في مكانه .
كان منفعلا انفعالا شديدا . واضح أن نياً الزواج قد أقلقه كثيرا . لم
تكن قد خدمت حماسته بعد . وها هو ذا يلقي نظرة على شومكوف .
ونظر اليه صديقه ، وابتسم له ، وهدده باصبعه ، ثم حدق الى الأوراق
مقطبا حاجبيه تقطيا رهيا (كأن شدة العمل ونجاح العمل متوقفان على
ذلك) .

ان من يراه يحس انه لمّا يستطع أن يسيطر على انفعاله بعد .
تناول ريشة أخرى ، واضطرب في مكانه ، وغير جلسته ، وعاد يكتب .
لكن يده ترتجف وتأبى أن تسعفه .

صاح فجأة يقول كأنما تذكر الأمر في هذه اللحظة نفسها :

- أركاشا ! لقد حدثهم عنك .

- صحيح ؟ لقد أردت أن ألقى عليك هذا السؤال نفسه .

- صحيح ... ولكنني سأروي لك كل شيء فيما بعد .. هذه
خطيئي .. نسيت نسيانا تاما أنني آليت على نفسي أن لا أحكي لك شيئا
قبل أن أنجز نسخ أربع صفحات . لكنني فكرت فيك وفيها فجأة ...
عجيب يا صاحبي ... انني لم أقدر أن انكب على الكتابة ... انني أفكر
فيكما طول الوقت !

قال فاسيا ذلك وابتسم • وأعقب ذلك صمت •
صاح فاسيا وهو يضرب الطاولة ويتناول ريشة أخرى :
- ما أسوأ هذه الريشة •

- فاسيا • اسمع • كلمة واحدة لا أكثر •

- ولكن اسرع ... هذه آخر مرة ••

- هل بقي عمل كثير ؟

أجاب فاسيا وقد تقبض وجهه كأنه لا يمكن أن يوجد سؤال مروّع
صاعق كهذا السؤال :

- هو ••• أراكنا ••• لا تكلمنى فى هذا • ما يزال هنالك مقدار

• فطيع •

- هل تعلم ماذا يخطر ببالى ؟

- ماذا يخطر ببالك ؟

- بل دعنا من هذا ، واستمر فى الكتابة •••

- ما هى المسألة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

- انقضت الساعة السادسة يا فاسيوك !

قال نيفدفتش ذلك وابتسم وغمز بعينه غمزا ماكرا • لكنه يبدو

خجلا بعض الخجل ، لا يدري كيف سينظر فاسيا الى الأمر •

- ماذا تعنى ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وقد اصفر وجهه من نفاذ صبره ، وانقطع

عن الكتابة شاخصا ببصره الى صديقه •

- أتعرف ماذا سنفعل ؟

- ولكن هلا أفصحت أخيرا ! هلا قلت !

- أرايت ؟ انك فى حالة عصبية ، ولا أحسب أنك قادر على أن تتجز شيئا كثيرا وانت فى هذه الحالة .. انتظر .. دعنى أكمل كلامى ..
اسمع .. (كذلك قال نيفيديقش ملحا وهو ينهض بوثة ويقطع طريق الكلام على فاسيا) . قبل كل شىء يجب أن تهدىء روعك ، وأن تستجمع قواك . أنا على حق ؟

صاح فاسيا وهو يدفع الكرسي :

- أراكشا ، أراكشا ، أحلف لك لأعملن طول الليل ، أحلف لك .

- أعرف ، أعرف ، ولكنك ستنام عند الفجر .

- لا .. لن أنام .. لن أنام بحال من الأحوال ..

- وأنا أقول انك لن تستطيع المقاومة . ثم انه يجب عليك أن تنام قليلا ، من الخامسة الى الثامنة مثلا . وسأوقظك فى الثامنة . وغدا عيد . فتجلس وتكتب طول النهار ... ثم تكتب فى الليل .. ولكن كم صفحة بقى . أن تنسخ ؟

- أنظر .

قال فاسيا ذلك وأظهر صديقه على الدفتر مضطربا من الفرح ونفاد

الصبر ..

- اسمع يا صاحبى ... ليس هذا بالأمر الضخم !

- ويوجد أشياء أخرى هناك يا صاحبى ..

بهذا أجاب فاسيا ، وهو يلقي على نيفدفتش نظرة تائهة ، كأن الاذن بالخروج رهن بمشيئة صاحبه .

- كم صفحة هناك ؟

- صفحتان ... صغيرتان !

- طيب .. سيكون لدينا متسع من الوقت لانجاز هذا كله . سيكون لنا متسع من الوقت .

- أركاشا !

- فاسيا ، نحن الآن فى عشية رأس السنة الجديدة . جميع الناس فى هذا المساء مع أسرهم ، الا نحن ... نحن وحدنا يتامى منعزلون ، أليس كذلك يا فاسنكا ؟

قال نيفدفتش ذلك وضمَّ فاسيا بذراعيه القويتين .

- طيب يا أركاشا ... قررنا ...

- فاسيوك .. عزيزى فاسيوك .. ولكننى أريد أن أقول لك شيئاً ، فاصغ الىّ ..

غير أن أركادى توقف عن الكلام فأغر الفم ، طافحا حماسة ، عاجزا عن اكمال جملته . كان فاسيا قد وضع يديه على كتفى صاحبه . انه يحدق اليه ويحرك شفاهه كأنه يريد أن يكمل ما لم يستطع صاحبه أن يكمله .

- هيه !

- عرفنى بهم هذا المساء !

- أركادى .. فلنمض اليهم لتناول الشاي . لن تبقى الى أبعد من منتصف الليل ، بل قد ننصرف قبل منتصف الليل .

بذلك صاح فاسيا وهو فى ذروة الافتتان •

- أى نمكت عندهم ساعتين ، لا أكثر ولا أقل !

- ثم لا نزورهم ثانية الا بعد أن أكون قد أنجزت كل شىء ••

- فاسيوك !

- أركادى !

بعد بضع دقائق كان أركادى فى أجمل حلة ، وأبهى هندام • أما فاسيا فلم يحتاج الى أكثر من المرور على ردهائه بالفرشاة ، لأنه كان قد ظل مرتديا ثياب الخروج من فرط اسرعه الى الاكباب على العمل •

خرجا الى الشارع ، وسارا بخطى متوازية ، سعيدين كل السعادة • الطريق أمامهم طويل ، من بطرسبرجسكاييا الى كولومنا • كان أركادى ايفانوفتش يتقدم بخطى كبيرة وقوة واضحة ، فكانت مشيته وحدها تفضح سروره برؤية فاسيا سعيدا مزيدا من السعادة فى كل لحظة • أما فاسيا فلم تكن خطاه كبيرة الى هذا الحد ، ولكنه كان رغم اسرعه يحتفظ بهيئة وقورة ومظهر رصين • لم يسبق لأركادى أن رآه يوما على مثل هذه الصورة من المهابة • انه يشعر نحوه الآن باحترام خاص • ان آفة جسمية ما يزال يجهلها القارئ (ان فاسيا مخلّع الوركين قليلا) كانت تشير دائما فى نفس أركادى شيئا من شفقة وحزن • أما الآن فان هذه المعاهة اليسيرة قد زادت حب أركادى له ، وزادت حنانه عليه ، وتلك عاطفة لا شك أن فاسيا يستحقها من جميع النواحي • ان أركادى ليلبغ الآن من السعادة أنه يوشك أن يجهش باكيا • ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن البكاء •

صاح يقول وقد لاحظ أن صاحبه يتهايا للسير فى شارع فونزسكى :

- الى أين أنت ذاهب يا فاسيا • الطريق من هنا أقصر •

- اسكت يا أركاشا ، اسكت !

- أوكد لك يا فاسيا أن الطريق من هنا أقصر •

قال فاسيا وقد لاح في وجهه سر ، وارتعش صوته من الانفعال :

- هل تعلم يا أركاشا اننى أريد أن أهدي الى ليزانكا هدية صغيرة ؟

- هدية ؟

- اسمع يا صاحبي ، هنا تقع دكان مدام لورو ، وهى دكان أنيقة

جدا •••

- طيب ؟ •••

- قبعة صغيرة يا صاحبي ، قبعة صغيرة ••• اليوم رأيت عند مدام

لورو قبعة رائعة • سألت عنها فقبل لى ان طرازها يسمى طراز « مانون

ليسكو » • انها تحفة ! لها شرائط بلون الكرز ••• فاذا لم تكن باهظة

الثمان ••• بل حتى لو كانت غالية يا أركاشا ••

- فاسيا ، يمينا لانت تفوق جميع الشعراء •• هيا بنا ••

استحنا الخطى ، فما هى الا دقائق حتى كانا فى مخزن مدام لورو •

هى فرنسية كحلاء العينين ، مصفورة الشعر • انها تقبل عليهما ،

فما تكاد تلقى على الزبونين نظرة حتى تغدو فى مثل فرحهما وسعادتهما ،

بل تغدو أسعد منهما اذا جاز التعبير • كان فاسيا ، وهو فى غمرة الحماسة ،

مستعدا لأن يقبل مدام لورو •

قال فاسيا بصوت خافت ، وقد أجال بصره على القبعات الرائعة المعلقة

على مساند ، والمصفوفة فوق المنضدة الكبيرة بالمخزن :

- يا للروائح ... وتلك ! هل تراها ... تلك السكرّة ؟

قال فاسيا ذلك وهو يشير الى قبة صغيرة غير التي كان ينوى شراءها في أول الأمر . ذلك أنه لاحظ من بعيد والتهم بعينه قبة أخرى تخطف البصر وتأخذ باللب ، أجمل من سائر القبعات ، موجودة في الطرف الآخر من المنضدة . بلغ فاسيا من شدة الاشتياها حين نظر اليها أن من يراه في تلك اللحظة يخيّل اليه أنه يخشى أن يسرقها أحد ، أو أن تطير القبة من تلقاء نفسها ، لا لشيء الا مكرها بفاسيا وكيدا له .

قال أركادى ايفانوفتش وهو يشير الى قبة أخرى :

- في رأيي أن هذه أجملهن !

- مرحى كما أراكشا ! اختيارك هذا دليل على حسن ذوقك ! حتى لقد أخذت أشعر نحوك باحترام خاص . القبة التي اخترتها فثابتة حقا . ولكن تعال انظر هنا .

كذلك صاح فاسيا مبيحا لنفسه أن يمكر بصاحبه هذا المكر البسيط

البرى .

قال أركادى بلهجة الشاك :

- هذه ؟

ولكن حين شالها فاسيا عن مسندها الخشبي ، عاجزا عن ضبط نفسه ، حين شالها عن مسندها الخشبي فكأنها تطير من تلقاء نفسها طيرا لشدّة فرحها بزبون متحمس لها هذه الحماسة ، وحين خفخت أشرطتها وزخارفها وتخريماتها فرحة ، انطلقت صيحة اعجاب من صدر أركادى ايفانوفتش القوى . وها هي ذى مدام لورو نفسها (وقد لزمّت طوال

عمل الاختيار كل وقارها وحافظت على جميع ميزات حسن الذوق التي تتمتع بها ، ولم تصمت الا من قبيل التسامح) ، ها هي ذى تكافىء فاسيا الآن بابتسامه تحييد كبيرة • ان كل ما فيها ، من نظراتها ، الى اشاراتها ، الى ابتسامتها نفسها ، يأتي مصدقا لحسن هذا الاختيار وروع هذا الالتقاء •• ان كل ما فيها يقول : « نعم لقد أصبت ، وأنت جدير بالسعادة التي تنتظرك ••• »

صاح فاسيا يقول ، ناقلا كل حبه الى القبة :

- ألم تكن كأنها ترمقنا من ركنها القصى ؟ أليس يبدو أنها كانت تختبئ عنا عمدا ، هذه الشيطانة !

وقبل فاسيا القبة ، أعتى قبل الهواء الذى يحيط بها ، مخافة أن تفسد قبلته كنزه •

أضاف أركادى يردد ، على سبيل الضحك ، قولاً ماثورا كان قد قرأه فى ذلك الصباح نفسه :

- كذلك تختفى الفضيلة الصادقة عن أعيننا دائما . وبعد ، ألا تنصرف يا فاسيا ؟

- مرحى ••• أركاشا ! أنت اليوم فكه اللسان خفيف الروح ••• لسوف تحدث جنونا بين السيدات ، كما يقال ••• أتتبا لك بهذا ••• مدام لورو ، مدام لورو !

- نعم يا سيدى ؟

- عزيزتى مدام لورو !

استقبلت مدام لورو حماسة فاسيا متسامحة •

- لن تصدقنى ما أقوله ... ولكننى أعبدك فى هذه اللحظة ...
اسمحنى لى أن أقبلك •

قال فاسيا هذا وقبّل صاحبة المخزن •

كان لا بد طبعاً ، فى هذا الطرف ، من احتفاظ مدام لورو بكل
رصاصتها ووقارها ، حتى لا يسقط اعتبارها أمام فتى أحقق كهذا الفتى !
وأنا أؤكد أنه كان لا بد أيضاً من ذلك اللطف الناعم الرشيق الذى فطرت
عليه مدام لورو واستقبلت به حماسة فاسيا • لقد عذرت مدام لورو ، ولم
تلبث أن عادت الى هدوئها بالذكاء واللباقة كليهما • وهل يمكن أن
يفضّب أحد من فاسيا ؟

- مدام لورو ، ما تمن هذه القبعة ؟

قالت مدام لورو وقد ثابت الى هدوئها وعادت تبتسم :

- خمسة روبلات فضة •

سأل أركادى مشيراً الى القبعة التى كان قد وقع عليها اختياره :

- وتلك يا مدام لورو ؟

- ثمانية روبلات فضة •

- من فضلك من فضلك يا مدام لورو ... قولى أنت ، أرجوك ،

أى القبعتين أجمل ، أيهما أرشق ، أيهما أفن ؟

- تلك أترى ، ولكن التى اخترتها أنت أغنح •

- اذن آخذها !

تناولت مدام لورو ورقة ناعمة كل النعومة ، فلفت بها القبعة ، وثبتت

الورقة بدبوس ، حتى لكأن الشيء الذى تحمله الورقة أصبح الآن أخف
• مما كان عليه •

تناول فاسيا اللفة بكثير من التأنى والحذر ، وهو لا يكاد يستطيع
أن يتنفس من شدة الهيجان • ثم حيا مدام لورو ومدحها وخرج من
المخزن •

— أنا انسان يجب الحياة ومباهجها يا أركاشا ! لقد خلقت مجيئمت
الحياة !

كذلك هتف فاسيا وهو يطلق ضحكة صغيرة عصية لا تكاد تسمع ،
ويدور ويلف كثيرا حتى يتحاشى المارة الذين يتصور أنهم يريدون جميعا
أن يصدموا قبعته فيجدوها • وردد بعد دقيقة يقول بصوت فيه الحنان
والقوة معا :

— اسمع يا اركادى •• أنا سعيد جدا ، سعيد جدا •

— وأنا يا فاسنكا ، وأنا يا عزيزى ، أتحسبني غير سعيد ؟

— لا يا أركاشا ••• أنا أعرف أنك متعلق بى تعلقا كبيرا •• ولكنك
لا تستطيع أن تحس بعشر معشار ما أحس به أنا فى هذه اللحظة • ان
قلبي يطفح فرحا ! اركاشا ! أنا لا أستحق كل هذه السعادة ! •• أشعر
بذلك ، أعرف ذلك (قال هذا بصوت مخنوق ، وهو لا يكاد يستطيع
السيطرة على انفعاله) • قل لى : ما الذى يجعلنى جديرا بهذه السعادة
كلها • أنظر حولنا : ما أكثر الناس والدموع والآلام والايام الحزينة
الكالحة التى لا تعرف الاعياد ! ••• وأنا ••• أنا تحببى فتاة حلوة عذبة
•• سترها بنفسك بعد هنيهة • ستعرف كيف تقدر قلبها النبيل وروحها
الكريمة •• لقد ولدت فى بيئة متواضعة ، ولكننى الآن أملك رتبة ،

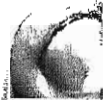
وأملك دخلا مستقلا ، أملك مرتبا ! وقد ولدتُ مع عاهة في جسمي ،
فأنا مخلعُ الوركين قليلا ، ومع ذلك فهي تحبني على ما أنا عليه كما ترى .
واليوم كان جوليان ماستاكوفتش لطيفا في معاملتي كل اللطف ، كريما كل
الكرم ، يحمل لي أحسن النيات وأطيب المشاعر ! لقد اقترب مني وقال
لي : هيه فاسيا (أقسم لقد خاطبني هكذا : فاسيا !) ، أليس في نيتك أن
تمتع نفسك أثناء الاجازة ؟ » • قال ذلك وضحك • فأجبتُه : « كلا
يا صاحب السعادة • لدى أعمال يجب أن أنجزها ••• » • ثم تجرأت
فأضفت قولي : « مع ذلك ربما تسليت قليلا يا صاحب السعادة » • يشهد
الله انني جاوبته هكذا • وعندئذ انما أعطاني المال ، ووجهه الى كلمات
أخرى • غرقت في دموعي يا صاحبي • يمينا لم أستطع أن أضيف نفسي ،
واعتقد أنه تأثر هو أيضا • فقد ربت على كتفي وقال لي : « أرجوك
يا فاسيا أن تظل حساسا كما أنت الآن ، وأن تظل قادرا على أن تقدّر ••• »

صمت فاسيا • وكفكف أركادى دمعة هو أيضا •

تابع فاسيا يقول :

– ثم ••• اليك ما كنت أريد أن أقوله أيضا يا أركادى ••• ولم
أقله في يوم من الأيام • أركادى ! ان صداقتك تملأ قلبي وتغمر نفسي ••
وأنا من شدة سعادتي بذلك أشعر أنني ما كان لي أن أستطيع الحياة على
هذه الأرض بدونك ••• لا •• لا ••• لا تقل شيئا يا أركاننا • اسمح
لي أن أصفحك وأن أشه ••• كرك !

واضطر فاسيا أن يقطع كلامه من جديد ، فقد كان أركادى يتهاى
لتقيل فاسيا ، وكانا يقطعان الشارع من رصيف الى رصيف ، فاذا بصرخة
حوذى تدوّى على مقربة منهما ، فيهرعان الى الرصيف مروّعين • والحق
أن أركادى قد سرّ بهذا • فان اكار فاسيا هذا لم يكن له ما يسوّغه غير



ظروف خارقة • أما هو فكان يشعر بشيء من الضيق • انه يدرك أن ما فعله في سبيل فاسيا حتى اليوم كان قليلا • حتى لقد أحس بالخجل حين شكره فاسيا من أجل ترهات كهذه ! على أن الحياة ما تزال أمامهما!

•• فتففس أركادى الصعداء ، وأطلق من صدره آهة تخفف وفرح •

لا شك أن وصولهما لم يكن متوقعا • والدليل على ذلك أن الاسرة كانت قد بدأت تناول الشاي • ومع هذا فما أكثر ما يحدث أن يكون المستون أبصر بالأمور من الشباب ••• وأى شباب ! كانت ليزانكا تؤكد أنه لن يجيء • فهي تقول لأمها : « لن يجيء يا ماما ، قلبي يقول لي ذلك » • أما أمها فكانت تردد دائما أن قلبها هي يقول لها خلاف ذلك تماما ، فلا بد أن يجيء ، ولن يستطيع أن يستقر في مكانه هادئ البال ، وسيهرع اليهم حتما ، لا سيما وأن المكاتب مغلقة ، فالיום عشية عيد رأس السنة ! وحتى حين 'فتح الباب لم تكن ليزانكا تتوقع أن تراه • فلما رآته لم تصدق عينيها ، واستقبلته لاهثة الأنفاس خافقة القلب كمصفور أسير ، محمرّة الوجه كتمرّة كرز (وهي تشبه الكرز على كل حال) •

رباه ! يا للمفاجأة الجميلة الممتعة ! وانطلقت من شفيتها الصغيرتين آهات فرحة ••• قالت وهي ترتمي على عنق فاسيا : « يا لك من مخادع يا حبيبي ! » ••• ولكن تصوروا دهشتها واضطرابها حين رأت أركاديا واقفا وراءه ، خجولا وجلا كأنه يريد أن يختبئ • يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن أركاديا شاب تعوزه الثقة بنفسه في حضور النساء ، تعوزه كثيرا ، حتى انه في ذات مرة ••• ولكننا سنتحدث عن هذا في حينه •

ضعوا أنفسكم في مكانه مع ذلك ، تروا أن خجله ليس فيه شيء من سخف • لقد كان هناك ، واقفا في حجرة المدخل ، غريب الملابس بحذائيه المطاطين وردائه العريض وطاقيته التي من فراء ، وعمرته التي تعطي العنق والأذنين والتي أسرع يخلمها كيفما اتفق من جهة أخرى • ثم لقد كان

حلقة ملفوفا بعصبة تغطي الأنف ، عصبة صفراء من صوف مجبوك ،
دميمة جدا ، كان قد عقدها ، فوق ذلك ، فى ظهره ! كان لا بد له أن
يخلع هذه الأشياء كلها ، وأن ينضوها عنه بأقصى سرعة ، وأن يقدم نفسه
تقدما لاثقا ، فما من انسان الا ويجب أن يظهر للناس بأحسن منظر .
وهناك ، مع ذلك ، فاسيا ، فاسيا الذى لا يطاق ، فاسيا المزعج ، فاسيا
المير الذى لا يحتمل رغم أنه لطيف وطيب جدا .
صاح فاسيا يقول :

- هذا صديقى أركادى يا ليزانكا . ما رأيك فيه ؟ هو خير صديق
لى . قلبه يا ليزانكا . . . قلبه ما دمت أقول لك ذلك . . . لسوف تقبلينه
راضية مختارة حين تعريفه مزيدا من المعرفة .

ما العمل فى مثل هذه الحالة ؟ قل لى ناشدتك الله ؟ ما عسى يكون
رد أركادى ايفانوفتش ، هو الذى لمّا يكمل نزع منديله بعد ! أوكد
لك أن هذه الحماسة الطافحة فى فاسيا تربكنى . صحيح أنها دليل على
أنه امرؤ طيب القلب ، ومع ذلك فإن المرء ينزعج منها ، بل يضيق بها !
وأخيرا دخل الشابان كلاهما . أظهرت العجوز أنها سعيدة جدا
بمعرفة أركادى ايفانوفتش . لقد سمعت عنه كثيرا . وهى . . . لكنها لم
تستطع أن تكمل جملتها ، لأن صيحة فرحة قد دوّت فى الغرفة ، فقطعت
كلامها . رباه ! ما أجملها !

كانت ليزانكا واقفة أمام القبة بعد أن نزعت عنها ورقتها الحريرية
. . . انها ضامة يديها الصغيرتين وقد لاح فى وجهها معنى مؤثر ، برىء ،
ساذج ، كأنه بسملة للملائكة . . . لماذا لم يوجد عند مدام لورو قبة أجمل
من هذه القبة أيضا ؟

دعك من هذا الكلام ! أين يمكن أن تجد قبة أجمل منها ؟ حقا

انها لتتجاوز كل حد • ان مثل هذا المعقوف لدى العشاق يفضبنى قليلا،
 بل يحزننى أيضا • انظروا بأنفسكم : أين يمكن أن توجد قبعة فى مثل
 هذه الفتة والروعة ! أنظروا ! •• ولكن لا •• ان ملاحظاتي هذه
 لا لزوم لها • هم الآن جميعا من رأيى • لم يكن ذلك الا ضللا عارضا،
 إلا ضايبا مضللاً ، الا خطأ طارئاً ••• أنا مستعد كل الاستعداد لان اغفر
 لهم ذلك •• هلا نظرتم (لا تؤاخذونى ، فأنا ما زلت أتكلم على القبعة) :
 هى من نسيج دقيق خفيف ، لها عصبية بلون الكرز ، مغطاة بتخريم ، مارة
 بين القبة والحواشى ؛ وفى الخلف عصبان أخريان طويلتان عريضتان
 تسقطان على النقرة وتتهدلان حتى العنق ••• ولكن يجب دفع القبعة
 قليلا الى الوراء لتكشف عن الجبين ••• هلا نظرتم ! ولكنكم لا تنظرون
 •• فيما أرى • أحسب أنكم لا تحقلون بالأمر •• ثم ان اتباهكم مشدود
 الى جهة أخرى • انكم ترون دمتين كبيرتين ، كأنهما لؤلؤتان ، تلتعنان
 فجأة فى عينين سوداوين مخمليتين ، ترتعشان لحظة على الأهداب الطويلة
 ثم تسقطان برفق على النسيج الخفيف خفة الهواء ، الذى صنعت منه
 تحفة مدام لورو •• ولكننى أهم أن أزعل مرة أخرى •• ذلك أن هاتين
 الدمتين لم تتساقطا من أجل القبعة وحدها • ليس هذا هو الأمر فى
 نظرى •• لا ••• حتما •• يجب على المرء أن يقدم هدية كهذه الهدية
 هادىء البال ، غير مهتاج العاطفة •• وحينئذ فقط يمكن أن تقدر حق
 قدرها •• على أنتى أعترف بأننى أرى أن المسألة مسألة القبعة خاصة •
 جلس الجمع • اتخذ فاسيا مكانا له قرب ليزانكا ، وقعدت المرأة
 العجوز الى جانب أركادى ايفانوفتش • ودار الحديث • برهن أركادى
 ايفانوفتش على أنه فى مستوى الموقف • انه ليسرنى أن أنصفه • ما كان
 ينتظر أن يكون لبقاً هذه اللباقة كلها • فبعد أن قال بضع كلمات عن
 فاسيا ، أخذ يتحدث حديثا رائعا عن جوليان ماستاكوفتش ، المحسن اليهم؛

وبلغ حديثه من الحسن والذكاء أن الموضوع لم يُستفد حتى بعد انقضاء ساعة من الزمان .

ليتكم رأيتم كم بلغ أركادى ايفانوفتش من اللباقة والرهافة في وصف بعض خصائص جوليان ماساكوفتش ، وهي خصائص تتصل بفاسيا اتصالا مباشرا أو غير مباشر . لذلك سُحرت العجوز بكلام أركادى ؛ حتى لقد اعترفت بذلك لفاسيا : نادته جانبا وقالت له ان صديقه فتى فد ، وانه من أحب الشباب الى القلب ، وانه قوى جاد على وجه الخصوص . فبلغ فاسيا من السرور بهذا الكلام أنه لم يستطع أن يمتنع عن الانفجار ضاحكا ضحك الفرح الا في كثير من العناء . لقد تذكر كيف استطاع أركاشا « القوى جدا » أن يقلبه على سريره مفتولا منذ نصف ساعة .

وبعد ذلك غمرت العجوز الطيبة فاسيا طالبة منه أن يلحق بها الى الغرفة المجاورة . يجب أن نعرف أنها بهذا قد مكرت بابنتها ليزانكا . ولا شك أنها قد غدرت بها ، من فرط طيبتها ، ذلك أنها قررت أن تظهر فاسيا ، خفية ، على الهدية التي أعدتها له ليزانكا بمناسبة عيد رأس السنة . ان الهدية محفظة خيطة بها لآلىء دقيقة وقصب مذهب ، وازدانت برسم بديع خلاب ، فمن جهة ترى صورة وعل يشب ، صورة جميلة تشبه الوعل كثيرا ؛ ومن جهة أخرى ترى صورة جنرال شهير ، وهي صورة جميلة أيضا تشبه الجنرال شبها كبيرا . ولن أتكلم عن حماسة فاسيا حين رأى الهدية .

وفي أثناء ذلك ، فان الذين لبثوا في الصالون لم يضيعوا وقتهم سدى . اقتربت ليزانكا من أركادى ايفانوفتش ، وأمسكت كلتا يديه تشكره شكرا حارا . فاستطاع أركادى ايفانوفتش أن يفهم أخيرا أن الأمر يتعلق مرة أخرى بصديقه العزيز فاسيا . كانت ليزانكا تبدو منفصلة

انفعالا شديدا • لقد سمعت عن أركادى ايفانوفتش أنه شديد الاخلاص
لخطيئها ، وأنه يحبه كثيرا ، وأنه يعنى به عناية كبيرة ، وأنه بنصائح
الحكيمة يسدد كل خطوة من خطواته ، وأنها ، هي ليزانكا ، لا يسعها
الا أن تعبر له عن عظيم امتنانها وعميق شكرها • وانها لتأمل أن يحبها
أركادى ايفانوفتش هي أيضا ، وأن يخصها بجزء يسير من حبه لفاسيا •
ثم أخذت تلقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة ، تريد أن تعرف هل يعنى فاسيا
بصحته ؟ وأعربت عن بعض مخاوفها من فرط الحماسة والحرارة فى طبعه ،
ومن جهله بالناس والحياة حوله • وصرحت بعد ذلك أنها ستسهر عليه
فى كثير من الاهتمام ، وأنها ستحميه وستدله ، وأنها أخيرا تأمل من
أركادى ايفانوفتش أن لا يتركها ، بل تأمل منه أيضا أن يقيم معها •
صاحت تقول بسذاجة وهى فى غمرة من الحماسة :

— لن نكون نحن الثلاثة الا واحدا •

وكان لا بد من الانصراف مع ذلك • حاولوا منعهما من الانصراف
طبعاً ، ولكن فاسيا صرح بلهجة قاطعة أن بقاءهما مستحيل • وأكد أركادى
ايفانوفتش قول صاحبه • وكان طبيعياً أن يسأل أهل الدار عن سبب ذلك ،
فسرعان ما عرفوا أن هناك عملاً عهد جوليان ماستاكوفتش الى فاسيا
بانجازه ، وهو عمل مستعجل ، خطير غاية الخطورة ، يجب الفراغ منه
بعد غد فى الصباح ، وأن فاسيا لم يكمل هذا العمل حتى الآن ، بل لقد
أهمله اهمالا تاما • فلما سمعت الأم هذا الكلام أطلقت صرخة كبيرة •
أما ليزانكا فقد ظهر فى وجهها الجزع والهلع ؛ وأخذت من فرط قلقها
تبحث فاسيا على الانصراف • غير أن القبلت الأخيرة لم تفقد من ذلك شيئاً
غير الطول ، أما حرارتها فلم تنقص •

ما ان خرج الصديقان حتى أخذتا يتبادلان التعبير عن مشاعرهما

وانطباعاتهما • وذلك أمر طبيعي على كل حال • فأما أركادى ايفانوفتش
فقال انه جُنَّ حباً بليزانكا • • وهل غير هذا الصديق المحظوظ ، فاسيا ،
يمكن أن يُسرَّ إليه صديقه بذلك ؟ وكذلك كان : صرح أركادى لفاسيا
بكل شيء ، دون أى تحرج • فضحك فاسيا كثيراً ، وأظهر سروره بذلك
وابتهاجه له ؛ بل أضاف أن هذا حسن جدا ، فان صداقتهما ستقوى الآن
مزيدا من القوة •

قال اركادى ايفانوفتش :

- هل فهمت يا فاسيا ؟ اننى أحبها بقدر ما أحبك • ستكون ليزانكا
ملاكى الحارس ، كما هى ملاكك الحارس ، لأن سعادتكما ستترتد الى ،
قبت الدفء وتشيع الحرارة فى نفسى • ستكون لى ربة البيت ، وستوى
سعادتى على كفيها • أرجو أن تقودنى كما تقودك أنت ، أرجو أن توجهنى
كما توجهت أنت • لن تكون صداقتى لها وصداقتى لك بعد الآن الا
صداقة واحدة • أتما فى نظرى واحد • سيكون لى بعد اليوم صديقان
أحبهما لا صديق واحد • •

قال أركادى ذلك ثم صمت وقد غلبه الانفعال • شعر فاسيا باضطراب
شديد فى أعماق نفسه • الحق أنه لم يكن يتوقع تصريحها كهذا التصريح
من أركادى ايفانوفتش • لقد كان أركادى لا يجيد الكلام كثيرا ، وكان
يبدو عدوا لكل نوع من أنواع الاسترسال فى الأحلام • أما الآن ، فقد
أخذ يحلم ، وان أحلامه لمن أكثر الأحلام اشراقا وتفاؤلا •

وتابع أركادى كلامه يقول :

- سوف ترى كم أراكما وكم أعتنى بكما كليكما ! أولا سأكون
عرباب جميع أولادك • • ثم يا فاسيا يجب الاهتمام بالمستقبل ! • • يجب

شراء أثاث واستئجار مسكن .. ويجب الحرص على أن يضم المسكن ثلاث غرف صغيرة ، اثنين لكما وواحدة لى . سوف أشرح فى البحث عن مسكن منذ الغد يا فاسيا . سأنظر فى كل مكان الى اللافات الصغيرة الملتصقة على أبواب العمارات .. ثلاثة غرف ؟ بل يكفى اثنان . لا نحتاج الى أكثر من غرفتين .. وانى لأعتقد يا فاسيا أن كلامى اليوم كان سخفا: سوف نملك مالا كافيا ! لقد أدركت منذ رأيت نظرتها أن ما نملكه من مال يكفينا ! سيكون كل شىء لها ! ما أكثر ما سنعمله كلانا يا فاسيا ، حقا يا فاسيا .. نستطيع أن نجازف بخمسة وعشرين روبلا أجرة المسكن .. ذلك أن المسكن يا صاحبي هو الأمر الأساسى ! غرف جميلة ... ذلك يجعل الانسان فرحا متفائلا . ثم ان ليزانكا ستكون هى أمينة الخزانة لنا : ما من قرش واحد سيبدّر ! هل تعلم أنتى لن أضع قدمى بعد الآن فى دكان بائع الخمور ؟ من تحسبنى ؟ لا .. لن أضع قدمى فى دكانه بحال من الأحوال . ثم هناك الترقية ، والمكافآت ، لأننا سنعمل فى جد واجتهاد .. كثيران تحرث الأرض ! تصور (وهنا ضعف صوت أركادى ايفانوفتشس وتحطم من شدة الانفعال) ، تصور أن يحصل كل منا فجأة على مكافأة تبلغ ثلاثين روبلا أو خمسة وعشرين ! كلما حصلنا على زيادة ما اشترينا بها تارة قبعة صغيرة ، وتارة وشاحا ، وتارة أجربة ، وهكذا دواليك .. ويجب عليها حتما أن تحيك لى عصبة للنعق .. انظر الى عصبتى هذه ما أبشعها : لقد اصهر لونها واسلت خيوطها ... لقد فضحتنى اليوم ، هذه العصبة .. وأنت أيضا فضحتنى يا فاسيا ! اخترت اللحظة المناسبة لتقديمى اليها قبل أن أنصو عنى لفتى ! على كل حال ، ليس لهذا من قيمة ! .. لاحظ يا فاسيا أن شراء النضيات سيقع على عاتقى أنا . فعلا .. لا بد أن أهدي اليكما شيئا .. وهذا واجبى .. الشرف يقضى بذلك ! .. ولن يطول أمر حصولى على المكافأة .. هل تظن أنهم

سيخطونها سكوروخودوف! هه! ثم ان هذا اللقلق لن يتخلف عن دفعها الى
متى أردت • سأشترى لكما يا صاحبي ملاعق من فضة ، وسكاكين جيدة
(لا من فضة طبعاً ، ولكن مئينة) ، وصديرة •• أعني صديرة لى أنا ،
لأننى سأكون وصيفكما •• ولكن عليك الآن يا صاحبي أن تشد عزميتك •
وسأكون اليوم وغدا ، وطوال هذه الليلة ، واقفا وراءك أحمل عصا ••
سوف أجعلك تفتس من كثرة العمل • يجب انجاز العمل يا فاسيا ،
يجب انجازه بأقصى سرعة يا صاحبي ! حتى اذا فرغت منه عدنا نسهر
عندهم ، وسعدنا بذلك كلانا ! •• سنلعب هناك لعبة اللوتو •• هكذا
سنقضى سهراتنا •• آه ما أحلى هذا ! لكم يحز فى نفسى أنتى لا أستطيع
معاونتك فى عملك ! لشد ما أتمنى لو أستطيع أن آخذه عنك ، واكتبه
لك ! لماذا ليس خطنا واحداً أيضاً ؟

قال فاسيا :

- نعم نعم •• يجب أن نحت الخطى ! أحسب أنها الحادية عشرة
الآن ••• يجب أن نحت الخطى •• الى العمل !

ان فاسيا الذى كان الى ذلك الحين يتسم تارة ، ويحاول أن يقاطع
تدفق صديقه بملاحظة فرحة تارة أخرى ، أى كان متحمساً تحمساً
كاملاً ، قد صمت فجأة بعد أن قال ذلك الكلام ، أصبح كالأخرس لا ينطق
بحرف ، وأخذ يغذ الخطى كأنه يركض ركضا حتى يصل الى مسكنه
بأقصى سرعة • لكأن خاطرا مشثوما قد راوده على حين فجأة ، وسقط
على رأسه المحترق سقوط كتلة من ثلج ، فانبض صدره انقباضاً أليماً •

شعر أركادى ايفانوفتش من ذلك بقلق • لقد أصبح فاسيا لا يكاد
يجيب على أسئلته المستعجلة ، فهو يكتفى بكلمة واحدة قد لا تمت الى

موضوع السؤال بصلة من الصلوات في بعض الأحيان ، بل قد لا يزيد
على أن يطلق صوت تعجب •
هتف أركادى أخيرا :

- ولكن ماذا دهالك يا فاسيا ؟ هل يمكن أن تستبد بك الهموم الى
هذا الحد ؟

- حسبك يا صاحبي ، حسبك نثرثة •
كذلك قال فاسيا بلهجة حاتقة بعض الحق •
فقاطعه أركادى يقول :

- لا تهتم •• لقد لاحظت أنا نفسي أنه يتفق لك أحيانا أن تسخ
صفحات أكثر في وقت أقصر •• فأى خير في هذا ؟ انك تقدر على ذلك
•• في وسعك أن تكتب بسرعة اذا اقتضى الأمر •• ليس من الضروري
أن تتجود نسخ النص بخط رائع ••• سوف تستطيع انجاز العمل •••
قد تكون الآن مضطربا بعض الاضطراب ، ذاهلا بعض الذهول ، فالعمل
يبدو لك أصعب وأثقل •

لم يجب فاسيا بشيء ، بل اكتفى بأن تتم بين أسنانه بعض الكلام ،
ووصل الشبان مسكنهما وهما في حالة عصبية ثقيلة •

أكب فاسيا على العمل فورا • وصمت أركادى ايفانوفتش • خلع
ثيابه ساكتا ووقد على سريره لا يحول بصره عن فاسيا • انه يشعر بنوع
من الخوف يغزو نفسه • تساءل أركادى وهو ينظر الى وجه فاسيا
الشاحب والى عينيهِ الملتئميتين والى حركاته التي تدل على قلق محموم :
« ماذا به ؟ ان يديه ترتعشان •• أليس من الخير أن أنصحه بأن يرتاح
ساعتين ؟ •• لا شك أن قليلا من النوم سيريجحه •• » •

أنجز فاسيا كتابة صفحة • ورفع عينيه عرضا الى ناحية صديقه ،
فلم يلبث أن خفض جفنيه وعاد يتناول القلم •

قال أركادى ايفانوفتش فجأة :

- اسمع يا فاسيا ! ألا تعتقد أن قليلا من النوم ينفعك الآن ؟ ان
مظهرك يدل على أن بك حمى •••

ألقى فاسيا على أركادى نظرة متجهمة ، بل وحانقة ، ولم يقل
شيئا •

- عليك بشيء من الراحة يا فاسيا ! •• فيم هذا العناد ؟

ظهر على فاسيا فجأة أنه غير رأيه • فقال :

- ما رأيك في تناول قليل من الشاي ؟

- لماذا ؟

- لأسترد قواى • لا أريد أن أنام • لن أنام • سأظل أكتب طول
الوقت • ولكننى أتمنى لو أتنفس قليلا بشرب قدح من الشاي ، فلنل
هذا أن يبدد ما أنا فيه من حالة عصبية •

- طيب يا صاحبي •• فكرة عظيمة •• ذلك بعينه ما كنت أريد أن
أقترحه عليك ! يدهشنى أن هذه العكرة لم تخطر ببالى •• ولكن ما فرا
لن تنهض بحال من الأحوال • يستحيل ايقاظها فى مثل هذه الساعة !

- نعم ، صحيح ••

- لا ضير •• سأضع السماور بنفسى ! ما أنا بالغر على كل حال •
بهذا هتف أركادى ايفانوفتش ناهضا عن سريره بوئبة • وأسرع

الى المطبخ يتحرك حول السماور • واستمر فاسيا يكتب أثناء ذلك • وهرع
أركادى ايفانوفتش يرتدى ثيابه ويركض الى الخباز حتى يستطيع فاسيا
أن يقات ليل • فما انقضى ربع ساعة الا كان السماور على المائدة يتصاعد
منه البخار • صب الصديقان الشاي • ولكنهما لم يتوصلا الى الانخراط
فى حديث • كان فاسيا يبدو ذاهلا • وفجأة قال كمن تاب الى نفسه :
- نعم •• يجب أن أذهب غدا لتقديم تمنياتى بمناسبة عيد رأس
السنة •

- ما أنت فى حاجة الى ذلك •

- بل لا بد من ذلك يا صاحبى •

- ولكننى سأوقع عنك لدى الجميع ! لا تهتم ! غدا ستعمل •
لو كنت فى محللك لعمت اليوم حتى الساعة الخامسة ، ثم نمت • والا
فما عسى تكون حالتك غدا • وسوف أوقفك فى الساعة الثامنة •

قال فاسيا وقد اقتنع نصف اقتناع :

- ولكن هل يليق أن توقع عنى ؟

- لم لا ؟ الناس جميعا يفعلون ذلك •

- مع ذلك أخشى أن •••

- ولكن ماذا تخشى ؟

- لا أعارض فى أن توقع عنى لدى غيره ••• أما لديه هو ، لدى
جوليان ماستاكوفتش •• فذلك •• لاحظ انه المحسن الى يا أركاشا ••
فماذا يكون وضعى لو لاحظ أن التوقيع ليس توقيعى ؟

- لو لاحظ •• انك لغريب الأطوار حقا يا فاسيوك ! كيف يستطيع
أن يلاحظ ذلك ؟ أنت تعلم أنتى أقدر أن أوقع اسمك بتقليد خطك

تقليدا تماما • سوف أرسم توقيعك نفسه ، توقيعك نفسه تماما ، أحلف لك • لن يلاحظ أحد شيئا ، أنا أضمن لك هذا •

أفرغ فاسيا قدحه بسرعة دون أن يجيب ، ثم هز رأسه علامة الشك والريب •

- فاسيا ! المهم هو أن تنجح في انجاز العمل ! ولكن ما بك يا فاسيا ؟ هل تعلم أنك تخيفني ؟ لن أرقد في فراشي يا فاسيا ! لن أستطيع أن أنام • أرني كم صفحة بقي عليك أن تسسخ •

ألقي فاسيا على أركادى نظرة انقبض لها صدره انقباضا سديدا ، حتى لم يستطع أن يحرك لسانه • وقال أخيرا :

- ولكن ماذا بك يا فاسيا ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟

- أعتقد يا أركادى أنتى سأذهب أهنيء جوليان ماستاكوفتش رغم كل شيء •

قال أركادى وهو يرمق صاحبه بنظرة تدل على القلق :

- لك ما تشاء •• افعل ما دمت تحرص على ذلك • ولكن اسمع يا فاسيا : عجل كتابتك قليلا • يمينا لست أسدى اليك نصيحة سيئة • ألم يقل جوليان ماستاكوفتش مرارا ان ما يجبه في خطك أكثر من أى شيء آخر هو أنه خط مقروء ؟ انه ليس مثل سكوروبديخين الذى يتطلب خطا مقروءا وجميلا فى آن واحد ! ••• لا لشيء الا ليخطف الورقة كيفما اتفق ، ثم يحملها الى أولاده من أجل أن يتمرنوا على حسن الخط باعادة نسخها •• كأن هذا الأحمق لا يستطيع أن يشتري لهم دفاتر تمرين على حسن الخط •• ولا كذلك جوليان ماستاكوفتش ، فانه لا يطلب الا شيئا واحدا هو أن يكون الخط مقروءا ، مقروءا ! ••• فلماذا تصدع

رأسك اذن ، وترهق نفسك من أمرها عسرا ؟ حقا يا فاسيا .. لا أعرف
ماذا أقول .. بل اننى لأخشى أن ... فاسيا .. ان حزنك يهدنى هذا
رهيا !

قال فاسيا :

- الأمر بسيط .. الأمر بسيط *

ثم خارت قواه ، فتهالك على كرسیه *
هباً أركادى يتحرك حوله :

- هل تريد ماء ؟ فاسيا ! فاسيا !

قال فاسيا ، وهو يشد على يده :

- دعنى يا أركادى .. ليس بى شىء * كل ما هنالك أنتى حزين
قليلا يا أركادى .. وأنا نفسى لا أعرف لحزنى هذا سببا * دعنا نتحدث
فى أمر آخر .. لا تذكرنى ..

- هدىء نفسك يا فاسيا ، ناشدتك الله .. هدىء نفسك ! لسوف
تنجز عملك ، أحلف لك * وهبك لم تنجزه ، فأين الكارثة فى هذا ؟
أفى الأمر جريمة ؟

- أركادى !

نطق فاسيا بذلك ، ونظر الى صديقه نظرة فيها من التعبير ما جعل
أركادى يرتجس ، لأنه لم ير صديقة فى يوم من الأيام نهبا لقلق يبلغ
هذا المبلغ من الشدة *

وتابع فاسيا يقول :

- أركادى .. لو كنت وحيدا ، كما كنت كذلك فى الماضى ...

لا .. ليس هذا ما أردت أن أقوله .. اننى أشعر دائما بالحاجة الى أن أفضى اليك بما يعتلج فى نفسى ، وأن أبوح لك بكل شيء ، كما يسوح صديق لصديقه .. ولكن فيم أقالقك وازعاجك ؟ بعض الناس ، يا أركادى ، قد وهب لهم فى هذه الحياة شيء كثير ، بينما لم يوهب لغيرهم ، مثلى أنا ، الا أن يقوموا بمهمة هيئة الشأن . قل لى : ما عسالك تفعل لو كان عليك أن تبرهن على امتنانك ، على شكرك ، ثم رأيت نفسك عاجزا عن ذلك ؟
- لا أفهمك يا فاسيا !

تابع فاسيا يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

- لم أكن فى يوم من الأيام عاقا ينكر الجميل ، ولكننى عاجز عن التعبير عن كل ما أشعر به ... ذلك يا أركادى .. أمر يشعرنى بأننى عاق فى الواقع ، وهذا بعينه هو ما يقتلنى قتلا *

- ما هذا الكلام يا فاسيا ؟ أنت تظن حقا أن كل امتنانك يجب أن يكون بتقديم منسوختك فى المهلة المحددة ؟ هلا راقبت نفسك يا فاسيا ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ أبهذا يعبر المرء عن شكره ؟

صمت فاسيا فجأة محملا فى أركادى ، كأن هذه الحجة التى لم يكن يتوقعها قد بددت شكوكه . حتى لقد ابتسم ، ولكن وجهه لم يلبث أن استرد تعبيره عن التفكير *

رأى أركادى فى هذه الابتسامة دليلا على أن جميع المخاوف قد زالت ، ورأى فى الهم الذى أعقب الابتسامة دليلا على أن صاحبه قد اتخذ قرارا جديدا ، فابتهج لذلك ابتهاجا عظيما *

قال فاسيا :

- طيب يا أركاشا ؛ اذا اتفق ان استيقظت ، فألق نظرة على . لسوف

يكون الأمر كارثة اذا نمت • والآن سأكب على العمل • أركاشا !

— ماذا ؟

— لا ••• لا شيء •• وانما أردت ••

استقر فاسيا على كرسيه صامتا ، ورقد أركادى على فراشه ، ولم ينطق هذا ولا ذاك بكلمة عن جماعة كولومنا ، ولعلهما كانا يشعران كلاهما بأنهما آثمان لأنهما « بذرا » فى غير أوان التذير • نام أركادى بعد قليل ، وهو ما يزال قلقا على فاسيا • وما كان أشد دهشته حين لم يستيقظ الا بعيد الساعة السابعة • كان فاسيا نائما على كرسيه ، ممسكا ريشته بيده • انه أصفر الوجه متعب • وكانت الشمعة قد ذابت الى النهاية • وفى المطبخ كانت مافرا تتحرك حول السماور •

صاح أركادى مروعا :

— فاسيا ، فاسيا ، فى أية ساعة نمت ؟

فتح فاسيا عينيه ، ونهض عن كرسيه بوثة ، قائلا :

— اذن لقد نمت مع ذلك •

وأسرع الى أوراقه ، ولكن كل شيء كان على خير حال ، فلا بقع

حبر ، ولا بقع دهن من الشمعة •

قال فاسيا :

— أظن أنتى نمت فى نحو الساعة السادسة • ما كان أشد البرد فى

الليل ! سنشرب الشاي ، ثم استأنف العمل •

— هل ارتحت قليلا ؟

— نعم ، أشعر الآن بتحسين •

- عاما سعيدا يا عزيزى فاسيا •

- صباح الخير يا صاحبي •• عاما سعيدا لك أيضا •

وتعانق الصديقان • كانت ذقن فاسيا ترتجف ، وكانت الدموع
تترقق في عينيه • وأركادى لا يقول شيئا • انه يشعر بمرارة شديدة •
تناول الصديقان الشاي على عجل •

- أركادى ! قررت أن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش بنفسى •

- ولكنه لن يعلم بذلك •

- ضميرى يدفعنى الى ذلك يا صاحبي •

- أنت تسهر فى سييله ، وترهق نفسك من أجله ••• أما أنا
يا صاحبي ، فسأذهب لحظة الى هناك •••

- الى أين ؟

- الى أسرة أرتمييف ، أقدم لهم تمنياتى وتمنياتك •

هتف فاسيا يقول :

- ما أحسنها فكرة يا صديقى العزيز • سأبقى أنا فى البيت ،
وتذهب أنت اليهم ••• فكرة رائعة •• لا عن اهمال منى لهم طبعاً ، بل
لأننى أعمل • انتظر ، سأحمّلك اليهم رسالة قصيرة •

- على مهلك يا عزيزى ! سأغسل وجهى أولاً وأحلق ذقنى وأنظف
ردائى • هل رأيت يا صاحبي فاسيا ؟ لسوف نكون مبتهجين سعيدين مع
ذلك ! قبلنى يا صاحبي !

- ليت هذا يكون صحيحا يا صديقى !

وهنا دوى صوت " على فسحة السلم أمام الباب :

- هل هنا يسكن السيد الموظف شومكوف ؟

أجابت مافرا ، وهى تدع المزائر أن تدخل :

- نعم هنا ياسيدى •

صاح فاسيا وهو يهرع نحو حجرة المدخل :

- ماذا هناك ؟ من ؟

- يومك سعيد يا فاسيلي بتروفتش • يشرفنى أن أتمنى لك عاما طيبا

• سعيدا

كذلك قال صبي لطيف أسمر، فى نحو العاشرة من عمره ، مضفور

الشعر • وأضاف الصبي يقول :

- أختى تبعث اليك بتحياتها ، وكذلك ماما • وقد كلفتنى أختى بأن

• أقبلك

أنهض فاسيا الرسول الصغير فى الهواء ، وطبع قبله طويلا حارة

على شفتيه اللتين تشبهان كثيرا شفتى ليزانكا • ثم قال لصاحبه أركادى

وهو يمد اليه بتيا :

- قبّله يا أركادى •

فاتتقل الصبي ، دون أن يلامس الأرض ، الى الذراعين القويتين

الحائيتين ، ذراعى أركادى ايفانوفتش •

- هل لك بقليل من الشاي يا حبيبى ؟

- شكرا كثيرا • لقد أظفرتنا • استيقظنا فى ساعة مبكرة هذا الصباح •

ماما وأختى ذهبنا الى الكنيسة • أختى غسلتنى وألبستنى ومشطتنى خلال

ساعتين • وخاطت ما تفتق أمس من سروالى فى الشارع حين لعبت مع
ساكشا بالتلج تتراشق كراته •••

— هكذا ؟

— نعم ، ألبستنى وجملتنى لأجىء اليك • ثم قبلتنى مائة مرة وقالت
لى : « اذهب الى فاسيا ، وهنئه بعيد رأس السنة ، واسأله هل هو راض
سعيد ، وهل نام نوما هادئا مريحا •• » ، وطلبت منى أن أسألك أيضا
هل أنجزت العمل الذى •• ولكنى سجلت ما طلبته منى على ورقة صغيرة
(هكذا قطع الفتى كلامه ثم أخرج من جيبه ورقة وقرأ : ••• العمل
الذى كان يشغل بالك • • »

— نعم •• نعم ، سينجز •• سينجز حتما ! لا تنس أن تقول لها
انى سأنجزه قطعا ، بشرفى !

— نعم •• ها •• كدت أنسى •• حملتنى أختى اليك رسالة قصيرة
وهدية •• كدت أنسى أن أعطيكما !

— أين هما يا حبيبي ؟ أين هما ؟ شكرا •• اسمع يا أركاشا ماذا
تقول لى ليزانكا التالية ••• أنت تعلم اننى رأيت هناك أمس محفظة
ستهدى الى • ان المحفظة لما يكمل شغلها بعد • لذلك تقول ليزانكا :
« أبعث اليك بخصلة من شعرى • أما الهدية الأخرى فسوف تستلمها بعد
مدة قصيرة • • » • أرايت يا صاحبي ؟

قال فاسيا ذلك وقد جن فرحا ، وهو يرى صديقه خصلة شعر
أسود رائع • قبل فاسيا خصلة الشعر ، ثم أودعها جيبه قرب القلب •

قال أركادى بلهجة حازمة :

- سوف أوصي لك بنيشان لهذه الحصلة •

قال الصبي :

- وسأكل شواء ومخا في الغد • وقد أرادت أمي أن تصنع شيئا
من البسكويت ••• ولكنها لم تجد دقيقا (كذلك استرسل الصبي في
كلامه بعد أن تردد قليلا وهو لا يعرف كيف يكمل ثرثرته) •

صارح أركادى ايفانوفتش :

- ما أطف هذا الصبي • أنت يا فاسيا أسعد أهل الأرض طرا ،
ما في ذلك ريب !

شرب الزائر الصغير نصيبه من الشاي ، وأخذ من فاسيا رسالة الى
أخته ، وقبّل ألف مرة ، ثم انصرف خفيف الخطى مشرق المزاج كما
جاء •

قال أركادى فرحا :

- هل رأيت يا صاحبي ؟ ان الأمور جميعها تجري على ما نحب •
فلا تحزن وخاصة لا تدع لخور العزيمة أن يتسرب اليك ! الى الأمام !
أنجز عملك يا فاسيا ! سأعود في الساعة الثانية • أذهب اليهم أولا ، ثم
أذهب الى جوليان ماستاكوفتش •

- الى اللقاء يا صديقي الى اللقاء ! آه ••• ليتنى فقط •• طيب ••
أذهب •• أما أنا فقد قررت : لن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش •

- الى اللقاء •

- انتظر يا صاحبي •• قل لهم •• الخلاصة •• قل لهم ما تستحسن
أن تقوله •• وقبّلها •• وستحكي لي كل شيء بعد ذلك يا صاحبي ،
ستصف لك كيف جرت الأمور •••

- طبعاً • ثم اننى أعرف الان ماذا أصابك أمس : ان السعادة هي
التي شوستك ذلك التشويش كله •• منذ أمس حالتك غير طبيعية •••
انك لما تتخلص من مشاعر الأمس • أما الآن فقد انتهى كل شيء • عد
الى هدوءك يا فاسيا •• الى اللقاء •• الى اللقاء ! ••
افترق الصديقان أخيراً • ظل أركادى ايفانوفتشن ذاهلاً طوال
الصباح • كان لا يفكر الا فى فاسيا • انه يعرف طبيعته الضعيفة السريعة
الى الهيجان •

قال أركادى لنفسه : « نعم لقد أفلقت هذه السعادة نفسه اقلاقاً كاملاً
ذلك واقع لا شك فيه • وما أشد ما أحزنتنى أيضاً • ان الانسان قادر على
أن يجعل من أيسر الأمور مأساة ضخمة ! ما هذه الحمى التي اتابته ؟
لا •• لا •• يجب انقاده •• يجب انقاده حتماً » • كذلك كان يردد
أركادى دون أن يلاحظ أن هموما منزلية صغيرة يسيرة قد تضخمت فى
قرارة نفسه هو حتى صارت فى نظره أشبه بكارثة !

لم يدخل أركادى حجرة حاجب جوليان ماستاكوفتشن الا فى الساعة
الحادية عشرة ، ليضيف اسمه المتواضع الى العمود الضخم الذى تؤلفه
أسماء شخصيات مرموقة تغطى ورقة بكاملها مبقعة بالحبر • فما كان أشد
دهشته حين رأى فوق توقيعه توقيع فاسيا شومكوف بخط يده ! شاعر
أركادى باضطراب شديد • « ماذا يحدث فى رأسه ؟ » كذلك تساءل وهو
يزداد احمراراً من فرط القلق • اختفت آماله المشرقة • أدرك أن هناك
نازلة تهم أن تقع • ولكن أين عساها تقع وكيف ؟

ووصل الى كولومنا متجهم النفس • كان يبدو فى أول الأمر
خائفاً على فاسيا حقاً • أسرع يعود الى البيت راكضاً • ولكن ها هو ذا ،
على جليد نهر نيفا ، يصطدم بشكوموف ، أنفاً بأنف • كان هذا يركض
هو أيضاً •

صاح أركادى يسأله :

- الى أين أنت ذاهب ؟

وقف فاسيا وقفة من قبض عليه متلبسا بالجرم ، وقال :

- خ .. خرجت أقوم بجولة قصيرة .

- لم تستطع أن تستقر في مكانك ، هه ؟ أنت ذاهب الى كولومنا
أليس كذلك ؟ يا فاسيا .. يا فاسيا ! ثم لماذا ذهبت الى جوليان
ماستاكوفتش ؟

لم يجب فاسيا بشيء . وفجأة حرك يده بإشارة يأس وقال :

- أركادى .. لا أعرف ماذا يحدث في نفسي .. اننى ..

- هيا هيا ، يا فاسيا .. أنا أعرف ، أنا أعرف ماذا . هدىء نفسك .
أنت مهتاج مضطرب منذ أمس . وكيف يمكن أن يكون المرء غير ذلك
لو كان في مكانك ؟ ولكنهم جميعا يجبونك ، وهم جميعا يدارونك ،
وستنجز عملك حتما ، ستنجزه ، أحلف لك . ان في ذهنك وساوس
غريبة ، ومخاوف غامضة .. هل أدري ؟

- لا .. لا شيء ..

- هل تتذكر يا فاسيا ؟ لقد مررت بحالة نفسية كهذه حين حصلت
على تعيينك . فقد جننت يومئذ فرحا ، فأخذت تجوّد خطك أكثر مما
اعتدت أن تجوده ، فاذا أنت خلال ثمانية أيام لا تزيد على أن تفسد
عملك ! والآن يحدث لك هذا الشيء نفسه !

- نعم نعم يا أركادى ، ولكن الامر الآن مختلف !

- كيف .. مختلف ؟

- لا .. لا .. لا قيمة لهذا .. لنعد الآن الى المنزل !

- ألا تريد أن تذهب اليهم ؟

- لا يا صاحبي .. هل أستطيع أن أدخل عليهم بهذه السحنة ؟ لقد
غيرت رأبي .. اذا لم أستطع أن أبقى في البيت ، فلأنك لم تكن معي ،
أما وقد عدت ، فسأستأنف الكتابة ! ها بنا !

سارا! بعض الوقت صامتين • وكان فاسيا مسرع الخطو •

قال أركادى ايفانوفتش :

- ألا تريد أن تسألني عن أخبارهم ؟

- ها .. نعم .. كيف كان الحال ؟

- فاسيا .. انك تخيفني !

- لا .. لا .. لا شيء .. احك لي كل شيء ، هل تريد ؟

قال فاسيا ذلك بصوت ضارع ، كمن يريد أن يتحاشى الشروح
المملة المضجرة •

تهدد أركادى ايفانوفتش • واضح أنه أصبح ، وهو يتأمل فاسيا ،
لا يدري ماذا يعمل ولا كيف يتجه •

روى أركادى لصديقه تفاصيل زيارته ، فبدأ على فاسيا أنه يفتيق
من ذهوله ، حتى لقد أصبح كثير الكلام • وتناول الصديقان غداءهما •
وكانت الأم العجوز قد حشت جيوب أركادى ايفانوفتش بالسكويات ،
فلما أخذ الصديقان يقضمانها اتعشت روحاهما وعاد اليهما مرحهما •
وبعد الغداء ، وعد فاسيا بأن ينام قليلا حتى يستطيع السهر طول الليل •
وها هو ذا يستلقى على فراشه فعلا • وكان أحد الناس الذين لا يمكن
أن ترفض دعوتهم قد دعا أركادى ايفانوفتش في الصباح أن يجيء لشرب
الشاي عنده • فافترق الصديقان • وقرر أركادى أن يعود الى البيت

بأقصى سرعة ، في الساعة الثامنة اذا أمكن ذلك • بدت له الساعات الثلاث التي غاب أثناءها عن البيت كأنها ثلاث سنين ؛ واستطاع أن يتحرر أخيرا فهوول يعود الى المنزل • فلما دخل الغرفة لاحظ أنه ليس فيها نور • ثم لم يجد فاسيا • فلما سأل مافرا قالت انه ظل يكتب طول الوقت ، وانه لم يرقد في فراشه ، وانه أخذ بعد ذلك يسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، ثم في نحو الساعة الواحدة ، أسرع يخرج قائلاً انه عائد بعد نصف ساعة • وختمت مافرا حكايتها بقولها : « وقد طلب مني أن أقول لك ، متى رجعت ، انه خرج يتنزّه قليلاً ، وقد كرر هذا الطلب ثلاث مرات أو أربعاً •

قال أركادى لنفسه وهو يهز رأسه : « انه عند أسرة أرتمييف » • وبعد دقيقة نهض عن كرسيه بوثية • لقد لمع في قلبه أمل • قال لنفسه : « أغلب الظن أنه أنجز الكتابة ، فلما لم يستطع بعد ذلك أن يبقى في البيت ، هرع الى هناك ••• ولكن لا ••• لو صح ذلك لانتظرنى ••• سوف ألقى نظرة على عمله • •

أشعل شمعة وأسرع الى مكتب فاسيا • لقد تقدم فاسيا في عمله ؛ ويبدو أنه يوشك أن ينهيه • وفيما كان أركادى ايفانوفتشس يريد أن يستمر في تحرياته ، اذا بفاسيا يدخل فجأة ••

صاح مدعورا :

— أنت هنا ؟

صمت أركادى ايفانوفتشس • لقد خاف أن يلقي أسئلة على فاسيا • وأخذ فاسيا ، هو أيضا ، يقلب أوراقه خافضا بصره • والتقت نظرات الشابين أخيرا • فكان في نظرات فاسيا من التعبير عن الفاجعة والضرعة ما جعل أركادى يرتعش • لقد فاض قلبه شفقة ورحمة •

صاح وهو يسرع الى صديقه ويضمه بين ذراعيه :

- فاسيا، عزيزى ، ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟ صارحنى . . . أصبحت لا أفهمك ، لا أفهم ما أنت فيه من حزن ! ماذا بك يا عزيزى ؟ ما عذابك ؟ قل لى كل شيء ، لا تخف عنى شيئا . لا يعقل أن يكون هذا الأمر وحده هو الذى . . .

شد فاسيا جسمه الى صاحبه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة .
كان حلقه يخنق ، وكانت أنفاسه محبوسة .

- مابك يا فاسيا ؟ هلا انتهيت ؟ أى شقاء حل بك ؟ اننى لا أفهم يا فاسيا ! قل لى : ما الذى يقلبك هذا الاقلاق كله ؟ أنت تعلم أننى فى سبيلك ، أستطيع أن . . . آه يا رب يا رب ! (كذلك أخذ يردد أركادى وهو يمشى فى العرقة طولا وعرضا ، يمسك تارة بشيء ، ويمسك تارة بشيء آخر ، كأنه يبحث لفاسيا من دواء مباشر) . سأذهب غدا بنفسى الى آخر ، كأنه يبحث لفاسيا عن دواء سريع) . سأذهب غدا بنفسى الى جوليان ماستاكوفتش ، فأتوسل اليه أن يمهلك يوما آخر . سأشرح له كل شيء ، كل شيء ، اذا كان هذا هو ما يقلبك الى هذا الحد حقا . . .
صاح فاسيا وقد اصفر وجهه ، وترنح حتى ليكاد لا يستطيع الثبات على قدميه :

- اياك !

- فاسيا ! فاسيا !

تاب الفتى الى رشده . كانت شفتاه تختلجان . أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل ، بل اكتفى بأن شد على يد أركادى بحركة عصبية متشنجة . كانت يده باردة . وكان أركادى واقفا أمامه وقد استبد به هم رهيب . ومرة أخرى نظر اليه فاسيا متفرسا .

- فاسيا •• ما بك يا عزيزى المسكين فاسيا ؟ انك تمزق قلبي
يا عزيزى ، يا صديقى البائس ••

تمتم فاسيا يقول :

- لقد خدعتك يا أركادى •• لقد خدعتك ! اغفر لى ، سامحنى ••
لقد كذبت عليك •••

كذلك قال أركادى مذعورا مروعا •

- أنظر !

قال فاسيا ذلك ، وأخرج من الدرج ستة دفاتر ضخمة ، شبيهة
بالدفتر الذى كان ينسخه ، ثم رماها واحدا واحدا على المائدة ، وقد بدا
على وجهه يأس شديد •

- ما هذا ؟

- هذا هو العمل الذى يجب أن أفرغ منه بعد غد • وأنا لم أنجز
حتى الآن ربه • لا تسألنى كيف حدث هذا (كذلك تابع فاسيا كلامه
يشرح من تلقاء نفسه الموضوع الذى يقلقه) • أركادى ، صديقى !
لا أدرى ما الذى أخذنى عن نفسى •• لكأنتى أخرج الآن من حلم • لقد
ضيعت ثلاثة أسابيع كاملة • كنت أذهب كل يوم ••• إليها •• كان قلبى
يتمزق ••• كنت أعانى عذابا شديدا •• من عدم الثقة ••• ولم أستطع
أثناء ذلك أن أكتب شيئا •• حتى لقد كانت الكتابة لا تخطر لى على بال •
ولم أستيقظ الا الآن ، أى حين جاءتنى السعادة •

قال أركادى ايفانوفتش بلهجة حازمة :

- فاسيا .. سوف أتقذك . فهمت الآن كل شيء . الأمر خطير .
سوف أتقذك . اصنع الى : سوف أذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا ؛
لن أتأخر عن الغد . بل اصنع الى . سوف أحكى له كل شيء . اسمح لى
أن أفعل ذلك .. سوف أشرح له كل شيء ، مسترسلا حتى النهاية .
سوف أقول له كيف أنك تقتل نفسك .
قال فاسيا وقد جمده الرعب :

- هل تعلم أنك تقتلنى منذ الآن ؟

اصفر وجه أركادى ايفانوفتش ، ولكنه لم يلبث أن سيطر على
نفسه ، فانفجر يضحك قائلا :

- حقا ؟ هيا هيا يا فاسيا .. ألا تستحي ؟ اسمع : أنا أرى أنتى
أضايقتك . وأنا أفهمك . أنا أعرف ما يجرى فى نفسك . لقد انقضى
على سكاننا معا خمس سنوات . أنت انسان طيب القلب ، مرهف الشعور ،
ولكنك ضعيف جدا ، ضعيف ضعفا يدعو الى اليأس . ليزايتا ميخائيلوفنا
لاحظت هى نفسها ذلك . وأنت فوق هذا انسان حالم ... وليس فى
ذلك خير أيضا . فاذا واصلت سيرك على هذا النحو كنت تتعرض للجنون
يا صاحبي . اسمع . أنا أعرف ماذا تريد . أنت تمنى مثلا أن يطير
صواب جوليان ماستاكوفتش فرحا ، بل وأن يقيم حفلة راقصة ، احتفالا
بزواجك . انتظر قليلا . هانت ذا تصعر وجهك اذ ساءك أن آتى على
ذكر جوليان ماستاكوفتش ! طيب ... دعنا منه . لاحظ مع ذلك أنتى
أحترمه كما تحترمه ! ولكنك لن تستطيع أن تبرهن لى على نفيض
ما أقول ، ولن تستطيع أن تمنعنى من الاعتقاد بأنك ترى أنه ما ينبغى أن
يكون على وجه الأرض أشقياء ما دمت تزوج أنت ... صادق على ما أقول
يا صاحبي .. انك تود أن أصبح ، أنا خير صديق لك ، رأساليا على حين

فجأة ، أن أملك ألف روبل ؛ تتمنى أن يتصافح جميع الناس الذين يكره بعضهم بعضاً فى هذه الحياة الدنيا ، فإذا هم يتعاقبون فى وسط الشارع ، ثم اذا هم يجيئون يزورونك هنا .. يا عزيزى ، يا صديقى الطيب ، لست أسخر منك .. أبداً .. ولكن الأمر كذلك . انك تعرض على نظريات من هذا القبيل منذ زمن طويل ، على تنوع فى صور هذه النظريات ! .. فلأنك سعيد ، تريد أن يصير جميع الناس سعداء بين عشية وضحاها . يؤمك أن تكون وحدك سعيداً . لذلك تبذل جهداً كبيراً من أجل أن تكون جديراً بهذه السعادة . لا شك أنك مستعد للقيام بعمل بطولة ، لاشئ الا لترضى ضميرك ! .. طيب .. أنا أفهم أن تكون مستعداً لتعذيب نفسك تعذيباً روحياً كبيراً ، معاقبة لنفسك على أنها خارت حيث كان ينبغي أن تنشط .. أو حيث كان ينبغي أن « تعترف بالجميل » على حد تعبيرك ؛ فحين تتصور أن جوليان ماستاكوفتش سيصغر وجهه اذ يدرك أن الآمال التى عقدها عليك لم تكن فى محلها تنهار قواك وتقلق قلقتا رهيباً . انك تتألم حين تتصور أنك ستسمع لوما من فم الانسان الذى تمده محسناً اليك وأنت ستسمع هذا اللوم فى لحظة يكون فيها قلبك طافحاً فرحاً وسعادة ، وفى لحظة تكون فيها أنت لا تدري لمن تظهر شكرك وتعبير عن امتنانك . ألسنت على حق ! أليس الأمر كذلك ؟

أخذ صوت أركادى ايفانوفتش يرتجف، فتوقف عن الكلام وتنفس

تنفساً قوياً .

وكان فاسيا ينظر الى صديقه فى رقة وحنان . وارتسمت على شفتيه

ابتسامة .

كان طيفاً من أمل قد مر بوجهه . فتشجع أركادى لهذه النتيجة ،

فاستأنف كلامه يقول :

- اسمع يا فاسيا • ما ينبغي لجوليان ماستاكوفتش أن يمنع عنك الآن ما كان يحمله لك من عطف • أليس كذلك يا صديقي؟ أليست هذه هي المسألة؟ فإذا كانت هذه هي المسألة، فسأضحى أنا بنفسى (قال ذلك وهو يهب واقفا) •• سأذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا •• ولكن لا تعارضنى ! ذلك أنك يا فاسيا تضخم خطأك فتجعله جريمة ! مع أن جوليان ما ستاكوفتش انسان كبير النفس رحيم القلب • ثم انه ليس مثلك أبدا • سوف يصنى الى كلامنا يا عزيزى فاسيا ، فينقذنا من المأزق •• هل هدأت الآن ؟

شد فاسيا على يد أركادى والدموع فى عينيه • ثم قال :

- طيب يا أركادى ، دعنا من الحديث فى هذا الموضوع الآن ! لقد حُلت المشكلة •• لم أنجز العمل •• طيب •• لم أنجزه •• تأخرت •• هذا كل شيء . لا داعى الى أن تزعج نفسك . سأذهب اليه بنفسى ، فأشرح له الأمر •• لقد هدأت نفسى الآن ، واطمأن بالى اطمئنانا كاملا •• ولكن لا تذهب اليه •• أظننى ••

هتف أركادى يقول فرحا :

- فاسيا ، عزيزى • أنا لم أقل ما قلته الا استنادا الى كلامك نفسه • يسعدنى أنك هدأت بالا وطبت نفسا • تذكر مع ذلك أنني الى جانبك دائما ، مهما يحدث • ان فكرة تحدثنى الى جوليان ماستاكوفتش تخيفك •• طيب •• لن أكلمه أنا ، بل تكلمه أنت ذاكرًا له كل شيء • تذهب اليه غدا •• أو تبقى أنت فى البيت لتكتب ، وأمضى أنا أستطلع الخبر اليقين فى المكتب : هل الأمر مستعجل حقا أو لا ؟ هل يجب تسليم العمل فى تاريخ محدد قطعا ؟ وما هى النتائج التى تترتب على تأخر قد يحدث ؟ ثم أعود اليك بأقصى سرعة ممكنة أحمل اليك الخبر اليقين • هل رأيت

الآن أن هناك أملا؟ قد لا يكون الأمر مستعجلا . ان في وسعنا أن نتخلص من المأزق عندئذ في يسر . وقد لا يطلب اليك جوليان ماستاكوفتش تسليم العمل في اليوم المحدد له ؛ ان كل شيء يكون عندئذ قد أنقذ .

هز فاسيا رأسه علامة الشك والريب ، ولكنه ظل يلقي على صديقه نظرة شكر واعتراف بالجميل .

قال لاهئا :

— دعنا من هذا الموضوع الآن ! انني ضعيف جدا ، متعب جدا ، فلا أحب أن أفكر في هذا الموضوع قط . هلا تكلمنا في شيء آخر ؟ ثم انني أوتر أن لا أعمل الآن . . . لن أنسخ الا صفحة أو صفحتين ، أي الى أن أبلغ فاصلا ما . . . اسمع يا فاسيا : انني أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال : كيف استطعت أن تعرفني هذه المعرفة الصحيحة الصادقة ؟

وتساقطت دموع فاسيا على يدي أركادي .

قال أركادي :

— لو عرفت يا فاسيا مدى حبي لك وتعلقى بك لما ألقيت على سؤال كهذا السؤال .

— نعم يا أركادي أنا لا أعرف ذلك ، لأنني . . . لأنني أجهل لماذا تحبني هذا الحب كله . هل تعلم يا أركادي أن ما تحمله لي من حب قد عذبنى كثيرا ؟ هل تعلم أنني في كثير من الأحيان ، ولا سيما في المساء ، حين أفكر فيك (وأنا أفكر فيك دائما لحظة أستلقي على فراشي لأنام) ' أهم أن أبكي وأشعر بارتجاف في قلبي لأنني . . . لأنني . . . لأنك تحبني هذا الحب كله ، ثم أنا عاجز عن أن أفتح قلبي وأن أبرهن لك على امتناني .

هل رأيت يا فاسيا ماذا أنت ؟ هدىء نفسك اذن هانت ذا تضطرب
اضطرابا شديدا من جديد ! (لاحظ أركادى ذلك وهو يرتجف لذكرى
المشهد الذى جرى الليلة البارحة فى الشارع) •

- دعك من هذا الكلام يا صاحبي ! تريد منى أن أهدأ وانا لم اكن
فى يوم من أيام حياتى أهدأ منى الان ولا أسعد ! لشد ما تمنيت أن احكى
لك كل شىء ، ولكننى أخاف دائما أن أسبب لك ألما • فانت تقلق على ،
فتصيح وتخيفنى •• أنظر •• حتى فى هذه اللحظة ارتجف •• لا أدرى
لماذا ؟ اليك ما أحب أن أقوله لك : يخيلى الى أننى كنت فى الماضى أجهل
نفسى •• أما الآخرون فأننى لم أعرفهم ولم أفهمهم الا منذ أمس • كنت
حتى هذا اليوم لا أفهم •• ولا أقدّر •• كان قلبى جافا يابساً • اليك
كيف حدث ذلك : أنا لم أستطع أن أحسن الى أحد فى يوم من الأيام ،
لأننى كنت عاجزا عن أن أحسن الى أحد •• فحتى مظهرى ليس فيه
ما يبهج النظر •• ومع ذلك كان جميع الناس يحملون لى عاطفة طيبة !
وأنت أولهم •• طبعاً •• أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أفعل شيئا غير

أدى :

- سدا يا فاسيا ؟ فاسيا ••• ما هذا ؟
فقاطعه فاسيا بقوله ، وهو لا يكاد يستطيع أن يلفظ كلماته من كثرة
الدموع التى تخفق صوته :

- ماذا ؟ لا شىء •• أمس ، كلمتك عن جوليان ماستاكوفتش •
أنت تعلم أنه قاس بل انه قائم النفس ، وأنه قرعنى عدة مرات • ولكن
ها هو ذا يخطر بباله أمس أن يمازحنى ، وأن يكون لطيفا معى ، وأن
يظهر طيبة قلبه ، تلك الطيبة التى يخفيها اخفاء عاقلا حكيما عن
الآخرين •

- طيب يا فاسيا ! .. ان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أنك
جدير بسعادتك •

- آه يا أركاشا ! لشد ما أتمنى لو أستطيع انجاز هذا العمل ! ..
لا .. لا .. ان سعادتى ستتحطم .. أنا أوجس ذلك ! .. ولكن لاسبب
هذا (كذلك قاطع نفسه اذ لاحظ أن أركادى يختلس النظر الى كومة
الدفاتر المتكدسة على المائدة قناطير) .. لا بسبب هذا .. هذا لا شيء ..
ما هذا الا ورق .. ترهات .. هذه المسألة قد حُلَّت .. أركاشا ، لقد
ذهبت اليها اليوم .. لكننى لم أدخل • كان قلبى مثقلا ، يفيض حزنا
ومرارة ! لبثت واقفا أمام الباب بعض الوقت • كانت تعزف على البيانو
فأصتت .. أرايت يا أركادى ؟ لم أجرؤ أن أدخل •

هكذا أنهى فاسيا كلامه بصوت خافت •

- ما بك يا فاسيا ؟ انك تنظر الى نظرة غريبة •

- لا شيء .. لا شيء .. أشعر بأننى مريض قليلا .. ساقاى
تصطكان .. ذلك لأننى سهرت طول الليل • نعم ، وان شرارات خضراء
تلمع أمام عيني .. هنا انما

قال فاسيا ذلك مشيرا الى قلبه ، ثم أغمى عليه •

فلما أفاق من غشيته أراد فاسيا أن يتخذ اجراءات حاسمة • كان
يتهايا لأن يرقده فى فراشه بالقوة • ولكن فاسيا احتج احتجاجا عنيفا •
انه الآن يبكى ويعض يديه ويصر اصرارا قاطعا على أن ينجز الصفحتين •
فسمح له أركادى أن يقترب من المائدة حتى لا يسرف فى معارضته •

قال فاسيا وهو يجلس الى مكتبه :

- اسمع .. عندى فكرة .. هناك أمل ..

وابتسم فاسيا لصاحبه ، فكان وجهه الشاحب يضيئه شعاع من أمل
حقا . وتابع كلامه يقول :

- اليك ما عقدت النية عليه . لن أحمل اليه بعد غد الا جزءا ... أما
الباقى فسألتفق من أجله حجة ما .. أقول مثلا انه احترق او انه تبلل
أو انه ضاع أو أقول له اننى لم أستطع أن أكمله .. ذلك أننى لا أستطيع
أن أكذب .. سأشرح له كل شىء بنفسى . هل تعلم ؟ ساروى له كل
شىء .. سأقول له مثلا : لم أستطع وكفى ! سأحدثه عن حبى . لقد
تزوج هو نفسه منذ زمن طويل . سوف يفهمنى ! طبعاً سأتكلم بهدوء ،
واحترام .. وسوف يرى دموعى ، فيتأثر قلبه .

- طيب .. اذهب اليه ، قابله ، اشرح له .. ولكن لا فائدة من
الدموع يا فاسيا ! لماذا البكاء ؟ أوكد لك يا فاسيا أنك تثير فى نفسى ذعرا
رهيبا .

- نعم نعم ، سأذهب اليه . أما الآن فدعنى أكتب ، دعنى أكتب
يا أركاشا . لن أسىء الى أحد . ولكن دعنى أكتب .
ارتسمى أركادى على سريريه . واضح أنه فقد اطمئنانه الى فاسيا ،
وثقته به . ان فاسيا لن يتورع عن نىء .. لماذا طلب العفو ، وكيف ؟
ليست هذه هى المسألة فى الواقع . المسألة هى أن فاسيا لم يف بالتزاماته ،
فهو يشعر من ذلك بأنه مذنب فى حق نفسه . هو يشعر بأنه عاق مع
القدر . يشعر أنه غير جدير بسعادته ، فهذه السعادة هى التى تهز نفسه
وتحطمها وتقلبها رأسا على عقب . انه لا يبحث الا عن حجة لينحرف الى
هذا الاتجاه . انه لما يشب من دهشته بالأمس . قال أركادى فى داخله :
« هذه هى المسألة . يجب أن نصلحه مع نفسه ؛ انه بسبيل تأبين نفسه .. »
وبعد أن اجتر أركادى ايفانوفتش المسألة طويلا ، قرر أن يذهب
منذ الغد الى جوليان ماستاكوفتش دون ابطاء ، فيروى له كل شىء .

وكان فاسيا يكتب • واستلقى أركادى على السرير من جديد ، وقد
هذه التعب ، من أجل أن يتأمل فى الأمر مرة أخرى • فإذا هو ينام ثم
لا يستيقظ الا فى الفجر •

فلما ألقى نظرة على أركادى ، رأى أنه ما يزال يكتب ، فهتف
يقول :

– هوه •• ألى الآن ؟

وهب أركادى نحو صديقه ، فأحاطه بذراعيه وقاده الى السرير
بالقوة • كان فاسيا يتسم • وكانت أجفانه تطبق من شدة التعب • انه
لا يكاد يستطيع الكلام • قال :

– كنت أنوى من تلقاء نفسى أن أرقد • هل تعلم يا أركادى ؟ عندى
فكرة • سأبجز عملى • لقد استعجلت فى الكتابة • ولكننى تعبت الآن •
أيقظنى فى الساعة الثامنة •••

وما كاد ينهى جملته حتى نام •

همس أركادى مخاطبا ماфра التى كانت آتية بالشاى :

– انه يطلب إيقاظه بعد ساعة • ولكن اياك أن توقظيه ! فليتم عشر
ساعات اذا أراد • هل فهمت ؟

– فهمت يا سيدى •

– لا تحضرى غداء ولا تحدثنى ضوضاء • الضوضاء خاصة •••
حاذرى الضوضاء •• اذا سأل عنى فقولى له اننى ذهبت الى المكتب • هل
فهمت ؟

– فهمت يا سيدى •• فليتم ما شاء أن ينام •• ماذا يضيرنى هذا •
ان نوم سيدى يسرنى •• وأنا أحافظ على ما يملكه أسياى • أما الفنجان
الذى كسرته أمس ففقرعتنى من أجله ، فلم أكسره أنا ، بل كسرتة القطة

مانسكا • كل ما هنالك أننى لم أتبه اليها •• وحين طردتها كان قد فات
الأوان •

•• هست •• اسكتى !

سرف أركادى الخادمة الى المطبخ ، وطلب منها المفتاح ، فأقبل به
الباب ، ثم ذهب الى مكتبه • وتساءل فى الطريق كيف يجب أن يفعل
حتى يمثل أمام جوليان ماستاكوفتشس ؟ أليس فى هذا افراطاً فى الجراءة
منه ؟ ودخل المكتب ، فسأل وجلا هل صاحب السعادة موجود • فقيل له
انه غير موجود ، وانه لن يأتى فى هذا اليوم • فأراد أركادى ايفانوفتشس
فى أول الأمر أن يذهب الى منزله الخاص ، ولكنه سرعان ما انتهى الى أن
جوليان ماستاكوفتشس لا بد أن يكون مشغولاً فى منزله ما دام قد تغيب عن
المكتب • لذلك بقى أركادى فى عمله •• بدا له الوقت طويلاً طويلاً
لا ينتهى • حاول أن يستطلع سرا أمر العمل الذى عهد به الى شومكوف ،
ولكن لم يكن أحد على علم بالموضوع • كل ما كانوا يعلمونه هو أن
جوليان ماستاكوفتشس شاء أن يكلفه بعض الأعمال الخاصة فعلاً ، ولكن
ما من أحد يعرف طبيعة هذه الأعمال التى أراد أن يكلفه بها • وفى حجرة
المدخل أوقفه أحد الكتبه وقال له ان فاسيلى بتروفتشس شومكوف قد جاء
فى نحو الساعة الواحدة فسأل هل أركادى ايفانوفتشس وجوليان
ماستاكوفتشس موجودان • فلما سمع أركادى هذا النبأ استأجر عربة
وأسرع الى المنزل قلقاً أشد القلق •

كان شومكوف هناك ، يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ، وهو مهتاج
اهتياجاً محموماً • فلما ألقى نظرة على أركادى ايفانوفتشس بدا عليه أنه
هدأ ، أو هو أسرع يخفى اهتياجه على الأقل • وبدون أن يقول كلمة ،
جلس الى مكتبه واستأنف الكتابة • كان يلوح عليه أنه يريد أن يتحاشى

أسئلة صاحبه التي أصبحت تزعجه ، اذ كان واضحا أنه اتخذ قراره وألى على نفسه أن يحتفظ به سرا لا يفشى به الى أحد ، لأنه أصبح لا يعول على الصداقة ولا يثق بها . تأثر أركادى تأثرا شديدا . فجلس على السرير وفتح كتابا (هو الكتاب الوحيد الذى يملكه) ، دون أن يحول بصره عن فاسيا المسكين . وظل فاسيا صامتا لا ينطق بكلمة . واستمر يكتب لا يرفع رأسه . وانقضت على ذلك عدة ساعات . أصبحت آلام أركادى لا تطاق . وأخيرا ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، رفع فاسيا رأسه وألقى على أركادى نظرة كابية جامدة . انتظر أركادى ، غير أن عدة دقائق انقضت وفاسيا ما يزال صامتا . صاح أركادى :

• فاسيا •

فلم يجب فاسيا . فعاد أركادى يردد وهو ينهض ببطء :

• فاسيا ! ماذا بك ؟ ماذا دهالك ؟

كذلك صاح وهو يقترب من صديقه :

أنهض فاسيا رأسه ثانية ، وحدث الى صاحبه من جديد بنظرة بلهاء

جامدة •

قال أركادى لنفسه مذعورا : « هذه نوبة عصبية ! » . وأسرع يتناول أبريق الماء ، وينهض رأس فاسيا ، ويأخذ يصب على جمجمته ماء ، ويبلل صدغيه ، ويفرك يديه . فعاد فاسيا الى وعيه •

صاح أركادى باكيا ، لأنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه :

• فاسيا ، فاسيا ، فاسيا ، لا تدع لنفسك أن تهوى ... تذكر ...

تذكر ...

وأخذه بين ذراعيه قبل أن يتم جملته • كان فى وجه فاسيا غم

وقلق وألم • فرك فاسيا جبينه ، ثم رفع يديه الى رأسه كأنه يخشى على رأسه أن ينفجر • واستطاع أخيرا أن يقول :

- لا أدري ما الذى بى • أظن أننى أجهدت نفسى • على كل حال ، تحسنت الآن ، تحسنت •• هيا يا أركادى •• لا تقلق •• هيا (كذلك ردد وهو يرشق صديقه بنظرة حزينة) •• لا داعى الى القلق •• فيم القلق ؟

هتف أركادى نازف القلب من الرحمة :

- ما هذا ؟ أنت الذى تعزبنى وتواسينى الآن ؟ ارقد يا فاسيا •• لا تعذب نفسك فيما لا طائل تحته • ستستأنف عملك بعد • فردد فاسيا كلام صاحبه يقول :

- نعم نعم ، أنت على حق • نعم ، سأرقد • سأرقد • لقد قررت فى أول الأمر أن أنجز العمل دفعة واحدة ، أما الآن فقد غيرت رأيى •• نعم ••

قاده أركادى الى السرير • وقال له بصوت جازم :

- اسمع يا فاسيا ، يجب أن تتخذ قرارا حاسما بشأن هذه المسألة • قل لى ماذا قررت •

قال فاسيا وهو يحرك يده بإشارة ضعيفة ويحول رأسه :

- أواه ••

- هيا يا فاسيا ••• يجب أن تتخذ قرارا • لا أحب أن أكون قاتلك • لا أستطيع أن أسكت بعد الآن • أنا أعلم أنك لن تنام ما لم تتخذ قرارا حاسما •

قال فاسيا بلهجة كأنها سر أو لغز :

- ليكن ما تريد ، ليكن ما تريد •

قال أركادى لنفسه : « أذعن » • وأردف يلح قائلاً :

- اتبع نصيحتي يا فاسيا • تذكر ما قلته لك • غدا أتقذك ، غدا
أقرر مصيرك •• ولكن فيم الكلام على المصير ؟ لقد بلغت من تخويفي
يا فاسيا اننى أخذت أستعمل تعابيرك • أى مصير هذا الذى تتكلم عليه ؟
ما الأمر الا ترهات يسيرة ! أنت لا تريد ان تخسر عطف جوليان
ماستاكوفتش ، أليس كذلك ؟ طيب •• لن تخسر عطفه •• سوف ترى ••
أنا •••

كان يمكن أن يتكلم أركادى طويلاً أيضاً ، ولكن فاسيا قاطعه ،
انه ينهض عن مكانه ، ويمتنق أركادى ، ويقبله • ثم يقول بصوت واهن
ضعيف :

- كفى •• كفى •• لا تتكلمن بعد الآن فى هذه الأشياء !

ثم دار الى جهة الحائط من جديد •

قال أركادى لنفسه : « يا رب ! يا رب ! ماذا به يا رب ! انه خارج
عن طوره تماما • ماذا قرر أن يفعل ؟ لسوف يضيع نفسه ! » •
ونظر أركادى الى صديقه فى حسرة وأسى ؟ ثم قال لنفسه : « لعل
الأمور أن تنحل اذا هو مرض • اذا مرض فقد تزول همومه • ويكون
فى وسعنا أن ندير المسألة بعد ذلك على الوجه المناسب • ولكننى أهذرو ••
آه •• يا رب ؟ »

وفى تلك الأثناء كان يبدو على فاسيا أنه ينام • فاغتنب أركادى من
ذلك • قال لنفسه : « هذه علامة طيبة » • وقرر أن يسهر عليه طول
الليل • كان نوم فاسيا مضطرباً • فهو فى كل لحظة ينتفض ، ويلتفت الى
الجهة الأخرى ، ويفتح عينيه • وغلبه التعب آخر الأمر ، فبدا فى نحو

الساعة الثانية من الصباح انه يغيب في نوم عميق • فنام عندئذ اركادى
على كرسية مسندا ذراعه الى المنضدة •

فراى فيما يرى النائم حلما غريبا مقلقا • كان يتراءى له انه غير
نائم ، وان فاسيا ما يزال رافدا على السرير • ولكن الامر الغريب هو
انه كان يحس ان فاسيا يمثل تمثيلا ، وانه يحاول ان يخدعه ، فها هو ذا
- آى فاسيا - ينهض عن سريره صامتا ويتسلل نحو المكتب على رءوس
الاصابع مراقبا صاحبه بطرف عينه •

شعر اركادى عندئذ بالم شديد يقبض فليه • احزنه واشجاه ان
يرى فاسيا لا يثق به بل يخفى عنه أفكاره • أراد ان يوقفه ، أراد ان
يزجره ، أراد ان يرده الى السرير عنوة • • فاذا بفاسيا يطلق صرخة
هى آخر زفرة من زفراته ، واذا باركادى يحمل الى السرير جثة ميتة
لا انسانا حيا • تبلل جبين اركادى بالعرق ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا
شديدا حتى ليكاد ينفجر • فتح عينيه فاذا هو يرى فاسيا جالس الى
المنضدة أمامه يكتب •

ظن اركادى أنه ما يزال يحلم ، فنظر الى السرير ، فلم يجد عليه
فاسيا • فنهض بوثبة واحدة وهو ما يزال تحت وطأة الكابوس الذى ألم
به أثناء نومه • لم يتحرك فاسيا ، بل ظل يكتب • وفجأة لاحظ اركادى ،
مدعورا ، ان صاحبه يجرى على الورق ريشة بغير حبر ، وأنه يقلب
صفحات بيضاء مسرعا فى ملء الصفحات اسرعا رهيا ، كأن هذا خير
وسيلة لانجاز العمل الذى يجب عليه أن ينجزه • قال اركادى ايفانوفتش
لنفسه وهو يرتعش : « لا • • ليس هذا الا نوبة عصبية • • »

هتف يقول وهو يمسك صديقه عن كفه :

- فاسيا ، فاسيا ، أجبني !

ولكن فاسيا ظل صامتا لا يتكلم ، وظل يرسم على الورق خطوطا
لا ترى ، بريشة من غير حبر •

قال دون أن يرفع بصره :

- أخيرا استطعت أن اعجلّ كتابتي •

أمسك أركادى يده ، وانتزع منه الريشة •

أطلق فاسيا أنه ضعيفة • وتهافت ذراعا • ورفع عينيه صوب
أركادى • وحرك جبينه بحركة حزينة يائسة كأنه يحاول أن يزيح قلا
ضحما يسحق كيانه كله • ثم خفض رأسه ببطء ، شارد المذهن •

صاح أركادى :

- فاسيا ! فاسيا !

انقضت لحظات قبل أن ينظر اليه فاسيا • كانت عيناه الزرقاوان
تفيضان دموعا ، وكان وجهه الحلو يعبر عن عذاب لا يغالب ••• وكان
يتمتم ببعض كلام •

سأله أركادى وهو يميل عليه :

- ماذا ؟ ماذا ؟

فهمس فاسيا يقول :

- لماذا يحقدون عليّ ؟ ماذا صنعت بهم ؟

صاح أركادى وهو يعقف ذراعيه بحركة يائسة :

- ما بك يا فاسيا ؟ مم تخشى ؟

قال فاسيا وهو يحدق الى عيني صديقه :

- لماذا يريدون أن يجندوني ؟ لماذا ؟ ما هي جرمتي ؟

- اتصب شعر أركادى على رأسه • لم يشأ أن يصدق أذنيه • ظل
ماتلاً على صديقه وقد استبد به يأس رهيب شديد •

ثم تاب الى رشده بعد دقيقة فقال لنفسه : « ليس هذا الا عرضاً
طارئاً ثم ينقضى • • » قال لنفسه ذلك وقد اصفر وجهه وارتجفت شفاهه •
وأسرع يرتدى ثيابه كالمحموم ، لأنه يريد أن يركض باحثاً عن طيب •
ناداه فاسيا فجأة • فهرع اليه ، وقبله قبله أم يريدون أن ينتزعوا منها
ابنها •••

- أركادى •• أركادى •• أرجوك خاصة أن لا تبلغ أحدا •• هل
تفهمنى ؟ ان الذنب ذنبى •• فيجب أن أتحمل نتائج وحدى •
- هيا يا فاسيا ، هيا ، تب الى رشك ، عد الى نفسك ، ابرأ مما بك !
تهد فاسيا ، وأخذت عبرات صامته تسيل على خديه •
- لماذا نقتلها هي ؟ ما ذنبها هي المسكينة ؟ •• انها خطيئتي أنا •••
خطيئتي أنا !

كذلك قال فاسيا بصوت مخنوق يمزق القلب حزناً •
وصمت بضع لحظات • ثم همس يقول وهو يهز رأسه المسكين :
- الوداع يا حبيبتى ، الوداع يا حبيبتى !
تاب أركادى الى نفسه ، وأراد أن يركض الى الطيب • فلما لاحظ
فاسيا حركة صاحبه قال :
- هيا بنا •• لقد آن الأوان •• هيا بنا يا صاحبنى •• أنا مستعد •
اصحبنى •

ثم لم يقل شيئاً ، بل ألقى على أركادى نظرة حزينة مرتابة •

قال أركادى يكرر فاقدًا صوابه ، وهو يتناول فيمته ليمضى باحثًا عن
الطبيب :

- فاسيا .. لا تبغنى .. أرجوك .. أتوسل اليك .. انتظرني
هنا .. سأعود حالاً .

فلم يلبث فاسيا أن قعد . كان يبدو وديعًا طبعًا ، ولكن قرارًا يائسًا
كان يسطع في نظرتة . عاد أركادى أدراجه ، فأخذ الموسيقى التي كانت
مسلولة على المنضدة ، وألقى نظرة أخيرة على صديقه المسكين ، ثم أسرع
يخرج راكضًا .

كانت الساعة قريبة من الثامنة . وكان ضوء النهار قد أخذ ينير
الغرفة منذ وقت .

لم يجد أركادى أحدًا . طاف المدينة ساعة بكاملها ، ولكن جميع
الأطباء الذين عرف عناوينهم من البوابين الذين يسألهم كانوا قد خرجوا ،
بعضهم الى دوائرهم ، وبعضهم الى أعمالهم . غير أن واحداً من الأطباء
كان قد أخذ يستقبل مرضاه . سأل الطبيب خادمه طويلاً عن نيفيدقتش :
من أرسله ولأى غرض جاء ، حتى لقد أراد أن يوصف له هذا الزائر
المبكر . ثم صرح أخيراً بأن أعماله كثيرة ، فلا يستطيع الذهاب الى
المريض ، وبأن المرضى الذين هم من هذا القليل يجب نقلهم الى المستشفى .
فحزن أركادى أشد الحزن ، لأنه لم يكن يتوقع حلاً كهذا للحل ،
فاستغنى عن الطب والأطباء ، واندفع راجعاً الى المنزل ، يرتجف خوفاً
على فاسيا ، ودخل البيت راكضاً . كانت مافرا تكسر حطباً لاشعال المدفأة
كأن شيئاً لم يحدث . فلما صار أركادى فى الغرفة لم يجد فاسيا . فان
فاسيا كان قد خرج .

تساءل أركادى متجمداً من الذعر : « أين هو المسكين ؟ الى أين

يمكن أن يكون قد ذهب ؟ » • وأخذ يسأل مافرا ، لكن المرأة الطيبة لا تعلم شيئا ، بل انها لم تسمع خطواته حين خرج • هرع نيفدفتس يذهب الى جماعة كولومنا • الله يعلم لماذا خطر بباله أنه قد يجد فاسيا هناك •

وصل اليهم في نحو الساعة التاسعة والنصف • وكانوا جاهلين بكل شيء • فأخذ أركادى يسألهم هل فاسيا عندهم ، وقد لاح عليه التردد والهلع •

كادت المعجوز تهاوى ، فجلست على الأريكة • وأخذت ليزانكا تسأله مرتجفة من قمة الرأس الى أخمص القدم • ولكن ماذا كان يستطيع أركادى أن يقول ؟ ها هو ذا يلفق قصة لم يشأ أحد أن يصدقها طبعاً • ثم انصرف كما جاء ، تاركا أهل الدار في حزن شديد وقلق عظيم • أسرع الى مكتبه حتى لا يصل متأخرا عن الموعد متأخرا كبيرا • وخطر على باله أثناء الطريق أن فاسيا قد يكون عند جوليان ماستاكوفتس • هنا • حتى لقد فكر أركادى في ذلك قبل أن يذهب الى كولومنا • ما وصل بالعربة أمام منزل صاحب السعادة أراد أن يتوقف ، ولكنه سرعان ما غير رأيه وتابع طريقه • لقد قرر أن يستطلع الأمر في المكتب أولا • فإذا لم يطلع هنالك على شيء ، عاد يمثل أمام صاحب السعادة ، ليبلغه ما حدث لفاسيا في أقل تقدير • ذلك أنه لا بد من تقديم تقرير لأحد •

فما ان صار في حجرة المدخل حتى رأى زملاءه يحيطون به ويتجمعون حوله ، وأكثرهم من رتبته ، يسألونه عما جرى لفاسيا • وأبلغوه جميعا في الوقت نفسه أن فاسيا أصبح مجنونا ، وأن قوام جنونه اعتقاده بأنه سيجند في فرقة تأديبية من الجيش لاهماله عمله •

أجاب أركادى ايفانوفتس جميع الناس ، أو قل انه لم يجب أحدا

بعينه • فانه لم يكن يريد الا شيئا واحدا هو أن يدخل المكاتب • فلما طاف بمختلف الدوائر عرف أن فاسيا موجود عند جوليان ماستاكوفتش، وأن كثيرا من الموظفين هناك ، وأن اسير ايفانوفتش قد ذهب الى هناك أيضا • وسأله واحد من كبار الموظفين الى أين هو ذاهب وماذا يريد ، فنطق ببضع كلمات ذاكرة اسم فاسيا ، واتجه رأسا الى غرفة الرئيس الكبير • كان صوت جوليان ماستاكوفتش يصل الى سمعه • سأله أحدهم أمام الباب :

— الى أين أنت ذاهب ؟

وانه يتهيا لأن يرجع القهقري ، اذا هو يلمح فاسيا المسكين من خلال الباب المشقوق ؟ فلا يسعه الا أن يدفع المصراع ، فيتسلل الى الغرفة بغير قليل من العناء • كان جو مضطرب يسيطر على الغرفة : ان جوليان ماستاكوفتش يبدو منزعجا أشد الانزعاج ، يحيط به جميع أصحاب الرتب العالية من الموظفين ، وهم جميعا يتنافسون ثم لا يصلون الى اتخاذ قراره وكان فاسيا منتحيا جانبا • انقبض صدر أركادى حين رآه على هذا الحال • كان فاسيا أبيض الوجه من فرط الشحوب ، منتصب القامة رافع الرأس مشدود الساقين ضامًا ذراعيه الى الفخذين ، تماما كما يفعل المجندون أمام رئيسهم • وكان شاخصا بصره الى عيني جوليان ماستاكوفتش • وسرعان ما لوحظ وجود نيفيدتش • فاذا بواحد يجهل أن الصديقين يسكنان معا ، يقترب من صاحب السعادة فيلفت نظره اليه • فاقنيد أركادى الى الرئيس • وفيما كان أركادى يتهيا للإجابة على الأسئلة التي يطرحها عليه جوليان ماستاكوفتش ، نظر الى وجهه فلاحظ أنه يعبر عن تأثر وعطف صادق • فاذا هو يشعر بقشعريرة تسرى في جسمه ، ثم اذا يأخذ يبكي منتحيا كطفل • بل لقد فعل أكثر من ذلك : وثب نحو الرئيس الكبير ، فتناول يده وحملها الى شفثته يقبلها ويفرقها بالدموع • فاضطر

جوليان ماستاكوفتش نفسه ان يسحب يده بسرعة ، وأن يجرى حركة خفية ، ويقول : « هيا يا عزيزى هيا .. أرى أن لك قلبا طيبا .. » . كان أركادى ينتحب ويرشق الحضور بنظرات متوسلة ضارعة . كان يبدو له أنهم جميعا كاخوةٍ لصديقه المسكين فاسيا ، وأنهم جميعا متألون لحاله ، حزائى عليه .

سأله جوليان ماستاكوفتش قائلا :

- ولكن كيف حدث له هذا ؟ لماذا أصبح مجنونا ؟

فقدم أركادى يقول :

- اء .. اعترافا بالجميل .

ثم لم يستطع أن يزيد على ذلك شيئا .

دهش جميع الحضور حين سمعوا هذا الجواب ، ووجدوا أنه أمر ن يفقد انسان عقله اعترافا بالجميل . وشرح أركادى

ع .

قال جوليان ماستاكوفتش أخيرا :

- مسكين ... مع أن الأمر الذى عهدت به اليه لم يكن لا هاما ولا مستعجلا ! هذا انسان ضاع فى سبيل لا شيء ... طيب .. خذوه . واتجه جوليان ماستاكوفتش بالكلام بعد ذلك الى أركادى فألقى عليه بعض الأسئلة .

قال مشيرا الى فاسيا :

- هو يرجو أن لا يذكر من الأمر شيء لاحدى الفتيات ، فهل هى خطيبته ؟

فقدم أركادى بعض الايضاحات . وكان فاسيا أثناء ذلك يبدو فريسة

فكرة تحاصر ذهنه • كان كمن يبذل جهدا كبيرا من أجل أن يتذكر شيئا خطير الشأن ، بل لا بد منه ولا غنى عنه في هذه اللحظة • وكان في بعض الأحيان يطوف بصره على الحضور كأنه يأمل أن يسعفه أحدهم فيذكره بما كان يحاول أن يتذكره • وتوقفت نظراته على أركادى • فإذا بشعاع من أمل ينير وجهه فجأة • وإذا هو يتقدم الى الأمام خطوة بقدمه اليسرى ، ثم يسير بضع خطوات سيرا عسكريا ، لا يفوته حتى أن يقرع الأرض بكعب قدمه اليمنى كما يفعل الجنود حين يقتربون من ضابط ناداهم • فأخذ الجمع ينتظر ما سيقب ذلك • قال فاسيا بصوت متقطع :
- يا صاحب السعادة ، ان بي عاهة جسمية ، فأنا ضعيف وقصير القامة ولا أصلح للخدمة العسكرية •

فشعر جميع من في الغرفة بأقباض في قلوبهم ، حتى أن جوليان ماستاكوفتش نفسه لم يملك أن يحبس دمة سالت من عينيه رغم صلابه طبعه وقوة ارادته • قال وهو يشير بيده :

- خذوه ••

قال فاسيا بصوت خافت :

- الى الجبهة •••

ثم استدار الى الورااء يسرة • وخرج من الغرفة •

أسرع جميع من يهمهم مصيره يجرون ورااء • وتبع أركادى الآخرين • أجلس فاسيا في قاعة الانتظار ، وأخذ المختصون يعدون أمرا يقوله في المستشفى ، ويسألون عن العربية التي ستحملة اليه •

ان فاسيا صامت لا يتكلم • انه يبدو مشغول البال الى أقصى حد • وهو يحيى جميع من يعرفهم بانحناءة يسيرة كأنه يودعهم ، وينظر الى

الباب في كل لحظة منتظرا أن يقال له : آن أو ان الانصراف • ان حلقة ضيقة من الناس تحيط به • وهم جميعا يهزون رؤوسهم حسرة ، ويرثون حاله ، ويحزنون لما آل اليه ؛ وما أكثر الذين تأثروا أشد التأثر لقصته التي شاعت في المكتب كله فجأة •• فبعضهم يناقش الأمر ، وبعضهم يدح فاسيا ويعبر عن أساءه • قالوا انه كان فتي هادئا متواضعا يعد بمستقبل مشرق • وقالوا انه كان يحرص على الاستزادة من العلم وكان يعمل جاهدا في سبيل استكمال ثقافته • وقال أحدهم : « انه بوسائله وحدها انما استطاع أن يخرج من ظرف وضع جدا •• » • وأشاروا ، بكثير من الحنان ، الى العطف الذي كان يحمله له صاحب السعادة • وأخذ بعضهم يشرح لماذا تحاصر ذهن فاسيا فكرة زجه في الجيش عقابا له على عدم انجازه عمله • قالوا ان الفتى ينتمى في أصله الى طبقة الأفتان ، وان الفضل في وصوله الى الحصول على رتبة موظف انما يرجع الى جوليان ماستاكوفتش وحده • ذلك أن جوليان ماستاكوفتش قد رأى فيه علائم موهبة حقيقية ، كما رأى فيه طواعية كاملة ، وأدبا جما ••• الخلاصة أنهم تكلموا كثيرا وتناقشوا طويلا • وكان من أكثر الناس تأثرا رجل طيب قصير القامة جدا ، أقصر كثيرا من متوسط طول الرجال • انه أحد زملاء فاسيا ؛ وما هو الآن فتى في ريعان الشباب • فلعله بلغ الثلاثين من عمره • كان صاحب الوجه كميته • كانت أعضاؤه جميعها تختلج ، وكان يتسم ابتسامة غريبة ••• ربما لأن أى حادث رهيب أو أى أمر فاضح يمكن أن يملأ قلوب شهوده خوفا شديدا ولذة عجيبة في آن واحد • كان الرجل القصير يركض بين الجماعة التي تزدهم حول فاسيا من أقصاها الى أقصاها ، وكان لقصره ينتصب على رؤوس الأصابع ، متشبها بزرها أو ذاك من زملائه (الذين كان يحق له أن يقاربه) ؛ وما ينفك يردد أنه يعرف كيف وقع ما وقع ، غير أن الأمر معقد ، ولا يمكن ترك الأمور على ما هي عليه •

وانتصب على رموس أصابعه مرة أخرى فهمس فى أذن أحدهم ببعض الكلام ، ثم هز رأسه عدة مرات ، ومضى يهرول الى مكان آخر •
وانتهى أخيرا كل شيء : جاء الحارس والممرض • فاقتربا من فاسيا ،
وفالا له ان أوان الانصراف قد آن • فهض فاسيا ببطء ، واضطرب بعض
الاضطراب ، ومضى يتبعهما ناظرا حوله • كان يبحث عن أحد • هتف
أركادى باكيا ناشجا : « فاسيا ، فاسيا ! » • فتوقف فاسيا ، واستطاع
أركادى أن يشق لنفسه طريقا الى صاحبه • فتعاقب الصديقان آخر
عناق ••• كان منظرا محزنا يمزق القلب • أية نازلة وهمية كانت تسيل
عبراتها ؟ لماذا كان يبكيان ؟ أين هى تلك النازلة ؟ لماذا لم يستطيعا أن
يتفاهما ؟

قال فاسيا لصاحبه وهو يدس فى يده ورقة مطوية :

— خذ •• خذ هذا •• خذ هذا •• احتفظ لى به • والا أخذوه منى .
جئنى به بعد • جئنى به • احتفظ لى به •

ولم استطع فاسيا أن يكمل كلامه • فقد نودى • فهبط السلم
مسرعا وهو يحيى الناس ويحنى رأسه • ان ألما قاتلا كان يرتسم فى
وجهه • ووضع فى العربة أخيرا ، وسارت العربة •

فض أركادى الورقة على عجل • انها الخصلة السوداء من شعر
ليزا ، التى كان يحملها فاسيا دائما معه • انبجست دموع مرة أخرى من
عيني أركادى ، وتمتم يقول : « مسكينة أنت يا ليزا » •

فلما انصرف الموظفون ذهب أركادى الى جماعة كولومنا • لا داعى
الى وصف ما جرى هنالك ! حتى الصغير بتيا الذى لم يفهم كثيرا ما وقع
لفاسيا الطيب انزوى فى ركن وغطى وجهه بيديه وطفق يبكى بكاء يمزق
القلب •

كان الليل قد أخذ يهبط حين سار أركادى فى طريق العودة الى البيت . فلما وصل الى ضفة نهر نيفا ، توقف لحظة ، فحذق الى الأفق البعيد عند منحدر النهر . هنالك ، كان الهواء الكثيف والضباب البارد الكابى يلتهبان فجأة بأواخر الشعل من أول الغروب . كان الليل يهبط على المدينة . وكانت صفحة الماء المتجلدة المحدودة المخددة بحلقات من تلج قاس تعكس على كل امتدادها الواسع أواخر أشعة الشمس الغاربة تراقصا متلاثما على صفائح الجليد التى لا يحصى عددها .

كانت درجة الحرارة قد هبطت الى العشرين تحت الصفر . . . ان بخارا أبيض يحيط بالخيول المتوقفة عجزا عن متابعة السير ، وبالناس الماشين بخطى سريعة . والهواء الكثيف يرجع أيسر صوت . وفوق سطوح جميع المنازل المصطفة على الأرصفة تتصاعد فى السماء الباردة أعمدة عالية من دخان ، يختلط بعضها ببعض ، ثم يفترق بعضها عن بعض . لكأن مباني أخرى كانت تنبثق فى الجو فتشكل مدينة جديدة فوق المدينة القديمة . كان العالم - بجميع ساكنيه ، الأقوياء منهم والضعفاء ، وبجميع مساكنه ، أكواخ الفقراء منها وقصور العظماء على هذه الأرض - كان هذا العالم كله يبدو فى تلك الساعة من المساء أشبه بسراب عجيب ، أشبه بحلم مصيره الى الزوال هو أيضا ، مصيره الى أن يتبخر دخانا فى السماء الزرقاء الداكنة .

وهذه فكرة غريبة تنبثق فجأة فى ذهن رفيق المسكين فاسيا ، فى ذهن الرفيق الذى أصبح الآن وحيدا . ارتعش أركادى . كأن دما أشد حرارة يتدفق الآن الى قلبه ، تحركه عاطفة قوية لم يعرفها قبل اليوم . لقد بدا له أنه يفهم الآن كل ذلك القلق الذى دفع فاسيا الى الجنون ، ويدرك السبب الذى جعل فاسيا يفقد عقله من عجزه عن احتمال سعادته .

اختلجت شفتا أركادى ، وسطع لهيب فى عينيه •• واصفر وجهه ، وشعر
أنه عرف فجأة ، فى هذه اللحظة نفسها ، حقيقة جديدة •

أصبح أركادى حزين النفس متجهم الطبع • فقد مرحه القديم •
كره منزله ، فاتخذ لنفسه سكنا آخر • ولم يطق أن يذهب بعدئذ الى
جماعة كولومنا • وبعد سنتين صادف ليزانكا فى الكنيسة • كانت الفتاة
قد تزوجت • هذه مرضعة تسير وراءها حاملة على ذراعها طفلا صغيرا •
حياها وحيته ، ولكنهما تجنبا الحديث عن الماضى • قالت ليزا انها سعيدة
ولله الحمد ، وأن العسر قد زاولها ، وان زوجها رجل طيب شهم ، وانه
يحبها •• ولكن عينيها فاضتا بالدموع فجأة قبل أن تكمل جملتها ، وتحطم
صوتها ، فحولت وجهها ومالت على عمود من أعمدة الكنيسة تخفى ألما ••

حواش

الفقراء

- صفحة
- ٥٩ - النص مستمد من قصة « الميت الحى » (١٨٣٨) التى كتبها الأمير فلاديمير ف أوديفسكى ، الكاتب الرومانسى .
- ٦٠ - « فرفارا » هو النطق الروسى لاسم بربارا . ويصغره الروس على سبيل التودد قائلين : فاريا ، فارنكا . و « ماتوشكا » كلمة روسية معناها « الأم الصغيرة » ، تخاطب بها الفتيات تحببا وتوددا .
- ٦٢ - محاكاة مضحكة للبيت الأول من قصيدة لرمونتوف : « ليتنى كنت طائرا ، ليتنى كنت غرابا من غربان الفياقى » .
- ٦٣ - « البارون برامبثوس » ، هو الاسم الأدبى المستعار للأستاذ أوزيب سنكوفسكى ، المستشرق البولونى الأصل ، الذى كان ادبيا خصبا ، وكان يصدر مجلة « غرفة القراءة » .
- ٦٦ - « ديفوشكين » اسم مشتق من كلمة ديفوشكا ومعناها الفتاة .
- ٦٩ - « دوبروزيولوفا » اسم منحوت من كلمتى « دوبروى » و « زيلو » ومعناها « القرية الجميلة » ؛ ويمكن أن نرى فى ذلك اشارة الى الطفولة السعيدة فى الريف .
- ٧٨ - « تيريز » و « فالدونى » ، هما من أبطال رواية نيكولا ليونار (١٧٤٤ - ١٧٩٣) التى ترجمت الى الروسية سنة ١٨٠٤ .
- ٨١ - « بيكوف » اسم مشتق من كلمة « بيك » ومعناها الثور ، اشارة الى ما يتصف به طبع السيد بيكوف من قسوة وشراسة .

صفحة

- ٨٢ - « فولكوفو » مقبرة فقيرة تقع في جنوب سان بطرسبرج .
- ٩٤ - « بوكروفسكى » اسم مشتق من اسم عيد « بوكروف » الذى يحتفل به في أول تشرين الأول (أكتوبر) . ان هذه الاسماء نموذجية عند أتباع الكنيسة الارثوذكسية .
- ١٠١ - « باتنكا » ، مصغر بيتر (بطرس) ، والتصغير للتحجب .
- ١١٤ - ظهرت الطبعة الأولى من « أعمال بوشكين الكاملة » بعد وفاته في أحد عشر مجلدا (١٨٣٨ - ١٨٤١) .
- ١٣٤ - « راتازيف » اسم مشتق من كلمة راتازى ، ومعناها المتسكع ، فكذلك سخر دوستويفسكى من الكاتب الصغير باطلاق هذا الاسم عليه .
- ١٤٠ - ارمالك تيموفيتش ، قائد قوزاق الدون الذى احتل سيبيريا الغربية سنة ١٥٨٣ .
- ١٤٤ - ترجمت روايات بول دو كوك (١٧٩٤ - ١٨٧١) كثيرا وقرئت كثيرا في روسيا . وكان الناقد الشهير بيلنسكى يقدر اتجاهها الواقعى .
- ١٤٦ - « أقاصيص بيلكين » ، تأليف بوشكين ، ظهرت سنة ١٨٣١ .
- ١٥٣ - استاذ الفلسفة جالنتش ، نشر بسان بطرسبرج سنة ١٨٣٤ كتابا جامعا بعنوان : « صورة الانسان ، دراسة تستبطن النفس البشرية وتنفع قراءتها جميع الطبقات المستنيرة » .
- ١٥٣ - « الصبى الذى يلعب بالأجراس الصغيرة » ، بهذا العنوان صدرت بموسكو سنة ١٨١٠ الرواية العاطفية التى كتبها ذكرى دومينيل (١٧٦١ - ١٨١٩) ، وكان عنوانها الاصلى « فكتور أو صبى الغابة » ، وقد نالت هذه الرواية في حينها نجاحا كبيرا ، وأعيد طبعها بالروسية مرارا .
- ١٥٣ - « طيور ايبيكوس » ، قصيدة لشيللر ، ترجمها الى الروسية الشاعر ف . جوكوفسكى سنة ١٨١٣ .

- ١٥٣ - « ناظر المحطة » قصة من « حكايات بيلكين » للشاعر الروسى الكبير بوشكين . وهى تروى قصة مؤثرة عن ناظر المحطة المسكين ، صمصون فيرين ، الذى اختطف ضابط غنى بنته .
- ١٥٥ - فى شارع نفسكى وعلى أرصفة النهر كانت تقوم الأحياء الارستقراطية بالعاصمة .
- ١٥٦ - « المعطف » قصة جوجول الشهيرة ، ظهرت سنة ١٨٤٢
- ١٥٩ - « الجنرال » هو رئيس المكتب : كان الموظفون المديون الذين ينتمون الى الطبقات العليا يحق لهم أن يخاطبوا بلقب صاحب المعالى أو صاحب السعادة ، وكانوا يشبهون بالجنرالات ، وكانوا يسمون أحيانا بالجنرالات المديين .
- ١٩٦ - « لوفلاس » اسم الشاب الذى يغوى الفتيات فى الرواية العاطفية « كلاريسا هارلو » (١٨٤٧) التى كتبها ريشارد مون . وقد ترجمت هذه الرواية الى الروسية وقرئت كثيرا
- ٢٠٩ - « فوتنانكا » قناة متفرعة من نهر نيفا فى وسط العاصمة .
- ٢١٠ - « جوروخوايا » ، شارع كبير فى وسط سان بطرسبرج .
- ٢٣١ - أغلب الظن أنها « نحلة الشمال » ، الجريدة السياسية الأدبية التى كان يصدرها الكاتب الرجعى فاداي بولفارين ، البولونى الأصل .

المثل

- ٢٦١ - « جوليادين » اسم مشتق من اسم قبيلة جولياى التى ورد ذكرها فى التاريخ الروسى فى القرن الحادى عشر ، على أن الصلة التى بين هذا الاسم وبين كلمة « جون » (أى الفقير أو العريان) يمكن أن تكون اشارة الى فقر شخصية الرواية .
- ٢٧٠ - « روتنسيتس » مقلوب كلمة سبتسروتن الألمانية ومعناها « الأسواط المدببة » وهى ذلك القصاص الرهيب الذين استورده الجيش

- الروسي من ألمانيا في القرن الثامن عشر . ان في تسمية الطبيب
بهذا الاسم اشارة الى شراسة طبعه .
- ٣٥٩ - الكونت جوزيف دو فيليل (١٧٧٣ - ١٨٥٤) ، هو رئيس
الوزراء في عهد « الاصلاح » من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ .
- ٣٥٩ - الوزير مارزيميريس - هو شخصية « قصة مغامرات ميلورد
جورج مع المركيزة فردريكا براندينبورج والملكة تيريز
دوسارديني » ، والقصة من تأليف م كوماروف ، وقد نشرت
سنة ١٧٨٢ وراجت رواجاً كبيراً (ظهرت الطبعة التاسعة منها
سنة ١٨٣٩) .
- ٣٥٠ - آ . ف . سوفوروف (١٧٢٩ - ١٨٠٠) جنرال روسي عرف
بانتصاراته وغرائب سلوكه .
- ٣٦٠ - « آخر أيام بومبئي » ، لوحة للرسم شارل برولوف ، وهو
روسي من أصل فرنسي . واللوحة صورة مؤثرة رسمت في
ايطاليا ونقلت الى سان بطرسبرج وعرضت بها سنة ١٨٣٤ ؛
وقد حظي هذا العرض بأعجاب شديد ، وكتبت في اللوحة مقالات
تقريظ كثيرة ، من بينها مقالة كتبها جوجول .
- ٣٨٢ - جرشكا (جريجوري) أوتريف ، هو « ديمتريوس المزيف »
الذي استولى على العرش سنة ١٦٠٥ بدعوى انه ابن حنا
الرهيب ، وقتل سنة ١٦٠٦ .
- ٤٣٥ - ترجمة روسية لكتاب لوفى دو جوفرى المعنون « مغامرات الفارس
دو فوبلاس العاطفية » ، وكان قد ظهر بين سنتي ١٧٩٢
و ١٧٩٦ في أحد عشر جزءاً صغيراً .
- ٤٥٩ - « رسول شرطة سان بطرسبرج » ، جريدة تأسست سنة
١٨٣٩ ، وأصبحت تصدر يومية منذ سنة ١٨٤٤ .
- ٤٧٠ - المهاجرة فالبالا ، مديرة مدرسة داخلية للبنات ، والاسم قد
اخترعه بوشكين ساخراً في قصيدته الهجائية « الكونت نولين » .

قلب ضعيف

- ٥١٤ - ليزا ، ليزانكا ، هما تصغير اسم ليزافتا (اليزابت) .
- ٥١٥ - جوليان ماستاكوفتش هو رئيس المكتب الذى يعمل فيه فاسيا .
وقد اشتق دوستويفسكى اسم ماستاكوفتش من كلمة ماستاك
الروسية ومعناها الرجل الحاذق الماكر ، اشارة الى طبع هذه
الشخصية .
- ٥٢٢ - بطرسبرجسكايا ستورونا « ، حى فى شمال نهر نيفا .
- ٥٢٢ - « كولومنا » ، ضاحية فى الجنوب الشرقى من العاصمة .
- ٥٢٣ - « مانون ليسكو » ، بطلة الرواية الشهيرة التى كتبها الكاهن
بريفو ، وقد ظهرت سنة ١٧٣١ ، وترجمت الى الروسية
وأصابت نجاحا كبيرا .

فهرس

الموضوع	الصفحة
حياة دستويفسكى	١١
تقديم	٥١
الفقراء	٥٧
المثل :	
الفصل الأول	٢٦١
الفصل الثانى	٢٧٢
الفصل الثالث	٢٨٩
الفصل الرابع	٣٠٣
الفصل الخامس	٣٢٢
الفصل السادس	٣٣٣
الفصل السابع	٣٥٣
الفصل الثامن	٣٦٦
الفصل التاسع	٣٨٦

الصفحة	الموضوع
١١٤	الفصل العاشر
١١٥	الفصل الحادى عشر
١٦٢	الفصل الثانى عشر
١٨٢	الفصل الثالث عشر
٥٠٥	قلب ضعيف
٥٧٩	حواش

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الثامن</u>	<u>المجلد الأول</u>
الجريمة والعقاب - ١.	الفقراء المثل قلب ضعيف
<u>المجلد التاسع</u>	<u>المجلد الثاني</u>
الجريمة والعقاب - ٢.	نيوتشكا نرفانوفنا الليالي البيضاء بروخاروشين الجاراة المهرج السارق الشريف البطل الصغير قصة في سبع رسائل شجرة عيد الميلاد والزواج زوجة أخرا ورجل تحت السرير
<u>المجلد العاشر</u>	<u>المجلد الثالث</u>
الأنبلة - ١.	قرية ستيان تشيكوفوسكانها حلم العم
<u>المجلد الحادي عشر</u>	<u>المجلد الرابع</u>
الأنبلة - ٢.	مذلولون مهانون
<u>المجلد الثاني عشر</u>	<u>المجلد الخامس</u>
الشياطين - ١.	ذكريات من منزل الأموات
<u>المجلد الثالث عشر</u>	<u>المجلد السادس</u>
الشياطين - ٢.	في قبوي قصة اليمه ذكريات شتاء عن مشاعر صيف التمساح
<u>المجلد الرابع عشر</u>	<u>المجلد السابع</u>
المراهق - ١.	المقامر الزوج الأبدي
<u>المجلد الخامس عشر</u>	
المراهق - ٢.	
<u>المجلد السادس عشر</u>	
الأخوة كارامازوف - ١.	
<u>المجلد السابع عشر</u>	
الأخوة كارامازوف - ٢.	
<u>المجلد الثامن عشر</u>	
الأخوة كارامازوف - ٣.	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كائناً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين الميائين" فاذا عالج مشكلات ماتنك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لو يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر ن سرلوفيف